جابرييل جارثيا ماركيز

أن تعيش لتحكي

ترجـمـة وتقـديم :
د. طلعت شـاهين



سنابل للنشر والتوزيع

2003

هذه هى الترجمة الكاملة عن الإسبانية لكتاب:

Vivir Para Contarla

تأليف:

Gabriel Garcia Marquez

طبعة:

MONDADORI Madrid 2002

أن تعيش لتحكي



سنابل للنشر والتوزيع

الإشراف العام :
د. طلعت شاهين

مدير التحرير:
علي حامد



أن تعيش لتحكي

سيرة ذاتية

المؤلف :
جابرييل جارثيا ماركيز

ترجمة وتقديم :
د. طلعت شاهين

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٣
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٣٣٦٠
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
977-5634-05-9

المراسلات:
ص.ب.: 22
الحي المتميز ـ مدينة 6 اكتوبر
مصر

Tel.:
(202) 835 40 69
Mob.:
012 225 07 87

e-mail:
darsanabel@maktoob.com

صور الغلاف :
أرشيف سنابل للنشر والتوزيع
تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

الحياة ليست ما عاشها الواحد منا،
بل ما يتذكرها،
وكيف يتذكرها،
ليحكيها.

تقديـــم

لم يتوقع أحد أن يقوم الكاتب الكولومبي الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢، بكتابة مذكراته الشخصية وإصدارها في كتاب أو عدة كتب، لأنه لم يكن معروفاً عنه أنه يميل إلى ذلك النوع من الكتابة، خاصة أنه كان يعلن دائمـــاً أن رواياته هي إعادة لكتابة حياته التي عاشها، وبشكل خاص ذكرياته خلال الطفولة التي عاشها في بيت جده "الكولونيل" السابق في الحرب الأهلية والـــذي قضـــى عمره في انتظار رسالة حكومية تشكره على شجاعته وتكافئه علـــى حُســـن بلائه من أجل الوطن بمعاش مالي يقيه شر الحاجة والفقر الذي كان يعيش فيه في قرية "آراكاتاكا" التي تقع على نهر "ثيناجا" في قلب مزارع المـــوز الشـــهيرة، التـــي كانـــت تسيطر الشركات الأمريكية من خلالها على مقـــدرات الـــبلاد، ومـــن ثم فإنه لا مجال لكتابة مذكرات شخصية، لأن تلك المذكرات تتضمنها رواياته التي كتبها طوال حياته منذ إصداره أول مجموعة قصصية قبل نصف قرن من الزمان.

لكن عندما وقف الكاتب أمام الجمهور في مهرجان كبير في المكسيك، قبل ثـــلاث ســـنوات، ليقرأ صفحات كتبها عن حياته الخاصة، اكتشف أنها عقدت ألسنة الواقفين والجالسين، وكانت الكتابة التي قرأها "جابربيل جارثيا ماركيز" عـــبارة عـــن ذكرياته وقت أن كتب روايته التاريخية "الجنرال في مصيدته"، وكـــيف أن تلك الرواية وليدة لمذكرات الجنرال التي قرأها الكاتب، لكنه أعلن أن هـــذه الكـــتابة التـــي يعتبرها البعض مذكرات شخصية ليست سوى بعض الكتابات التي قرر أن يسجل فيها أشياء خاصة بحياته حسب ترتيبها التاريخي.

وهذا الجزء الأول الذي بدأ به جابربيل جارثيا ماركيز مذكراته يقص فيه

جـــزءاً مـــن حـــياته منذ أن قرر أن يمتهن مهنة الكتابة حتى يتوقف عند عام ١٩٥٥، أي عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره.

الجزء الأول من تلك المذكرات الذي حمل عناوين كثيرة منذ بدء التفكير فـــي الكـــتابة حتى انتهى به إلى عنوان: "أن تعيش لتحكي" ظل سراً طوال ما يقرب من ثلاثة عشر عاما لم يُصرِّح خلالها الكاتب الكبير أنه يريد أن يقص مـــا مـــر به من أحداث، ولكن بعد نجاح قراءة هذا الفصل خرج عن صمته ليصرح أنه عاد ليكتب تلك المذكرات، ولكن كان عليه أن ينفصل عن تاريخه الروائـــي المعروف، وليبدأ من جديد عملية تعلم الكتابة حتى يستطيع أن يجد الشكل الفني المناسب والمقبول لكتابة مذكراته بحيث تصل رسالته إلى القارئ بشكل متميز.

ثم ذكر بعد ذلك في حديث مع بعض القنوات التليفزيونية أن كتابة ذكرياته كانـــت تحـــتاج إلى شكل خاص من النثر الفني، ولا تصلح معها الكتابة التي اعـــتاد ممارســـتها في أعماله الروائية والقصصية وحتى عند ممارسته مهنة كـــتابة الســـيناريو السينمائي التي أجادها وبرع فيها، ومنذ أن قرر كتابة تلك المذكـــرات ظل يعيش بإحساس طفولته وفترات شبابه الأولى، وهي أحاسيس كانـــت تواجهه طوال تلك الفترة ويلتقي بها في طريقه أينما ولى وجهه، وكان إحساســـه أكبر بأهمية كتابة هذه المذكرات عندما كان غارقاً في كتابة روايته "الجنرال في مصيدته" التي اعتمد فيها على تاريخ حياة الجنرال سيمون بوليفار محـــرر أمريكا اللاتينية من الاستعمار الإسباني، فكان يخرج من عملية كتابة تلـــك الـــرواية فـــي بعـــض الأحيان ليسجل نقاطاً يحتاجها في كتابة مذكراته الشخصية التي كانت تلح عليه.

بعـــد تلـــك الـــرواية عادت إليه أحاسيس الطفولة وفترات الشباب الأولى وأصـــبح يشعر بالأحاسيس التي كان يشعر بها في تلك الفترات، بل ويشم من

حوله روائح تلك الفترة، لكن تقاطعت مع تلك الفترة رغبته في كتابة الرواية، فـترك مذكـراته ليبدأ كتابة روايته "الحب وشياطين أخرى"، وعاد أيضا إلى ممارسة الكتابة الصحافية، فانشغل بالمشاركة في إنشاء قناة إخبارية تلفزيونية فـي كولومبيا، وأنشأ "مؤسسة الصحافة الجديدة في أمريكا اللاتينية" التي تضم حلقـات ومعـامل بحث وتطوير لتدريب الصحافيين الشبان في مجموع دول أمـريكا اللاتينية، وتبعها إنشغاله بالأخطار التي كان يتعرض لها الصحافيون في بلاده على أيدي تجار المخدرات والجماعات المسلحة الأخرى التي تتقاتل فـي بـلاده كولومبيا فكانت رواية "نبأ اختطاف" الصادرة عام ١٩٩٦، والتي تعالج واقعة خطف حقيقية.

مارس جابرييل جارثيا ماركيز نشاطاً سياسياً ملحوظاً بعد هذه الرواية في محاولة منه للبحث عن وسيلة تعيد الهدوء والسلام لبلاده التي كانت ولا تزال تعيش أقدم حرب أهلية في العالم، لكن اكتشاف إصابته بالسرطان عام ١٩٩٩، جعلته يتوقف قليلاً عن هذا النشاط المحموم فينحصر نشاطه في التنقل ما بين العاصـمة المكسـيكية التي اتخذ منها مقراً دائماً للإقامة الدائمة ومدينة لوس أنجليس الأمريكية حيث كان يتلقى علاجاً كيماوياً للسرطان، وكانت تلك فترة عصـيبة مـن حـياته واجه فيها الموت عدة مرات، على الرغم من بيانات التكذيب الصادرة من المحيطين به لنفي إشاعة إصابته بهذا المرض الخطير.

وربمـا كـان نشـره للفصل الأول من مذكراته بشكل منفرد في جريدة البايـيس عـام ١٩٩٨، كان نوعاً من الرد على من أشاعوا خطورة مرضه، واقتراب لحظات موته، تناول في هذا الفصل ذكريات رحلته الأولى إلى قريته "بارانكـيا" لبـيع بيت الجد القديم، ودور أمه في تخفيف وقع اتخاذه من مهنة الكتابة حرفة لكسب عيشه على الأب الذي كان يحلم له بمستقبل أكثر بريقاً من تلك المهنة التي لا تجلب سوى الشقاء على من يحترفها.

خـــلال كتابـــته لهـــذا الجزء الأول من مذكراته وصل إلى ما يزيد على تســـعمائة صــــفحة، وهـــو بلا شك عدد كبير من الصفحات يجعل قراءة تلك المذكـــرات أمراً صعباً، من هنا جاءت مرحلة المعاناة مع الحذف والتخفيف، وإعادة الصياغة التي بدأت عام ٢٠٠٠ لتنتهي عام ٢٠٠٢ بحذف ما يقرب من ٣٠٠ صفحة من تلك الكتابة، لتصبح تلك المذكرات في ٥٩٦ صفحة فقط.

خـــلال كتابة مذكراته، كان جابرييل جارثيا ماركيز يخشى اطلاع أي من أصـــدقائه على المخطوطة قبل اكتمالها، لكنه لم ينجح في إخفائها على صديقه الحمـــيم الكاتب الكولومبي أيضاً والمقيم في العاصمة المكسيكية أيضاً: "الفارو موتيس" أحد كبار شعراء وروائيي كولومبيا المعاصرين، والحائز على جوائز أدبـــية عديدة منها جائزة ثرفانتيس، الذي قرأ هذه المذكرات خلال ثمانية أيام متتالـــية، حيث كان يقرأ فصلاً كل يوم، وليعلن بعدها أن هذا الكتاب ليس فقط مذكـــرات شخص عاش وخبر الحياة، وإنما هو كتاب يمكن التعامل معه على أنه أحد الكتب المرجعية المهمة في تاريخ الأدب العالمي.

نشر هذه المذكرات أو اختيار دار نشر لها لم تكن مسألة سهلة، بل كانت مســـألة صعبة للغاية، فقد تكالبت دور النشر عليه، وتحول الأمر كما لو كان أقرب إلى عملية مزاد علني، فالكتاب مضمون بيعه ومكاسبه بالتالي مضمونة، وظـــل الصراع بين دور النشر الكبرى يشتعل لفترة طويلة لينتهي في النهاية إلـــى دار نشـــر "موندادوري" التي تُعتبر داراً متوسطة الأهمية، ويرجع ميل المؤلـــف إلـــى هذه الدار إلى أنها الدار التي اكتشفته، وغامرت بنشر أعماله الأولـــى قـــبل أن تتحدد ملامح الكاتب الذي يمكنه أن يحوز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢.

لكن ظل تاريخ نشر الجزء الأول لهذه المذكرات لغزاً بين جابرييل جارثيا ماركـــيز ودار النشر، نظراً لإصرار الكاتب على مراجعة كل صغيرة وكبيرة

قبل نشر الكتاب، وحتى يتم تحديد موعد نهائي حدثت مشادات وتراجعات من المؤلــف أحياناً ومن دار النشر في أحيان أخرى، وأخيراً تقرر أن يكون يوم ١٠ أكــتوبر الجاري، وربما لعبت الصدفة أن يكون هذا التاريخ له معنى في حــياة شــعوب أمريكا اللاتينية، فهو يقع قبل يومين فقط من الاحتفالات التي تقيمها تلك الشعوب لتخليد ذكرى اكتشاف العالم الجديد ودخول اللغة الإسبانية إلى تلك البلاد.

صـــدرت هذه المذكرات يوم ٩ يناير أكتوبر ٢٠٠٢ في طبعة من مليون نســخة تم تقديمها في كل من برشلونة (إسبانيا) وبوجوتا (كولومبيا) وبوينس أيريس (الأرجنتين) ومكسيكو (المكسيك)، في وقت واحد، لتكون أضخم طبعة لكــتاب واحد في التاريخ. ولا يعرف أحد ولا الكاتب نفسه عدد الأجزاء التي ستصـــدر لاحقــاً لاســتكمال هذه المذكرات، ولكن دار النشر أعلنت أن لديها جزأيــن آخريــن تُعدهما للنشر في وقت لاحق، ويقول البعض إنه ربما يصل عدد أجزاء هذه المذكرات إلى أكثر من خمسة أجزاء، وهناك من يبالغ ويتوقع أن يصل عدد أجزاء هذه المذكرات إلى ثمانية أو تسعة، نظراً لشخصية الكاتب التــي عاشت أحداثاً جساماً، وممارسته مهنة الصحافة قبل وبعد حصوله على جائــزة نوبــل لــلآداب عــام ١٩٨٢، وتعــدد مواهبه التي تنقَّلت به ما بين الريبورتاج الصحفي والقصة القصيرة والرواية والسيناريو السينمائي.

د. طلعت شاهين

مدريد فى ٧ يناير ٢٠٠٣



١

طلبــتْ مني أمي أن أرافقها لبيع البيت، كانت قد وصلت هذا الصباح من تلك القرية البعيدة التي تعيش فيها الأسرة، ولم تكن تعرف أين يمكنها أن تعثر علـــي، وبسؤالها بعض الأصدقاء والمعارف هنا وهناك، أشاروا عليها بالبحث عني في المكتبة العامة، أو في المقاهي القريبة من المكتبة، تلك المقاهي التي أذهب إليها يومياً في الواحدة والسادسة مساء للتسلي بالحديث مع الأصدقاء من الكُتَّاب، ومن أخبرها عن مكاني حَذَّرها: "كوني حذرة في تعاملك معهم، إنهم مجانين".

وصـــلت أمـــي في الثانية عشرة تماماً، فتحت طريقها مباشرة بين أكوام الكتب المعروضة وهي تسير بمشيتها الخفيفة. وقفت أمامي مباشرة، ونظرت في عيني بابتسامتها الخبيثة المعروفة عنها منذ أيامها الطيبة_ وقبل أن أستعيد توازني، قالت لي:

"أنا أمك".

شـــيء ما تغيَّر فيها لم يجعلني أتعرف عليها منذ الوهلة الأولى، كانت في الخامسة والأربعين من عمرها، ولم نكن قد التقينا منذ أربع سنوات. لو حسبنا المواليد حيث ألقت بأطفالها الإحدى عشر إلى العالم، إضافة إلى عشر سنوات مـــن الانـــتظار ومـــثلها لتربية أولادها، فإننا نجد أن الشيخوخة أصابتها قبل موعدهـــا. كانـــت عيناها الواسعتان تحملقان في من خلف عويناتها مزدوجة الـــزجاج، وكانت ترتدي السواد الكامل الجاد حزناً على موت أمها الذي وقع قـــبل قلـــيل، لكنها كانت لا تزال تحافظ على ذلك الجمال الروماني الذي بقي كاملاً في صورة زفافها، وتحوّل الآن إلى نوع من الجمال الأرستقراطي. قبل كل شيء، وقبل أن تعانقني، قالت لي بطريقتها الرسمية المعروفة عنها دائماً:

"جئت أطلب منك جميلاً، أن ترافقني لبيع البيت".

لـم تقل لي أي بيت، ولا أين يوجد هذا البيت، لأنه بالنسبة لنا لم يكن لنا سـوى بيت واحد في هذا العالم: بيت الأجداد القديم في "آراكاتاكا"، الذي كان مـن حظي أن أولد فيه، والذي خرجت منه بلا عودة قبل أن أكمل الثامنة من عمـري. في تلك اللحظة التي جاءت فيها أمي، كنتُ تركت الدراسة في كلية الحقوق بعد ستة أشهر من بدء الدراسة، وقررت التفرغ تماماً للقراءة والكتابة، وأحفـظ عـن ظهر قلب أشعار العصر الذهبي الإسباني. قرأت جميع الكتب المؤلفـة والمـترجمة عـن تعلّم فن كتابة الرواية، ونشرت أربع قصص في ملاحق الصحف، أثارت تشجيع أصدقائي ولفتت انتباه بعض النقاد. كنت على وشـك أن أُكمل الثالثة والعشرين من عمري في الشهر التالي، أصبحت هارباً مـن أداء الخدمـة العسكرية، أدخن ستين سيجارة في اليوم بلا توقف، أوزع أوقات فراغي ما بين "برانكيو" و"كارتاخينا دي اندياس" على شاطئ الكاريبي فـي كولومبـيا. كنت أحاول أن أعيش بكل ما أستطيع من خلال القليل الذي دفعوه لي ثمناً لما كنت أكتبه من أخبار في الصحف، والتي لم تكن تعني شيئاً. كنـت أحـاول أن أنام على أفضل ما أستطيع في أي مكان يفاجئني فيه الليل، أفعـل ذلك ليس حباً في المكان بقدر ما هو قلة ذات اليد، كنت أسبق "المودة" بعشـرين عامـاً: شـارب كث متوحش، وشعر منفوش، وبنطلون كاوبوي، وقمصان مشجرة بزهور كبيرة ملونة. وصندل يشبه صنادل الحجاج الفقراء. سمعت بعض الأصدقاء مرة يتحدثون عني في إحدى صالات السينما المعتمة دون أن يعـرفوا أننـي كنـتُ بالقرب منهم. قالت إحدى الصديقات لرفيقها: "جابيـتو المسكين حالته ميئوس منها". لذلك عندما طلبت مني أمي أن أرافقها لبـيع البيت، لم أمانع في ذلك. أخبرتني أنها لا تملك مالاً كافياً. وحفاظاً على الكرامة، أخبرتها أنني سأتولى مصروفاتي. لم يكن ممكناً الحصول على المال

المطلــوب من الصحيفة التي كنت أعمل فيها، كانوا يدفعون لي ثلاثة بيزات عــن الخــبر اليومي، وأربعة عن كتابة الافتتاحية عندما كان يغيب مُحررها، لكــنها لــم تكن كافية لأعيش منها، حاولت الحصول على قرض، لكن المدير ذكَّرنــي بأنني مدين بما يزيد على ثمنمائة خبر يومي. يبدو أنني طلبت أكثر مما يجب، لذلك لم يكن أي من أصدقائي قادراً على تلبية طلبي. عند خروجي من مقهى "كولومبيا" الواقعة إلى جوار المكتبة، التقيت بالسيد "رامون فينيس"، الأســتاذ وبائع الكتب القطالوني العجوز، وطلُبت منه عشرة بيزات على سبيل الاقتراض، لكنه لم يكن يملك سوى ستة فقط.

لا أمي ولا أنا كان يمكننا تصور أن تلك الرحلة القصيرة لمدة يومين، كان يمكــن أن تكون رحلة حاسمة في حياتي، وحتى أطول حياة يمكن أن أعيشها تجعلنــي أستطيع أن أسيطر على ذلك التأثير. الآن، وبعد أن بلغت السبعين، أعرف أن تلك الرحلة كانت القرار الأهم من كل القرارات التي اتخذتها طوال حياتي ككاتب، أي في حياتي كلها.

لــم أكــن قد زرت "آراكاتاكا" منذ أربعة عشر عاماً، منذ أن مات جدي لأمي، وأخذوني لأعيش مع والدي في "بارانكيا". خلال مراهقتي كانت ذاكرتي أكثر وعياً بالمستقبل منه بالماضي، ذلك أنه عند هذه الزيارة لم تكن ذكرياتي فــي القرية قد تمثلتها الذاكرة بعد. كانت الذاكرة تعي القرية كما كانت: مكان طيب للحياة فيه، حيث كل الناس تعرف كل الناس، قريبة من شاطئ نهر ذي مياه هادئة تهبط من مهد من الحجارة المنحوتة، بيضاء وضخمة، وتشبه بيضاً يعــود إلــى فــترة ما قبل التاريخ. في لحظة غياب الشمس، خاصة في شهر ســبتمبر، وبعــد لحظات المطر الذي يُحَوِّل الهواء إلي قطع من الماء، كانت جبال "سييرا نيفادا دي سانتا مارتا" تبدو كما لو كانت تقترب بصدرها الأبيض مــن مزارع الموز الموجودة على الشاطئ المقابل. من هناك كان يمكن رؤية

الهـنود الحمر يسيرون في طوابير كالنمل الزاحف على جوانب الجبال، وهم يحملـون علـى ظهورهم أحمال الزنجبيل، ويمضغون كرات الكوكا ليوقفوا مسـيرة الحياة. كنا نحن الأطفال نحلم بصنع كرات من الثلوج الأبدية، ونلعب لعبة الحرب على أرض الشوارع الحارقة. فقد كانت الحرارة ثقيلة لا تُحتمل، خاصـة في أوقات القيلولة. الكبار يتشكون من الحرارة كما لو لم تكن مفاجأة كـل يـوم فقط. منذ مولدي وأنا أسمع بلا انقطاع أن خطوط السكك الحديدية ومعسـكرات شـركة "اتحـاد الفاكهة" تم إقامتها ليلاً، لأنه كان من المستحيل الإمساك بالعدد اليدوية الساخنة تحت الشمس.

الطريقة الوحيدة للوصول من "بارانكيو" إلى "آراكاتاكا" هي استخدام قارب بخاري قديم من تلك القوارب التي كانت تسير بقوة دفع تجديف العبيد في زمن الاسـتعمار الإسباني، يسير في تلك المياه العكرة إلى أن يتم الوصول إلى تلك القـرية الغريـبة المسماة "ثيناجواس". من هناك يمكن استخدام القطار العادي الذي كان يوماً من أفضل ما يوجد في البلاد، يسير المسافة المتبقية عبر حقول الموز الشاسعة، مسافة تتخللها وقفات في العديد من القرى المتربة الحارقة، أو المحطـات المـنعزلة. تلك كانت الرحلة التي بدأنا أمي وأنا، في السابعة من مسـاء شهر فبراير عام ١٩٥٠ -كان يوم أحد الكرنفال- السماء تمطر ثلجاً علـى غير العادة، ولم نكن نملك سوى اثنين وثلاثين بيزو احتفظنا بها تحسباً للعودة إذا لم يتم بيع البيت طبقاً لما خططناه له.

كانـت الرياح قوية في تلك الليلة، مما جعلني أبذل مجهوداً كبيراً لإقناع أمـي بالصعود إلى القارب البخاري، كانت محقة في رفضها، المركب عبارة عـن هياكل مشابهة لتلك المعروفة في "نيو أورليانز"، لكنها تعمل بموتورات جـاز تهز أجساد الركاب بشكل عنيف، مُكوَّنة من صالون صغير بخطاطيف لتعليق أسرة "الهاماكا" على مستويات مختلفة، إضافة إلى كراسي من الخشب،

علـــى الركاب أن يحاولوا الجلوس عليها كيفما اتفق، إلى جوار حاجياتهم من البضائع وأقفاص الدجاج، وحتى الخنازير الحية. هناك عدة قمرات بسريرين مـــن تلك الأسرَّة التي تشبه أسرَّة الجنود في المعسكرات، تشغل هذه القمرات بشـــكل شـــبه دائم "عاهرات" من أسفل الدرك في تلك المهنة، يقدمن خدماتهن الســـريعة خلال الرحلة. ولأننا لم نجد قمرة خالية، ولم تكن معنا أسرَّة متنقلة "هاماكـــا"، اســـتولينا عنوة على كرسيين من الكراسي الحديدية الموجودة في الممر الرئيسي، وقررنا تمضية الليلة هناك.

كمـــا كنـــتُ أتوقع، هاجمت العاصفة المركب خلال إبحارها في مياه نهر "المجادليـــنا"، الـــذي كانـــت مياهه في حركتها تشبه مياه المحيط رغم ضيق مجـــراه. اشتريت في الميناء مؤونتي من أرخص أنواع السجائر، المصنوعة مـــن التبغ الأسود الملفوف في ورق جاف مكرمش، وبدأت في التدخين على الفور على طريقتي في تلك الأيام؛ إشعال السيجارة من بقايا السيجارة السابقة. أثـــناء انهماكي في قراءة "ضوء في أغسطس" لوليم فوكنر، ذلك الكتاب الذي كان أقرب الكتب إلى قلبي؛ أمسكت أمي بمسبحتها وبدأت صلاتها وكأنها تشد إلى يديها طائرة معلقة في الهواء، وكعادتها لم تطلب لنفسها شيئاً، كل أمنياتها طـــول العمر والصحة والعافية لأبنائها اليتامى الأحد عشرة. يبدو أن صلاتها وصـــلت إلـــى المكان الذي كانت تتوجه إليه، فالمطر العنيف خَفَّفَ من حدته عندما تعمقنا في مجرى النهر، وهب نسيم خفيف كان كافياً لإزاحة الذباب. ثم قامـــت بإخفاء المسبحة، وبقيت لفترة طويلة تتأمل الصمت وعجيج الحياة التي تجري من حولنا.

ولـــدت أمي في بيت متواضع، وشبت على الحياة المرفَّهة لشركة الموز، وهـــو مـــا أتـــاح لها تعليماً رفيعاً في مدرسة خاصة بأبناء الأثرياء في "سانتا مارتـــا"، وكانت في إجازات أعياد الميلاد تُمارس فن التطريز مع صديقاتها،

وتعـزف الأكورديـون في الحفلات الخيرية وكانت تذهب برفقة عمة لها إلى حفلات الرقص التي كانت تقيمها الأرستقراطية المعروفة في ذلك الوقت، لكن لا أحـد كـان يعرف لها رفيقاً حتى زواجها الفجائي من عامل التلغراف ضد رغـبة والديها. من فضائلها المعروفة حبها للفكاهة وصحتها الحديدية التي لم تستطع الأوضاع السيئة للحياة أن تنال منها، لكن الأكثر إدهاشاً محاولتها إخفاء شخصـيتها القوية بشكل يثير الإعجاب. إنها مجموعة من التراكيب المكتملة، هـذا جعلها تفرض على من حولها سلطة أمومية استطاعت أن تفرضها حتى أبعـد الأقرباء منها في العائلة. كانت سلطتها تبدو كتركيب كوكبي تديره من مطبخها الخاص، بصوت خفيض حاد لا يضيع في غليان زهور المريمية.

مشـاهدة تَقـبُّلها لمتاعـب لـتلك الرحلة المفجعة، يجعلني أتساءل كيف اسـتطاعت الدخول بسرعة في بؤس الفقر والظلم، ولم يكن هناك أفضل من تلك الليلة لامتحان قدرتها العجيبة. ما بين الذباب القاتل والحر الثقيل، والمثير للغثـيان بسـبب تلـك المياه الراكدة التي تقلبها المركب في طريقها، وحركة المسافرين القلقين الذين لم يعجبهم حال الرحلة، كما لو كان كل هذا مُعداً بشكل مسـبق لامـتحان قدراتها. كانت أمي تحتمل كل هذا ساكنة في كرسيها، فيما كانـت فتـيات اللـيل تُمارسن عملهن في قمراتهن القريبة. إحداهن خرجت ودخلـت عـدة مرات من قمرتها الملتصقة بكرسي أمي، وفي كل مرة تتأبط ذراع رجـل مخـتلف. اعتقدت أنها لم تلاحظ هذا، لكنها في المرة الرابعة أو الخامسة التي خرجت ودخلت فيها الفتاة خلال ساعة واحدة، تابعتها أمي بنظرة أسف حتى نهاية الممر، ثم تنهدت:

"مسكينات تلك الفتيات، ما يفعلنه لمواجهة الحياة ألعن من العمل نفسه".

ظللـتُ هكـذا حتى حلول منتصف الليل عندما تعبتُ من متابعة القراءة بسـبب اهتزازات المركب التي لا تُحتمل وأضواء الممر الشاحبة، جلستُ إلى

جوارها أدخن، محاولاً عبور الرمال المتحركة لمقاطعة "يوكناباتوافا". كنتُ قد هربــتُ مــن الجامعـــة قبل عام مضى، في محاولة لممارسة مهنة الصحافة والأدب دون أن أكون في حاجة إلى دراستهما، شجعني على هذا جملة لبرنارد شـــو تقول: "منذ صغري توقفت عن الذهاب إلى المدرسة". لم أكن في حاجة إلـــى مناقشة هذا مع أي شخص، لأنني كنت اشعر أنني غير قادر على إقناع الآخرين، وأسبابي لن تكون مفهومة من أي شخص آخر غيري.

محاولة إقناع والدي بقبول مثل هذا الجنون بعد كل الآمال التي وضعوها في، والأموال التي أنفقوها، كان مجرد تضييع للوقت، خاصة أبى، الذي كان علـــى استعداد للتسامح معي في أي شيء، إلا أن أُعلِّق على الحائط أي شهادة أكاديمية لم يستطع هو شخصياً الحصول عليها. العلاقات بيننا انقطعت تماماً. بعـــد مرور حوالي سنة، حاولتُ أن أزوره لأشرح له أسبابي، لكن أمي عندما ظهرت من جديد طلبت مني أن أرافقها لبيع البيت. مع ذلك، لم تحاول أن تفتح الموضوع معي حتى حلول منتصف الليل، عندما شعرتُ بشيء غير طبيعي يؤكد أنها وجدتْ الطريق إلى الحديث في السبب الرئيسي لزيارتها لي، وبدأت باكتشافها للطريقة ورنة الصوت والكلمات الموزونة المناسبة، التي نضجت في غفواتها الوحيدة قبل أن تبدأ الرحلة بفترة طويلة. قالت لي:

"أبوك حزين جداً".

حلتْ لحظة مواجهة الجحيم، إنها تبدأ كالمعتاد في اللحظة غير المتوقعة، بصـــوتها الواثق الذي لا يهتز في مواجهة أي شيء، وسألتها فقط حتى يكتمل الطقس، لأنني كنت أعرف الإجابة مسبقاً:

"لم كل هذا؟".

"لأنك تركت الدراسة".

قلت لها:

"لم أتركها، فقط غيَّرت اتجاه الدراسة".

فكرة الدخول في حوار عميق حول الموضوع زادها حماساً، فقالت:

"أبوك يقول إن الأمر سيان".

قلت لها:

"هو أيضاً ترك الدراسة ليعزف على الكمان".

ردت هي بحيوية:

"الأمر مختلف، كان يعزف الكمان فقط في الاحتفالات والأعياد، وإذا كان قـد ترك الدراسة ذلك لأنه لم يكن يملك شيئاً، لكنه تعلم التلغراف في أقل من شهر، كانت في ذلك الوقت مهنة ممتازة، خاصة في "آراكاتاكا"".

كذبت عليها:

"أنا أعيش من الكتابة في الصحف".

قالت هي:

"أنت تقول هذا لتتكد علي، لكن سوء أحوالك يبدو واضحاً، عندما إلتقيتك في المكتبة لم أتعرف عليك".

قلت لها:

"أنا أيضاً لم أتعرف عليكِ".

قالت هي:

"لكن ليس لنفس السبب، اعتقدت أنك شحاذ".

نظرتْ إلى الصندل القديم، وأضافت:

"وبلا جوارب".

قلت:

"أكــثر راحـــة، قميصان وقطعتان من الملابس الداخلية، إحداهما أرتديها والأخرى تجف، ماذا أحتاج لأكثر من ذلك؟".

قالت هي:

"شيء من الكرامة".

لكــن يــبدو أنها قالت ذلك دون أن تفكر في معناه، لأنها خفّفت من حدة كلامها على الفور:

"أقول لك هذا لأنني أحبك كثيراً".

قلت لها:

"اعرف ذلك، لكن قولي لي شيئا، لو كنتِ مكاني إلا تفعلين مثلي؟".

قالت هي:

"لا أفعل ذلك، لو كان هذا ضد رغبتي والدي".

تذكــرت موقفها المتعنت الذي أجبرت فيه أبويها على قبول زواجها، قلت لها ضاحكاً:

"هل تستطيعين مواجهتي".

لكنها تحاشت كلامي بجدية، لأنها تعرف تماماً ما كنت أفكر فيه. قالت:

"لــم أتــزوج قــبل حصولي على موافقة والدي، كان الأمر صعباً لكنني حصلت على موافقتهما".

قطعتْ النقاش، ليس لأنني استطعت إقناعها، بل لأنها كانت تريد الذهاب إلــى المرحاض، وكانت تشك في حالة المرحاض الصحية. تحدثتُ مع قبطان المركب سائلاً إياه عن مكان أفضل لقضاء حاجتها لكنه أفهمني أنه هو نفسه يســتعمل المــرحاض العــام، أنهى حديثه معي كما لو كان انتهى من قراءة

"كونراد":

"في البحر الجميع سواء".

وهكــذا خضعت أمي لقانون الجميع. عندما خرجت من المرحاض على عكس ما كنت أتوقع، كانت لا تكاد تكتم ضحكاتها، قالت لي:

"تصور، ماذا سيقول أبوك لو عدت بمرض من أمراض الحياة التعسة؟".

بعــد منتصف الليل حدث لنا تأخير مدته ثلاث ساعات، لأن أبواب الدفة علقــت بمراوح المركب، وفقد القبطان السيطرة على الدفة، غرست المركب ممـــا دفع العديد من المسافرين إلى الهبوط لجرها من الشاطئ باستخدام حبال الأســـرَّة المعلقـــة "الهاماكا". درجة الحرارة والأعمدة كانت غير محتملة، لكن أمي تحاشت الأمر بغفوات سريعة من النعاس اللحظي المتقطع، التي أصبحت شهيرة بها في العائلة، والتي كانت تسمح لها بالراحة دون أن تغفل عن الحوار الدائـــر حولهـــا، عندما عادت المركب إلى سيرها المعتاد، وتحركت نسمات الريح، عادت أمي إلى وعيها الكامل. تنهدت:

"على أي حال، يجب أن أحمل لأبيك إجابة على الأقل".

قلت لها بالبراءة نفسها:

"الأفضل له ألا يشغل نفسه بذلك، سوف أذهب إليه في ديسمبر، وأشرح له الأمر.

قالت هي:

"لا زالت هناك عشرة أشهر".

قلت لها:

"على الأقل لا يمكن عمل أي شيء بالنسبة للجامعة".

"هل تعدني جدياً بالذهاب؟".

"أعدك بذلك".

لأول مرة يبدو في صوتها شيء من التشوق:

"هل أستطيع أن أقول لأبيك أنك ستذهب؟".

أجبتها مقاطعاً:

"لا، هذا لا".

كان واضحاً أنها تبحث عن مخرج آخر، لكنني لم أمنحها الفرصة.

قالت هي:

"إذن يجب أن أقول له الحقيقة، حتى لا يبدو الأمر خداعاً".

قلت لها:

"حسناً، قولي له الحقيقة".

اتفقنا على ذلك، من لا يعرفها يعتقد أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لكنني كنـــت أعرف أنها مجرد لحظات من الهدنة تلتقط فيها أنفاسها. بعد قليل نامت بعمـــق، هبـــت نسمة هواء خفيفة هزت الأعمدة ونشرت هواء معبقاً برائحة الزهور. بعدها اعتدلت المركب، وبدت كما لو كانت مركباً شراعياً.

كـــنا في نهر "ثيانجا جراندي"، إنها أسطورة أخرى من أساطير طفولتي، سبحتُ فيه عدة مرات، عندما كان يأخذني جدي الكولونيل "نيكولاس ريكاردو ماركـــيز ميخيا" من "آراكاتاكا" إلى "بارانكيو" لزيارة أبوي. قال لي مرة وهو يتحدث عن تقلبات أحوال مياهه: "لا يجب الخوف من نهر ثيانجا، ولكن يجب احـــترامه"، تـــبدو مياه النهر أحياناً كمياه بحيرة راكدة، وفي أحيان أخرى تبدو كمياه المحيط. في فصل الأمطار يصبح تحت سيطرة عواصف الجبال، وخلال الأشـــهر مـــن ديسمبر إلى أبريل، عندما تصبح الرياح قوية، فإنها تهب عليه وتجعل من كل أمسية مغامرة. جدتي لأمي "ترانكيلينا ايجواران" لم تكن تجرؤ

علــى عبوره إلا تحت ضغط إلحاح قضاء حاجة عاجلة، وجاءها هذا الرعب مــن الــنهر بعد تلك الرحلة العاصفة التي اضطروا خلالها إلى الاختباء حتى الفجر في مدخل النهر.

لحســن الحــظ فإنه في تلك الليلة، خرجتُ عبر نوافذ القمرة لتنسم بعض الهواء قبل الفجر بقليل، كانت أضواء قوارب الصيد الصغيرة تضيء وتنعكس علــى سطح الماء كالنجوم، كانت كثيرة لا يمكن حصرها، والصيادون الذين يخفــيهم الظلام يتحادثون كما لو كانوا في اجتماع عائلي، الأصوات لها رنين قــوي يسبح مع نسمات الفجر ارتكزتُ بكوعي على حافة النافذة، محاولاً تبين شكل الجبال، في تلك اللحظة فاجأتني الذكريات الأولى.

فــي لحظة مثل هذه، كنا نعبر نهر "ثيناجا جراندي"، كان جدي قد تركني نائمــا، وذهب إلى الكانتين، لم أكن أعرف في أي ساعة كنا عندما استيقظتُ على أصوات لأُناس كثيرين تأتيني من خلال فتحات التهوية الصدئة، وقرقعات حوائــط صفيح القمرة الصدئة، لم أكن قد بلغت الخامسة من عمري، شعرت بفــزع كبير، لكن سرعان ما حل الهدوء، واعتقدت أنني كنت في كابوس. في الصباح كنا في نهاية نهر ثيناجا، كان جدي يحلق ذقنه أمام المرآة المعلقة على الجــدار والــباب مفتوح، لا زلت أتذكره جيداً: لم يكن قد ارتدى قميصه بعد، لكــنه كــان يرتدي على ملابسه الداخلية حَمَّالات طلقات الرصاص المطاطية العريضــة ذات الخطوط الخضراء. بينما يحلق ذقنه كان يتجاذب الحديث مع رجــل آخــر لا زلــت اذكر ملامحه، ويمكنني أن أتعرف عليه الآن من أول وهلة، كان يشبه الحمل، لا يمكن أن تخطيء العين هيئته، على ذراعه اليمنى وشم لبحار، وفي عنقه عدة سلاسل ذهبية ثقيلة، وفي كلا رسغيه يرتدي أيضاً أســاور ذهبية. كنت مرتدياً ملابسي أحاول أن أضع قدمي في الحذاء، عندما قال الرجل لجدي:

"لا تشك في هذا يا كولونيل، ما أرادوه هو إلقاء حضرتك إلى الماء".

ابتسم جدي دون أن يتخلى عن حلاقة ذقنه، وبنغمة معروفة عنه، رد عليه:

"من حسن حظهم أنهم لم يحاولوا فعل ذلك".

عندها فقط فهمتُ ما حدث بالليل، فشعرتُ بالرهبة من فكرة أن يقوم شخص ما بإلقاء جدي في نهر ثيناجا. أراه الآن بكل التفاصيل الدقيقة، ويبدو أمامي مرفوعاً على الأعناق كما لو كان "سانشو بانثا" في خمَّارة، ومُلقى على جانب النهر، لكن لحظة حدوث الواقعة كانت قد انمحت من ذاكرتي بالكامل، بعد عشرين سنة عادت تلك الذكريات فجأة إلى ذاكرتي بلا سبب، عادت واضحة وكما حدثت، وعندما كنت أتناول الغداء مع عمي "استيبان كاريو" في أحد مطاعم "ريواتشا" في تلك الفترة التي كنت أبيع فيها كتب الموسوعات والوصفات الطبية.. قاطعاً قرى منطقة "جواخيرا"، وكان الجد وقتها قد مات، قصصتُ الواقعة على عمي استيبان باعتبارها طرفة، لكنه انتفض في قفزة واحدة، وكان غاضباً لأنني لم أقص تلك الواقعة عند حدوثها، وكان متشوقاً إلى التعرف على شخصية ذلك الرجل، حتى يمكنه أن يكشف لنا عن شخصية من أرادوا إغراق جدي، ولم يحاول أن يفهم عدم مقاومة جدي لهؤلاء، خاصة أنه كان يُجيد التصويب وإطلاق الرصاص، وكان لا يترك سلاحه أبداً، ينام والمسدس تحت وسادته، أنه خلال حربين أهليتين كان يقاتل دائماً في خطوط النار الأولى، وفي زمن السلم قتل شخصاً دفاعاً عن نفسه، قال لي عمي استيبان إن الوقت لم يفت بعد بالنسبة له ولأشقائه الكثيرين للانتقام من المعتدين على الجد. إنه قانون "جواخيرا"، على أي فرد من أسرة المعتدي أن يتحمل وزر ما فعله أقرباؤه، وإنه على جميع رجال أسرة المعتدي أن يتحملوا وزر ما حدث. كان عمي استيبان مُصراً على الانتقام، أخرج مسدسه من تحت

الوســـادة ووضعه على المائدة أمامي لحين الانتهاء من التحقيق معي، منذ تلك اللحظة، عندما كنا نلتقي خلال رحلاتنا في منطقة الكاريبي، يعود لتعنيفي لعدم تذكري تلك الواقعة، وفي إحدى الليالي جاء في زيارة مفاجأة لمكتبي بالصحيفة التي كنت أعمل فيها، في ذلك الوقت الذي كنت أحاول فيه أن أجمع معلومات أولية عن أسرتي لكتابة روايتي الأولى، وعرض علي أن نقوم معا ببحث دقيق عـــن ملابسات واقعة الاعتداء على جدي. إن عمي لم يتخل عن فكرة الانتقام أبـــداً، وفي آخر مرة رأيته فيها في "كارتاخينا دي اندياس" وكان قد بلغ أرذل العمر، وقلبه مريض، ودعني بابتسامة حزينة قائلاً:

"لا أفهم كيف استطعت أن تكون كاتباً بتلك الذاكرة السيئة".

ذكرى تلك الواقعة، التي لم تتضح أبداً، فاجأتني في ذلك الفجر الذي كنتُ أتجـــه فيه مع أمي لبيع البيت. وبينما كنت أتأمل الجليد على قمم الجبال التي تلوَّنـــت بـــالأزرق مـــع أشعة الشمس الأولى، منذ تلك اللحظة وحتى اليوم، أصبحتُ أسيراً للذكريات.

التأخـــير فـــي تلـــك اللـــيلة أتـــاح لـــي أن أرى في وضوح النهار تلك المســـاحة الرملـــية التـــي تفصـــل الـــبحر عن نهر ثيناجا، حيث كانت تبدو علـــى مـــرأى البصـــر بـــيوت الصـــيادين التـــي تنتشر عليها شباك الصيد المعرَّضـــة للشـــمس علـــى هـــذا الجزء من الشاطئ، والأطفال يلعبون الكرة المصـــنوعة مـــن الخـــرق. كان مشهداً مدهشاً أن أرى العديد من الصيادين يســـيرون فـــي الشـــوارع بـــأذرع مقطوعـــة بترها الإهمال في سرعة إلقاء الديناميـــت. وعـــندما مـــرت المركـــب، كـــان الأطفـــال يلقون بأنفسهم في الـــنهر ويغوصـــون لالـــتقاط القطـــع المعدنـــية التي يلقيها إليهم المسافرون. كانـــت الســـاعة قـــد تعـــدت الثامنة عندما ألقت المركب بالمسافرين بالقرب مـــن بحـــيرة راكـــدة لا تبعد كثيراً عن قرية "ثيناجا". استقبلنا عدد كبير من

الحماليـــن بأربطـــة ملفوفـــة علـــى ســـيقانهم، وحملونـــا على أكتافهم حتى رصيف الميناء.

بينما كنا نتناول طعام الإفطار ببطء على موائد الميناء، التي يقدمون عليها الخـــبز الممزوج بالموز الأخضر المقلي، استغلت أمي الفرصة لتبدأ شن حملة جديـــدة في حربها الشخصية ضدي. كانت تجلس إلى جواري، ودون أن ترفع بصرها نحوي عادت لتسألني فجأة:

"إذن قُل لي بكل وضوح، ماذا أقول لأبيك؟".

حاولت أن اكسب بعض الوقت قبل أن أجيب على سؤالها:

"عن أي شيء؟".

قالت بشيء من العصبية:

"عن الشيء الوحيد الذي يهمه، دراستك".

كان حُسن حظي أن شخصاً أراد التدخل في الحوار خلال تعجلها للتعرف علـــى أسبابي الخاصة، هذا التدخل لم يصبني بالخرس، بل فاجأها هي نفسها، تلك التي كانت تحاول دائماً أن تخفي مشاعرها الخاصة. قلت:

"أريد أن أصبح كاتباً".

قال الرجل بجدية:

"كاتـــب جـــيد يمكـــنه أن يكســـب أموالاً كثيرة، بالطبع إذا عمل لحساب الحكومة".

لا أعرف إن كانت أمي حاولت إنهاء الحديث تجنباً للخصوصية، أم خوفا مـــن كـــلام الرجل المتطفل، ولكنهما انتهيا معاً إلى الحديث عن ضياع جيلي وعـــدم معرفته لما يريد، وانتهيا إلى التحسُّر على الذكريات القديمة، ثم انتهيا إلـــى التعرف على أسماء لأصدقاء مشتركين، وإذا بهما يكتشفان أنهما أقارب

مـــن ناحية أسرة "كوتيس واجواران". وكان هذا يحدث تقريباً بمعدل اثنين من كـــل ثلاثـــة أشـــخاص نلاقيهم في الشاطئ الكاريبي، وكانت أمي تفرح لهذه المناسبة كما لو كان الأمر مناسبة عائلية.

ذهبنا إلى محطة القطارات مستقلين عربة يجرها حصان واحد، ربما كان الحصـــان الأخـــير من نوعية خاصة بدأت تنقرض من العالم كله، كانت أمي غارقة في التفكير تتأمل السهل المحترق من تأثير المساحات الملحية التي تمتد مـــن الميـــناء وتنتهي في الأفق، كان المكان بالنسبة لي تاريخياً: في يوم من الأيـــام، عـــندما كنت في الثالثة أو الرابعة من عمري، سحبني جدي من يدي عبر ذلك السهل الحارق سيراً على الأقدام بخطوات سريعة ودون أن يخبرني إلـــى أي مكان نحن ذاهبون، وفجأة وجدنا أنفسنا أمام أفق من الماء الأخضر المخطـــط بالـــزبد الأبيض، وكانت تعوم على سطحه أعداد لا حصر لها من الدجاج الغارق. قال لي:

"إنه البحر".

وأنـــا فـــي حالـــة من الغثيان سألته عن ما يوجد على الطرف الآخر من الشاطئ، ودون أن يشك لحظة، أجابني:

"لا يوجد شاطئ على الطرف الآخر".

الـــيوم بعـــد كـــل ما شاهدته من محيطات يميناً ويساراً لا زلت أعتقد أن إجابته كانت إحدى أكبر الإجابات التي كان يقدمها لي عن تساؤلاتي.

لا أذكر متى سمعت الحديث عن البحر لأول مرة، ولا أذكر مشهده الذي دخل ذاكرتي من خلال حديث الكبار عنه، وإن كان جدي حاول أن يريني إياه من خلال قاموسه القديم المهترىء، لكنه لم يعثر عليه، وعندما استعاد توازنه أمام سؤال حاول أن يشرحه لي من خلال تعبيرات تستحق التسجيل، قال:

"هــناك كلمـــات لا يحـــتويها القاموس، لأن الناس جميعا تعرف معناها".
لهذا السبب طلب أن يعيروه من مدرسة "سانتا مارتا" قاموساً موسوعياً بصور ملونـــة، مرســـوم عليها المحيط الأطلنطي في كرة أرضية يحملها إنسان على كتفيه. وكان هذا المشهد أول القواميس العديدة التي حصلت عليها في حياتي، وقـــرأته كما لو كان رواية مقررة على الفصول الابتدائية في المدرسة، تابعت القـــراءة طبقاً للفهرس الأبجدي ودون أن أفهم منه شيئاً، لكن هناك وجد جدي المعنى الدقيق لكلمة "بحر"، التي لم يستطع الحصول عليها في القاموس الآخر:

"مســـاحة ضـــخمة مـــن المـــاء المالح التي تغطي جزءاً كبيراً من الكرة الأرضية".

إزاء هـــذه المعانـــي غـــير المفهومة بالنسبة لي، ما كان يمكنني أن أفهم معـــناها لو لم يأخذني جدي ويضعه أمام عيني، لم تكن أي صورة في ذهني تســـاوي هذا المشهد المرعب، لم يكن بالاستطاعة السير على شاطئه المليء بالبقايا المتعفنة وقطع القواقع. كان مشهداً مقززاً.

ربما كانت أمي تفكر في المشهد نفسه وهي ترى نهر "ثيناجا"، ما إن رأته من خلال نافذة العربة حتى تنهدت:

"لا يوجد بحر مثل بحر ريواتشا".

فـــي هذه الفرصة قصصت عليها ذكرياتي عن الدجاجات الغارقة، وكيف أن الكـــبار كانوا يعتقدون أنها لم تكن سوى تخيلاتي الطفولية، تابعت هي بعد ذلك المشاهد المتتالية في الطريق، وكنت أعرف ما تفكر فيه عن كل مكان من خلال فترات الصمت المتتالية، مررنا أمام حي "توليرانثيا" في الطريق المقابل لخطـــوط الســـكك الحديديـــة، ببـــيوته الصغيرة الملونة ذات الأسقف الصدئة وببغاواتها التي تنادي على الزبائن باللغة البرتغالية من على حلقاتها المعلقة في الأسقف، مررنا أمام موارد تغذية القطارات بالمياه، بخزاناتها المستديرة التي

تنتهز الطيور المهاجرة والنوارس التائهة الفرصة لتنام عليها لالتقاط أنفاسها. مـــررنا أمـــام البيت الكئيب الذي اغتالوا فيه "مارتينا فونسيكا"، ومررنا حول المديـــنة دون أن ندخلهـــا، لكنـــنا لاحظنا الشوارع الكبيرة الخالية من المارة، والبـــيوت القديمة التي فقدت بريقها، كانت من تلك البيوت ذات النوافذ العالية، التـــي كانـــت تنطلق منها نغمات التدريب على آلة البيانو منذ مطلع الفجر بلا انقطاع، وفجأة أشارت أمي بإصبعها، وقالت:

"انظر، هناك حيث كان ينتهي العالم".

تابعـــت أنا إصبعها حيث تشير، رأيت محطة القطارات: كانت مكونة من مبنى من الخشب الكالح، وسقف زنكي مموج، وشرفات مستديرة، في مواجهة مـــيدان صغير لا يستطيع أن يحتوي على أكثر من مائتي شخص، هناك حيث أخبرتني أمي؛ قتل الجيش عام ١٩٢٨ عدداً غير معلوم من عمال الموز.

فاجأتنـــي المعلومات التي قدمتها لي أمي، لأنني كنت دائماً أعتقد أن تلك المذبحـــة كانت في مكان ما أمام محطة "آراكاتاكا"، ومرات عديدة عندما كنت أرافق جدي لاستقبال القطار أستعيد في خيالي ذكرياتها المرعبة: عسكري يقرأ القـــرار الـــذي يعلـــن أن العمال المضربين ينتمون إلى الجماعات الإرهابية، ويمـــنح العسكري آلاف الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا ينتظرون تحت الشـــمس الحارقة مهلة من خمس دقائق لإخلاء الميدان، ثم أسمع أمر إطلاق الـــنار، وأســـمع طلقات الرصاص ذات الأزيز، والجمع يسيطر عليه الرعب، ويخلي الميدان شبراً شبراً، بينما المدافع الرشاشة لا تتوقف عن إطلاق النار، اعـــتقد أن جـــدي كان على علم بتخيلاتي المزيفة، فقد سألته مرة في محطة "آراكاتاكـــا" أيـــن كانوا يضعون المدافع الرشاشة، كان هو يقرأ رسالة تلقاها، ودون أن ينظر إليّ، أشار إلى سقف بعض عربات القطار وقال:

"هناك".

ثم واصل بعدها قراءة الرسالة، ما أن انتهى من قراءتها حتى قام بتمزيقها قطعاً صغيرة ليتأكد أن زوجته لن تقرأها، ثم سألني مندهشاً:

"ما الذي كنت تريد أن تعرفه عن المدافع الرشاشة؟".

قدرتـــي علـــى تصوير بعض الأشياء كما لو كانت أشياء عشتها بنفسي، كانت في طفولتي كبيرة جداً، وهذا سبَّبَ لي الكثير من اختلاط الذاكرة، لكنها لـــم تكـــن أبـــداً مـــثل تلك التي كنت أعتقد فيها أن المذبحة وقعت في محطة "آراكاتاكا"، مع ذلك، فإن تأكيد أمي لا يقبل الجدل، خاصة بعد أن سألتها عن عدد القتلى، فقد أجابتني بالطريقة نفسها:

"سبعة".

ثـــم نبهتنـــي علـــى الفـــور ألا آخذ الرقم على أنه مؤكد، لأنه يوم وقوع المذبحة، سمعتْ هي أن عددهم يتعدى المائة، ثم بدأ العدد بعدها يتناقص شيئاً فشـــيئاً إلـــى اللاشـــيء، ولم يعد من ذكرياتي أي شيء قابل للحقيقة سوى أن الجنود أطلقوا النار من على سطح القطار.

رؤيـــة أمي للواقعة كانت تتضمن أعداداً قليلة، والمشهد كان فقيراً مقارنة بالمشـــهد البطولـــي الذي تخيلته، وهذا أشعرني بنوع من خيبة الأمل، بعدها تحدثـــت مـــع شهود أحياء من تلك الواقعة، وعدت إلى القصاصات الصحافية والوثـــائق الرسمية، فتأكدت أن الحقيقة كانت مخالفة تماماً لكل الروايات، لكن روايـــة أمي كانت أقربها إلى الواقع. البعض يقول إنه لم يكن هناك أي قتيل، والذيـــن يعارضـــون الحكومـــة كانوا يؤكدون أن القتلى يتعدون المائة، وأنهم شـــاهدوهم بأنفسهم ينزفون في الميدان، وأنهم حملوهم في القطار لإلقاء جثثهم فـــي الـــبحر كمـــا لو كانوا موزاً متعفناً. وهكذا ضاعت الحقيقة إلى الأبد بين الروايات المختلفة ما بين النقيضين.

ذكرياتـــي الكاذبة ظلت تُلح علي حتى أنني أشرت إلى المذبحة في إحدى

رواياتي بكل تفاصيلها الدقيقة، والرعب الذي أعتقد أنه سيطر على "آراكاتاكا"، وذلــك لأنني لم أستطع أن أضعها في أي من الروايات المختلفة التي توصلت إليها بعد ذلك، وهكذا رفعت عدد القتلى إلى ثلاثة آلاف بدلاً من سبعة، لأحافظ على قيمة الأرقام الدرامية، الحياة الواقعية لم تتركني طويلاً لتقدم لي اعترافها بعبقريتـــي: منذ قليل في حفل إحياء الذكرى السنوية للمذبحة، طلب المتحدث الوقــوف دقــيقة حــداداً على أرواح الثلاثة آلاف قتيل المجهولين من ضحايا المذبحة الذين قتلتهم قوات الأمن.

كـــان القطار يصل إلى محطة "ثنياجا" في الثامنة صباحاً، يأخذ المسافرين فـــي المراكب والمسافرين من الجبال، ويواصل طريقه بعد ربع ساعة باتجاه عمـــق مـــنطقة زراعـــات الموز، وصلت أنا وأمي إلى المحطة بعد التاسعة صـــباحاً، لكن القطار لم يكن قد وصل بعد، ومع ذلك كنا المسافرين الوحيدين فـــي المحطـــة، انتبهت هي إلى ذلك منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيه عربة القطار الخالية، فانطلقت بلهجة مرحة:

"يا لها من رفاهية، القطار كله لنا وحدنا".

كنـــت أفكـــر دائماً أنها لهجة كاذبة كانت تحاول من خلالها التمويه على شـــعورها بالإحباط. مرور الزمن كان واضحاً تماماً على كل كراسي القطار، كانت كراسي الدرجة الثانية القديمة بعد أن تم تحويلها إلى درجة موحدة، بعد أن أزالـــوا كراسي المامبو وفقدت الشبابيك أبوابها الزجاجية التي كانت ترتفع وتنخفض، وتحولت الكراسي إلى كراسي خشبية من تلك التي يتم قطعها كيفما اتفـــق على طريقة الفقراء، ومقارنة بالماضي فإن هذا القطار كله يعتبر شبحاً لمـــا كـــان عليه القطار في الماضي، كان فيما سبق مُكوَّناً من ثلاث درجات؛ الدرجـــة الثالـــثة كـــان يسافر فيها الفقراء، كانت عرباتها هي نفسها العربات المكوَّنـــة من قطع خشبية لتحميل الموز أو الحيوانات، كان يتم إعدادها بألواح

خشبية؛ الدرجة الثانية كانت كراسيها من المامبو ومُزَيَّنة بالبرونز؛ الدرجة الأولى، حيث كان يسافر موظفو الحكومة ومديرو شركات الموز، كانت مفروشة بالبسط في الممرات، وكراسيها مكسوة بالقطيفة الحمراء ويمكن تعديل وضعها الرأسي حسب رغبة المسافر. وعندما كان يسافر مفتش الشركة أو أفراد أسرته أو ضيوفه من المقربين، كانوا يضمون إلى العربة الأخيرة عربة خاصة لها شبابيك زجاجية حاجبة للشمس وستائر مذهبة، وكان هناك كرسيان في الهواء الطلق لتناول الشاي أثناء السفر، لا أعرف أي شخص شاهد تلك العربة المدهشة من الداخل، كان جدي في منصب عمدة القرية مرتين وكانت نظرته للمال ممتعة، لكنه كان يسافر في عربات الدرجة الثانية عندما تكون برفقته إحدى سيدات الأسرة، وعندما كنت أسأله لماذا يسافر في عربات الدرجة الثالثة، كان يجيبني "لأنه لا توجد درجة رابعة"، وما كنت أتذكره عن القطار في تلك الفترة مواعيده المضبوطة. كان يتم ضبط ساعات القرى على صافرته.

في ذلك اليوم لسبب أو آخر، انطلق من المحطة بتأخير ساعة ونصف، انطلق ببطء شديد وبانطلاقة خفيفة، لكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته، قالت أمي:

"هذا القطار ينقصه تزييت عجلاته".

كنا المسافرين الوحيدين، ربما في كل القطار، وحتى تلك اللحظة لم يلفت نظري أي شيء له أهمية خاصة، فغرقت في قراءة رواية "ضوء في أغسطس"، وكنت أدخن بلا انقطاع، ومن لحظة لأخرى ألقي بنظرة سريعة على المناطق التي نمر بها. عبر القطار نهر "ثيناجا" بصافرة طويلة، وانطلق بكل قوة خلال ممر صخري، ضجيج العربات لا يُحتمل، لكنه خفَفَ من سرعته بعد خمس عشرة دقيقة، ودخل في سرعة خفيفة بين سهول المزارع

الرطــبة، الوقــت أصبح ثقيلاً بعد أن ابتعدت نسمات البحر، لم أقطع القراءة لأعرف أننا دخلنا عالم زراعات الموز المغلق.

العــالم تغيَّر، من جانب إلى آخر كانت خطوط السكك الحديدية المتقاطعة تمتد في مزارع الموز التي تمتد بلا انقطاع، حيث يمكن مشاهدة العربات التي تجــرها الثــيران محملـــة بعناقيد الموز الخضراء. فجأة في منطقة خالية من الـــزراعة كـــان يقوم هناك معسكر مبني من الطوب الأحمر اللون، ومكاتب أبوابها وشبابيكها وفتحات تهويتها من الأسلاك، وبها مراوح هوائية معلقة في الأســقف، إنـــه مستشفى وحيد في الخلاء، كل نهر له قريته وجسره المعدني الذي يعبر عليه، والفتيات يسبحن في المياه الباردة، ويقفزن عند مرور القطار ليجذبن أنظار المسافرين بنهودهن البدائية.

في قرية "ريوفريو" صعدتْ إلى القطار عدة أُسر من الهنود الاروهاكوس محملـــة بسلال فاكهة "الأجواكتي" الجبلية، التي تعتبر من أجمل فاكهة البلاد. عـــبروا العربة في قفزات صغيرة بحثاً عن مكان للجلوس، لكن عندما انطلق القطـــار من جديد بقيت امرأتان بيضاوان إحداهما تحمل طفلاً حديث الولادة، وقس شاب. الطفل لم يتوقف عن البكاء طوال الرحلة، كان القس يرتدي حذاءً عالـــياً وقبعة، ورداءً كنسياً من الكتان الأملس، وكان يتحدث مع بكاء الطفل، وكان حديثه مرتفعاً دائماً كما لو كان يخطب في الناس، وكان موضوع حديثة إمكانية عودة شركة الموز مرة أخرى. منذ تلك اللحظة لم يتوقف الحديث في المـــنطقة كلهـــا عن هذا الموضوع، وكانت الآراء منقسمة بين الذين يريدون والذين لا يريدون أن تعود الشركة، لكن الجميع كانوا يعتقدون أن الأمر جاد. القس كان ضد عودة الشركة، أبدى أسبابه الشخصية جداً التي جعلت المرأتين تعتقدان أنها أسباب غير مقبولة على الإطلاق، قال: "الشركة تنشر الفقر حيث توجد"، كان السبب وجيهاً لكنه لم يستطع شرحه أو إقناع الآخرين به، حتى أن

المـــرأة التي تحمل الطفل اعتقدت أن الله لا يمكنه أن يكون غير موافق على عودة الشركة.

بمـــا أن الحنيـــن يمحو دائماً الذكريات السيئة ويرفع من قيمة الذكريات الطيبة، لذلك فإنه لم ينج أحد من أضراره. من نافذة القطار يمكن رؤية الرجال يجلسون أمام أبواب بيوتهم، ويكفي إلقاء نظرة على وجوههم لمعرفة المستقبل الـــذي ينتظرهم. والنساء اللاتي يغسلن على الشاطئ يلتفتن إلى القطار بالأمل نفســـه. كـــل غريب يصل القرية بحقيبة رجال الأعمال، يُخيل إليهم أنه ممثل شـــركة "يونيـــتد فرويت كومباني" يعود ليحيي الماضي. في كل لقاء وفي كل زيـــارة وفي كل رسالة تعود الجملة المقدسة: "يقولون إن الشركة ستعود". لا أحـــد يعرف من الذي قالها، ولا متى ولا لماذا قالها، لكن لا أحد يشك في أنها قيلت.

كانـــت أمي تعتقد أنها مُحصنة ضد الأحزان، لأنها قطعت كل علاقة لها بقريـــتها "آراكاتاكـــا" منذ أن مات أبواها. إلا أن أحلامها تخدعها، على الأقل عـــندما تكون تريد أن تقص أحد أحلامها على مائدة الإفطار، فقد كانت منطقة مزارع الموز عالقة دائماً بأحلامها. استطاعت أن تتخطى أقسى لحظات حياتها دون أن تقرر بيع البيت، في انتظار أن تحصل على أربعة أضعاف ثمنه عندما تعود الشركة إلى نشاطها. وأخيراً انتصرت عليها ضغوط الواقع المرير. لكنها عـــندما سمعت القس يقول في القطار إن الشركة على وشك أن تعود، انطلقت منها إشارة تدل على فراغ الصبر وقالت لي في أذني:

"خسارة أننا لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك".

بيـــنما كان القس يتحدث، كنا نمر سريعاً على مكان كان يتجمع فيه عدد كبير من الناس، وفرقة موسيقية كانت تعزف تحت أشعة الشمس الحارقة، كل تلك القرى كانت تبدو لي واحدة، عندما كان يأخذني جدي إلى "سينما أولمبيا"

الشـــهيرة، كانت ألاحظ أن محطات القطارات في أفلام رعاة البقر تشبه كثيراً محطـــة قطاراتـــنا، بعد ذلك عندما بدأت أقرا أعمال فوكنر لاحظت أيضاً أن قُـــرى رواياته تشبه قُرانا، ولم يفاجئني أنها بُنيت تنفيذاً لأوامر شركة الفواكه المـــتحدة، وعلى الطراز نفسه الذي كانت تُبنى به المعسكرات المؤقتة. وكنت أذكر الجميع بذلك، عدا "آراكاتاكا". كانت الكنيسة في الميدان الرئيسي وبيوتها التـــي تشبه بيوت قصص الجنيات مدهونة بألوان بدائية، تشبه حظائر الزنوج العبـــيد في غنائهم تحت أشعة الغروب، وعمال التراحيل الجالسون أمام بيوتها يشـــاهدون مـــرور قطارات الشحن الطويلة، كنت أتذكر المدن الخاصة التي يقـــيمها الأمريكيون في "آراكاتاكا" و"اشبيلية"، على الطرف الآخر من خطوط السكك الحديدية، وقد أحاطت بها السياج المعدنية، وحظائر الدجاج الكهربائية والتي كانت تبدو في صباحات أيام الصيف الرطبة مليئة بالعصافير المحترقة. تذكرت حدائقهم الزرقاء المليئة بالديوك الرومية والسمان، البيوت ذات الأسقف القرمـــيدية الحمـــراء، والشـــبابيك ذات الأسلاك المانعة للحشرات، والموائد الدائرية والكراسي المتحركة المعدة لتناول الطعام في الشرفات المفتوحة، وما بين أشجار النخيل وأشجار الورود. أحياناً ما بين فتحات الأسلاك يمكن رؤية نســـاء جميلات وهزيلات، يرتدين ملابس شفافة وقبعات ضخمة من الأقمشة الخفـــيفة، كن يقطعن الزهور في حدائقهن بمقصات ذهبية. وفجأة كما لو كان حلمـــاً سريعاً، في إحدى الأمسيات مر مفتش شركة الموز في شوارع القرية راكـــباً سيارة فارهة مكشوفة، وإلى جواره امرأة بشعر ذهبي طويل مسترسل يـــتطاير فـــي الهواء، وكلب "باستور" ألماني يجلس في المقعد الخلفي كملك، كانت مشاهد وقتية سريعة لعالم قديم بعيد الاحتمال يغزونا نحن الأحياء.

فـــي طفولتـــي لم يكن سهلاً التفرقة بين قرية وأخرى، وبعد عشرين سنة أخـــرى كان الأمر أكثر صعوبة، لأن العلامات الدالة على المحطات وأسمائها

كانت قد تساقطت، أسماء مثل: توكورينكا، ونبيرلانديا، وجواكاميال، وما تبقى من قرى أخرى كانت عالقة بغبار الذاكرة.

توقـف القطـار فـي اشبيلية في حوالي العاشرة صباحاً لتغيير القاطرة والتزود بالماء، واستغرق ذلك خمس عشرة دقيقة لا تنتهي. لحظتها بدأ الحر، وعـندما عاد للانطلاق من جديد كانت القاطرة الجديدة تُلقي بنا من مكان إلى آخر، ولسوء الحظ فإن كمية من غبار الفحم اقتحمت علينا النافذة التي تساقط زجاجها، وغطتنا بسحابة من اللون الأسود، كان القس والمرأتان قد هبطوا في إحـدى القـرى دون أن ننتبه إليهم، وهذا رسخ في ذاكرتي أنني وأمي نسافر وحدنا في قطار ينطلق بلا اتجاه محدد، كانت تجلس أمامي تنظر عبر النافذة، كانت قد غفت مرة أو اكثر، لكنها استيقظت فجأة وواجهتني بالسؤال المخيف:

"إذن، ماذا أقول لأبيك".

كنتُ أعرف أنها لن تستسلم أبداً، وسوف تظل تبحث عن علة يمكنها من خلالهـا أن تثنينـي عن قراري. عرضت عليّ قبلها العديد من الأشكال التي تعنـي نوعـاً من الالتزام تجاه رغبة والدي، لكني رفضتها جميعا دون إبداء الأسـباب، لكنـي كنـت أعرف أن تراجعها عن محاولاتها لن يطول، والآن تأخذني على غرة في محاولتها الجديدة. استعدادا لمعركة طويلة وخاسرة، قلت لها:

"قولـي له إن الشيء الوحيد في هذا العالم الذي أريده هو أن أصبح كاتباً، وسأصبح كاتباً".

قالت:

"هـو لا يعـترض على أن تكون كاتباً، لكن بعد أن تحصل على شهادتك الجامعية".

كانـــت تـــتحدث دون أن تـــنظر إلي، محاولة أن تُبدي لي عدم اهتمامها بحوارنـــا، وأن اهتمامها منصب على الحياة التي تجري خارج نافذة القطار. قلت لها:

"لمـــاذا تصرين حضرتك على كل هذا، وحضرتك تعرفين تماماً أنني لن أستسلم".

في لحظة خاطفة نظرت إليّ في عيني، وسألتني:

"لماذا في رأيك أنني أعرف أنك لن تستسلم".

قلت:

"لأنني وحضرتك شبيهان".

توقـــف القطار في محطة بلا قرية، وبعدها بقليل مر أمام مزرعة الموز الوحـــيدة التي لا يزال اسمها مكتوباً على البوابة: "ماكوندو". هذه الكلمة لفتت انتباهي بشدة منذ السفرات الأولى برفقة جدي، ولكني عندما كبرت اكتشفت أن حبي لتلك الكلمة يعود إلى جرسها الشعري، لم أسمع هذه الكلمة من قبل، ولم أســـأل أحـــداً عـــن معناها. رغم أنني استخدمتها اسماً لقرية متخيلة في ثلاث روايات، لكني عرفت مصادفة من خلال إحدى الموسوعات أن هذه الكلمة اسم لشجرة استوائية لا تزهر ولا تثمر، وخشبها الإسفنجي يصلح لصناعة القوارب وأوانـــي المطـــبخ، بعدهـــا عرفت من خلال الموسوعة البريطانية أن قبائل "الماكوندو" الرحل يعيشون في تنجانيقا، وأعتقد أن المعنى الأصلي لهذه الكلمة ربمـــا يأتي من هناك، لكني لم أشاهد تلك الشجرة أبداً. رغم أنني سألت عنها في منطقة مزارع الموز عدة مرات، ولم أجد من يجيب على سؤالي. ربما أن هذه الشجرة لم تُوجد على الإطلاق.

فـــي الحاديـــة عشـــرة مـــر القطار أمام مزرعة "ماكوندو" وبعدها بعشر

دقائق وصل إلى "آراكاتاكا". يوم ذهابي مع أمي لبيع البيت وصل القطار متأخراً ساعتين ونصف الساعة. أنا كنت في المرحاض عندما بدأ القطار ينطلق بسرعة أكبر، فدخل من النافذة الزجاجية المحطمة هواء جاف وحار مختلط بغبار العربات القديم وصوت صفارة القاطرة. تزايدت ضربات القلب وشعرت بغثيان يعتريني من الداخل، خرجت مسرعاً يدفعني شيء يشبه الدخان الذي ينطلق لحظة وقوع الزلازل، وجدت أمي في وضعها المعتاد دون أدنى تغير، كانت تذكر بصوت مرتفع القرى التي تمر عبر النافذة بسرعة كبيرة كما لو كانت جزءاً من تلك الحياة التي ذهبت ولن تعود أبداً، قالت:

" تلك هي الأرض التي حفرها أبي بحثاً عن الذهب ولكنه لم يجد شيئاً".

كان هناك بيت بحديقة وأزهار تنمو على البوابة، وكانت هناك لافتة مكتوب عليها: "The sun shine of all"، وقالت:

"تلك الكلمات كانت أول ما تعلمته من اللغة الإنجليزية".

قلت لها:

"ليست أولها، بل الوحيدة التي تعلمتها".

مر الجسر الأسمنتي بمساقيه ذات المياه العكرة، عندما قام الأمريكيون بتحويل مياه النهر لري مزارع الموز، قالت أمي:

"حي العاهرات كانت نساؤه ترقصن مع الفتيان وقد أشعلوا أوراق البنكنوت للرقص على ضوئها".

في لحظة خاطفة كان أمامي المشهد الكامل للقرية المضاءة يوم الرابع عشر من فبراير، يمر بشكل خاطف من خلال النافذة، وصرخت أمي:

"إنها المحطة، كم تغَّيرت الدنيا، لم يعد أحد ينتظر القطار".

كانــت القاطرة انتهت من صفيرها وخَفَّفتْ من سرعتها، ثم توقفتْ بأنين طويل.

أول ما أثارني هو الصمت المخيم على المحطة، صمت مادي حاد يمكنني أن ألمسه وأميِّزه مغمض العينين عن غيره من أي صمت آخر في العالم، كان الحر ثقيلاً حتى أن الأشياء كانت تبدو كما لو كان يفصلها زجاج مجعد، وعلى أرض المــيدان الحجــرية لــم يعــد هناك أثر لضحايا المذبحة الذين سقطوا برصـــاص قـــوات الأمـــن، لم يكن هناك أي شيء يدل على وجود حياة على مـــرمى البصر، كان كل شيء مُغطى بشبورة من التراب الحارق. ظلت أمي ســـاكنة في مقعدها لعدة دقائق، ناظرة إلى القرية الميتة والممتدة في الشوارع الخالية، وأخيراً صرخت برعب:

"يا إلهي!".

ولم تنطق بأي شيء آخر.

٢

فـــي اليوم الذي ذهبتُ فيه مع أمي لبيع البيت، تذكرتُ كل ما شدَّ انتباهي خلال طفولتي، لكنني لم أكن متأكداً من أن تلك الذكريات كان يمكن أن تعني شـــيئاً فـــي حياتـــي لا قـــبل تلك اللحظات أو بعدها، فلم أكن واعياً أنه خلال الرفاهية الكاذبة لشركة الموز أن زواج أبوي كان مكتوباً في سيرة اضمحلال آراكاتاكـــا. ومـــنذ أن بدأت في التذكر، كنت أسمع ـــ في البداية بهمس، وبعد ذلـــك بصـــوت مـــرتفع ـــ تكرار تلك الجملة المشؤومة: "يقولون إن الشركة ستصـــفي أعمالها". لكن يبدو أن أحداً لم يصدق ذلك أو لم يجرؤ على التفكير في نتائجها المريرة.

كانـــت وجهـــة نظـــر أمي تتضمن أرقاماً يسيرة، وكان المكان فقيراً جداً بالنسبة لهول المأساة الرهيبة كما أتذكرها، والتي سببت لي إحساساً بالإحباط. تحدثـــت بعـــد ذلـــك بزمـــن مع الأحياء وشهود العيان، ونبشت في الصحف والوثائق الرسمية، فتوصلت إلى أن الحقيقة كانت غائبة تماماً، فالقانطون كانوا يقولون إنه لم يسقط موتى في تلك الحادثة، وفي المقابل كان الآخرون يؤكدون دون أدنـــى شك أن القتلى يفوق عددهم المائة، وإنهم شاهدوا الساحة مخضبة بالدمـــاء، وإنهم حملوهم في قطار مخصص لنقل البضائع ليلقوا بهم في البحر كـــالموز الـــتالف. وهكـــذا ظلـــت حقيقتـــي الوحيدة ضائعة في مكان ما بين النقيضـــين، ولكـــنها ظلت تلح عليّ حتى أنني أشرت إلى المذبحة في إحدى رواياتي بشكل محدد ومرعب تنامى في مخيلتي طوال سنوات. وحتى أحافظ علـــى تأثـــير المأساة قلت إن عددهم كان ثلاثة آلاف، وجاءت الحياة الواقعية لـــتؤكد صـــحة حقيقتي الخاصة: في خلال الاحتفال بذكرى تلك المأساة طلب مـــتحدث فـــي مجلس الشيوخ الوقوف دقيقة حداداً في ذكرى الثلاثة آلاف من الشهداء المجهولين الذين وقعوا ضحية لقوات النظام.

ضحايا مذبحة عمال الموز كانت القطرة التي فاضت بها المذابح التي سبقتها، بالإضافة إلى أنهم وصفوا زعماءها بأنهم شيوعيون، ربما كان هذا صحيحاً، وعرفت بعدها بسنوات أهم هؤلاء الزعماء الذين قادوا الاحتجاج وهو "إدواردو ماهيتشو" الذي تعرَّفتُ عليه مصادفةً في سجن "بارانكيو" الحديث خلال الأيام التي كنت أرافق فيها أمي لبيع البيت، وتوثقت بيننا الصداقة منذ أن قدَّمت له نفسي على أنني حفيد "نيكولاس ماركيز". وكان هو من أخبرني أن جدي لم يكن محايداً بل كان يلعب دور الوسيط في إضراب عام ١٩٢٨، وأنه يعتبره رجلاً عادلاً، وأكمل معلوماتي عن فكرتي حول تلك المذبحة، مما جعلني أتوصل إلى إحساس أكثر موضوعية عن القضية الاجتماعية. الخلاف الوحيد في ذكريات الجميع حول تلك المأساة كان في عدد الموتى، وعلى أي حال لن يكون هذا هو الخلاف الوحيد حول وقائع تاريخنا.

اختلاف الروايات الكثيرة كان وراء السبب في ذكرياتي الخاطئة، ومن بينها وأكثرها حضوراً في ذاكرتي؛ عندما كنت أقف أمام باب بيتنا النمساوي الطراز، حاملاً بندقية لعب أشاهد مرور طابور من الجنود الذين غطاهم العرق، فيما نظر إليّ أحد الضباط الذين يقودون الطابور، وكان يرتدي زي الاستعراض العسكري، حياني بقوله: "مع السلامة يا كابتن جابي".

أذكر ذلك بوضوح، لكن ليست هناك أية إمكانية لأن يكون ذلك حدث حقيقة؛ الملابس العسكرية والخوذة والبندقية كان لهم وجود بالفعل، لكن بعد عامين من الإضراب، وبعد أن انتهى وجود القوات الحربية في كاتاكا، سبب لي العديد من تلك الذكريات سمعة سيئة في البيت باعتبار أنني أدعي تذكري لأحداث وأحلام لم تحدث في الواقع.

هذا كان وضع العالم عندما بدأت أعي بمحيطي العائلي، ولا أستطيع أن أتخيله على نحو آخر: هموم وحنين وتشكك في عزلة بيت ضخم، ظللت طوال

ســنوات أعتقد أن تلك الفترة تحولت إلى كابوس متكرر في كل الليالي. كنتُ أستقبل الصباح بالرعب نفسه الذي كنت أشعر به عند دخولي غرفة القديسين. خلال المراهقة، كنت في مدرسة داخلية باردة في الانديز، أستيقظ في منتصف الليل باكياً. واحتجت إلى هذه الشيخوخة لأفهم أن تعاسة الجدين في بيت كاتاكا كانت ناتجة عن حياتهم المغلفة بالحنين، وأنها تزيد كلما حاولا التخلص منها.

وببســاطة أكــثر: أنهما كانا في كاتاكا، ولكنهما ظلا يعيشان في مقاطعة "باديا"، والتي لا نزال نسميها فقط مقاطعة، دون أي تحديد من أي نوع، وكأنه لا توجد مقاطعة غيرها في العالم. ربما كنا نفعل ذلك دون أدنى تفكير. كانا قد بنيا البيت في كاتاكا مطابقاً تماماً لبيت "بارانكاس"، ومن نوافذ هذا البيت كان يمكــن رؤية المقابر الحزينة على الجانب الآخر من الشارع، حيث كان يرقد جثمان "ميدرادو باتشيكو". كان الجدان محبوبين في كاتاكا ومُحاطين بالاهتمام، لكن حياتهما كانت محكومة بالحنين إلى الأرض التي ولدا فيها، وتحصنا خلف ذوقهمــا الخــاص ومعتقداتهما وأحكامهما على العالم، وانغلقا ضد كل ما هو مختلف عنهما.

صــداقاتهما القريبة إليهما كانت دائماً للقادمين من المقاطعة، كانت لغتهما اليومــية هي لغة أجدادهما التي جاءوا بها في القرن الماضي من إسبانيا عبر فــنزويلا، وكــان يتم خلطها ببعض اللغات المحلية من الكاريبية ولغة العبيد الأفريقية، وبعض المفردات من لغة الجواخيرا، التي كانت تدخل قطرة قطرة فــي لغتنا. كانت جدتي تستخدم هذه اللغة لتوقظني في الصباح دون أن تعرف أننــي كنــت أفهمها أفضل منها بسبب تعاملاتي المباشرة مع الخدم، ولا زلت أذكر الكثير من كلماتها: أتتونكيشي، أي يغالبني النعاس، و خاموسايتشي تايا، أي أنــا جــائع، و ايبوتس، أي امرأة حامل، و أرخونا، أي الغريب. وكانت جدتي تستخدم هذه الكلمة الأخيرة أحيانا لتشير بها إلى ذوي الجنسية الإسبانية،

وكذلك للإشارة إلى الرجل الأبيض، أو الأعداء بشكل عام. الجواخيريون من ناحيتهم كانوا يتحدثون لغة إسبانية بعيدة عن تشكيلها البراق، تماماً كما كانت تفعـل خادمتـنا "تشـون" بشـكل كان يجعل جدتي تحرم عليها الحديث بهذه الطـريقة، لأن الأشياء كانت تختلط عليها، وكانت تقول لها: "احتفظي بشفتيك في فمك".

كـان اليوم لا يكتمل ما لم تصل أنباء من بارنكاس عن اسم مولود جديد، أو عـدد الذين قتلهم الثور في حلبة فونسيكا، ومن تزوج في ماناورو، أو من مـات في ريوأتشا، وكيف أصبح الجنرال سوكاراس الذي كان يعاني سكرات الموت في سان خوان ديل سيثار. كانوا يبيعون في إدارة شركة الموز الكثير من البضائع بسعر مُغر: تفاح كاليفورنيا المغلف بورق حريري، وكرات الثلج المجمـدة، واللحـوم الجيليقية المقددة، والزيتون اليوناني، إلا أننا لم نكن نأكل شـيئاً في البيت، شيئاً ما لم يكن ممزوجا بمرق الحنين: تحويج الشوربة لابد وأن يكون من ريوأتشا، والذرة التي تُصنع منها فطائر الصباح يجب أن تكون مـن فونسـيكا، والماعز يجب أن تكون تربيتها مختلطة بملح الجواخيرا، أما السلاحف والجمبري يجب أن تأتي حية من ديبويا.

لذلـك فإن معظم الزائرين الذين يأتون في القطار يومياً من المقاطعة، أو أرسـلهم شـخص مـا من بعيد، يحملون دائما اللقب نفسه: آل رياسكو، وآل نوجـيرا، وآل أوبايي، وفي كثير من الأحيان مختلطون بالعوائل الشهيرة من "آل كوتيس" و "آل إيجواران"، كانوا يأتون خفافاً لا يحملون سوى مخلاة على الكتف، وعلى الرغم من أن زيارتهم كانت تتم دون سابق موعد إلا أنهم يبقون دائمـا لتـناول طعام الغداء. لم أنس مطلقاً جملة الجدة التي تبدو كما لو كانت طقساً، عندما تدخل المطبخ: "يجب طبخ جميع الأنواع، لأنه لا أحد يعرف ما يحبون من الطعام أو ما يناسبهم منه".

روح الهـروب الدائم تلك كانت قائمة على واقع جغرافي، كانت المقاطعة تقـوم في شكل عالم مستقل، وتجمعها وحدة ثقافية متماسكة وقديمة، فهي تقع فـي مفصـل جبلي بين سييرا نيفادا وجبال بيرخيا، في الكاريبي الكولومبي، واتصـالها بالعالم الخارجي أسهل من اتصالها بباقي الوطن، وحياتها اليومية تـتفق أكـثر مـن واقع جزر الأنتيل، نظراً لسهولة الوصول إلى جامايكا أو كوثـاو، ويكـاد يخطـئها المـرء مع فنزويلا، نظراً لحدودها المنفتحة على مسـتويات وألـوان مختلفة. أما من الداخل الذي يكاد ينفصل بهدوئه وحركته البطيـئة، كانت تأتي غرائب السلطة: القوانين، والضرائب، والجنود، والأنباء السيئة التي يتم صنعها على ارتفاع ألفي متر وثمانية أيام من الإبحار عبر نهر "ماجدلينا" في مركب بخاري يتم تغذيته بالحطب.

تلك الطبيعة الجزيرية أنجبت ثقافة ساكنة لها شخصية الأجداد الذين نشأوا فـي كاتاكا. لم تكن مكاناً فقط، كان البيت قرية متكاملة، دائماً ما كانت هناك موائـد مـتعددة للطعـام، المائدتان الأولى والثانية كانتا مقدستان منذ طفولتي وحتى أكملت ثلاث سنوات من عمري: الكولونيل على رأس المائدة وأنا على جانبه الأيمن، الأماكن الأخرى يجلس على الأولى منها الرجال وتأتي بعد ذلك النساء، منفصلون عن بعضهما البعض دائماً، كان يتم التخلي عن هذه القواعد فقط في مناسبة العيد الوطني يوم ٢٠ من يوليو، وتظل مائدة الغداء ممتدة حتى يأكل الجميع، أما في الليل فلا تستخدم المائدة، بل يتم توزيع فناجين كبيرة من القهـوة بالحليـب من المطبخ مباشرة، ومعها حلوى الجدة اللذيذة، وعندما يتم إغلاق الأبواب يقوم كل فرد بتعليق سرير الحبال في المكان الذي يمكنه النوم فيه، وفي أي مستوى، حتى على أشجار الفناء.

أكبر الاحتفالات وأجملها في تلك الأيام، عشتها في اليوم الذي وصلتْ فيه إلـى البيـت جماعةٌ من الرجال المتشابهة الملابس والأقمطة وسروج الخيل،

وجمــيعهم بصــليب رمــادي مرسوم على الجبهة. كانوا الأبناء الذين أنجبهم الكولونيل بطول المقاطعة وعرضها خلال حرب الألف يوم، جاءوا من قراهم لتهنئته بمناسبة عيد ميلاده بعد شهر على الأقل من مروره. قبل وصولهم إلى البيــت ذهــبوا لســماع قداس الأربعاء الحزين، وكان الصليب الرمادي الذي رســمه القس "أنجاريتا" على جباههم يبدو كعلامة أسطورية ظل سرها خافياً عليّ لسنوات طويلة، على الرغم من فهمي بعد ذلك لمعنى احتفالات الأسبوع المقدس.

معظمهم ولد بعد زواج جدي من جدتي، كانت الجدة مينا تسجلهم بأسمائهم وألقــابهم في كتيب صغير منذ اللحظة التي تعلم فيها بميلادهم، كانت تسجلهم بشكل معقد ينتهي بضمهم إلى تعداد الأسرة، لكن لا هي ولا أحد غيرها تمكن مــن تميــيزهم عن بعضهم البعض قبل تلك الزيارة الضاجة والتي كشف كل منهم فيها عن شخصيته المتميزة. كانت تبدو عليهم الجدية وحب العمل، رجال يحــبون بيوتهم، رجال مسالمون، لكنهم لم يكونوا يخشون فقدان اتزانهم خلال الغــناء الجماعــي، حطموا الأطباق، ودمروا أشجار الزهور خلال مطاردتهم عجــل صــغير لذبحــه، وقتلوا الدجاج بطلقات البنادق، وأطلقوا خنزيراً في ممرات البيت، لكن لم يغضب أحد من أفعالهم بسبب السعادة التي نشروها من حولهم.

كنــت ألتقــي كثــيراً بعمي "استيفان كاريو" الشقيق التوأم للعمة "البيرا" والخبــير في فنون الأعمال اليدوية، كان يسافر بصندوق يحتوي على أدوات إصــلاح أي شئ معطل في البيوت التي كان يزورها. بميله للفكاهة وذاكرته الجيدة، ساعدني على استكمال الكثير من الفراغات في تاريخ العائلة، والتقيت كثيراً أيضاً بالعم "نيكولاس جوميث"، الأشقر الملئ بالبقع الملونة، والذي حافظ دائمــاً على سمعته كأفضل بائع بقالة في منطقة المؤسسة القديمة. كان مُعجباً

بسمعتي كشخص لا أمل يُرجى منه، كان يودعني بكيس مليء بالأشياء المفيدة لأواصـــل رحلتـــي. وكان "رفائيل أرياس" يصل في رحلات سريعة ومتعجلة علـــى ظهـــر بغلة ويرتدي ملابس الركوب، لا يكاد يبقى حتى يحتسي القهوة واقفـــاً علـــى قدميه في المطبخ. الآخرون التقيت بهم مبعثرين خلال رحلات الحنين التي قمت بها بعد ذلك في قرى المقاطعة كعلامة على الهوية العائلية.

بعد سنوات من موت الجدين، وهجر البيت الكبير، وصلتُ إلى المؤسسة فـــي القطار الليلي، وجلستُ في المكان الوحيد الذي كان مفتوحاً لتقديم الطعام في المحطة في تلك الساعة. لم يكن هناك الكثير مما يمكن تقديمه، لكن صاحبة المكـــان أعـــدت طبقاً محترماً على شرفي، كانت ظريفة وخدومة، ولكن من خلال طباعها الهادئة تبينتُ قوتها كواحدة من النساء القادرات على قيادة عائلة بأكملهـــا. تأكدت من ذلك بعد سنوات: الراهبة الجميلة كانت "سارة نورييجا"، كانت واحدة من عماتي المجهولات.

أمـــا العبد القديم صغير الحجم "أبولينار" كنت أتذكره دائماً كأحد أعمامي، اختفى من البيت طوال سنوات، وظهر فجأة في إحدى الأمسيات، كان مرتدياً ملابـــس الحـــداد المكونـــة من بدلة قطيفة سوداء وقبعة ضخمة، كانت سوداء أيضـــاً، غارقة في رأسه حتى عينيه. عندما مر بالمطبخ قال أنه جاء لحضور الجـــنازة، لكن لم يفهم كلامه أحد حتى اليوم التالي، عندما وصل نبأ يقول إن الجـــد مـــات قبل قليل في سانتا مارتا، حيث أخذوه إلى هناك على عجل وفي سرية تامة.

العـــم الوحـــيد الذي كانت له شهرة عامة كان الأكبر بين أعمامي جميعاً، والوحيد الذي كان محافظاً فكرياً، إنه "خوسيه ماريا فالديبلانكيث" الذي وصل إلـــى عضـــوية مجلس الشيوخ في الجمهورية خلال حرب الألف يوم، وبحكم منصـــبه حضر توقيع استسلام الليبراليين في مزرعة "نيبرلانديا" القريبة. في

مواجهته كان أبوه يقف بين المهزومين.

أعــتقد أن طريقتـــي في رؤية الأشياء والتفكير أُدين بها في الواقع لنساء العائلة والنساء اللاتي كن يُشَكِّلن الخدم اللاتي سَهرن عليّ في طفولتي، كانت شخصـــياتهن قويـــة ولهن قلوب حانية، وكن يعاملنني كما لو كنت أعيش في الجـــنة الأرضية، من بين الكثيرات اللاتي أذكرهن، كانت "لوثيا" التي فاجأتني بدهائهـــا الصـــبياني، عندما أخذتني إلى ركن الضفادع ورفعت فستانها حتى وسطها لترينى شعر عانتها. إلا أن ما لفت انتباهي كانت البقعة الصدفية التي تمـــتد علـــى بطـــنها كخـــريطة العـــالم المرسومة بالكثبان الرملية الحمراء والمحـــيطات الصفراء. الأخريات كن يحملن صفات الملائكة في صفائها: كن يُغَـــيِّرن ملابســـهن في حضوري، كن يغسلنني أثناء اغتسالهن، كن يجلسنني لقضاء حاجتي ويجلسن لقضاء حاجتهن في مواجهتي ليتخلصن من أسرارهن، وأحزانهـــن، كما لو كنت لا أفهم شيئاً، دون أن ينتبهن إلى أنني كنت افهم كل شئ، حيث كنت أجمع خيوط الكلام الذي كن يلقينه أمامي.

كانـــت "تشـــون" من الخدم، أتوا بها من الشارع، جاءت إلى بارانكيو مع الجديـــن وهي لا تزال طفلة صغيرة، تربت في المطبخ لكنها دخلت في عداد الأسرة، وتم التعامل معها على أنها واحدة منا منذ أن ذهبت إلى المقاطعة مع أمـــي العاشـــقة. خلال سنواتها الأخيرة انتقلت تشون للحياة في غرفة بالجزء الأكـــثر فقراً من القرية، كانت هذه رغبتها، وكانت تعيش من بيع كرات الذرة المـــثلجة فـــي الشوارع منذ الفجر وحتى غروب الشمس، وكانت تنادي على بضاعتها بطريقة أصبحت شعبية جداً تنطلق في صمت ساعات الفجر الأولى: "مثلجات تشون العجوز".

كانـــت تحمـــل الجمال الهندي الخاص، تسير حافية القدمين، على رأسها عمامـــة بيضـــاء وتـــرتدي ملابس من القماش الأبيض. تسير ببطء شديد في

منتصف الشارع، مُحاطة بمجموعة من الكلاب الوديعة الصامتة التي تتقدم من حولهـــا في شكل دائرة. تحول موكبها إلى إحدى عادات القرية التقليدية، ظهر فـــي أحد أعياد القرية التنكرية قناع يشبهها تماماً بالقماش الملتف حول جسدها وأغنيـــتها الشهيرة، وإن فشلوا في تشكيل حراسة من الكلاب مثلها، وصيحتها مـــنادية على كراتها المثلجة تحوّلت إلى أغنية يعزفها عازفو الأكورديون. في يـــوم مشئوم هاجم كلبان متوحشان كلابها الوديعة؛ نتج عن ذلك سقوط تشون على الأرض، فأصيب عمودها الفقري بكسور أدت إلى وفاتها على الرغم من المحاولات الطبية التي بذلها جدي.

ذكـــرى أخرى لها أهميتها في تشكيلي العقلي وهي عملية ولادة "ماتيلدي أرمنتا"، الغسالة التي كانت تعمل في البيت. عندما كنت في حوالي السادسة من عمـــري، دخلـــت غرفتها خطأ فوجدتها عارية وملقاة على سرير من الكتان، وكانـــت تعـــوي من الألم بين جماعة من النسوة يحيطون بها بشكل عشوائي. أحطن بجسدها لمساعدتها في عملية الولادة بالصراخ، واحدة تمسح العرق عن وجههـــا بمنشفة مبللة، وأخريات يمسكن بذراعيها وساقيها بقوة، ويدلكن بطنها للإسراع بالولادة، وكانت "سانتوس فالييرو" هادئة وسط هذه الفوضى، تحوقل بالأدعـــية بعينيـــن مغمضتين، كما لو كانت تحفر في عضلات النفساء. كانت الحرارة في الغرفة خانقة، والبخار يتصاعد من أواني المياه الساخنة التي كن يأتيـــن بها من المطبخ. مكثت في أحد الأركان، موزعاً ما بين الخوف وحب الاســـتطلاع، إلـــى أن أخرجت الداية قدمين لشيء مكون من لحم حي كعجل صغير، معلقاً من حبل سري. اكتشفت إحداهن وجودي في الركن، وأخرجتني من الحجرة بالقوة.

قالت لي:

- إنها خطيئة كبرى.

ثم عادت إلى تحذيري:

- انس ما شاهدت إلى الأبد.

أمـــا المـــرأة التي أخذت مني عذريتي لم تكن تقصد أو تعرف أنها فعلت ذلـــك، كان اسمها "ترينيداد"، ابنة أحد خدم البيت، كان الوقت في بداية أزهار الربـــيع. كانت في الثالثة عشرة من عمرها وترتدي ملابس لا تكاد تصلح لها في سن التاسعة، كانت ملابس ملتصقة بجسدها فبدت كما لو كانت عارية. كنا وحيديـــن في إحدى الليالي بالفناء، وفجأة بدأت تعزف موسيقى راقصة تنبعث مـــن البيت المجاور، فطلبت مني ترينيداد أن أراقصها باحتضان عنيف قطع أنفاسي، لا أعرف ما كان إحساسها وقتها، لكني لا أزال حتى اليوم استيقظ في منتصف الليل بفعل إحساسي في تلك اللحظة، وأعرف أنني أستطع أن أتعرف علـــيها فـــي الظلام الحالك من خلال ملمس كل بوصة في جسدها وبرائحتها البدائية، في تلك اللحظة شعرت بمدى أهمية جسدي وتفتح وعيي على إحساس لم أكن وعيته أبداً من قبل، وأنني أستطيع أن أتذكره الآن كميتة لذيذة، منذ تلك اللحظـــة عرفت أنه كان هناك سر حقيقي أو متخيل يمكن الإحساس به وكنت أجهلـــه، لكـــنه يحيرني كما لو كنت أعرفه من قبل، على عكس نساء العائلة الأخريات اللاتي قدنني باتجاه طريق العفة القاحل.

فقـــدان العذرية علمني أن هدايا أعياد الميلاد لا يرسلها إلينا الإله المسيح الطفل، لكن احترست حتى لا أكشف تفكيري هذا، وعندما بلغت العاشرة كشف لـــي أبـــي هذه الحقيقة كما لو كانت سراً يجب أن يبقى بين اثنين بالغين، لأنه كـــان يعـــتقد أنني أعرف هذا السر، أخذني معه إلى الحوانيت لاختيار ألعاب أخوتـــي الصغار، حدث الأمر نفسه عندما شاهدت عملية ولادة ماتيلدة: فكنت أمـــوت مـــن الضـــحك عـــندما كانوا يقولون لنا إن الأطفال تأتي بهم طيور البشـــاروش من باريس، لكن عليّ أن أعترف بأنه لا وقتها ولا الآن أربط ما

بين الجنس وعملية الولادة. على أي حال فإن حياتي بين الخادمات من الممكن أن يكون الخيط السري الذي ربط تواصلي بالنساء، وجعلني خلال بقية حياتي أشـــعر بالـــراحة والطمأنينة بينهن، هن اللاتي يحافظن على العالم، بينما نحن الرجال نغرقه في الفوضى بجبروتنا التاريخي.

كانـــت "ســـارا إيميليا ماركيز" واحدة من اللاتي صنعن مستقبلي دون أن تعـــرف، كانت مُحاطة بالعديد من المحبين، ولم تكن تعتني بمجرد إلقاء نظرة علـــيهم، ومنحت قلبها لأول من اعتقدت أنه يستحقها وإلى الأبد، من اختارته كان يشترك مع أبي في بعض الصفات، فقد كان غريباً ولا يعرف أحد من أين جـــاء ولا كـــيف جـــاء ولكن صفحة حياته كانت ناصعة، لكنه لم يكن يمتلك مصدر دخل معروف، كان اسمه "خوسيه ديل كارمن أوريبي برخيل" وإن كان يوقـــع أحـــياناً فقـــط باســـم "خ. ديل. ك". مر زمن قبل أن يعرف أحد أصله الحقيقـــي، حتى عرفنا صدفة أنه كان يعمل كاتباً لدى بعض موظفي الحكومة، وقصائد الحب التي كان ينشرها في مجلته الثقافية الخاصة، والتي كانت تصدر حسب تساهيل ربنا. أثار إعجابي منذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها في البيت بســـبب شـــهرته ككاتـــب، كان أول كاتب أتعرف عليه في حياتي، ومنذ تلك اللحظـــة أردت أن أكون كاتباً مثله تماماً، ولم أهدأ حتى تمكنت العمة ماما من تسريح شعري مثله تماماً.

كنت أنا أول من عرف بأسرار قصة حبها. دخل البيت المقابل لبيتنا بينما كنـــت ألعـــب مع أصدقائي، أخذني بعيداً وكانت العصبية بادية عليه، أعطاني رســـالة لســـارا إميلـــيا، كنت أعرف أنها كانت جالسة أمام باب بيتنا بصحبة صـــديقة جـــاءت لزيارتها. عبرتُ الشارع واختبأت خلف إحدى أشجار اللوز وألقيـــت الرسالة بدقة بحيث سقطت أمام العتبة، رفعتها بين يديها برعب، لكن صرختها سكنت عندما تعرفت على خط المظروف، من حينها أصبحت سارا

وخ. ديل. ك. صديقين لي.

أما ألبيرا كاريو الشقيقة التوأم للعم استيبان، فقد كانت تعصر عود قصب السكر بيديها الاثنتين وتحوله إلى عصير بفضل قوتها التي تشبه قوة معصرة، كانـــت لها شهرة بسبب صراحتها القاتلة أكثر من شهرة حنانها تجاه الأطفال وقدرتها على تسليتهم، خاصة أنا وشقيقي لويس انريكي، الذي يصغرني بعام واحـــد، والـــذي عمدهـــا باســـم العمة "با". كان تخصص العمة حل المشاكل المستعصية، كانت وشقيقها استيبان أول من وصلا إلى بيت كاتاكا، لكن بينما وجد هو حياته في كل أنواع المهن اليدوية والتجارة الرابحة، ظلت هي العمة التـــي لا غـــنى عنها دون أن تنتبه إلى السبب في ذلك، كانت تختفي عندما لا يحـــتاجها أحد، وعندما تكون هناك حاجة إليها لا يعرف أحد من أين أتت، في لحظاتها التعيسة تتحدث مع نفسها بينما تحرك الحلة، وتكشف بصوت عال عن مكـــان الأشياء التي اعتقدنا أنها فقدت، بقيت وحدها في البيت بعد أن تم دفن الكـــبار، وبـــدأت الحشـــائش تزحف في كل مكان، وتتجول الحيوانات داخل الردهات والغرف.

كانـــت العمـــة "فرانثيسكا سيمودوسيا" جنرال العائلة، وماتت عذراء في التاســـعة والســـتين، تختلف عن الجميع في عاداتها ولغتها، لم تكن ثقافتها من ثقافـــة المقاطعة الجنة العائلية لسيمون بوليفار، التي ينتمي إليها أبوها خوسيه ماريـــا ميخيا فيدال، الذي هاجر منذ شبابه المبكر من ريوانتشا، تركت شعرها يـــنمو ويطـــول ليصل حتى منتصفها وبقي على سواده حتى تقدمها في السن، كانت تغسله بمياه الورود المختلفة مرة في الأسبوع وتجلس أمام باب غرفتها تمشـــطه لســـاعات عديدة في شكل طقسي مقدس، فيما تدخن بشراهة سيجارة بـــالمقلوب، النار داخل فمها كما كان يفعل الجنود الليبراليين حتى لا يكتشفهم العـــدو فـــي ظـــلام الليل، أيضاً طريقتها في اللبس كانت مختلفة، بفستان من

الخيوط الطبيعية وحذاء من القطيفة.

على عكس أصالة الجدة كانت لغة العمة ماما الأكثر انطلاقاً فيما يختص باســتخدام الألفاظ الشعبية، لم تكن تخفي ذلك أمام أي شخص ولا تخجل من الحديــث الصــريح أمام أي شخص في وجهه، حتى الراهبة، معلمة أمي في داخلية سانتا مارتا، التي أوقفتها بعنف بجملة شعبية: "أنتِ من اللاتي لا يعرفن الفــارق ما بين المؤخرة والطبلة"، إلا أنها كانت تخرج من المواقف المحرجة دائماً بشكل لا تبدو فيه خارجة عن حدود الأدب.

خلال ما يقرب من نصف حياتها كانت حاملة مفاتيح المقابر، كانت تُوقِّع شــهادات الوفــاة وتقوم في البيت بعمل قرابين التناول لصلاة الكنيسة، كانت الشــخص الوحيد من العائلة من الجنسين التي لا تحمل في قلبها حباً مكلوماً، عرفنا ذلك في ليلة حاول الطبيب أن يدخل فيها منظارا فرفضت هي بجملة لم أفهمها: "أريد أن أحذرك يا دكتور، أنا لم أعرف الرجال أبداً".

منذ تلك اللحظة ظللت أستمع إليها ولكني لم أشعر أبداً أنها كانت نادمة بل كشيء قائم لم يترك علامة واحدة في حياتها، بالعكس، كانت تحب المتزوجين وكانت تُعد فراش الغرفة لأبوي.

أعتقد أنها كانت تتفاهم مع الأطفال أكثر من الكبار، كانت هي التي اعتنت بســارا إميليا إلى أن انتقلت إلى غرفة الكتب في الحارة، حينها أخذتنا شقيقتي مارجوت وأنا في مكانها، على الرغم من بقائها على خدمة الجدة كانت تعمل على إعدادي كرجل.

أمــا أكــثر ذكرياتي إقلاقاً فتعود إلى زمن العمة "بترا"، الشقيقة الكبرى لجــدي، تركت ريواتشا لتعيش معهم بعد أن أصابها العمى، عاشت في الغرفة المجــاورة لغرفة المكتب، التي تحولت بعد ذلك إلى غرفة التطريز، وضعت لنفسها طريقة سحرية للتحرك في البيت دون مساعدة أحد، لا زلت أذكرها كما

لـــو كانت بالأمس، تسير بلا عصا كما لو كانت تستعمل عينيها، بطيئة ولكن بـــثقة، تـــتحرك طبقاً للروائح المختلفة، تتعرف على غرفتها من رائحة غرفة التطريز المجاورة لها، وتتعرف على الممرات برائحة ياسمين الحديقة، وغرفة الجدين برائحة الكحول الذي كانا يدهنان به جسديهما قبل النوم، وغرفة العمة مامـــا برائحة زيت القناديل، ونهاية الممر برائحة المطبخ القوية، كانت نحيلة وخفيفة الحركة، لجلدها ملمس السوسن وبشعر مشع وعينين خضراوين يتغير لونهما بتغير الضوء وحالتها النفسية، على أي حال كانت تحركاتها قليلة، فقد كانت تبقى وحيدة تقريباً في غرفتها، أحياناً كانت تغني بصوت منخفض ويشبه صـــوتها صوت الجدة مينا، لكن أغانيها كانت مختلفة وحزينة، سمعت أحدهم يقول إنها أغنيات شعبية من منطقة ريواتشا، لكنني عرفت فيما بعد أنها كانت تؤلفهـــا خلال غنائها. مرتان أو ثلاث لم أقاوم رغبة الدخول إلى غرفتها دون أن ينتـــبه أحـــد إلـــى ذلك، لكنني لم أجدها، بعد ذلك بسنوات وخلال إجازات المدرســـة الثانوية، قصصت على أمي تلك الذكريات، إلا أنها حاولت التهرب مني. وكانت تؤكد أن العمة بترا ماتت قبل أن أُكمل العام الثاني من عمري.

بالنسبة للعمة "ويلفريدا" كنا نسميها "نانا" وكانت الأكثر انطلاقاً وظُرفاً في كل العائلة، لكنني لا أستطيع أن أتذكرها إلا في سرير مرضها، كانت متزوجة مـــن رافائيل كينتيرو أورتيجا ــ العم كينتي ــ محامي فقراء مولود في تشيا، على بعد خمسة عشر فرسخاً من العاصمة بوجوتا، اعتاد على مناخ الكاريبي بشـــكل جيد حتى أنه في جحيم آراكاتاكا كان يحتاج إلى زجاجات ماء ساخن تحـــت قدميه لينام في قيظ ديسمبر. لم تكد العائلة تستعيد توازنها من مأساة ميداردو باتشـــيكو حـــتى قتل العم كينتي محامي منافسيه في إحدى القضايا، كان طيباً ومسالماً، لكن منافسه مارس عليه ضغوطاً ولم يجد طريقة لمواجهته إلا بحمل مســـدس. كان العم صغير الحجم إلى درجة أنه كان يرتدي أحذية أطفال، كان

أصدقاؤه يسخرون منه لان المسدس كان يبدو تحت قميصه كما لو كان مدفعاً، حـــذَّره جـــدي بجملته الشهيرة: "حضرتك لا تعرف ثقل حمل ميت"، لكن العم كينتـــي لـــم يســـعفه الوقت للتفكير عندما اعترضه منافسه بزعيقه أمام غرفة المحاكمة، وهجم عليه بجسده الضخم، قال لي العم كينتي قبل موته بقليل: "لم أنتـــبه إلى أنني أخرجت المسدس وأطلقت طلقة في الهواء بكلتا يدي وبعينين مغلقتيـــن، عـــندما فتحت عيني شاهدته واقفاً على قدميه بحجمه الضخم وكان شـــاحباً، ثم انهار ببطء إلى أن بقي جالساً على الأرض"، حتى تلك اللحظة لم ينتـــبه العـــم كينتي أنه أصابه في منتصف الجبهة. سألته عن إحساسه عندما شاهده يسقط، ففاجأني بصراحته:

– أحسست براحة كبيرة!.

آخـــر ذكريات مع زوجته وليفريدا كانت في ليلة ممطرة، لم تكن مشعوذة عاديـــة بل امرأة ظريفة، حسنة الهندام وعلى أحدث تقليعة، كانت تطرد الداء مـــن الجســـد باستخدام زهور الأورتيجا وهي تغني أغاني الشعوذة كما تغني أغنية مهد، فجأة، انحنت نانا بشكل عنيف وخرج طائر بحجم دجاجة من بين الشراشف، أمسكت به المرأة في حركة حاذقة وألقت به في النار. وشفيت نانا من دائها.

بعدها بقليل عادت نيران الفناء إلى الاشتعال عندما وضعت دجاجة بيضة سحرية بدت ككرة بنج بونج بطرف يشبه القبعة، وعرفتها جدتي على الفور: "إنها بيضة كنسية"، وألقت بها بنفسها في النار مصحوبة بتلاوات سحرية.

لم أتمكن مطلقاً من تذكر الجدين في عمر آخر غير العمر الذي عرفتهما فـــيه، فهـــو نفسه عمر الصور التي التقطوها لهما قبل سن الشيخوخة، والتي انتقلت نُسخ منها إلى جميع أعضاء العائلة عبر أجيال، خاصة الجدة "ترانكيلينا" أكثر النساء شكاً من اللاتي عرفتهن في حياتي بسبب رعبها من أسرار الحياة

اليومية. تحاول التخفيف من السحر الأسود برفع صوتها العجوز بأغنيات الحب، وفجأة تقطع تلك الأغاني بصرخة قتالية:

– بحق مريم العذراء.

كنت أرى آل مرثيدس يرتجون بلا سبب، والحمى القرمزية سكنت غرف نومهم، وروائح زهور ياسمين الحديقة تحوم من حولهم كأشباح غامضة، وأي حبل مُلقى على الأرض في شكل رقم ما يصبح رقم اليانصيب الفائز، وأي طائر أعمى دخل البيت خطأ لا يمكن مطاردته إلا بغناء تعاويذ سحرية، كانوا يعتقدون أنهم قادرون على فك الرموز السحرية لأبطال الحكايات ومعرفة أماكن الأغنيات التي تأتى من المقاطعة، يتخيلون كوارث قد تقع اليوم أو غداً، يحسون بالقادمين من ريواتشا بقبعة بيضاء أو مصابين بمغص أمعاء لا شفاء منه إلا بشربة ديك عجوز. إضافة إلى أنها كانت متنبئة محترفة فإنها كانت مطببة أيضاً.

لها نظام شخصي جداً في تفسير أحلامها الخاصة وأحلام الآخرين التي تحكم سير الحياة اليومية لكل واحد منا، وتحدد مسار الحياة في البيت، مع ذلك كانت على وشك الموت صدفة عندما نزعت بعنف الشراشف عن السرير فانطلق المسدس الذي كان يحتفظ به الكولونيل تحت مخدته؛ فالرصاصة التي انطلقت واصطدمت بالسقف مرت بالقرب من وجهها.

منذ وعيت وأنا أعاني التعذيب اليومي الناتج عن قيام الجدة بتنظيف أسناني، بينما تمتلك هي قدرات سحرية تجعلها تنزع أسنانها وتنظفها خارج فمها، بل وتركها في المياه أثناء نومها. كنت مؤمناً بأن أسنانها الطبيعية التي تنزعها وتضعها بفضل السحر الشعبي، وطلبتُ منها مرة أن تريني فمها لرؤية عينيها مقلوبة من الداخل، وكذلك مخها وأنفها وأذنيها، كانت صدمتي كبيرة عندما لم أر سوى حلقها، ولم يحاول أحد أن يكشف لي السر لزمن طويل حتى

أنني فكرت في الذهاب إلى طبيب الأسنان ليفعل بأسناني مثلما تفعل الجدة، حتى يمكنها أن تغسل لي أسناني بينما أنا ألعب في الشارع.

كان بيني وبين الجدة إشارات سرية تجعلنا نتواصل مع العالم الخفي، نهاراً، كان عالمها السحري يدهشني، ولكنه يشيع فيّ الرعب ليلاً. الخوف من الظلام، خوف سابق على وجودنا، ظل يطاردني طوال حياتي في مساراتي الوحيدة، في بيت الجدين لكل قديس غرفة، ولكل غرفة ميت، لكن البيت الوحيد المعروف رسمياً باسم "بيت الموتى" كان البيت المجاور لنا، والميت فيه كان الميت الوحيد الذي كشف عن هويته في جلسة روحية وكان له اسم إنسي: "ألونسو مورا"، شخص قريب منه قرر البحث عنه في دفاتر المواليد والتعميد والموتى، فوجد العديد من الأسماء الشبيهة ولكن لا يوجد من بينها من يمكنه أن يكون ميتنا هذا. كان ذلك البيت مستشفى طوال سنوات، ولكن كانت هناك شائعات تؤكد أن الشبح الخفي لم يكن سوى القس أنجاريتا الذي كان يحاول إبعاد الفضوليين الذين كانوا يتلصصون على مغامراته الليلية.

لم يكن لي حظ التعرف على "ميمي" تلك الخادمة الهندية التي جاءت بها العائلة من بارانكاس، وهربت في ليلة رعدية مع شقيقها المراهق "أليريو"، لكني كنت أسمعهم دائماً يتحدثون عن تأثير لغتها البدائية في أحاديث أفراد العائلة، ولغتها الإسبانية تشبه لغة الشعراء، ولا ينسون أنها عندما عثرت على علبة كبريت العم خوان دي ديوس الضائعة، قدمتها له قائلة بتفاخر:

– أنا هنا علبة كبريتك.

من الصعب فهم أن الجدة مينا والنساء الطيبات المحيطات بها كن سند البيت الاقتصادي، عندما بدأت المصادر المالية العائلية في النضوب. كان لدى الكولونيل بعض الأراضي الزراعية المتفرقة التي يزرعها فلاحون رفض إجلاءهم عنها، وفي لحظة ضيق رهن بيت كاتاكا لإنقاذ أولاده من الجوع،

وكلفــت استعادة البيت كنزاً حقيقياً. وعندما لم يعد هناك شئ ظلت العمة تقيم أود العائلة بخبز الفرن وصناعة الحلوى وبيعها، وبالدجاج البري وبيض البط وخضراوات الفناء الخلفي. تخلت عن جزء كبير من الخدم وبقي منهم من لا يمكــن الاستغناء عنهم، وفقدت النقود وجودها في عادات البيت، لذلك عندما اشـــتروا البيانو لامي بعد عودتها من المدرسة قامت العمة بحساب ثمنه بالنقد المنزلي: "هذا البيانو ثمنه خمسمائة بيضة".

بيــن كل هذا الجيش النسائي الإنجيلي كان الجد يُشَكِّلُ أمني المطلق. في حضـــوره يختفـــي القلق وأشعر أن قدمي ثابتتان على أرض الحياة الواقعية، الغريـــب أنه عندما أفكر في ذلك الآن أكتشف أنني كنت أريد أن أكون مثله، واقعي، وشجاع، وواثق، ومع ذلك لم أقاوم مطلقاً حب الاستطلاع الذي تملكني لاستكشـــاف حياة الجدة، أتذكر جدي ربعة القامة ودموي، مع قليل من الشيب في رأسه اللامع، وبشارب خشن مشذب بعناية، وعوينات مستديرة بإطار من الذهـــب، حديـــثه مـــتقطع، متفهم ومتصالح مع الزمن المسالم. لكن أصدقاءه المحافظون يتذكرونه كعدو مخيف في زمن الحرب.

لم يرتدي الزي العسكري أبداً، لأن درجته كانت ثورية ولم تكن أكاديمية، إلا أنـــه ظل حتى وقت طويل بعد الحرب يرتدي زي المقاتلين الثوار، والذي كـــان زيـــاً يستخدمه كل قدامى المحاربين الكاريبيين، وعندما تم توقع قانون المعاشات للعسكريين قدم بياناته وأوراقه الرسمية ليحصل على معاشه، وظل مـــع الجدة والأحفاد ينتظرون هذا المعاش حتى وفاتهم، كانت الجدة ترانكلينا التي ماتت بعد ذلك بعيدة عن ذلك البيت، عمياء ومقعدة ونصف مجنونة، تقول لـــي فـــي لحظـــات وعـــيها الأخـــيرة: "سأموت مطمئنة، لأنني أعرف أنكم ستحصلون على معاش نيكولاس".

كانـــت تلـــك المرة الأولى التي أسمع فيها تلك الكلمات الأسطورية التي

زرعـت في الأسرة جرثومة الأمل الأبدي: المعاش. دخلت هذه الكلمة البيت قـبل مولدي، عندما أعلنت الحكومة عن معاشات لقدامى المحاربين في حرب الألـف يـوم. استكمل الجد شخصياً ملفه، الملئ بالعديد من الشهادات الموثقة والأوراق الداعمـة وحملـه بنفسـه إلى سانتا مارتا ليوقع على قرار التسليم، وطـبقاً لأقل الحسابات تفاؤلاً كان المعاش أكثر من كافٍ بالنسبة له ولأحفاده حـتى الجـيل الثانـي، كانت تقول لنا الجدة: "لا تقلقوا قيمة المعاش ستكفي الجمـيع"، وتحول البريد الذي لم يكن متعجلاً أبداً بين افراد العائلة، تحول إلى ما يشبه رسول عناية المقاطعة المقدسة.

أنا نفسي لم أستطع تجاهله، نظراً إلى قلقي حول هذه المسالة، إلا أن الجدة ترانكيليـنا كانـت على نحو قلق لا يتفق مع اسمها الذي يعني الهدوء. خلال حرب الألف يوم عرف جدي السجن في ريواتشا وكان ضابط السجن هو ابن عمهـا هـي حيـث كان ضابطاً في الجيش الحكومي المحافظ، لكن الأقارب الليبراليـن وهـي نفسها اعتبروا أن وضع الجد في السجن عمل عسكري لا علاقة للقرابة به، لكنها عندما علمت أنهم وضعوا الجد بين المجرمين العاديين أعلنت غضبها على الضابط، واستطاعت أن تخرج الجد من السجن باعتباره ثورياً لا يستحق هذا.

كان عالم الجد مختلفاً، فقد كان حتى سنواته الأخيرة خفيف الحركة، حاملاً حقيبة أدواته من مكان إلى آخر لإصلاح ما يمكن إصلاحه في البيت، أو لرفع المياه إلى الحمام برافعة المياه اليدوية طوال ساعات، أو يصعد السلالم ليتأكد مـن كمية المياه في الخزانات، في المقابل كان يطلب مني أن أربط له رباط أحذيـته لأنه كان يصاب بالتعب عندما يقوم بهذا العمل بنفسه. في أحد الأيام نجـا من الموت بمعجزة وذلك عندما حاول الإمساك ببغاء فانزلق وسقط إلى الأرض من ارتفاع أربعة أمتار. لم يصدق أحد أنه عاش بعد هذه السقطة على

الرغم من التسعين كيلوجرام التي يزنها، وأعوامه التي كانت تتعدى الخمسين، لا يمكنني أن أنسى هذا اليوم الذي فحصه فيه الطبيب عارياً في السرير شبراً شبراً، وســـأله عن جرح قديم لا يتعدى نصف البوصة، اكتشفه في فخذه، فقال الجد:

– إنه جرح رصاصة خلال الحرب.

لا أزال أذكـــر تلك اللحظة بحميمية، تماماً كما أذكر اليوم الذي كان يطل فيه إلى الشارع من نافذة مكتبه ليفحص حصاناً معروضاً للبيع، وشعر فجأة إن إحـــدى عينـــيه امتلأت بالماء، وعندما حاول حمايتها بيده بقيت في كفه مياه ســـائحة، لـــم يفقـــد عيـــنه اليمنى فقط بل أن الجدة منعته من شراء الحصان المسكون بالشيطان، فظل يضع على عينه عَصابة كعَصابات القراصنة إلى أن غـــيَّرها له طبيب العيون بعيونات زجاجية، وطلب منه أن يسير بعصا معدنية تحولـــت مع مرور الوقت إلى علامة مميزة له، تماماً كساعة جيب الصديرية الذهبـــية، التي تفتح واجهتها بقفزة موسيقية، كان دائماً رجلاً عاماً ومع تقدمه في العمر لم يتخل عن دوره كمغازل سري وعشيق محبوب.

فـــي حمَّام الصباح الطقسي في السادسة صباحاً، والذي كان يرافقني فيه خـــلال ســـنواته الأخيرة، كان نتبادل إلقاء مياه البركة بكوز وننتهي بإغراق أنفسنا بمياه زهور "لانمان" التي كنا يبيعها المهربون في صناديق معلبة، تماماً كالـــبراندي وقمصـــان الحريـــر الصـــيني. كان يقول إنه العطر الوحيد الذي يستخدمه لأنه لا يشعر به إلا من يستخدمه، لكنه تراجع عن هذه الفكرة عندما تعـــرف عليه أحد الأزواج من عطره على مخدة سرير زوجته. قصة أخرى كنـــت أســـمعها خلال سنوات، أنه في إحدى الليالي انقطع النور، فوضع الجد على رأسه زجاجة حبر، معتقداً أنها زجاجة عطره المفضل.

كان الجد يستخدم بنطلونات القطن الخام ذات الشراشيب الكلاسيكية خلال

أعماله اليومية في البيت، وأحذية خفيفة وغطاء رأس من القطيفة، أما بالنسبة لقـداس الأحـد، الذي تخلَّف عنه مرات قليلة في حياته ولأسباب قاهرة، كان يـرتدي بدلة كاملة من التيل الأبيض، وياقة بلاستيكية ورباط عنق أسود، تلك المناسبات جعلته شهيراً بأنه مغفل أو متعجرف، وأنا أعتقد الآن أن كل ما كان فـي البيـت فقط لأن الجد كان موجوداً، زواجه كان زواجاً فريداً مُعَبِّراً عن الأسـرة الذكورية الأبوية، التي يكون فيها الرجل هو الملك المطلق للبيت فيما تحكم الزوجة البيت؛ أي، كان هو الرجل الرقيق الحنون في السر فيما الزوجة تبذل كل جهدها لتضفي عليه السعادة.

ذهب الجدان في رحلة أخرى إلى بارانكيا خلال الاحتفال بالمئوية الأولى لمـيلاد سيمون بوليفار عام ١٩٣٠، ولحضور ميلاد شقيقتي الصغرى عايدة روسـا، الـرابعة في الترتيب العائلي، عند عودتهما إلى كاتاكا جاءوا بأختي مارجوت، كان عمرها لا يتعدى العام الواحد، فيما بقي مع أبوي شقيقي لويس أنريكـي والمولودة الجديدة، جاءت مارجوت إلى البيت كما لو كانت كائناً من عـالم آخـر، كانـت نحـيلة جداً، وتحمل عالماً داخلياً مغلقاً، عندما شاهدتها إيبجايـيل أم لويس كارميلو لم تفهم سبب تحمل جدي لهذه المسئولية، وقالت: "هـذه البنـت في طريقها إلى الموت"، على أي حال كانوا يقولون ذلك عني أيضاً، لأنني كنت قليل الأكل، وأرمش بعيني كثيراً، والأشياء التي كنت أقولها يعتـبرونها أكاذيب كبرى، دون أن يفكروا أنها كانت صحيحة في الكثير من تفصـيلاتها، وعلمت بعد ذلك بسنوات أن الدكتور باربوثا كان الوحيد المدافع عني، معلناً أسباباً علمية بقوله: "أكاذيب الأطفال علامة على موهبة كبيرة".

مـر وقت طويل قبل أن تتطبع مارجوت بالحياة العائلية، كانت تجلس في ركن قصي لتمص إصبعها، لم يكن يلفت نظرها أي شئ، عدا جرس الساعة، التـي كانـت تبحث عنها كل ساعة بعينيها الواسعتين المندهشتين، فشلوا في

إقناعها بتناول الطعام خلال أيام عديدة، كانت ترفض الطعام في هدوء، وكانت تلقــي به أحياناً في بعض الأركان، لم يفهم أحد كيف كانت لا تزال على قيد الحــياة، حــتى انتبهوا إلى أنها كانت تحب طين الحديقة الرطب وقطع الكلس التــي كانت تنزعها بأظافرها من الجدران، عندما اكتشفت الجدة هذا وضعت روث البقر في أرض الحديقة وخبأت قرون الشطة في أصص النباتات. عمدها الأب أنجاريــتا في حفل التعميد المتعجل نفسه الذي أقاموه لي. تلقيت تعميدي واقفاً على كرسي وتحملت ببطولة الملح البحر الذي وضعه القس على لساني وكــأس الماء الذي دلقه على رأسي، على عكس مارجوت التي رفضت الملح والماء بصراخ وحش جريح، وانتفض جسدها إلى درجة أن المحيطين بها بذلا جهداً كبيراً للامساك بها على كرسي التعميد.

أعــتقد اليوم أنها في علاقتها بي كانت أكثر تعقلاً من الكبار في علاقاتهم ببعضهم البعض. كانت علاقتنا غريبة جدا إلي درجة أننا في أحيان كثيرة كنا يقــرأ كــل مــنا تفكير الآخر، كنت ألعب معها ذات صباح في الحديقة عندما سمعنا صفارة القطار، تماماً مثلما كان يفعل في الحادية عشرة من كل صباح، لكــن هذا الصباح شعرت بأن في هذا القطار سيأتي طبيب شركة الموز الذي كــان قــد حقننــي قــبل شهور مما سبب لي قيئاً شديداً، جريت بطول البيت وعرضه معلناً وصول الطبيب بصرخات هيستيرية لكن لم يصدقني أحد، عدا شقيقتي مارجوت التي ظلت مختبئة معي إلى أن انتهى الطبيب من تناول طعام الغــداء وعــاد إلى القطار من جديد، وعندما عثرت علينا الجدة صرخت: "يا للعذراء الطاهرة، مع هؤلاء الأطفال لسنا في حاجة إلى التلغرافات".

لم أستطع التغلب مطلقاً على الخوف من البقاء بمفردي وبشكل خاص في الظــلام، لكنــي أعــتقد أن هذا الخوف له أصل محدد، لأنني أعيش في الليل تخيلاتــي ممتزجة بتشاؤمات الجدة، وأنا الآن في السبعين من عمري لا أزال

أرى فـــي الحلـــم اشتعال روائح الياسمين في الممرات، وأرى أشباح الغرف الغارقة في الظلام مختلطة دائماً بالإحاسيس التي كانت تغرق طفولتي: حرارة الليل. وكثيراً ما شعرت، خلال أرقي المرافق لي في رحلاتي عبر العالم، أنني أتحمل وزر ذلك البيت الأسطوري في عالم سعيد نموت فيه يوماً.

الغريب أن الجدة كانت تحافظ على البيت من خلال حاستها الواقعية، كيف كـــان ممكـــناً الحفاظ على ذلك القطار بتلك المصادر الشحيحة؟، الحسابات لا تستقيم، الجد تعلم مهنته كأب من أبيه الذي تعلمه بدوره من أبيه. وعلى الرغم من أن أسماكه الذهبية التي كان يصنعها بيديه منتشرة في كل مكان، إلا أنها لم تكـــن حرفة مربحة، إضافة إلى أنني عندما كنت طفلاً كنت أشعر أنه يصنعها ليملء أوقات فراغه أو يقدمها كهدايا الزواج، إلا أن شهرته كموظف جيد بقيت قويـــة منذ أن فاز حزبه الليبرالي في الانتخابات، وكان خلال تلك الفترة أمين صندوقه طوال سنوات، وتولى إدارة الضرائب لسنوات عدة.

لا يمكن أن أتخيل نفسي في وسط عائلي مفيد في مهنتي مثل بيت الجنون هذا، وبشكل خاص بسبب ملامح نسائه الكثيرات اللاتي تولين تربيتي. لم يكن هناك من رجال سواي والجد، وتولى هو نقلني إلى طور الرجولة الحزينة من خلال حكاياته عن المعارك الحربية الدموية، إضافة إلى شروح مدرسية حول الطـــيور وبرق الأمسيات، وشجعني على تنمية موهبة الرسم، كنت في البداية أرســم علـــى الجـــدران، إلى أن أعلنت النساء انزعاجهن من ذلك، فقد كانت الجـــدران هـــي أوراق الرسم التي أمارس عليها هوايتي، فغضب الجد، وأمر بطـــلاء حائط غرفة الأشغال اليدوية باللون الأبيض واشترى لي أقلاماً ملونة، وبعدها اشترى لي علبة ألوان مائية، حتى أرسم كما يحلو لي، بينما كان يصنع هو أسماكه الذهبية الشهيرة، وسمعته يقول في إحدى المرات إن حفيده سيصبح رســـاماً، لكـــن هـــذا لم يلفت انتباهي، لأنني كنت أعتقد أن الرسامين هم من

يدهنون الجدران.

من عرفوني في سن الرابعة يقولون إنني كنت شاحباً وشارد الذهن، وأنني مـــا أن افتح فمي حتى أقول أشياء مزعجة، لكن قصصي لم تكن سوى مقاطع مـــن الحـــياة اليومية، وأنا كنت أجعلها أكثر جاذبية بإضافة تفصيلات متخيلة ليلتفـــت الكبار إليّ. كانت محاورات الكبار أمامي ومن حولي أفضل مصادر تخيلاتي، لأنهم كانوا يعتقدون أنني لا أفهمها، أو تلك التي يلغزونها عن قصد حـــتى لا أفهمهـــا، بيـــنما كنت على عكس كل هذا: أمتصها كالإسفنج وأعيد تفكـــيكها قطعة، قطعة وعندما أقصها على من قصوها من قبل كانوا يصابون بالدهشة من تطابق ما كنت أقوله بما كانوا يقصدونه في محاوراتهم.

كنـــت أعجـــز أحياناً عن السيطرة على معرفتي فكنت أموهها بالترميش الســـريع، إلـــى درجة أن أحد البارعين من العائلة طلب عرضي على طبيب عـــيون، الذي عزا ترميش عيني على أنه ناتج عن التهاب اللوزتين، ووصف لي شراب الفجل المخلوط بالنبيذ الذي استمتعت بشربه في حضور الكبار، لكن الجدة من ناحيتها توصلت إلى نتيجة خاصة بها تقول إن حفيدها عرّاف، وهذا جعلهـــا تصـــبح ضحيتي المفضلة، إلى اليوم الذي أُصيبت فيه بالإغماء لأنني رأيت في منامي طائراً يخرج من فم الجد، فكان الاعتقاد بموت الجد كافيا لكي أخفـــف من حدة تنبؤاتي. أعتقد الآن أنها لم تكن تهيؤات طفل كما كان يعتقد البعض، بل كان تقنية راوي يحاول أن يجعل الواقع مفهوماً وأكثر جمالاً.

كانـــت خطوتـــي الأولى في الحياة الواقعية اكتشاف لعب كرة القدم في الشـــارع أو في أفنية الجيران، كان أستاذي في هذه اللعبة هو لويس كارميلو كوريا المولود بموهبة طبيعية لممارسة الرياضة وموهبة فذة في الرياضيات، أنـــا كنـــت أكـــبره بخمسة شهور لكنه كان يسخر مني لأنه كان أكبر حجماً، ويـــزداد طـــولاً أسرع مني، بدأنا اللعب بكرات الشراب، واستطعت أن أكون

حارس مرمى ممتاز، لكن عندما بدأنا نلعب بالكرة الحقيقية أُصبت بضربة في بطنـــي من ركلة قوية سددها لويس، قضت على تطلعاتي في هذه اللعبة. في اللقـــاءات التـــي جرت بيننا بعد أن كبرنا كنت سعيداً لأننا كنا لا نزال نتعامل بالطريقة التي كنا نتعامل بها في طفولتنا. إلا أن أكثر ذكريات تلك الفترة إثارة كان مرور لاعب شهير بقريتنا بدعوة من شركة الموز استضافوه على عربة مكشـــوفة إلـــى جـــوار فتاة شقراء محلولة الشعر وإلى جوارها كلب حراسة ألماني، تلك كانت حادثة غير عادية.

بـــدأت في التعاون في أداء القداس الكنسي دون اعتقاد حقيقي أو إحساس إيماني، جاء ذلك بعد دعوة الأب أنجاريتا لي بعد تعميدي الأول مباشرة عندما بلغـــت السادسة، أدخل هذا التعميد تغييرات مهمة في حياتي، علمني الشماس الأكـــبر كيفـــية المســـاعدة في أداء القداس، لكن مشكلتي الوحيدة كانت عدم معرفتـــي للحظـــة التي يجب أن أقرع فيها الجرس، فكنت أقرعه كلما عَنَّ لي ذلـــك، في ثالث مرة، استدار القس ناحيتي وطلب مني بجفاء إلا أقرع الجرس أبـــداً بعـــد الآن، أجمل ما في تلك الفترة أنه عندما كنا نبقى وحدنا: المساعد الآخـــر والشـــماس وأنا، لترتيب مائدة القداس كنا نلتهم القرابين ونشرب بقايا كأس النبيذ.

قبيل التعميد الأول طلب مني القس الاعتراف بلا ستائر، كان جالساً على كرســـي مـــرتفع يشـــبه كرســـي بابا حقيقي، وأنا راكع أمامه على مخدة من الصوف الاصطناعي، إلا أن القس استقبلني بقاموس من الخطايا، حتى أجيبه عـــن أيها أرتكبته قبل الاعتراف وأيها لم ارتكبه بعد، أجبته بشكل جيد إلى أن سألني إن كنت فعلت أشياء سرية مع الحيوانات، كانت لدي فكرة مشوشة عن ارتكاب الكبار خطايا مع الحيوانات، لكني لم أفهم أبداً تلك العادات السرية، إلا أنني علمت في تلك الليلة أنه من الممكن ارتكاب تلك الخطايا حتى مع الدجاج

أيضـــاً. لذلـــك أعتبر أن تعميدي كان سلمة جديدة باتجاه فقدان العذرية، لهذا السبب لم أجد سبباً يدفعني إلى العمل مساعداً للصلوات في الكنيسة.

أول تجـــربة حقيقة لي بعد ذلك كانت بعد أن رحل أبوي إلى كاتاكا برفقة شقيقي لويس إنريكي وشقيقتي عايدة، أما أختي مارجوت التي لا تكاد تتعرف على أبي، كانت تُصاب بالرعب من رؤيته، وأنا أيضاً كنت أخافه، إلا أنه كان دائمـــاً حريصاً في تعامله معي، فقط خلع حزامه الجلدي مرة واحدة لضربي، إلا أنني وقفت أمامه متحدياً وعضضت على شفتي مستعداً لاحتمال الألم حتى لا أبكـــي. فأنزل ذراعه، وبدأ يرتدي الحزام من جديد فيما كان يعنفني بالكلام على ما ارتكبت من أفعال. واعترف لي بعد ذلك خلال الحوارات الطويلة التي دارت بيننا بعد أن كبرت، فقال إنه كان يشعر بالألم عندما كان يهم بضربي، ولكنه كان يفعل ذلك خوفا من اتباعي طريقاً سيئاً، كان ظريفاً جداً في لحظات ســعادته، كـــان يحب إلقاء النكات أثناء تناول الطعام على المائدة، بعض تلك الـنكات كانـــت جـــيدة إلا أنه كان يكررها كثيراً إلى درجة أن شقيقي لويس إنريكي وقف مرة وقال:

– أخبروني عندما تنتهون من الضحك.

إلا أن العلقـــة التاريخية كانت عندما اختفى شقيقي ولم يعثروا عليه لا في بيـــت والـــدي ولا في بيت الجدين، وبحثوا عنه في القرية كلها إلى أن عثروا عليه في السينما. كان بائع المرطبات قد باع له مشروباً، واختفى دون أن يدفع الثمـــن أو يُعيد الكوب، وبائعة الشاندوتشات باعت له بعض الحلوى وشاهدته يـــتحدث مع بواب السينما، الذي تركه يدخل مجاناً لأنه قال له إن أباه ينتظره في الصالة، كانت السينما تعرض فيلم "داركولا" بطولة كارلوس فياريا، ولوبيتا توفـــار، من إخراج جورج ميلفورد، وظل لويس إنريكي يقص عليّ لسنوات طويلـــة لحظـــات الرعب التي عاشها عندما أضيئت أنوار السينما في اللحظة

التـــي أنشـــب فيها داركولا أسنانه في عنق الفتاة الجميلة، ثم شاهد أبى والجد يبحـــثان عنه يرافقهما صاحب السينما واثنين من رجال البوليس، وكانوا على وشـــك مغادرة المكان عندما اكتشفه كشاف الصالة في الصف الأخير وأشار إليه قائلاً:

- إنه هناك.

أخـــرجه أبي بجذبه من شعره، ثم كانت العلقة التي أوجعه بها في البيت حدثـــاً تاريخـــياً يمثل جزءاً من تاريخ العائلة، رعبي اختلط بسعادتي من هذا الحـــدث الـــذي حـــاول شقيقي أن يمارس خلاله استقلاليته، إلا أنه كان يشعر بالـــبطولة كلما مر بحدث مثل هذا، لكن تمرده لم يكن يمارسه عندما لا يكون أبى في البيت.

اختـــبأت أنـــا طوال طفولتي في ظل الجد، كنا معاً دائماً، في الصباح في حجـــرة الأشـــغال اليدوية أو في مكتب إدارة الضرائب، حيث أوكل إليّ عملاً لذيذاً: رسم شعارات البقرات التي تقرر ذبحها، كنت أُمارس عملي هذا بجدية جعلته يتخلى لي عن مكانه أمام المكتب، وكنت أجلس معه على رأس المائدة، ساعة الغداء. هو إلى جواره دورق الماء المثلج المصنوع من الألمونيوم، وأنا أمسك بملعقتي الفضية التي كنت أفعل بها كل شئ. كان يلفت الانتباه مد يدي في الدورق لإخراج قطع الثلج، فكانت تعوم على سطح الماء سحابة من الدهن بســـبب يدي الملوثتين، وكان جدي يدافع عن فعلي هذا بقوله: "إنه يتمتع بحق فعل أي شئ".

كـــنا نخرج في الحادية عشرة ساعة وصول القطار. كان ابنه خوان دي ديـــوس الـــذي كان يعيش في سانتا مارتا، يرسل له رسالة كل يوم مع سائق الـــرحلة مقابل خمسة سنتات، يجيب عليها جدي برسالة مع قطار العودة تكلفه خمسة سنتات. في المساء، عندما تنخفض الشمس باتجاه الغروب، كان يأخذني

مـــن يدي للقيام ببعض المهام الشخصية، نذهب إلى صالون الحلاقة ــ كانت تلك الزيارة أطول ربع ساعة في طفولتي ــ أو لرؤية استعراضات الاحتفالات الوطنـــية التي كانت تصيبني بالرعب، أو لرؤية مواكب الأسبوع المقدس ــ كـــانوا يحملـــون مسيحاً من لحم ودم ــ كنت ارتدي وقتها طاقية ملونة تشبه الألـــوان الاسكتلندية، جدي يمتلك واحدة مثلها، اشترتها لي الجدة مينا لأكون شـــبيهاً بـــه، إلى درجة أن العم كينتي كان يرانا كما لو كنا شخصاً واحداً في عمرين مختلفين.

كـــان جـــدي يأخذني في أي ساعة من ساعات النهار للتسوق من مركز شركة الموز التجاري، لمست هناك الثلج أول مرة في حياتي فأصابتني برودته بالرعب، كنت سعيداً بحريتي في أكل كل ما أريد. لكن جلسات لعب الشطرنج التـــي كان يشارك فيها جدي ذلك المدعو بالبلجيكي ــ كانت تصيبني بالسأم. أعـــرف الآن أنـــنا خلال جولاتنا تلك، كنا نرى عالمين مختلفين، جدي يرى عالمـــه في افقه، وأنا أرى عالمي فقط على مستوى عيني، هو يحيي أصدقاءه في شرفاتهم وأنا اشتاق إلى اللعب المعروضة للبيع على الأرصفة.

فـــي أول لـــيلة ننام فيها في بيت الأركان الأربعة، كان جدي يتحدث مع الســـيد أنطونيو داكونتي الذي استقبله على باب حانوته المشوش وأنا مندهش مـــن الأشـــياء الجديـــدة التي أطل عليها. يصيبني حواة الموالد بالجنون حين يخرجون الأرانب من القبعات، وأكلة اللهب، وعازفو الأكورديون الذين يغنون أحـــداث المقاطعة بصراخهم، أتذكر الآن أن أحدهم كان عجوزاً جداً وله لحية بيضاء من الممكن أن يكون الشهير فرانسيسكو أومبرى.

عـــندما يكـــون الفيلم مناسباً لي، كان أنطونيو داكونتي يدعونا إلى الحفلة المبكرة في صالون أوليمبيا، مما كان يثير الجدة التي كانت ترى فيه تحرراً لا يلـــيق بالحفـــيد البريء، إلا أن الجد كان يطلب مني في اليوم التالي أن أقص

الفــيلم أثــناء تناول الطعام وكان يذكرني بالأحداث التي أنساها، وإعادة بناء المشــاهد الصعبة، كانت كدروس فنون الدراما التي ساعدتني كثيراً فيما بعد، خاصة عندما بدأت في رسم أشرطة رسوم متحركة قبل أن أتعلم الكتابة، التي كــانوا يــتلقونها بالتحية وإن كنت بدأت أحب تصفيق الكبار لي، لكنها انتهت بإصــابتي بالسأم تماماً كما كان يحدث عندما كانوا يطلبون مني غناء مواويل الحب.

كــنا نقضـــي بعض الوقت في ورشة البلجيكي قبل أن تحين ساعة النوم، وهــو عجوز ظهر في أراكاتاكا بعد الحرب العالمية الأولى ولا أشك في إنه بلجيكـــي نظراً لنطقه اللغوي الغريب، وحنينه إلى الإبحار. الكائن الحي الآخر في ذلك البيت كان الدنمركي الضخم، كان ثقيل السمع ولوطياً، كان اسمه يشبه اســم الرئــيس الأمريكـــي: ودرو ويلسون، عرفت البلجيكي عندما كنت في الرابعة، كان الجد يلعب معه مباريات شطرنج خرساء ولا تنتهي، أدهشني أنه لــم يكن في بيته ما لا أعرف أنه يصلح لشيء، كان فناناً في صنع كل ما هو حــي وفوضــوي: مشاهد بحرية من الحلوى، صور لأطفال يحتفلون بأعياد مــيلادهم، ونســخ مــن الحلي الآسيوية، وتماثيل مصنوعة من قرون البقر، ودواليب من مختلف الأشكال، متراكمة على بعضها.

لفــت نظــري جلده الملتصق على عظامه، ولونه الذي يشبه لون شعره الشمســـي، وتتداح خصلة من الشعر على جبهته، وتمنعه من الحديث أحياناً، يدخــن غليوناً من عظم عجل البحر لا يشعله إلا عندما يلعب مباراة شطرنج، وكــان جدي يقول إنها شرك يشوش به على خصمه، كانت له عين زجاجية مخلخلــة فـــي مكانها وتبدو كما لو كانت تتابع الجالس أمامه أكثر من العين الســليمة، نصفه الأسفل عاجز عن الحركة، يميل بجذعه نحو الجانب الأيسر لكــنه كــان يــتحرك في ورشته كسمكة في بحر، لم أسمعه يتحدث أبداً عن

رحلاته البحرية، التي يبدو أنها كانت كثيرة، هوايته الوحيدة خارج بيته كانت السينما، ولم يكن يتخلف عن مشاهدة أي فيلم من أفلام حفلات نهاية الأسبوع.

لـم أحـبه مطلقاً، خاصة خلال مباريات الشطرنج التي كان ينتظر فيها ساعات ليحرك إحدى القطع بينما أكاد أموت من النعاس، شاهدته في يوم من الأيـام شـاحباً جـداً حـتى أنني توقعت موته في أي لحظة، فشعرت تجاهه بالأسى، ومع مرور الوقت تمنيت له الموت.

في تلك الفترة علق الجد صورة سيمون بوليفار في الغرفة، عانيت كثيراً لأفهـم سبب عدم وجوده في الصورة ملفوفاً في كفنه الذي كان فيه في صوره الجنائزية، فقد كان يبدو في الصورة واقفاً خلف مكتب ومرتدياً زيه العسكري خلال أيامه المجيدة، إلا أن جدي أنهى شكوكي بجملة نهائية:

– لقد كان هو المستقبل.

بعدها، أردف بصوت مزغرد لا يكاد يشبه صوت، بقراءة قصيدة عصماء معلقـة إلـى جوار الصورة، لم يبق منها في ذاكرتي سوى هذا البيت: "أنت، سـانتا مارتـا، كنت مضيافة، وفي حضنك، منحته قطعة من شاطئك البحري لـيموت فـيها". منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، ظللت على اعتقادي بأنهم عثروا على بوليفار ميتاً على رمال الشاطئ، وكان جدي هو من علمني وطلب منـي ألا أنسى أبداً أن ذلك الرجل كان من أعظم من ولدوا في تاريخ العالم، أصابتني تلك الجملة بالتشوش لتعارضها لجملة قالتها لي الجدة من قبل، فسألت الجد إن كان بوليفار أعظم من المسيح، فأجابني بعدم اقتناع:

– هذا شئ وذاك شئ آخر.

عرفت الآن فقط أن الجدة فرضت على الجد اصطحابي معه في جولاته، لأنهـا كنـت تعتقد أنه كان يقوم بها كغطاء لزياراته عشيقات متخيلات، ربما كـان صحيحاً أن نزهاته كانت غطاء لمثل تلك الزيارات، لكن في الحقيقة لم

يصـــحبني معه في تلك الزيارات أبداً، إلا أنني لا زلت أذكر أنى شاهدت الجد في أحد الأيام صدفة عبر باب بيت لا أعرف صاحبه، كان الجد جالساً كما لو كان هو سيد البيت، لم أفهم لماذا شعرت بأنه من واجبي ألا أقص هذا على أي شخص، واحتفظت بهذا سراً إلى طلوع شمس اليوم.

كـــان لجـــدي أيضـــاً شرف وضعي أمام أول حرف مكتوب عندما بلغت الخامســـة، كـــان ذلك في أمسية اصطحبني فيها لمشاهدة حيوانات سيرك كان ينصـــب خـــيمة ضـــخمة في كاتاكا تشبه الكنيسة، لفت نظري وجود حيوان اجتراري يشبه أما مرعبة، وقال لي الجد:

– إنه جمل.

عارضه شخص ما كان قريباً منا بقوله:

– معذرة، يا سيدي الكولونيل، إنه هجين.

أســـتطيع أن أتخيل الآن إحساس الجد لأن شخصاً صحح له معلوماته في حضور الحفيد، لكنه أجاب سريعاً بسؤال معاكس، قائلاً:

– ما الفرق؟.

قال الآخر:

– لا أعرف الفارق، لكني متأكد من أن هذا هجين.

لـــم يكـــن الجد مثقفاً، ولم يرغب في أن يكون كذلك، هرب من المدرسة الحكومية في ريواتشا ليقاتل أثناء الحروب الأهلية الكثيرة المشتعلة في منطقة الكاريبي، لم يعد بعدها إلى الدراسة أبداً، إلا أنه ظل طوال حياته واعياً بفراغ ذهـــنه من الثقافة، لذلك اكتسب معارف حياتية لتغطية عجزه من هذه الناحية. عـــاد من أمسية السيرك بإحساس المهزوم ودخل إلى المكتب وطالع القاموس بحمـــاس طفولي، وحينها عرف هو وأنا الفارق بين الهجين والجمل، وأخيراً

وضع في أحضاني القاموس قائلاً:

– هذا الكتاب يعرف كل شئ، وأيضاً هو الكتاب الوحيد الذي لا يخطئ.

كـــان مجلداً ضخماً مزيناً بالرسوم وعلى كعبه تمثال هائل على كل كتف من أكتافه قبة كونية، لم أكن أعرف لا الكتابة ولا القراءة، تخيلت أن الكولونيل كـــان لديه الحق لأن المجلد يحتوي على ما يقرب من ألفي صفحة من القطع الكبـــير، محشـــوة برســـوم جميلة. إذا كان كتاب الصلوات الكنسية أدهشني بحجمه، فإن القاموس كان اكبر حجماً، كان هذا الحدث كما لو أنني أطل على العالم أجمع دفعة واحدة، سألت:

– كم كلمة يحتويها؟.

أجاب الجد:

– كل الكلمات.

الحقيقة أنني لم أكن وقتها في حاجة إلى الكلمة المكتوبة، لأنني كنت أُعبِّر بالرسم عن كل ما يدهشني، عندما كنت في الرابعة رسمت ساحراً يقطع رأس امـــرأة ثم يعيدها إلى مكانها، كما فعل ريتشاردين في صالون سينما أوليمبيا، كـــان الرسم يبدأ بقطع الرقبة بالمنشار، ثم تتلوها صورة التفاخر بالرأس الذي يقطر دماً، وتنتهي بالتصفيق والرأس في مكانه كما كان. الحكايات المصورة تـــم اخـــتراعها قبلـــي، ولكني عرفتها فقط من خلال الملحق الملون للصحف الأســـبوعية. حيـــنها بـــدأت أؤلف حكايات مرسومة بلا حوار، إلا أنه عندما أهدانـــي الجد القاموس أيقظ في داخلي حب الاستطلاع للتعرف على الكلمات حـــتى أننـــي قرأته كرواية من خلال التصنيف الأبجدي ودون أن أفهم شيئاً. كانت تلك اللحظة الأولى للاقتراب من الكتاب الذي غيَّر حياتي باتجاه الكتابة.

يقصـــون على الأطفال حكايات؛ الهدف منها جذب انتباههم، ويجب بذل

جهد كبير ليستمعوا إلى الحكاية الثانية، لكني أعتقد أن وضع الأطفال الروائيين مخـتلف، وهذا لم يكن في حالتي فقط، كنت أريد المزيد من القصص، نهمي لسـماع القصـة الأولى كان يدفعني إلى انتظار قصة أفضل في اليوم التالي، خاصة تلك القصص التي لها علاقة بأسرار التاريخ المقدس.

كـل ما يحدث لي في الشارع كان ينعكس على البيت، نساء البيت يحكين فـي المطـبخ قصصـي للغرباء القادمين بالقطار، الذين لديهم أشياء أخرى لحكايـتها، وكل هذه الحكايات تعود إلى تيار الحكايات الشفهية، بعض الوقائع نعـرفها أولاً من خلال عازفي الأكورديون في الموالد، ويعود المسافرون إلى قصـها من جديد وإثرائها بتفاصيل أخرى، إلا أن الأكثر إدهاشاً في طفولتي، وجدته في الصباح الباكر لأحد أيام الأحد، عندما كنا في طريقنا للقداس، كانت جملة عابرة لجدتي:

– نيكولاس المسكين لن يتمكن من اللحاق بالقداس.

فرحت جداً، لأن قداس الأحد كان طويلاً جداً على من هم في مثل سني، وأعـتقد أن خطـب الأب أنجاريتا الذي أحببته في طفولتي تبدو كما لو كانت أوامـر، لكن فرحتي لم تتم، حيث أخذني الجد إلى ورشة البلجيكي رغم أنفي، بملابسي القطيفية الخضراء التي ارتديتها خصيصاً للقداس، وكانت ضيقة على ساقي. تعرَّف الحراس على الجد من بعيد وفتحوا له الباب بحركات طقسية:

– تفضل يا سيدي الكولونيل.

عـندها فقـط علمت أن البلجيكي تناول سم السيانور الذهبي، تقاسمه مع كلبه– بعد أن شاهد فيلم "لا جديد على الجبهة"، فيلم لويس ميلستون عن رواية إريك ماريا ريمارك، الحاسة الشعبية التي تأخذ الحقيقة إلى حيث لا يعتقد أحد، هـذه الحقـيقة التـي فهمها البلجيكي عندما فقد جزءاً من جسده خلال إنزال نورماندي.

كانت صالة الاستقبال مظلمة بسبب النافذة المغلقة، لكن أول أضواء النهار أضـــاءت الغـــرفة، حيث كان العمدة ينتظر برفقة اثنين من الحرّاس وصول جدي، كان الجسد هناك مغطى ببطانية وجزءاً من قماش خيمة عسكرية، وإلى جـــواره عكازيـــه، حيث تركهما قبل أن يموت، وعلى مائدة خشبية قريبة منه كانـــت الـــزجاجة التـــي تطاير منها السيانور، وورقة مكتوبة بحروف كبيرة مرســـومة بريشة تقول: "لا تتهموا أحداً بموتي، قتلت نفسي لأنني لست سوى جـــثة". أنهى الجد الإجراءات الرسمية وإجراءات الجنازة بسرعة، كانت أكثر عشر دقائق مؤثرة في حياتي.

هـــواء الغـــرفة كان أول ما أثارني منذ دخولي من الباب، عرفت بعدها بســـنوات أنهـــا كانت معبقة برائحة اللوز المر للسيانور الذي تناوله البلجيكي ليموت، لكن هذه الرائحة أو غيرها لم تكن مثيرة كالجسد عندما أزاحه العمدة ليلقـــي عليه الجد نظرة أخيرة، كان عارياً ومتخشباً وملتوياً على نفسه، وجلده خشن ومغطى بالشعر الأصفر، وعيناه ساكنتان تنظران نحونا كما لو كان حياً. رؤيـــة الموت ظلت تطاردني لسنوات، وأتذكرها كلما مررت إلى جوار مقابر المنتحرين الخالية من الصلبان خارج الجبانة بأمر من الكنيسة، إلا أن اكثر ما أستعيده في ذاكرتي ويُثير فيّ الرعب ليس رؤية الجثة بل الليالي التي أمضيتها في بيته، وربما لهذا السبب قلت لجدي أثناء مغادرتنا البيت:

– البلجيكي بالطبع لن يعود إلى لعب الشطرنج مرة أخرى.

كانـــت فكـــرة ســـهلة، لكـــن جدي رددها على العائلة كما لو كانت فكرة عبقرية، وقامت النساء بنشرها بحماس شديد، إلى درجة أنني كنت أهرب من الـــزوار خوفا من إجباري على ترديدها أمامهم، كشف لي هذا أيضاً، أن مثل تلك الأفكار أفادتني كثيراً ككاتب: كل واحد يقص الموقف مع بعض التفاصيل المخـــتلفة عـــن القصة الأصلية، ولا يتخيل أحد مدى إحساسي من وقتها تجاه

الأطفال الموهوبين الذين يجبرونهم على الغناء أو تقليد الطيور، وحتى الكذب لجـذب اهتمام الضيوف، فهمت اليوم أيضاً أن تلك الجملة البسيطة كانت أول نجاح أدبي أحصل عليه.

هكـذا كانت حياتي حتى عام ١٩٣٢، عندما أعلنوا أن الجيش البيرواني بقـيادة الجـنرال لويـس ميجيل سانشيث ثيرو احتل قرية "ليتيثيا" الخالية من الجنود، على نهر الأمازون في أقصى جنوب كولومبيا. كان للنبأ وقع الطبول في كل الوطن، حيث أعلنت الحكومة حالة الاستنفار العام، وفتحت باب التبرع بالحلي والجواهر العائلية، وانتشرت حمى الوطنية بطول البلاد وعرضها، ولم يكـن لدى الجباة الوقت لجمع كل التبرعات فتطوع العديد لجمع التبرعات من البـيوت، خاصـة خواتم الزواج ذات القيمة العاطفية أكثر من قيمتها المادية الحقيقية.

بالنسـبة لي كانت تلك الفترة من أكثر الفترات سعادة بسبب الفوضى التي تسـببت فـيها تلـك الحرب، حيث تم تحطيم النظام العقيم في المدارس التي تحولـت إلى الشوارع وبيت الإبداع الجماهيري، وتم تشكيل جيش مدني من الشـباب دون تميـيز بين الطبقات والألوان، وتشكيل وحدات نسائية للصليب الأحمـر، وتـم ارتجـال أغنـيات عن الحرب والموت أمام العدو الغاصب، وانطلقت صرخة موحدة في كل الوطن: "عاشت كولومبيا، تسقط البيرو".

لـم أعـرف أبداً كيف انتهت تلك المسألة نظراً لهدوء المسألة بعد مرور بعض الوقت دون تفسير يُذكر، وجاء السلام إثر اغتيال الجنرال سانشيث ثيرو علـى أيـدي معارضـي حكومـته الدموية، وتحولت صرخات الحرب إلى صـرخات إعـلان الانتصارات في مباريات كرة القدم المدرسية، لكن أبوي اللذين تبرعا للحرب بخاتمي زواجهما لم ترضهما تلك التسوية.

أعـتقد أن موهبتي الموسيقية بدأت تظهر خلال تلك الفترة بتعلقي بعازفي

الأكورديـــون بأغانيهم المرتجلة، كنت أحفظ بعضها عن ظهر قلب، كتلك التي كانـــت تغنيها الخادمات بصوت خفيض في المطبخ لأن جدتي كانت تعتبرها أغـــانٍ منحطة، إلا أن تانجو كارلوس جارديل كانت أول تحقق شخصي لي، كنـــت أرتدي ملابس تشبهه، وأضع على رأسي قبعة من الفلين، وحول عنقي ملفحـــة مـــن الحرير، ولم أكن في حاجة إلى أن يلح عليّ أحد لأغني، إلى أن جـــاء ذلك الصباح الحزين الذي أيقظتني فيه العمة ماما بنبأ وفاة جارديل في حادث طائرة بالقرب من مدينة ميديين الكولومبية. وكنت قبلها غنيت في حفل خـــيري أغنيـــته "المنحدر". وكان نجاحاً منقطع النظير، إلى درجة أن أمي لم تتمكن من معارضتي عندما أعلنت أنني أريد أن أتعلم العزف على البيانو بدلاً من الأكورديون الذي تكرهه الجدة.

في تلك الليلة نفسها أخذتني أمي إلى الأخوات تشاباري ليعلمنني العزف، وبيـــنما كانت تتحدث معهن، كنت أنا أتأمل بوله البيانو من الطرف الآخر من الصـــالة، وأحاول التوصل إلى حجم المسافة بين ساقي القصيرتين والبدالات، كانـــت زيارة مفعمة بالآمال الجميلة، لكنها ذهبت هباء، لأن المدرِّسات قلن لنا في النهاية إن البيانو معطل، ولا تعرفن متى يأتي الفني لإصلاحه، وتم تأجيل الفكـــرة، وبعد سنوات عندما ذكَّرت أمي بهذه الفكرة وإلى أي مدى كان الألم الذي شعرت به لعدم تحقيقها، تنهدت قائلة:

- الأسوأ من كل هذا أن البيانو لم يكن معطلاً.

حيـــنها عرفت أنها اتفقت معهن على إعلان عطل البيانو لتجنيبي عذاب الـــدروس التـــي مـــرت هي بها من قبل خلال سنوات المدرسة الخمس، جاء العـــزاء في فتح مدرسة في كاتاكا تقوم مدرساتها على تنمية الحواس الخمس مـــن خلال الغناء، كانت مديرتها روسا إلينا تقوم بمهمتها بسحر خاص، معها تعلمت تنمية حاسة الشم، لنشعر بالحنين، وحاسة التذوق التي نميتها إلى درجة

أنني تذوقت مشروبات لها طعم النافذة، وخبز قديم له طعم الصندوق، ومشروبات ساخنة لها طعم القداس؛ نظرياً من الصعب فهم تلك الملذات الشخصية، لكن من جربها يفهم هذا على الفور.

لا أعتقد أن هناك منهجاً أفضل من منهج المدرسة المونتسيوريانية لتعليم الأطفال جمال العالم، وإيقاظ حبهم لمعرفة أسرار الحياة، وإن اتهموهم بأنهم يوقظون في الأطفال الاستقلالية والفردية. ربما كان هذا صحيحاً في حالتي أنا لكن الحقيقة أنا فشلت في تعلم القسمة أو الجذر التربيعي، أو التعامل مع الأفكار المجردة. كنا صغاراً حتى أنني لا أكاد أتذكر سوى زميلين من زملاء الدراسة: خوانيتا ميندوثا ماتت بالتيفود في عمر السابعة، بعد افتتاح المدرسة بفترة قليلة، وفجعت فيها حتى أنني لا أستطيع أن أنساها بتاجها الأبيض وملابس العرس في جنازتها؛ الآخر كان جييرمو أبالدا، صديقي منذ أول راحة للعب، وطبيبي الحميم لعلاجي من آثار سكرات سهراتي الأسبوعية.

ربما كانت شقيقتي مارجوت تعيسة في تلك المدرسة، وإن لم أتذكر أنها قالت ذلك، كانت تجلس في كرسيها بالفصل الأول وتظل صامتة حتى في ساعات اللعب، تنظر إلى نقطة غير محددة حتى تسمع جرس نهاية اليوم الدراسي. لم أعرف مطلقاً أنها كانت تمضغ في الدرس طيناً من حديقتنا كانت تحمله معها في جيب مريلتها.

واجهت صعوبة كبيرة في تعلم القراءة، لم أكن أعتقد أنه من المنطقي أن ننطق حرف "الميم" على أنه "ما"، ولا منطقية ربط هذا الحرف بالحرف المتحرك التالي له دون أن يتغير نطقه، وعندما دخلت المدرسة لم يعلمني المدرس الأسماء بل علمني أصوات الأحرف الساكنة، وبعدها تمكنت من قراءة أول كتاب عثرت عليه متربا في مخزن بيتنا، كان مفرد الأوراق إلا أنه سحرني إلى درجة أن خطيب عمتي سارا عندما رآني أطالعه قفز صارخاً: "يا

الله لدينا طفل سيصبح كاتباً".

وكمــا قــال فأنا أعيش من الكتابة. أدهشني الكتاب جداً، ومرت سنوات طويلــة قــبل أن أعرف أن هذا الكتاب هو جزء من "ألف ليلة وليلة"، وأكثر قصصه التي أعجبتني كانت قصة قصيرة جداً وبسيطة جداً لا أزال أعتقد أنها أجمــل قصــة مكــتوبة، تقول: "أن صياداً وعد جارته أن يهديها أول سمكة يخرجها من البحر، وعندما فتحت المرأة بطن السمكة عثرت على ماسة بحجم اللوزة.

ربطــت دائمــاً بين الحرب مع البيرو وأفول الحياة في كاتاكا، فما أن تم توقــيع اتفاقية السلام حتى بدأت سلسلة من المشاكل تلاحق أبي انتهت بانتقال العائلــة إلــى قريــته الأصلية "سينثي"، رافقناه لويس إنريكي وأنا في رحلة اســتطلاعية كانت في الحقيقة مدرسة حياتية بالنسبة لنا، الثقافة هناك مختلفة عــن ثقافتــنا حــتى تصورنا أننا من كوكبين مختلفين، بدأنا من اليوم التالي لوصولنا في تعلم ركوب الحمير وحلب البقر وخصي العجول ونصب الشراك لصيد السمان، وصيد السمك بالسنارة، وعرفنا لماذا يشتبك الكلب مع أنثاه أثناء أداء فعل الحب. كان لويس إنريكي يسبقني دائماً في اكتشاف العالم الذي أخفته عنا الجدة مينا، والذي حدثتنا عنه الجدة أرخيميرا في سينثي دون أدنى خجل، كان الأعمام والعمات وأبناء العمومة مختلفي الألوان، ووجدنا أنفسنا بين الكثير مــن الأقارب من مختلف الألقاب، ويتحدثون بلهجات مختلفة مما سبب لنا في الــبداية بعــض الخلط، إلى أن توصلنا إلى أنها طريقة جديدة لإعلان المحبة، والــد والدنــا السيد جابرييل مارتينيث الذي كان في السابق مدرساً في إحدى المــدارس المعــروفة، استقبلنا أنا ولويس إنريكي في فناء تحت ظلال أشجار عملاقة كانت الأكثر شهرة في القرية كلها بحبات المانجو الكبيرة، كان يقص علينا واحداً واحداً أول محصول سنوي جناه، كان يقطفه بيديه، ويبيعها بسنتيم

واحـــد للحبة، وهو أعلى سعر في ذلك الوقت، عندما ودعناه بعد ثرثرة طويلة حــول ذاكـــرته كمعلـــم ممتاز، قام بقطف حبة مانجو ضخمة أهداها لنا نحن الاثنين.

أقنعـــنا أبي بأن تلك الرحلة تعتبر خطوة مهمة للحفاظ على وحدة العائلة، لكـــن مـــنذ لحظة وصولنا اكتشفنا أن هدفه السري من تلك الرحلة هو افتتاح صـــيدلية في الميدان الرئيسي للقرية، تم إلحاق شقيقي وأنا في مدرسة لويس جابريـــيل ميسا، التي كنا نشعر فيها بحرية اكثر وتسهل اختلاطنا في المجتمع الجديـــد. أجـــرنا بيتاً كبيراً في أفضل مكان بالقرية، كان من طابقين وشرفة بطول الميدان، كانت غرفه فارغة وواسعة.

كان كل شئ مُعداً لوصول الأسرة السعيدة عندما وصلنا تلغراف بنبأ موت الجـــد نـــيكولاس ماركيز. كان قد أُصيب فجأة بالتهاب في الحلق تم تشخصيه علـــى أنـــه سرطان في حالة متأخرة، فنقلوه إلى مستشفى سانتا مارتا بسرعة ليموت هناك. كان شقيقي جوساتبو الوحيد من الأسرة الذي شاهده في لحظاته الاخـــيرة، كـــان شقيقي في شهره السادس وقام أحدهم بوضعه بين يدي الجد ليودعه، وقام الجد بمداعبته المداعبة الأخيرة، كنت في حاجة إلى فترة طويلة من الزمن لأفهم معنى موته غير المتوقع.

لـــم يكن الرحيل إلى سينثي فقط بالأخوة، بل شمل الجدة مينا والعمة ماما المريضـــة، وكلاهما كانتا تحت رعاية العمة با، إلا أن فرحة الانتقال وحزن الفشـــل حـــلا معاً في وقت واحد، قبل مرور عام واحد، فقد عدنا جميعاً إلى البيـــت القديم في كاتاكا، وبقي أبي في بارانكيا يدرس الطريقة المثلى لافتتاح صيدلية هناك.

آخـــر ذكرياتي عن بيت كاتاكا في تلك الأيام كانت النار الموقدة في الفناء التـــي أحـــرقوا فـــيها ملابس الجد، قبعاته الحربية، وملابسه الكتانية البيضاء

ككولونيل مدني كانت تبدو مثله تماما، كما لو كانوا يحرقونه بداخلها، خاصة قـــبعاته القطيفية التي كانت تعتبر جزءاً من هويته، من بين تلك القبعات كانت قبعتي الأسكتلندية التي احترقت صدفة لوجودها بين متعلقات الجد، اشعر اليوم بوضـــوح أن شيئاً مني قد مات مع موت الجد، وأعتقد أيضا، أنني كنت كاتباً في مدرسة أولية.. ما ينقصني هو تعلم الكتابة فقط لأكون روائيا.

كان هذا هو إحساسي لحظة خروجي من البيت برفقة أمي بعد أن عجزنا عـــن بيعه، وبما أن قطار العودة كان يمكن أن يعود في أي لحظة، فقد ذهبنا إلى المحطة مباشرة دون أن نحيي أي من الجيران، قالت أمي: "سنعود في يوم آخـــر ويكون لدينا الوقت لذلك"، كانت تقولها بنية أننا لن نعود أبدا بعد اليوم، بالنســـبة لي لم أكن أعرف أنه في تلك اللحظة سأشتاق دائماً إلى برق أمسيات القرية.

كنا الشبحين الوحيدين في المحطة، بالإضافة إلى عامل التحويلة الذي كان يبيع التذاكر أيضاً، ويقوم بأعمال عشرين أو ثلاثين من العمال في زمننا هذا. كـــان الحر يذيب الحديد، لم يكن على الجانب الآخر من السكك الحديدية سوى بقايـــا شبحية لمدينة شركة الموز المحرمة، كانت مبانيها الضخمة بلا أسقفها الحمراء، وتساقطت النخلات بين حشائش، وتهدمت أسوار المستشفى.

بمجرد النظر إلى أي شئ كان ذلك يوقظ في إحساساً بالتشوق للكتابة حتى لا أمـــوت، شعرت بهذا الإحساس نفسه مرات عديدة، لكنني في ذلك الصباح شـــعرت أنهـــا حالة من حالات بداية الإلهام، تلك الكلمة الكريهة الواقعية جداً التي تهز الكيان.

لا أذكر أنني تحدثت مع أمي عن أي شئ آخر، ولا حتى أثناء العودة في القطار. في اللنش، فجر الاثنين، وتحت تأثير نسمات النهر النائم، انتبهت أمي إلى أنني لم أنم، فسألتني:

- فيما تفكر.

أجبتها بطريقة حاولت أن تكون لطيفة:

- أنا أكتب، أعني، أنا أفكر فيما سأكتب عندما أصل المكتب.

- ألا تخاف أن يموت أبوك من الحسرة.

انفجرت فيها بشكل عفوي:

- كانت لديه أسباب كثيرة ليموت، وهذا السبب أقلها تأثيراً.

لم يكن هذا الوقت مناسباً لأبدأ رواية ثانية بعد أن غرقت في الأولى حتى أذنـــي، نجاحي في كتابة شكل جديد من عدمه لم يكن مهماً، إلا أنني في تلك اللــيلة عاهدت نفسي أن أكتبها أو أموت، أو كما قال ريلكه: "إذا كنت تستطيع أن تعيش دون أن تكتب، فلا تكتب".

مـــن خلال نافذة التاكسي الذي أخذنا من المحطة وحتى مرسى اللنشات، بـــدت مدينتـــي غريبة وحزينة تحت أضواء الصباح الأولى في ذلك اليوم من فـــبراير. دعاني قبطان اللنش "ألين مرثيدس" أن أرافق أمي حتى قرية سينثي حيـــث تعيش العائلة منذ عشر سنوات، ودون تفكير ودعتها بقبلة ونظرت هي في عيني، وابتسمتْ لأول مرة منذ الليلة الماضية، وسألتني بطريقتها الماكرة:

- إذن، ماذا أقول لأبيك؟

أجبتها من كل قلبي:

- قولي له أنني أحبه جداً، وأنني بفضله سأصبح كاتباً.

ثم واصلت بقوة لا تدع مجالاً للشك:

- لن أكون سوى كاتباً.

كنـــت أقـــول لها ذلك هازلاً في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى بجدية،

لكني لم أكن أبداً واثقاً مما أقول مثل تلك المرة، وقفت على الرصيف أرد على تحـيات أمـي البطيئة التي كانت تبعث بها من اللنش إلى أن اختفى بين بقايا السفن، حينها انطلقت إلى مكاتب صحيفة "الهيرالدو" بإحساس لذيذ للإقبال على الكتابة، ودون أن أترك مجالاً للراحة بدأت الرواية الجديدة بالجملة التي قالتها أمي: "جئت أطلب منك أن ترافقني لبيع البيت".

منهجـي في الكتابة حينها كان مختلفاً عنه بعد ذلك ككاتب محترف، كنت أكتـب حسـب الترتيب المفهرس، لا زلت أمارس هذه الطريقة لكني لم أكن أترك المقطع حتى أنتهي منه تماما، ــ كما أفعل الآن ــ لكني كنت اكتب كل مـا احملـه بداخلي دون ترتيب. اعتقد أن ذلك نظام من الكتابة كانت تفرضه نوعـية الـورق المسـتطيلة المقطوعة من بكرات المطبعة، والتي كان يصل طولهـا أحـياناً إلى ما يقرب من خمسة أمتار. فتكون النتيجة أن النص يشبه أوراق الـبردي المسـتطيلة التي تخرج من الآلة الطابعة، وتمتد على أرضية الغـرفة ولا يـتوقف الطـول حتى الانتهاء من الكتابة. لم يكن مدير التحرير يطلـب الكـتابة بعـدد معيـن من الصفحات، أو بعدد الكلمات أو حتى بعدد الحـروف، بـل بعدد السنتيمترات الورق، كان يقول: "أريد تحقيقاً بطول متر ونصف المتر"، ظللت أحن وأنا في كامل نضجي لهذا الشكل من الكتابة، حتى انتبهت إلى أن تلك الطريقة تشبه الكتابة على شاشة الكمبيوتر.

الاندفاع الذي بدأت به الرواية كان شديداً إلى درجة أنني فقدت الإحساس بالزمـن، كتبـت حوالـي المـتر بحلول الساعة العاشرة، لدرجة أن ألفونسو فويـنماير وقف مشدوهاً عند الباب الرئيسي وظل ممسكاً بالمفاتيح في القفل، كما لو كان أخطأ الطريق ودخل الحمَّام بدلاً من حجرة المكتب، ولم يخرج من دهشته حتى انتبه إلى أنني أنا، فقال بدهشة:

– وأنت، ماذا تفعل هنا في هذه الساعة بحق الشيطان.

قلت له:

- إنني أكتب رواية عمري.

قال بسخريته المعهودة:

- رواية أخرى، إذن أنت لك أرواح أكثر من عدد أرواح القط.

وحتى لا أتورط في شروح لا قيمة لها، قلت له:

- إنها الرواية نفسها ولكني أكتبها بطريقة مختلفة.

اخرج من حقيبته المهلهلة كتباً وأوراقاً ووضعها على المكتب فيما قدمتُ لـــه شـــرحاً مســـهباً ومحمومـــاً لحكاية رحلتي. في النهاية لم أستطع مقاومة تلخيصها في جملة واحدة، فقلت له:

- إنه أعظم شئ حدث لي في حياتي.

قال ألفونسو:

- لحسن الحظ أنه لن يكون الحدث الأخير.

لـــم يفكر فيما قال، لأنه هو أيضاً لا يستطيع إلا أن يقيس الأشياء بحجمها المناسب، إلا أنني كنتُ أعرفه جيداً إلى درجة أنني فهمت أن حماسي للرحلة لم يؤثر فيه كما حدث معي، لم يكن هناك شك في أنها لفتت انتباهه، لذلك بدأ مـــن اليوم التالي في طرح أسئلة تبدو اعتيادية في كل الاتجاهات، لكنها كانت أســـئلة كاشـــفة عـــن سير الكتابة في الرواية، وكانت مجرد إشارة منه كافية لأتوقف عن الكتابة، وأفكر في تصحيح شئ ما.

عـــندما كـــنا نتـــبادل الحديـــث قمـــت بجمـــع أوراقي لأترك له المكتب خالـــياً، كـــان علـــى ألفونســـو أن يكتـــب افتتاحـــية العدد، إلا أن النبأ الذي حملـــه إلـــيّ أســـعدني كثـــيراً، فقـــد تـــم إرجـــاء إصدار العدد الأول للمرة الخامســـة بســـبب نقـــص فـــي توريـــد الورق، وقال ألفونسو إنه في أفضل

الحالات لن نصدر قبل مرور ثلاثة أسابيع.

فكرت في أنه وقت كافٍ لتتضح معالم الرواية، لأنني كنت لا أزال عديم الخـــبرة حتى أعرف أن الرواية لا تبدأ كما يريد الكاتب، بل كما تريد الرواية نفسها أن تكون، إلى درجة أنه بعد مرور ستة أشهر بعد ذلك، وعندما اعتقدت أنني قاربت على الانتهاء، أعدت كتابة الصفحات العشر الأولى بشكل مختلف حتى أستطيع أن أقنع القارئ، ولا زلت حتى هذه اللحظة أعتقد أنها لم تكن كما يجـــب، وأن التأخـــير كان مناسباً أيضا لألفونسو، لأنه بدلاً من التأسي على التأخـــير خلـــع الجاكـــتة وبدأ في تصحيح الطبعة الحديثة لقاموس الأكاديمية اللغوية، الذي وصلنا قبل أيام، كانت تلك هوايته المفضلة منذ أن اكتشف خطأ فـــي قاموس اللغة الإنجليزية، وأرسل بالتصحيح الموثق إلى الناشر في لندن، ربمـــا كـــان هدفه مجرد مداعبتهم على طريقتنا بقوله: "أخيراً يدين الإنجليز للكولومبييـــن بشيء". أجابوا على رسالته برسالة رقيقة يعترفون فيها بالخطأ، ويطلـــبون مـــنه أن يســـتمر في التعاون معهم. وظل هكذا لعدة سنوات، ولم يكتشـــف فقـــط أخطاء في هذا القاموس بل اكتشف أخطاء في قواميس لغات أخـــرى، ومـــا إن مضى وقت على علاقته بالناشر حتى تحوّلت الهواية إلى إدمـــان، فقـــد كان يُصحح قواميس باللغات الإنجليزية والإسبانية والفرنسية، وعندما يكون لديه الوقت للانتظار عند إجراء مقابلة أو انتظار الأتوبيس، كان يقتل الوقت باصطياد الأخطاء بين أعشاب اللغة.

في الثانية عشرة كان الحر المشبع بالرطوبة شديداً، ودخان سجائرنا خفف كثـــيراً من ضوء النافذتين الوحيدتين في الغرفة، ومع ذلك لم يتحرك أي منا لفـــتح الـــنوافذ لتهوية المكتب، ربما بسبب الإدمان كنا نرغب في امتصاص الدخـــان نفســـه حـــتى المـــوت، لكن الدخان مع الحر كان أمراً مختلفاً، كنت محظوظاً لأنني أحتمل الحر حتى ثلاثين درجة في الظل، لكن ألفونسو لم يكن

يحـــتمل ذلك فظل يخلع ملابسه قطعة وراء قطعة دون أن يتوقف عن مهمته: ربطـــة العنق، والقميص الداخلي، الهدف طبعاً أن تظل الملابس جافة ونظيفة فـــيما كـــان هـــو غارقاً في عرقه، حتى يمكنه أن يرتديها مجدداً عندما تغيب الشمس، فتكون على جسده جافة ومكوية كما في الصباح، وهذا كان وراء سر ظهـــوره فـــي أي لحظة بملابسه البيضاء، وأربطة عنقه سيئة العقدة، وشعره الهـــندي الجاف المفترق في المنتصف بخط هندسي. في الواحدة عند منتصف الـــنهار كان على هذه الهيئة، وعندما خرج من الحمَّام كان كما لو كان خارجاً من حلم، وعندما مر إلى جواري سألني:

– نتناول الغداء؟

قلت له:

– لا أشعر بالجوع يا معلمي.

كانـــت إجابتـــي في عُرف المهنة مباشرة، لو قلت: نعم أنا جائع كان هذا يعنـــي أنني في أزمة عاجلة، ربما لم أكن قد أكلت ليومين سوى بعض الخبز والمـــاء، في هذه الحالة كان يجب عليّ أن أذهب معه دون أدنى شرح، وكان علـــيه أن يُضَـــيِّفني بأي طريقة كانت، أما الإجابة: لا أشعر بالجوع ـــ يمكن تفســـيرها بأي شئ، وكانت تلك طريقتي الخاصة للقول إنه ليست لدي مشكلة لتناول الطعام، واتفقنا على اللقاء في المساء كالعادة في مكتبة "موندو".

جـــاء بعد منتصف النهار بقليل فتى يبدو كما لو كان فناناً سينمائياً، أشقر جـــداً، ملمـــس جلده خشن بعض الشئ، وله عينان زرقاوان وصوت متناسق رخـــيم، فـــيما كنا نتحدث عن المجلة قريبة الصدور، رسم ثوراً فخيماً بست علامات مضفرة ووقع عليها وأرفقها برسالة لفونماير وتركها على المكتب إلى جوار القلم ورفع ذراعه مُحيياً وغادر المكان، كنت غارقاً في الكتابة ولم أكلف نفسي بالنظر إلى اسمه، وما أن بدأت أشعة المساء في الاختفاء، حتى كنت قد

بدأت أعرف بقايا الأولى للرواية، وكنت سعيداً بأنني استطعت أن أجد طريقة لكتابة شئ حلمت بكتابته منذ أكثر من سنة.

علمـــت الليلة أن الزائر لم يكن سوى الفنان أليخاندرو أوبريجون، وصل قـــبل قلـــيل من إحدى رحلاته المتعددة إلى أوروبا، لم يكن لحظتها واحداً من كـــبار فناني كولومبيا فقط، بل من أكثر المحببين إلى أصدقائه، وأنه عاد من الـــرحلة قبل أن تصل إلى نهايتها ليشارك في إصدار مجلة "كرونيكا"، عثرت علـــيه في كانتين لا اسم له برفقة بعض المقربين منه، في عمق الحي السفلي أطلق عليه زميلنا فوينماير اسم كانتين "الرجل الثالث" وهو عنوان أحدث كتب جرهام جرين. كانت عودته من رحلاته دائما تاريخية، وحفل تلك الليلة انتهى بغناء صرصار مُدَرَّب حسب نظام صاحبه، كان يجعله يقف على قدميه ويفرد جناحـــيه ويغنـــي بصفير إيقاعي ويرد على التصفيق بحركات مسرحية، وفي النهاية وتحت سيطرة مدربه السكران بالتصفيق، أمسك أوبريجون الصرصار مـــن جناحيه بأطراف أصابعه، ووضعه في فمه أمام دهشة الجميع، ومضغه حياً بلذة شبقية، علمت بعدها أنه لم يكن أول صرصار يأكله أوبريجون حياً في مشهد عام، ولن يكون الأخير.

لـــم أشـــعر مطلقاً أنني جزء من تلك المدينة وهذه الجماعة من الأصدقاء مـــثلما شـــعرت خـــلال تلك الأيام، فقد كنا معروفين في الأوساط الصحافية والثقافـــية في البلاد باسم "مجموعة بارانكيا". كنا جماعة من الكُتَّاب والفنانين الشـــبان نلعب دوراً ثقافياً ريادياً في حياة المدينة، تحت قيادة المعلم القطالوني رامـــون فينـــيس، الكاتـــب المســـرحي وصاحب المكتبة الشهيرة الذي تضم الموسوعة الإسبانية اسمه منذ عام ١٩٢٤.

تعرَّفـــتُ علـــى أفراد الجماعة في سبتمبر من العام السابق خلال زيارتي لكارتاخينا، التي كنت أعيش فيها حينئذ، وذلك عن طريق كليمنتي مانويل ثابالا

رئيس تحرير صحيفة "يونيفيرسال"، التي كتبت فيها أول مقالاتي. قضينا الليلة نتحدث وانتهينا بصداقة عميقة وتبادل الكتب والرسائل الأدبية، وانتهيت بالعمل معهـــم. كان هناك ثلاثة من المجموعة يتميزون باستقلاليتهم وتفرد موهبتهم: خـــيرمان فارجاس، وألفونسو فوينماير، وألفارو ثييدا ساموديو، كانت تجمعنا أشياء كثيرة لدرجة أنهم كانوا يقولون عنا إننا أبناء لأب واحد، كانت لنا شهرة جعلتنا غير محبوبين في بعض الأوساط بسبب استقلاليتنا، وموهبتنا الرافضة للتبعية، وتميزنا الإبداعي كان يفرض نفسه برغم خجلنا، فكان كل واحد يتغلب على خجله بطريقته وان لم تكن النتيجة النهائية طيبة دائماً.

كـــان ألفونسو فوينماير كاتباً وصحافياً في حوالي الثامنة والعشرين، ظل يعمل في "الهيرالدو" لسنوات طويلة يكتب مقالاً بعنوان "هواء النهار" تحت اسم شكســبيري مســتعار هو "بوك". كلما تعرفنا على فوضويته وحبه للمداعبة، نـــندهش لقـــراءته كل تلك الكتب في أربع لغات يعرفها، آخر تجاربه الحيوية عاشـــها فـــي الأربعين من عمره من خلال السيارة الضخمة التي كان يقودها بســـرعة عشرين كيلومتر في الساعة، فكان سائقو التاكسي وأصدقاؤه وقراؤه يعرفونه من بعيد فيفسحون له الطريق.

كـــان خيرمان فارجاس ناقداً أدبياً حاد البصيرة وكاتب مقال، وعمل نائباً لرئـــيس التحرير بصحيفة "الناسيونال"، نثره يقنع القارئ بالأشياء التي تحدث لأنه يقصها هو فقط لا غير، وكان واحداً من أفضل مذيعي الإذاعة، ولا شك فـــي أنـــه كـــان أكـــثرهم ثقافة في تلك الأيام، كان أشقرا وبعينين زرقاوين خطرتيـــن، ولـــم يكن معروفاً اللحظة التي يجب فيها قراءة ما يكتب، لم يكن يتعب من البحث عن المواهب الخفية في أقصى المقاطعة وتقديمها للأضواء، وكان من حسن حظه أنه لم يتعلم قيادة السيارات مطلقاً بين هذه الجماعة فاقدة الوعي، لأننا كنا نخشى أن يمارس هواية قراءة الكتب أثناء قيادة السيارة.

كــان ألفــارو ثييدا على العكس من ذلك، فقد كان سائقاً ماهراً في قيادة السـيارات أو حتى في قيادة الحروف كان قاصاً من البارعين، خاصة عندما كــان يجلس على المكتب ليكتبها، وكان ناقداً سينمائياً رائعاً، ولا شك في أنه كان الأكثر ثقافة، ومثير بارع للمعارك الفنية، كان يبدو كغجري من الجنوب بجلده الخشن، ورأسه ذي الشعر الأسود، كانت له عينا مجنون لا تخفي ما في قلــبه، كانــت ينتعل صنادل من القماش الرخيص، ويضع بين أسنانه سيجاراً ضخماً مطفأ في معظم الوقت، بدأ خطواته الأولى في صحيفة "الناسيونال" التي نشر فيها أولى قصصه، وفي تلك السنة كان في نيويورك لإنهاء دراساته العليا في الصحافة بجامعة كولومبيا.

أحــدّ أفراد الجماعة تحركاً وأكثرهم تفرداً إلى جانب السيد رامون، كان خوسيه فيليكس فوينماير، والد الصحافي ألفونسو، نشر عام ١٩١٠ كتاب شعر بعــنوان "ملهمات استوائيات"، وروايتين الأولى عام ١٩٢٧ بعنوان "كوزمي" والثانية عام ١٩٢٨ بعنوان "المغامرة التعسة لأربعة عشر عالماً". لم يحقق أي مــن هــذه الكتــب نجاحاً في المبيعات، لكن النقد المتخصص اعتبر خوسيه فيليكس واحداً من أفضل كُتَّاب القصة.

عندما تعرفت عليه لم أكن قد سمعت عنه من قبل، لكن تصادف أن التقينا ظهــر أحــد الأيام في مقهى جابي، وسحرني على الفور بثقافته وبساطته في الحديــث، كــان مــن محاربي حرب الألف يوم القدامى، لم يكن متعلماً مثل فينــيس، لكــنه كان أقرب إليّ بسبب طريقته في الحياة وثقافته الكاريبية، لكن أفضل ما كنت أحبه فيه طريقته الغريبة في نقل ثقافته كما لو كان الأمر يتعلق بشيء بسيط للغاية، كان مُحدثاً لا يُبارى ومعلماً له خبرته في الحياة، وطريقته فــي التفكير كانت مختلفة عن كل من عرفتهم حتى تلك اللحظة، كنت وألفارو ثيبــيدا نستمع إليه طوال ساعات، خاصة بفكرته المبدئية التي ترى أن الفارق

بيـــن الحـــياة والأدب ليس سوى خطأ في الشكل، بعد ذلك كتب ألفارو جملة مؤكدة: "كلنا خرجنا من عباءة خوسيه فيليكس".

تكونـــت الجماعة بشكل عفوي، بفعل الجاذبية تقريباً، وكانت تجمعها ألفة غير مفهومة لأول وهلة، وكثيراً ما كانوا يسألوننا كيف نجتمع على رأي نحن المختلفين جداً في ميولنا، فكنا نرتجل أي إجابة حتى لا نقول الحقيقة: لم نكن دائمـــاً متفقيـــن، لكنـــنا كـــنا نتفهم أسباب كل منا، كنا نعي أننا خارج نطاقنا معروفون بأننا عنيفين ونرجسيين وفوضويين، خاصة في توجهاتنا السياسية. كـــان ألفونسو معروفاً بأنه ليبرالي متطرف، وخيرمان متحرر الفكر، وألفارو فوضوي غير منتم، وأنا كنت معروفاً كشيوعي متشكك، ومُرشح للانتحار. إلا أننـــي أعتقد بلا أدنى شك أننا جميعاً في أقصى حالات الغضب يمكننا أن نفقد صبرنا، لكننا لا نفقد حس السخرية.

كـــنا نناقش اختلافاتنا القليلة فيما بيننا، وكنا نصل في نقاشاتنا أحياناً إلى درجـــة خطرة، لكننا ننساها بسرعة فائقة بمجرد وقوفنا للانصراف، أو عندما يصـــل إلى المكان أي صديق من خارج الجماعة، وربما كان الدرس الذي لا يمكنني نسيانه تعلمته في مشرب "لوس ألمندروس" في ليلة من تلك الليالي التي كان فيها ألفارو حديث الوصول من السفر، واشتبكنا في حوار حول "فوكنر"، كـــان خـــيرمان وألفونســـو الشاهدين الوحيدين وظلا على هامش الحوار ولم يـــتدخلا، لا أتذكـــر اللحظـــة التي ارتفعت فيها حدة الحوار إلى درجة كبيرة واستعد كل منا لمغادرة المكان كي نتعارك في الشارع، إلا أن صوت خيرمان فارجاس الهادئ أوقفنا بجفاء وأعطانا درساً لا يمكن نسيانه:

– من يقف أولاً يخسر المعركة.

لم يكن أي منا قد تعدى الثلاثين من عمره، أنا كنت في الثالثة والعشرين، أصـــغر أفراد الجماعة، وتبنوني منذ وصولي في ديسمبر الماضي، أما على

طاولـــة رامون فينيس فكنا نحرص على أن نبدو كدعاة إصلاحيين، نكاد معاً نتحدث دائماً عن الأشياء نفسها ونسخر من كل شئ، وكنا متفقين على مخالفة أي رأي على الرغم من أننا كنا نبدو متفقين قبلها بقليل.

كانـــت "ميرا ديلميرا" المرأة الوحيدة التي كنا نعتبرها فرداً في الجماعة، كانـــت في خطواتها الأولى على طريق كتابة الشعر، نتحدث معها فقط عندما نـــتخلى عن عاداتنا السيئة، جلساتنا في بيتها لا تُنسى، تجمع كُتَّاباً وفنانين من المشـــاهير الذيـــن يمـــرون بالمدينة، و"ثيثيليا بوراس" صديقة أخرى لم تكن منتظمة بيننا، تأتي من كارتاخينا من وقت لآخر، وترافقنا في جولاتنا الليلية، لا تهتم بانتقاد الناس لها كامرأة تصادق رجالاً معروفين بسكرهم.

كنا نحن أفراد تلك الجماعة نلتقي مرتين في اليوم في مكتبة موندو، التي تحوّلـــت مـــع الوقـــت إلى مركز للاجتماعات الأدبية، كانت ملتقى هادئ في ضوضاء شارع سان بلاس، شريان الحركة الاقتصادية الذي يظل يغلي حتى السادســـة مســـاء. نظل أنا وألفونسو نُمارس الكتابة في المكتب حتى الساعات الأولـــى مـــن اللـــيل في غرفتنا الملاصقة لصالة تحرير الهيرالدو، يكتب هو الافتتاحـــية فيما أكتب أنا مقالات في شتى الاتجاهات. كثيراً ما نتبادل الأفكار مـــن طابعة إلى أخرى ونتبادل استعارة الصفات، بل ونتبادل المعلومات إلى درجة أنه كان من الصعب معرفة أي من أجزاء المقال كتبه الآخر.

حياتنا اليومية تكاد تكون معروفة بشكل مسبق، عدا في ليالي الجمعة التي كـــنا نتركها للصدفة، وفي كثير من الأحيان كانت سهراتنا فيها تتواصل حتى إفطار صباح الاثنين، ولو عثرنا على موضوع أدبي مثير كنا نواصل أحاديثنا بلا انقطاع، نبدأ سهرتنا في كانتين "الرجل الثالث" بين حرفيي الحي وميكانيكية الســـيارات، إضافة إلى الموظفين المهملين وإن كان بعضهم أقل إهمالاً. أكثر زبائـــن هذا المكان غرابة كان لص المساكن الذي يصل المكان قبيل منتصف

الليل بقليل، مرتدياً ملابس المهنة: بنطلون راقص باليه ضيق جداً، وحذاء لاعب تنس، وغطاء رأس لاعب بيسبول، وحقيبة عدد مختلفة. أحد أصحاب البيوت التي تعرضت للسرقة تمكن من رسم صورته ونشرها في الصحف ليتعرف عليه الجمهور، الإجابة الوحيدة التي حصل عليها كانت رسائل غاضبة لتجرؤه على منافسة فناني البورتريه المساكين في مهنتهم.

كان اللص من ذوي الميول الأدبية، لم يكن يترك كلمة أدبية أو فنية تمر دون الانتباه إليها، وكنا نعرف أنه مؤلف للكثير من قصائد الحب يقرأها على زبائن المكان في غيابنا، يمارس مهنة السرقة بعد منتصف الليل في الحي الثري من المدينة، كما لو كانت السرقة مهنة عادية، وبعد ثلاث أو أربع ساعات من العمل كان يعود لإهدائنا بعض ما حصل عليه. يقدمها لنا بقوله: "هذه للبنت"، دون أن يهتم بالسؤال إن كانت لدينا بنات بالفعل، كانت تلفت نظره بعض الكتب فكان يسرقها ليقدمها لنا على سبيل الهدية، وعندما يكون للكتاب قيمة نضمه إلى مكتبة شقة ميرا ديلميرا.

حواراتنا المتنقلة خلقت لنا شهرة سيئة بين حضور قداس الخامسة، فكانوا يُغيِّرون أماكن سيرهم حتى لا يلتقون مع سكارى الفجر، لكن الحقيقة لم يكن هناك من هو أكثر شرفاً وكدحاً منا، وربما من انتبه إلى هذا كنت أنا، فكنت أصرخ فيهم بأبيات من أشعار "جون دوس باسوس" الخليعة، أما بالنسبة لاهتماماتنا الكروية، فكنا من مشجعي اليبورتيفبو جونيور، إلى درجة أن جارة لحانة القط الأسود يأست من حواراتنا فصرخت فينا:

– لو أنكم تعملون كما تصرخون لكنا الآن من الأثرياء.

في أحيان كثيرة نذهب فجراً إلى ماخور بلا اسم يقع في الحي الصيني عاش فيه أورلاندو ربيرا لسنوات مضت، عندما كان يرسم لوحة حائطية نالت شهرة كبيرة، لم أعرف في حياتي شخصاً مثله في غرابة الأطوار، كانت له

لحـــية جـــدي، وكـــرم يتيم، تعلق منذ دراسته في المدرسة الابتدائية بالأغاني الكوبـــية وانـــتهى إلـــى أن أصبح شهيراً بـــ"الكوبي"، لهجته ورقصه وحياته ورسومه كانت كوبية، كان كوبياً مات دون أن يعرف كوبا.

لـــم يكـــن ينام، عندما كنا نزوره في الفجر يهبط من على السقالات قفزاً ملوثـــاً بألوان أكثر من الألوان الموجودة على اللوحة الحائطية التي يرسمها، مطلقـــا لعناته بلغة نهاية سكرة الماريجوانا، كان ألفونسو وأنا نقدم له قصصاً ومقـــالات لـــيعد رسومها، نقصها عليه بصوت عال لأنه لم يكن لديه الصبر لقراءتها، يرسمها في لحظات مستخدماً تقنية الكاريكاتير، رسومه مُعبِّرة تقريباً رغم أن خيرمان فارجاس كان يقول إنها أفضل عندما تكون سيئة.

هكـــذا كانت بارانكيا، مدينة لا تشبهها مدينة أخرى، خاصة في الفترة من ديســـمبر إلى مارس، عندما كانت رياح الشمال تُرَطِّب حرارة الأيام الملتهبة بنســـماتها الليلية مثيرة الدوامات في أفنية البيوت وتثير الدجاج، وتظل الفنادق الرخيصة وحانات الميناء مفتوحة، فيما تنتظر نساء الليل أمسيات طويلة زبائن السفن النهرية، تعزف أحياناً فرقة نحاسية فالس طويل تحت الأشجار، دون أن يستمع إليها أحد بسبب صرخات سائقي التاكسي في نقاشهم حول مباريات كرة القـــدم، المكـــان الوحيد الصالح هو مقهى روما، مقهى للمهاجرين الأسبان لا يغلق أبوابه أبداً بسبب بسيط وهو أنه لم يكن له باب أصلاً، وبلا سقف أيضاً، في مدينة معروفة بأمطارها الاستوائية الشديدة، رغم أنه لم يحدث أن ترك أي زبـــون طـــبق العجـــة بسبب المطر المنهمر. في الحادية عشرة، عندما ننهي الصحف المسائية ــ الهيرالدو ولابرنسا ــ يجتمع محررو الفترة الليلية لتناول الطعـــام، يكـــون المهاجرون الأسبان هناك منذ السابعة بعد استماعهم للنشرة الإخـــبارية المسائية بصوت خوان خوسيه بيريث دومينيش، الذي كان يواصل تقديـــم أخـــبار الحـــرب الأهلـــية الإسبانية بعد مرور اثنتي عشرة سنة على

خســـارتها. فـــي لـــيلة طيـــبة، وصل الكاتب إدواردو ثالاميا بعد عودته من جواخيرا، وأطلق على نفسه رصاصة من مسدسه لم تكن نتائجها خطرة، ظلت طاولـــته فـــي المقهـــى كمـــا لو كانت قطعة أثرية مهجورة يعرضونها على الســـائحين دون الســـماح لهم بالجلوس، بعد سنوات نشر ثالاميا شهادته على مغامـــرته في كتاب بعنوان: "أربع سنوات ممتطياً نفسي"، فكانت رواية فتحت آفاقاً جديدة أمام جيلنا.

كنـــتُ أنا أكثر أعضاء الفرقة فقراً، فكنت ألجأ إلى مقهى روما لأكتب في ركـــن قصـــي حتى الفجر، لأن العملين اللذين كنت أمارسهما على الرغم من أهميتهما لا يكفي راتبهما شيئاً، أظل في المقهى حتى أشعة الفجر الأولى، وأنا أقرأ بلا رحمة، وعندما يعضني الجوع أتناول ساندوتشاً مع فنجان الشيكولاتة، وأتـــنزه مـــع الساعات الأولى للنهار تحت أشجار الطريق المزهرة، كنت في الأيـــام الأولى أكتب في مقر الصحيفة لساعات طويلة، وأنام بضع ساعات في المقـــر الخالي، أو منطرحاً على بقايا بكرات ورق المطبعة، إلا انه مع مرور الوقت وجدت نفسي مُجبراً على البحث عن مكان أكثر راحة.

الحـــل، مثل كل الحلول الأخرى، قدَّمه لي سائقو تاكسي الطريق الرئيسي في المدينة، فندق قريب من الكاتدرائية، حيث يمكن النوم منفرداً أو برفقة أحد مقـــابل بيزو ونصف البيزو، المبنى قديم جدا لكنه مُحاط بعناية كبيرة، وكان مقـــراً لنساء الليل الباحثات عن زبائن الحب الضائع من السادسة وحتى طلوع الصـــباح، كـــان البواب اسمه "لاثيديس" كانت له عين زجاجية مائلة الطرف، ويتهـــته خجـــلاً، لا زلت أذكره بحب منذ الليلة الأولى التي وصلت فيها إلى هناك، ألقى بالبيزو ونصف البيزو على مائدة المدخل المليئة بالأوراق النقدية الملقاة بلا ترتيب، وقدم لي مفتاح الغرفة رقم ستة.

لم أعش في حياتي في مكان هادئ مثل هذا المكان، أكثر الأصوات التي

يمكـن سـماعها عبارة عن خطوات هادئة، وبعض الهمهمات غير المفهومة، ومن وقت لآخر يمكن سماع خشخشة بعض الحديد المؤكسد، لكن لم يكن هناك غـنج ولا غـيره، كـان الحر هو الشيء الوحيد الصعب هناك بسبب النافذة المغلقـة بإحكـام بصلبان خشبية، قرأت في الليلة الأولى براحة ويلبام ايريش حتى الفجر.

كان الفندق سكناً لقباطنة السفن القدامى، له أعمدة مبطنة بالرخام والرسوم المذهبة، تدور حول فناء داخلي مغطى بقبة زجاجية تشع بضوء شتوي، يحتل مكتـب التسجيل العقاري الطابق الأسفل، وكانت هناك ستة أعمدة رخامية في كل طابق من طوابقه الثلاثة الأخرى، هذا المكان السعيد كان في يوم من الأيام اسـمه فندق نيويورك، فيما أطلق عليه ألفونسو فوينماير اسم ناطحة السحاب، تكـريماً لذكـرى المنتحرين الذين كانوا يلقون بأنفسهم في تلك الأيام من على سطح مبنى الإمبراطورية.

على أية حال كان مركز تحركات حياتنا في مكتبة موندو، نلتقي في الثانية عشـرة نهاراً والسادسة مساء، كان خيرمان بارجاس الصديق الحميم لصاحب المكتبة، السيد خورخي روندون. أقنعه خيرمان بفتح هذه المكتبة التي تحولت فـي وقت قليل إلى مركز للقاءات الكُتّاب والصحافيين والسياسيين الشبان، لم تكـن لروندون أي خبرة في هذا المجال، لكنه تعلمها بسرعة، وبفضل حماسه وكرمه تحول إلى راعٍ للفنون والآداب لا يمكن نسيانه، كان ألفونسو وخيرمان وألفارو مستشاريه في وضع قائمة طلبات الكتب، وبشكل خاص الجديدة منها القادمـة من بوينس أيريس، التي بدأ ناشروها يترجمون وينشرون ويوزعون الجديد في الأدب العالمي، خاصة الصادر بعد الحرب العالمية الثانية، وبفضلهم استطعنا أن نقرأ مبكراً الكتب التي لم تكن تصل إلى المدينة، وكانوا هم أنفسهم يحمسون الزبائن حتى تحولت بارانكيا إلى مركز القراءة التي تراجعت خلال

السنوات الأخيرة.

لـــم يمض وقت طويل منذ وصولي حتى أصبحت واحداً من هذه الجماعة التـــي كـــان أفرادها ينتظرون باعة الكتب الجائلين كما لو كانوا مبعوثين من الســـماء، وبفضــــلهم كانا من المعجبين المتحمسين لخورخي لويس بورخيس وخولـــيو كورتاثـــار، وفيليســـبرتو هيرنانديـــث، وكذلـــك الروائيين الإنجليز والأمريكييـــن الذيـــن ترجمـــتهم فيكـــتوريا أوكامبو. رواية "مصهر المتمرد" لأرتورو باريا كانت رسالة الأمل الأولى التي تدل على أن إسبانيا تستعيد في صـــمت توازنها بعد الحرب. أحد الباعة الجوالين "جييرمو دافالو" كان يقاسمنا جلساتنا الليلية، فكان يهدينا كتبه الغريبة الباقية بعد انتهاء جولته في المدينة.

أفـــراد الجماعة الذين يعيشون بعيداً عن وسط المدينة لم يكونوا يذهبون إلـــى مقهـــى روما في المساء، إن لم يكن هناك سببا محددا، فيما كان المقهى بيتـــي الـــذي لا أملكه، أعمل في الصباح في تحرير الهيرالدو وأتناول غدائي حســـبما اتفـــق، أكاد أكون الضيف الدائم على الأصدقاء الطيبين والسياسيين الراغبين في مصادقتي كصحفي، وفي المساء أكتب زاويتي "الزرافة"، أو أي نص آخر للنشر السريع. وفي منتصف النهار وفي السادسة مساء، كنت الأكثر الـــتزاماً في مكتبة موندو، مشهيات الغداء التي يتناولها أفراد الجماعة بمكتبة موندو انتقلت بعد ذلك إلى مقهى جابي، على الرصيف المقابل، لأنه كان أكثر تهويـــة، وكـــنا نســـتخدمه في استقبال الضيوف وإجراء المقابلات الصحافية، وكمكان سهل لمقابلاتنا.

كـــان لطاولـــة الســـيد رامون في مقهى جابي قوانين لا يمكن خرقها تم وضـــعها بقـــوة العادة، هو أول من يصل بسبب ساعات عمله كمدرس فيكون هناك في الرابعة مساء، والطاولة لا تتسع لأكثر من ستة أفراد، وكل منا اتخذ مكانـــه طـــبقاً لوجـــوده بيننا، ولم يكن مسموحاً بوضع كرسي غير هذا العدد

للجلـــوس إلى جوار الطاولة. طبقاً لأقدمية الجلوس، كان خيرمان يجلس إلى يمين المعلم منذ اليوم الأول، وكان المكلف بالمسائل المادية، يتولاها متطوعاً حتى لو لم يتلق أمراً بذلك، لأن المعلم لم يكن يجيد التعامل مع صغائر الحياة اليومـــية، وكانـــت مشكلته في تلك الأيام بيع كتبه إلى مكتبة المقاطعة العامة، وإنهـــاء بعـــض الإجـــراءات قبل سفره إلى برشلونة، لم يكن خيرمان مجرد سكرتيره الخاص بل كان ابناً باراً.

علاقـــة رامـــون بألفونسو كانت على العكس تماماً، فقد كانت مبنية على سلســـلة مـــن المشاكل الأدبية والسياسية صعبة، أما بالنسبة لألفارو كنت أراه قانطـــاً في كرسيه وفي حاجة إلى وجود الآخرين ليبدأ إبحاره في الحياة، كان خوسيه فيليكس الكائن البشري الوحيد الذي له الحق في اختيار مكانه بحرية، لـــم يكن السيد رامون يذهب إلى مقهى جابي مع أصدقاء اللجوء الأسباني، بل كان يذهب إلى مقهى روما.

كنت أنا الأخير الذي انضم إلى طاولته، وامتلكت الحق في الجلوس على كرسي ألفارو ثيبيدا طوال وجوده في نيويورك، واستقبلني السيد رامون كتلميذ جديد لأنه كان قد قرأ قصصي في "الاسبكتادور". إلا أنني لم أتصور مطلقاً أنه ســـيأتي الـــيوم الـــذي أطلب منه قرضاً مالياً لإعانتي في رحلتي مع أمي إلى أراكاتـــا، بعدها بقليل حظيت بأول وآخر حوار بيننا على انفراد عندما ذهبت إلى مقهى جابي مبكراً عن الآخرين لأُعيد إليه البيزوات الست التي أقرضني إياها، حياني كما كان يحييني دائماً ولكن شيئاً أزعجه في وجهي:

– أهلاً بالعبقري، هل أنت مريض؟

أجبته منزعجاً:

– لا اعتقد يا سيدي، لماذا؟

قال:

– أراك مخـــتلفاً بعــض الشـــيء، لكن لا تهتم، كلنا نشعر بشيء ما هذه الأيام.

وضع البيزوات الست في حافظته بشكل بدا معه كما لو كانت أموالاً غير مرغوب فيها، شرح لي المسألة:

– ســآخذها مـــنك، كذكرى من فتى فقير جداً دفع ديونه دون أن يطلبوها منه.

حرت في الإجابة عليه، والتزمت صمتاً ثقيلاً احتميت فيه كبئر عميق، لم أحلم أبداً بأنني سأحظى بمثل تلك اللحظة، وأعتقد أنه في الحوارات الجماعية كـــان كل منا يسهم بشيء في الفوضى، حتى أن إيجابيات أو سلبيات كل منا تخـــتلط بإيجابـــيات وسلبيات الآخرين، لم أحلم بالحديث مع رجل يعيش منذ ســـنوات بينـــنا كموسوعة متنقلة، وكثيراً ما كنت أثناء قراءاتي الليلية أتخيل حواراً معه حول شكوكي الأدبية لكنها تنتهي مع أشعة الشمس الأولى، فقد كان خجلـــي يـــزداد كلما تدخل ألفونسو في الحديث بيننا بأفكاره الغريبة، فيما كان خيرمان يناقض بعض آراء المعلم أو أن ألفارو يعرض علينا مشروعاته التي تثيرنا جميعاً.

لحســـن الحـــظ أنه في ذلك اليوم في جابي، كان السيد رامون البادئ في ســـؤالي عن قراءاتي، كنت قرأت حينها كل ما كان يمكن أن يعثر عليه الجيل الضـــائع، باللغـــة الإسبانية، وبشكل خاص كتابات فوكنر، الذي كنت أمتصه امتصاصـــاً، محـــاولاً فهمـــه جيداً لأنني كنت أخشى أن يكون كاتباً مخادعاً، حاولت أن أكون حريصا في حواري حتى لا أبدو مجرد مثير للشغب، فحاولت إيضاح رأيي إلا أن السيد رامون لم يترك الوقت، فأجابني بهدوء:

– لا تـــنزعج يا جابيتو، لو كان فوكنر يعيش في بارانكيا لكان معنا الآن على هذه الطاولة.

مـــن ناحـــية أخرى، كنت مهتماً بالسيد رامون جوميث دي لا سرنا إلى درجـــة أننـــي كنـــت أذكره في زاويتي "الزرافة" إلى جانب روائيين آخرين معروفيـــن، فأوضحت له أنني لا أفعل ذلك بتأثير رواياته، ورغم أنني أحببت كثـــيراً روايته "شاليه الزهور"، إلا أنني كنت أذكره بسبب عبقريته وملكته في الـــتعامل مـــع اللغة، لأنها كانت بالنسبة لي كالتمرينات الرياضية التي تعلمني الكتابة، لأنني لا أتذكر طريقة أخرى لإثارة اللغة والذكاء مثلها، فقاطعني السيد رامون:

– الخطر أنك تتعلم الكتابة بشكل سيئ دون أن تنتبه.

اعترف قبل إغلاق الحوار حول هذا الموضوع أنه شاعر جيد، كانت هذه طريقـــته فـــي الرد، لغته مباشرة ومتعالية، كنت أخشى حضور أحد حتى لا يـــنقطع هـــذا الحوار في هذه المناسبة الفريدة، فقد كان يعرف كيف يدير هذا الحـــوار، جـــاءه جرسونه المعتاد بزجاجة كوكاكولا التي يتناولها في الحادية عشـــرة والنصف صباحاً، كان يبدو أنه لم ينتبه إليها لكنه شربها دفعة واحدة دون أن يـــتوقف عـــن حديـــثه، معظم الزبائن كانوا يحيونه عن بعد بصوت مـــرتفع: "كـــيف حالك يا سيد رامون"، وكان يجيبهم برفع يده بشكل مسرحي دون أن ينظر إليهم.

بيـــنما كـــان السيد رامون يتحدث كان يلقي بنظرات متقطعة إلى الحقيبة الجلدية التي كنت أضمها بيدي الاثنتين فيما كنت أستمع إليه، عندما انتهى من تناول زجاجته الأولى، نحَّاها جانباً وطلب الثانية، طلبت أنا مثلها وكنت أعرف أنه على هذه الطاولة كل واحد يدفع حسابه الخاص، وأخيراً سألني ما الذي في هذه الحقيبة التي أتعلق بها كما لو كانت قشة الغريق.

قصصت عليه الحقيقة: كانت تضم الفصل الأول للرواية التي بدأتها حديثاً بعد عودتي مع أمي من كاتاكا، وبحركة جريئة لا أعتقد أنني يمكن أن أعيدها

بعـــد الآن، وضـــعت الحقيــبة على الطاولة مفتوحة أمامه، كنوع من الإثارة البريـــئة، رَكَّـــز علـــيّ حدقتـــيه المسطحتين بلونهما الأزرق الخطر، وسألني باندهاش:

– هل تسمح لي؟

كانـــت مكتوبة على الآلة الطابعة مع الكثير من التصحيحات، على ورق مطـــبعة صحفية مطوية كالأكورديون. وضع نظارته على عينيه ببطء، ليبدأ القـــراءة، نشر الورق بأستاذية حرفية ووضعه على الطاولة، قرأ دون اهتمام، ودون أن يطـــوي الورق، أو تتغير تعبيرات وجهه، عندما انتهى من ورقتين كاملتين عاد إلى طيها في صمت، وأغلق الحقيبة، أعاد النظارة إلى جرابها ثم وضعها في جيبه، وقال ببساطة كبيرة:

– يبدو أنها لا تزال مادة خام، كما هو منطقي، لكنها بداية جيدة.

ألقـــى ببعض التفسيرات حول استخدام الأزمنة، التي كانت مشكلة حياتي، والتي تُعتبر من أكثر المشاكل صعوبة، ثم أضاف:

– يجب أن تكون واعياً بأن الحدث الدرامي قد وقع بالفعل، وأن أبطالها لا يعيشون وإنما هم هنا ليتحدثوا عن الحدث، لذلك عليك أن تصارع مع زمنين مختلفين.

بعـــد مجموعـــة مـــن التفسيرات التقنية التي لم أتمكن من تقييمها لانعدام خبرتـــي، نصحني بألا أسمي مدينة الحدث باسم بارانكيا، كما كنت أسميها في الكتابة الأولية، لأنه اسم محكوم بواقعه فلا يترك للقارئ مساحة للتخيل، وأنهى حديثه بجملة ساخرة:

– إما أن تظل قروياً أو تنتظر أن تهبط عليك السماء، فأثينا سوفكليس لم تكن أثينا أنتيجون.

لكن الجملة التي احتفظت بها إلى الأبد كانت تلك التي ودعني بها في ذلك المساء:

– أشكرك على اهتمامك، لذلك سأعطيك نصيحة: لا تترك أحداً يطلع على شئ لا يزال في طور الكتابة.

كان ذلك حواري الوحيد معه على انفراد، لكنه كان حواراً أفضل من كل الحـــوارات السابقة، لأنه سافر إلى برشلونة يوم ١٥ أبريل ١٩٥٠، كما كان مـــتوقعاً مـــنذ عام قبلها، بمظهره الشاذ؛ ببدلته القطيفية السوداء وقبعته. كان سفره يشبه إرسال طفل إلى المدرسة، كان متمتعاً بالصحة ورجاحة العقل وهو فـــي الثامـــنة والســـبعين من العمر، ونحن من ودعناه في المطار كنا نودعه كإنسان في طريقه إلى مسقط رأسه ليشهد جنازته بنفسه.

فـــي الـــيوم التالي انتبهنا للفراغ الذي تركه غيابه فقط، عندما وصلنا إلى مقهـــى جابي لنجلس على الطاولة كالمعتاد، ولم يجرؤ أحد على الجلوس على كرســـيه إلى أن اتفقنا على أن يجلس عليه خيرمان، وكنا في حاجة إلى مرور بضـــعة أيام لنعتاد على نظام الحوار اليومي الجديد، حتى وصلتنا أول رسالة مـــن رامون، بدت كما لو كانت مكتوبة بصوت جهير، بخطه المنمق المكتوب بحبر أسود ضارب إلى الاحمرار، وبهذه الرسالة بدأت علاقة مع الجميع عبر خـــيرمان، علاقـــة متواصـــلة وعمـــيقة، يقص لنا القليل عن حياته الخاصة ومعظمها يتناول الأوضاع في إسبانيا التي لا يزال يعتبرها دولة عدو في ظل فرانكو وبقائها محتلة لقطالونيا.

فكرة إصدار صحيفة أسبوعية كانت فكرة ألفونسو فوينماير، وكانت سابقة على تلك الأيام، على الرغم من أنني أكاد أجزم أن سفر رامون عجل بتنفيذها. أخـــبرنا ألفونســـو أنـــه استعد تماماً لها، وأنها ستكون من حجم التابلويد في عشرين صفحة، صحيفة عامة وأدبية واسمها "كرونيكا"، ولن أخبر أحداً أكثر

مــن ذلــك، اعتقد معظمنا أنه مجرد هذيان؛ لأنه بعد أربع سنوات على عدم حصــولنا علـــى مساعدات، كيف سنحصل عليها الآن، لكن ألفونسو فوينماير حصل على المال من الحرفيين وميكانيكية السيارات والمعلمين المحالين على الــتقاعد، وحتى من أصحاب المقاهي والمشارب المتحمسين الذين قرروا دفع الاشــتراك بكــأس مــن البيرة أو الكونياك، وكان هناك اعتقاد بأن الصحيفة ســتنجح نظــراً لوجودنا في مدينة تعشق الشعراء، على الرغم من الأزمات الصناعية والتجارية التي كانت تعيشها.

كــنا نحن القائمين على إخراجها، إضافة إلى عدد قليل من المتعاونين من خــارج الجماعــة، كــان كارلوس أوسيو نوجيرا المحترف الوحيد الذي لديه خــبرة. كان شاعراً وصحافياً يتمتع بحس فكاهي نابع من جسده الضخم، كان موظفــاً حكومياً ومستشاراً لصحيفة "الناسيونال"، التي عمل فيها الفارو ثيبيدا وخــيرمان بارجــاس، والآخــر سيكون روبرتو بريبتو الشهير باسم "بوب"، شخصية غريبة من الطبقة الاجتماعية العليا يفكر بالفرنسية والإنجليزية تماماً كتفكــيره باللغة الإسبانية، ويعزف على البيانو العديد من المقطوعات الكبرى مــن الذاكــرة، إلا أن القائمة ضمت بعض الأسماء غير المفهومة مثل خوليو ماريو سانتودومنجو الذي فرضه علينا ألفونسو فوينماير باعتباره مختلف عنا جمــيعاً، لكننا لم نفهم وجود اسمه في قائمة مجلس التحرير، في الوقت الذي كان فيه هذا الشخص مرشحاً ليكون روكفلر أمريكا اللاتينية، كان ذكياً ومثقفاً ولطــيفاً، لكــنه كــان مرشحاً أيضاً للاندماج في السلطة الحكومية والفناء في دخانها، قليلون منا كان يعرف أن حلمه السري أن يكون كاتباً.

بالطــبع سيكون ألفونسو رئيس التحرير، أما خيرمان بارجاس فهو كبير المحررين، والمنتظر أن أتعلم المهنة إلى جواره عندما يكون لدينا الوقت، أما ألفــارو ثيبــيدا فكان من المنتظر أن يتعاون معنا من نيويورك خلال دراسته

هـــناك بجامعـــة كولومبيا. في آخر الطابور كنت أكثر المتشوقين إلى تعييني مديراً لتحرير صحيفة أسبوعية مستقلة ذات مستقبل مجهول، كما حدث بالفعل.

كـــان لـــدى ألفونســـو مخزون من سنوات من المواد الأدبية والتحقيقات والمقـــالات ووعـــوداً بالإعلان من أصدقائه الأثرياء، لم يكن لمدير التحرير ساعات عمل معينة لكن الراتب كان أفضل من أي صحافي آخر، إلا أنه كان مرتـــبطاً بـــالدخل الإعلانـــي المستقبلي، وعلى عاتقه يقع إعداد الصحيفة في موعدهـــا، وأخيراً، يوم السبت التالي دخلت إلى مكان عملنا في الهيرالدو، في الخامســـة مســـاء، قال ألفونسو فوينماير دون أن يرفع رأسه عن المقال الذي يكتبه:

– اخرج سيفك من غمده يا معلم، كرونيكا ستصدر الأسبوع القادم.

لم يصبني الرعب، لأنني كنت سمعت تلك الجملة مرتين من قبل، إلا أنها هذه المرة كانت الثالثة والنهائية. أكبر حدث صحفي كان في ذلك الأسبوع، هو وصـــول النجم الكروي البرازيلي "هيلينو دي فريتاس" ليلعب في الديفورتيبو جونيور، إلا أننا لم نحاول أن ننافس الصحافة المتخصصة فيه، ولكن النبأ كان بالنسبة لنا له أهمية ثقافية واجتماعية، ومن المفترض أن "كرونيكا" لا يجب أن تـــنغلق علـــى نفسها في حدودها الضيقة، ويجب أن تنفتح على أشياء أخرى، خاصـــة كـــرة القدم التي تعد اللعبة الأكثر شعبية، كان القرار جماعياً والعمل متقناً.

أعددنـــا الكثير من المواد ولم نترك لآخر لحظة سوى تحقيق هيلينو الذي كتـــبه خيرمان بارجاس، الخبير في هذا المجال والمتعصب لكرة القدم. خرج العـــدد الأول في موعده في صباح السبت ٢٩ من أبريل من عام ١٩٥٠، يوم القديســـة ســـانتا كتاليـــنا دي سينا، كاتبة الرسائل الزرقاء في أجمل ساحة في العـــالم. وضـــعت تحت اسم كرونيكا عنواناً فرعياً ابتدعته من عندي "أفضل

نهايـــة أسبوع"، كنا نعرف أننا نحاول الرقي بصحافة كولومبيا في تلك الأيام، وما كنا نريد أن نقوله لم يكن له سابقة في الصحافة المكتوبة باللغة الإسبانية، تصـــدرت الصـــفحة الأولى صورة اللاعب هيلينو دي فريتاس رسمها الفنان ألفونسو ميلو، أكثر رسامينا الثلاثة قدرة.

نفـــدت الطـــبعة، علـــى الرغم من الاستعجال ونقص الدعاية، قبل موعد وصـــولها إلـــى ملعـــب البلدية في اليوم التالي، الأحد ٣٠ أبريل، حيث كانت المـــباراة المهمـــة بين ألديفورتيو جونيور والإسبورتنج، كلاهما من بارانكيا، الصحيفة نفسها كانت منقسمة على نفسها، لأن خيرمان بارجاس وألفارو كانا مـــن مشـــجعي الإسبورتنج، إلا أن اسم هيلينو وتحقيق خيرمان بارجاس كانا وراء شهرة "كرونيكا" كصحيفة كولومبيا الرياضية الأولى.

كان الملعب ممتلئاً حتى آخره، وبعد ست دقائق سجل هيلينو أول هدف له فـــي كولومبيا بقدمه اليسرى ومن منتصف الملعب، رغم أن الإسبورتج كسب المباراة ٣ مقابل ٢. فقد كانت تلك أمسية هيلينو، وبعدها كانت أمسيتنا لنجاحنا فـــي توقع النجاح، إلا أنه لم تكن هناك سلطة بشرية أو إلهية قادرة على إقناع الجمهور أن صحيفة كرونيكا ليست صحيفة رياضية بل أسبوعية ثقافية منحت خبر هيلينو شرف صفحتها الأولى باعتباره نبأ العام.

لم يكن الخطأ يعود إلى قلة الخبرة، فقد كان هناك ثلاثة من كُتّابنا يتناولون الموضوعات الرياضية في مقالاتهم العامة، منعهم خيرمان بارجاس، وبالطبع ألفونســـو فوينماير كان مشجعاً كروياً دائماً، وكان ألفارو ثيبيدا خلال سنوات طويلـــة مراسل "الإسبورتج نيوز" التي تصدر في سان لويس بولاية ميسوري الأمريكـــية، رغم أن القراء استقبلونا بأذرع مفتوحة في الأعداد التالية، ألا أن متعصبي كرة القدم هجرونا بلا كثير من الندم.

فـــي محاولاتـــنا لجبر الصدع قررنا في مجلس التحرير أن أكتب تحقيقاً

رئيســاً مع اللاعب سيباستيان بيراسكوتشيا، النجم البرازيلي الآخر في فريق ديفوتيبو جونيو، على أمل الجمع بين الكرة والثقافة من جديد، تماماً كما فعلت مــع أشــياء أخــرى خلال كتابتي لمقالي اليومي، لكن حُمى كرة القدم التي زرعــتها في شوطة لويس كارميلو كوربيا عندما كنت أريد أن اصبح حارس مــرمى في كاتاكا، كانت قد انخفضت حرارتها حتى الصفر، إضافة إلى أنني كنت متعصباً في ذلك الوقت للعبة البيسبول، لكني قررت تحمل المسئولية.

كــان تحقيق خيرمان بارجاس النموذج الذي احتذيته، واطلعت أيضاً على تحقــيقات كروية أخرى، وكان حواري مع اللاعب بيراسكوتشيا اللطيف سهل عليّ العمل، لأنه كان يفهم أهمية صورته التي يجب نقلها إلى الجمهور، الخطأ الــذي ارتكبــته هو تقديمه على أنه باسكي الأصل متأثراً بلقبه ذي الأصول الباسكية الإسبانية، دون انتبه إلى أنه كان أسود زنجياً إفريقياً، فكان أكبر فشل فــي حياتــي وجاء في أسوأ أوضاع الصحيفة، مما جعلني أتقبل تماماً رسالة القــارئ الذي وصفني بأنني الصحفي الرياضي الذي لا يستطيع التفريق بين الكــرة والــترام، حتى أن خيرمان بارجاس نفسه المعروف عنه حرصه على إصــدار أحكــام متزنة قال في كتاب يضم مذكراته صدر بعدها بسنوات، أن الحوار مع بيراسكوتشيا كان أسوأ ما كتب في حياتي، أعتقد أنه متحامل بعض الشــئ، ولكن ليس كثيراً، لأنه خبير في هذه المهنة، وله الكثير من التحقيقات والمقالات التي تبدو كما لو كانت مكتوبة على اللينوتيب بالصوت المرتفع.

لــم نــتخل عــن كرة القدم ولا البيسبول لأنهما كانتا لعبتين شعبيتين في الشاطئ الكاريبي، لكننا ركَّزنا على الحدث اليومي والأحداث الأدبية الساخنة، إلا أن كل هذه كانت جهوداً في الفراغ: لم نستطع أن نقنع أحداً بأن "كرونيكا" صــحيفة غير رياضية، وهجرنا متعصبو كرة القدم، وظللنا نكتبها كما قررنا منذ البداية، إلا أنه بعد العدد الثالث كانت الصحيفة تسبح على قمة اللا تحديد.

لـــم يصـــبني الفزع، فرحلتي مع أمي إلى كاتاكا، والحوار التاريخي مع رامون فينيس، وعلاقتي الحميمة مع جماعة بارانكيا؛ منحتني نفساً جديداً ظل معـــي إلـــى الأبد، منذ تلك اللحظة لم أكسب سنتيماً واحداً بغير استخدام الآلة الطابعة، وأعتقد أن هذه موهبة لا يستطيع أحد أن ينكرها، لأن أول حقوق نشر لكتبي وقصصي التي سمحت لي بالحياة، حصلت عليها وأنا في الأربعين من عمـــري، بعـــد نشر أربعة كتب حققت أرباحاً قليلة، قبلها كانت حياتي تسير بفضـــل الكثـــير من الألاعيب والآمال والسخرية من أحلام كثيرة، تحاول أن تدفعني لأكون أي شئ إلا أن أكون كاتباً.



٣

باكــتمال كارثــة آراكاتاكا، موت الجد وانتهاء ما تبقى من جبروته غير المرئي، تحول من كانوا يعيشون في البيت فريسة للحنين، بقي البيت مهجوراً مــنذ أن انتهى السفر بالقطار. والجدة مينا والعمة فرانثيسكا سيمودوسيا تحوَّلا إلــى كفالــة العمــة إلفيرا كاريو، التي كانت ترعاهما كما لو كانت خادمتهما المطــيعة، عــندما فقدت الجدة البصر وخف عقلها أخذها أبواي معهما لتعيش أيامهــا الأخيرة في سلام. أما العمة فرانثيسكا العذراء الشهيدة ظلت كما هي علــى حــياتها المشعوذة وكلامها الفظ، ورفضت تسليم مفاتيح المقابر ومخبز القرابيــن بادعــاء أن الله مــنحهما إياها، جلست في يوم من الأيام أمام باب غرفــتها بين شراشفها البيضاء الناصعة وخاطت كفناً على مقاسها، إلى درجة أن المــوت أمهلهــا أكثر من أسبوعين حتى تنتهي من عملها. في تلك الليلة ذهبت إلى فراشها دون أن تودع أحداً، لم تكن تشعر بمرض ولا أي ألم يذكر، وماتت وهي في أفضل حالاتها الصحية، عرفوا بموتها في اليوم التالي عندما عــثروا علــى شــهادة الوفاة وكل أوراق دفنها موثقة وكاملة. وكذلك إلفيرا كــاريوا، التي لم تعرف في حياتها رجلاً عن سبق إصرار، عاشت وحيدة في البيــت الكبــير، كانت توقظها في الليل كحة مرعبة تتردد في جنبات الغرف المجــاورة لكنها لم تهتم أبداً بمعرفة مصدرها لأنها كانت معتادة على مقاسمة حياتها مع الحياة التحتية.

على عكس من ذلك كان شقيقها التوأم، إستيفان كاريو، ظل محتفظاً بكامل قواه العقلية، وحيوياً حتى تقدم في السن بدرجة كبيرة. في يوم ما خلال تناول طعــام الإفطار معه، ذكرت له على سبيل المزاح كل التفاصيل الدقيقة لحادثة الذيــن حاولوا إلقاء والده من على ظهر السفينة في نهر ثينجا، فوقف غاضباً رافعاً كتفيه كما لو كان سانشو بانثا تابع دون كيخوته، لأنني لم أذكر هذا عند

وقــت وقوع الحدث، وطلب مني أن أفتش في ذاكرتي عن الرجل الذي تحدث مع جدي في ذلك اليوم، ليبحث عنه ويسأله عن الذين حاولوا إغراق الجد، ولم يفهم لماذا لم يدافع باباليو عن الجد على الرغم من أنه كان قناصاً ماهراً خلال الحرب الأهلية وحارب في الصفوف الأولى، كان ينام والمسدس تحت مخدته، وقتل مرة رجلاً خلال مبارزة. قال لي إستيفان إنه يمكنه ومعه أشقائه الانتقام للجــد فــي أي وقت، إنه قانون الجواخيرا: الاعتداء على أي فرد من العائلة يجــب أن يدفع ثمنه رجال عائلة الجاني. كان العم إستيفان مُصراً على تنفيذ فكرته إلى درجة أنه أخرج المسدس من حزامه ووضعه على الطاولة حتى لا يضــيع، بعــد استجوابي حول الجاني. ومنذ ذلك الوقت كنا كلما التقينا أخبره أننــي ســأتذكر ذلك الرجل في يوم ما، وجاء في إحدى الليالي إلى مكتبي في الصحيفة، عندما كنت أحاول إعادة تركيب تاريخ العائلة لكتابة روايتي الأولى، وعــرض عليّ أن نقوم معاً بالتحقيق حول الهجوم على الجد، لم يُسلِّم بالأمر الواقع أبداً، وأذكر أنه في آخر مرة ودعني في كارتاخينا عندما كان في أواخر أيامه وقلبه لا يزال جريحاً، قائلاً:

– لا أفهم كيف استطعت أن تصبح كاتباً بهذه الذاكرة الضعيفة.

عــندما لم يعد هناك ما نفعله في أَراكاتاكا، أخذنا أبي لنعيش في بارانكيا مــرة أخــرى، وليفتتح صيدلية جديدة دون أن يمتلك سنتيماً واحداً من رأس المــال، لكــنه كــان يتمتع بسمعة طيبة لدى الموردين من شركائه في تجارة ســابقة، لم تكن الصيدلية الخامسة كما كنا نقول في العائلة، بل كانت الوحيدة التــي كنا نأخذها معنا من مدينة إلى أخرى طبقاً للحالة التجارية لأبي: مرتان فــي بارانكيا ومرتان في أَراكاتاكا، ومرة في سينثي. حقق فيها جميعاً مكاسب قليلة جداً وديونا غير قابلة للسداد، بلا جد ولا جدة ولا أعمام ولا خدم تقلصت العائلة جداً لتصبح مكونة من الأبوين والأبناء فقط، فقد كنا ستة –ثلاثة ذكور

وثلاث إناث- حصيلة تسع سنوات من الزواج.

كنت قلقاً من هذا الوضع الجديد في حياتي، ذهبت إلى بارانكيا عدة مرات في زيارات لأبوي، عندما كنت طفلاً، وكانت زيارات قصيرة جداً، وذكرياتي عـنها في تلك الأيام قليلة ومتشظية، زيارتي الأولى عندما كنت في الثالثة من عمـري، عـندما أخذونـي إلى هناك بمناسبة ميلاد شقيقتي مارجوت، أتذكر رائحـة طين الميناء الكريهة عند الفجر، وعربة الخيل التي كان سائقها يفزع الحماليـن بسـوطه عـندما كانوا يحاولون التعلق بها في ارتفاعات الشوارع القائظـة المهجورة والمتربة، أتذكر الجدران البنية وأبواب وشبابيك مستشفى الـولادة الخضراء التي ولدت فيها أختي، ورائحة الأدوية القوية المنتشرة في الغرفة. الوليدة الحديثة كانت تنام وحيدة في سرير حديدي بسيط جداً، مركون فـي ركـن قصي من الغرفة، وكانت هناك امرأة لا شك أنها كانت أُمي، لا أسـتطيع أن أتذكـر سـوى وجودهـا بلا ملامح محددة عندما مدت لي يدها الطويلة، وقالت:

- أنت لم تعد تتذكرني.

لـيس أكثر من هذا، لذلك فإن أول صورة لأمي كانت بعد ذلك بسنوات، كانـت صورة واضحة ولا شك في حقيقتها، إلا أنني لا أستطيع تحديد زمنها، ربمـا كانـت خلال زيارة قامت إلى أَراكاتاكا بعد ميلاد عايدة روسا، أختي الثانـية، كنـت في الفناء ألعب مع خروف حديث الولادة حمله إليّ سانتوس فيـيرو بيـن ذراعـيه من فونسيكا، حينها جاءت العمة ماما تجري لتخبرني بصوت عال أزعجني:

- لقد جاءت أمك.

سحبتني إلى الصالة بالقوة، حيث كانت جميع نسوة البيت وبعض الجارات جالسـات على كراسي متراصة إلى جوار الحائط كما لو كن في مأتم، انقطع

الحـــوار بدخولي المفاجئ، ظللت ساكناً إلى جوار الباب، دون أن أعرف أيهن أمي، إلى أن فتحت لي ذراعيها بصوت من أكثر الأصوات التي أذكرها رقة:

– ها قد أصبحت رجلاً.

كـــان لها أنف روماني جميل، معتزة بنفسها وشاحبة، تميزت عن الجميع بموضـــة السنة: فستان من الحرير عاجي اللون ضيق عند الوسط، وعقد لؤلؤ يلـــتف حول عنقها عدة مرات، وحذاء فضي بأربطة وكعب عالي، وقبعة من القـــش الرقـــيق على هيئة جرس تشبه قبعات ممثلات السينما الصامتة، لفني حضـــنها برائحـــتها الخاصة التي شعرت بها دائماً، فأحسست لحظتها بالذنب يعتصرني روحاً وجسداً، لأنني كنت أعرف أن واجبي أن أحبها ولكن شعوري تجاهها لحظتها لم يكن حقيقياً.

على العكس من ذلك فإن أقدم ذكرى احتفظ بها لأبي لازلت أذكرها جيداً وبوضـــوح يوم ١ ديسمبر ١٩٣٤، يوم عيد ميلاده الثالث والثلاثين. شاهدته يدخل بيت جدي في كاتاكا بقفزات سريعة وسعيدة، كان يرتدي حلة كاملة من التـــيل الأبيض وقبعة فلترية، هنأه أحدهم بعناق وسأله عن عدد السنوات التي أكملها. لم أنس أبداً إجابته لأنني لم أفهمها وقتها:

– في عمر المسيح.

دائماً ما أسأل نفسي لماذا تبدو تلك الذكرى قديمة جداً، خاصة أنه في تلك السنوات كنتُ ألتقي بأبي كثيراً.

لم نعش معا أبداً في بيت واحد، لكن بعد مولد مارجوت أخذني جدي معه لزيارة بارانكيا، لذلك عندما ولدت عايدة روسا كنت أكثر قرباً منهم، أعتقد أنه كـــان بيتاً سعيداً، كانت لديهم هناك صيدلية، وبعدها افتتحوا أخرى في المركز الـــتجاري. عدنا لرؤية الجدة أرخيميرا – الأم خيمي– وابنين لها، خوليو وأنا، التي كانت جميلة جدا، ولكنها كانت شهيرة في العائلة بسوء حظها، ماتت في

عمر الخامسة والعشرين، دون أن يعرف أحد السبب، ولا يزالون يؤكدون أن وفاتهـــا كانـــت نتيجة سحر أسود من خطيبها. بينما كنا ننمو كنت أرى الماما خيمي أكثر لطفاً وأقل كلاماً.

تســـبب أبوي في تلك الفترة في إصابتي بأزمة عاطفية تركت في داخلي جـــرحاً مـــن الصعب أن يندمل، كان ذلك في يوم أصاب أمي حنين للماضي، فجلســـت إلـــى البـــيانو لتعزف "عندما انتهت الرقصة"، فالس حبها التاريخي الســـري، ومـــا كان من أبي إلا أن نفض التراب عن آلة الكمان ليرافقها في العـــزف، علـــى الـــرغم مـــن أن الكمـــان ينقصه وتر، تناغما معاً في شكل رومانتيكي، وعزفا معاً من أجمل ما يمكن، إلى أن نظر إليها من طرف عينيه بحـــب، وانتبهـــت إلى دموع تغمم عينيه، فسألته أمي ببراءة عنيفة: "من التي تذكرتها الآن"، فأجابها تحت تأثير الفالس: "تذكرت المرة الأولى التي عزفناها معـــاً". حيـــنها ضـــربت أمي البيانو بكلتا يديها في غضب وصرخت بأعلى صوتها:

– لـــم يكن ذلك معي يا خوسيتو، أنت تعرف جيداً مع من عزفته وتبكي الآن من أجلها.

لـــم تذكـــر الاســـم، لا وقتها ولا في أي وقت آخر، لكن الصرخة نشرت الرعـــب فـــي جميع أرجاء البيت، لويس إنريكي وأنا كانت دائماً لدينا أسباب خفية للخوف، اختبأنا تحت السرير، وهربت عايدة إلى بيت الجيران، وأُصيبت مـــارجوت بحمى مفاجئة استمرت معها لثلاثة أيام، على الرغم من أن أخوتي الصـــغار كـــانوا معتادين على حالات الغيرة التي تصيب أمي، فتبدو عيناها مشتعلتان وأنفها حاد كالسكين، شاهدناها تنزع لوحات الصالون بهدوء غريب وتلقي بها على الأرض واحدة بعد الأخرى فتنثر سحابة من الزجاج المحطم، فاجأناهـــا تتشـــمم ملابس أبي قطعة قطعة قبل أن تضعها في سلة الغسيل، لم

يحدث أي شئ بعد ليلة الثنائي التراجيدية، لكن عامل الترميم أخذ البيانو لبيعه، أما الكمان –ومعه المسدس– فقد بقيا يتعفنان في دولاب الملابس.

كانت بارانكيا في ذلك الوقت متقدمة من الناحية المدنية، في ظل ليبرالية هادئة والتعايش السياسي، فكانا أساساً للنمو والازدهار طوال أكثر من قرن من الزمان سيطرت فيه الحروب الأهلية التي انتشرت في البلاد منذ استقلالها عن إســبانيا، وجــاء بعــد ذلك انهيار منطقة الموز الجريحة بالقمع الذي مارسته ضدها السلطات على إثر الإضراب الكبير.

إلا أنــه حــتى ذلــك الوقت لم يوقف أحد حب المغامرة الذي يتحلى به ســكانها، في عام ١٩١٩ قام الفتى ماريو سانتودومينجو –والد خوليو ماريو– بانفــراده بــالمجد المدنــي حين كان البادئ في افتتاح أول خط للبريد الجوي الوطنــي بسبعة وخمسين رسالة بريدية في حقيبة من المشمع تم إلقاؤها على شــاطئ ميــناء كولومبيا على بعد خمسة أميال من بارانكيا، من طائرة بدائية قادها الأمريكي وليام كنوكس مارتين. بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بقليل، وصــل إلــى الــبلاد مجموعة من الطيارين الألمان –من بينهم هيلموت فون كــرون– وافتتحوا خطاً للنقل الجوي بطائرات الجونكر اف–١٣، وكذلك أول قوارب برمائية قطعت نهر ماجدالينا كالجراد وكانت تحمل ست ركاب إضافة إلــى أكياس البريد. كانت تلك البويضة التي ولدت منها الشركة الكولومبية–الألمانية للنقل الجوي، التي تُعتبر واحدة من اقدم الشركات في العالم.

آخــر انتقال لنا إلى بارانكيا لم يكن في رأيي مجرد تغيير مدينة أو بيت، بــل تغيير للأب في الحادية عشرة من العمر، الأب الجديد كان رجلاً عظيماً ولكــن مفهومة للأبوة كان مختلفاً عن تلك الأبوة السعيدة التي عشتها وشقيقتي مارجريــتا فــي بيت جدي، نحن المعتادين على امتلاك أمر نفسينا بذلنا جهداً كبــيراً للتطــبع مع الوضع الجديد، الجانب المثير للإعجاب في أبى عصاميته

المطلقـــة، فقد كان من أكثر القراء الذين عرفتهم نهماً للمعرفة، وإن كان أقلهم انتظاماً، انهمك وحده على دراسة الصيدلة منذ أن غادر مدرسة الطب، التي لم تكن مهنتها في ذلك الزمن- في حاجة إلى دراسة أكاديمية، واستطاع الحصول على رخصة ممارسة الصيدلة مع مرتبة الشرف، وبالمقابل لم يكن يتمتع بحس أمـــي في مواجهة الأزمات، ففي أسوأ تلك الأزمات أمضى الوقت مستلقياً في ســـريره المعلق بالغرفة يقرأ كل ما يقع بين يديه من أوراق مطبوعة، أو يحل الكلمات المتقاطعة. ومشكلته مع الواقع من الصعب حلها. كان معجباً بالأثرياء بشـــكل أســـطوري، لكنه إعجاب بمن استطاعوا جمع المال بعرقهم ومواهبهم وشرفهم، فيما كان هو مستلقياً في سريره يُكَوِّن ثروات وهمية بإنشاء شركات سهلة لا يفهم لماذا لم تعن له من قبل. ودائماً ما يتحسر بذكر الثروات الغريبة في أماكن بعيدة عن بيتنا، لأنها في معظمها توجد في بلاد عرفها خلال عمله كعامل تلغراف. ظللنا نعيش تحت رحمة انعدام واقعيته ما بين الفقر والبؤس، ووصـــل الأمـــر بنا إلى أننا كنا ننتظر أن تمطر السماء خبزاً. على أي حال خلال الأيام السيئة أو السعيدة، طلبوا منا أن نسعد بالأيام السعيدة، وأن نحتمل الأيام السيئة بخضوع وكرامة كاثوليكية على الطريقة القديمة.

الـــتجربة الوحـــيدة التي كانت تنقصني وهي السفر بمفردي بصحبة أبي، وحصلت عليها كاملة عندما سافرنا إلى بارانكيا لمساعدته في إعداد الصيدلية ومجيء الأسرة. فاجأني أنه عندما كنا وحدنا كان يعاملني كما لو كنت رجلاً، بحـــب واحترام، إلى درجة انه كلفني بأشياء تبدو صعبة على من هم في مثل ســـني، لكنني أنجزتها بشكل جيد، وأنا سعيد، وإن لم يكن متفقاً معي في ذلك دائمـــاً، كـــان معـــتاداً على قص حكايات طفولته عندما كان يعيش في مسقط رأسه، لكنه كان يكررها عاماً بعد عام للمواليد الجدد، مما جعل تلك القصص تفقـــد جاذبيتها لأننا كنا نحفظها عن ظهر قلب، إلى درجة أننا نحن الكبار كنا

نغادر الطاولة عندما كان يبدأ في حكيها بعد تناول الغداء. إلى درجة أن لويس إنريكي أغضبه في واحدة من تعليقاته المباشرة بقوله:

– أخبروني عندما يعود الجد إلى الموت من جديد.

هذه الانفعالات الوقتية كانت تُخرج أبي عن هدوئه، وكانت تضاف إلى ما تــراكم لديه من أسباب ليرسل شقيقي لويس إنريكي إلى ملجأ في ميديين، لكنه كــان معي شخصاً آخر، ترك الحكايات الشعبية جانباً وقص عليّ فصولاً من حياته الصعبة مع أمي. وبخل أبيه الشهير والصعوبات التي واجهها لاستكمال دراســته، ســمحت لي تلك الذكريات احتمال بعض تطلعاته وفهم الكثير من تصرفاته غير المفهومة.

تحدثنا في تلك الفترة عن الكتب التي قرأناها والتي سنقرأها، وجمعنا من باعــة الكتب القديمة بالسوق مجموعة تاريخية من روايات طرزان ومخبري البوليس وحروب الفضاء، وكدت أن أكون ضحية لميوله العملية، خاصة عندما طلــب أن نكتفــي بتناول وجبة واحدة في اليوم، كانت المواجهة الأولى بيننا عــندما فاجأني أسد خروم بطني بالخبز والمشروبات الغازية بعد ست ساعات من تناولنا طعام الغداء، ولم أعرف كيف أخبره بمصدر النقود، لم أجرؤ على الاعــتراف له بأن أمي أعطتني سراً ما يُعينني على تحمل نظامه الصارم في أسفاره، ذلك التواطؤ بيني وبينها استمر طوال الفترات التي كانت تستطيع فيها الحصــول على ما يسد احتياجاتي، وعندما كنت في المدرسة الثانوية الداخلية كانــت تضــع في حقيبتي احتياجات مختلفة من تلك التي أحتاجها في الحمَّام، وقدمت لي ثروة تقدر بعشرة بيزوات في علبة صابون ماركة "رويتر" معتمدة علــى أنني لن ألمسها إلا عند الحاجة إليها، وهذا ما كان، فأثناء الدراسة بعيداً عن البيت تكون أي لحظة مناسبة مثالية للتفتيش عن البيزوات العشرة.

كان أبي يحتال على ألا يتركني ليلاً في الصيدلية بمفردي، لكن أفكاره لم

تكـــن دائمـــاً الأكثر مناسبة لسنواتي الاثنتي عشرة حينها، فزيارات العائلات الصـــديقة لـــيلاً كانـــت تبدو لي طويلة لا تنتهي، لأن من لديها أبناء في مثل عمـــري كانوا يجبرونهم على النوم في الثامنة، فيتركوني فريسة للسأم وعقم أحـــلام النقاشات الاجتماعية. يبدو أنني نمت أثناء زيارة أسرة طبيب صديق لأبـــي، ولـــم أعرف كيف ولا في أي ساعة استيقظت في شارع مجهول، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن مكان وجودي. ولا كيف وصلت إلى ذلك المكان، ولم يكـــن هناك تفسير سوى أنني سرت نائما، لم تكن هناك سابقة مثلها في العائلة ولـــم تـــتكرر بعدها حتى اليوم، لذلك لم يكن هناك تفسير ممكن آخر، أول ما فاجأنـــي عـــند استيقاظي واجهة محل حلاقة ملئ بالمرايا المشعة حيث كانوا يســـتقبلون ثلاثـــة أو أربعة زبائن تحت ساعة تشير إلى الثامنة وعشر دقائق. وهـــي ســـاعة لا يمكـــن أن يبقى فيها طفل في الشارع بمفرده. تحت سيطرة الرعـــب اختلط عليّ اسم الأسرة التي كنا نزورها وتذكرت العنوان خطأ، لكن بعـــض المـــارة تمكـــنوا من ربط المعلومات ببعضها وأخذوني إلى العنوان الصحيح. وجدت كل الجوار مصاباً بالرعب تحت العديد من التفسيرات حول اختفائـــي. كـــل مـــا يعرفونه عني أنني قمت من على الكرسي أثناء أحاديثهم فاعتقدوا أنني ذاهب إلى الحمَّام. تفسير الأمر على أنه حالة من حالات السير نائمـــاً لم تقنع أحداً، وكان أبي الأقل اقتناعاً بها، الذي اعتقد أنها لم تكن سوى واحدة من أعمالي الشيطانية الفاشلة.

لحســـن الحـــظ أنه استعاد ثقته فيّ بعدها بأيام عندما تركني في بيت آخر ليحضـــر عشـــاء عمل، كانت العائلة كلها مشغولة بمسابقة شعبية لحل الألغاز تذيعها إذاعة "أتلانتكو" على الهواء مباشرة، وكان اللغز ساعتها يبدو صعباً: ما الحـــيوان الذي يتغير اسمه عندما ينقلب على ظهره؟"، كنت قرأت شرح هذه المسألة في اليوم نفسه في آخر طبعات مجلة "الماناكي بريستول"،وكنت أعتقد

أنها نكتة سخيفة، تقول إن الحيوان الوحيد الذي يتغير اسمه بانقلابه على ظهره هــو الخــنفس، (في اللغة الإسبانية ترجمة هذا الاسم حرفياً تعني "وجهه إلى أســفل" فعــندما ينقلب على ظهره يتحول إلى "وجهه إلى أعلى"– المترجم)، وشوشــتُ بالإجابة سراً لطفلة من بنات البيت، فقامت الأخت الكبرى بإمساك التليفون واتصلت بالإذاعة لتقول الإجابة، وحصلت على الجائزة الأولى، التي تكفــي لدفــع إيجار البيت لثلاثة أشهر: مائة بيزو. امتلأت الصالة بالجيران الفرحين الذين استمعوا إلى البرنامج وجاءوا لتهنئة الأسرة الفائزة، لكن ما كان يهــم الأســرة أكــثر من النقود الفوز الذي حققوه في برنامج كان من أشهر البرامج في تلك الفترة في كل الشاطئ الكاريبي ولم ينتبه أحد لوجودي بينهم، عــندما جاء أبى ليصطحبني معه انضم إلى الزفة العائلية وشرب نخب الفوز، لكن لم يخبره أحد بالفائز الحقيقي.

انتصــار آخر حققته في تلك الفترة كان تصريح أبي لي بحضور حفلات مسرح كولومبيا المسائية أيام الأحد، كانوا يعرضون هناك مسلسلات سينمائية علــى حلقــات كل يوم أحد، كانت تخلق حالة من الترقب تظل حية في عقل المشاهد الأسبوع كله، كان"غزو مانجو" أول أسطورة فضائية احتلت قلبي ولم تخرج منه إلا بعد ذلك بسنوات لاحتلال "أوديسا الفضاء" مكانها، إلا أن السينما الأرجنتينــية هزمت كل هذه السلاسل جميعاً بأفلام كارلوس جارديل وليبرتاد لاماركي.

أعددنا الصيدلية في أقل من شهرين، وحصلنا على سكن للعائلة وفرشناه. كانــت الصــيدلية على ناصية مزدحمة في المركز التجاري، على بعد أربعة شــوارع من طريق بوليفار، فيما كان البيت في شارع جانبي في بالحي القديم الــبائس. لم يكن الإيجار على قدر قيمة البيت الحقيقية ولكن بقدر ما كان منه سابقا: بيت مدهون باللونين الأصفر والأحمر وعلى جانبيه برجين عسكريين.

علقـنا أسـرتنا في حوائط مخزن الصيدلية في اليوم الأول الذي استلمناه فيها، ونمنا هنا تحت وطأة الحر البطيء غارقين في بحر من العرق. وعندما تسـلمنا البيـت اكتشـفنا عدم وجود حلقات بالحوائط لتعليق الأَسِرَّة، ففرشنا المراتب على الأرض ونمنا كيفما اتفق، وحصلنا على قط بشكل مؤقت لطرد الفـئران مـن البيـت، وعندما جاءت أمي ببقية الملابس لم تكن الدواليب قد اكتملـت بعـد ولم تكن هناك أدوات مطبخ ولا أشياء أخرى لازمة لممارسة الحياة.

كـان البيت عادياً ولا يكاد يكفينا، مُكوَّن من صالة وغرفة طعام وغرفتي نوم وفناء صغير مكسو بالحجارة، قيمته لا تساوي ثلث الإيجار المدفوع فيه، انزعجت أمي بمجرد رؤيته، لكن زوجها هدَّأ من روعها برسم صورة ذهبية للمستقبل، كانا دائما على هذا الحال، من المستحيل العثور على كائنين مختلفين جداً لكنهما متفاهمين ومتحابين بشكل لا يُصدق.

أفزعنـي مشـهد أمـي، فقد كانت حاملاً للمرة السابعة، أعتقد أن جفنيها وقدمـيها كانت منتفخة تماماً كبطنها، كانت وقتها في الثالثة والثلاثين، وكان ذلـك البيت هو الخامس الذي نفرشه، أفزعتني حالتها النفسية، التي تدهورت مـنذ الليلة الأولى، كانت مرتعبة من الفكرة التي اخترعتها بنفسها دون أدنى علاقـة بـالواقع، فقـد اعتقدت أن السيدة "إكس" عاشت في هذا البيت قبل أن تموت طعناً بالسكاكين، وقعت تلك الجريمة قبل سنوات، خلال وجود أبوي في هذه المدينة أول مرة، كانت جريمة مرعبة إلى درجة أن أمي أقسمت ألا تعود للحياة في برانكيا مرة أخرى، ربما كانت نسيتها قبل عودتها هذه المرة، ولكن ذكرى الجريمة عادت إلى ذاكرتها فجأة في الليلة الأولى بالبيت الكئيب الشبيه بقلاع دراكولا.

أول نـبأ عن السيدة إكس كان عند العثور عليها عارية ومشوهة الملامح

بسبب حالة التعفن الشديد، قيل إنها امرأة أقل من ثلاثين عاماً، لها شعر أسود وملامــح جذابة، اعتقدوا أنهم دفنوها حية لأنها كانت تضع كفها الأيسر على عينــيها وتــبدو على ملامحها حالة الرعب، فيما كان ذراعها الأيسر مرفوعاً حــتى مستوى رأسها، الدليل المادي الوحيد على هويتها شرائط زرقاء ومشط ذهبــي لضم الشعر. أقرب التكهنات تحدثت عن راقصة فرنسية متساهلة في حياتها اختفت في التوقيت نفسه.

كانت برانكيا مدينة معروفة بإنها أكثر المدن أمناً في البلاد، ولكن هذا لم يمنع حدوث جريمة بشعة كل عام، لكن لم تقع جريمة أثارت الرأي العام مثل هــذه القتــيلة المجهولة، إلى درجة أن صحيفة "لابرنسا" التي تُعتبر من أكثر الصحف الوطنية أهمية في تلك الأيام، نشرتها مصورة على الصفحات الأولى لطبعــتها الأسبوعية، تماماً مثل بوك روجرز وطرزان والقرود، وظلت تثير رعــب المديــنة لفترة من الزمن بنشر المانشيتات الرئيسية وتقديم اكتشافات مفاجئة اشتهرت في البلاد كلها.

حاولــت الســلطات وقــف النشر بادعاء أن نشر تلك المعلومات يعرقل التحقــيق، ولكــن انــتهى الجمهور إلى تصديق ما تنشره الصحيفة أكثر من تصــديق ما تقوله السلطات، وظلت المواجهة قائمة بينهما لعدة أيام، ووصلت إلى حد أنها أجبرت المحققين على تغيير توجهاتهم، وقتها كانت صورة السيدة إكس مغروسة في عقول الجماهير بقوة، إلى درجة أن الكثير من البيوت كانت تُغلــق أبوابها بالجنازير الحديدية وفرضت حراسة ليلية قوية، خوفاً من عودة المجرم الهارب إلى مواصلة جرائمه البشعة، وطالبوا بعدم خروج المراهقات بعد السادسة مساء.

إلا أن الحقيقة، لم يكتشفها أحد، ولكن كشف عنها المجرم نفسه بعدها بعدة سنوات، فقد اعترف أفراين دونكان أنه قتل زوجته أنخيلا أويوس، في الوقت

الذي حدده الطب الشرعي، وأنه دفنها في المكان الذي عثروا فيه على القتيلة، وتعـرّف أهلها على الأشرطة الزرقاء والمشط الذي كانت تحمله أنخيلا عندما خرجت من بيت أسرتها برفقة زوجها يوم ٥ أبريل بدعوى السفر إلى كلامار، وتـم إغلاق ملف القضية باعتراف الجاني الذي بدا كما لو كانت نهاية رواية كتبها مؤلف فاشل، كانت لأنخيلا شقيقة توأم تشبهها تماماً سهّلَ التعرف عليها.

انهارت أسطورة السيدة إكس وتحولت إلى جريمة عاطفية عادية، لكن سر الشقيقة التوأم ظل يحوم على البيوت، وقيل إنها هي السيدة إكس نفسها عادت إلـى الحـياة بفعـل السحر، من وقتها والبيوت تغلق أبوابها بترابيس وتضع الموبيلـيا خلف الأبواب لمنع القاتل الهارب من السجن من الدخول ليلاً، وفي الأحياء الثرية بدأت ظاهرة اقتناء كلاب الصيد المدربة على مطاردة المجرمين القادريـن علـى اختراق الجدران، في الواقع أن أمي لم تستطع التغلب على خوفها إلى أن أقنعها الجيران أن هذا البيت بني بعد حادثة السيدة إكس بزمن.

فـي ١٠ يوليو ١٩٣٩، أنجبت أمي طفلة لها ملامح هندية جميلة، عمدوها باسـم "ريـتا" تيمـناً بالقديسة ريتا دي كاسيا، التي نالت شهرتها بالعديد من الكرامات وصبرها على تحمل الحياة مع زوجها السكير، وقصت علينا أمي أن الزوج عاد إلى البيت في إحدى الليالي في حالة سكر بيِّن بعد دقيقة واحدة من تـبرز إحدى الدجاجات على مفرش المائدة، ولما لم تجد القديسة وقتاً لتنظيف المفرش غطت براز الدجاجة بطبق حتى لا يراه الزوج، ولإبعاد نظره سألته:

– ماذا تريد أن تأكل؟.

هتف الزوج المناكف.

– براز.

فرفعت الزوجة الطبق وقالت له بحلاوة قدسية:

– إنه أمامك.

وتقـول القصـة أن الـزوج اقتـنع وقتها بقدسية زوجته واعتنق الديانة المسيحية.

كانـت صيدلية برانكيا الجديدة فشلاً ذريعاً، قام أبي بإغلاقها سريعاً، بعد عـدة أشـهر مـن التعامل بالقطاعي، فكان يقترض مرتين ليدفع ديناً واحداً، وأصبح لا يطاق، وفي يوم من الأيام أغلقها بالضبة والمفتاح ورحل بحثاً عن الـثروة في قرية لا تخطر على بال أحد بالقرب من نهر ماجدلينا. أخذني قبل رحـيله مـع شركائه وأصدقائه وأعلن بجدية أنني سأحل محله في البيت، لم أعرف مطلقاً إن كان فعل ذلك مستغلاً الظروف كما كان يحلو له أن يقول أم لا. أعـتقد أن كـل منا فهم الأمر على طريقته، لأنني في الثانية عشرة كنت نحيلاً وشاحباً ولا أكاد أصلح لشيء غير الرسم والغناء، إلى درجة أن المرأة التي كانت تشكك لنا الحليب قالت لأمي أمام الجميع وأمامي بحسن نية:

– معذرة إن قلت لك، يا سيدتي، هذا الطفل لن يعيش طويلاً.

تملكنـي الرعب لفترة طويلة خوفاً من موت مفاجئ، وحلمت كثيراً أنني عـندما كنت أنظر في المرآة لم أكن أرى نفسي بل أرى عجلا في بطن أمه، وشَـخَّصَ طبيـب المدرسة حالتي على أنني مصاب بالملاريا والتهاب اللوز والصفراء الناتج عن القراءات غير المنظمة، لم أحاول أن أخفف وقع الصدمة علـى أحـد، علـى العكس تماماً، كنت أعلن عن مرضي حتى أتجنب عمل الواجـبات المدرسية، إلا أن أبي قفز على العلوم قبل ذهابه، وأعلنني مسئولاً عن البيت والأسرة في غيابه وقال:

– كما لو كان أنا نفسي.

جمعـنا يوم رحيله في الصالة، وأعطانا أوامر، وعنفنا على ما يمكن أن نسئ عمله في غيابه، لكننا انتبهنا إلى أنها محاولات من جانبه حتى لا يذرف

الدمـــوع، أعطى لكل منا قطعة من فئة الخمس سنتيمات، كانت ثروة صغيرة لأي طفـــل فـــي تلك الأيام، ووعدنا بأن يبادلنا إياها باثنتين أكبر منها لو أننا حافظنا عليها كما هي إلى حين حضوره، وأخيراً توجه نحوي بنغمة إنجيلية:

- أتركهم في رعايتك، وعليّ أن أجدهم عند عودتي كما تركتهم لك.

تمـــزق قلبـــي وأنـــا أراه يخـــرج من البيت بملابس الركوب وعلى كتفه مخلاتـــه، وكنت أول من انخرط في البكاء عندما نظر إلينا لآخر مرة قبل أن يختفـــي على الناصية وودعنا بلتويحة من يده، وقتها فقط، وللابد، شعرتُ إلى أي حد كنت أحبه.

لـــم يكـــن صـــعباً تنفـــيذ وصيته، فقد بدأت أمي تعتاد على الوحدة غير المحســـوبة، وكانـــت تـــتعامل معها بحنق ولكن بيسر كبير، تَطلب العمل في المطـــبخ وتنســـيق البيت أن يساعد الجميع في القيام بواجبات البيت، وكانوا يقومـــون بواجـــبهم بشكل جيد. بدأت أشعر في تلك الفترة بإحساس الرجولة عندما بدأ أشقائي يتعاملون معي وكأنني العم.

لـــم أتمكن من هزيمة خجلي أبداً، عندما كان عليّ أن أقوم بالأعمال التي تـــركها لنا الأب المرتحل دائماً، تعلمت أن الخجل شبح لا يمكن هزيمته، ففي كـــل مرة كنت أطلب فيها قرضاً متفق عليه من قبل مع بعض الأصدقاء كنتُ أتأخـــر بـــالدوران حول البيت محاولاً كتم رغبتي في البكاء إلى أن أتجرأ في الـــنهاية على الحديث بفكين منطبقين إلى درجة أن أحد بقالي الحي كان يقول لـــي: "أيهـــا الطفل المكرم، لا يمكن الحديث بفم مغلق"، وعدت أكثر من مرة خالـــي اليدين وتعللت بأسباب أختلقها أنا، وربما لم أشعر في حياتي بالتعاسة كـــتلك المرة التي حاولت فيها الحديث بالتليفون في البقالة المجاورة، ساعدني البقال على الحديث مع عاملة التليفون لأن الخدمة الآلية لم تكن موجودة بعد، شـــعرت بإحســـاس المـــوت عـــندما دق الجرس وكنت أنتظر صوتاً مستعداً

لمساعدتي وإذا بي أسمع نباح شخص يتحدث معي من الظلام في ذات الوقت الذي أتحدث فيه، واعتقدت أن محدثي لا يفهمني كما لا أفهمه فرفعت صوتي بقدر ما استطعت. رفع الآخر، رفع صوته غاضباً:

– وأنت، لماذا تصرخ بحق الشيطان.

وضــعت الســماعة مرتعباً، وعليّ أن اعترف أنه على الرغم من قدرتي على الاتصال لا زلت أبذل جهداً عندما أتحدث في التليفون أو أصعد الطائرة، ولا أعرف إن كان هذا نتيجة تلك الأيام، كيف يمكنني أن أصبح شيئاً مهماً في المســتقبل؟، لحســن الحــظ، أن أمي كانت تردد مثلاً يقول: "يجب أن تعاني لتخدم".

وصــلنا أول خــبر من أبي بعد أسبوعين في رسالة مهمتها إعانتنا على الصبر أكثر منها لتخبرنا بأي شئ، وفهمتها أمي على هذا النحو، وغنت أثناء غســل الأطــباق فــي ذلك اليوم لترفع من معنوياتنا، كانت الحياة بدون أبي مخــتلفة: كانــت تــتعامل مع أخواتي كما لو كانت شقيقتهن الكبرى، وكانت تتباســط معهن حتى أصبحت أكثرهن استمتاعاً باللعب الطفولي، خاصة اللعب بالعــرائس. ووصــلت إلــى حد نسيانها الخجل فكانت تتعارك معهن نداً لند. وبــنفس الأنباء تلقينا رسالتين أخريين من أبي تتحدثان عن مشروعات واعدة تساعدنا على النوم بشكل أفضل.

المشــكلة الكبرى كانت تكمن في الملابس التي كانت تضيق على أجسادنا بســرعة رهيبة، ولويس إنريكي لم يكن هناك من يرث ملابسه ولا كان ممكناً أن يرث ملابسه أحد لأنه كان يأتي من الشارع زاحفاً وملابسه قد تحولت إلى خــرق، دون أن نفهم السبب أبداً، كانت أمي تقول يبدو كما لو كان يسير بين أســلاك شــائكة، الشقيقات –ما بين السابعة والتاسعة في العمر– كن يتبادلن الملابــس بشكل مدهش، وفكرت دائماً أن حالة الطوارئ في تلك الأيام عجّلت

بنموهن قبل الأوان، كانت عايدة كثيرة الحيل، فيما تغلبت مارجوت على جانب كبير من خجلها وكانت تبدو متفهمة وحنونة على شقيقتها حديثة الولادة، كنت أنا أكثر الجميع قسوة، ليس لأنني كنت مكلفاً بالقيام بأعمال مختلفة في طبيعتها عنهم، ولكن لأن أمي، المحمية بحماس الجميع، دمرت ميزانية العائلة بتسجيلي في مدرسة كارتاخينا، على بعد عشرة شوارع سيراً على الأقدام.

طـبقاً لعملية التقديم كنا حوالي عشرين متقدماً. كان علينا أن نحضر في الثامنة صباحاً لدخول امتحان القبول، ولحسن الحظ انه لم يكن امتحاناً مكتوباً، بـل كان هناك ثلاثة من الأساتذة ينادون علينا طبقاً لوجودنا في كشف التقديم ويمتحنوننا طبقاً للشهادات الحاصلين عليها من قبل. الشهادة الوحيدة التي كانت معـي هـي الشـهادة الابتدائية لأني لم أتمكن من تقديم شهادات الدراسة في مونسـوري لضيق الوقت، واعتقدت أمي أنهم لن يقبلوني لنقص الأوراق، إلا أنني قررت أن أمثل دور المجنون، أخرجني أحد المدرسين من الطابور عندما اعترفـت له بأننـي لا أملك شهادات، إلا أنه قرر أن يأخذني معه إلى مكتبه ليمتحننـي بلا شهادات، سألني عن حجم القاروصة، وكم سنة في القرن، وكم فـي العقـد، وطلب مني أن أذكر له عواصم المقاطعات الواقعة عل الأنهار الوطنية، والدول المجاورة. سار كل شئ روتينياً إلى أن سألني عن الكتب التي قـرأتها، ولفـت نظره أنني قرأت كتباً كثيرة ومختلفة على الرغم من حداثة سني، وأنني قرأت "ألف ليلة وليلة" في طبعة للكبار التي لم يحذفوا منها بعض المقـاطع الصـعبة التي أثارت حفيظة الأب أنجاريتا. أدهشني أنه كان كتاباً مهماً، لأنني اعتقدت دائماً أن الكبار لا يمكنهم أن يصدقوا أن الجان يخرج من الـزجاجات أو أن الأبـواب تفـتح بكلمة سحرية. المتقدمون قبلي لم يكونوا يتأخرون عن ربع الساعة في الامتحان، سواء نجحوا أم رسبوا، وأنا أمضيت أكثر من نصف ساعة أتناقش مع المعلم في موضوعات مختلفة، ومسحنا معاً

مجموعــة من الكتب المتراصة خلفه في دواليب معلقة بالحائط والتي كان من بينها كتباً شهيرة مثل "كنز الشباب" الذي سمعتهم يتحدثون عنه، إلا أن المعلم أقنعنــي بــأن أكثر الكتب مناسبة لسني هو "دون كيخوتي،" لكنه لم يجده في المكتــبة، ووعدنــي إعارتــه لي فيما بعد. بعد نصف ساعة من التعليق على "الســندباد البحري" أو "روبنسون كروز" رافقني إلى الصالة دون أن يقول لي كلمــة واحدة، لكن عندما خرجنا إلى الشرفة ودعني بالشد على يدي على أن نلتقــي الاثنين في الثامنة صباحاً، لأسجل اسمي في الدورة الدراسية العليا من المدرسة الابتدائية: الصف الرابع.

كان المعلم هو المدير العام، اسمه خوان بنتورا كاسالينز، ولا زلت أذكره كصــديق طفولتي، لم يكن فيه أي شئ من الصورة المرعبة التي نعرفها عن معلمــي تلك الفترة، فضيلته التي لا تُنسى كانت معاملتنا على أننا كبار مثلهم تمامــاً، وإن كــان منحنــي رعاية خاصة، فكان يسألني في الدرس أكثر من التلامــيذ الآخرين، وكان يساعدني على الإجابة لتكون صحيحة، وسهلة. كان يســمح لي باستعارة خارجية من كتب المكتبة لأقرأها في البيت، منها كتابان كانــا مخدري الجميل في تلك السنوات المدهشة: "جزيرة الكنز" و"الكونت دي مونتــي كريستو". التهمتهما حرفاً حرفاً تحت وطأة الرغبة في معرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي، وفي نفس الوقت الرغبة في ألا أعرف المزيد حتى لا تفقد القصة سحرها، مع هذين الكتابين و"ألف ليلة وليلة" تعلمت أشياء منها أن نقرأ حتى لا ننسى القراءة أبداً.

على العكس من ذلك فإن قراءتي لدون كيخوتي كانت فصلاً آخر مختلفاً، لأنهــا لــم تسبب لي الإحساس الذي نقله لي المعلم كاسالينز. كانت تضجرني حــوارات الفــارس المرتحل وأكثر منه إضجاراً كان تابعه، ووصل شعوري بالضــجر إلــى درجــة أنني اعتقدت أنه ليس الكتاب الذي حدثني عنه المعلم

كثـيراً، فقلت لنفسي إن معلماً يعرف الكثير لا يمكنه أن يخطئ، وبذلت جهداً كبـيراً لابـتلعه كالدواء بالملعقة، وعدت إليه في محاولة لقراءته أثناء دراسة البكالوريا، فدرسته كمادة إجبارية، أضجرني أكثر، إلى أن نصحني صديق أن أضعه جانباً وأقرأ فيه ما بين وقت وآخر أثناء القيام بواجباتي اليومية. اكتشفته بهـذه الطـريقة، تحت وطأة الاحتراق البطيء واستمتعت به، إلى درجة أنني حفظت منه مقاطع كاملة.

تركت في تلك المدرسة المحلية ذكريات أخرى حول تلك المدينة التاريخية التي لا تُنسى. كانت المدرسة عبارة عن بيت مبني على منحدر أخضر، يمكن مـن خـلال شرفتها رؤية أركان العالم جميعاً، من اليسار كان حي ألبرادو، الأكثر تميزاً وثراء. من النظرة الأولى بدا لي كحظيرة الدجاج المكهربة التي كانت تمتلكها شركة الفاكهة، التشابه لم يكن صدفة: فقد بنته الشركة الأمريكية بـنفس النموذج والأسعار وبمواد البناء المستوردة، كان منطقة جذب سياحي لباقـي البلاد، وعلى اليمين كان هناك حي الطبقة السفلى المترب الذي نسكن فيه، بشوارعه المتربة الحارقة، والبيوت الطينية ذات الأسقف الجريدية والتي تُذكّـرنا الآن بأننا لم نكن سوى بشر من لحم وعظم. لحسن الحظ، كنا نحصل من شرفة المدرسة على صورة بانورامية للمستقبل: حيث توجد الدلتا التاريخية لـنهر مجدلينا، الذي يُعد أحد أكبر الأنهار في العالم، وقمم جبال "لاس بوكاس نقراس" الرمادية.

فـي ٢٨ مايو ١٩٣٥، شاهدنا ناقلة البترول "تاراليت" بالعلم الكندي تدخل الميـناء بقـيادة دي. اف. ماكدونالد، وبمصاحبة الموسيقى والألعاب النارية، لتنهي جهودا مدنية لسنوات طويلة تحول بارانكيا إلى أول ميناء بحري ونهري في البلاد.

بعدهـا بقلـيل، مرت طائرة بقيادة الكابتن نيكولاس رييس مانوتاس على

سطح البيوت بحثاً عن مكان لإجراء هبوط اضطراري، لم يكن الطيار يحاول إنقاذ نفسه ولكن أيضاً إنقاذ المؤمنين الذين وجدهم في طريقه. كان هذا الطيار من أوائل الطيارين في تاريخ كولومبيا، أهدوه تلك الطائرة البدائية في المكسيك، وطار بها بمفرده من أقصى شمال وسط أمريكا إلى أقصى جنوبها، وكانت مجموعات هائلة قد أعدت له استقبالاً حافلاً في مطار بارانكيا بالمناديل والموسيقى والأعلام. لكن "رييس" أراد أن يدور دورتين شرفيتين لتحية المدينة قبل هبوطه في المطار؛ فأصيبت طائرته بعطل ميكانيكي، وتمكن من السيطرة عليها بمعجزة، وهبط على سطح مبنى بالمركز التجاري، لكنه وقع في شراك الأسلاك الكهربائية، وظل مُعلقاً في القوائم الخشبية التي تشدها، تابعناه ــ شقيقي لويس إنريكي وأنا ــ بين الجماهير المتزاحمة إلى أن هدنا التعب، وتمكّنا من مشاهدة الطيار بعد محاولات إنقاذه بكامل عافيته وسط صيحات الجماهير التي عاملته كبطل.

وأيضاً بدأ أول بث إذاعي في المدينة، وتم تحويل مجاري مائية قديمة إلى مكان سياحي وتعليمي لعرض الطريقة الجديدة في تنقية المياه، وتحوّلت صفارات وأجراس عربات بوليس المطافئ إلى لعبة الصغار والكبار المفضلة منذ أن بدأت في العمل بالمدينة، ومن تلك المنطقة دخلت السيارات الأولى المدينة، لتجري في شوارعها بسرعة جنونية. وأُنشئتْ أول شركة لتجهيز ودفن الموتى تم استلهامها من السخرية من الموت، وضعت إعلاناً دعائياً على طريق الخروج من المدينة يقول: "لا تُسرع، نحن ننتظرك".

في الليل، عندما لم تكن هناك نار سوى نار البيت كانت أمي تجمعنا لقراءة رسائل أبي، معظمها كان حكايات لإلهائنا، لكن رسالة منها كانت صريحة جداً حول انتشار ظاهرة الطب التجانسي في أعلى نهر ماجدالينا، يقول فيها: "توجد حالات هنا تبدو كما لو كانت معجزات". كان دائماً ما يترك

لدينا انطباعاً بأنه سيكشف لنا عن شئ كبير، ولكن ما يأتي بعد ذلك هو شهر آخر من الصمت، في الأسبوع المقدس، أُصيب اثنين من أشقائي بمرض تمدد الأوردة، ولـــم نســتطع أن نتصـــل بـــه، لأنه لم يكن هناك من يعرف مكانه بالضبط.

تعلمـــت فـــي تلك الأيام كلمة لها علاقة بالحياة الواقعية كان يرددها جدي وجدتي: الفقر. أنا كنت أفهمها في بيت جدي على أنها الحالة التي كنا نعيشها هـــناك منذ أن بدأت شركة الموز تُنهي أعمالها. كان جدي يشكو من الفقر في كـــل ساعات النهار والليل، ولم يعد الجلوس إلى المائدة ثلاث مرات أو حتى مرتين، كما كان في السابق، بل كان مرة واحدة، وحتى لا نتخلى عن طقوس الغـــداء المقدســـة، عـــندما لم نكن نمتلك ما نحافظ به عليه، تحَّولنا إلى شراء الطعـــام مـــن المطـــاعم، لأنه كان جيداً وأرخص ثمناً، خاصة بعد مفاجأة أن الأطفـــال كانوا يحبونه أكثر، ولكن تلك الأطعمة توقفت عندما علمت "مينا" أن بعـــض الضـــيوف قرروا عدم العودة إلى البيت مرة أخرى، لأنهم لم يعودوا يتمتعون بالطعام كما كان في الماضي.

فقر أبوي في بارانكيا كان مختلفاً لأنه كان منهكاً، ولكنه سمح لي أن أُقيم مـــع أمـــي علاقة ممتازة، أكثر من كونه حباً أُمومياً، ولكنه كان إعجاباً كبيراً بشخصـــيتها كأنـــثى الأســـد الصامتة المرعبة في مواجهة المواقف الصعبة، ولعلاقـــتها بـــالله، التي لم تكن علاقة خضوع بل علاقة مواجهة، كانا أساسين منحاها ثقة في الحياة لا تُقاوم، كانت تسخر من أفعالها في أسوأ حالات الحياة، كمـــا حدث عندما اشترت رِجْل عجل كانت تغليها يوماً بعد يوم لصنع شربة للطعام إلي أن لم يكن ممكناً غليها أكثر من ذلك، فقامت بإضافة شحم الخنزير إلـــيها. وعـــندها انقطع التيار الكهربائي، ولم تجد ما تضئ به البيت، نشرت الخوف بين الصغار كي لا يتحركوا من السرير حتى الصباح التالي.

فـي الـبداية كـان أبـي وأمي يزوران العائلات الصديقة المهاجرة من آراكاتاكـا علـى إثر أزمة شركة الموز، وتدهور الأمن العام، كانت زيارات دائـرية تدور دائماً حول الأوضاع السيئة التي وقعت في أسْرِها القرية. ولكن عندما اشتد الفقر علينا في بارانكيا، لم نعد نشكو مما كان يشكو منه الآخرون، وتحول حديث أمي إلى جملة واحدة: "الفقر يمكن رؤيته في العيون".

إلـى أن أكملت الخامسة من عمري، كنت أعتقد أن الموت نهاية طبيعية تحـدث للآخريـن، وملـذات السماء ورعب جهنم كانت مجرد دروس لحفظ الكتاب المقدس. وأن كل هذا لا علاقة له بي، إلى أن علمت بشكل عرضي في إحـدى الجنازات أن القمل يهرب من شعر الميت وينتشر على الوسائد، ولكن مـا أخافني من وقتها ليس الموت بل الخجل من هروب القمل من شعري أمام الحاضرين في الجنازة، مع ذلك لم أنتبه ــ عندما كنت في المدرسة الابتدائية فـي بارانكـيا ــ إلي أن القمل انتقل إليّ لدرجة أنني نقلت عدواه إلى الأسرة كلهـا، ممـا جعل أمي تؤكد من جديد على قوة شخصيتها، فقد قامت بتنظيفنا واحـداً بعد الآخر بسم قاتل للصراصير أطلقت عليه اسم: "البوليس"، المؤسف أنه بعد عملية النظافة هذه، عدنا إلى نقل عدوى القمل من المدرسة من جديد، وقـتها قررت أمي اتخاذ إجراء حاسم وهو أن نحلق شعرنا من جذوره، فكان عمـلاً بطولـياً أن أذهـب إلى المدرسة الاثنين التالي وعلى رأسي قبعة من الخـرق، لكنـي انتصرت على سخرية الزملاء بشرف، وأنهيت العام بأفضل النتائج. لم أعد أرى ــ بعد ــ المعلم كاسالينز، ولكن بقي الإحساس بالامتنان تجاهه.

ألحقنـي صـديق لأبي لم نكن نعرفه من قبل بالعمل خلال الإجازات في مطـبعة قريبة من البيت، الراتب لا يكاد يكون شيئاً يذكر، فقد كان هدفي تعلم المهـنة، مـع ذلك لم أشاهد المطبعة أبدا لأن عملي كان رص ألواح الطباعة

المعدنـــية لإعدادهــا لمرحلة أخرى، ربما كان المغري أن أمي سمحت لي أن أشـــتري براتبي الملحق الأسبوعي لصحيفة "لابرنسا" التي كانت تنشر حلقات مرســـومة من طرزان، وبوك روجرز، التي كانوا يسمونها "بينتين وانياس"، وخـــلال عطـــلات أيام الأحد تعلمت رسم تلك القصص من الذاكرة، بل كنت أواصل إكمال القصة بطريقتي الخاصة، بهذه الرسوم جذبت بعض الكبار من الجيران وبعت بعضها لهم بأسعار وصلت إلى سنتيمين.

كـــان العمـــل مُـــنهكاً وبلا قيمة، ومهما بذلت من جهد، فقد كان رؤسائي يتهمونـنـــي بعـــدم الحمـــاس للعمـــل، وإرضاءً لعائلتي أخرجوني من الطبعة، وكلفونـــي بتوزيع إعلانات في الشوارع عن مشروب لدواء الكحة يؤكد أشهر نجوم السينما نجاعته. إعتقدت في البداية أنه عمل جيد، لأن ورق الدعاية كان مرســـوماً بشكل جذاب، وعلى ورق حريري، إلا أنني إكتشفت أن توزيع هذه الدعايـــة لم يكن شيئاً سهلاً كما كنت إعتقد، لأن الناس لم تكن تهتم بها لكونها مجـــرد هدايا، وأكثرهم يعرضون عن قبولها، كما لو كانت مكهربة. عدت في اليوم الأول بما تبقى معي منها لاستكمالها، إلى أن التقيت أحد الزملاء لي في آراكاتاكـــا، غضبت أمه من رؤيتي أمارس هذه المهنة التي تعتبرها أقرب إلى التســـول، وعنَّفتنـــي بسبب تسكعي في الطريق بصندل من الخرق اشترته لي امي حتى لا يبلى حذائي.

قالت لي:

– قل للويسا ماركيز أن تفكر فيما يمكن أن يقوله أبواها لو رأوا حفيدهما المفضل يوزع دعاية للمصابين بالسل في السوق.

لـــم أُبلـــغ أمي لأجنبها الحزن، ولكني بكيت دموعاً على وسادتي غضباً وخجـــلاً لعـــدة ليالٍ، أنهيت الدراما كلها بعدم العودة إلى توزيع الدعاية، كنت ألقي بها في مصرف المياه الصحية بالسوق دون أن أنتبه إلى أنها مياه ساكنة،

والــورق الحريري يطفو على سطحها إلى أن يُكَوِّن غطاءً جميلاً من الألوان، كان مشهداً غريباً للسائرين على الجسر.

يــبدو أن أحد موتى أمي كتب لها رسالة في أحد أحلامها، لأنها أخرجتني من المطبعة قبل أن أُكمل شهرين من العمل دون أن تقدم لي تفسيراً لذلك، وإن رفضــت حتى لا أفقد الملحق الأسبوعي لصحيفة "لابرنسا" الذي كنا نتلقاه في العائلـــة كما لو كان هدية من السماء. إلا أن أمي واصلت شراءه حتى لو كان هذا يعني تقليل عدد البطاطس في الحساء. وكانت النقود التى أرسلها لي العم خوانيتو لشهرين متتاليين نجدة غير متوقعة، فهو لا يزال يعيش في سانتا مارتا بمكاسبه القليلة كمحاسب محلف، بعد أن كلف نفسه مشقة إرسال رسالة لنا ــ كل أسبوع ــ في كل منها ورقتان من فئة البيزو، كان يسلمها لي قبطان اللنش "أوروا" صــديق العائلة، في السابعة صباحاً، فكنت أعود من السوق ومعي ما يكفي من غذاء أساسي لعدة أيام.

لــم أســتطع تنفيذ ما طلبته مني أمي في أحد الأيام، فكلفت شقيقي لويس إنريكـــي، الذي لم يستطع مقاومة رغبته في المقامرة في ماكينة النقود بكانتين أحد الصينيين. لم يتوقف عندما خسر أول قطعتي نقود، وواصل المقامرة في محاولـــة لاسترداد ما خسره إلى أن وصل إلى القطعة قبل الأخيرة، حكى لي هــذه الحكاية بعد أن كبرنا، قال: "أصابني الرعب إلى درجة أنني قررت عدم العــودة للبيت أبداً"، فقد كان يعرف أنه بالبيزوين يمكن شراء احتياجات تكفي البيــت لأســبوع، لحســن حظه أنه مع القطعة النقدية قبل الأخيرة، ارتعشت الماكيـــنة كوحـــش وتقــيأت دفقـــة متواصلة من القطع النقدية التي فقدها في المقامـــرة، وقـــال: "أنار الشيطان عقلي حينها، وقررت ألا أخاطر بالنقود بعد ذلــك أبـــداً". لكنه كسب فعاد إلى المقامرة وكسب مرة أخرى وأخرى، وقال: "الرعـــب الـــذي تملكني وقتها كان أكبر من الذي تملكني عندما خسرت إلى

درجـــة أننـــي أُصبت بإسهال"، وفي النهاية كسب البيزوين بضعفين من قطع نقديـــة من فئة الخمس سنتيمات، ولم يجرؤ على تغييرها بعملات ورقية خوفاً من شكوك الصيني، وامتلأ جيبه إلى درجة أنه قبل أن يقدم لأمي ورقتي العم خوانيـــتو مـــن فئة البيزو، دفن الأربعة الأخرى التي كسبها في حفرة بالفناء، حيـــث كان معتادا على إخفاء النقود التي يحصل عليها سراً، أنفقها شيئاً فشيئاً دون أن يكشـــف ســـرها لأحـــد حـــتى مرت سنوات طويلة، وظل رعبه من المخاطرة بآخر قطعة نقدية يلازمه لسنوات طويلة بعد ذلك.

علاقـــته بالنقود كانت علاقة شخصية جداً، فاجأته أمي في إحدى المرات وهـــو يحـــاول سرقة بعض النقود من حافظتها المخصصة للمشتروات، فكان دفاعـــه غريـــباً ولكنه كان عبقرياً: أن النقود التي يأخذها من حافظة الأبوين ليست سرقة، لأنها نقود الجميع، وأن الأبوين يرفضان أن نحصل عليها حسداً، لأنهما لا يعرفان ما يفعلان بها مثل ما يفعل الأبناء، دافعت أنا عن حججه إلى درجـــة الاعـــتراف بأننـــي أيضاً أخذت نقوداً من الأماكن المخبوءة فيها لسد حاجـــات عاجلة، فقدت أمي أعصابها وقالت: "لا تكن أحمقاً"، ثم صرخت في وجهي: "لا أنت ولا أخوك سرقتما أي شئ، لأنني كنت أترك النقود حيث هي لـــتأخذاها عـــندما تكونان في حاجة مُلِّحة إليها"، وسمعتها في لحظات عصبية تقـــول، أن علـــى الله أن يسمح بسرقة أشياء معينة عندما يتعلق الأمر بإطعام الأبناء.

سِـــحْر لويـــس إنريكـــي ومهارته في الشيطنة كانت صالحة لحل مشاكل مشـــتركة، لكنه لم يستطع أن يجذبني نحو مشاركته في أفعال أخرى، بل على العكس كان يحاول ألا تنكشف حتى لا يشتبهون في علاقتي بها، وهذا زاد من ثقـــة دامت إلى الأبد. فيما حاولت ألا أدعه يعرف كم كنت أحسده، وكم كنت أعاني عندما كان يعاقبه أبي، كنت أتعامل بطريقة مختلفة عنه، ولكني كنت لا

أستطيع في كثير من الأحيان ضبط شعوري تجاهه بالحسد.

في أقصى حالات القنوط، أرسلتني أمي برسالة إلى رجل كان معروفاً بأنه الأكــثر ثــراءً والأكثر إحساناً بالمدينة، وكانت أخبار قلبه الطيب تنشر بشكل مبالغ فيه تماما كما كانت تنشر أنباء نجاحه المالي، كتبت له أمي رسالة تطلب فــيها إعانـــة مالية عاجلة ليست لسد حاجتها الخاصة ولكنها تفعل ذلك بسبب حبها لأبنائها. يجب معرفة أمي لمعرفة إلى أي حد كانت محتاجة لتحتمل هذا الــذل، وحذرتني بأن يظل هذا سراً بيننا نحن الاثنين، وهذا ما كان، إلى هذه اللحظة التي أكتب فيها.

طرقــت بوابة البيت، التي كانت تشبه الكنيسة، وفي لحظات قليلة انفتحت طاقــة فــي الباب أطلت منها امرأة لا أذكر منها سوى عينيها، أخذت الرسالة دون أن تقــول شــيئاً وأعادت إغلاق الطاقة من جديد، كانت الساعة حوالي الحاديــة عشرة صباحاً، وجلست أنتظر إلى الثالثة مساء، عندها قررت العودة إلـــى طــرق الباب من جديد بحثاً عن إجابة، عادت المرأة نفسها لفتح الباب، وتعرفــت علـــيّ مندهشة، وطلبت مني أن انتظر لحظات، وكانت الإجابة أن أعود الثلاثاء من الأسبوع القادم في هذه الساعة نفسها، وهذا ما فعلته، فكانت الإجابــة أنه لا يمكن قبل مرور أسبوع آخر، ربما عدت ثلاث مرات أخرى، وكانــت دائمـــا الإجابة نفسها، إلى مرور شهر ونصف عندما قالت لي امرأة أخرى أكثر جفاء من الأولى إن السيد يقول إن ذلك البيت ليس بيت إحسان.

درت عــدة مرات في الشوارع الحارقة محاولاً استجماع شجاعتي لأخبر أمـــي بالإجابة التي تعيد إليها الأمل، وعندما حل الليل، وبقلب جريح واجهتها بالخــبر دون مواربـــة أن السيد المحسن مات منذ عدة أشهر، وأكثر ما آلمني الصلوات التي صلتها ترحماً على روحه.

بعــد أربـــع أو خمس سنوات، استمعنا إلى نبأ موته الحقيقي من الراديو،

انــتظرت إجابة أمي برعب، إلا أنني لم أفهم أبداً كيف أنها استمعت إلى النبأ باهتمام وتنهدت من أعماق نفسها:

– فليحفظه الله في مملكته المقدسة.

قريباً من البيت أقمنا علاقة صداقة مع آل موسكيرا، عائلة تنفق ثروة في شــراء مجــلات القصص المصورة، وكانت تُخَزِّنها في الفناء حتى السقف، ونحن كنا المحظوظين الوحيدين، أمضينا أياماً كاملة نقرأ ديك تريسي ووبوك روجرز. الاكتشاف الآخر السعيد كان الصبي الذي كان يرسم إعلانات الأفلام للســينما القريبة، كنت أساعده لأستمتع فقط برسم الحروف، وكان هو يساعدنا على الدخول مجاناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لمشاهدة الأفلام الجيدة والمسلسلات. الترف الوحيد الذي كان ينقصنا هو الحصول على جهاز راديو لسماع الموسيقى في أي ساعة فقط بلمسة زر. من الصعب أن نتخيل اليوم إلى أي حد كانت أجهزة الراديو قليلة في بيوت الفقراء. كنا ـــ لويس إنريكي وأنا ـــ نجلس على دكة بالبقالة الواقعة على الناصية لسماع الدردشة، وكنا نمضي أمســيات كاملــة لسماع برامج الموسيقى الشهيرة، حتى حفظنا عن ظهر قلب مقطوعــات كاملــة لميجيليــتو فــالديس بأروكسترا كازينو الشاطئ، ودانييل ســانتوس بعزف أوركسترا سنوروا ماتانثيرا، وأغنيات أغوستين لارا بصوت تونيا لا نجرا. لقضاء الوقت خلال الأيام التي قطعوا فيها التيار الكهربائي عنا لعــدم دفع الفواتير، كنا نُعلِّم أمي وأخواتي تلك الأغاني، خاصة شقيقتي ليخيا وشقيقي جوستافو، كانا يحفظانها ويرددانها كالببغاوات دون أن يفهما كلماتها، وكــنا نضحك حد الانفجار لأخطائهما الغنائية. لقد ورثنا جميعاً ذاكرة خاصة لسماع الموسيقى من الأبوين. وكانت لدينا حاسة سمعية جيدة لحفظ أي أغنية مــن المرة الثانية لسماعها، خاصة لويس إنريكي الذي ولد موسيقياً وتخصص بمفــرده فــي العزف المنفرد على الجيتار لعزف أغنيات الحب الحزينة. ولم

يمض وقت طويل حتى اكتشفنا أن أبناء العائلات التي لا تملك جهاز راديو في بيوتها حفظ أبناؤهم الأغاني من أشقائي، وبشكل خاص من أمي، التي تحَّولت إلى واحدة من الشقيقات في بيت الأطفال هذا.

برنامجـــي المفضـــل كـــان "ساعة من كل شئ.. شئ" للمؤلف الموسيقي والمعلـــم أنخيل ماريا كاماتشو أي كانو، يجذب المستمعين من الواحدة ظهراً بكـــل ما تتخيل من منوعات، وبشكل خاص ساعة الهواة الأصغر من خمسة عشر عاماً، يكفي أن تسجل اسمك في مكاتب إذاعة "صوت الوطن" وأن تصل الـــبرنامج قـــبل نصف ساعة من بدايته. كان المعلم "كاماتشو إي كانوا" يقوم شخصـــياً بمرافقة المتسابق بالعزف على البيانو، ويقوم مساعده بإعلان الحكم القـــاطع من خلال جرس كنيسة عند أدنى خطأ، جائزة أفضل أغنية أكثر مما يمكنـــنا أن نحلم به ـــ خمسة بيزوات ـــ لكن أمي كانت واضحة في أن المهم هو الغناء في برنامج له سمعته.

حـــتى هـــذا الوقـــت كنت معروفاً بلقب أبي وحده ـــ جارثيا ـــ واسْمَيّ المجرديـــن ـــ جابرييل خوسيه ـــ ولكن في هذه الفرصة التاريخية طلبت مني أمي أن أسجل أيضاً لقب ـــ ماركيز ـــ حتى لا يشك أحد في شخصيتي، كان حدثـــاً تاريخـــياً فـــي البيت، ألبسوني باللون الأبيض كما في التعميد الأول، وزفونـــي قـــبل خروجي، ووصلت إلى "صوت الوطن" قبل الموعد بساعتين. وكان تأثير الوصول مبكراً سلبياً حيث كان عليّ أن أنتظر، لأنهم لا يسمحون بالدخول إلى الأستوديو حتى ربع ساعة قبل بداية البرنامج. في كل دقيقة تمر كانت تنمو في داخلي عناكب الرعب، وأخيراً دخلت مرتعباً، بذلت جهداً كبيراً حتى لا أعود إلى البيت بحجة أنهم لم يتركوني أتسابق لأي سبب من الأسباب، قمـــت بتجربة سريعة مع المعلم لضبط نغمة صوتي مع البيانو، كانوا استمعوا إلـــى سبعة قبلي طبقاً لقائمة التسجيل، دقوا الجرس لثلاثة بأسباب مختلفة، وأنا

أعلنوا اسمي جابرييل ماركيز مجرداً، غنيت أغنية "البجعة" أغنية عاطفية عن بجعة أكثر بياضاً من الثلج اغتالها وحبيبها ـــ صياد قاسي القلب. منذ النغمات الأولـــى انتبهت إلى أن النغمة كانت عالية جدا بالنسبة لنغمتي خلال البروفة، فأصـــابني الذعـــر لحظـــة عندما أشار لي المساعد بإشارة شك، واستعد لدق الـــناقوس، لا أعرف من أين جاءتني الشجاعة لأشير عليه بألا يدق الجرس، لكـــن كـــان الوقت متأخراً: دق الناقوس بلا قلب، وذهبت البيزوات الخمسة، بالإضـــافة إلى هدايا أخرى، إلى فتاة شقراء جميلة جداً غنت جزءاً من "مدام بـــترفلاي". عدت إلى البيت محطماً بالهزيمة، ولم أفلح في تعزية أمي وإعادة الأمـــل إليها، مرت سنوات طويلة قبل أن تعترف لي أن خجلها نتج عن أنها طلبـــت من الأهل والأصدقاء أن يستمعوا إلي وأنا أغني، وأنها لم تكن تعرف كيف تتجنبهم.

وسط هذا النظام المكوَّن من الضحكات والدموع، لم أتخلف عن المدرسة مطلقـــاً، وحتى بلا إفطار، لكن وقت قراءاتي في البيت تضاءل، لأننا لم نكن نملك ميزانية للنور كي اقرأ حتى منتصف الليل، كانت هناك ورش أتوبيسات فـــي طـــريق المدرسة، وكنت أتوقف أمام إحداها لساعات طويلة أشاهد كيف يرســـمون الحـــروف والمســـارات والاتجاهات، في يوم من الأيام طلبت من الخطـــاط أن يتركنـــي أرســـم حرفاً ليعرف مدى قدرتي، مُندهشاً من قدراتي الطبيعـــية ســـمح لي أن أساعده أحياناً مقابل بيزوات متفرقة كانت تساعد في ميزانـــية البيـــت، حلمي الآخر كان علاقة الصداقة مع الأخوة جارثيا الثلاثة، أبـــناء بحـــار في نهر ماجدالينا، نظَّموا ثلاثياً للموسيقى الشعبية ليشاركوا في احـــتفالات الأصدقاء والأعياد مجاناً، تلبية لنداء حب الموسيقى، أكملت معهم الرباعـــي جارثـــيا للتسابق في ساعة الهواة بإذاعة الأتلانتكو، فزنا منذ اليوم الأول بتصـــفيق حـــاد، لكـــنهم لم يدفعوا لنا البيزوات الخمسة بسبب خطأ في

التســجيل. واصلنا التدريبات معاً باقي السنة، وكنا نغني مجاناً في الاحتفالات العائلية، إلى أن انتهت الحياة إلى تفريقنا.

لــم أفهــم أبداً أن الطريقة التي كان يتعامل بها أبي مع الفقر كانت بسبب انعدام مسئوليته، على العكس: أعتقد أنها دلالات على التجانس بينه وزوجته، وأن هذا كان يسمح لهما بالاحتفاظ بحياتهما إلى أقصى درجات المخاطرة، كان يعرف أنها تسيطر على الرعب أفضل من سيطرتها على القنوط، وأن هذا كان ســر استمرارنا على قيد الحياة، ربما كان ما لم يفكر فيه أنه بينما كان يشعر بالــراحة فــي الحزن تكون هي في أفضل حالاتها. لم نفهم أبداً أسباب سفره، فجأة، وكما كان يحدث دائماً، أيقظونا في منتصف ليل يوم سبت ليأخذونا إلى وكالة محلية لشركة بترول كاتاتومبو، حيث كانت تنتظرنا مكالمة تليفونية من أبــي، لا أســتطيع أن أنســى أبداً أمي الغارقة في دموعها، في حوار موحل بالتقنية.

قالت أمي:

– أي جابريــيل، انظر كيف تركتني مع هذا القطيع من الأبناء، وكنا في عدة مرات لا نملك ما نأكله.

أجابها هو بنبأ سيء، فقد كان كبده منتفخاً، وأن هذا كان يحدث له كثيراً، لكن أمي لم تكن تصدقه لأنه استخدم هذا المرض مرة لإخفاء بعض مغامراته، فقالت له هازلة:

– هذا يحدث لك عندما ترتكب فعلاً سيئاً.

كانت تتحدث كما لو كان أبي في التليفون، وفي النهاية حاولت أن ترسل له قبلة، فقبلت التليفون، بعدها لم تستطع أن تمنع قهقهاتها، ولم تستطع أبداً أن تقــص هذه الحكاية دائماً لأنها كانت تنتهي غارقة في الدموع والضحكات، إلا أنها في ذلك اليوم ظلت ساكنة، وأثناء الجلوس إلى مائدة الطعام، قالت:

- أشعر بشيء غريب في صوت جابرييل.

أفهمــناها أن نظام التليفون اللاسلكي لا يُغيِّر من ملامح الصوت فقط، بل يغــير مــن الشخصية أيضاً، قالت في الليلة التالية وهي نائمة: "على أي حال ســمعت صوته كما لو كان اكثر نحولاً". كان أنفها حاداً كما في الأيام السيئة، وكانت تتساءل من بين تنهداتها كيف تكون تلك القرى التي تعيش بلا رب ولا قــانون التــي يتنقل فيها رجلها دون رقابة من أحد، وضجت مخاوفها الخبيئة أكــثر خلال حديث تليفوني آخر، عندما أجبرت أبي على أن يقسم على العودة إلــى البيت إن لم يحدث تقدم خلال أسبوعين، إلا أننا قبل الموعد المحدد تلقينا تلغــرافا محــزناً مــن كلمة واحدة " بلا قرار"، رأت أمي في التلغراف تحقق مخاوفها واتخذت قرارها الذي لا رجعة فيه:

- إما أن تأتي قبل الاثنين أو أذهب الآن إلى حيث توجد.

كــان علاجــاً مقدســاً، كان أبي يعرف سلطة تهديداتها، وقبل أن يمضي أسبوع واحد كان في طريق عودته إلى بارانكيا. أفعمنا دخوله، مرتدياً ملابس غــير مهــندمة وجلده يميل إلى الاخضرار، وغير حليق، إلى درجة أن أمي اعــتقدت أنــه مــريض، لكنها كانت رؤية وقتية، لأنه في يومين فقط استعاد مشــروعه الشــبابي بافتتاح صيدلية متعددة في قرية سوكري، على بعد ليلة إبحاراً من بارانكيا، عاش فيها خلال شبابه الأول كعامل تلغراف، وقلبه يقشعر عــندما يــتذكر الرحلة عبر القنوات الغسقية في نهر ثينجا الذهبي، والرقص الأبدي. ظل عاماً يحاول الحصول على مكان هناك لكنه لم يكن محظوظاً كما في مرات سابقة، كما في آراكاتاكا، التي تعتبر أكثر إلحاحاً. عاد للتفكير في تلــك القرية خمس سنوات بعد ذلك، بعد أزمة الموز الثالثة، لكنه وجدها مغلقة فــي وجهه بتجار الجملة، إلا أنه قبل شهر واحد من عودته إلى بارانكيا التقي بعضــهم صــدفة، لم يرسموا له فقط مستقبلاً معاكساً بل عرضوا عليه قرضاً

جـيداً لافتـتاح صيدلية سوكري، لم يقبل القرض لأنه كان على وشك تحقيق حلمه الذهبي في "آلالاتو روساريو"، لكن عندما فاجأه قرار الزوجة بحث عن مُوَرِّدين في ماجانيجي، الذين كانوا لا يزالون يتجولون بين قرى النهر وأنهوا الاتفاق.

بعـد حوالي أسبوعين من الدراسات والاتفاقات مع المورِّدين الأصدقاء، ذهـب وهو في حالة طيبة، ورغبته في الوصول إلى سوكري كانت عارمة، إلـى درجـة أنهـا انعكسـت علـى رسالته الأولى: "الواقع كان أفضل من الذكـريات". أجـر بيـتاً بشـرفة في الميدان الرئيسي، واستعاد علاقاته مع الأصـدقاء القدامـى الذيـن فـتحوا له أبوابهم، كان على الأسرة أن تبيع ما اسـتطاعت من أشياء، وشحن الباقي الذي لم يكن بالشيء الكثير، وأخذه معها فـي إحدى السفن البخارية التي كانت تقطع نهر ماجدالينا في رحلات معتادة، أرسـل أبي في الرسالة أيضاً مبلغاً من المال محسوباً بشكل دقيق للمصاريف العاجلـة، وقال إنه سيرسل مبلغا آخر لمصاريف السفر. لم أستطع أن أتخيل أنباء أفضل من هذه لإرضاء أمي الحالمة، لذلك فإن استجابتها لم تكن فقط عن تعقل لتشجيع الزوج، بل لتجِّمل له الأخبار، أعلنت عن حملها للمرة الثامنة.

قمـت بعمل المطلوب وحجز التذاكر في باخرة "كابتن كارو" وهي سفينة شهيرة تقطع المسافة بين بارانكيا وماجانجي في ليلة ونصف يوم، بعدها نكمل الرحلة في لنش بموتور عبر نهر خورخي، ثم بترعة لا مونخا حتى نصل إلى وجهتنا.

قالت أمي التي كانت لا تؤمن مطلقاً برحلة سوكري:

– كل هذا حتى لا نبقى هنا، ولا يجب ترك أي زوج بمفرده.

اسـتعجلتنا جـداً لدرجة أننا قبل ثلاثة أيام كنا ننام على الأرض بعد أن فككـت الأَسِرَة والموبيليا لبيعها، وما عدا ذلك كان في صناديق، وثمن التذاكر

كان مخبأ في مكان أمين من الأماكن التي تعرفها أمي، بعد أن حسبته وأعادت حسابه عدة مرات.

موظــف شركة النقل استقبلني، كان واضحاً لدرجة أنني لم أكن في حاجة إلي مساعدة للتفاهم معه، وأنا متأكد أنني كتبت حرفياً كل الأسعار التي أملاها علــيّ بوضــوح. وربما أكثر ما أسعدني ونسيت تسجيله أن الأطفال أقل من اثنتى عشر عاماً يدفعون نصف ثمن التذكرة العادية، وطبقاً لهذه القاعدة جنبت امي النقود اللازمة للرحلة، وأنفقت كل ما تبقى حتى آخر سنتيم.

ذهبت ــ الجمعة ــ لشراء التذاكر، فاستقبلني الموظف بمفاجأة أن الصغار اقل من اثنتي عشر عاماً لا يحصلون على خصم نصف ثمن التذكرة بل خصم يســاوي ثلاثين بالمائة فقط، مما يخلق فارقاً في السعر لا يمكننا دفعه. وادعى أننــي ســجلت كلامه خطأ، لأن هذه التعليمات كانت مسجلة في ورقة رسمية وضــعها أمــام عينــي، عدت مهموماً إلى البيت ولم تقل أمي شيئاً بل لبست فســتانها الــذي كانت ترتديه في جنازة أبيها، وذهبنا إلى مكتب شركة السفر الــبحرية، أرادت أن تكون عادلة: واحد منا أخطأ وهذا الذي أخطأ يمكنه أن يكون ابنها، لكن كل هذا لا أهمية له، الحقيقة أنه ليست لدينا النقود المطلوبة. وشرح لها الموظف بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً.

قالت له:

- إنهم أطفال صغار.

أجابها:

-الأمر ليس أنني أريد أو لا أريد أن أقدم لها خدمة، إنها تعليمات الشركة التي لا يمكنني مخالفتها.

"إنهم أطفال صغار" قالت أمي، وأشارت بيدها نحوي كمثال "تخيل أن هذا

هو أكبرهم وعمره اثنتي عشر عاماً، ثم صنعت إشارة بيدها:

– إنهم بهذا الحجم.

لـــم يكن الأمر يتعلق بالطول، حسب رأي الموظف، بل بالسن، ولا يمكن أن يدفـــع أحد أقل من الثمن، عدا حديثي الولادة يسافرون مجاناً، فبحثت أمي عن مساعدة اكبر:

–مع من يجب أن أتحدث لإنهاء هذه المشكلة.

لـــم يكـــد الموظف يجيبها، حتى خرج المدير، كان كبير السن وله كرش كحـــامل، فوقف الموظف بمجرد رؤيته، كان ضخماً وغارقاً في عرقه، استمع لأمـــي باهتمام ثم أجابها بصوت هادئ بأن قراراً مثل هذا يكون ممكناً بتعديل التعليمات وهو ما يتطلب اجتماع الجمعية العمومية للمساهمين بالشركة:

– صدقيني أنا آسف جداً.

شعرت أمي بسلطتها وزادت من تأكيد أسبابها. قالت:

– عـــندك كـــل الحق يا سيدي، ولكن المشكلة أن موظفك لم يشرح لإبني جـــيداً، أو أن ابنـــي فهمه خطأ، وأنا تعاملت مع هذا الخطأ، وشحنت كل شئ وجهزته للسفر، وننام على الأرض ونقود الطعام لا تكفينا حتى اليوم، والاثنين يجب أن أسلم البيت لمؤجريه الجدد.

انتبهـــت إلـــى أن موظفـــي المكتب كانوا يستمعون إليها باهتمام، حينها توجهت إليهم:

– ما أهمية كل هذا بالنسبة لشركة مهمة؟.

ودون أن تنتظر إجابة، سألت المدير، ناظرة في عينيه مباشرة.

– هل تعتقد في وجود الله؟

أبدى المدير انبهاراً، ظل المكتب كله منتبهاً لفترة الصمت الطويلة، حينها

جلســت أمي على الأريكة وضمت ركبتيها وبدأت في الارتعاش، ضمت يديها على حقيبتها، وقالت بتأكيد كبير:

- لن أتحرك من هنا حتى تتوصلوا إلى حل.

وقــف المديــر مندهشاً، وتوقف الموظفون جميعاً عن العمل ونظروا إلى أمي، كانت هادئة، وأنفها حاداً، شاحبة وغارقة في العرق، كانت أنهت حزنها علــى أبــيها لكن فستان الحزن كان أكثر مناسبة لها في تلك اللحظة، لم يعد المدير إلى النظر إليها، بل نظر إلى موظفيه دون أن يعرف ما يجب أن يفعله، وأخيراً صرخ في الجميع:

- هذا يحدث لأول مرة.

لــم تــرمش عينا أمي "كانت دموعها في حلقها لكنها قررت أن تقاومها"، قالــت لي ذلك فيما بعد. ثم طلب المدير من الموظف أن يأخذ له التذاكر إلى مكتــبه، وبعــد خمس دقائق عاد غاضباً، ولكن بين يديه جميع التذاكر جاهزة للسفر.

وصــلنا في الأسبوع التالي إلى سوكري، كما لو كنا ولدنا فيها، قد يكون عدد سكانها حوالي ستة عشر ألف نسمة، مثلها مثل العديد من قرى البلاد في ذلــك الوقــت، كل الناس تعرف كل الناس، بأسمائهم وحياتهم السرية. لم تكن القــرية وحدهــا بــل المنطقة كلها كانت عبارة عن مياه راكدة تُغيِّر ألوانها بالــزهور المنتشرة على سطحها طبقا لكل فصل، وطبقا للمكان وطبقا لحالتنا النفســية، وبــريقها يذكــر ببريق الأحلام بالجنوب الشرقي الآسيوي. خلال السنوات الطويلة التي عاشتها الأسرة هناك لم يكن في القرية أي سيارة، كان مستحيلاً السير بالسيارة هناك، لأن الشوارع المستقيمة من تراب طيني صالحة لســير الحفاة، وكثير من البيوت كانت لديها أرصفة بحرية في مطابخها معدة لاستقبال وسائل النقل المحلية.

أول إحســـاس لي كان الشعور بالحرية المطلقة، كل ما كان ينقصنا نحن الأطفال أو الذي كنا نحلم به تم وضعه بين أيدينا، الواحد منا كان يأكل عندما يكـــون جائعاً أو ينام في أي ساعة، ولم يكن سهلاً أن يكون مسئولاً عن أحد، لأنه على الرغم من صرامة قوانين الكبار كان وقتهم مشغولاً إلى درجة أنه لم يكـــن لديهم الوقت ولا حتى للانشغال بأنفسهم. الأمان الوحيد بالنسبة للأطفال كان تعلم السباحة قبل المشي، فقد كانت القرية منقسمة إلى نصفين بترعة مياه غامقة كانت تستخدم كمورد ماء ومغسل في الوقت نفسه. عندما يكمل الأطفال عـــامهم الأول يلقون بهم من الشرفات إلى المياه أولاً ليتغلبوا على خوفهم من الماء، وبعدها يلقون بهم بلا أطواق نجاة ليتغلبوا على خوفهم من الموت. بعد ذلك بسنوات، تم إنقاذ شقيقي خايمي وشقيقتي ليخيا من أخطارهما الأولى، فقد فازا في مسابقة للسباحة بين الأطفال.

ما حَوّلَ سوكري بالنسبة إليّ قرية لا تُنسى كان الإحساس بالحرية المطلقة التـــي كـــنا نتحرك بها في شوارعها نحن الأطفال. في أسبوعين أو ثلاثة كنا نعـــرف من يعيشون في كل بيت، وندخلها كما لو كنا معروفين فيها منذ زمن بعـــيد، كانـــت العـــادات الاجتماعية ــ المبسطة ــ حياة متطورة داخل ثقافة نهـــرية: فالأغنياء ــ مربو ماشية وصناع السكر ــ يسكنون في وسط القرية، والفقـــراء يســـكنون حيث يمكنهم أن يعيشوا. هذه القرية كانت بالنسبة للإدارة الكنســـية أرضا صالحة للتبشير ومفتوحة لتكون إمبراطورية للبحيرات، وسط كل هذا العالم المتكامل كانت الكنيسة مقامة في الميدان الرئيسي، كانت نسخة طـــبقة الأصـــل من كاتدرائية كولونيا، نَسخها من الذاكرة قس إسباني يمارس المعمار، ممارسة السلطة كان مباشراً ومطلقاً، ففي كل ليلة وبعد الصلاة كانوا يطلقـــون مـــن أجـــراس الكنيسة النوعية الأخلاقية للفيلم المعروض بالسينما المجـــاورة، طبقاً لقواعد مكتب السينما الكاثوليكي. ويجلس القس المناوب كل

يوم أمام باب مكتبه ويراقب مدخل المسرح ليعاقب من يخالفون أوامره.

خيــبة أملي كانت في العمر الذي وصلت به إلى سكوري، كان ينقصني ثلاثة أشهر فقط لأعبر الخط الفاصل بإكمالي ثلاثة عشر عاماً، وفي البيت لم يكونــوا يقبلون حياتي كطفل ولا يريدون التعامل معي على أنني فتى ناضج. وفــي هــذا اللا مكان كنت الوحيد من إخوتي الذي لم يتعلم السباحة، لم أكن أعرف هل أجلس على مائدة الأطفال أم مع الكبار، والخادمات لم يعدن يُغَيِّرن ملابسهن أمامي ولا حتى في الظلام، لكن إحداهن نامت عدة مرات عارية في سريري دون أن تقلق نومي. لم أكن قد تمتعت كثيراً بالحياة الحرة حتى عدت مــرة أخرى إلى بارانكيا في يناير من العام التالي لأبدأ دراسة البكالوريا، لم يكن في سوكري مدرسة للحاصلين على درجات عالية.

بعــد حــوارات ونقاشات طويلة دون مشاركة تذكر مني، قرر أبوي أن أدرس فــي مدرســة سان خوسيه دي لاكومبانيا دي خيسوس في بارانكيا. لم أفهم كيف استطاعوا توفير مؤن كافية في أشهر قليلة، فالصيدلية والعيادة كانا لا يزالان في علم الغيب، قالت أمي شيئاً لا يمكن معارضته: "الله كبير دائماً". فقــد كانت مصاريف الانتقال تتضمن الشحن وإطعام الأسرة، لكنها لم تتضمن مصروفات مدرستي، وبما أنني لم أكن أملك سوى حذاءً قديماً وملابس ارتديها عــندما تكون الأخرى في الغسيل، اشترت أمي ملابس جديدة وصندوقاً بحجم تــابوت دون أن تنتبه إلى أن طولي سيزداد ربع متر في ستة أشهر، واتخذت أيضــا بقــراراً انفرادياً أنه عليّ أن أرتدي بنطلونات طويلة، بخلاف العادات الاجتماعية التي كان أبي يحترمها كثيراً، ولم يستطع أن يرتديها إلى أن تغيَّر صوته.

الحقــيقة أنــه في كل نقاش حول تعليم كل واحد من الأبناء كنت أحلم أن يــنفعل أبي ويقسم ألا يذهب أي منا إلى المدرسة، لم يكن مستحيلاً أن يحدث

هــذا، فقــد كان هو عصامياً علَّم نفسه بنفسه تحت ضغوط الفقر، وكان أبوه مــتعلقاً بالأخلاقــية الحديديــة للسيد فرناندو السابع، الذي كان يطالب بالتعليم الفردي في البيت للحفاظ على وحدة الأسرة، فأنا كنت أخاف المدرسة أكثر من خوفي من السجن، فقد كانت ترعبني فقط فكرة أن أعيش محكوماً بنظام دقات الجرس، ولكنها في الوقت نفسه كانت فرصتي الوحيدة لأستمتع بحياة الحرية فــي عمر الثالثة عشرة، والحفاظ على العلاقات طيبة مع الأسرة، ولكن بعيداً عــن نظامهــا، وحــبها للتمدد السكاني، وأيامها المشؤومة، وأن أقرأ بكل ما أستطيع.

ســبب رفضــي الوحيد لمدرسة سان خوسيه، إحدى أغلى وأكثر مدارس الكاريبــي صعوبة، هو نظامها العسكري الصارم، إلا أن أمي أسكتتني بحزم: "هناك يُعدون حكاماً"، وعندما لم يعد هناك احتمال للتراجع رفع أبي يده:

-عليكم أن تعرفوا أنني لم أقل لا ولا نعم.

كــان هو يفضل المدرسة الأمريكية لأتعلم الإنجليزية، لكن أمي رفضتها لأنها كما تقول عش للوثيريين، وعليّ أن اعترف اليوم بان أبي كان محقا لأن أحد أخطائي ككاتب أنني لم أتعلم الحديث باللغة الإنجليزية.

العــودة إلــى رؤيــة بارانكيا من على سطح السفينة "كابتن كارو"، التي ســافرت عليها قبل ثلاثة أشهر، هز قلبي كما لو كنت أشعر أنني سأعود إلى الحــياة الحقيقــية. لحسن الحظ، أن أبوي رتبا عملية الإقامة والطعام مع ابن عمي خوسيه ماريا بالديبلانكيث وزوجته، شريفان وظريفان وشابان، شاركاني معهمــا حياتهما الهادئة في صالون صغير وغرفة نوم وفناء صغير في الظل دائماً؛ بسبب الملابس المنشورة على الحبال لتجف، كانا ينامان في الغرفة مع صغيرتهما ذات الستة أشهر، وأنا أنام على الأريكة بالصالة، التي تتحول ليلاً إلى سرير.

كانت مدرسة سان خوسيه على بعد ستة شوارع من البيت، في حديقة من شـــجر اللـــوز أُقيمت مكان مقابر المدينة القديمة والتي لا تزال تظهر بعض عظامهـــا وخـــرق كفـــن الموتى على الأرض، في اليوم الذي دخلت فيه فناء المدرســـة كانوا يقيمون احتفال الصف الأول، بملابس الأحد البيضاء وقميص أزرق، ولم أستطع السيطرة على رعبي من أن يعرفوا ما أجهله، لكني انتبهت إلى أنهم كانوا حديثي العهد وخائفين مثلي، في مواجهة المستقبل المجهول.

شبحي المرعب كان الأخ بدرو رييس، مسئول القسم الابتدائي، الذي بذل جهـــداً ليقـــنع الإدارة بأني لم أكن مؤهلاً لدراسة البكالوريا. فتحوّل إلى شبح أتعثر فيه في أي مكان، وكان يمتحنني فجأة بأسئلة شيطانية، فكان يسألني دون أن يترك لي وقتاً للإجابة: " هل تعتقد أن الله يصنع صخرة ثقيلة جداً لا يمكن رفعها؟"، أو ذاك الشرك الملعون: "لو أننا وضعنا على خط الاستواء حزاماً من الذهب بعرض خمسين سنتيمترا، ترى ما حجم زيادة وزن الأرض؟"، لم أكن أفهم أي من تلك الأسئلة، حتى لو كنت أعرف الإجابة عليها، لأن لساني كان يحترق منذ يوم حديثي الأول بالتليفون، وكان رعبي له أسبابه لأن رييس كان علـــى حق، فأنا لم أكن مؤهلاً للبكالوريا، لكني لم أستطع أن أرفض قبولي بلا امـــتحان، كنـــت أرتعش فقط بمجرد رؤيته، بعض الزملاء كان يفسرون هذا الحصار بتفاسير سيئة لكني لم أجد أسباباً لهذا التفسير. إضافة إلى أنني نجحت فـــي أول امـــتحان شفهي بشكل ممتاز، عندما قرأت من الذاكرة أشعار فراي لويس دي ليون، ورسمت على الصبورة صورة للمسيح بالطباشير الملون حتى أنه بدا كما لو كان من لحم ودم. عقدت الدهشة السنة أعضاء اللجنة إلى درجة أنهم نسوا سؤالي في الحساب والتاريخ.

تـــم حـــل مشـــكلة الأخ رييس في الأسبوع المقدس، لأنني رسمت بعض الصور لدروس الأشجار التي كان يقوم بتدريسها، فلم يتوقف عن محاصرتي

فقـط بل كان يقضي أوقات الراحة الدراسية ليعلمني الإجابة على تلك الأسئلة التـي لم أستطع إجابته عليها. أو الإجابة على أسئلة أخرى أكثر غرابة تظهر فـي الامـتحانات كمـا لو كانت عفوية، إلا أنه في كل مرة كان يراني بين مجموعـة مـن التلاميذ كان يسخر مني بقوله أنني الوحيد من الصف الثالث الابتدائي الذي أصلح للحصول على البكالوريا. انتبهت اليوم إلى أنه كان على حـق، خاصـة بسبب دروس الإملاء، التي كانت مشكلتي المعقدة طوال فترة الدراسة ولا تزال ترعب مصححي كتبي، فيصححونها باعتقاد أنها ناتجة عن سوء الكتابة على الآلة الطابعة.

تعييـن الفـنان والكاتـب هيكـتور روخاس هيريثو مدرساً للرسم كانت استراحة نفسية كبيرة في حياتي المليئة بالمتاعب، كان في حوالي العشرين من عمـره، دخل الفصل برفقة القس المشرف، ورَنَّتْ تحيته في حر الثالثة مساء، كان أنيقاً من ذلك النوع من الأناقة السهلة لممثلي السينما، كان يرتدي جاكيت مـن وبـر الجمـل منضبط جداً، بأزرار ذهبية، وصدرية ملونة ورباط عنق حريري مطبوع، ولكن الغريب فيه كانت القبعة الطويلة، في درجة حرارة لا تقـل عـن الثلاثين في الظل، كان طويلاً جداً، لذلك كان عليه الانحناء ليرسم علـى الصبورة، إلى جانبه، كان القس المشرف يبدو كشخص غادرته عناية الله.

من البداية تبين أنه لم يكن لديه منهج ولا صبر على التعليم، لكن سخريته المريـبة كانت تجعلنا منتبهين دائماً، وكانت تدهشنا الرسوم التي يرسمها على الصـبورة بالطباشير الملون، لم يستمر أكثر من ثلاثة أشهر في التدريس، ولم نعـرف أبداً سبب ذلك، ولكن كان واضحاً أن تربيته لم تكن تتوافق مع النظام العقلي للجيزويت.

اكتسبت شهرتي كشاعر منذ أن انتظمت في الدراسة، أولاً لسهولة حفظي

للشعر وقراءة القصائد الكلاسيكية وقصائد الرومانتيكيين الإسبان بصوت رخيم، وبعد ذلك بقصائدي الساخرة المقفاة عن تلاميذ الفصل التي أنشرها في مجلة المدرسة، لو أنني اهتممت بها لكانت استحقت طبعها في المطابع، في الحقيقة لم تكن سوى سخرية لطيفة يتناقلها زملاء الفصل في قصاصات ورقية، عثر القس لويس بوسادا مشرف القسم الثاني على واحدة من تلك القصاصات، قرأها وعنفني أول مرة، ثم وضعها في جيبه. وطلبني القس أرتورو ميخا في مكتبه ليبلغني أن السخرية المضبوطة سيتم نشرها في مجلة "الشباب" الناطق الرسمي باسم تلاميذ المدرسة. لأول وهلة أصابني خليط من الدهشة والخجل والسرور، أنهيت اللقاء بالرفض لأسباب غير مقنعة، بقولي:

– إنها أشيائي العبيطة.

سمع القس ميخيا الرد ونشرها في العدد التالي من المجلة وبموافقة الضحايا تحت عنوان "أشيائي العبيطة" وبتوقيع "جابيتو"، في العددين التاليين نشر ست قصائد أخرى بطلب من زملاء الفصل، لذلك فإن هذه الأشعار الطفولية، تصدقون ذلك أم لا، كانت باكورة أعمالي.

هواية قراءة ما يقع بين يدي كانت تشغل أوقات فراغي ووقت الدراسة كله تقريباً، كنت ألقي العديد من القصائد الشعبية المتداولة وقتها في كل كولومبيا، وقصائد من أجمل ما كتب في العصر الذهبي والرومانتيكية الإسبانية، الكثير منها حفظتها من الكتب المدرسية نفسها، هذه المعارف التي تنتمي إلى فترات أخرى كانت مخصصة للمدرسين. عندما أواجه سؤالاً صعباً كنت أرد عليه بجملة أدبية أو فكرة من كتاب لا يعرفون تقييمها، قال القس ميخيا: "إنه طفل فصيح"، حتى لا يقول إنه لا يُحتمل. لم أعتصر ذاكرتي أبداً، فالقصائد ومقاطع كثيرة من النثر كانت تنطبع في ذاكرتي عند القراءة الثالثة أو الرابعة لها، وأول جائزة حصلت عليها كانت من القس المشرف لأنني

قـــرأت بـــلا أدنى خطأ الست وخمسين بيتاً من "الدوار" لجاسبار نونييث دي آرثي.

كنـــت اقـــرأ في الفصل، والكتاب مفتوح على ركبتي، بطريقة تجعل من المعتقد أن الحماية التي كنت أتمتع بها ترجع إلى تساهل المعلمين معي، الشيء الوحـــيد الذي فشلت فيه أن أحصل على إذن بعدم حضور الصلاة اليومية في الســـابعة صـــباحاً، وإضـــافة إلى كتابة أشيائي العبيطة كنت أغنى منفرداً في الكـــورال، وأرســـم كاريكاتيرا ساخراً، وأقرأ القصائد الجادة، وأشياء أخرى خـــارج أوقـــات الدراسة والمدرسة، إلى درجة أن أحداً لم يفهم متى استذكر دروسي، والسبب بسيط للغاية: لم أكن أستذكر.

ما بين كل هذه الحركة الزائدة عن الحد، لم أفهم لماذا اهتم المدرسون بي دون أدنى اهتمام بأخطائي الإملائية، بعكس أمي التي كانت تخبئ رسائلي عن أبي وتعيد لي أخرى بعد تصحيحها، وأحياناً تحدثني عن بعض التقدم النحوي والاســـتخدام الصـــحيح للكلمات، لكن بعد مرور عامين لم يكن هناك أمل في إحراز بعض التقدم، وإلى اليوم لا تزال مشكلتي: أنني لم أفهم أبداً لماذا توجد في اللغة أحرف لا تنطق، أو وجود حرفين مختلفين لهما النطق نفسه، إضافة إلى قواعد أخرى تُعتبر مضيعة للوقت.

بهذه الطريقة اكتشفت هواية رافقتني طول حياتي، وهي حبي للحوار مع مـــن هم أكبر مني سناً، وحتى اليوم عندما أتحاور مع من هم في سن أحفادي أبـــذل جهـــداً حتى لا أبدو أصغر سناً منهم، وهذا ما فعلته مع زميلين لي كانا أكبر سناً مني، ورافقاني بعد ذلك في مختلف مراحل حياتي، أحدهما خوان ب. فرنانديث، ابن أحد مؤسسي صحيفة "الهيرالدو" الثلاثة في بارانكيا، حيث بدأت أولـــى خطواتـــي في عالم الصحافة، وحيث بدأ هو كتابة أول كلماته وإلى أن وصـــل إلـــى منصب المدير العام، والآخر كان إنريكي سكوبيل، ابن مصور

فوتوغرافي كوبي شهير في المدينة، واصبح هو مصوراً صحفياً، إلا أن علاقتي الحميمة معه لم تكن بسبب قيامنا معاً بعمل تحقيقات مشتركة ولكن بسبب الجلود المتوحشة التي كان يُصَدِّرها إلى نصف العالم، وفي أولى رحلاتي إلى الخارج أهداني جلد تمساح بطول ثلاثة أمتار، وقال لي بهدوء:

-هذا الجلد ثمنه باهظ، لكني أنصحك بعدم بيعه، إلا إذا أوشكت على الموت جوعاً.

ولازلت أتساءل إلى أي حد كان كيكي سكوبيل قدم لي عكازاً أبدياً، لأنني في الحقيقة كنت في حاجة إلى بيعه عدة مرات على مدى عمري، ومع ذلك لا زلت أحافظ عليه متربا ومتحجراً تقريباً، لأنني منذ حملته معي في حقيبة سفري لم أعد في حاجة إلى سنتيم واحد.

معلمو الجزويت، القساة في فصولهم، كانوا مختلفين في أوقات الراحة، كانوا يعلموننا في تلك الراحات ما لا يستطيعون في الفصول، ويتخففون من حمل ما يريدون تعليمه حقيقة، وما يمكن أن أتذكره في تلك الفترة المبكرة، أعتقد أن ذلك الاختلاف كان يمكن الإحساس به كثيراً، فالقس لويس بوسادا، كان شاباً بعقلية تقدمية، عمل لسنوات طويلة مع النقابات، كان يمتلك أرشيفاً من البطاقات بكل أنواع التصنيفات الموسوعية الملخصة، وبشكل خاص عن الكُتَّاب والمؤلفين، أما القس إجناثيو سالديبار فقد كان باسكياً جبلياً ظللت على علاقة به في كارتاخينا وإلي شيخوخته في دير سان بدرو كليفار، والقس إدواردو نونييث كانت لديه رواية على وشك الاكتمال عن تاريخ الأدب الكولومبي، والتي لا أعرف مصيرها، والعجوز القس مانويل هيدالجو أستاذ الغناء، كان متقدماً في السن، فقد كان يكتب الموسيقى بطريقته الخاصة، وكثيراً ما كان يسمح بغناء موسيقى بدائية لم تكن في الحسبان.

حدثت بيني وبين القس بييشاكون، المدير، حوارات متقطعة، ومن تلك

الحـــوار استشـــفيت انـــه كـــان يـــرى فيّ شخصاً ناضجاً، ليس فقط بسبب الموضـــوعات التـــي كنت أناقشها بل بسبب شروحي الجريئة، كنت دائماً في حياتي قاطعاً في رؤيتي بالنسبة للجنة والجحيم، والتي لم أتمكن من ربطها مع قوانين الكنيسة بسبب عقبات خاصة بالجغرافيا. في مقابل تلك الأفكار الجامدة، فـــإن المعلمين خَفَّفوا عني فترة الدراسة بأفكارهم التقدمية، فالجنة، كانت دون حاجـــة إلى شروح فقهية، ليست أكثر من وجود الله، والجحيم، بالطبع العكس مـــن ذلـــك، وان اعـــترف لي مرتين بأن لديه مشكلة وهي "أنه على أي حال ســـتكون هناك نار"، لكنه لم يتمكن من فهمها، خاصة في دروس الراحة أكثر من الدروس الرسمية، أنهيت العام الدراسي بصدر مدرع بالميداليات.

أولـــى إجازاتـــي في سوكري بدأت يوم أحد في الرابعة بعد الظهر، على رصيف مُزَيَّن بالهدايا والبالونات الملونة، وميدان تحوّل إلى سوق عيد، ما أن وطئـــت قدمـــاي الأرض اليابسة حتى تعلقت برقبتي فتاة جميلة جداً، شقراء، وخنقتنـــي بقبلاتها، لقد كانت شقيقتي كارمن روسا، ابنة لأبي قبل زواجه من بمـــي، جاءت لقضاء بعض الوقت مع عائلتها المجهولة، وجاء بهذه المناسبة أيضاً ابن آخر لأبي، أبيلاردو، يعمل ترزيا وافتتح محلا بأحد جوانب الميدان وكان معلمي في حياة المراهقة.

بيتـــنا الجديد حديث الفراش كانت تخيم عليه مسحة الأعياد وشقيق جديد: خايمـــي، المولود في مايو تحت تأثير برج الجوزاء، وما يتلوه من زلازل، لم أعـــرف بمولده حتى وصولي، وكان يبدو أن أبوي اتفقا على تخفيف المواليد الســـنوية، لكن أمي شرحت لي أن ذلك كان بفضل القديسة ريتا والرخاء الذي عـــم علـــى البيت، كانت تبدو أكثر شباباً وسعادة، ومغنية اكثر من أي وقت مضى، وكان أبي يعيش في حالة من الرضاء، العيادة مليئة بالزبائن والصيدلية تغـــص بالبضائع، خاصة أيام الآحاد التي يأتي فيها مرضى الجبال القريبة، لا

أعـــرف إن كـــان هذا الازدهار بسبب شهرته كممرض جيد، برغم أن سكان الحقـــول لم يكونوا يرون الشفاء في كراته السكرية ولا في مياهه العجيبة، بل في فنونه السحرية.

كانـــت ســـوكري أفضل من صورتها في ذاكرتي، بحكم العادة كانت في أعـــياد الميلاد منقسمة إلى حيين كبيرين: ثوليا، إلى الجنوب، وكونجفيو، إلى الشـــمال، إضافة إلى حيين ثانويين، فكانت تقيم مسابقة للعربات كتحد فني بين الحيين التاريخيين. في ليلة عيد الميلاد، يتجمع الناس في الميدان الرئيسي، في وسط خليط كبير، ويقرر الجمهور أي من الحيين الفائز هذا العام.

أضـــافت كارمـــن روســـا بحضورها مزيداً من الإزدهار للأعياد، كانت متحضـــرة وحلـــوة الحديث، وسرعان ما أصبحت ملكة حلبات الرقص. أمي الغـــيورة دائماً على بناتها، لم تكن غيورة عليها، بل على العكس كانت تهنئها على خُطَّابها الكثيرين الذين أضفوا على البيت مناخاً غريباً، كانت هناك علاقة مشـــاركة بينهما، وهو لم يكن بين أمي وبين بناتها، أما أبيلاردو، من ناحيته، فقـــد توصـــل إلى حل لحياته بطريقة أخرى، في ورشة من مكان واحد مقسم بحاجز، الجزء الذي يعمل فيه ترزياً كان الأفضل، لكنه لم يكن في مثل شهرته كفحل، فقد كان يقضي الوقت وحيداً بماكينة الخياطة.

عَنَّتْ لأبي في تلك الإجازة فكرة أن يُعدني للعمل في التجارة، "احتياطاً"، حسب قوله، أول ما دربني عليه كان تحصيل ديون الصيدلية من البيوت، في يوم ما أرسلني لتحصيل عدة منها في "لا أورا"، كان عبارة عن "بيت دعارة" يقع خارج القرية.

نظـــرتُ عـــبر الباب الموارب لغرفة مطلة على الشارع، فشاهدت إحدى نساء البيت تنام القيلولة على سرير هوائي، كانت حافية وترتدي ملابس داخلية لا تكـــاد تغطي فخذيها، قبل أن أبادرها بالحديث جلستُ على السرير، نظرت

إلـــيّ بعينيـــن ناعستين وسألتني عن ما أريد، قلت لها لدي طلبا من أبي للسيد اليخـــيو موليـــنا، صاحب البيت، ولكن بدلاً من أن تدلني عليه طلبت مني أن أدخـــل وأن أضـــع الترباس في الباب، أشارت لي بإصبعها إشارة كانت تعني الباقي:

– تعال هنا.

وذهبـــت إلى هناك، وكلما اقتربت، كانت أنفاسها المجهدة تملأ الغرفة كما لـــو كانت نهراً متزايداً، إلى أن أمسكت ذراعي بيدها اليمنى ونزعت بنطلونها القصير باليسرى، فشعرت برعب جميل.

– إذن أنت ابن دكتور الكرات السكرية.

قالت لي بينما كانت تدغدغني بداخل البنطلون بإصبعين سريعي الحركة كمـــا لو كانا عشرة أصابع، نزعت بنطلوني دون أن تتوقف عن الإسرار في أذنـــي بكلمات رقيقة، خلعت قميصها من أعلى ونامت على ظهرها، ولم يتبق عليها سوى كلوتها المرسوم عليه أزهار ملونة، وقالت:

–هذا تنزعه أنت، هذا واجبك كرجل.

حاولـــت بحياء، لكني لم أستطع بسبب السرعة، وكان عليها أن تساعدني بمـــد ســـاقيها وحركة سباحة سريعة، ثم رفعتني إلى أعلى ووضعتني عليها، والباقي قامت به بطريقتها، إلى أن نمت عليها وحدي، غارقاً في عرق فخذيها القويين.

ســـكنت فـــي صمت، ووضعتني جانباً، ناظرة في عيني بقوة فيما ركَّزتُ نظري عليها على أمل البدء من جديد، ولوقت أطول، فجأة قالت إنها لن تأخذ ثمـــن خدمتها لأنني لم أكن مستعداً، بعدها رقدت على ظهرها وأمعنت النظر في وجهي. وقالت لي:

– ثم أنك شقيق لويس إنريكي، أليس كذلك؟ لك نفس صوته.

ببراءة سألتها كيف تعرفه، فضحكت:

–لا تكن عبيطاً، أعرفه لدرجة أنني احتفظ بقطعة من ملابسه الداخلية هنا غسلتها في آخر مرة.

اعتقدت أنها كانت تبالغ لعلمي عمر شقيقي، ولكنها عندما أظهرتها عرفت أنـــه كان صحيحاً، بعدها قفزتْ من السرير بسحر راقصة باليه، وبينما كانت تـــرتدي ملابسها قالت إنه في الباب التالي من البيت، على اليسار، هناك السيد إليخيو مولينا، وأخيراً سألتني:

– هذه المرة الأولى، أليس كذلك؟.

قفز قلبي، وكذبت عليها:

– ماذا تقولين، ربما تكون السابعة.

قالت بإشارة ساخرة:

– على أي حال، يجب أن تطلب من شقيقك أن يُعلِّمك بعض الدروس.

البداية في هذا العالم منحتني قوة وحيوية، كانت الإجازة من ديسمبر إلى فـــبراير، وســـألت نفسي كم من المرات يمكنني أن أحصل على بيزوين حتى أعـــود إلـــيها، شقيقي لويس إنريكي الذي كان خبيراً بالجسد، كان يموت من الضحك لأن من في عمرنا لا يجب أن يدفع مقابل شئ يسعد الطرفين في وقت واحد.

فـــي الـــروح العائلـــية لحـــي موخانا، فإن سادة الأرض كانوا يسعدون عـــذراوات ممـــتلكاتهم ببدئهن، وبعد عدة أيام من الاستخدام السيء يتركوهن لحظهـــن التعس، كان علينا أن نختار من نصطادهن في الميدان بعد الرقص، إلا أن تلـــك الإجـــازة ســـببت لي الخوف نفسه الذي سببه لي التليفون، فكنت

أراهــن يعــبرن أمامـــي كالسحاب في الماء، ولم يكن لدي لحظة واحدة من السعادة التي تركتها في جسدي تلك المغامرة غير المحسوبة، لا ولن أعتقد أنها كانت السبب في الحالة التي عدت بها إلى المدرسة، مبهوراً بالكامل بالمبالغة الجمــيلة للشاعر البوجوتي السيد خوسيه مانويل ماروكين، الذي كان يصيب المستمعين بالجنون من أول مقطع.

لــم يكن يُدخل الفوضى في تسلسل القصيدة بل تعلمت منه الكلام بسهولة ابــن البلد الأصيل الذي يعرف مكانه، حدث معي كثيراً: كنت أجيب على أي شئ، لكن إجاباتي كانت في معظمها تبدو غريبة أو مسلية، فتخرج المدرسين عــن طورهم، إلى درجة أن بعضهم شك في صحتي العقلية، عندما قدمت له في الامتحان إجابة صحيحة، لكنها عسيرة على الفهم لأول وهلة، لم أكن أقصد سوءاً من تلك السخرية السهلة التي تسلي الجميع.

لفــت انتباهي أن الرهبان كانوا يتعاملون معي وكأني غائب عن وعيي، فكنت أجاريهم في حديثهم، السبب الآخر المثير للإزعاج أنني اختلقت أزجالاً مقدسة لتغنيها المجموعات الكنسية بكلمات ملحدة ولحسن الحظ لم يفهمها أحد، وبعــد موافقـــة أبوي أخذوني إلى مختص أخضعني لاختبار عسير لكنه كان مســلياً، لأنه بالإضافة إلى سرعة البديهة كانت له جاذبية شخصية ومنهجاً لا يقــاوم، طلــب مني أن أقرأ ورقة مكونة من جمل معكوسة وعليّ أن أقرأها بالشــكل الصـــحيح، وفعلت ذلك باهتمام كبير، إلى درجة أن الطبيب لم يقاوم الرغبة في مشاركتي هذه اللعبة، وحدثت لنا معا تجارب عبقرية إلى درجة أنه ســجلها ليضيفها إلى اختباراته المستقبلية، وبعد فحص دقيق لعاداتي سألني كم عــدد المرات التي مارست فيها العادة السرية، أجبته بأول إجابة تخطر على بالي وهي إجابة ما كنت أبوح بها لأحد، لم يصدقني، لكنه شرح لي أن الخوف يعتبر عنصراً سلبياً بالنسبة للصحة الجنسية، ورأيت أن عدم تصديقه نوعاً من

الدفع في هذا الاتجاه، أعتقد أنه كان رجلاً ممتازاً، وتمنيت أن التقي به بعد أن كبرت وبدأت العمل كصحفي في الهيرالدو، ليخبرني بالنتائج التي توصل إليها مـــن اختباراتي، وكل ما عرفته عنه أنه رحل منذ سنوات ليعيش في الولايات المتحدة، واحد زملائه القدامى كان صريحاً معي وقال لي إنه يحترمه جدا وانه ليس غريبا أن يكون في مستشفى للأمراض العقلية بشيكاجو، لأنه اعتقد دائماً أنه كان أسوأ من مرضاه.

كـــان التشخيص إرهاق عصبي زائد ناتج عن القراءة بعد تناول الطعام. ونصـــح بالـــراحة التامة لمدة ساعتين بعد الأكل ونشاط رياضي أكثر قوة من المعـــتاد، ولا زلت مندهشاً للجدية التي أخذ بها أبوي ومعلمي أوامر الطبيب، فقـــد جدولوا لي قراءاتي، وصادروا مني الكتاب أكثر من مرة عندما وجدوني أقرأ في الفصل والكتاب تحت الطاولة، أبعدوني عن المواد الصعبة وأجبروني على ممارسة رياضية بدنية لعدة ساعات يومياً، بينما كان الآخرون في الفصل كنت أنا في ملعب كرة السلة ألقي بالكرة في رميات عبيطة وأقرأ من الذاكرة، فانقسم زملائي في الفصل: البعض صدقوا أنني مجنون فعلاً، والبعض الآخر اعتقدوا إنني أدعي الجنون لأستمتع بالحياة، وهناك من اعتقدوا أن المجانين هم المعلمون أنفسهم. ومن هنا جاءت إشاعة أنني طُردت من المدرسة لأنني ألقيت بدواة الحبر على مدرس الرياضيات عندما كان يكتب التمارين على السبورة، لحسن الحظ أن أبي فهم الأمر بشكل مختلف وقرر عودتي إلى البيت دون أن أكمل العام الدراسي، أو تضييع الوقت والمال بسبب حالة يمكن أن تكون ناتجة عن التهاب كبدي.

أمـــا شـــقيقي أبيلاردو على العكس فقد كان يرى أنه لا توجد مشكلة في الحياة لا يمكن حلها في السرير، وبينما كانت شقيقاتي يعالجنني بإبداء الشفقة، كان هو يعلمني الوصفة السرية منذ أن رآني أدخل الورشة:

– ما ينقصك هي ساق جميلة.

وأخـــذ الأمر على محمل الجد، فقد كان يذهب كل يوم لمدة نصف ساعة إلى صالة البليارد على الناصية، ويتركني خلف ساتر ورشته برفقة صديقات مـــن كـــل الألوان، ولم أكرر مع واحدة أكثر من مرة، كانت فترة من فترات عـــبقرية تحطيم التقاليد، التي تؤكد نظرية أبيلاردو الطبية، فقد عدت في العام التالي إلى المدرسة بكامل قواي العقلية.

لا أســـتطيع أن أنســـى أبـــداً السعادة التي استقبلوني بها في مدرسة سان خوســـيه، والإعجـــاب الذي قابلوا به كرات أبي المدهشة، لم أذهب هذه المرة للعـــيش مع ابن عمي، الذي لم يعد بيته يكفي بعد ميلاد ابنه الثاني، بل للعيش في بيت لييثير جارثيا، شقيق لجدتي من أمي، شهير بكرمه وشرفه. عمل في بـــنك إلـــى أن أُحيل إلى التقاعد، أكثر ما أثار إعجابي به شغفه الأبدي باللغة الإنجليزية، درسها طوال حياته منذ طلوع الفجر وفي الليل حتى وقت متأخر، وكان يمارس تمارينها مُغنياً بصوت جميل ولحن جيد، إلى الحد الذي سمح به الســـن، كـــان يذهب أيام الأعياد إلى الميناء يصطاد السائحين ليتحدث معهم، ووصـــل إلى حد تحدثها تماماً كما يتحدث اللغة الإسبانية، لكن خجله منعه من أن يتحدث بها مع أي شخص معروف له، فلا أبناؤه الثلاثة من الذكور، كلهم أكبر مني، ولا ابنته فالنتينا استمعوا إليه يتحدث بها أبداً.

عن طريق فالنتينا –التي كانت صديقتي وقارئة موهوبة ــ اكتشفت حركة "رمـــال وســـماء" التـــي كانـــت مكونة من مجموعة من الشعراء الشبان التي وضـــعت نصب عينيها تجديد الشعر على امتداد الشاطئ الكاريبي متخذين من بـــابلو نيرودا مثالاً لهم، في الحقيقة كانوا تقليداً جيداً لمجموعة "حجر وسماء" التـــي كانت تفرض سيطرتها في ذلك الوقت على مقاهي شعراء بوجوتا وفي الملاحق الأدبية التي كان يديرها ادواردو كارانثا، تحت تأثير الشاعر الإسباني

خوان رامون خيمينيث، بهدف صحي وهو القضاء على الأوراق الساقطة من القرن التاسع عشر. لم يكونوا يزيدون على نصف دستة من الشعراء لم يتعدوا المــراهقة إلا بقلــيل، لكنهم سيطروا بقوة على الملاحق الأدبية للشاطئ التي بدأوا بالظهور فيها كمواهب واعدة.

قــائد مجموعة "رمال وسماء" كان اسمه ثيسار أوجوستو ديل باليي، كان فـــي الثانـــية والعشـــرين تقريباً، الذي أخذ اندفاعه المجدد ليس على مستوى الموضوعات والمشاعر فحسب بل أيضاً في الكتابة الإملائية والقواعد اللغوية لقصائده، مما اعتبره شعراء الشعر الصافي كفراً، أما الأكاديميين فقد اعتبروه غــباء والكلاســيكيون رأوا فــيه تخبطاً، إلا أنه في الحقيقة بعيداً عن انتمائه المعدي ــ مثل نيرودا ــ فقد كان رومانتيكياً غير قابل للإصلاح.

أخذتني ابنة عمي فالنتينا في أحد أيام الأحد إلى بيت ثيسار الذي يعيش فيه مع أبويه، في حي سان روكي، الأكثر تسلية بالمدينة، كان قوي البنية، مكتملاً ونحــيفاً، وله أسنان أرنب كبيرة وشعره كثيف كشعراء زمنه، وبشكل خاص كــان مُســلياً وفقيراً، ينتمي بيته إلى الطبقة المتوسطة الفقيرة، كانت جدرانه موشـــاة بالكتب ولم يكن هناك مكان لكتاب جديد، كان أبوه رجلاً جاداً ويميل إلـــى الحــزن، له شكل موظف محال على التقاعد، ويبدو أنه كان متبرماً من موهــبة ابــنه العقيمة، استقبلتني أمه بشيء من الأسى كما لو كنتُ ابناً آخر مصاباً بالداء الذي جعلها تبكي كثيراً على ابنها.

كــان ذلك البيت بالنسبة لي كشفاً لعالم ربما كنت أتخيله وأنا في الرابعة عشـــرة من عمري، لكنني لم أتخيله على هذا النحو أبداً، منذ ذلك اليوم الأول تحولت إلى زائره الدائم، وأخذت من وقت الشاعر الكثير إلى درجة أنني إلى الــيوم لم أفهم كيف أمكنه تحملي، ووصلت إلى حد التفكير في أنه كان يُجّرب فـــيّ نظرياته الأدبية، ربما كانت حادة لكنها كانت مبهرة، مع مستمع مندهش

ومســالم مثلي، كان يُعيرني كتباً لشعراء لم أسمع بهم من قبل، وكنت أتناقش معه حولهم دون أدنى وعي بجرأته، خاصة مع نيرودا، الذي حفظت قصيدته "القصــيدة العشــرون" عن ظهر قلب لأغيظ بعض الجزويت الذين لم يعبروا مجــاهل الشــعر. في تلك الأيام أفعمت الحياة الأدبية بقصيدة لميرا ديلمار في كارتاخيــنا التــي انتشرت عبر جميع وسائل الإعلام بالشاطئ، وكان صوت ثيسار دي باليي محكماً عندما قرأها لدرجة أنني حفظتها بعد القراءة الثانية.

فــي مــرات أخرى كثيرة لم نستطع الحديث لأن ثيسار كان يكتب على طريقته الخاصة، سائراً على قدميه بين الغرف والممرات غارقاً في عالم آخر، وكل دقيقتين أو ثلاث كان يمر أمامي كما لو كان يسير نائماً، وفجأة يجلس إلى الآلــة الطابعــة، ويكتب شطراً، أو كلمة، وربما نقطة ويبدأ من أول السطر، ويعــود إلــى الســير من جديد، كنت أراقبه مشوشاً بالانفعال السماوي بأثر اكتشــافي الســر الوحيد لكتابة الشعر، هكذا كانت سنوات دراستي في مدرسة ســان خوســيه، التي منحتني الأساس لإطلاق مواهبي. آخر ما وصلني من أخــبار ذلــك الشاعر الذي لا يُنسى، بعد عامين في بوجوتا، كان تلغراف من فالنتينا به كلمتين وحيدتين لم تجد الشجاعة لتوقيعهما: "مات ثيسار".

أول إحســاس لــي فــي بارانكيا بعيداً عن أبوي هو الإحساس بالحرية الاختــيارية، كانــت لــي صداقات حافظت عليها خارج المدرسة، من بينها صــداقتي لألفــارو ديل ألتورو ـ كان صوتي الثاني خلال فترات الاستراحة الدراســية– وأيضــا مع عائلة آل ارتيتا، الذين كنت أهرب معهم للذهاب إلى المكتــبة أو السينما، فقد كان أقصى حد غير مسموح به في بيت العم إليثير، للحفاظ على شخصيته، ألا أصل البيت بعد الثامنة مساء.

في يوم من الأيام كنت انتظر عودة ثيسار دي باليي وأنا أقرأ في صالون بيته، جاءت تبحث عنه امرأة مدهشة، اسمها مارينا فونسيكا وكانت بيضاء في

جسد خلاسية، ذكية واستقلالية، من الممكن أن تكون عشيقة الشاعر، عشت لذة الحديـث معها لساعتين أو ثلاث، إلى أن عاد ثيسار وذهبا معاً دون أن يقولا إلـى أين، لم أعد أعرف عنها شيئاً حتى أربعاء الرماد في تلك السنة، عندما خرجـت من القداس الأكبر، ووجدتها تنتظرني على كرسي بالحديقة العامة، اعتقدت أنه مجرد خداع بصري، كانت ترتدي وشاحاً من التيل المطرز يضفي نقاءً على جمالها، وعقداً ملوناً ووردة نارية مشتعلة في فتحة صدرها، إلا أن أكـثر ما أذكره الآن الطريقة التي دعتني بها إلى بيتها دون أدنى علامة على الـتردد، ودون أدنـى احترام للصليب الرمادي المقدس الذي كان يحمله كلانا علـى جبهـته. زوجها، كان يعمل مرشداً على سفينة بنهر مجدالينا، كان في رحلـة عمل من أثنى عشر يوماً، غريب في أن تدعوني وزوجته بالمصادفة يـوم سـبت لتناول الشكولاته بالبسكويت؟ إلا أن هذا الطقس تكرر باقي العام بيـنما الـزوج علـى سفر مع السفينة، ودائماً ما بين الرابعة والسابعة، وقت الـبرنامج الشـبابي في سينما ريكس الذي كان ذريعتي في بيت عمي اليثيير لأكون معها.

كانت مهنتها إعداد مدرسي المدارس الابتدائية لامتحانات الترقية، أفضلهم كانـت تسـتقبلهم في ساعات الراحة لتناول الشكولاته بالبسكويت، ولذلك فإن الجيران لم يلفت نظرهم التلميذ الجديد في أيام السبت، كانت نعومة ذلك الحب السـري مدهشـة أيقظت الحب المجنون من مارس إلى نوفمبر، بعد السبتين الأولين اعتقدت أنني لا أستطيع أن احتمل الابتعاد عنها لساعة واحدة.

كـنا بعـيداً عن كل الأخطار، لأن زوجها كان يخبرها عند وصوله إلى المديـنة بإشارة لتعرف أنه في طريقه لدخول الميناء. وهذا ما كان من السبت الثالـث مـن حبـنا، بينما كنا في السرير سمعنا هديراً بعيداً. انتبهتْ وقالت: "اسكت"، وانتظرت هديرين أخريين، ولم تقفز من السرير كما كنت انتظر منها

بسبب خوفي، بل ظلت رابطة الجأش:

– لازال أمامنا أكثر من ثلاث ساعات أخرى.

كانت قد وصفته لي "أسود بطول مترين وشبر وله ترباس رماة القنابل"، كنــت علــى وشك الخروج على قواعد اللعبة تحت وطأة الغيرة، وليس بأي طريقة: كنت أريد قتله. لكن نضجها أنهى المشكلة، منذ ذلك الوقت أخذتني بين مشاكل الحياة الواقعية كذئب في جلد حَمَل.

كنــت ســيئاً في الدراسة ولم تكن لدي رغبة في الاستمرار، لكن مارتينا قــررت حــل مشكلتي الدراسية، فقد فوجئت بالطفولية في سيطرة حب الحياة علــى حــب الدراسة، قلت لها: "هذا طبيعي، لو كان هذا السرير هو المدرسة وأنــت المعلمة سأكون من الأوائل ليس في الفصل فقط بل في المدرسة كلها". أخذت الأمر كله على محمل الجد.

وقالت لي:

– هذا هو بالضبط ما سنفعله.

دون تضــحيات كبــيرة بــدأت مهمتها في إعدادي بساعات ثابتة. كانت تســاعدني على عمل الواجب المدرسي والاستعداد للدرس للأسبوع التالي، ما بيــن لحظات سريرية وتعنيف أمومي، إذا لم أتم واجباتي المدرسية بشكل جيد وفــي الزمــن المحــدد كانت تحرمني من يوم سبت مقابل كل ثلاثة أخطاء متكررة. لم أتعدى خطأين أبداً، وبدأت التغيرات تتضح عليّ في المدرسة.

إلا أن ما علمتني إياه عملياً كانت طريقة لا تخيب، للأسف لم أستفد منها إلا فــي آخر سنة من البكالوريا: لو أنني انتبهت إلى المعلم في الفصل وأقوم بعمــل الواجبات المدرسية بنفسي بدلاً من نسخها من الزملاء من الممكن أن أحصــل على درجات جيدة فأقرأ كما أريد في ساعات الفراغ، وأعيش حياتي

دون سهر منهك أو مخاوف لا طائل من ورائها، بفضل هذه الوصفة السحرية كنـت الأول علـى دفعتي تلك السنة ــ ١٩٤٢ ــ مع ميدالية الامتياز وكل أنواع مرتبات الشرف، إلا أن الفضل ذهب إلى الأطباء لأنهم استطاعوا شفائي من الجنون، وفي الحفل النهائي انتبهت إلى مدى الغباء العاطفي الذي قدَّمت به شـكري خلال السنوات الماضية والاستحواذ على إنجازات لم تكن لي. وفي السنة الأخيرة، عندما رأيت أنني أستحق شرف هذه الإنجازات كان واجباً أن أقـدم لهـا الشكر، لكني قرأت من كل قلبي قصيدة "السيرك" لجييرمو فالنسيا، ألقيـتها كاملة إلى أن توقفت عند نهايتها، لقد كنت أكثر رعباً من مسيحي في ساحة مصارعة الأسود.

قررت في إجازة ذلك العام الطيب أن أزور الجدة ترانكيلينا في آراكاتاكا، إلا أنهـا ذهبت على عجل إلى بارانكيا ليجروا لها عملية جراحية في عينيها، فرحتـي برؤيتها اكتملت بقاموس الجد الذي قدمته لي هدية، لم تنتبه أبداً إلى أنهـا كانـت تفقـد بصرها، أو تعترفت بذلك، إلى أن أصبحت مقعدة حبيسة غرفتها.

كانـت العملـية في مستشفى الرحمة سريعة وتبشر بنتائج طيبة، وعندما رفعـوا الأربطة وهي جالسة في السرير فتحت عينيها مشرقة بشبابها الجديد، أضاء وجهها ولخصت فرحتها بكلمة واحدة:

– إنني أرى.

أراد الجـراح أن يعـرف إلى أي درجة ترى، فمسحت الغرفة بنظرتها الجديدة ووصفت كل شئ بدقة عجيبة، حبس الطبيب أنفاسه، لأن الأشياء التي وصـفتها لـم تكن تلك التي توجد أمامها في غرفتها بالمستشفى، بل توجد في غـرفة بيتها بآراكاتاكا، تتذكر نظامها من ذاكرتها، ولم تستعد نظرها بعدها أبداً.

أصــــر أبوي على أن أمضي الإجازة معهم في سوكري، وأن آخذ الجدة معـــي، التـــي كانت أكثر شباباً عن ما يشير إليه عمرها، وذاكرتها تسير على طـــريق الاضمحلال، فقد ازداد جمال صوتها وكانت تغني أكثر وبالهام أكثر من أي وقت مضى. حرصت أمي على أن تكون نظيفة ومهندمة دائماً، كانت كعروس ضخمة، كان واضحاً أنها تعلم ما يجري في الدنيا من حولها، ولكنها كانـــت تشـــير إلـــى الماضـــي، خاصة برامج الإذاعة، تتعرف على أصوات المذيعين المختلفين، وتتعرف عليهم كأصدقاء شبابها في ريواتشا، لأنه لم يكن لديها راديو في آراكاتاكا أبداً، كانت تعارض أو تنتقد بعض ما يقوله المذيعون، وكانت تناقش معهم موضوعات متعددة جداً، أو تكتشف أخطاءهم النحوية كما لـــو كـــانوا إلى جوار سريرها بلحمهم ودمهم، وكانت ترفض أن يُغَيِّروا لها ملابسها قبل أن تودعهم، حينها تقول بصوتها المهذب:

– ليلة طيبة يا سيد.

الكثـــير مـــن أســـرار الأشياء الضائعة والأسرار الخفية أو الموضوعات المحـــرمة، أوضـــحتها الجـــدة خلال حديثها مع نفسها: من حمل طلمبة المياه الضائعة من بيت آراكاتاكا بعد أن أخفاها في صندوق، ومن هو الأب الحقيقي لماتيلدي سالمونا الذي أخطأه أشقاؤها بآخر وقتلوه برصاصة واحدة.

ولـــم تكن إجازتي الأولى في سوكري سهلة مع مارتينا فونسيكا، ولكن لم تكن هناك إمكانية واحدة لتذهب معي، مجرد فكرة أن أظل دون أن أراها لمدة شـــهرين كانـــت فكـــرة غـــير متخيلة، ولكن الأمر بالنسبة لها لم يكن كذلك، بـــالعكس، عندما حدثتها عن الموضوع، فهمت على الفور أنها كانت تسبقني بثلاث خطوات، وقالت لي بلا أدنى مواربة:

– كنت أريد أن أحدثك عن هذا، من الأفضل أن تذهب للدراسة في مكان آخـــر فـــي هذا الوقت الذي نعيش فيه حباً جنونياً، وبذلك تفهم أن ما بيننا لن

يكون أكثر مما كان.

أخذت الأمر على محمل الهزل:

– سأذهب الآن وأعود بعد ثلاثة أشهر لأبقى معك.

ردت عليّ بموسيقى تانجو:

–خاخا، خاخا، خاخا، خاخا.

فهمت عندها أن مارتينا من السهل أن تقتنع عندما تقولا لا، ولكن من الصعب عندما تقول نعم، وهكذا أمسكت بالقفاز الغارق في الدموع وقررت أن أكون في الحياة شخصاً آخر غير الذي فكرت فيه هي: إلى مدينة أخرى ومدرسة أخرى، وأصدقاء آخرين وشخصية أخرى، لم أفكر في الأمر كثيراً، بفضل ميدالياتي الكثيرة كان أول ما قلته لأبي بكل جدية إنني لا أريد العودة إلى مدرسة سان خوسيه، ولا أي مدرسة في بارانكيا، فقال هو:

– بحق الله، سألت نفسي دائماً من أين جاءتك الرومانتيكية لتدرس مع الجزويت.

لم تعلق أمي على كلماته، وقالت:

– إذا لم يكن هناك فليكن في بوجوتا.

فرد أبي على الفور:

– إذن لن يكون في أي مكان، لأننا لا نملك النقود الكافية.

كان الأمر غريباً، لأن فكرة عدم مواصلة الدراسة التي كانت حلم حياتي، بدت لي فكرة لا تصدق، إلى درجة أنني لجأت إلى حلم كنت أعتقد أنه بعيد الاحتمال، فقلت:

– هناك منح.

قال أبي:

- كثيرة جداً، لكنها للأثرياء.

جزئياً كان هذا صحيحاً، لكن ليس بسبب الوساطة، بل لأن خطوات التقدم لهـا كانت صعبة ولرداءة نشر قواعد التقدم لها، بسبب مركزية الإدارة، فكل مـن يرغـب في منحة عليه أن يذهب إلى بوجوتا، ألف كيلومتر يقطعها في رحلة من ثمانية أيام، وتكلف ما يسمح للتلميذ البقاء في مدرسة داخلية ممتازة لثلاثة أشهر كاملة، ورغم هذا من الممكن أن تنتهي إلى لا شئ، عَبَّر أبي عن هذا:

- عـندما نفتح ماكينة النقود نعرف من أين نبدأ ولكننا لن نعرف إلى أين ننتهي.

إضافة إلى هذا، كانت هناك واجبات متأخرة، فلويس إنريكي الأصغر مني بعـام واحـد، كان مسجلاً في مدرستين محليتين وهجرهما بعد مضي أشهر قلـيلة، ومارجريـتا وعـايدة كُـنَّ يدرسن بشكل جيد في المدرسة الابتدائية للراهـبات، وبـدأن التفكـير فـي مديـنة قريبة أقل كلفة لدراسة البكالوريا، وجوسـتافو وليخيا وريتا وخايمي لم تكن احتياجاتهم عاجلة بعد، لكنهم كانوا ينمون بشكل مزعج، تماماً مثلهم مثل الثلاثة الآخرين الذين ولدوا بعدهم كانوا يتعاملون معي على أنني دائماً ما آتي لأذهب.

كانـت سنة حاسمة بالنسبة لي، خلال الاحتفالات كانت جاذبية كل عربة فـي وجود الفتيات الجميلات المختارات بجاذبيتهن وجمالهن وملابس الملكات اللاتـي كـن يرتديـنها، وكن يقرأن أشعاراً عن الحرب الرمزية بين نصفي القـرية، أنـا، الذي كنت لا أزال تحت وطأة الإحباط، كنت أتمتع بالحيادية، وكنـت أُبيِّـن هذا في أعمالي، إلا أنني في تلك السنة قبلت توسلات قادة حي كونجوفيو لأكتب لهم الأشعار التي ستقرأها شقيقتي كارمن روسا، التي ستكون

ملكة عربة ضخمة، قبلت التكليف بحماس، لكني تجاوزت في مهاجمة الخصم لجهلـــي بقواعـــد اللعبة، ولم يكن أمامي من طريق لاتقاء الفضيحة سوى أن أكتـــب قصيدتي سلام: واحدة لمدح جميلة كوجوفيو والأخرى لمصالحة جميلة ثويليا، تم إعلان الخبر على الملأ، والشاعر المجهول الذي لا يكاد يعرفه أحد فـــي القرية أصبح بطل لجنة التحكيم، الحدث قدمني للمجتمع وجعلني صديقاً لكـــلا الجانبين، منذ ذلك الوقت لم يكن لدي الوقت للمساعدة في إقامة حفلات غداء للأطفال، وافتتاح أسواق خيرية، ورئاسة توزيع يانصيب خيري، وحتى كتابة خطاب مرشح لعضوية المجلس البلدي.

بـــدأ لويس إنريكي شهرته كعازف جيتار موهوب وعلّمني العزف معه، وكَوَّنَا ثلاثياً معه ومع فيلاديلفو فيليا حتى أصبحنا ملوك الاحتفالات. مع الفوز بالجائـــزة الكبرى كانت بعض مرتديات ملابس الرقص تفتحن بيوتهن لنا، كنا نوقـــظ الجيران وتستمر الحفلات حتى ساعة الإفطار. في تلك السنة ازدادت شهرة المجموعة بانضمام خوسيه بالنسيا الذي كان موسيقياً موهوباً قادراً على عـــزف أي آلـــة موســـيقية تقع بين يديه، كان له مظهر فنان سينمائي، وكان راقصـــاً محترفاً، وله ذكاء خارق وحظ يحسد عليه مع العديد من أنواع الحب الطائر.

علـــى العكس تماماً كنت أنا، لم أكن أجيد الرقص، ولم أفلح في تعلمه ولا حـــتى في بيت الأخوات لويسياو، ست شقيقات عاجزات بالمولد، إلا أنهن كن يدرســـن الرقص دون أن يركن كراسيهن. أبي الذي لم يكن حساساً أبداً تجاه الشـــهرة، اقـــترب مني برؤية جديدة، فكانت المرة الأولى التي ندخل فيها في حـــوار طويـــل، في الحقيقة، من رؤيتي له اليوم، لم أعش مع أبوي أكثر من ثلاث سنوات طوال حياتي، بما فيها الحياة في آراكاتاكا، وبارانكيا وكارتاخينا، وثينســـي وســـوكري، كان الحوار تجربة جميلة جعلتني أتعرف عليه أفضل،

قالت لي أمي: "إنه أمر طيب أن تكون صديقاً لأبيك"، بعدها بأيام وعندما كانت تعد القهوة في المطبخ قالت لي ما هو أكثر:

– أبوك فخور بك جداً.

في اليوم التالي أيقظتني على أطراف أصابعها وأسرّت في أذني: "لقد أعد لك أبوك مفاجأة"، هذا حقيقة، عندما هبطت لتناول الإفطار، نقل إليّ الخبر أمام الجميع بكل تفاصيله:

– جهز كل احتياجاتك ستذهب إلى بوجوتا.

أولاً شـــعرت بإحباط كبير، فقد كنت أريد وقتها أن أبقى غارقاً في الملهى الأبـــدي، ولكـــن انتصرت البراءة. وبالنسبة لملابس المناطق الباردة فلم تكن هـــناك مشـــكلة، كان أبي يمتلك بدلة سوداء من الفرو وأخرى من القطيفة، لم تكـــن أي مـــنهما تساوي مقاس وسطه، وهكذا ذهبنا مع بدرو ليون روساليس المدعـــو تـــرزي العجائب، وفصلهما على مقاسي، إضافة إلى هذا اشترت لي أمـــي معطفاً من جلد الجمل لعضو بمجلس الشيوخ كان قد مات، عندما كنت أقيســـه فـــي البيت، أسرّت لي أختي ليخيا -كانت عرافة بالطبيعة- بأن شبح عضو مجلس الشيوخ كان يتنزه ليلاً في البيت مرتدياً المعطف، لم أهتم بقولها، لكـــن ربمـــا كان كلامها صحيحاً، فعندما لبسته في بوجوتا نظرت إلى المرآة شاهدت وجه عضو مجلس الشيوخ الميت، فرهنته لدى بيت الرهونات بعشرة بيزوات وتركته يضيع.

الحياة المنزلية كانت قد تحسنت كثيراً إلى درجة أنني بكيت لحظة الوداع، لكـــن البرنامج تم تنفيذه حرفياً دون أدنى التفات للمشاعر، رحلت في الأسبوع الثانـــي مـــن يـــناير إلى ماجانجي في السفينة "دافيد أرانجو"، أشهر سفينة في الشـــركة البحرية الكولومبية، وبعد أن قضيت ليلة كرجل حر، كان رفيقي في الغرفة ملاك يزن مائتين وعشرين رطلا وأمرد الجسد، كان يحمل اسم الشهرة

"جــاك نازع الأحشاء" وكان آخر الأحياء من جماعة من نازعي الأحشاء في سـيرك مـن آسيا الصغرى، من أول نظرة فهمت أنه قادر على خنقي أثناء الـنوم، ولكـن في الأيام التالية عرفت أنه ليس سوى ما يكشف عنه مظهره: طفل ضخم بقلب أكبر من جسده.

أقاموا في الليلة الأولى حفلاً، بأوركسترا وعشاء بالملابس الرسمية، لكنني هربـت إلى سطح السفينة، تأملت لآخر مرة أضواء العالم الذي أستعد لنسيانه بلا ألم وبكيت على راحتي حتى الفجر، أتجرأ اليوم على الاعتراف أنه الشيء الوحـيد الذي أكون على استعداد للعودة من أجله طفلاً من جديد لأستمتع بهذه الـرحلة مجـدداً، قمت بهذه الرحلة ذهاباً وإياباً أربع مرات خلال الفترة التي تبقت لي لاستكمال دراسة البكالوريا ومرتين خلال الدراسة الجامعية، وفي كل مرة تعلمت من الحياة أكثر من ما تعلمت خلال الدراسة، وربما أفضل، خلال الفـترات التـي يكون جريان الماء في النهر كافياً، تحتاج الرحلة صعوداً من بارانكـيا لميـناء سالاجار إلى خمسة أيام، ومنها نقضي يوماً في القطار إلى بوجوتا، وخلال فترات التحاريق كانت الرحلات أكثر تسلية للإبحار إن لم تكن على عجلة من أمرك، لأنها يمكن أن تستمر لأكثر من ثلاثة أسابيع.

أسـماء السفن كانت سهلة ومباشرة: الاطلنطي، وميديين، وكابتن كارو، ودافيد أرانجو، وقباطنتها كقبطان كنوراد، كانوا متسلطين وذوي فطرة طيبة، يأكلون كالبدائيين ولا يعرفون النوم في قمراتهم الملكية، فالرحلات كانت بطيئة ومدهشـة، نحـن المسـافرين نجلس على الشرفات طوال اليوم نشاهد القرى المنسـية، والتماسـيح تـنام فاتحـة أفواهها في انتظار الفراشات الغافلة عن مصـيرها، وطيور البلشون تنطلق طائرة لرعبها من صوت السفينة، أما بط البحـيرات الداخلية فإنها تغني بينما تطعم صغارها، كنت أستيقظ فجراً طوال الرحلة بسبب الجيف التي كانت ملقاة في النهر، أو توقظني من القيلولة رائحة

بقرة غارقة، تسير بهدوء على حافة النهر والطيور جاثمة على بطنها.

مـــن الأشياء الغريبة الآن أن يتعرف أحد على شخص آخر في الطائرة، لكـــن على السفن النهرية ننتهي نحن التلاميذ إلى أن نكاد نكون عائلة واحدة، لأنـــنا نـــتفق كل عام على السفر على سفينة واحدة، أحياناً تغرس السفينة في كثبان رملية مدة خمسة عشر يوماً، لا أحد يهتم، فالاحتفالات تتواصل، ورسالة القبطان المختومة بشعار خاتمه تصلح كعذر للوصول إلى المدرسة متأخراً.

من أول يوم لفت انتباهي أكثر العائلة شباباً، يعزف الماندولين كما لو كان حالماً، ويتمشى طوال أيام كاملة على سطح الدرجة الأولى، لم أحتمل حسدي، فمـــنذ أن اســـتمعت أول عزف للأكورديون على يد فرانثيسكو الأومبري في العشرين من يوليو في آراكاتاكا حاول جدي أن يشتري لي واحداً، ولكن جدتي وقفـــت بينـــنا بآرائهـــا المعروفة عن أن هذه الآلة الموسيقية لا يعزفها سوى الموخيجانجا (البدائيين سكان البلاد الأصليين الذين كانت تقلل من شأنهم). بعد حوالـــي ثلاثيـــن عامـــاً أعتقد أنني تعرفت في باريس على عازف الماندولين الوسيم، على ظهر السفينة، في مؤتمر دولي عن طب الأعصاب، بعد أن فعل الزمن فعله: أطلق لحية بوهيمية وزادت الملابس من حجمها على جسده أكثر مـــن مقياسين، ولكن ذكرى عزفه الرائع لم يترك مكاناً للخطأ، إلا أن رد فعله كان جافياً عندما سألته دون أقدم نفسي:

– كيف حال الماندولين؟

أجابني مذعوراً:

–لا أعرف عما تحدثني يا سيدي.

شـــعرت وكأن الأرض ابتلعتني، وقدمت له اعتذاراتي المتواضعة لأنني أخطأتـــه بتلمـــيذ كـــان يعزف الماندولين على ظهر السفينة دافيد أرانجو، في بدايات يناير عام ٤٤، حينها أضاء وجهه بالذكرى، لقد كان الكولومبي "سلمون

حكـيم" واحـداً من أكبر أطباء الأعصاب في هذا العالم، وإحباطه جعله يغير الماندولين بالهندسة الطبية.

لفت نظري مسافر آخر بحفاظه على البقاء بعيداً، كان شاباً، ممتلئا، جلده يمـيل إلـى الشقرة ويضع على عينية نظارة قصر نظر، وصلعة في بدايتها محـافظ علـيها بشـكل جيد، أعتقد أنه كان الصورة المتكاملة للسائح، احتل الكرسـي الأكـثر راحة منذ اليوم الأول، ووضع على الطاولة عدة أكوام من الكتـب الجديدة وظل يقرأ بلا اهتمام بالتسالي التي كانت طوال الصباح وحتى اللـيل، كان يظهر في المطعم كل يوم بقميص مشجر ومختلف، أفطر وتغدى وتعشـى وواصل القراءة وحيداً على طاولة جانبية، لا أعتقد أنه تبادل التحية مع أحد، عَمَّدته باسم: "القارئ الذي لا يرتوي".

لم أقاوم رغبة التلصص على كتبه، معظمها كانت كتباً عسرة الهضم عن القـانون العـام، التـي كان يقرأها صباحاً، وهو يُخطط ويكتب هوامش على الحواشي، ومع ساعة العصرية يقرأ روايات، من بينها، واحدة أصابتني بالبله: "الـبديل" لديستوفسـكي، كنت حاولت سرقتها من مكتبة في بارانكيا ولكني لم أستطع، كنت مجنونا لقراءتها، إلى درجة أنني كنت أود أن أطلب منه إعارتها لي، لكني لم أجرؤ. وفي يوم من تلك الأيام ظهر برواية "مايلنز الكبير" التي لم أسمع عنها من قبل، والتي حصلت عليها بعد ذلك مع الأعمال الكبرى المفضلة لـي، فـيما كنـت أحمـل أنا معي كتباً قرأتها عدة مرات: "خيرومين" لبدرو كولوما، التي لم أنتهي من قراءتها أبداً، و"الدوامة" لخوسيه أيوستاسيو ريفيرا، و"مـن الأبنينو إلى الأنديرز" لأدموندو دي أمسيث، وقاموس الجد الذي كنت أقـرأه على أجزاء، خلال ساعات طويلة، أما القارئ الذي لا يرتوي فقد كان على العكس، لم يكن يجد في وقته الكثير، ما أريد أن أقوله إنني على استعداد لدفع أي ثمن لأكون مثله.

المسافر الثالث، بالطبع كان "جاك نازع الأحشاء" رفيقي في الغرفة، كان يــتحدث فــي نومـــه لساعات طويلة بلغة بربرية، كان كلامه له نغمة عميقة تحوّلت إلى خلفية موسيقية لقراءاتي في الصباح المبكر، قال لي إنه غير واعٍ بهــذا، ولا يعرف بأي لغة كان يحلم، لأنه عندما كان صغيرا كان يتفاهم مع أعضـــاء سيركه الذين ينتمون إلى ست لغات آسيوية، لكنه فقدها جميعاً عندما ماتت أمه، فقط بقيت اللغة البولندية، التي كانت لغته الأصلية، ولكننا استطعنا أن نكتشف أنها ليست اللغة التي كان يتحدث بها نائماً، لا أتذكر شخصاً محبوباً مثله عندما كان يدهن نفسه بالزيت أو يسن سكاكينه بلسانه الوردي.

مشكلته الوحيدة كانت في اليوم الأول في المطعم عندما أعلن للخدم أنه لا يستطيع الحياة طوال الرحلة إذا لم يقدموا له أربع وجبات، فشرح له الملاحظ أنـــه عليه أن يدفع ثمنها مع عمل خصم خاص له، ولكنه أكد أنه سافر في كل بحار العالم وكلهم كانوا يعترفون بحقه الإنساني في ألا يتركوه يموت جوعاً، وصلت القضية إلى القبطان، الذي قرر على الطريقة الكولومبية: أن يقدموا له وجبتين، وأن يتجاهلوا حصوله على وجبتين أخريين خلسة، وكان يساعد نفسه بالســطو بشــوكته على أطباق زملاء الطاولة وبعض القريبين منه من قليلي الطعام، الذين كانوا يستمتعون بأفعاله، يجب أن تشاهده لتصدق.

لم اعرف ماذا أفعل مع نفسي، إلى أن صعدت مجموعة من التلاميذ كوّنوا ثلاثــيات ورباعيات طوال الليالي، وكانوا يغنون أغنيات جميلة وقصائد حب، وعــندما اكتشفت أنه ينقصهم صوت قررت أن أتولى هذا الأمر بنفسي، كانت أتدرب معهم في المساء ونظل نغني حتى الفجر، أخيراً عثرت على ما يشغلني في ساعات فراغي، من لم يغني لا يمكنه أن يتخيل لذة الغناء.

في ليلة كان قمرها كبيراً، استيقظنا على صوت عويل يأتي من الشاطئ، القــبطان "كلــيماكو كوندي أبيو" كان واحداً من كبار القباطنة، أصدر أوامره

بالبحث بين الأعشاب عن مصدر هذا البكاء، كانت أنثى حيوان يدعى "أطوم" سـقط في شرك أفرع الأشجار الساقطة، مساعدو الماكينات ألقوا بأنفسهم إلى الماء، وتمكنوا من إخراجها، كانت حيواناً رائعاً، شكلها ما بين المرأة والبقرة، بطول حوالي أربعة أمتار، جلدها رقيق ولطيف، وضرعها ضخم كأم تورانية، وكان هذا القبطان نفسه الذي سمعته مرة يقول إن العالم في طريقه إلى الفناء لو أننا ظللنا نقتل حيوانات النهر، وحرم إطلاق النار من سفينته. صرخ:

- من يريد أن يقتل أحداً، عليه أن يقتله في بيته، وليس في سفينتي.

فـي ١٩ يـناير ١٩٦١، سـتة عشر عاماً بعد ذلك، لا زلت أذكره كيوم نحس، بسبب صديق هاتفني من المكسيك ليقص عليّ أن السفينة دافيد أرانجو احترقـت، وتحولـت إلى رماد في ميناء ماجناجي، وضعت السماء في قلبي المحطـم لأنني شعرت في ذلك اليوم أنني فقدت شبابي، والقليل الذي بقى لنا من ذكريات في نهرنا ذهب مع الريح، نهر مجدالينا اليوم ميت، ومياهه تعفنت وتـم القضـاء على حيواناته، وأعمال استعادته التي تحدثت عنها الحكومات المتعاقـبة كثيراً لم تفعل شيئاً، مطلوب زراعة ستين مليون شجرة في تسعين بالمائـة مـن أراضي الملكيات الخاصة، التي على ملاكها التبرع بها حباً في الوطن.

كل رحلة كانت تترك دروساً كبيرة في الحياة تربطنا بالقرى التي نمر بها بشـكل لا يُنسـى، حيث ارتبط مستقبل كثير منا بها بشكل أبدي، طالب طب شـهير دخـل حلبة الرقص بلا دعوة في حفل زواج، ورقص عنوة مع أجمل امـرأة في الحفل، فقتله الزوج بطلقة واحدة؛ وآخر خلال مسابقة سكر تزوج أول فـتاة التقى بها في ميناء بيريو، ولا يزال يعيش سعيداً معها ومع أبنائهما التسـعة؛ خوسـيه بالنسيا، صديق لنا من سوكري، فاز ببقرة في مسابقة للدق على الطبول في تينيريفي، وباعها هناك بخمسين بيزو: كانت ثروة حقيقية في

تلــك الأيام؛ في نفس حي "بارانكبيرميخو" عاصمة البترول، حدثت لنا مفاجأة عندما وجدنا أنخيل كاسيخ بالنسيا يعزف بأوركسترا أحد بيوت الدعارة، وهو ابن عم خوسيه، كان اختفى من سوكري منذ العام الماضي دون أن يترك أثراً.

أسوأ ذكرياتي كانت عن كانتين في ميناء بيريو، الذي أخرجنا منه البوليس مــع أربعــة ركاب دون أي تفسير، وحبسونا بتهمة اغتصاب تلميذة، وعندما وصلنا إلى مقر البوليس كانوا ألقوا القبض على الفاعلين دون أن يصيبهم أدنى أذى، كانوا صعاليك لا علاقة لهم بسفينتنا.

فــي آخر مرحلة، ميناء سالجار، كان علينا أن نهبط في الخامسة صباحاً مرتديــن ملابــس الأراضي العليا، الرجال بملابس سوداء، وبصدرية وقبعة، والمعاطف معلقة على الأذرع، بحثاً عن الحيوانات الميتة. وفي ساعة الهبوط من السفينة كانت تنتظرني مفاجأة غريبة، صديقة وقتية أقنعت أمي أن تعد لي حقيــبة، وبطانية صوف، ومبولة للطوارئ، كانت كل هذه الأشياء ملفوفة في حصير من القش، ومعقودة على هيئة صليب بحبال السرير، لم يفلح أصدقائي الموســيقيين فــي كــتم ضحكاتهم عندما شاهدوني بهذه الحقائب الغريبة في عاصــمة الحضارة، وأكثرهم ذكاء حل المسألة بطريقة ما كنت أجرؤ عليها: ألقاهــا في الماء، آخر ذكرياتي من تلك الرحلة أنني شاهدت المبولة تعود إلى أصلها بقوة دفع التيار.

كــان قطار ميناء سالجار يصعد على كورنيش الصخور خلال الساعات الأربــع الأولــى كما لو كان يحبو، وفي المناطق الأكثر ميلاً كان يبدو معلقاً ليــتخذ دفعة أكبر، ويعود من جديد محاولاً الصعود بلهاث تنين، أحياناً يجب علــى المسافرين الهبوط لتخفيف الحمل، ويسيرون على الأقدام إلى الكورنيش التالــي، قــرى الطــريق كانت مؤسية وباردة. وفي المحطات الخالية كانت تنــتظرنا فقــط بائعات نعرفهن من قبل، يبعن عبر نوافذ العربات دجاجاتهن

السـمينات والصـفراء، مطبوخة كاملة، وبطاطس مبردة طعمها لذيذ، وهناك شعرت لأول مرة بحالة جسدية غريبة ومجهولة بالنسبة لي: البرد، عند هبوط المساء، من حسن الحظ، سرعان ما تنفتح فراش الأرض عبر الأفق، خضراء وجمـيلة كما لو كانت بحراً من السماء، يعود العالم هادئاً وصغيراً. ويتحول الحال في القطار إلى آخر.

كنـت قـد نسيت تماماً القارئ الذي لا يرتوي، عندما ظهر فجأة وجلس أمامـي وعلى هيئته حالة من التعجل، كان مدهشاً، كان معجباً بأغنية حب كنا نغنيها في ليالي السفينة وطلب مني أن أنسخها له، لم أفعل ذلك فقط بل علّمته كـيف يغنـيها، أدهشـتني حدة سمعه وصوته عندما غناها وحده، مضبوطة وبشكل جيد، من المرة الأولى.

هتف منتعشاً:

– تلك المرأة ستموت عندما تسمعها!.

بهـذا عرفت تشوقه لحفظها، فمنذ سمع الأغنية ونحن نغنيها في السفينة، شـعر بأنهـا ستكون ثورة لخطيبته التي ودعها في بوجوتا قبل ثلاثة أشهر، وتنـتظره في المحطة ذلك المساء، عدت لسماعها منه مرتين أو ثلاث، وكان قـادراً علـى تقسيمها إلى مقاطع وإعادة تركيبها من جديد، وعندما وجدني وحـيداً فـي القطار قرر أن يطلب مني هذا الجميل، وأيضاً تملكت شجاعتي لأطلـب منه مباشرة، ودون لف أو دوران، ما أدهشني في كتبه خاصة كتاب من الصعب العثور عليه، فكانت دهشته حقيقية:

ما هو؟.

– البديل.

ضحك منشرحاً، وقال:

– لم أكمله بعد، ولكن أحد الأشياء الغريبة التي وقعت بين يدي.

لـــم يـــتحدث عن شئ آخر، وشكرني بكل نغمات الأغنية، وودعني بالشد على يدي بحرارة.

بـــدأتْ فـــي الإظـــلام عندما خفف القطار من سيره، ومر عبر أكوام من الخـــردة المؤكســـدة ووقف على رصيف مظلم، أمسكت الصندوق من مقبضه وسحبته إلى الشارع قبل أن يهجم عليّ الناس، كنت على وشك الوصول حين سمعت من يناديني:

– يا فتى، يا فتى.

نظرتُ إلى الخلف، مثل عدد من الشباب، وآخرين أقل شباباً كانوا يجرون معـــي، عندما مر القارئ الذي لا يرتوي إلى جانبي وأعطاني الكتاب دون أن يتوقف، وزعق فيّ وتاه في الزحام:

– فلتقض معه وقتاً طيباً.

كـــان كتاب "البديل"، كنت ذاهلاً إلى درجة أنني لم أفهم ما حدث لي قبل لحظـــات. وضـــعت الكتاب في جيب المعطف، وضربني هواء المساء البارد عـــندما خرجت من المحطة، وضعت الصندوق على الرصيف وجلست عليه لأستريح قليلاً من التعب لم يكن في الشارع أحد على الإطلاق. كل ما تمكنت مـــن رؤيته كانت ناصية الشارع الخالي والزلق من أثر المطر الخفيف، كنت علـــى ارتفـــاع ألفـــي وأربعمائة متر من سطح البحر، والهواء القطبي يحبس الأنفاس.

انتظرت نصف ساعة وأنا متجمد من البرد، شخص ما كان يجب عليه أن يحضـــر لاستقبالي بعد أن أخبره اليثيير توريس أرانجو بتلغراف عاجل، أحد أقاربه الذي سيكون مضيفي، لكن ما كان يزعجني ليس أن يأتي أحد أم لا، بل الخوف من أن أظل جالساً على هذا الصندوق المأتمي دون أن أعرف أحداً في

الجانب الآخر من العالم. فجأة هبط رجل مهندم من تاكسي يحمل في يده شمسية حريرية ومعطف من وبر الجمل يصل إلى قدميه، فهمت أنه مضيفي، وإن كان لم يكد ينظر إليّ، ولم أفكر في أن أشير له بيدي، دخل إلى المحطة مسرعاً، وعاد إلى الخروج بعد دقائق دون علامة على الأمل، وأخيراً اكتشفني، أشار إليّ بإصبعه:

– أنت جابيتو، أليس كذلك؟.

أجبته من أعماق روحي:

– تقريباً.

٤

كانـــت بوجوتـــا في ذلك الوقت مدينة قديمة وحزينة تسقط عليها أمطار خفـــيفة مقلقة تعود إلى بدايات القرن السادس عشر، لفت نظري وجود رجال كثيريـــن يســـيرون على عجل، يرتدون مثل الملابس التي كنت ارتديتها منذ وصولي إلى هناك، قماش أسود وقبعات قوية، ولم تكن هناك امرأة واحدة تفتح الشـــهية، لأن دخـــول المقاهـــي المظلمة بالمركز التجاري كان ممنوعاً على النســـاء، ولا القسس بعباءاتهم أو العسكريين بالزي الرسمي، كانت هناك في عربات الترام والمراحيض العامة لوحات إعلانية بائسة: إذا لم تكن تخشى الله فاخش السفلس".

أدهشتني الخيول الضخمة التي كانت تجر عربات البيرة، وانطلاق الشرر من عجلات الترام عندما يدور حول المنحنى ومعاكسة المارة لمرور السائرين فـــي الجـــنازات تحـــت الأمطار. كانت أكثر المشاهد بؤساً مشاهد الجنازات بعـــرباتها الفخمـــة التي تجرها خيول مزينة بالقطيفة والريش الأسود، وجثث الأثـــرياء التي ينزهها منتجو الموت. في فناء كنيسة لاس نييفيس شاهدت من التاكســـي أول امرأة في الشوارع، كانت هيفاء وسريعة الحركة، ولها حضور قـــوي كمـــا لو كانت ملكة الحدَاد، إلا أنني بقيت إلى الأبد كسيفاً، لأنها كانت تغطي وجهها بحجاب كثيف.

كانـــت هناك حالة من الانهيار النفسي، فالبيت الذي قضيت فيه تلك الليلة كـــان كبـــيراً ومريحاً، إلا أنه بدا لي كبيت الأشباح بحديقته المعتمة والزهور القاتمـــة والـــبرد الذي يخترق العظام، كان ملكاً لعائلة توريس جامبوا، أقرباء لأبي ومن معارفي، لكنني كنت أراهم خلال العشاء كغرباء وقد التفوا ببطاطين الـــنوم، أفظـــع إحســـاس لي كان عندما انزلقت تحت الغطاء فأطلقت صرخة مرعبة، لأنني شعرت أنه مبتل بسائل مثلج، وقالوا لي إنه شعور الليلة الأولى،

وأنني سأعتاد على غرابة المناخ شيئاً فشيئاً، بكيت في صمت لساعات طويلة قبل أن أغرق في نوم تعس.

كانــت هــذه حالتي النفسية بعد أربعة أيام من وصولي، فبينما كنت أسير بسرعة ضد البرد والمطر في طريقي إلى وزارة التربية، حيث تقرر فتح باب التسجيل للمنح الوطنية لهذا العام، يبدأ الطابور في الطابق الثالث من الوزارة، مــن أمام باب مكتب التسجيل نفسه، ويهبط ملتوياً عبر السلالم وحتى البوابة الرئيســية، كان المشهد مدمراً للقلب، وعندما تم فتح باب التسجيل في العاشرة صباحاً كان الطابور قد امتد لشارعين حتى وصل إلى طريق خيميني كيسادا، وكان لا يزال هناك المزيد من الراغبين في التقدم للمنح الذين احتموا بمداخل العمارات، واعتقدت أنه من المستحيل انتظار أي شئ في هذا الزحام.

بعــد منتصــف النهار بقليل شعرت بنقرات خفيفة على كتفي، كان قارئ السفينة الذي لا يرتوي، تعرَّف عليّ من بين آخر الواقفين في الطابور، لكني بذلت جهداً لأتعرف عليه بقبعته وملابسه الجنائزية، هو أيضاً، وسألني:

– لكن ماذا تفعل هنا بحق الشيطان؟.

أخبرته بالأمر، فقال ضاحكاً:

– يا له من أمر مسل جداً!، تعال معي.

وأخذنــي مــن ذراعي باتجاه الوزارة، لحظتها عرفت أنه الدكتور أدولفو خوميث تامارا، المدير الوطني للمنح بوزارة التربية.

كانت الصدفة الأقل انتظاراً وتعد لحظة من أفضل لحظات حياتي، جاءت نتيجة لمجرد مداعبة طلابية خالصة، قدَّمني جوميث تامارا لمساعديه كأفضل مطرب لأغاني الحب الرومانتيكية، قدموا لي قهوة وسجلوني بلا أي حاجة إلى إجــراءات أخــرى، ولكن بعد أن نبهوني إلى أنهم لم يتجاوزا القواعد ولكنهم

فعلوا هذا كنوع من التكريم الذي تفرضه المصادفات الإلهية، ثم أخبروني أن الامـــتحان العـــام سيكون يوم الاثنين التالي بمدرسة سان بارتيلوميه، حسبوا حوالـــي ألـــف متقدم من جميع أنحاء البلاد للحصول على ثلاثمائة وخمسين مـــنحة، أي أن المعـــركة ســـتكون طويلة وصعبة، وربما كانت ضربة قاتلة لأحلامي، المحظوظون سيعرفون النتيجة بعدها بأسبوع، وأسماء المدارس التي سيدرســـون فـــيها، وهذا أخطر ما في الأمر بالنسبة لي، لأنه من الممكن أن يرســـلوا بـــي إلى ميديين أو إلى فيتشادا، قالوا لي إنها يانصيب جغرافي اتفق علـــيه لتشجيع التبادل الثقافي بين المناطق المختلفة، عندما انتهت الإجراءات صـــافحني جوميث تامامارا بقوة الحماس نفسه الذي شكرني به على الأغنية العاطفية، وقال لي:

– انتبه، لقد أصبحت حياتك بين يديك.

عـــند الخـــروج مـــن الوزارة تقدم مني رجل قصير القامة له ملامح قس وعـــرض علـــيّ الحصـــول علـــى منحة دون أداء أي امتحان، والدراسة في المدرســـة التي أرغب فيها مقابل دفع خمسين بيزو فقط، كان هذا المبلغ ثروة بالنســـبة لـــي، لكني لو كنت أملكه لدفعته حتى أتجنب رعب الامتحان، بعدها بأيـــام تعرّفـــت علـــى صورة النصاب منشورة بالصحف كزعيم لعصابة من المحتاليـــن المتخفين في زي رجال الدين ويمارسون أعمالاً منافية للقانون في المؤسسات الرسمية.

لـــم أفـــرغ الصندوق إزاء عدم تيقني من المكان الذي سيرسلون بي إليه والـــذي يمكـــن أن يكون أي مكان. كنت متشائماً إلى درجة أنه ليلة الامتحان ذهبـــت مع موسيقيي السفينة إلى كانتين رديء للغاية في حي لوس كروثيس الـــتعس، كـــنا نغني مقابل كأس التشيشا، ذلك المشروب المصنوع من الذرة المخمـــرة والـــذي يســـميه السكارى بالبارود، لذلك وصلت الامتحان متأخراً،

ورأسي يكاد ينفجر، ودون أن أتذكر أين كنت ولا مع من ذهبت إلى البيت بالسيارة في الليلة الماضية، ولكنهم استقبلوني بكرم في صالون ضخم جداً يعج بالمتسابقين. نظرة عامة على ورقة الامتحان كانت كافية لأعرف أنني مهزوم مسبقاً، وحتى أُبعد أنظار المراقبين عني انكببت على أسئلة العلوم الاجتماعية، التي بدت لي أسئلتها أقل رعباً، وفجأة شعرت وكأنني مسكون بإلهام جعلني أبدع إجابات معقولة وشرارات إعجازية، إلا في الرياضيات، أما امتحان الرسم الذي أديته بسرعة ولكن بشكل جيد، نجح في تخفيف حدة الخوف، "ربما كانت معجزة كؤوس الليلة الماضية"، كما قال لي الموسيقيون. على أي حال أنهيت الامتحان في حالة من الاستسلام التام، واتخذت قراراً بكتابة رسالة إلى أبوي عن أسبابي حول عدم عودتي إلى البيت.

أكملت واجبي بالتعرف على النتيجة بعد أسبوع من الامتحان. يبدو أن موظفة الاستقبال تعرّفت على علامة معينة في ملفي، لأنها أخذتني بلا سبب لمقابلة المدير، وجدته في حالة نفسية جيدة، مشمراً عن أكمام قميصه وبحمالات حمراء ملونة، راجع تقديرات امتحاني باهتمام مهني، تردد مرة أو مرتين، وأخيراً تنهد، وقال لنفسه:

– ليس سيئاً، عدا في الرياضيات، لكنك نجحت بصعوبة بفضل الدرجات الخمس التي حصلت عليها في الرسم.

استلقى على مقعده إلى الخلف وسألني عن المدرسة التي فكرت فيها.

كانت تلك المرة واحدة من الإحساس التاريخي بالخوف، لكني لم أتردد:

– مدرسة سان بارتيلوميه، هنا في بوجوتا.

وضع القلم من يده على أكداس من الأوراق كانت أمامه على المكتب، وقال:

- كل هذه رسائل لحيتان كبيرة توصية على أبنائهم وأقاربهم وأصدقائهم في المدارس هنا.

انتبه إلى أنه ما كان يجب أن يقول هذا، وواصل كلامه:

- لو تسمح لي بأن أساعدك، أفضل مكان لك هو الليسيه الوطني بثيباكيريا على بعد ساعة بالقطار من هنا.

كل ما كنت أعرفه عن تلك المدينة التاريخية أن بها مناجم للملح، شرح لي جوميث تامارا أنها مدرسة كولونيالية مؤممة من جماعة دينية طبقاً للقوانين الليبرالية الحديثة، وبها حالياً مجموعة من المعلمين الشباب الممتازين من ذوي العقول المتفتحة. فكرت أنه من واجبي أن أخرجه من شكوكه، فنبهته:

- أبي قوطي.

أطلق ضحكة، وقال:

- لا تكن جاداً إلى هذا الحد، أقول كلمة ليبرالي بمعناها الواسع.

استعاد على الفور طريقته الخاصة وقرر أن مستقبلي موجود في ذلك الدير القديم الذي يعود إلى القرن السابع عشر. والذي تحول إلى مدرسة للمتشككين في مدينة حالمة ليس فيها من تسلية سوى الدراسة، فالحرم القديم كان بالفعل يحافظ على وحشته في الأبدية، كان في بدايته معروفاً بلوحة بحروف بارزة على الحجر مكتوب عليها: "بداية المعرفة هي حب الله"، لكن الشعار تم تغييره بشعار كولومبيا عندما كانت تحت إدارة حكومة الرئيس الليبرالي ألفونسو لوبث بوماريخو مُؤَمِّم التعليم في عام ١٩٣٦. من الإيوان بينما كنت أتخفف من ثقل الصندوق، أصابني الفناء الصغير بالكآبة بمعماره الكولونيالي المنقوش على أحجار حية، بشرفته الخشبية المدهونة بالأخضر، ومنقوش عليها مزهريات بزهور كئيبة، كان يبدو كل شئ خاضعاً لنظام ديني،

وكانت كل قطعة تكاد تكشف عن أنها لم تعرف يد امرأة طوال ثلاثمائة سنة، إنــه لشــيء سيء طبقاً لقوانين الكاريبي، ركبني الرعب من أن أعيش أربع سنوات حاسمة من مراهقتي في ذلك الزمن المتلاطم.

لا زلت حتى اليوم أرى أنه من المستحيل أو من الممكن جمع محل إقامة الطــلاب وغرفة المدير وسكرتارية الإدارة في طابقين يحيطان بفناء مصمت والمبــنى الآخــر المبني على عجل في الأرض الداخلية، إضافة إلى الفصول الســتة والمطبخ والمعمل الفيزيائي والكيميائي والمخازن، والخدمات الصحية والغــرف العمومية ذات الأسرة الحديدية المتراصة في صفوف لتكفي خمسين طالباً مسحوبين زحفاً من مختلف المناطق المتخلفة في البلاد، وقليل منهم من ذوي الأمــلاك. لحسن الحظ، أن ذلك المنفى كان بفضل حسن طالعي، وبسببه ســرعان ما تعلمت جيداً حال الوطن الذي كُتب عليّ أن أولد فيه، كانت هناك دســتة مــن بلدياتي الكاريبيين ضموني إليهم منذ وصولي كواحد منهم، وأنا بالطبع شعرت الشعور نفسه نحوهم، كانت بيننا وبين الآخرين فوارق كبيرة: أبناء البلاد الأصليين والأجانب.

المجموعــات المخــتلفة الموزعة على أركان فناء الألعاب كانت علامة واضحة على مدى ثراء الأمة، لم تكن هناك منافسات مادام كل واحد منا يعمل في مجاله. علاقاتي المباشرة كانت مع أبناء شاطئ الكاريبي، وكنا نتمتع عن حــق بأنــنا مثــيرون للضجيج ومتطرفون، ويسيطر علينا تضامن الجماعة والرقص والتسلية، أنا كنت خارج هذا التصنيف، لكن أنطونيو مارتين سييرا، مطــرب كارتاخيــنا، علّمني رقص أحدث الرقصات في أوقات الفراغ الليلية، وريكــاردو جونثالث ريبول، شريكي الأكبر في المغامرات العاطفية السريعة، كــان معماريــاً شهيراً إلا انه لم يقطع أبداً طربه بالأغنية التي يترنم بها بين أسنانه وسيظل يرقص وحيداً حتى آخر أيام حياته.

مينتشـــو بورجـــوس، عـــازف بيانو بالسليقة وصل إلى أن يكون معلماً بالمدرســـة، وكنت أود أن أتعلم على يديه العزف على أي آلة موسيقية، ولكنه علَّمني سر الصوت الثاني في الأغاني العاطفية وأغاني الوديان، إلا أن صفاءه الأكبر أنه شكَّل مع جييرمو لوبث جيرا، البوجوتي النقي، ثنائياً لعزف أسرار الفن الكاريبي الذي يعتمد على النغمات ثلاثة اثنين، ثلاثة اثنين.

كـــان هيمـــبرتو جـــيمس، البنك، تلميذاً شرساً لم يهتم أبداً بالرقص وكان يقضـــي نهايات الأسبوع ليستذكر دروسه في المدرسة، أعتقد أنه لم يشاهد في حـــياته كرة قدم ولا قرأ ملخصاً لأي مباراة من أي نوع، إلى أن أنهى دراسة الهندســـة فـــي بوجوتـــا ودخل إلى مجلة "التيمبو" ليتعلم العمل محرراً بالقسم الرياضي، الذي أصبح رئيساً له وأحد أفضل معلقي كرة القدم في البلاد. على أي حـــال، فـــإن أكـــثر الأمور شذوذاً كان سيلفيو لونا، أسمر داكن جداً من تشـــوكو، أنهى دراسة القانون وبعدها درس الطب، وكان يبدو أنه مستعد لبدء دراساته لثالث مرة عندما لم أعد أعرف عنه أي شئ.

كانـــت أحـــوال دانييل روثو كما هي دائماً، حكيم في كل العلوم الإنسانية والإلهـــية، وكـــان يعلمهـــا في الدروس وأثناء الراحات، كنا نذهب إليه دائماً للاســـتعلام عن حال العالم خلال الحرب العالمية الثانية، التي كنا نتابعها من خـــلال الإشـــاعات، فلـــم يكن مسموحاً دخول الصحف والمجلات اليوم إلى المدرسة، والإذاعة كنا نستخدمها فقط للرقص، ولم نستطع أبداً معرفة مصدر معلوماته عن المعارك التاريخية التي كان يكسبها الحلفاء دائماً.

ســـيرخيو كاسترو -الكيتامي- ربما كان أفضل تلاميذ الليسيه طوال كل الســـنوات، وحصل دائماً على أعلى الدرجات منذ دخوله للدراسة، وأعتقد أن ســـره يكمن في السر نفسه الذي نصحتني به مارتينا فونسيكا في مدرسة سان خوســـيه: لا تُضِـــيع كلمة واحدة من ما يقوله المعلم، أو تدخلات زملائك في

الفصـــل، أن تكتـــب بآخر ما تملك من نفس للمعلمين، وان تنظمها في كراس بشـــكل جـــيد. ربما لهذا السبب لم يكن في حاجة إلى تضييع الوقت للاستعداد للامـــتحانات، وكـــان يقـــرأ كتـــب المغامرات في نهايات الأسبوع بينما نحن الآخرين نقتل أنفسنا في التحصيل الدراسي.

أكـــثر زملائي حباً للتسلية البوجوتي الأصيل ألفارو رويث توريس، الذي كان يتبادل معي بشكل يومي أنباء الخطيبات في سهرات الليل، خلال نزهاتنا بـــالملابس العسكرية حول الفناء. آخرون كانوا خايمي برافو وهومبرتو جيين وألفـــارو بـــيدال بارون، الذي كنت قريباً منه في المدرسة، وظللنا نلتقي في الحياة لسنوات طويلة بعد ذلك، كان ألفارو رويث يذهب إلى بوجوتا في جميع نهايات الأسبوع ليقضيها مع أسرته، ويعود محملاً بشكل جيد بالسجائر وأنباء الخطيـــبات، كان هو الذي شجعني على الإدمان في الاتجاهين خلال السنوات التي درسنا فيها معاً، وهو من أعارني خلال العامين الأخيرين أفضل ذكرياته لأثري مذكراتي.

لا أعـــرف مـــا هو بالضبط الذي تعلمته خلال سنوات الأسر في الليسيه الوطنـــي، لكـــن الســـنوات الأربع من التعايش السلمي ساعدتني على تأسيس رؤيتـــي الموحـــدة للأمة، فقد اكتشفت كم نحن متعددو المشارب وفي أي شئ يفيدنا هذا، وتعلمت أنه خلال جمعنا معاً كان يوجد بلد متكامل. وربما كان هذا مـــا قـــالوه في وزارة التربية عن التحريك الإقليمي الذي تدعمه الحكومة. في العمـــر الناضـــج، خـــلال دعوتي لمشاهدة كابينة القيادة في إحدى الطائرات العابـــرات للأطلنطـــي، كانت أول كلمات وجهها إليّ الكابتن من أين أنا، كان يكفيني أن أسمعه لأجيبه:

– أنا جنوبي جداً كما أنت من سوجاموسو.

لأنه كانت له نفس العادات والإشارات، نفس قسمات صوت ماركو فيديل

بويا، زميل الطاولة خلال دراستي في الصف الرابع في الليسيه. هذا الضرب مـــن التنـــبؤ هو الذي تعلمته من الإبحار في بحيرات ثيناجاس تلك المقاطعة المدهشـــة، دون أن أســـتخدم بوصـــلة ولا سباحة ضد التيار، وربما كان هذا المفتاح الرئيسي في مهنتي ككاتب.

كنت أشعر وكأنني أعيش حلماً، فلم أتقدم للمنحة لأنني كنت أريد الدراسة، بـــل لأحـــافظ علـــى استقلالي من أي التزام بعيداً عن الأسرة. وتأمين ثلاث وجبات يومياً كانت كافية لنعيش في هذا الملجأ أفضل من حياتنا في بيوتنا، في ظـــل نظـــام من الاستقلال المحكوم بأقل من نظام البيت، فقد كان في المطبخ نظاماً للتسوق يسمح لكل من يريد أن يهدي نصيبه على هواه، ولم تكن للنقود قـــيمة، فبيضتا الإفطار كانت نقداً له قيمته، يمكن بهما شراء أي من الأطباق الـــثلاثة الأخـــرى، وكـــل شئ له قيمته بالضبط، ولم يؤثر أي شئ على هذه الـــتجارة الشـــرعية، وأكثر من هذا: لا أذكر شكوى واحدة لهذا السبب خلال أربعة أعوام في الملجأ.

المعلمـــون الذيـــن كانوا يأكلون على طاولة أخرى في نفس الصالون، لم يكونـــوا بعيدين عن المتبادلات الشخصية بينهم، فقد كانوا لا يزالون يحافظون علـــى بعض عادات حياتهم في مدارسهم الحديثة، أغلبهم كانوا غير متزوجين أو يعيشـــون هناك بعيد عن زوجاتهم، ورواتبهم كانت قليلة جداً مثل مداخيل أُسرنا، كانوا يشكون من نوعية الطعام مثلنا تماماً، وفي إحدى الأزمات وصلنا إلى حد التضامن مع بعضهم للقيام بإضراب عن الطعام، كانوا يأكلون خارج الوجـــبات المسموح بها فقط عندما كانوا يستقبلون هدايا من الخارج، كسروا المســـاواة معهم مرة واحدة، وحدث هذا في السنة الرابعة، عندما وعدنا طبيب المدرســـة بإحضار قلب ثور لدراسته خلال درس التشريح، وأرسله في اليوم التالـــي إلـــى ثلاجة المطبخ، كان لا يزال طازجاً وغارقاً في الدماء، وعندما

ذهبنا للبحث عنه لإحضاره للدرس لم يكن هناك، وتم كشف اللغز في الساعة الأخـيرة مـن الدرس، إنهم عندما لم يجدوا قلب ثور أمر الطبيب بنزع قلب عامل بناء لا أهل له مات على إثر سقوطه من الطابق الرابع، وقام الطباخون بـإعداده بالصلصة معتقدين أنه قلب ثور ووضعوه في قائمة طعام المعلمين. أعتقد أن العلاقة اليسيرة بين المعلمين والتلاميذ كانت نتيجة للتعديلات الحديثة التي تم إدخالها على التعليم التي لم يبق منها شيء عبر التاريخ، ولكنها نفعتنا على الأقل للتخفيف من حدة البروتوكول، وأدت إلى تقليل الفارق بين الأعمار، وخففـت من استخدام رباط العنق. ولم يقم أحد الدنيا ولم يقعدها لأن المعلمين والتلامـيذ شـربوا معـاً نخباً على الطاولة نفسها، أو حضروا معاً إلى حلبة الرقص أيام السبت.

هـذا المناخ كان ممكناً فقط لوجود هذه النوعية من المعلمين الذين كانوا يسمحون بشكل عام بعلاقات شخصية سهلة، أستاذنا لمادة الرياضيات، بغزارة علمه وميله إلى المزاح الحاد، كان يُحّول الفصل إلى احتفال مهيب، كان اسمه "خواكيـن خـيرالدو سـانتا" أول كولومبي يحصل على درجة الدكتوراه في الرياضيات، لسوء حظي وعلى الرغم من جهودي الكبيرة لم أستطع أن اندمج مـع دروسه على الإطلاق، وكان يُعلّق دائماً بقوله إن مواهبي الشعرية كانت تعـيق مواهبي في الرياضيات، والواحد منا لا ينتهي فقط إلى الاعتقاد في هذا بـل يغـرق في هذه المقولات، كانت الهندسة إلى حد ما مفهومة بفضل ميل الأسـتاذ الأدبي، والحساب كان على العكس تماما، فقد كانت بساطته معادية، ولا زلـت حتى اليوم عليّ أن اقسم الأرقام لأنتهي من عملية حسابية بسيطة، ومشـكلتي مع رقمي سبعة وتسعة، أستطع حفظ جدولهما، لذلك عندما أحسب سـبعة زائـد أربعـة، اخصم اثنين من السبعة واحتسب الخمسة مضافة إلى الأربعـة، ثم أعود وأضيف إليهما اثنين، ليصبح الناتج أحد عشر. والضرب

كنـــت أخطـــئه دائمـــاً لأنني لم أتمكن أبداً من تذكر الأرقام التي أحفظها في ذاكرتـــي؛ أمـــا الجبر فقد خصصت له أفضل حالاتي النفسية، ليس من أجل تاريخه الكلاسيكي ولكن بسبب احترامي وخوفي من المعلم، كل ذلك كان جهداً ضائعاً بلا طائل، كنت أعيد الامتحان كل ثلاثة أشهر، ونجحت بملحق مرتين، وفي المرة الثالثة نجحت بشكل غير شرعي ورأفة بحالي.

المعلمـــون الـــثلاثة الآخـــرون كـــانوا معلمي اللغات: الأول، معلم اللغة الإنجليزية، كان المستر أبيا، كاريبي أصيل، مدمن متكامل وله حماس مسيحي لقاموس "ويبسترز" الذي كان يقرأه بعينين مغمضتين، ومن حل محله هيكتور فيجـــيروا، معلم شاب وطيب وكان متحمساً كبيراً للأغنيات العاطفية التي كنا نغنـــيها بأصوات متعددة خلال الفسح. بذلت كل ما أستطيع لاحتمال الدروس والامتحان النهائي، لكني أعتقد أن الدرجات الجيدة التي حصلت عليها لم يكن لشكســـبير فضل فيها بقدر ما كان الفضل يعود إلى ماريني وهوجو روماني، المسئولان عن الكثير من جنان الحب والكثير من الانتحارات في سبيل الحب. أما معلم الفرنسية في السنة الرابعة، مونسنيور أنطونيو يلا ألبن، فقد وجد أنني كنـــت مســـمماً بالـــروايات البوليسية، وكانت دروسه تصيبني بالغثيان ككل الـــدروس الأخـــرى، ولكن إشاراته الفجائية بالفرنسية المتداولة في الشوارع، ساعدتني كثيراً حتى لا أموت جوعاً في باريس بعدها بسنوات.

معظـــم المعلميـــن كانوا من خريجي، العادية العليا تحت إشراف الدكتور خوســـيه فرانثيســـكو سوكاراس، وهو طبيب نفسي بذل جهداً كبيراً في تغيير الـــنظام التعليمـــي الكنسي الموروث من سنوات طويلة خلال الحكم المحافظ ليحوِّلـــه إلـــى نظـــام منطقـــي إنساني. وكان مانويل كويو ديل ريو ماركسياً راديكالـــياً، وربما لهذا السبب كان معجباً بلين جوتانج ويؤمن بظهور الموتى، ومكتبة كارلوس خوليو كاديرون التي كان يرأسها مواطنه خوسيه إيوستاسيو

ريفيرا مؤلف رواية "الدوامة"، فقد كان يوزع على حد سواء كل من الكلاسيكيين اليونانيين والمولدين الأسبان الأولين، والرومانتيكيين من جميع أنحاء الدنيا، بفضل هؤلاء وأولئك، فإننا نحن القلة من القراء النهمين اطلعنا على سان خوان دي لا كروث أو خوسيه ماريا فارجاس فيلا، ولكنا اطلعنا أيضاً على دعاة الثورة البوليتارية، أما جونثالو أوكامبو معلم العلوم الاجتماعية فقد كان يحتفظ في غرفته بمكتبة سياسية ممتازة، وكانت كتبها تتبادلها فصول الكبار، لكنني لم أفهم أبداً "أصل العائلة، الملكية الخاصة، والدولة" لفريدريك إنجلز، فقد كنا ندرسه في الأمسيات الحارقة لدروس الاقتصاد السياسي وليس أثناء دروس الأدب. كما لو كانت أسطورة لمغامرة بشرية جميلة، قرأ جييرمو لوبث جيرا أثناء الفسح بين الدروس "آنتي دوهرنج" لإنجلز أيضاً، أعارني إياه الأستاذ جونثالو أوكامبو، ومع ذلك عندما طلبت الكتاب لأناقشه مع جييرمو لوبث فإن أوكامبو قال لي إنه ليس على استعداد أن يقدم خدمة لتقدم البشرية، فقد كان طويلاً ومملاً وقد لا يدخل إلى التاريخ، ربما كانت هذه المبادلات الأيديولوجية وراء السمعة السيئة لليسيه كمعمل لتفريخ الشذوذ السياسي، وكنت في حاجة إلى نصف قرن لأفهم أنها ربما كانت تجربة عفوية لإبعاد الضعفاء وتطعيم الأقوياء ضد أي نوع من الأفكار الثابتة.

كانت العلاقة المباشرة دائماً مع الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون، أستاذ اللغة القشتالية في الصفوف الأولى، والأدب العالمي في الصف الرابع، والإسباني في الخامس والكولومبي في السادس. كانت هناك أشياء غريبة في تكوينه: الحسابات، ولد في نيفا عاصمة مقاطعة ويلا، ولم يكن يتعب من إبداء إعجابه بمواطنه خوسيه ايوساتسيو ريفيرا، هجر دراسة الطب والجراحة، وكان يذكرها كأكبر فشل في حياته، لكن حماسه للفنون والآداب لم ينقطع، وكان أول أستاذ يدمر كتاباتي الأولى بموضوعية.

على أي حال، كانت العلاقة بين الطلاب والمعلمين طبيعية إلى حد كبير، لـيس فقط في قاعات الدرس بل كانت طيبة بشكل خاص في فناء الألعاب بعد تـناول العشـاء، وهذا سمح بوجود تعامل مختلف عن ما كنا معتادون عليه، وكان عصراً مهماً في مناخ الاحترام والرفقة الذي كنا نعيشه.

ترجع إحدى المغامرات المرعبة إلى قراءتي للأعمال الكاملة لفرويد، التي كانـت قـد وصلت إلى المكتبة، فلم أفهم أي شئ من تحاليله الصعبة، إلا أن الحالات التي كان يقدمها كانت تحرمني النوم حتى النهاية، تماماً مثل تخيلات خوان بيرنيت. طلب منا الأستاذ كالدرون في حصة الأدب الإسباني أن نكتب قصـة موضـوعها حر، وخطر لي أن أكتب قصة مريضة عقلية عمرها لا يـتجاوز سبع سنوات، ووضعت لها عنواناً غير شاعري على الإطلاق: "حالة من التطرف النفسي"، طلب المعلم أن أقرأها في الفصل، أعلن زميلي الجالس إلـى جواري رفضه الكامل لها لأنني كتبتها دون أمر بإعداد علمي ولا أدبي لموضوع معقد كهذا. شرحت القصة بنوع من التفشي أكثر منه تواضعاً، وقلت إننـي استوحيتها من حالة وصفها فرويد في مذكراته ولم أكن أطمح أكثر من اسـتخدام هـذه الحالة لإنهاء كتابة القصة، ربما اعتقد الأستاذ كالديرون أنني أُحرجـت مـن نقـد زملائـي في الفصل، فدعاني على انفراد خلال الفسحة ليشـجعني على مواصلة طريقي، وأشار إلى أنه في قصتي كان من الواضح أننـي أجهل تقنية الإبداع الحديث، ولكني أتمتع بالحس والرغبة، وأن القصة كانـت مكتوبة بشكل جيد وعلى الأقل أنني حاولت أن تكون جديدة. وحدثني لأول مرة عن البلاغة، وقدَّم لي بعض الخدع العملية للموضوعات والموسيقية ليمكننـي تبين الأخطاء، أنهى حواره معي بأنه على أي حال يجب أن أواصل الكتابة ولكن بعيداً عن الصحة العقلية. كان هذا الحوار هو الأول بين حوارات كثيرة جرت بيننا خلال سنوات وجودي في الليسيه، سواء خلال أوقات الفراغ

أو في ساعات أخرى حرة، والتي أُدين لها كثيراً في حياتي ككاتب.

مناخـــي المثالـــي، منذ أيام الدراسة في مدرسة سان خوسيه كان إدماني للقـــراءة، كنت أقرأ كل ما يقع بين يدي، فكنت أقضي أوقات فراغي كاملة في القـــراءة وكل وقت الدروس تقريباً. بسنواتي الست عشرة، وبخط جيد أم لا، كان يمكنني أن أقرأ وأعيد القراءة في نفس واحد وبلا مساعدة أو نظام، وكان كل هذا يتم تقريباً سراً أثناء الدروس المدرسية. أعتقد أنني قرأت مكتبة الليسيه كاملة، التي كانت مكونة من بقايا مكتبات أخرى سيئة: المجموعات الرسمية، ومـــيراث المعلميـــن، وكتب لا يعرف أحد كيف وصلت إلى هناك بعد عملية غرق، ولا أستطيع أن أنسى المكتبة القروية المنشورة في دار مينيرفا، والتي كان يمولها السيد دانييل سامبر أورتيجا ويوزعها على المدارس ومعاهد وزارة التربـــية. كانـــت مائة مجلد تحتوي على كل ما هو أفضل وأسوأ ما كتب في كولومبيا، قررت أن أقرأها بنظام التسلسل إلى حيث أستطيع. وما يثير رعبي أننـــي كدت أكملها خلال العامين الأخيرين، ولم أستطع خلال حياتي الباقية أن أعرف إن كانت قد أفادتني في شئ أم لا.

لحظـــات إشراق الفجر كان لها طعم قريب من طعم السعادة، عدا صوت الـــناقوس القـــاتل الذي يدق فجأة في السادسة والنصف، يقفز من السرير فقط اثـــنان أو ثلاثـــة من ضعاف العقول ليقفوا في الصفوف الأولى أمام صنابير المـــياه لحمامات غرف النوم، الباقون نحن نظل نعصر آخر لحظات النوم إلى أن يأتـــي المعلم المناوب ليجري بطول الصالة نازعاً بطاطين النائمين، تكون نصـــف ســـاعة مـــن الحياة السرية المكشوفة لارتداء ملابس النظام، وتلميع الأحذيـــة، ونســـتحم بالمـــياه السائلة من الصنابير، فيما كل واحد يتخفف من هزائمه الليلية بالصرخات ويسخر من هزائم الآخرين، وتكشف أسرار الحب، وتجـــري عملـــيات التجارة، ويتم الاتفاق على مبادلات المطعم، والموضوع

العقلي الدائم للفصل المقروء في الليلة السابقة.

كان جييرمو جرانادوس ينطلق في غناء كل ما يحتويه ذهنه الذي لا يكل من موضوعات التانجو. أغني مع ريكاردو جونثالث ريبول، جاري في غرفة الـنوم، في ثنائي كاريبي على أنغام خرقة تلميع الأحذية بجوار الأسرة، فيما يكون صديقي ساباس كارافالو يجري في صالة النوم من أقصاها إلى أقصاها عارياً كما أنجبته أمه، والفوطة معلقة بقضيبه الأسمنتي المسلح.

كـان ممكـناً أن نهـرب فجراً في جماعة من هذا الملجأ الداخلي للقيام بواجبات تعهدنا بها خلال عطلة نهاية الأسبوع. لم تكن هناك حراسة ليلية ولا معلميـن فـي غـرف الـنوم، عدا مناوب الأسبوع، وبواب الليسيه الأبدي، ريبيريتا. في الحقيقة يعيش ساهراً طوال الساعات فيما يقوم بواجباته اليومية، كـان يعـيش في غرفة الإيوان ويقوم بعمله جيدا، ولكننا كنا نقوم ليلاً برفع ترابـيس الكنيسة، ونعيدها إلى مكانها دون إحداث ضجيج، ونقضي الليل في بيوت أخرى، ونعود قبل الفجر بقليل عبر الشوارع الجليدية. لم نعرف أبداً إن كان ريبيريتا كان نائماً فعلاً كميت أم لا، أم أنها طريقته في أن يكون متستراً علينا. لم يكونوا كثيرين الذين يهربون، وأسرارهم تنام في ذاكرتنا كمتسترين علـى بعضهم، أمناء على أسرارهم، أعرف بعض من كانوا يقومون بالهرب كروتيـن يومـي، والـبعض قام به لتجربة الإحساس بقشعريرة المغامرة في الجسد، ويعودون منهوكين من الرعب، لم نعرف أبداً أن هناك من تم اكتشاف هروبهم.

كانت كوابيسي الليلية التي ورثتها عن أمي تمثل عيبي الاجتماعي الوحيد فـي المدرسـة، لأنها كانت تقطع نوم الآخرين كصرخات قادمة من القبور، جيرانـي في السرير يعرفونها جيداً وكانوا يخافون فقط العواء الأول المنطلق فـي هدوء الفجر. والمعلم المناوب الذي ينام في الغرفة الكرتونية كان يتجول

بينـــنا لـــيلاً مـــن أقصى الغرفة إلى أقصاها إلى أن يتم إحكام النظام، لم تكن حـــالات نـــوم فوضوية، بل كان لها علاقة بالإحساس بارتكاب الذنب، لأنها حدثـــت لي مرتين فقط في بيوت غريبة، وكانت غير مفهومة أيضاً، لأنها لم تكـــن تحـــدث فـــي ساعات النوم القصيرة، بل خلال نومي سعيداً إلى جوار أشخاص أو في أماكن عامة تجعلهم ينظرون إليّ بشكل بريء. الكوابيس يمكن مقارنـــتها بكوابـــيس أمي، كان أصلها في رأسها هي وكانت تخرج مع القمل الذي لا يدعها تنام، لم تكن صرخاتي متبخرة، بل أصوات طلب استغاثة حتى يمكـــن أن يعطف عليّ أحد ويوقظني، لم يكن في غرفة نوم الليسيه وقتا لأي شـــئ، فمـــا أن أبدأ أولى أصواتي حتى تسقط على رأسي أمطار من الوسائد القادمة من الأسرة المجاورة، أقوم مذعوراً والقلب منقبض ولكني سعيد بأنني لا زلت على قيد الحياة.

كانـــت القـــراءة بصوتٍ عالٍ قبل النوم أفضل ما في الليسيه، وبدأت تلك القـــراءات بمبادرة من الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون، بقراءة قصة لمارك تويـــن مقررة على الصف الخامس وسيمتحنون فيها في أول ساعات الدروس للـــيوم التالي. قرأ المقاطع الأربعة الأولى بصوت مرتفع في غرفته الكرتونية لنقوم نحن – من لم يكن لدينا الوقت لقراءتها – بكتابة شروحها. كان الاهتمام كبيراً، ومن حينها تقرر فرض عادة القراءة بصوت مرتفع قبل النوم كل ليلة، لـــم تكن البداية سهلة، لأن بعض المعلمين المنافقين فرضوا الكتب التي يجب قراءتها، ولكن بوادر التمرد جعلتهم يضعون وجهة نظر التلاميذ في الحسبان.

بـــدأوا بنصف ساعة، وكان المعلم المناوب يقرأ في غرفته المضاءة جيداً علـــى مدخـــل غرفة النوم العمومية، في البداية كانوا يسكتونه بشخير ساخر، بعضه واقعي والآخر مصطنع، لكنه في معظمه مستحق، مدوها بعد ذلك إلى ســـاعة من القراءة، طبقاً للاهتمام بالقصة، وتم إحلال التلاميذ محل المعلمين

في دورات أسبوعية، وبدأت الأيام الجميلة برواية "نوسترادامُوس والرجل ذو القناع الحديدي" التي أعجبت الجميع، ولكن ما لم أفهمه حتى الآن النجاح الذي حـــازت عليه رواية "الجبل السحري" لتوماس مان، التي تطلبت تدخل المدير لمنعـــنا مـــن قضاء الليل كله ساهرين بانتظار قبلة هانز كاستروب وكلاوديا شاوشـــات، أو الانتـــباه الغريـــب للجمـــيع جالسين في الأَسِرَة حتى لا نُضيِّع المناظرة الفلسفية بين نابتا وصديقه ستمبريني، تواصلت القراءة في تلك الليلة لأكثر من ساعة زيادة عن الوقت المحدد وانتهت في غرفة النوم بعاصفة من التصفيق.

المعلم الوحيد الذي بقي كواحد من الألغاز الكبيرة لشبابي كان هو المدير الـــذي وجدتـــه عند وصولي، كان اسمه أليخاندرو راموس، كان جافاً ومحباً للعـــزلة، بعوينات زجاجية سميكة تبدو كعوينات أعمى، وسلطة لا تقبل الجدل تجعـــل كـــل كلمة له كما لو كانت قبضة حديدية، يهبط من ملجأه في السابعة صباحاً ليفتش على نظافتنا الشخصية قبل دخول المطعم، يرتدي ملابس مُحكمة ذات ألـــوان فاقعـــة، وياقة قوية كما لو كانت مصنوعة من البلاستيك وأربطة عنق لافتة للنظر، وحذاء لامع، أي خطأ في نظافتنا الشخصية تعني العودة إلى غرفة النوم لإصلاحه، ويبقي باقي اليوم مسجوناً في مكتبه بالطابق الثاني، ولا نعـــود إلى رؤيته حتى اليوم التالي في الساعة نفسها، أو خلال الاثنتي عشرة خطـــوة التي يسيرها من مكتبه إلى الفصل الخامس، حيث يقوم بتدريس ساعة الحســـاب الوحيدة التي يُدِّرسها ثلاث مرات في الأسبوع، تلاميذه يقولون عنه إنـــه عبقري في الأرقام ومُسلٍ في الفصل، ويتركهم مشدوهين بحكمته ورعب الامتحان النهائي.

بعـــد وصولي بقليل كان عليّ أن أكتب الخطاب الافتتاحي لأحد احتفالات الليســـيه الرســـمية، وافق معظم المعلمين على الموضوع، لكنهم تركوا الكلمة

الأخيرة في هذه الحالة للمدير، كان يعيش في آخر السلم بالطابق الثاني، لكنني عانيت خلال تلك المسافة كما لو كانت رحلة حول العالم سيراً على الأقدام، لم أكـن قـد نمت ليلتها بشكل جيد، ووضعت رباط عنق ملابس الأحد ولم أكد أتـذوق طعام الإفطار، خبطت على الباب بهدوء شديد إلى درجة أن المدير لم يفـتح لي حتى المرة الثالثة، ودعاني إلى الدخول دون أن يحييني، وكان ذلك من حسن حظي، لأنني لم أكن أملك صوتاً لرد التحية، ليس بسبب جفائه ولكن بسـبب رهبة النظام وجمال المكتب بأثاثه من الخشب النبيل المحشو بالقطيفة، والجـدران المزيـنة بدواليب من الكتب المجلدة بالجلد الطبيعي. انتظر المدير برصانة شكلية حتى ألتقط أنفاسي، ثم أشار إلى كرسي أمام مكتبه وجلس هو على كرسيه.

كنـت قـد بذلـت فـي إعداد أسباب زيارتي الجهد الذي بذلته في إعداد الخطـاب، استمع إليّ في صمت ووافق على كل جملة بهزة من رأسه، ولكن دون أن ينظر إلي، بل كان ينظر إلى الورقة التي كانت ترتعش في يدي، وفي بعـض الـنقاط التي كنت أرى أنها مسلية حاولت أن أنزع منه ابتسامة، لكن جهودي ذهبت هباء، بل وأكثر من هذا: أنا كنت على ثقة تامة بأنه كان يعرف بزيارتي مسبقاً، ولكنه تركني أكمل طقوس شرح أسبابها.

مـا أن انتهيت حتى مد يده على المكتب وأخذ الورقة، خلع نظارته ليقرأ بانتـباه عميق، ولم يتوقف سوى مرتين ليجري بعض التصحيحات بقلمه، ثم أعـاد وضـع النظارة على عينيه وحدثني دون أن ينظر في عيني، بصوت حجري هز قلبي، قال لي:

– توجـد هـنا مشكلتان، حضرتك كتبت: "تناغماً مع ازدهار بلادنا التي قدَّمـتْ للعالم الحكيم الإسباني خوسيه ثيلستينو موتيس في القرن الثامن عشر، نعـيش فـي هـذا الليسيه مناخاً فردوسياً". ولكن هذه الكلمة بها حرف خطأ،

والأخرى ينقصها التشديد.

شـــعرت بالمهانـــة، لم تكن لدي إجابة للحالة الأولى، أما الحالة الثانية فلم يكن لدي شك، فأجبته على الفور بما تبقى لي من صوت:

– معـــذرة ســـيدي المدير، القاموس يقبل كلمة الفردوسي بتشديد وبدونه، ولكن أنا رأيت أن أكتبها هكذا لأنها ستكون موسيقية أكثر.

يـــبدو أنـــه شعر بالهجوم عليه كما شعرت أنا، ولم يكن قد نظر إليّ بعد، فـــأخذ القاموس من على أحد الدواليب دون أن ينطق بكلمة، تحجر قلبي لأنه كان قاموس أطلس نفسه الذي كان يملكه جدي، لكنه كان جديداً ولامعاً، وربما لم يُستخدم من قبل. وفتحه في الصفحة المطلوبة في أول محاولة، وقرأ وأعاد قراءة الخبر وسألني دون أن يُحّوِل نظره عن الصفحة:

– حضرتك في أي فصل؟

قالت له:

– الثالث.

أغلق القاموس بضربة واحدة ونظر إليّ في عيني لأول مرة، وقال:

– برافو، استمر على هذا النحو.

مـــن ذلك اليوم لم ينقص زملائي سوى أن يطالبوا بإعلاني بطلاً، وبدأوا في تسميتي بكل التشريفات المطلوبة "ابن الشاطئ الذي تحدث مع المدير"، إلا أن مـــا أثر فيّ خلال تلك المقابلة، مرة أخرى، مأساتي الشخصية مع الإملاء، التـــي لـــم أفهما أبداً، وحاول أحد معلمي أن يخرجني من تلك المأساة عندما أخبرنـــي أن ســـيمون بولـــيفار لم يكن يستحق المجد الذي ناله بسبب كتابته الرديـــئة. وآخرون كانوا يعزونني باعتباره مرض الكثيرين، وحتى اليوم، بعد نشـــر سبعة عشر كتاباً، فإن مصححي البروفات الطباعية يُشرفونني بتصحيح

أخطائي الإملائية كما لو كانت أخطاءً في التصفيف.

كانـــت احتفالات زيباكيريا الاجتماعية تختلف بشكل عام حسب حالة كل واحـــد وموهبـــته وطريقـــته، مناجم الملح التي عثر عليها الأسبان حية كانت الجـــذب الســـياحي في نهايات الأسبوع، وكانت تستكمل بطبق الكرشة بالفرن والبطاطس الثلجية الغارقة في أحواض كبيرة من الملح، زملاء منطقة الشاطئ الكاريبـــي، بشـــهرتنا المســـتحقة كمثيرين للضجيج وسوء التربية، كنا نتمتع بالســـمعة الطيبة في الرقص كفناني موسيقى الموضة، وذواقة في الحب حتى الموت.

كنـــت عفويـــاً جداً إلى درجة أنه في اليوم الذي عرفنا فيه بنهاية الحرب العالمـــية، خرجـــنا إلـــى الشوارع في مظاهرة عارمة بالرايات، والشعارات وأصـــوات النصـــر، طلب أحدهم متطوعاً ليخطب في الجموع، فخرجت إلى شـــرفة الـــنادي الاجتماعي دون أن أفكر في الأمر لحظة واحدة، في منتصف المـــيدان الرئيسي، وبدأت أصرخ برنات عالية في خطاب اعتقد البعض أنني كنت أحفظه مسبقاً.

كـــان الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مُجبراً على ارتجاله في سنواتي الســـبعين الأولى من حياتي، أنهيته باعتراف غنائي للأربعة الكبار، ولكن ما لفـــت الأنظـــار في الميدان كان ذكر رئيس الولايات المتحدة، الذي مات قبلها بقلـــيل: "فرانكليـــن ديلانو روزفلت، الذي كان كالسيد القمبيطور الذي يعرف كـــيف يكسب الحرب بعد موته"، ظلت هذه الجملة تسبح في المدينة لعدة أيام، وتم كتابتها على يفط شوارعية وعلى صور رزوفلت المعروضة في واجهات بعـــض المحـــلات، لذلـــك فإن أول نجاح شعبي لي لم يكن لكوني شاعراً أو روائياً، بل كخطيب، والأسوأ من كل هذا: كخطيب سياسي، منذ ذلك الوقت لم يكـــن هناك حفل رسمي في الليسيه دون أن يأخذوني إلى الشرفة، ولكن كانت

أحاديث مكتوبة ومُصححة حتى آخر نفس.

مــع مــرور الزمــن، أفادنــي ذلك الغرور حتى لا أُصاب بالرعب من الجماهــير تمامــاً في حفلات العرس الكبرى كما في كانتين الهنود، التي كنا نســكر فــيها حتى نزحف على بطوننا: في بيت بيرينيثي، الجميلة المتحررة، كنــت محظوظاً لأنها لم تتزوجني لجنونها بحب آخر، أو في مكتب التلغراف، التي كانت تقوم رائعتها ساريتا بعمل إجراءات القروض التلغرافية المؤسية إلى أبوي لسد احتياجاتي الشخصية، وقدّمتْ لي أكثر من مرة نقود تلك التلغرافات قبل وصولها، لإنقاذي من أكثر من ورطة، إلا أن الحب الذي لا يُنسى لم يكن حــباً لشخص بقدر ما كان لحارسة مُدمني الشِّعر، كان اسمها ثيثيليا جونثالث بيثانو، وكانت ذات ذكاء سريع، وتتمتع بظرف خاص وروح طليقة في أسرة عمــيقة المحافظــة، وذاكرتها غير الطبيعية فيما يختص بحفظ الشعر، كانت تعيش في البيت المواجه لليسيه مع عمتها الأرستقراطية العزباء في بيت ضخم مُحــاط بحديقــة كثيفة الأشجار. كانت العلاقة في البداية مرتبطة بالمسابقات الشــعرية، لكــن ثيليا تحولّت في النهاية إلى أن تكون رفيقة الحياة، ضاحكة دائماً، وفي النهاية بدأت تحضر سراً وبموافقة الجميع دروس الأدب التي يقوم بها الأستاذ كالديرون.

خلال سنوات آراكاتاكا حلمت بالحياة السعيدة مغنياً من احتفال إلى آخر، بــالأكورديون والصــوت الجميل، وهي الطريقة التي كنت أؤمن بأنها الأكثر قدمــاً وســعادة فــي قص الحكايا، فإذا كانت أمي تخلت عن البيانو من أجل الأولاد، وتخلــى أبي عن الكمان ليحافظ علينا، فقد كان من العدالة أن يموت الأكبر من هؤلاء الأبناء جوعاً في سبيل الموسيقى، مشاركتي الدائمة كمطرب وعــازف فــي فريق الليسيه أثبتت أن لي سمعاً لأتعلم العزف على آلة أكثر صعوبة، وأنه يمكنني الغناء.

لـــم تكن هناك سهرة أو حفل في الليسيه دون أن تكون لي فيها يد بطريقة أو أخـــرى، ودائماً بفضل الأستاذ جييرمو كيبيدو ثورنوسا، المؤلف الموسيقي ورجــل المدينة، المدير الدائم للأوركسترا البلدية ومؤلف موسيقي "أمابولا" – أغنـــية الطـــريق الحمـــراء كالقلـــب– أغنية شبابية كانت في وقتها روح كل الســـهرات والاحتفالات الشعبية. كنت أول من يعبرون الحديقة العامة لسماعه أيام الأحد بعد حضور الصلوات بالكنيسة، دائماً ما يبدأ بمقطوعة "جوثا لادرا" وكورال "مارتيا"، والتروبادور، وفي النهاية، لم يكن يعرف المايسترو أبداً، ولا يتجرأ على القول، إن حلم حياتي في تلك السنوات أن أكون مثله.

عـــندما طلـــبوا في الليسيه متطوعين لدروس التذوق الموسيقي، أول من رفعـــوا أصابعهم كنا، جييرمو لوبث وأنا، كانت الدروس صباح أيام السبت، ويقودها الأستاذ أندريس برادو توفار، مدير أول برنامج للموسيقى الكلاسيكية فـــي إذاعـــة "صوت بوجوتا"، ولم نكن نملأ ربع المطعم الإضافي، ولكن من اللحظة الأولى وجدنا أنفسنا أسرى كلام المعلم. كان الأصيل المتكامل، من لذة منتصف الليل، يرتدي صدرية بسيطة وصوته هادئ متقطع. وما يمكن اعتباره الـــيوم تجديـــداً، ذلك المسجل الذي كان يديره باقتدار، وحب لترويض عجول الـــبحر، كـــان يـــبدأ من فرضية –كانت صحيحة في هذا المجال– تقول إننا مســـتجدون تماماً، لذلك بدأ معنا من "كرنفال الحيوانات"، لسان سيني، وعلَّمنا رؤية كل حيوان، بعدها عزف – ولم لا– "بدرو والذئب" لبروكوفييف، والسئ فـــي تلك اللحظة أنه ذكَّرني بأن موسيقى كبار الموسيقيين كانت إدماناً سرياً، وكنت في حاجة إلى سنوات طويلة حتى لا أُصدر أحكاماً متعجلة للتفريق بين الموسيقى الجيدة والموسيقى الرديئة.

لم ألتق بالمدير مجدداً حتى العام التالي، عندما تولى تدريس مادة الهندسة للصف الرابع، دخل الفصل يوم ثلاثاء في العاشرة صباحاً وألقي تحية الصباح

بهمهمـــة، دون أن ينظر لأحد، ومسح السبورة بالبشاورة حتى لم يبق شئ من الطباشير عليها، بعدها استدار نحونا وسأل ألفارو رويث توريس:

- ما هي النقطة؟

لـــم يكن هناك مجال للإجابة لأن مدرس العلوم الاجتماعية فتح الباب بلا استئذان، وقال للمدير إن هناك مكالمة تليفونية عاجلة من وزارة التربية، خرج المديـــر مســـرعاً للـــرد على التليفون ولم يعد إلى الفصل، بعدها، أبداً، لأن المكالمـــة كانت لإبلاغه بترك مكانه كمدير، العمل الذي أكمل واجباته طوال خمس سنوات في الليسيه، ثم أنهى حياة كاملة من العمل الجيد.

حل محله الشاعر كارلوس مارتين، الأكثر شباباً بين جماعة شعراء "حجر وســماء" الـــذي ســـاعدني ثيسار دي بايي على اكتشافه في بارانكيا، كان في الثلاثين من عمره وثلاثة كتب منشورة. كنت أعرف بعض قصائده، وشاهدته مرة في مكتبة في بوجوتا، لكنني لم أجد شيئاً أقوله له، ولا حتى كتبه لأطلب منه توقيعه عليها، ظهر فجأة ودون أن يعلنوا ذلك خلال راحة الغداء، ولم نكن ننـــتظره مـــبكراً هكذا، كان يبدو كما لو كان محامياً أكثر منه شاعراً بملابس مخططـــة على الطريقة الإنجليزية، كانت جبهته صافية وشاربه مستقيم بحذق وهـــو مـــا كـــان يشـــتم مـــن شعره أيضاً، تقدم بخطوات محسوبة جداً نحو المجموعات الأقرب إلى مكان وجوده، هادئاً ومبتعداً قليلاً، ومد لنا يده:

- أهلاً، انا كارلوس مارتين.

كنت خلال تلك الفترة مهووساً بالشعر الغنائي الذي ينشره ادواردو كارانثا فـــي القسم الأدبي لجريدة "التيمبو" ومجلة "السبت"، أعتقد أنه كان مُستلهماً من "أنـــا وبلاتـــيرو" لخوان رامون خيمينيث، الموضة المنتشرة بين الشباب الذين كانوا يأملون في مسح جيبرمو فالنسيا من على الخريطة. كان الشاعر خوسيه روخـــاس، وَرِيـــث لارث، قد ساعد على نشرها باسمه، ونشر بعض المقاطع

الأصلية التي أيقظت اهتماماً كبيراً بين جيله وأدت إلى توحيد الشعراء الجيدين المعروفين وقتها.

كان تغييراً عميقاً في العلاقات الداخلية، وتم تغيير الصورة الطيفية للمدير السابق بحضور يحافظ على المسافة الواجبة، ولكنه كان دائماً في متناول اليد، قــام بإلغــاء التفتــيش الروتيني على النظافة الشخصية وقواعد أخرى، وكان يتحاور أحياناً مع التلاميذ أثناء راحات الليل.

وضــعني النظام الجديد على طريقي، ربما حدَّثَ كالدرون المدير الجديد عنـــي، ففـــي أولـــى ليالـــيه قام بمعرفة رأيي في علاقاتي مع الشعر الجديد، فأخرجت له كل ما كنت أحمله داخلي، فسألني إن كنت قرأت "التجربة الأدبية" كــتاب حدثــنا عنه ألفونسو رييس، فاعترفت له بأنني لم أقرأه، فأتاني به في الــيوم التالـــي، التهمت نصفه تحت الطاولة خلال الدروس المتوالية، والباقي خلال الفسحة بملعب كرة القدم، وفرحتُ أن يقوم دارس له شهرته في دراسة الشــعر الحديــث، ينشــغل بدراسة أغاني أجوستين لارا كما لو كانت قصائد شــعرية، متعللاً بجملة عبقرية: "أن الأغنيات الشعبية لأجوستين لارا، ليست أغانٍ شعبية"، كان هذا بالنسبة لي كالحصول على الشعر مُذاباً في شربة الحياة اليومية.

تخلـــى مارتين عن شقة المدير الجميلة، ووضع مكتبه مفتوح الأبواب في الفــناء الداخلـــي، وهذا قَرَبَّه أكثر من سهراتنا الليلية بعد العشاء، وأقام فترة طويلـــة مـــع زوجته وأبنائه في بيت كولونيالي محافظ عليه في إحدى زوايا الميدان، وأحد جدرانه مغطى بكل الكتب التي يمكن أن يحلم بها قارئ متذوق للمجددين في تلك السنوات. كان يزوره هناك أصدقاءه القادمين من بوجوتا في نهاية الأسبوع، وبشكل خاص الرفاق في جماعة "حجر وسماء"، وفي يوم أحد غير محدد ذهبت إلى بيته للقيام بمأمورية غير محددة مع جييرمو لوبث جيرا،

فكـــان هـــناك إدورادو كارانـــثا وخورخي روخاس، النجمان الكبيران. دعانا المدير إلى الجلوس بإشارة سريعة حتى لا يقطع الحديث، وظللنا هناك حوالي نصــــف ســــاعة دون أن نفهـــم شيئاً، لأنهم كانوا يتحاورون حول كتاب "بول فالـــيري"، الذي لم نسمع أحداً يتحدث عنه من قبل. كنت شاهدت كارانثا أكثر مـــن مرة في مكتبات ومقاهي بوجوتا، وكان يمكنني أن أُميزّه عن غيره فقط برنة صوته ونعومته، التي تتوافق مع ملابسه وطريقته في الحياة: شاعر. أما خورخـــي روخـــاس، فعلى العكس ما كان لي أن أتعرَّف عليه بسبب ملابسه وطريقـــته الرسمية، إلى أن توجه إليه كارانثا باسمه مجرداً، وأنا كنت متشوقاً لأكـــون شاهداً على حوار حول الشعر بين الثلاثة الكبار، لكنه لم يحدث، ففي نهاية الموضوع، وضع المدير يده على كتفي، وقال لضيوفه:

– هذا شاعر كبير.

قالهـــا كـــنوع من التأدب، بالطبع، لكنني شعرت بنفسي صريعاً، وأصر كارلوس مارتين أن يُصوِّرنا مع الشاعرين الكبيرين، لكنني لم أعد إلى سماع أخـــبار الصـــورة حتى نصف قرن بعد ذلك، في بيته على الشاطئ القطالوني بإسبانيا، حيث انسحب ليستمتع بحياة الشيخوخة الجميلة.

أصاب الليسيه هواء مجدد، فالراديو، الذي كنا نستخدمه فقط للرقص رَجُلاً لـــرجل، تحـــوَّل مـــع كارلوس مارتين إلى أداة نشر اجتماعية، وتمت مناقشة الأخـــبار الليلية لأول مرة خلال ساعات الفسحة، وزاد النشاط الثقافي بإنشاء مركز أدبي وإصدار جريدة. عندما وضعنا قائمة بأسماء الموهوبين المعروفين بمـــيولهم الأدبـــية الواضحة، كان العدد اسماً للجماعة :"مركز الثلاثة عشر". نعـــترف أنهـــا كانت ضربة حظ، لأنه كان تحدياً للخرافة، كانت المبادأة من جانـــب الطلاب أنفسهم، وكانت تتحدد في أن نجتمع مرة في الأسبوع لنتحدث عـــن الأدب فـــي الواقـــع ولم نكن نفعل شيئاً آخر خلال أوقات فراغنا، داخل

وخـــارج الليســـيه، كـــل منا يقوم بواجبه، يقرأ كتاباً أو يعرضه للنقاش أمام الجمـــيع، مندهشاً بهذا المثال، كنتُ أُشارك بكتابة سوناتات كنت أُوقِّعها باسم مســـتعار "خوســـيه جارثيه"، الذي لم أكن أستخدمه في الواقع لأُعرف به بل لأتستر خلفه، كانت عبارة عن تدريبات تقنية مبسطة بلا استلهام ولا تطلع، ولم أكن أعرف أنها قيمة شعرية لأنها لم تكن تخرج من الروح، كنت بدأت بتقليد كيبيدو ولوبي دي بيجا، وأيضاً جارثيا لوركا، الذي كانت (ثُمانياته) عفوية جداً التـــي يكفـــي اتباعها بالقصور الذاتي. ذهبت بعيداً في حُمى التقليد تلك، إلى درجة أنني قررت أن أسخر من كل واحدة من سوناتات جارثيلاثو دي لا بيجا الأربعيـــن. كتبـــت أيضاً ما كان يطلبه مني زملاء المدرسة الداخلية ليقدموه للصديقات على أنه من تأليفهم، واحدة منهن، في سرية تامة، قرأت لي مفعمة، الأبيات التي كتبها لها خطيبها وقدَّمها لها على أنها من تأليفه.

منحـــنا كـــارلوس مارتيـــن مخزناً صغيراً في الفناء الثاني لليسيه بنوافذ محكمـــة الإغـــلاق بســـبب الأمـــن، كـــنا خمسة أعضاء نضع جداول مهام الاجـــتماعات التالية، لم يكمل أي منهم طريقه ككاتب لأن الأمر لم يكن يتعلق بهـــذا بل بمعرفة إمكانيات كل واحد، كان نناقش أعمال الآخرين، وكنا نصل إلـــى حد الخلافات الحادة كما لو كانت مباريات كرة قدم. وفي يوم من الأيام خـــرج ريكاردو جونثالث ريبول خلال الحوار، ففاجأ المدير وأذنه على الباب يتســـمع إلى نقاشاتنا، اهتمامه كان مشروعاً لأنه لم يكن محتملاً أن نخصص ساعات فراغنا للأدب.

مـــع نهايـــات مارس وصل نبأ أن المدير القديم السيد أليخاندرو راموس، أطلـــق رصاصة على رأسه في الغابات الوطنية في بوجوتا، لم يقتنع أحد أن الســـبب يرجع إلى شخصية الانعزالية وربما الاكتئابية، ولم نفهم سبباً معقولاً لإقدامـــه على الانتحار خلف تمثال الجنرال رفائيل أوريبي أوريبي، المحارب

في أربع حروب أهلية والسياسي الليبرالي الذي أُغتيل بضربة فأس على أيدي بعض المتعصبين. حضر الجنازة وفد من الليسيه برئاسة المدير الجديد، وظل الحدث في ذاكرة الجميع كوداع لزمن مضى.

كان الاهتمام بالسياسة الوطنية قليلاً في القسم الداخلي، كنت أسمع في بيت جـدي أن الفـارق الوحـيد بين الحزبين، بعد حرب الألف يوم، كان في أن الليبراليين كـانوا يذهـبون إلـى القـداس في الخامسة حتى لا يراهم أحد، والمحافظون يذهبون إلى قُدَّاس الثامنة ليعتقد الناس أنهم مؤمنون، مع ذلك فإن الفـوارق الحقيقـية بدأ الشعور بها مجددا بعد ثلاثين عاماً من الحرب، عندما خسـر المحافظون السلطة وحاول أول الرؤساء الليبراليين فتح أبواب الوطن علـى رياح التغيير العالمية الجديدة. الحزب المحافظ، المهزوم بفقدانه السلطة المطلقـة، بـدأ يُجري عملية تنظيف داخل صفوفه تحت شعارات موسوليني البعـيد فـي إيطاليا وضباب الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما حاولت الإدارة الليبرالية الأولى بقيادة الرئيس ألفونسو لوبث بوماريخو، المكوَّنة من مجموعة مـن الشباب المثقف، تهيئة الظروف المناسبة لليبرالية حديثة، وربما دون أن ينتـبه إلى أنه كان يكمل الخطأ التاريخي في فصمنا إلى نصفين؛ المنقسم إليه العالم، كان محتما، في بعض الكتب التي أعارنا إياها المعلمون، عرفتُ مقولة منسـوبة إلـى لينيـن: "إذا لم تدخل السياسة، فإن السياسة سرعان ما تتدخل ضدك".

إلا أنه بعد ست وأربعين سنة من السيطرة الكهفية لرؤساء محافظين، كان السـلام يبدو ممكناً، ثلاثة رؤساء شباب وعقلية حديثة فتحت آفاق الليبرالية، فبدأت تقشع ضباب الماضي. فقد كان ألفونسو لوبث بوماريخو، الأكثر بروزاً بيـنهم، مصـلحاً مغامراً، ونجح في إعادة الانتخاب عام ١٩٤٢ لفترة رئاسية ثانية، ولم يكن يبدو أن هناك ما يمكن أن يُعكِّر صفو التغيير، لذلك فإنه خلال

ســنتي الأولــى في الليسيه كنت سكران بأنباء الحرب الأوروبية، التي كانت تقلقنا أكثر من السياسة الوطنية، لم تكن الصحافة تدخل الليسيه إلا في حالات خاصة جداً، ليس لأننا لم نكن معتادين على التفكير فيها، ولم تكن هناك أجهزة راديــو نقالة، والراديو الوحيد في الليسيه كان في صالة المعلمين الذين يفتحوه فــي الســابعة ليلاً بكل طاقته فقط للرقص، ولم نكن نفكر في ذلك الوقت أنه كانت تتكون جذور الحرب الأكثر دموية من كل الحروب.

دخلــت السياســة إلــى الليســيه فجأة، فانقسمنا إلى مجموعتين ليبرالية ومحافظــة، ولأول مــرة عرفنا في أي جانب كان كل منا. بدأ انتماء داخلي، ودي، وكــان في بدايته أكاديمياً، ثم بدأ يتدهور مع تدهور الحالة في البلاد، لم تكــن الخلافات الشخصية في الليسيه ظاهرة، ولكن لم يشك أحد في أن تأثير كارلوس مارتين على رأس المعلمين لم يخف انتماءه الأيديولوجي أبداً، وإذا لم يكن المدير الجديد منتمياً بوضوح، فعلى الأقل سمح بسماع الأخبار الليلية في راديــو الصــالة، وكانت الأخبار السياسية تتقدم منذ ذلك الوقت على موسيقى الرقص، يقولون دون تأكيد لتلك المقولة إنه كان يحتفظ في مكتبه بصورة لينين أو ماركس.

ربمــا كــان الإضــراب أحد النتائج المرة لذلك المناخ الشاذ في الليسيه، طارت الوسائد في غرفة النوم والأحذية احتلت محل القراءة والنوم، لم أتمكن من معرفة السبب، ولكني أعتقد – وكثير من الزملاء يتفقون معي– أن السبب كان في أحد فصول الكتاب المقرر قراءته بصوت مسموع في تلك الليلة: "غن بوضوح"، لمؤلف رومولو جاييجوس، كانت مشادة شاذة.

دخل كارلوس مارتين بعد استدعائه على عَجَل، إلى غرفة النوم، وقطعها عــدة مــرات مــن أقصاها إلى أقصاها، فَرَانَ الصمت الرهيب الذي فرضه حضــوره. بعدها، في حالة من التسلط، وهو أمر غريب على شخصية مثله،

أمـــرنا أن نغادر الغرفة بالبيجاما والخف، وأن نقف صفوفا في الفناء المثلج، وهـــناك عَنَّفَنا ووعدنا بنظام كامل، وأكملنا النوم، كانت الحادثة الوحيدة التي أتذكرها خلال سنوات الليسيه.

ماريو كونفريس، تلميذ وصل هذا العام ليدرس في الصف السادس، شغلنا بموضـــوع إصـــدار صحيفة مختلفة عن تلك التقليدية التي تصدرها المدارس الأخرى، كانت أول اتصالاته معي أنا، ووجدت أنه مقنع جداً إلى درجة أنني قبلـــت أن أكون مديراً للتحرير، كنت سعيداً ولكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن مهمتـــي، والاســـتعدادات النهائـــية لإصدار الصحيفة توافقت مع القبض على الرئـــيس لوبث بوماريخو عن طريق مجموعة من ضباط الجيش في ٨ يوليو ١٩٤٤، عندما كان في زيارة بجنوب البلاد، الحكاية التي قصها هو نفسه، لا رأس لها ولا ذَنَب، ربما لأنه فعلها دون إعداد جيد، قَدَّم للمحققين قصة جيدة، طـــبقاً لهذه القصة أنه لم يعرف بما حدث حتى تم إطلاق سراحه، كانت تبدو كمـــا لو كانت قصة واقعية، فظل الانقلاب مثله مثل الكثير من فصول التاريخ الوطني المثيرة للسخرية.

استطاع ألبيرتو بيرا كامارجو أن يحافظ على البلاد هادئة بصوته وقدرته علـــى الكلام الحاذق، فقد ظل يتحدث عدة ساعات ومن خلال الإذاعة الوطنية إلى أن تم تحرير الرئيس لوبث وإعادة النظام، لكن عادت حالة الطوارئ بقوة، وتـــم فـــرض الـــرقابة على الصحف، وكان المستقبل غير واضح، لقد حكم المحافظون البلاد من استقلالها عن إسبانيا عام ١٨٣٠، وحتى انتخاب "أولايا هـــيريرا" بعـــد قـــرن كـــامل، وظلـــوا دون أن يتمكنوا من تحرير الوطن، والليبراليون على العكس من ذلك، يميلون إلى الفكر المحافظ مع كل يوم يمر، فـــي بلـــد يترك كل يوم جزءاً منه في التاريخ، كانوا في تلك اللحظة يمتلكون طليعة تقدمية مشدوهة بمباهج السلطة، وأفضل مثال بينهم كان خورخي إليثير

جايتان، الذي كان أحد أبطال طفولتي برفضه المطلق للقمع في مناطق الموز، وهـو مـا كنت أسمعه دون أن أفهمه منذ أن وعيت. كانت جدتي معجبة به، ولكـنها كانت منزعجة من علاقته حينها بالشيوعيين، كنت أجلس خلفه عندما كـان يخطب من شرفة بميدان ثيباكيري، وأدهشني رأسه الذي كان على شكل شمامة، وعنقه الأملس وجلده الهندي الأصيل، وصوته الرعدي، ولهجته التي تدل على انتمائه إلى ضواحي بوجوتا، ربما كان متطرفاً في حساباته السياسية، لـم يـتحدث فـي خطابـه عـن الليبراليين والمحافظين، أو عن المستغِلين والمستَغلين، كما كان يفعل جميع السياسيين، بل عن الفقراء والإقطاعيين، تلك الكلمـة التي سمعتها أول مرة في ذلك الوقت والتي كانت تتردد في كل جملة، وبحثت عن معناها في القاموس.

كـان محامـياً حديـثاً وتلميذاً نجيباً في روما للمحامي الجنائي الإيطالي إنـريكو فيري. درس هناك فنون الخطابة عند موسوليني واستعار منه بعضاً من أدائه المسرحي على منصة الخطابة، أما منافسه جابرييل تورباي، فقد كان طبيـباً مـثقفاً وأنيقاً، يرتدي عوينات رقيقة من الذهب تمنحه شيئاً من ملامح الفنانين السينمائيين، ظهر في مؤتمر حديث للحزب الشيوعي، وألقى خطاباً لم يكن متوقعاً فاجأ الكثيرين وأقلق بعض رفاقه البرجوازيين، ولكنه اعتقد أنه لم يـتخل عن كلمة ولا عن عمل حزبه الليبرالي ولا عن تطلعاته الأرستقراطية، وعلاقـته بالدبلوماسـية الروسية تعود إلى عام ١٩٣٦، عندما أقام في روما علاقـات مع الاتحاد السوفييتي باعتباره سفيراً لكولومبيا. بعد سبع سنوات تم إعـلان تلـك العلاقـة رسمياً عندما كان في واشنطون كوزير كولومبيا لدى الولايات المتحدة.

وعلاقته مع السفارة السوفييتية في بوجوتا كانت جيدة، وكانت له صداقات مـع الكثير من زعماء الحزب الشيوعي يمكنهم أن يعقدوا اتفاقات انتخابية مع

الحـــزب الليبرالـــي، وهـــو ما تحدثوا عنه كثيراً خلال تلك الأيام، ولكنهم لم يـــتحدثوا مطلقاً على وجه التحديد، وأيضاً خلال تلك الفترة، عندما كان سفيراً في واشنطون جرت في كولومبيا شائعات تقول إنه كان العشيق السري لواحدة مـــن كبريات نجوم السينما في هوليوود، ربما كانت جان كروفورد أو باوليت جودارد، إلا أنه لم يتخل أبداً عن كونه الأعزب غير القابل للرشوة.

ما بين ناخبي جايتان وناخبي تورباي يمكن الحصول على أغلبية ليبرالية وفـــتح طرق جديدة داخل الحزب نفسه، ولكن أي من النصفين المنفصلين لا يمكنه أن يفوز على المحافظين المتحدين والمسلحين.

مجلتـــنا "جازيـــتا ليتراريا" ظهرت في تلك الأيام الرديئة، وعندما كانت مطبوعة بين أيدينا في ثماني صفحات بحجم التابلويد فاجأنا تقديمها الرسمي، فقـــد كانـــت مطـــبوعة بشـــكل جيد، كان كارلوس مارتين وكارلوس خوليو كالديـــرون الأكثر حماساً، وتحدث كلاهما خلال الفسحة عن بعض المقالات، من بينها، الأكثر أهمية الذي كتبه كارلوس مارتين الذي كتب المقال بناءً على طلبـــنا، والذي تحدث فيه عن حاجتنا إلى أن نعي أهمية النضال ضد محترفي الدعايـــة التجارية بشئون الدولة، والسياسيين المتسلقين ومثيري الشغب الذين يعـــرقلون مسيرة الوطن، نشرناه مع صورة كبيرة له بالصفحة الأولى، وكان هـــناك مقـــال لكونفـــريس عن العرق الهيسباني، ونثر غنائي لي موقعاً باسم خافيـــير جارثيس. أعلن لنا كونفريس أن هناك حماساً كبيراً بين أصدقائه في بوجوتا، وأن هناك إمكانية للحصول على تمويل لإصدارها كصحيفة إقليمية.

لـــم يصل أول عدد إلى التوزيع عندما وقع الانقلاب العسكري، ففي اليوم الذي تم فيه إعلان الطوارئ هجم عمدة ثيباكيري على الليسيه ومن خلفه فرقة مـــن الجنود المسلحين وصادر النسخ التي كنا أعددناها للتوزيع، كان هجوماً سينمائياً، لا يمكن تفسيره سوى بأن هناك من وشى بأن الصحيفة كانت تحتوي

على مواد ممنوعة، وجاءنا في اليوم نفسه إعلان من المكتب الصحفي برئاسة الجمهورية يشير إلى أن الصحيفة تم طبعها دون المرور على رقابة الطوارئ، وتم عزل كارلوس مارتين من الإدارة دون إعلان مسبق.

كـــان قراراً غريباً جعلنا نشعر بأننا مهانون وفي الوقت نفسه مهمون، لم يكـــن عـــدد النسخ المطبوعة من الصحيفة يتعدى مائتي نسخة لتوزيعها بين الأصـــدقاء، لكنهم أكدوا لنا أن الرقابة المسبقة إجراء لا يمكن تفاديه في حالة الطوارئ، وتم إلغاء تصريح النشر إلى حين أوامر أخرى لم تصل أبداً.

مـــر أكـــثر من خمسين سنة قبل أن يكشف كارلوس مارتين أسرار ذلك الحـــدث العبثي لهذه المذكرات، ففي اليوم الذي تمت فيه مصادرة "لا جازيتا" استدعاه وزير التربية نفسه الذي عينه – أنطونيو روتشا– إلى مقابلة في مكتبه فـــي بوجوتـــا، وطلب منه تقديم استقالته، ووجد كارلوس على مكتب الوزير نســـخة مـــن "لا جازيـــتا ليترا ريا" وخطوط بقلم أحمر تحت العديد من الجمل المحظـــورة، وفعـــل الأمـــر نفسه مع مقال الافتتاحية ومقال ماريو كونفريس وأيضـــاً في قصائد لشاعر معروف مشتبه في أنها مكتوبة بشفرة معينة، وقال لهـــم كارلوس مارتين: "حتى الإنجيل مخطط بهذا الشكل المتطرف يمكنه أن يُعَـــبِّر عـــن عكـــس معـــناه الحقيقي"، فكانت ردة فعل الوزير غاضبة وهدده باستدعاء البوليس. وتم تعيينه رئيساً لتحرير مجلة "السبت"، بالنسبة لمثقف مثله كـــان يمكنه اعتبار هذا المنصب ترقية مهمة، إلا أن إحساساً بأنه كان ضحية لحيلة يمينية ظل يلازمه إلى الأبد، وتم الاعتداء عليه في مقهى في بوجوتا كاد أن ينتهـــي بطلقـــة رصـــاص، لكـــن وزيراً جديداً عينه بعد ذلك رئيساً للقسم القانوني، وقام بأعمال لامعة انتهت بالتقاعد مُحاطاً بالكتب والذكريات في مياه تارجونا الهادئة.

في نفس وقت استقالة كارلوس مارتين – ودون علاقة به بالطبع– جرت

فـــي الليسيه والبيوت وكناتين المدينة حكاية لا مصدر لها تقول إن الحرب مع البيرو عام ١٩٣٢ كانت بترتيب مع الحكومة الليبرالية لتبقى بالقوة في مواجهة المعارضـــة المحافظة، هذه الحكاية، تم نشرها حتى في أوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة، وتؤكد أن المأساة بدأت دون هدف سياسي عندما قام أحد الضباط البيروانيين بعبور نهر الأمازون على رأس دورية عسكرية واختطف العشيقة الســرية لكولومبـــي مـــن قرية على الشاطئ الكولومبي اسمها "ليتيثيا"، كانت العشـــيقة خلاســـية مزعجة كانوا يسمونها "لا بيلا"، اسم الدلع لبيلار وعندما اكتشـــف الكولومبي عملية الاختطاف، عبر الحدود برفقة مجموعة من العمال المســلحين واســتعاد "لا بــيلا" من الأراضي البيروانية، لكن الجنرال لويس سانشيث ثيرو، دكتاتور البيرو المطلق، انتهز فرصة المناوشة لغزو كولومبيا في محاولة لتغيير شكل الحدود الأمازونية لصالح بلاده.

أعلن أولايو هيريرا حالة الحرب – تحت ضغط الحزب المحافظ المهزوم بعــد قــرن من وجوده في الحكم المطلق– وأمر بالتعبئة الوطنية، وزرع في الجــيش رجالـــه المقربين، وأرسل قوات لتحرير الأراضي التي اعتدى عليها البيروانـــيون. وخيمـــت على البلاد صرخة الحرب وأشعلت الثقة في أنفسنا: "عاشت كولومبيا.. تسقط البيرو". وقيل عن الحرب إنهم حوّلوا طائرات شركة الـــنقل المدنية إلى طائرات عسكرية مسلحة كفرقة حربية، وإن إحداها كانت تنقصـــها القنابل، فألقت على قرية جيبي البيروانية ثمار جوز الهند وصواريخ ألعـــاب نارية من تلك التي كانوا يطلقونها خلال أعياد الأسبوع المقدس، إلى درجة أن الكاتب الكبير "خوان لوثانو" بطلب من الرئيس لكشف حقائق حرب الأكاذيـــب المتـــبادلة، كتب حقيقة الحادث بنثره العظيم، ولكن الحكاية الكاذبة ظلت الحكاية متداولة لسنوات طويلة.

وجد الجنرال لويس ميجيل سانشيث ثيرو في الحرب فرصة إلهية، لتدعيم

حكمـــه القـــائم علــــى الحديد والنار، ومن جانبه نصب الرئيس أولايو هيريرا الرئـــيس المحـــافظ السابق ميجيل أباديا قائداً عاماً للقوات المسلحة الكولومبية الذي كان يوجد في هذه اللحظة في باريس، وعبر الجنرال المحيط الأطلنطي فـــي ســـفينة مدفعية ودخل عبر ممرات نهر الأمازون إلى أن وصل ليتيثيا، عندما كان الدبلوماسيون من الجانبين يناقشون كيفية إطفاء نار الحرب.

ودون أدنــــى علاقـــة بيـــن ما حدث في باستو ولا بما حدث في صحيفة الليســـيه تـــم عـــزل كارلوس مارتين من إدارة المدرسة، وحل محله أوسكار اســـبيتيا براند، معلم تربوي وفيزيائي شهير، أيقظ هذا في الداخلية كل أنواع التحلـــيلات. موقفـــي المعادي له جعلني اتخذ موقفاً منه منذ أول تحية، ركَّزَ بصـــره علـــى شَعري البوهيمي وشاربي الجبلي، كان ذو مظهر صعب وكان يـــنظر فـــي العيون بشكل مباشر بتعبير حاد، أصابني بالرعب نبأ أنه سيكون معلمنا في مادة الكيمياء الحيوية.

كـــنا في منتصف البرنامج المسائي بالسينما في يوم سبت من تلك السنة، عندما أعلن صوت مزعج من خلال مكبرات الصوت أن هناك تلميذاً ميتاً في الليســـيه، كـــان النـــبأ مريعاً إلى درجة أنني لم أستطع تذكر الفيلم الذي كان نشـــاهده، لكنـــي لا أستطيع أن أنسى تركيز كوديت كولبرت وهي على وشك إلقـــاء نفســـها إلـــى النهر من على حاجز أحد الجسور. كان الميت تلميذاً من الصـــف الثاني، يبلغ السابعة عشرة، حديث الوصول من مدينة باستو البعيدة، بالقـــرب مـــن الحدود مع الاكوادور، اصيب بضيق في التنفس خلال مسابقة جري نظمها معلم الألعاب في نهاية الأسبوع كعقاب لتلاميذه المتخلفين، كانت الحالـــة الوحيدة لتلميذ ميت لأي سبب من الأسباب خلال فترة وجودي، ونتج عنه حالة من الحزن ليس في الليسيه وده بل في المدينة كلها، اختارني زملائي لكـــي ألقـــي كلمة الوداع خلال الجنازة، طلبت في تلك الليلة نفسها مقابلة مع

المديــر الجديــد لأعرض عليه صلاتي الجنائزية، أصابني دخولي إلى مكتبه بالحالـــة نفســها التـــي أصبت بها خلال زيارتي الوحيدة للمدير الراحل، قرأ الأســتاذ اســبيتيا ما كتبته بتعبير مأساوي، ووافق عليه دون أي تعليق، ولكن عــندما وقفــت لكي أخرج أشار لي بالعودة إلى الجلوس، كان قد قرأ بعض كتاباتي واشعاري، من تلك الكثيرة التي كان يتم توزيعها خلال الفسحة، ورأى أن بعضها تستحق النشر في أحد الملاحق الأدبية، ما كدت أحاول التغلب على خجلـــي الـــذي لا يرحم، عندما عبر هو عن هدفه الخاص، نصحني أن أقص شـــعري البوهيمـــي، غـــير اللائق برجل جاد، وان أشذب الشارب وان اترك اســـتخدام القمصان المرسومة بالطيور والزهور التي تبدو كالكرنفال، لم اكن انـــتظر شـــيئا من هذا، ولحسن الحظ أنني تمالكت أعصابي حتى لا أرد على وقاحـــته، انتبه هو إلى ذلك، فاتخذ صوته جرسا لفظيا دينيا ليشرح تخوفه من أن تنتشـــر عاداتـــي بين الزملاء الصغار بسبب شهرتي كشاعر، خرجت من المكتـــب مـــبهورا بالاعتراف بعاداتي وموهبتي الشعرية من واحد له مكانته، وكنت على استعداد أن أُلبي طلب المدير بتغيير شكلي في اللقاء المهيب.

إلـــى درجة أنني فسَّرت طلب الأسرة إلغاء التأبين على أنه فشل شخصي لي.

كانـــت النهاية قاتمة، اكتشف أحدهم أن زجاج التابوت كان مُضبباً عندما كـــان معروضـــا في قاعة مكتبة الليسيه، فتحه ألفارو توريس بناء على طلب الأســـرة وتيقن من أنه كان بالفعل مُبللاً من الداخل، وتم البحث في أسباب بلل تـــابوت مغلق بإحكام، ضغط بأطراف أصابعه على صدر الميت، فصدر عن الجـــثة صـــوت مرعب، أرعبتنا الأسرة بفكرة أنه كان حياً، إلى أن شرح لهم الطبيـــب مُبيـــناً لهم أن الرئتين كانتا مليئتين بالهواء بسبب الاختناق وطردت الهـــواء بالضغط على الصدر. على الرغم من بساطة التشخيص، وربما كان

بسبب هذا، بقي التخوف لدى البعض من أنه تم دفنه حياً، في هذه الحالة ذهبت لقضاء إجازة الصف الرابع، متشوقاً إلى التأثير على أبوي حتى لا أستمر في الدراسة.

وصلت إلى سوكري تحت سحابة من المطر الخفيف الشفاف، اعتقدت أن أرصفة الميناء كانت مختلفة عن تلك التي احتفظ بها في ذاكرتي، كان الميدان أصــغر حجماً وعارياً. الكنيسة والميدان مضاءان بضوء مختلف تحت ظلال أشجار اللوز، والزينات تعلن عن أعياد الميلاد، ولكنها هذه المرة لم توقظ فيّ مـــا أيقظـــته فـــي ســـنوات ســـابقة، ولم أتعرف على أي من الرجال القلائل المنتظريـــن بمظلاتهـــم علـــى الرصـــيف، إلى أن قال لي أحدهم عندما مر بجواري، وبلهجة ونغمة لا تخطئها الأذن:

– كيف الحال!.

لقـــد كان أبي، كان واضحاً عليه النحول، لم يكن يرتدي ملابسه البيضاء التـــي تُمـــيِّزه مـــن بعيد منذ سنوات مراهقته، بل كان يرتدي بنطلوناً منزلياً، وقميصـــاً استوائياً نصف كم، وقبعة غريبة تشبه قبعات رؤساء العمل، برفقته شـــقيقي الصـــغير جوستافو، الذي لم أتعرف عليه بعد الطول الذي طرأ على سنواته الثمانية.

لحســـن الحـــظ، كانـــت العائلة لا تزال تحافظ على بقايا فقرها، والعشاء المبكر، كما لو كانت إعلاناً لتنبيهي إلى أن هذا البيت بيتي، النبأ الطيب خلال الجلـــوس إلى المائدة كان فوز أختي ليخيا بجائزة اليانصيب، والحكاية – كما قصـــتها هـــي نفسها– بدأت عندما حلمت أمنا أن أباها أطلق النار في الهواء لإبعـــاد لـــص فاجـــأه يسرق في بيت آراكاتاكا القديم. قصت أمي الحلم خلال الإفطـــار، وتطبـــيقاً لعـــادة عائلية، أوعزوا بشراء رقم يكون على نفس شكل مســـدس الجـــد، وأخفـــق حظهم بسبب رقم اشترته أمي بقرض يتم دفعه من

الجائـــزة نفسها، ولكن ليخيا، كانت وقتها في الحادية عشر من عمرها، طلبت مـــن أبـــي ثلاثين سنتيماً لدفع ثمن الرقم الخاسر، وثلاثين أخرى لشراء رقم غريب: (٠٢٠٧).

خـــبأ شقيقنا لويس إنريكي الرقم ليخيف ليخيا، ولكن خوفه كان أكبر يوم الاثنيـــن التالـــي، عـــندما ســـمعها تدخل البيت صارخة كمجنونة بأنها فازت باليانصيب، لأنه خلال عجلة ارتكابه اللعبة المسلية نسي المكان الذي خبأ فيه الرقم، وخلال البحث عنه أفرغوا الصناديق والدواليب وقلبوا البيت رأساً على عقب حتى المراحيض، إلا أن الأكثر إقلاقاً كانت قيمة الجائزة: ٧٧٠ بيزو.

النبأ الآخر أن أبوي أكملا أخيراً حلمهما بإرسال شقيقي لويس انريكي إلى إصلاحية "فوينتدونيا" في ميديين، معتقدين أنه مدرسة للأبناء العاقين، وأنه لم يكن كما كان في الحقيقة: سجناً لإعادة تأهيل المجرمين المراهقين الخطرين.

اتخـــذ أبي قراره الأخير بعد ما أرسل ابنه لتحصيل دين للصيدلية، وبدلاً مـــن تسليم الثمانية بيزوات التي دفعوها له اشترى آلة موسيقية وتعلَّم العزف علـــيها كأفضـــل ما يكون، لم يقل أبي شيئاً عندما اكتشف الآلة الموسيقية في البيت، وظل يطالب ابنه بتحصيل الدين، لكن هذا كان يجيب دائماً بأن صاحبة الـــبقالة لا تملـــك المـــال لتدفع دينها، مرت عدة أشهر قبل أن يكتشف لويس إنريكـــي أبي وهو يغني أغنية مرتجلة بمصاحبة الآلة الموسيقية: "انظر إليّ، أعزف على هذه الآلة التي تكلفت ثمان بيزوات".

لـــم نعـــرف أبداً كيف اكتشف أصل الحكاية، ولا لماذا تغافل عن شيطنة ابـــنه، ولكـــن لويس إنريكي اختفى من البيت إلى أن طالبت أمي أبي بعودته، وقـــتها سمعنا أول تهديدات أبي بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية ميديين، لكـــن لم يهتم أحد بتلك التهديدات، فقد كان أعلن من قبل أنه سيرسلني لدراسة الفقه الديني في أوكانيا، ليس لعقابي ولكن ليكون له شرف وجود رجل دين في

بيـــته، ولم يمر وقت طويل قبل أن ينسى وعده، إلا أن الآلة الموسيقية كانت القطرة التي طفح بها الكأس.

دخـــول الإصلاحية لم يكن ممكناً إلا إذا كان بقرار من قاضي الأحداث، لكـــن أبـــي تغلب على هذا من خلال أصدقاء مشتركين، وبخطاب توصية من أرشيدوق ميديين، مونسينيور جارثيا بينيتيث، أما لويس إنريكي من ناحية فقد أثبت طاعته بقبوله دخول الإصلاحية كما لو كانت حقلاً.

لـــم تكـــن الإجازات بدونه عادية، فقد كان يتطابق مع فيلاديلفو فيليا، أهم عـــازف، بحرفـــية مطلقـــة، وبالطبع مع المايسترو فالديس. عندما كنا نغادر مـــراقص الأثـــرياء كانت تهاجمنا في ظلام الحديقة فتيات الليل الهواة من كل نـــوع، كانت هناك فتاة تسير بالقرب منا ولكنها لم تكن منهن، عرضتُ عليها خطـــأ أن تصحبني، فأجابتني إجابة منطقية بأنها لا تستطيع، لأن زوجها نائم في البيت، إلا أنه بعد ليلتين أخبرتني أنها ستترك باب الشارع بلا ترباس من الداخل، ثلاث مرات في الأسبوع، حتى يمكنني أن أدخل دون أن أطرق الباب عندما لا يكون الزوج هناك.

أتذكـــر اسمها ولقبها، ولكني أفضل تسميتها: نجرومانتا. في أعياد الميلاد كانـــت على وشك إكمال العشرين، كان لها وجه حبشي وجلد كاكاو، سريرها ضـــاحك وتجاوبها الجنسي مرعب، ومكدر. شعورها بالحب لم يكن بشرياً بل يشبه إحساساً بنهر جارف، جننا في السرير منذ اللحظة الأولى، زوجها – مثل خوان بيريبا– كان له جسد عملاق وصوت طفلة، كان موظفاً في الأمن العام بجـــنوب الـــبلاد، وكانـــت تطارده شهرته بأنه كان يقتل الليبراليين كنوع من التدريب على إطلاق النار. كانا يعيشان في غرفة مقسمة بحاجز من الكرتون، وبوابـــة تطـــل على الشارع، وأخرى تطل على المقابر، كان الجيران يشكون غـــنجها المزعج لهدوء الموتى، فقد كانت تعوي ككلبة سعيدة، ولكن كلما زاد

عواءها كان الموتى أكثر سعادة لقلقهم بسببها.

هربتُ من الغرفة في الأسبوع الأول في الرابعة فجراً، لأننا أخطأنا التاريخ وكان الجاويش في طريقه إلى البيت في أي لحظة، خرجت من باب المقابر بين النيران الهائجة في جسدي وعواء الكلاب الليلية، وخلال إجازة العام الثانية شاهدت شبحاً ضخماً لم أتعرف عليه حتى التقيت به، لقد كان الجاويش شخصياً، كان يمكنه أن يعثر عليّ في بيته لو أننا تأخرنا خمس فقط.

قال لي بنغمة ودودة:

- صباح الخير أيها الأبيض.

أجبته أنا بلا اقتناع:

- ليحفظك الله أيها الجاويش.

توقف عند تلك اللحظة ليطلب مني كبريتاً، أعطيته الكبريت واقتربت منه جداً لحماية العود من رياح الفجر، وعندما ابتعد بالسيجارة مشتعلة، قال لي بموهبة جيدة:

- تفوح منك رائحة عاهرة لا تقدر عليها.

استمر الخوف أقل مما كنت أنتظر، وفي الأربعاء التالي بقيت نائماً، وعندما فتحت عيني، وجدت نفسي في مواجهة غريمي يتأملني في صمت من عند أقدام السرير. كان رعبي كبيراً إلى حد فقدت القدرة على التنفس، كانت هي أيضاً عارية، حاولت أن تقف بيني وبينه، لكن الزوج أبعدها بمقدمة المسدس، وقال لها:

- لا تتدخلي، قضايا السرير يتم إصلاحها بالرصاص.

وضع المسدس على المائدة، وفتح زجاجة روم، ووضعها إلى جوار المسدس، وجلسنا كل منا في مواجهة الآخر نشرب في صمت، ما كان يمكنني

تخـيل مـا يمكنه فعله، لكنني فكَّرت أنه لو كان يريد قتلي لفعل دون لف أو دوران، بعدهـا بقليل ظهرت "تجرامانتا" ملتفة في شرشف وقلنسوة كرنفالية، فوجه إليها المسدس.

وقال لها:

– هذا صراع رجال.

قفزت هي واختبأت خلف الساتر.

كنا أنهينا الزجاجة الأولى عندما انهمرت الأمطار، ففتح الزجاجة الثانية، وضع فوهة المسدس على دماغه ونظر في عيني بثبات بعينين باردتين، ضغط علـى الزناد إلى آخره، فانطلق الزناد في جفاء، لم يكد يسيطر على رعدة يده حتى قَدَّمَ لي المسدس، وقال لي:

– دورك.

كانـت المرة الأولى التي أمسك فيها بمسدس في يدي، وفاجأني أن يكون ثقـيلاً وساخناً إلى هذا الحد، لم أعرف ماذا أفعل، كنت غارقاً في عرق لزج وبطني كإسفنج يغلي، أردت أن أقول شيئاً لكن صوتي لم يخرج، لم أفكر في إطلاق النار عليه، بل أعدت إليه المسدس دون أن أنتبه إلى أنها كانت فرصتي الوحيدة، سألني باحتقار مرح:

– مـاذا؟، بلت على نفسك؟، كان عليك أن تفكر في هذا قبل أن تأتي إلى هنا.

أردت أن أقـول له أيضاً عن الكثيرين الذين يبولون على أنفسهم، لكنني انتبهـت إلـى أنه تنقصني الشجاعة لمثل هذا المزاح الثقيل، عندها فتح خزنة المسـدس، أخرج الطلقة الوحيدة وألقى بها على المائدة: كانت فارغة، لم يكن شعوري بالفرح بل بالذل القاتل.

خَفَّـتْ حـدة المطـر قبيل الساعة الرابعة. كان كلانا خائر القوى تحت الضـغط العصبي، ولم أذكر متى أمرني أن أرتدي ملابس، أطعته بشيء من الرهـبة، فقط عندما عدت إلى الجلوس من جديد انتبهت إلى أنه هو الذي كان يبكـي، بدموع غيرة وبلا توقف، مسح دموعه في النهاية بظهر يده، نفخ في أنفه بإصبعية ووقف، وسألني:

– هل تعرف لماذا ستذهب من هنا بحياتك؟

ثم أجاب على نفسه:

–لأن أبـاك كـان الوحيد الذي تمكن من علاجي من سيلان كلب عجوز وهو ما لم ينجح فيه أحد طوال ثلاث سنوات.

ربـت علـى ظهري برجولة ودفع بي إلى الشارع، كان المطر لا يزال يسـقط، وكانت القرية غارقة، إلى درجة أنني كنت أسير والماء حتى ركبتي، وبفرحة البقاء على قيد الحياة.

لم أعرف كيف عرفت أمي بالحدث، لكنها قادت في الأيام التالية مظاهرة حتى لا أخرج من البيت ليلاً، وفي الوقت نفسه كانت تعاملني كما تعامل أبي، بأعمـال مسـلية لـم تصلح لشئ، كانت تبحث عن ما يدل على أنني خلعت ملابسي خارج البيت، كانت تكتشف آثار عطور حيث لا توجد، كانت تعد لنا أطعمة قوية استجابة للمقولات الشعبية التي تقول إن الأبناء والزوج لا يمكنهم ممارسـة الحـب خلال فترة هضم الغذاء، وأخيراً، وفي ليلة لم يكن لديها ما تفعله لتجبرني على البقاء، جلست أمامي وقالت لي:

– يقولـون إنك تعشق زوجة رجل بوليس وأنه أقسم أن يقتلك برصاصة واحدة.

تمكنـت مـن إقـناعها بعدم صحة ذلك، لكن الإشاعات استمرت، كانت

"نجرامانتا" ترسل لي علامات على أنها توجد وحدها، وأن رجلها موجود في مهـــام رسمية، وأنها لم تعد تعرف مكانه منذ زمن. بذلت ما استطعت حتى لا ألتقـــي به، ولكنه كان يسبقني بتحيتي من بعيد بإشارة من يده يمكنها أن تكون إشـــارة على المصالحة أكثر منها إشارة على التهديد، شاهدته آخر مرة خلال إجـــازة العام التالي، وفي ليلة صاخبة قدَّم لي كأساً من الروم الصافي لم أملك القدرة على رفضه.

لا أعـــرف أي نـــوع من فنون النبوءة جعل المعلمين والزملاء يُغَيِّرون نظـــرتهم لـــي. بعد أن كنت بالنسبة لهم تلميذاً مهملاً، بدأوا ينظرون إليّ منذ الصـــف الخـــامس كشـــاعر ملعون وريث المناخ المتحرر الذي شهدته فترة كـــارلوس مارتيـــن، ألا يكون ذلك بسبب أنني كنت أبدو مُمثلاً لذلك، بعد أن بـــدأت أدخن في الليسيه عند بلوغي الخامسة عشرة؟، كانت أول مرة مزعجة جـــداً، قضـــيت منتصف الليل أنازع بين القيء على أرضية الحمَّام، وأشرق الصـــباح عليّ وأنا في انهيار تام، ولكن في صباح اليوم التالي للتدخين، بدلاً مـــن أن يبعدنـــي عنه أصابتني حالة من الرغبة في مواصلة التدخين، وهكذا بدأت حياة التدخين القاسية، إلى درجة أنني لا أستطيع التفكير في جملة واحدة ما لم يكن فمي مملوءاً بالدخان، كان التدخين في الليسيه مسموحاً به فقط خلال الفسحة، ولكني كنت أطلب إذناً للذهاب إلى دورة المياه مرتين أو ثلاث مرات فـــي كـــل درس، فقط لقتل إدماني، وهكذا وصلت إلى تدخين ثلاث علب من عشـــرين ســـيجارة لكل واحدة في اليوم، وقد أتعداها إلى الرابعة حسب حالة اللـــيلة، وفي بعض الفترات، بعد انتهاء الدراسة، كنت أعتقد أنني جننت بسبب جفـــاف حلقـــي والآلام فـــي عظامـــي، قررت ترك التدخين لكنني لم أستطع المقاومة أكثر من ثلاثة أيام.

لا أعرف إن كان هذا هو السبب في أن يدي جرت بشكل مغامر في كتابة

النـــثر خـــلال دروس الأستاذ كالدرون، ومع كتب النظرية الأدبية التي كنت مُجـــبراً على قراءتها. واليوم، عند إعادة التفكير في حياتي، أتذكر أن نظرتي إلـــى القصـــة كانـــت بدائية على الرغم من القراءات الكثيرة التي قرأتها منذ إعجابي بقصص "ألف ليلة وليلة"، إلى درجة أنني تجرأت على التفكير في أن العجائـــب التـــي كانـــت تقصها شهرزاد كانت تحدث حقيقة في الحياة اليومية لزمـــنها، وأنهـــا توقفت عن الحدوث بسبب جُبن واقعية الأجيال التالية؛ ولهذا السـبب اعتقدت أنه من المستحيل أن يكون في زمننا هذا من يمكنه أن يطير على المدن والجبال ممتطياً بساطاً، أو أن يعيش عبدٌ من كارتاخينا مائتي عام داخل زجاجة، إلا إذا كان مؤلف الحكاية قادر على إقناع قراءه بذلك.

كانـــت الدروس تصيبني بالضجر، عدا دروس الأدب – التي حفظتها عن ظهـــر قلب– وكنت بطلها الوحيد، ونظراً لضجري من استذكار الدروس فقد كنت أترك الأمر لحسن الحظ. كان عندي إحساس خاص بالنقاط الأكثر أهمية فـــي كـــل مادة، أتنبأ تقريباً بما يهم المعلمين حتى لا أستذكر بقية المادة، ففي الحقيقة لم أفهم لماذا كان علينا أن نُضَيِّع الوقت ونجهد العقل في مواد لا تهمنا أو لا تفيدنا في حياتنا بشيء.

تجـــرأت على التفكير بأن معظم المعلمين كانوا يمنحونني درجات النجاح بسبب طريقتي في الحياة وليس بسبب أدائي في الامتحانات، فقد كانت تنقذني إجاباتـــي غـــير المتوقعة، ونكاتي المعتوهة، واختراعاتي اللامعقولة، إلا أنه عندما أنهيت السنة الخامسة، بحالات رعب أكاديمية، لم أكن أشعر أنني قادر على تخطيها، عرفت إمكانياتي، فقد كانت البكالوريا طريقاً مليئاً بالمعجزات، ولكـــن قلبـــي حدثنـــي بأنه في نهاية الصف الخامس ينتظرني حائط لا يمكن تخطـــيه، والحقـــيقة بلا أدنى تزييف أنه كانت تنقصني الهمة، والنظام والمال والإمـــلاء، حتى أدخل الدراسة الأكاديمية، أي: كانت السنوات تجري ولم تكن

لـــدي أدنـــى فكرة عن ما سأفعله بحياتي، فقد كنت في حاجة إلى زمن طويل لأنتـــبه إلى أن هذه الحالة الانهزامية كانت حالة مَرضية، فليس هناك أي شئ من هذا العالم أو غيره لا يكون نافعاً للكاتب.

والوطـــن لم تكن حاله أفضل، تحت ضغط ردة الفعل الغاضبة للمعارضة المحافظـــة، ترك الرئيس ألفونسو لوبث بوماريخو رئاسة الجمهورية في ٣١ يولـــيو ١٩٤٥، وحـــل محله ألبرتو بيراس كامارجو، مُعيناً من قبل البرلمان لاســـتكمال العام الأخير من الفترة الرئاسية، ومنذ خطاب تسلم المنصب ولغته الأدبـــية العالية، بدأ بيراس مهمته في تهدئة أوضاع البلاد لإعدادها لانتخاب رئيس جديد.

عن طريق المونسنيور لوبث بيراس، ابن عم الرئيس الجديد، حصل مدير الليســـيه علـــى مقابلة لطلب دعم الحكومة لرحلة دراسية للشاطئ الأطلنطي، ولكننـــي لـــم أعرف لماذا اختارني المدير لمرافقته إلى تلك المقابلة بشرط أن أصلح من هندامي وشاربي الجبلي، المدعوون الآخرون كانوا: جبيرمو لوبث جيرا، المعروف من الرئيس، وألفارو رويث توريس ابن أخ لاورا فيكتوريا، شـــاعر مشـــهور ومعروف بجرأته في الأجيال الجديدة، التي كان ينتمي إليها أيضـــاً بيراس كاماراجو، لم يكن أمامي طريق آخر: خلال ليلة السبت، وأثناء قـــراءة جبيرمو جرانادوس رواية لم تكن لها علاقة بحالتي، قام حلاق مبتدئ من الصف الثالث بقص شعري وشذّب شاربي على طريقة التانجو، واحتملت لبقـــية الأسبوع سخرية الزملاء من الداخلية والخارجية، ومجرد فكرة دخولي إلى قصر الرئاسة كانت تجمد دمي، ولكنه كان خطأ قلبي، لأن العلامة الوحيدة علـــى الســـلطة التـــي وجدناها هناك كانت الصمت الإلهي، فبعد فترة انتظار قصـــيرة في مدخل مُزيَّن بالستائر المدلاة حتى الأرض، قادنا عسكري مهندم إلى مكتب الرئيس.

كـــان يـــيراس كامارجو لا يشبه صوره كثيراً، وأدهشتني خلفية ملابسه المثلـــثة المصـــنوعة بأحكام من الجبردين الإنجليزي، ووجنته خلال الكلام، وشحوب الورق وأسنانه الطفولية التي كانت إلهام رسامي الكاريكاتير، وبطء حـــركاته وطريقـــته في السلام بيده ناظراً في العينين بشكل مباشر، لا أتذكر الفكـــرة التـــي كانت في رأسي عن الرؤساء، ولكني لم أكن أعتقد أنهم جميعا يشـــبهونه، ومـــع مرور الزمن، عندما تعرفت عليه أكثر، انتبهت إلى أنه هو شخصياً لم يكن يعرف أنه لم يكن أكثر من كاتب ضل طريقه.

بعـــد أن اســـتمع إلـــى كلمات المدير بانتباه، بشكل مبالغ فيه، قال بعض التعلـــيقات المناسبة، لكنه لم يقرر قبل أن يستمع إلى التلاميذ الثلاثة، وكرمنا باســـتماعه بالاهتمام نفسه والاحترام الذي تعامل به مع المدير. خلال دقيقتين فهمنا أنه يعرف في الشعر أكثر من معرفته في السفر البحري، وكان واضحاً أن الشعر يهمه أكثر.

وافـــق علـــى كـــل مطالبنا، إضافة إلى أنه وعدنا بحضور حفل التخرج النهائي بالليسيه، بعد أربعة أشهر، وحضر بالفعل، فقد كان أكثر الحكام جدية، ولكـــنه ضـــحك كثـــيراً مع الكوميديا التي قدمناها على شرفه، وخلال الحفل النهائـــي شعرنا أنه مجرد تلميذ منا لا أكثر، وكانت صورته مختلفة عن تلك المعـــروفة عـــنه، ولم يتغلب على ممارسة أفعال صبيانية عندما مد ساقه في طريق الذي كان يوزع أكواب الشراب الذي لم يجد الوقت الكافي لتجنبها.

بعد الحالة التي كنت عليها على إثر حفل التخرج، ذهبت لقضاء إجازات العـــام الخامس مع الأسرة، أول خبر أخبروني به كانت عودة شقيقي السعيدة لويـــس إنريكي من الإصلاحية بعد عام وستة أشهر، فاجأني بفطرته السليمة، فلم يكن يشعر بأدنى ضغينة ضد أحد بسبب الحكم ضده، وكان يحكي مأساته بسخرية لاذعة، وخلال مراجعة النفس وصل إلى نتيجة مؤداها أن أبويه كانا

يبحـــثان عـــن صـــالحه، إلا أن الحمايـــة الكنسية له لم تنقذه من حياة السجن الصعبة، والتي أثرت تجربته وميله إلى المرح.

أول عمـــل قام به بعد عودته كان سكرتارية عمدة سوكري، بعدها بقليل أُصـــيب العمـــد بإلـــتهاب معـــوي ووصف له أحدهم وصفة سحرية حديثة: الكاليســـتار، تعاطـــاه العمدة دون أن يذيبه في الماء، بل ابتلع الحبة كاملة ولم يختـــنق بمعجـــزة وما تلا ذلك من الآلام في المعدة، وعلى إثرها وصفوا له الـــراحة الـــتامة لعدة أيام، لكنه رفض أن يحل محله أي من نوابه الشرعيين لأسباب سياسية، ومنح شقيقي كل التفويضات. بسبب هذه الحادثة الغريبة دخل لويس إنريكي – دون أن يكمل السن القانونية– تاريخ المقاطعة كأصغر عمدة للقرية.

أكثر ما كان يزعجني خلال تلك الإجازات أن الأسرة كانت تبني مستقبلها على ما تنتظره مني، وكنت أنا فقط من يعرف أنها أطغاث أحلام. جملتان أو ثـــلاث مـــن أبـــي خلال مائدة الطعام أنبأتني بأنه علينا أن نتحدث طويلاً عن مســـتقبلنا المشترك، واستعجلت أمي الأمر بقولها: "لو استمر الوضع على هذا الحال، لن يمر وقت طويل وسنجد أنفسنا مجبرين على العودة إلى بيت كاتاكا"، لكن نظرة سريعة من أبي جعلتها تعيد تصحيح كلامها:

– أو إلى مكان حيث يمكننا أن نعيش.

كان كل شئ واضحاً وقتها: الرحيل إلى أي مكان كانت مسألة معروفة في العائلة، ولكن ليس لأسباب أخلاقية، سوى البحث عن مستقبل أفضل لأبنائهم، كنـــت قانعـــاً حتى تلك اللحظة بفكرة المساهمة في حياة القرية وأهلها، وحتى حياة أسرتي، نتيجة الروح الانهزامية التي كانت تسيطر عليّ. ولكن لهجة أبي المأساوية كشفت لي مرة أخرى أنه من الممكن دائماً العثور عن مسئول حتى لا يكون هو مسئولاً عنها.

مـــا كنت أشتَّمه في الهواء كان أكثر كثافة، كانت تبدو أمي مهمومة فقط بصـــحة خايمـــي، الابن الأصغر، الذي لم يستطع الخروج من مشكلة الأعوام الســـتة، كانـــت تقضي أكثر أوقات اليوم منطرحة إلى جواره في سرير غرفة الـــنوم المعلـــق، تحـــت وطـــأة الحزن والحر المذلين، وبدأ البيت يكشف عن إهمالها، وكان أشقائي كما لو لم تكن لهم أم. ونظام الطعام تغيَّر حتى أصبحنا نأكل بلا أوقات معينة وعندما نصاب بالجوع. أبي، أكثر الرجال حباً للبقاء في البيت، كان يقضي اليوم بطوله يراقب الميدان من الصيدلية، ويقضي الأمسيات يلعب مباريات لقضاء الوقت في نادي البلياردو. وفي يوم من الأيام لم احتمل أكـــثر مـــن ذلك، تمددت إلى جوار أمي في السرير المعلق، كما لم أفعله في طفولتي، وسألتها عن الهواجس التي أشتَّمها في هواء البيت، ابتلعت نفساً كاملاً حتى لا يرتعش صوتها، وفتحت لي قلبها:

– أبوك عنده ابن في الشارع.

بســـبب الـــراحة التـــي شعرت بها في صوتها، فهمت أنها ارتاحت إلى سؤالي، واكتشفت الحقيقة بإحساس الغيرة الخبيئة، عندما عادت البنت الخادمة لتخـــبرها بأنها شاهدت أبي يتحدث بالتليفون في مكتب التلغراف، ولكن امرأة غـــيورة يهمها أن تعرف أكثر. كان التليفون الوحيد في القرية ويستخدم عادة للمكالمـــات البعـــيدة ومـــن خلال موعد مسبق، وفترات انتظار غير معروفة ودقائقـــه مرتفعة الثمن ولا يُستخدم إلا في حالات الطوارئ. كل مكالمة، مهما كانت بساطتها، توقظ حالة من الحذر بين سكان الميدان، لذلك عندما عاد أبي إلى البيت راقبته أمي دون أن تقول له شيئاً، إلى أن مزق الورقة التي يحملها فـــي جيبه التي تعلنه عن موعد قضية بسبب تخطي واجبات المهنة، انتظرت أمـــي اللحظة المناسبة لتسأله مباشرة عن من كان يتحدث معه بالتليفون، كان السؤال كاشفاً إلى درجة أن أبي لم يجد إجابة سريعة يمكن تصديقها:

- تحدثت مع المحامي.

قالت أمي:

- أنـــا أعرف هذا، ما أريد أن أعرفه أن تقص عليّ أنت نفسك ذلك بكل صراحة.

اعترفــت أمـــي بعدها أنها هي التي أُصيبت بالرعب من العفن الذي تم الكشف عنه دون أن تنتبه، لأنه لو تجرأ على قول الحقيقة فإن هذا يرجع إلى أنه كان يعرف أنها على اطلاع على الحقيقة، أو كان مجبراً على أن يخبرها بها.

وهـــذا مـــا حـــدث، اعترف أبي أنه تلقى إعلانا لحضور جلسة لمحاكمته جنائـــياً باغتصــــابه ممرضـــة في عيادته بعد أن خدرها بحقنة مورفين، وقع الحـــادث في مكان بعيد كان قد قضى فيه بعض الأوقات ليعالج مرضى فقراء لا يملكـــون ثمن العلاج، وقدَّم ما يثبت نقاء شرفه على الفور: دراما التخدير والاغتصـــاب كانت من صنع أعدائه، ولكن الطفل ابنه، وحملت به أمه خلال علاقة عادية.

لم يكن سهلاً على أمي أن تتجنب الفضيحة، لأن شخصاً من النوع الثقيل كـــان يحرك خيوط الإشاعة في الخفاء، وكانت هناك سابقة أبيلاردو وكارمن روســـا، اللذان عاشا معنا في أوقات مختلفة وبحب الجميع لهما، ولكنهما ولدا قـــبل زواج أمـــي بأبي، إلا أن أمي تغلبت على ضغينتها بسبب الابن الجديد وخـــيانة زوجهـــا لهـــا، وناضـــلت إلى جواره بوجه مكشوف لفضح عملية الاغتصاب.

عـــاد الهـــدوء إلى العائلة ومع ذلك بعدها بقليل، جاءت أخبار سرية من المنطقة نفسها، عن طفلة من أم أخرى اعترف أبي أنها من صلبه، وأنها كانت تعـــيش في حالة بؤس مدقع، لم تضيع أمي الوقت في قضايا وما شابه ذلك بل

دخلت معركة الحصول على حضانتها وأخذتها لتعيش معها في بيتها، وقالت: "سـأفعل نفس الشيء الذي فعلته مينا مع أبناء أبي المتفرقين هنا وهناك"، ولم تندم على ذلك أبداً، وهكذا نجحت بمفردها أن تأخذ الطفلة، دون فضائح عامة، وأدخلتها في عداد العائلة الكبيرة.

كـل تلـك الأشـياء عفى عليها الزمن عندما عثر شقيقي خايمي في أحد احتفالات القرية على طفل يشبه شقيقي جوستافو تماماً، كان الابن الذي تسبب فـي المشاكل القضائية، كان قد كبر بعيداً عن سيطرة أمه، لكن أمنا فعلت كل مـا تسـتطيع وأخذته ليعيش معنا في البيت - كنا أحد عشرة- وساعدته على تعلم مهنة وشق طريقه في الحياة، وقتها لم أستطع إخفاء إعجابي بامرأة غيورة جداً يمكن أن تفعل مثل هذه الأشياء، وأجابتني هي نفسها بجملة لا زلت احتفظ بها كالماسة النفيسة:

- لا يمكن لدم مثل دم أبنائي أتركه هناك كأي شئ.

كنـت أرى أشـقائي خـلال الإجازات السنوية، وبعد كل رحلة كان من الصـعب الـتعرف عليهم، إضافة اسم جديد في الذاكرة، فقد كنا جميعاً تحمل اسـماً آخر مع اسم التعميد، كانت تطلقه علينا العائلة لتسهيل التعامل اليومي، ولـم يكن اسماً مستخرجاً من الاسم الحقيقي، بل عادة ما يكون اسماً عارضاً، فمـن اللحظـة التي ولدت فيها أسموني "جابيتو" وهو تصغير غير عادي من جابرييل طبقاً للهجة أبناء الشاطئ، وشعرت دائماً أنه اسمي الحقيقي، وأن اسم الدلـع هـو جابريـيل، وقال أحد المندهشين من هذا لماذا لم يفضل أبوانا أن يعمدانا بالاسم الآخر.

مـع ذلـك فإن حرية أمي كانت تبدو أنها تسير في الاتجاه المعاكس في معاملـتها مـع ابنتيها الكبريين، مارجوت وعايدة، حاولت معهن أن تعاملهن المعاملة نفسها التي تلقتها من أمها، فكانت تريد أن تهجر القرية، بينما أبي لم

يكن في حاجة إلى سماع رغبتها أكثر من مرة واحدة ليعد حقائبه ويسير على طرق العالم، إلا أنه كان متشككاً هذه المرة. مرت عدة أيام قبل أن أعرف أن المشكلة كانت قصتا حب لشقيقتي الكبريين مع رجلين مختلفين ولكنهما يحملان الاسـم نفسـه: رفائـيل. لم أستطع كتم ضحكاتي عندما قصوا عليّ الحكاية، مسترجعاً رواية الحب التي عاشها أبي وأمي من قبل، وقلت لأمي ذلك، فقالت:

– الأمر مختلف هذه المرة.

فقلت مُصرّاً:

– بل هو نفسه.

فتراجعت:

–حسناً، هو نفسه، ولكن مرتين في وقت واحد.

وكمـا حدث معها من قبل، لم يفلح معها شرح أو رجاء، ولم نعرف أبداً كيف عرف الأبوان بالحكاية، لأن كل منهما اتخذت احتياطاتها حتى لا تنكشف الحقـيقة، ولكن الشهود كانوا من الذين لم نفكر فيهم أبداً، لأن كل واحدة منهن ذهبـت للقاء الحبيب برفقة أحد الأخوة الصغار لإثبات البراءة، والأكثر إثارة للدهشة أن أبي شارك في التلصص عليهن، ليس بطريقة مباشرة، ولكن بنفس السلبية التي مارسها جدي نيكولاس ضد ابنته.

"كنا نذهب إلى الرقص وكان يدخل أبي ويأخذنا إلى البيت مرة أخرى إذا اكتشـف أن الرفائيليين كانا هناك"، قالت عايدة روسا في مقابلة صحافية. ولم يكـن يسـمح لهن بالخروج للتنزه في الحقول أو الذهاب إلى السينما، أو كان يرسل معهن شخصاً لا تغيبان عن عينيه، كانت كل منهما منفردة تقدم أعذاراً غـير واهية لتلتقي حبيبها، وهناك يظهر فجأة شبح يكشف سرهما، إنها ليخيا، الشـقيقة الأصغر منهما، فقد اكتسبت سوء السمعة كجاسوسة وخباصة، لكنها

كانت تبرر ذلك بالغيرة بين الأشقاء وأن هذه طريقة أخرى للحب.

حاولــت فــي تلك الإجازة التدخل لدى أبوي حتى لا يكررا الخطأ الذي ارتكــبه أهــل أمي، فكنت أواجه بأسباب صعبة على فهمي، أكثر تخويفاً، أن الإعلانـــات التـــي كشـــفت أسراراً حقيقية أم مختلقة- لا تزال لدى العائلات المحـــترمة، فقـــد تم الكشف عن أبوة خفية، وخيانات زوجية مخجلة، وأشياء أخـــرى جرت في أسرَّة غرف النوم من المخجل أن تكون على ألسنة العامة، ولكنهم لم يضعوا شيئاً واحداً لا يعلن شيئاً قد يحدث في أي وقت مهما تأخر، فقد ذكر أحد ضحاياها: "الإعلانات يتسبب فيها الواحد منا ضد نفسه".

ومـــا لم ينتبه إليه أبوي أن ابنتيهما ستدافعان عن نفسيهما بالوسائل نفسها التـــي استخدمها الأبوان. أرسلوا مارجوت للدراسة في مونتيريا أما عايدة فقد ذهبـــت إلى سانتا مارتا برغبتها الخاصة. كانتا في مدارس داخلية، وفي أيام الإجـــازات كان هناك من يرافقهن، ولكنهن وجدتا الوسائل التي كانتا تتصلان بها برفائيل ورفائيل، إلا أن أمي استطاعت أن تحقق ما لم يحققه أبوها وأمها معهـــا، فقد أمضت عايدة نصف حياتها في الدير، وظلت تعيش هناك بلا أي عمل إلى أن أصبحت بعيداً عن متناول الرجال، ومارجوت التي كانت تجمعني معها دائماً ذكريات الطفولة، عندما كنت أقوم أنا نفسي بمراقبة الكبار حتى لا يفاجـــئوها وهي تأكل الطين، فقد بقيت في النهاية في البيت كأم ثانية للجميع، وبشكل خاص لــ "كيكي" الذي كان أكثر الجميع حاجة إليها، وظل معها حتى لفظ آخر أنفاسه.

فهمـــت الآن فقـــط إلى أي حد كان حال أمي السيئ، والعلاقات الداخلية المشـــدودة فـــي البيـــت، يتوافق مع الأحوال المتناقضة لبلد لم يكد يخرج من مشـــاكله، ولكـــن تلـــك المشاكل ظلت، كان على الرئيس بيراس الدعوة إلى انتخابات في العام الجديد، وكان المستقبل مظلماً، فالمحافظون الذين استطاعوا

إغراق لوبث كانوا يلعبون مع من حل محله لعبة مزدوجة: يحيونه على حياده الكامل ولكنهم يشيعون الخوف في المقاطعة للعودة إلى الحكم سواء عن طريق الانتخابات أو بالقوة.

ظلـــت سوكري بعيدة عن العنف، والعنف القليل الذي وقع فيها ليست له علاقـــة بالسياسة. إحدى قضايا العنف كانت مقتل خواكين باجا، كان موسيقياً يعزف في الفرقة البلدية المحلية، وعندما كانوا يعزفون في السابعة مساء على بـــاب السينما، قام قريب له عدو بضربه بسكين في عنقه المنتفخ بفعل ضغط الموســـيقى، ونـــزف دمـــاءه على الأرض، وكلاهما كان محبوباً في القرية، والســـبب المعلـــن الوحيد وغير المؤكد أن المسألة كانت تتعلق بالشرف، في الوقـــت نفســـه بالضبط كانوا يحتفلون بعيد ميلاد شقيقتي ريتا، وتسبب الخبر السيء في إلغاء الحفل المبرمج لساعات طويلة.

الحـــادث الآخر وقع قبل ذلك ولكنه لا يمحى من ذاكرة القرية، كان بين بلينـــيو بالماثـــيدا وديونيســـيو بـــاريوس، الأول كان عضواً في عائلة قديمة ومحـــترمة، وهـــو نفســـه كان رجلاً ضخماً ولطيفاً، لكنه كان أيضاً من من الباحثيـــن عـــن المشاكل عندما يكون سكرانا. عندما يكون واعيا فهو ظريف ويكشـــف عن رجولة حقيقية، ولكنه عندما يسكر يتحول إلى آخر ويسهل عليه إخـــراج المســـدس من وسطه ليقاتل به أول من يقع في طريقه، حتى البوليس كـــان يحاول البقاء بعيداً، ولكن أعضاء أسرته المتعبين من إلقاء القبض عليه وحجزه في البيت عندما يكون في حالة سكر، تركوه يواجه مصيره وحده.

كان ديونيسيو باريوس عكسه تماماً: رجل خجول وفقير، لا يحب الشجار ولا يحـــب الشـــراب بالطبيعة، لم يحدث أن واجه مشاكل مع أحد، إلى أن بدأ يثيره بلينيو بالسخرية من ضيق ذات اليد، حاول هو الابتعاد عنه إلى أن وقع فـــي يوم من الأيام في طريق بالماثيدا الذي شج وجهه لأنه لم يرق له، حينها

تغلب ديونيسيو على خجله وحظه السيء، وواجه المعتدي بإطلاق النار عليه، كانت مصارعة فجائية، خرج منها الاثنان بجروح بالغة، ولكن مات ديونيسيو فقط.

إلا أن المصارعة التاريخية للقرية كانت بالموت الثنائي بلينيو بالماثيدا وتاسيو أنانايس. جاويش البوليس شهير بتهذيبه والابن المثالي للسيد ماوريثيو أنانياس، الذي كان يعزف على الطبلة في فرقة خواكين باجا الموسيقية، كان مصارعة في منتصف الشارع، خرج كلاهما جريحاً جرحاً قاتلاً، وظلا يعانيان سكرات الموت فترة طويلة، كل منهما في بيته، استعاد بلينيو وعيه للحظة صغيرة وكان همه معرفة ما حل بأنانايس. والآخر أيضاً أثر عليه انزعاج بلينيو من ما حدث له. وبدأ كل منهما يتمنى على الله ألا يموت الآخر، وظلت العائلتان تنقل أحوال كل منهما إلى الآخر طوال بقائهما على قيد الحياة، وعاشت القرية كلها لحظة من السكون في محاولاتها إبقائهما على قيد الحياة بكل ما استطاع سكانها من حيل.

بعد ثمان وأربعين ساعة من معاناة سكرات الموت، دق ناقوس الكنيسة ليعلن موت امرأة ماتت قبل قليل، وسمع الاثنان دقات الناقوس كل في سريره، فاعتقد كل منهما أن الناقوس يعلن موت الآخر، مات أنانايس على الفور حزناً، وهو يبكي موت بلينيو. وهذا الأخير عندما علم بموت أنانايس مات بعدها بأيام وهو يذرف الدموع بحاراً حزناً على الجاويش.

في قرية أهلها أصدقاء مسالمون كتلك، فإن العنف في تلك السنوات كان ممارسة غير قاتلة، ولكن أقل إيلاماً: الإعلانات، فقد كان الرعب يعيش في بيوت العائلات الكبرى، التي تنتظر اليوم التالي بانصيب الشر. في المكان الأقل اشتباهاً تظهر ورقة مكتوبة بخط اليد، تكون رحمة لما لا تقوله عن الواحد منا، وتكون أحياناً حفلاً سرياً لما تقوله عن آخرين. أبي، ربما كان

الرجل الأكثر هدوءاً بين من عرفتهم، نظَّف مسدسه المحبب الذي لم يطلق منه رصاصة أبداً، وأطلق لسانه في صالون البلياردو، زاعقاً:

- من يتجرأ على لمس أي من بناتي.. ستناله رصاصة من هذا المرعب.

هاجرت عدة عائلات خوفاً من أن تكون تلك الإعلانات جزءاً من العنف البوليسي الذي يدمر قرى كاملة داخل البلاد لإرهاب المعارضة.

وتحـــول الـــتوتر إلى خبز كل يوم. في البداية تم تشكيل دوريات مراقبة، لـــيس لاكتشاف موزعي الإعلانات، ولكن لمعرفة ما تقوله، قبل تمزيقها قبيل شروق الشمس. مجموعة من الساهرين عثرنا على موظف بالبلدية في الثالثة فجـــراً، كـــان جالساً يتبرد ببرد الصباح أمام باب بيته، ولكنه في الحقيقة كان يرصـــد من يلصقون الإعلانات، قال له شقيقي ما بين الهزل والسخرية إن ما يقال في بعضها حقيقة، فأخرج مسدسه ووجهه إليه ضاغطاً على الزناد:

-كررها مرة أخرى.

حيـــنها عرفـــنا أنهـــم فـــي اللـــيلة السابقة وضعوا إعلاناً عن ابنته غير المـــتزوجة، ولكن المعلومات كانت مشاعاً بين العامة، إلا أنه في البيت من لم يكن يعرف هو الأب نفسه.

فـــي البداية كان واضحاً أن الإعلانات كان يكتبها شخص واحد، وبنفس القلـــم، وعلى ورق واحد، ولكن في سوق صغير كما في سوق الميدان، هناك محـــل واحـــد من يمكنه أن يبيع هذه الأدوات، وقد سارع صاحبه إلى إعلان بـــراءته، من ذلك الوقت عرفت أنني سأكتب رواية عن تلك الإعلانات، ليس لمـــا تقولـــه، والتـــي كانت كلها تقريباً من إنتاج خيالات الرأي العام، ومثيرة للسخرية، ولكن بسبب التوتر غير المحتمل الذي خلقوه داخل البيوت.

في "ساعة نحس" روايتي الثالثة التي كتبتها بعد ذلك بعشرين سنة، اعتقدت

أنه عمل شريف ألا أستخدم حالة معينة يمكن التعرف على ابطالها، وإن كانت هناك حالات واقعية كانت أفضل من تلك التي اختلقتها أنا، إضافة إلى أني لم أكـن فـي حاجـة إلـيها، فقد كنت مهتماً بالشكل الاجتماعي للحياة الخاصة لضحاياها. فقط بعد نشرها، عرفت أنه في المناطق المحيطة بالقرية، حيث كنا مكروهيـن نحـن سـكان المـيدان الكبير، كان يتم الاحتفال بالكثير من تلك الإعلانات.

فـي الحقـيقة سـاعدتنى تلك الإعلانات على وضع نقطة البداية التي لم أسـتطع أن أحددها في أي وقت، لأن ما كنت أكتبه كان يدل على أن المشكلة سياسية وليست أخلاقية كما كنت أعتقد. واعتقدت دائماً أن زوج نجرمانتا كان نموذجـاً صالحاً للعمدة العسكري في رواية "ساعة نحس"، ولكن عندما كانت تتطور كشخصية لم تكن تتطور كشخصية بشرية، ولم تكن لدي أسباب لقتلها، لأننـي اكتشـفت أن الكاتب لا يستطيع قتل الشخصية ما لم تكن لديه أسباب مقنعة، وفي هذا الحالة لم يكن الأمر كذلك.

أعرف اليوم أن تلك الرواية نفسها يمكن أن تكون رواية أخرى، كتبتها في فندق طلابي بشارع كوجاس في الحي اللاتيني بباريس، على بعد مائة متر من بولـيفار سان ميشيل، وبينما كانت الأيام تمضي بلا رحمة في انتظار شيك لم يصـل أبداً، وعندما أنهيتها، لففت الأوراق، وربطتها برباط عنق كنت أرتديه في أيام أفضل من تلك، ودفنتها في أعماق خزانة الملابس.

بعـد ذلـك بعامين في مدينة مكسيكو، لم أكن أعرف أين توجد الرواية، عـندما طلـبوها منـي للمشـاركة فـي مسابقة للرواية أقامتها شركة "إسو" الكولومبـية، بجائزة ثلاثة آلاف دولار من دولارات تلك الأيام، كان المشرف علـيها المصور الفوتوغرافي جييرمو أنجولا، صديقي الكولومبي القديم، كان يعرف بوجود أصولها تحت الكتابة منذ أن كنت أكتبها في باريس، أخذها مني

بالـــنهاية التـــي كانت عليها، وكانت لا تزال مربوطة برباط العنق، ودون أن يـــترك لي الوقت لكيها على البخار لضيق الوقت. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أمـــل في الحصول على جائزة يمكن بها شراء بيت. لكن بالطريقة التي أرسلتها بها تم إعلانها فائزة بلجنة التحكيم في ١٦ أبريل ١٩٦٢، وتقريباً في الساعة نفسها التي ولد فيها ابننا الثاني جونثالو، وخبزه تحت إبطه.

لم يكن لدينا الوقت للتفكير عندما كتبت رسالة إلى الأب فيلكس ريستريبو رئـــيس الأكاديمية الكولومبية للغة، ورجل طيب كان رئيساً للجنة الجائزة لكنه كـــان يجهـــل عـــنوان الـــرواية. عندها انتبهت إلى أنني لم أكتب العنوان في الصفحة الأولى الذي كان: "هذا البلد الملعون".

عـــندما علـــم به الأب ريستريبو، من خلال خيرمان بارجاس، طلب مني بلطـــف أن أُغيِّره باسم آخر أقل عنفاً، وقريباً من مناخ الكتاب، وبعد كثير من تـــبادل الآراء معه، اتخذت قراري بعنوان ربما لا يكشف كثيراً عن المأساة، ولكنه يصلح علامة للإبحار في بحار النفاق: "ساعة نحس".

بعـــد أســـبوع، طلب الدكتور "كارلوس آرانجا بليس" سفير كولومبيا لدى المكســـيك والمرشـــح لرئاسة الجمهورية، مقابلتي بمكتبه، ليخبرني أن الأب ريستريبو يرجوني أن أُغيِّر كلمتين يرى أنهما غير مقبولتين في النص الفائز: الواقي الذكري، والعادة السرية. لا السفير ولا أنا استطعنا إخفاء ذهولنا، لكننا اتفقنا على إرضاء الأب ريستريبو لوضع نهاية سعيدة للمسابقة التي لا تنتهي بحل وسط، قلت له:

– حســـن جداً، سيدي السفير، اشطب واحدة من الاثنتين، ولكن حضرتك تتشرف باختيارها.

شطب السفير كلمة "العادة السرية" بتنهيدة رضاء، وبذلك انتهت الإشكالية، وتـــم طبع الكتاب في دار نشر إيبروأمريكانا بمدريد، في طبعة كبيرة ودعاية

عادية، كانت مغلفة بالجلد، وعلى ورق ممتاز، وطباعة فاخرة، إلا أنها كانت شــهر عســل ســريع الزوال، لأنني لم أقاوم الرغبة في إجراء عملية قراءة استطلاعية، فاكتشفت أن الكتاب المكتوب بلهجة الهنود تم ترجمته – كالأفلام المدبلجة– باللهجة المحلية لمدريد.

كنت قد كتبت: "وهكذا كما تعيشون حضراتكم الآن، فإنكم لستم في وضع آمــن فقط بل تُشَكِّلون مثالاً سيئاً للشعب"، فكانت كتابة الناشر الإسباني تقول: "هكــذا كما تعيشون الآن، ليس فقط أنكم في حالة غير آمنة، بل تُشكِّلون مثالاً ســيئاً للشــعب". والأكــثر خطورة، بما أن قائل تلك الجملة قس، فإن القارئ الكولومبــي يمكــنه أن يعــتقد أن هذه محاباة من المؤلف ليشير إلى أن القس إســباني، ممــا يُعَقِّــد وضــعه ويُشَوِّه الهدف الأصلي من الحكاية. لم يتوقف المصحح عند تصحيح الأخطاء النحوية للحوارات، بل سمح لنفسه بالتدخل في الأســلوب أيضــاً، وانتهى الكتاب إلى الإصابة بحفر مدريدية ليس لها علاقة بالأصــل، ونتيجة لذلك لم يكن أمامي طريق آخر إلا رفض الطبعة باعتبارها مشــوهة، وجمــع وإحــراق النسخ التي لم تباع، فكانت إجابة المسئولين هي الصمت التام.

منذ تلك اللحظة اعتبرت أن الرواية لم تُنشر، وبدأت بالعمل الصعب على ترجمــتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن الأصل الوحيد كان هو الذي أرسلته إلى المســابقة، وهو نفسه الذي ذهب إلى إسبانيا لنشره، وعندما انتهيت من إعادة الــنص إلــى أصــله، وتصــحيحه بطريقتي الخاصة، نشرته دار نشر "آرا" بالمكسيك، مع إشارة مطبوعة وواضحة بأن تلك كانت الطبعة الأولى.

لــم أعرف أبداً أن رواية "ساعة نحس" كانت الكتاب الوحيد الذي يأخذني إلــى زمــنه ومكانــه في ليلة من قمر مكتمل ونسيم ربيعي. كان يوم سبت، والنجوم تملأ السماء، وبعد قليل من إعلان الساعة الحادية عشر، حينما سمعت

أمي في غرفة الطعام تهمهم بأغنية "فادو" عاطفية لينام الطفل الذي كانت تسير به بين يديها. سألتها عن مصدر الموسيقى فأجابتني على طريقتها الخاصة:

– من بيوت الأسراب.

أعطتنـــي خمســـة بيزو دون أن أطلبها منها، لأنها رأتني أرتدي ملابسي لأذهــب إلى حفل، ونبهتني قل خروجي بطريقتها أنها ستترك باب الفناء بلا مـــزلاج حـــتى يمكننـــي أن أعود في أي ساعة دون إيقاظ أبي. لم أتمكن من الوصول إلى بيوت الأسراب، لأنه كانت هناك بروفة موسيقية في محل نجارة المعلـــم فـــالديس، الذي انضم إلى مجموعته لويس إنريكي بمجرد عودته إلى البيت.

انضـــممت إلـــيهم في تلك السنة لأعزف على الثلاثي، وأغني مع معلميه الستة المجهولين حتى ساعات الفجر. بالنسبة لي كان شقيقي من أفضل عازفي الجيتار، لكن في تلك الليلة عرفت أنه حتى منافسيه الموتورين كانوا يعتبرونه شخصـــاً طيباً، لم تكن هناك مجموعة أفضل منهم، كانوا على ثقة بأنفسهم إلى درجـــة أنه عندما كان يتعاقد معهم أحد لإحياء حفل صلح، فإن المعلم بالديس يخفف من روعه مسبقاً:

– لا تنزعج، سنتركهم يعضون الوسائد.

إجازتـــي بدونـــه لم تكن إجازات، يشعل الفرح أينما حل، ولويس إنريكي وهـــو مـــع فيلاديلفو فيليا يُشكّلون ثلاثياً محترفاً، في تلك الأيام اكتشفت وفاء الكحـــول وتعلمت بالمقلوب، أنام نهاراً وأغني ليلاً، أو كما تقول أمي: "طلقت الكلبة".

قيل عني كل شئ، وجرت إشاعة بأن رسائلي لم تكن تأتيني على عنواني فـــي بيت أبوي بل في بيوت الأسراب، وتحولت إلى الزبون المخلص لأطباق لحمهـــا وطبخها الهندي، التي تغذي لثلاث ليال متواصلة. لم أعد إلى القراءة

ولا إلى الخضوع إلى روتين المائدة العائلية، وهذا كان استجابة لما كانت تقوله أمـــي عني بأنني أفعل ما أريد وعلى طريقتي، فيما الشهرة السيئة كان يحملها على ظهره المسكين لوي إنريكي. فهو دون أن يعرف جملة أمي، قال لي في تلك الأيام: "ما ينقص أن يقال الآن إنني أفسدتك ويرسلون بي مرة أخرى إلى الإصلاحية".

قررت في أيام أعياد الميلاد، الهرب من مسابقة العربات. ومع صديقين حميميـــن هربت إلى قرية "ماخاجوال" القريبة، أعلنت في البيت أنني سأتغيب ثلاثـــة أيـــام وبقيت هناك عشرة، المسئولة كانت ماريا أليخاندرينا ثربانتيس، امرأة متحررة عرفتها في الليلة الأولى، وتعلمت معها أن أفقد وعيي في أكبر تسلية في حياتي، إلى يوم الأحد الذي استيقظت ولم أجدها في سريري واختفت إلـــى الأبـــد. استعدتها بعد ذلك بسنوات بسبب جمال رنة اسمها، وأعدتها إلى الحياة في إحدى رواياتي كي أتستر على أخرى، وقدمتها كصاحبة وسيدة بيت للذة لم يكن له أدنى وجود.

أثناء عودتي إلى البيت، وجدت أمي تغلي القهوة في المطبخ في الخامسة صباحاً، قالت لي بالهمس المتواطئ أن أبقى معها، لأن أبي استيقظ قبل قليل، وعلـــى اســـتعداد ليثبـــت لي أنني لست حراً ولا حتى في الإجازات كما كنت أعتقد. قدمت لي فنجاناً كبيراً من القهوة، رغم أنها كانت تعرف أنني لا أحبها، أجلســـتني إلى جوار الفرن، دخل أبي بالبيجامة، وعليه بقايا النعاس، وفوجئ عندما رآني بالفنجان المتبخر، لكنه وجه إليّ سؤالاً عرضياً:

– ألم تقل إنك لا تشرب القهوة؟.

لم أعرف كيف أجيبه، ابتدعت أول ما مر برأسي:

– أشعر بالعطش دائماً في هذه الساعة.

رد:

- مثل كل السكارى.

لم ينظر إليّ بعدها ولم يعد إلى الحديث في هذا الأمر، ولكن أمي أخبرتني أن أبي مكتئب منذ ذلك اليوم، وبدأ يتعامل معي على أنني حالة ميئوس منها، رغم انه لم يتركني أشعر بهذا أبداً.

زادت مصـــروفاتي إلى درجة أنني قررت الاستيلاء على تحويشة أمي، وبراني لويس إنريكي بمنطقه الذي يقول إن الأموال المسروقة من الأبوين، لو اســـتخدمت للذهـــاب إلى السينما وليس لممارسة الجنس مع العاهرات، تكون شرعية. عانيت من ضيقي من تواطؤ أمي حتى لا ينتبه أبي إلى أنني أسير في طرق سيئة، وكانت لديه الأسباب الكافية أنهم بدءوا يشعرون في البيت، لنومى ســـاعات طويلـــة بـــلا سبب في ساعات الغداء وكان صوتي كصوت الديك المبحوح، وكنت أسير ذاهلاً إلى درجة أني في يوم من الأيام لم أسمع سؤالين من أبي، فوجه إليّ أعنف تشخيصاته:

- أنت مريض بالكبد.

رغـــم كل شئ، استطعت أن أحافظ على المظاهر الاجتماعية، كنت أسير مهندماً ومؤدباً في حلبات الرقص وفي حفلات الغداء في المناسبات التي كانت تقيمها العائلات في الميدان الكبير، والتي تبقى بيوتها مغلقة طوال السنة وتُفتح فقط في أعياد الميلاد عندما أعود من الدراسة.

ذلـــك العـــام كان عام كايتانو جنتيلي، الذي احتفل بإجازته بثلاث حفلات رقـــص رائعة، كانت بالنسبة لي مناسبات محظوظة، لأنني رقصت دائماً مع المـــرأة نفسها، أخرجتها للرقص في الليلة الأولى دون أن ابذل جهداً لأعرف مـــن تكون، ولا بنت من، ولا مع من، اعتقدت أنها هادئة جداً إلى درجة أنني فـــي الرقصـــة الثانية عرضت عليها بجدية أن تتزوجني فكانت أجابتها أكثر غموضاً:

– يقول أبي إنه لم يولد بعد الأمير الذي سيتزوج مني.

شـــاهدتها بعدهـــا بأيـــام تعبر الميدان تحت شمس الثانية عشرة الحارقة، بفســـتان من الأورجانزا البراق، وتمسك بيديها طفلاً وطفلة في عمر ست أو ســـبع سنوات، وقالت لي ميتة من الضحك دون أن أسألها: "انهم أبنائي"، إلى درجة أنني بدأت أفكر أن عَرْض زواجي منها لم يذهب مع الريح.

تعلمت النوم في السرير المعلق في بيت آراكاتاكا منذ كنت حديث الولادة، ولكـــن في سوكري فقط اعتبرته جزءاً من طبيعتي. فليس هناك ما هو أفضل مـــنه لنوم القيلولة، وللنوم ساعة النجوم، وللتفكير ببطء، ولممارسة الحب دون إحســـاس بالذنب، في اليوم الذي عدت فيه من أسبوع الهروب علَّقت السرير بين شجرتين في الفناء، كما كان يفعل أبي في أيام خوالي، ونمت هادئ البال، لكـــن أمي، الممسوسة دائماً برعب أن يموت أبناءها أثناء النوم، أيقظتني آخر الـــنهار لتـــتأكد أننـــي لا زلت حياً، ثم تمددت إلى جواري وبدأت في طرح الموضوع الذي كان يعكر عليها حياتها:

– أبوك وأنا نريد أن نعرف ماذا يحدث لك.

لـــم تكن هناك جملة أكثر حقيقة من تلك، كنت أعرف أن أبوي يشرك كل مـــنهما الآخـــر قلقه للتغيرات التي طرأت على شخصيتي، وكانت هي ترتجل أسباباً لتهدئته، لا يمكن أن يحدث شئ في البيت دون أن تعرفه أمي، وغيظها كـــان معروفاً، ولكن الكأس فاض بعودتي إلى البيت في منتصف النهار طوال أســـبوع كـــامل، وضعي الطبيعي كان تجنب الأسئلة، أو تركها لأوقات أكثر مناسبة، ولكنها كانت تعرف أنه أمر جاد لا يقبل سوى إجابات سريعة.

كل طروحاتها كانت شرعية: أختفي من أول الليل، مرتدياً ملابسي كما لو كنت ذاهباً إلى عرس، ولا أعود للنوم في البيت، ولكن في اليوم التالي أنعس فـــي السرير المعلق حتى ما بعد ساعة الغداء. لم أعد للقراءة، ولأول مرة منذ

مولدي تجرأت على المجيء إلى البيت دون أن أعرف أين مكانه، وقالت أمي: "لا تـنظر حـتى إلـى أخوتك، وتخطئ في أسمائهم، وقبّلت قبل يومين حفيد كليمنثـيا مورالـيس معـتقداً أنه واحد منهم"، لكنها انتبهت فجأة إلى مبالغتها فتراجعت عنها بذكر حقيقة بسيطة:

– نهايته، لقد أصبحت غريباً في البيت.

قلت لها:

– كل هذا حقيقي، ولكن السبب سهل جداً: أنا مختنق بكل هذا.

– منا نحن؟.

كان يمكن لإجابتي أن تكون تأكيداً لسؤالها، ولكن ما كان يمكن أن تكون عادلة، فقلت:

– من كل شئ.

عـندها حكيـت لها وضعي في الليسيه. يحكمون عليّ بدرجاتي، وأبوي يتفاخران من نتائجي عاماً بعد عام، كانا يعتقدان أنني ليس فقط التلميذ النجيب بـل الصـديق المثالي، والأكثر ذكاء وسرعة، والأكثر شهرة بظرفه، أو، كما كانت تقول جدتي: "الطفل الكامل".

مع ذلك، فإن الحقيقة كانت العكس تماماً، ظاهرياً صحيح، لأنني لا أملك الشجاعة والإحساس بالاستقلالية مثل شقيقي لويس انريكي، الذي يفعل فقط ما يحب، وبلا شك في أنه سيحقق سعادة ليست المأمولة للأبناء، ولكنها تسمح له أن يتغلب على إعزاز الخشونة، والخوف اللامنطقي وآمال الأبوين السعيدين.

عقـدت لسان أمي الصورة المقلوبة التي رسموها في أحلامهم، فقالت بعد فترة صمت:

– لا أعـرف مـا الـذي يمكننا فعله، لأننا لو قلنا كل هذا لأبيك سيموت

بالسكتة، ألم تنتبه إلى أنك فخر العائلة؟.

بالنسبة لهم الأمر بسيط: إذا لم تكن هناك إمكانية أبداً في أن أكون الطبيب الــذي حلم به أبي فإن هذا لن يعود إلى نقص الموارد المادية، فقد حلما على الأقل أن أكون المهني في أي وظيفة. أنهيت حديثي:

– لن أكون أي شئ في أي شئ، أرفض أن تجبروني أن أكون ما لا أريد أو تريدان لي أن أكون، وأرفض أن أكون ما تريده الحكومة.

استمر الصراع لباقي أيام الأسبوع، وأعتقد أن أمي كانت تريد أن تكسب وقتاً للتحاور مع أبي، وهذه الفكرة منحتني بعض الراحة، وفي يوم من الأيام ألقت بعرض مدهش بدا كما لو كان مصادفة:

– يقولون لو أنك أردت يمكن أن تكون كاتباً جيداً.

لم أسمع أبداً كلاماً مشابهاً في أسرتي، فقد كنت معروفاً منذ طفولتي أنني أريد أن أكون رساماً أو موسيقياً أو مغنياً في كورال الكنيسة، أو حتى شاعراً في أيام الآحاد، فقد اكتشفت توجهاً معروفاً للجميع عن الكتابة المائلة وغيرها، ولكن ردة فعلي هذه المرة كانت مفاجأة، فأجبت على أمي:

– إذا كــان علــيّ أن أكون كاتباً يجب أن أكون من الكبار، لأنه للموت جوعاً هناك مهناً أخرى أفضل.

وفــي إحــدى الأمسيات، بدلاً من أن تتحاور معي، بكت في صمت، هذا الــبكاء اليوم كان يمكن أن يصيبني بالذعر، لان بكاءها بلا دموع، كان الحل الوحــيد الذي تستخدمه النساء العظيمات للوصول إلى ما تريد، ولكن بسنواتي الثماني عشرة لم أعرف ما أقول لأمي، أجهض صمتي دموعها، قالت:

– حسناً جداً، عدني بأن تكمل البكالوريا على الأقل بأفضل مما تستطيع، وأنا أتولى إصلاح الأمور الأخرى مع أبيك.

شـــعر كلانا بالراحة نفسها وأن كل منا فاز بطريقته، تماماً بالنسبة لها أو بالنسبة لأبي، لأنني كنت أخاف أن يموتا إذا لم نصل مبكراً إلى اتفاق، وهكذا عـــثرنا علـــى الحل السهل أن أدرس القانون والعلوم السياسية، لأنها لم تكن تصـــلح فقـــط كقاعدة انطلاق ثقافية لأي مهنة، بل لأنها أيضاً دراسة إنسانية تصـــلح لأن أدرسها صباحاً، والمساء لممارسة العمل الحر. ومنزعجاً بالحمل العاطفـــي الـــذي تلقته أمي في تلك الأيام، طلبت منها أن تعد لي المناخ لكي أتحدث مع أبي وجهاً لوجه، فأكدت أننا سننتهي إلى القضاء، وقالت لي:

– لـــيس هـــناك رجليـــن متشابهان مثلك أنت وأبوك، وهذا هو أسوأ شئ للحوار.

اعـــتقدت دائماً عكس ذلك، وفقط الآن، بعد أن مررت بكل الأعمار مثل أبـــي الذي عاش حياة طويلة، بدأت أرى نفسي في المرآة أكثر شبهاً به، منه بي.

ربما تكون أمي في تلك الليلة شعرت أنها صاغت جوهرتها الحقيقية، لأن أبـــي جمع في تلك الليلة جميع العائلة على المائدة، وأعلن بشكل بدا عرضياً: "سيكون معنا في البيت محام"، وربما خائفة من أن يفتح أبي الحوار مع العائلة بالكامل، تدخلت أمي بأفضل علامات البراءة، وردت عليه:

– فـــي حالتـــنا هذه وبهذا العدد من الأبناء، فكرنا أن أفضل حل هو أن تدرس دراسة تمكنك من الصرف على نفسك.

لكـــن الأمور لم تكن بالبساطة التي كانت تقولها، بالنسبة لنا كان يمكن أن تكـــون أقل الأمور سوءاً، ومشاكلها يمكن أن تكون الأقل دموية، ولذلك طلبت رأي أبي، لأتواصل معه في اللعبة، فكانت إجابته مباشرة وبجدية مذهلة:

– مـــاذا تريدني أن أقول لك؟، إنك تحطم قلبي، ولكن يبقى لي على الأقل الفخر في مساعدتك أن تكون ما تحب.

ثــم كانت قمة الترف في يناير ١٩٤٦، عندما سافرت في أول رحلة لي بالطائــرة، بفضـــل خوسيه بالنسيا، الذي ظهر من جديد بمشكلة كبرى، درس خمــس ســنوات من البكالوريا في كارتاخينا ولكنه رسب في السنة السادسة، ووعدته أن أحصل له على مكان في الليسيه ليحصل على شهادته، ودعاني هو إلى السفر بالطائرة.

كانت الرحلة إلى بوجوتا مرتين أسبوعياً في طائرات من طراز "دي.سي. ٣"، لشــركة "لانسا"، وأكثر أخطارها لم تكن الطائرة بل الأبقار الطليقة على ممر الصعود والهبوط المرتجل. كان على الطائرة أحياناً أن تدور عدة دورات حــتى يبعدوا الأبقار عن الممر. لقد كانت الرحلة تجربة لبداية خوفي الشهير من الطائرة، في فترة كانت الكنيسة تحرم حمل القرابين المقدسة لحمايتها من الكــوارث. يــتم قطــع الرحلة في حوالي أربع ساعات، دون توقف، بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الساعة. ومن قطعنا المسافة في رحلة نهرية مدهشة، كنا نسترشد في السماء بالخريطة الحية لنهر ماجدالينا الكبير، نتعرف على القرى المصغرة، وقوارب الحبال، وتلك العرائس الصغيرة سعيدة تشير إلينا بعلامات التحية من أفنية المدارس. تقضي المضيفات الوقت في تهدئة المسافرين الذين يقطعــون وقت السفر في الصلاة، وتسعفن المصابين بالدوار، وإقناع الكثيرين أنـــه لا خطـــر هناك من اصطدام الطائرة بأسراب الطيور الخائفة من النهر. المســـافرون الأكـــثر خبرة يقصون تجاربهم السابقة كنوع من إبداء الشجاعة وتجارب الرحلات التاريخية. عندما صعدت الطائرة جبال بوجوتا دون أقنعة أكســـيجين شـــعرت أن قنابل تدق في قلبي، وهزات الأجنحة تزيد من السعادة بقـــرب لحظـــة الهبوط، لكن المفاجأة الكبرى كانت وصولنا قبل تلغرافنا الذي أرسلناه قبيل السفر.

خلال مرورنا ببوجوتا، اشترى خوسيه بالنسيا آلات موسيقية لفرقة كاملة،

ولا أعـــرف إن كـــان فعـــل ذلك بعد تفكير أم كنوع من الدعاية، ولكن ما أن شاهده المدير اسبيتيا يخطو خطوات واثقة محملاً بالجيتارات والطبول وآلات الهارموني، عرفت أنه مقبول. وأنا أيضاً، من ناحيتي، شعرت بمكانتي الجديدة مـــنذ أن عبرت الإيوان: كنت طالباً بالصف السادس. إلى هذه اللحظة لم أكن أعيي أنني أحمل على جبهتي نجمة كالتي كان يحلم بها الجميع، وأن هذا كان يمكن الشعور به من خلال طريقة الاقتراب منا، وحتى طريقة حديثه معنا كان فـــيها شـــيء من الرهبة، إضافة إلى أنها كانت سنة من الاحتفالات، وبما أن غـــرفة الـــنوم كانت لذوي المنح فقط، فقد أقام خوسيه بالنسيا في أفضل فندق قريـــب من الميدان، كانت إحدى صاحباته تعزف البيانو، وتحولت حياتنا إلى يوم أحد لعام كامل.

كانـــت قفزة جديدة في حياتي، كانت أمي تشتري لي ملابس قابلة للتغير طـــوال فـــترة مراهقتـــي، وعندما لا تصلح لي كانت تعدلها لتصلح لأشقائي الصـــغار، ولكـــن أكثر السنوات صعوبة كانت السنتان الأوليتين، لأن ملابس القطيفة التي تصلح للمناخ البارد كانت غالية الثمن وصعبة، وعلى الرغم من أن جســـدي لم يكن ينمو كما كان في السابق، فلم يكن ممكناً تفصيل الملابس لتصـــلح لقامتيـــن في عام واحد، ولسوء الحظ فإن تغيير الملابس بين سكان الداخلية لم تكن قد بدأت موضتها بعد، لأن الكل يعرف ملابس الكل، ومرتدو الملابـــس الجدد لم يكونوا يسلموا من سخرية الآخرين، وتم حل هذه المشكلة جزئـــياً عـــندما فـــرض إسبيتيا على الجميع ملابس موحدة من قميص أزرق وبنطلون رمادي، فوحد المظهر وأخفى المبادلات.

خلال الصفين الثالث والرابع كانت تصلح فيها البدلة نفسها التي أصلحتها عند ترزي سوكري، ولكني اشتريت بدلة للصف الخامس حافظت عليها جيداً لتصلح للصف السادس، إلا أن أبي تحمس جداً لموافقتي على عرضه فأعطاني

نقوداً لشراء بدلة تفصيل جديدة، وأهداني خوسيه بالنسيا بدلة في العام السابق كانـت بالكامل من وبر الجمل ولم يكن استخدمها كثيراً. وسرعان ما اكتشفت إلـى أي حـد أن الملابس لا تصنع الشخصية، فبالبدلة الجديدة، بتغييرها مع الملابـس الرسمية للمدرسة، استطعت أن أحضر حفلات الرقص التي يفرض فـيها أبـناء الشاطئ الكاريبي ملكوتهم، فلم أفلح سوى في الحصول على فتاة واحدة لم تستمر معي طويلاً.

اسـتقبلني إسـبيتيا بحماس غريب، الدرسان الوحيدان لمادة الكيمياء كانا يبدوان كما لو خُصصا لي وحدي: كان يوجه إليّ أسئلة سريعة ويطلب إجابات سـريعة. هـذا الاهتمام كان نقطة بداية للانطلاق وتنفيذ وعدي لأبوي بإنهاء الدراسة بشكل جيد، أما المواد الأخرى فقد كانت طبقاً للمنهج الوحيد والبسيط لمارتينا فونسيكا: الانتباه في الدرس وتقليل السهر لاتقاء رعب الامتحان. منذ قررت تطبيق هذا المنهج لم أعد أشعر بالهم، كنت أجيب على أسئلة المعلمين بسهولة، فأصبحوا أكثر قرباً مني، وانتبهت إلى أنه من السهل جداً تنفيذ الوعد الذي قطعته على نفسي أمام أبوي.

ظلـت مشـكلتي الوحـيدة المقلقة هي الكوابيس. وكان مشرف التلاميذ، والمحـافظ علـى النظام وقتها - الأستاذ جونثالو - كان يتمتع بعلاقات طيبة معهم. وفي ليلة من النصف الثاني من العام دخل إلى غرفة النوم على أطراف أصابعه ليطلب مني مفاتيحه التي نسيت إعادتها له، ما أن وضع يده على كتفي حـتى انطلقت في صرخات متوحشة أيقظت الجميع، فنقلوني في اليوم التالي إلى غرفة من ست أسرة تم إعدادها على عجل في الطابق الثاني.

كانـت حـلاً لمخاوفي الليلية، ولكنه حل مثير للمغامرة، فقد كانت الغرفة فوق مخزن الأطعمة تماماً، فقام أربعة من التلاميذ بالهبوط إلى المطبخ وقاموا بالاسـتيلاء علـى مـا فيه لإعداد عشاء بعد منتصف الليل. العفيف سيرخيو

كاسترو، وأنا الأقل مغامرة منهم جميعاً بقيناً في أسرّتنا لنقوم بعملية التفاوض في حالة الطوارئ، عادوا بعد حوالي ساعة بنصف خزين المطبخ لتقديمه على المائدة، فكانت أكبر وليمة في تاريخ بالداخلية، بالطبع مع عُسر هضم اكتشافنا بعد أربع وعشرين ساعة. فكرت أن كل شئ قد انتهى إلا أن حُسن تفاوض اسبيتيا أنقذنا من الطرد.

كانت فترة طيبة في الليسيه والأقل وضوحاً في مستقبل البلاد، فحياد الرئيس بيراس، غير المقصود، زاد من حدة التوتر الذي انتقل إلى المدرسة لأول مرة، إلا أنني، انتبهت اليوم أن التوتر كان داخلي من قبل، وأنه حينها فقط بدأت أعرف الوطن الذي أعيش فيه، بعض المعلمين الذين حاولوا البقاء على الهامش منذ العام السابق لم يتمكنوا من إبعاد التوتر عن الدروس، فكانوا يعلنون وجهات نظر صعبة الهضم عن توجهاتهم السياسية، وبشكل خاص منذ أن بدأت الحملة الرئاسية الصعبة.

كل يوم كان واضحاً أنه مع جايتان وتورباي في وقت واحد، فإن الحزب الليبرالي سيخسر رئاسة الجمهورية بعد خمس وعشرين سنة من السلطة المطلقة. كانا مرشحين متناقضين جداً كما لو كانا من حزبين مختلفين، ليس بسبب أخطائهما الشخصية، بل بسبب حزم المحافظين الدموي الذي بدا واضحاً من أول يوم: فبدلاً من لاوريانو جومث، فُرض كمرشح مفضل أوسبينا بيريث، المهندس المليونير صاحب الشهرة العريضة كزعيم أبوي. الليبراليون ممزقون والمحافظون متحدون ومسلحون.. لم يكن هناك من طريق آخر: تم انتخاب أوسبينا بيريث.

منذ تلك اللحظة استعد لاوريانو جوميث ليحل محله باستخدام القوة الرسمية والعنف في كل الخطوط. لقد عادت الواقعية التاريخية للقرن التاسع عشر من جديد، لم نعش في سلام بل في أوقات هدنة زائلة بين ثمان حروب

أهلية عامة وأربعة عشر محلية وثلاثة انقلابات عسكرية وأخيراً حرب الألف يـــوم، التي خلَّفت ثمانين ألف قتيل من الجانبين في شعب تعداده أربعة ملايين بالكاد. ببساطة: كان برنامجاً عاماً للعودة إلى الخلف مائة عام.

الأســـتاذ خيرالدو، مع نهاية العام الدراسي، استثناني بشكل جعلني أشعر بالخجل. أعد لي مجموعة من الأسئلة المبسطة كملحق لمادة الجبر التي رسبت فـــيها قـــبل أربع سنوات، وتركني وحدي في مكتب المعلمين مع كل الشراك الخداعـــية فـــي متناول يدي، عاد بعد ساعة وكله أمل، شاهد النتيجة الكارثية وشطب كل صفحة بعلامة صليب من أعلى إلى أسفل وعنَّفني بقوله: "هذا المخ متعفـــن"، إلا أنه في النتائج النهائية ظهرت مادة الجبر ناجحة، لكنني لم أقدم شكري للأستاذ الذي خالف قناعاته وواجباته من أجلي.

قبيل الامتحانات النهائية لتلك السنة، حدث لجييرمو لوبث جيرا وأنا، حدث ســـيء مع الأستاذ جونثالو أوكامبو خلال خناقة سكارى، دعانا خوسيه بالنسيا للدراسة في غرفته بالفندق، الذي كان جوهرة كولونيالية بمشهد رائع يطل على الحديقة العامة المزهرة والكاتدرائية كخلفية، وبما أنه لم يبق لنا سوى امتحان واحد، فقد واصلنا الليلة وعدنا إلى المدرسة عبر طريق كانتين الهنود الفقراء. وكـــان الأستاذ أوكامبو مسئولاً عن النظام في تلك الليلة، عنَّفنا بسبب الساعة المتأخرة وحالتنا السيئة التي عدنا بها، فرددنا عليه نحن الاثنين معا. أيقظ رد فعله الغاضب وصرخاتنا – النائمين.

قـــرار لجنة الأساتذة كان أن لوبث جيرا وأنا، لا يمكننا حضور الامتحان الوحيد الباقي. أي: أننا لن نحصل على البكالوريا في تلك السنة، لم نتمكن أبداً من معرفة المناقشات السرية التي دارت بين المعلمين، لأنهم تضامنوا بشكل لا يمكـــن اختراقه، ويبدو أن المدير قرر أن يتولى المشكلة بنفسه متحملاً نتيجة المخاطـــرة، وحصـــل لنا على تصريح بحضور الامتحان بوزارة التربية في

بوجوتا، وهذا ما حدث، فقد رافقنا إسبيتيا بنفسه، وظل معنا أثناء إجابتنا على الأسئلة المكتوبة، والتي تم تصحيحها في المكان نفسه، وكانت النتيجة طيبة.

أعـــتقد أنهـــا كانت حالة داخلية معقدة جداً، لأن أوكامبو لم يحضر الحفل النهائـــي، ربمـــا بسبب الحل السهل الذي اتخذه المدير والنتائج الممتازة التي حصلنا عليها، وأخيراً بسبب نتائجي الشخصية، فقد حصلت على جائزة عبارة عن كتاب لا يُنسى: "حياة الفلاسفة المشهورين"، لمؤلف ديجونيس لاوريس، لم تكـــن أكثر مما انتظره مني أبوي؛ بل إضافة إلى هذا كنت أول دفعتي في تلك السنة، رغم أن زملاء الفصل – أنا أولهم – كنا نعرف أنني لم أكن الأفضل.

٥

لم أتخيل مطلقاً أنه بعد حصولي على درجة البكالوريا بتسعة أشهر ستُنشر قصـــتي الأولـــى فـــي الملحق الأدبي "نهاية الأسبوع" بجريدة "الاسبيكتادور" الصـــادرة فـــي بوجوتا، أفضل وأكثر الصحف جدية في تلك الفترة، وبعدها باثنين وأربعين يوماً نُشرت القصة الثانية، إلا أن الأكثر إثارة للدهشة بالنسبة لي كانت الكلمة التي كتبها نائب رئيس تحرير الصحيفة ورئيس تحرير الملحق الأدبـــي، ادواردو ثالاميا بوردا، الذي كان يوقع باسم "أوليسيس"، الناقد الأدبي الأشهر في كولومبيا في ذلك الوقت والباحث دائماً عن المواهب الجديدة.

كانـــت حالة غير متوقعة وليس من السهل حكيها، كنت مسجلاً في بداية تلك السنة بكلية الحقوق بالجامعة الوطنية في بوجوتا، حسب اتفاقي مع أبوي. كنت أعيش في وسط المدينة، في بنسيون بشارع فوريان، يشغل معظمه طلاب من الشاطئ الأطلنطي. خلال الأمسيات بدلاً من العمل كنت أقضي الوقت في القراءة بغرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت الكتب مختارة بالصدفة، ومرتبطة بحسن حظي مع الصدفة، فأصدقائي الذين لديهم القدرة على شرائها كانوا يعيروني إياها لأوقات ضيقة جداً فكنت أقضي الليالي ساهراً حتى أعيدها في موعدها، ولكن على عكس الكتب التي قرأتها في الليسيه التي كانت تستحق أن تبقى في مقابر المؤلفين الشهيرين، فقد كنت أقرأها كالخبز الساخن، حديثة الـــترجمة والنشـــر في بوينس أيريس بعد فترة السكون الطويلة التي صاحبت الحرب الأوروبية. ولحسن حظى اكتشفت آخرين، إضافة إلى الذين اكتشفتهم مـــن قبل مثل خورخي لويس بورخيس ودى. اتش. لورنس وألدوس هيكسلي وجراهام جرين وتشيسترتون، ووليام أيريش وكاترين مانسفيلد وآخرين.

كانــت هذه الكتب الجديدة معروفة في معارض الكتب البعيدة عن متناول اليد، ولكن بعض نسخها كانت متداولة في مقاهي الطلاب، التي كانت مراكز نشــطة فــي نشر الثقافة بين الطلاب الجامعيين بالإقليم، وكثير منهم كانت له مكانــه المحجــوز سنة بعد أخرى، وهناك يستقبلون البريد وحتى التحويلات البريدية؛ بعض خدمات أصحاب وباعة الكتب الموثوق فيهم كانت حاسمة في إنقاذ شهادة العديد من الدارسين الجامعيين، والكثير من مهني البلاد يدينون لهم أكثر من ديونهم لأولئك المجهولين.

أنا فضّلت المولينو، مقهى الشعراء الكبار، وعلى بعد مائتي متر فقط من البنســيون وعلى الناصية المهمة بين طريق خيمينيث دي كيسادا مع الطريق الســابع، لا يسمحون بوجود طلاب على مائدة محددة، ولكنني كنت واثقاً من الــتعُّلم أكــثر خلال المناقشات الأدبية التي كنا أستمع إليها من الموائد القريبة أكــثر مــن الكتب الدراسية. كان المقهى عبارة عن بيت ضخم مُزّين برسوم الفــنان ســانتياجو مارتينيــث ديجادو، وبصور من فصول من معارك دون كيخوتــي ضد طواحين الهواء. ورغم عدم وجود مكان محجوز لي، فقد كان الجرسونات يضعونني في المكان الأقرب من الأستاذ الكبير ليون دي جريف – ملــتح خفيض الكلام ولطيف– يبدأ حلقة نقاشه عند حلول المساء مع بعض الكُتّاب المشهورين في تلك اللحظة، وينتهي عند منتصف الليل مختنقاً بالكحول الــرديء مع تلاميذه الذين يعلمهم لعبة الشطرنج. كان القليل من رجال الأدب والفن الكبار في البلاد من لم يمروا بتلك الطاولة، ونحن كنا نصمت كالموتى في طاولتنا حتى لا نُضَيِّع كلمة واحدة من كلماته. وإن كانوا يتحدثون أكثر عن النســاء أو الحكايــات السياسية من كلامهم عن فنونهم، ولكن دائماً ما يقولون شيئاً جديداً يستحق أن نتعلمه. أكثر المهتمين كنا نحن أبناء الشاطئ الأطلنطي، لــم نكــن متحديــن للتآمر على الكاريبيين أكثر من اتحادنا في إدمان الكتب. علّمنــي خورخــي ألفــارو اسبينوسا طالب الحقوق – الإبحار في الإنجيل،

وعلّمنـــي أن أحفظ في ذاكرتي الأسماء الكاملة لمحاوري يعقوب، في يوم ما وضع أمامي على الطاولة مجلداً ضخماً وحكم بقوة رأيه كقس:

- هذا إنجيل آخر.

نعـم لقـد كـان "عولـيس" لجيمس جويس، قرأته على قِطَع وبكثير من الصـعوبة إلـى أن لم تستطع ذاكرتي أن تقبل أكثر من هذا. لقد كانت قراءة متعجلة، فبعدها بسنوات، وأنا ناضج متقبل، عدت لقراءته بجدية ولم يكن فقط اكتشـافاً لعالم خاص لم أنتبه إليه داخلي، بل أيضاً مساعدة تقنية لا تقدر بقيمة لحرية اللغة، والتعامل مع الزمن، وبناء كتبي.

دوميـنجو مانويل بيجا أحد زملائي في الصف الرابع، كان يدرس الطب وكـان صديقاً لي في سوكري، كان يشاركني إدمان القراءة، والآخر كان ابن عمي نيكولاس ريكاردو، الابن الأكبر للعم خوان دي ديوس، الذي كان يحافظ على فضائل العائلة حية. وصل بيجا في إحدى الليالي بثلاثة كتب كان اشتراها حديثاً، أعارني أحدها بالصدفة كما كان يفعل دائماً ليساعدني على النوم، ولكنه نجـح هذه المرة في التوصل إلى عكس ما كان يرمي إليه: فلم أعد أنام بعدها أبـداً بلذة النوم قبل ذلك، كان كتاب "ميتامورفيس" لفرانز كافكا، في الترجمة المـزيفة لخورخـي لويـس بورخيس المنشورة في دار نشر لوسادا ببوينيس أيريس، التي فتحت أمامي طريقاً جديداً في الحياة من أول سطر، واليوم تعتبر واحـدة من العملات الأدبية العالمية الكبرى: عندما استيقظ جريجوريو سامسا فـي صـباح يوم من الأيام، بعد حلم قلق، وجد أن سريره تحول إلى حيوان خرافي". كانت كتباً مليئة بالأسرار، لم تكن حوافها مختلفة بل كانت في كثير من الأحيان عكس كل الكتب التي عرفتها حتى ذلك الوقت، لم يكن مهماً تقديم الدليل: يكفي أن يكون الكاتب قد كتبها لتكون حقيقة، دون أي أدلة غير سلطة الموهـبة وقوة صوت الكاتب، كانت شهرزاد من جديد، ولكن ليس في العالم

القديــم والذي كان فيه كل شئ ممكنا، بل في عالم آخر لا يمكن استعادته لأن كل شئ فيه قد ضاع.

عــندما أنهيت كتاب كافكا، بقيت لهفتي التي لا تُقاوم لكي أعيش في تلك الجـــنة البعــيدة. فالـــيوم الجديد فاجأني في الآلة المسافرة التي أعارني إياها دوميــنجو مـــانويل بــيجا نفسه لكي أحاول شيئاً يشبه الموظف السكين كافكا متحولا إلى خنفس. ضخم، لم أذهب إلى الجامعة خلال الأيام التالية خوفاً من فقدان السحر، وظللت أنشع قطرات من الحقد حتى نشر ادواردو ثالاميا بوردا في صفحاته مقالة قاتمة، يأسف فيها لأن الجيل الجديد من الكُتّاب الكولومبيين يفــتقدون إلى أسماء تبقى في الذاكرة، وليس هناك ما يدل على أنه في القريب ســيكون هــناك يمكنه أن يكذبه، لا أعرف بأي حق شعرت أنني مدعو باسم الجيل الجديد لمواجهة تحدي ذلك المقال، فعدت إلى القصة المهجورة لمحاولة تكذيــب الهجوم، وضعت فكرة موضوعية عن الجثة الواعية في رواية كافكا ولكن خففت أسرارها الأليفة وأحكامها الحيوانية.

على أي حال كنت أشعر بعدم الأمان لدرجة أنني لم أتجرأ على عرضها على أي من زملاء الطاولة، ولا حتى جونثالو ماريينو، زميلي بكلية الحقوق، والـــذي كـــان القارئ الوحيد لنثري الغنائي الذي كنت أكتبه خلال الدروس. أعــدت قــراءة القصـــة وتصحيحها لحد التعب، وأخيرا كتبت كلمة شخصية لإدواردو ثالاميا – الذي لم أره من قبل– والتي لم أعد أذكر منها حرفاً واحداً، ووضـــعت كـــل هـــذا فـــي مغلف وسلمته بنفسي في مكتب استقبال صحيفة "الاســبكتادور" –سمح لي البواب بالصعود إلى الطابق الثاني حتى أسلمه في مكتب ثالاميا نفسه، ولكن مجرد الفكرة نفسها أصابتني بالشلل. فتركت المغلف على طاولة البواب وهربت.

كان ذلك في يوم ثلاثاء ولم يقلقني أي شئ عن مصير قصتي، لكني كنت واثقــاً أنه في حالة نشرها، فإن هذا لن يكون قبل مضي بعض الوقت، وخلال تلك الفترة تجولت بين المقاهي من مقهى إلى آخر، خلال أسابيع لأتغلب على إحساســي بــالقلق كــل مســاء سبت، حتى ١٣ سبتمبر، عندما دخلت مقهى المولــنو، وعــثرت علــى عنوان قصتي بعرض صحيفة "الاسبكتادور" التي خرجت من المطابع قبل قليل: "الخضوع الثالث".

أول رد فعل لي تأكدي المدمر بأنني لم أكن أملك الخمسة سنتيمات لشراء الصحيفة، وهذه كانت أكثر الرموز وضوحاً على الفقر. لأن الكثير من الأشياء الأساســية فــي الحياة، إضافة إلى الصحيفة، كانت تساوي خمسة سنتيمات: الترام، والتليفون العام، وفنجان القهوة، وتلميع الحذاء. انطلقت إلى الشارع بلا حمايــة من الأمطار الخفيفة التي لا تتوقف، لكني لم أجد في المقاهي القريبة أحــداً مــن معارفي يمكنه التصدق عليّ بتلك القطعة المعدنية. ولا كذلك في البنسيون في تلك الساعة الميتة من يوم السبت، عدا صاحبته، التي كانت تعني لا أحد، لأنني كنت مديناً لها بسبعمائة وعشرين قطعة من فئة الخمسة سنتيمات حساب شهرين أجرة السرير والخدمات، عندها عدت إلى الشارع على استعداد لعمل أي شئ، وجدت رجلاً أرسلته العناية الإلهية كان يهبط من التاكسي وفي يده "الاسبكتادور" فطلبت منه أن يهديني إياها.

وهكذا استطعت أن اقرأ قصتي الأولى مطبوعة بحروف المطبعة وبرسوم لهــيرنان ميرينو، الرسام الرسمي للصحيفة، قرأتها مختبأ في غرفتي، وبقلب يدق بعنف وفي نفس واحد، كنت أكتشف في كل سطر سلطة الحرف المطبوع المدمــرة، فما بنيته بكل الحب والألم كسخرية قانطة لعبقري عالمي، اكتشفت أنــه عبارة عن مونولوج معقد وهش، يعتمد على ثلاث أو أربع جمل مسلية. انــتظرت عشرين عاماً بعد ذلك لأتجرأ على قراءتها للمرة الثانية، ففي رأيي

حيـــنها - الـــذي لا يكاد يكون معتدلاً تحت سيطرة الحماس- أنها كانت غير مرضية.

الأصعب من كل هذا كان طوفان الأصدقاء المتحمسين الذين هجموا على غرفتي بنسخ الصحيفة والثناء على قصة من المؤكد أنهم لم يفهموها. من بين زمـــلاء الجامعة، بعضهم قرأها والبعض الآخر فهمها أقل، وبعضهم الآخر لم يتخط السطر الرابع، لكن جونثالو ميارينو، الذي لم يكن من السهل عليّ الشك في أحكامه الأدبية، وافق عليها دون أدنى تردد.

ميلي الأكبر كان في بحثي عن رأي خورخي ألفارو إسبينوسا، الذي كانت مشـــرطه النقدي أكثر تخويفاً، لأنه بعيد عن حلقتنا، فقد كنت أشعر بأحاسيس متناقضـــة: كنت أريد أن أراه على الفور لمعرفة رأيه، في الوقت نفسه كانت ترعبني مجرد فكرة مواجهته. اختفى حتى الثلاثاء، وهو ما لم يكن غريباً في قـــارئ لا يـــرتوي، وعندما ظهر في المولينو لم يبدأ حديثه معي بالكلام عن القصة بل عن جرأتي، قال لي وهو ينظر في عيني بعينيه اللتين تشبهان عينا كوبرا خضراء:

-مـــن المؤكد أنك تعرف المأزق الذي وضعت نفسك فيه، فأنت الآن في المعـــرض إلـــى جـــوار أسماء الكُتّاب المعترف بهم، وعليك أن تبذل الكثير لتستحق هذه المكانة.

تحجـــرت أمـــام الـــرأي الوحـــيد الذي كان يمكنه أن يؤثر فيّ بعد رأي أوليسيس، ولكنه قبل أن ينهي كلامه كنت قررت أن أسبقه بما كنت اعتبره ولا أزال كحقيقة:

-تلك القصة رديئة.

رد علـــيّ هـــو بتحكم كامل أنه لا يستطيع أن يقول رأياً نهائياً لأنه قرأها بســـرعة، ولكنه شرح لي أنه حتى لو كانت القصة سيئة جداً كما قلت، فإنه لا

يمكنها أن تكون سيئة إلى حد التضحية بالفرصة الذهبية التي تقدمها لي الحياة، وأنهى كلامه بقوله:

-علـــى أي حـــال، فـــإن هذه القصة تعود إلى الماضي، والمهم الآن هي القصة القادمة.

تركنـــي في حالة يرثى لها، فقد وقعت فريسة البحث عن أسباب مخالفة، إلـــى درجـــة إقـــناع نفســـي بأنني لن أسمع نصيحة أكثر ذكاء من نصيحته، وتمسكت بفكرته الثابتة بأنه يجب أولاً البحث عن موضوع القصة وبعدها يأتي الأسلوب، ولكن كل منهما يعتمد على الآخر اعتماداً متبادلا وهو ما كان العصا الســـحرية للكلاسيكيين. توقفت قليلاً عند رأيه المكرر عدة مرات بأنه تنقصني القـــراءة العمـــيقة للإغريقييـــن وبشكل خاص هوميروس، الوحيد الذي قرأته كواجب مدرسي خلال دراستي للبكالوريا. وعدته بذلك، وكنت أريد أن أسمع أسماء أخرى، لكنه غيَّر الموضوع بموضوع "حافظات النقود المزيفة" لأندريه جيد، التي قرأها خلال نهاية الأسبوع، لم أتشجع أبداً لأقول له إنه ربما فتح لي حديـــثه آفاقا جديدة. قضيت الليلة ساهراً أكتب معلومات عن قصة تالية بعيداً عن تأثير الأولى.

كانـــت لـــديّ شكوك بأن من حدثوني عنها لم يكونوا متأثرين بالقصة – وربمـــا لم يقرأوها – ومن المؤكد أنهم لم يفهموها– ولكن لأنها نُشرت بشكل واسع في صفحة مهمة– بداية، انتبهت إلى أن أهم سلبياتي: التعثر في الكتابة، وجهلـــي بالإحساس البشري، وبرز هذا واضحاً في قصتي الأولى، التي كانت عبارة عن تأمل تجريدي مشوش، مثقل بالكثير من المشاعر المصطنعة.

عندما كنت أبحث في الحياة عن موضوع للقصة التالية، تذكرت أن إحدى النســـاء الأكثر جمالاً اللاتي عرفتهن عندما كنت طفلاً قالت لي إنها تريد أن تســـكن جســـد قط غريب الجمال كانت تداعبه، فسألتها عن السبب، فأجابتني:

"لأنــه أكــثر جمالاً مني"، عندها وجدت نقطة البداية للقصة الثانية، وعنواناً جذاباً: "حواء في قط"، أما باقي القصة فقد ابتدعته من لا شئ، ولهذا السبب - كما كنا نقول وقتها- كلاهما كان يحمل داخله جرثومة دماره الخاص.

تــم نشــر هذه القصة بالاهتمام نفسه للأولى، يوم السبت ٢٥ من أكتوبر ١٩٤٧، ومرســومة بالــنجم الصاعد في سماء الفن الكاريبي: الفنان إنريكي جراو، ولفت انتباهي أن أصدقائي تلقوا القصة بشيء من الاعتياد كما لو كانت لكاتــب معروف، عانيت من الأخطاء، وتشككت في الآراء الصحيحة، ولكني أستطعت أن أحافظ على روحي منتبهة، ثم جاءت الضربة الكبرى بعدها بأيام قليلة، من خلال كلمة نشرها إدواردو ثالاميا، باسمه المستعار "أوليسيس"، في ركنه اليومي بصحيفة "الاسبكتادور"، فقد ذهب مباشرة إلى القول: "قراء نهاية الأسبوع للملحق الأدبي لهذه الصحيفة انتبهوا إلى ظهور عبقري جديد، أصيل، لــه شخصية شديدة البريق"، وبعد ذلك: "في الخيال يمكن أن يحدث أي شئ، ولكــن القــدرة على تقديم اللؤلؤة بشكل طبيعي وببساطة وبلا لف أو دوران، لــيس شــيئاً يســتطيع أن يقوم به كل الشباب في عمر العشرين الذين يبدأون علاقتهم بالأدب"، وينتهي: "مع جارثيا ماركيز يولد كاتب بارز جديد".

الكلمــة -ولــم لا- أصــابتني بالسعادة، لكن في الوقت نفسه أدهشني أن ثالاميا لم يترك لنفسه مجالاً للتراجع، فقد تم كل شئ وكان عليّ أن أفسر كرمه كــنداء لوعيــي، طوال بقية حياتي، وكشفت الكلمة أيضاً أن أوليسيس اكتشف شخصيتي من خلال أحد زملائه في التحرير، جونثالو جونثالث، ابن عم قريب لابن عمومتي الأقرباء، كتب طوال خمسة عشر عاماً ركناً كان يجيب فيه على أســئلة القــراء باســم "جوج" وكان يجلس على بعد خمسة أمتار من ادواردو ثالاميا، لحسن الحظ أنه لم يبحث عني ولا أنا بحثت عنه، شاهدته مرة جالساً إلى طاولة الشاعر "دي جريف" وتعرفت على صوته الجاف من أثر التدخين،

وشـــاهدته مـــن قريـــب في عدة فعاليات ثقافية، لكن أحداً لم يقدم أي منا إلى الآخر، بعضهم كان يعتقد أننا نعرف بعضنا، وآخرون كانوا يعتقدون أننا من المستحيل ألا نعرف بعضنا.

مـــن الصـــعب تخـــيل إلى أي حد يمكن الحياة في ظلال الشعر، لقد كان حماســـاً لا يتوقف، طريقة أخرى في الحياة، لقد كانت شعلة من الحماس تسير بحرية في كل اتجاه. كنا نفتح الصحيفة، على القسم الاقتصادي أو على صفحة الحـــوادث، أو نقرأ كرسي المقهى في عمق فنجان القهوة، فيكون هناك الشعر فـــي انتظارنا ليحمل أحلامنا، أي أن الشعر كان نحن، أي أنه بالنسبة لنا نحن أبـــناء الـــبلاد الأصـــليين القادمين من جميع المقاطعات، فإن بوجوتا عاصمة الوطـــن ومقـــر الحكومة، إلا أنها كانت المدينة التي يعيش فيها الشعراء.. لم نكـــن نؤمن بالشعر فقط، ولم نكن نموت من أجله، بل كنا نعرف بتأكيد مطلق – كيف كتبه لويس كاردوثا وأراجون– "فالشعر هو الدليل الوحيد على وجود الإنسان".

العـــالم كـــان للشعراء، وكانت إصداراتهم الحديثة أهم بالنسبة لجيلي من الأخـــبار السياسية الحزينة. كان الشعر الكولومبي قد خرج من القرن التاسع عشر مضيئاً بالنجم الوحيد خوسيه أسونثيون سيلفا، الرومانتيكي الأعظم الذي أطلـــق الـــنار وهو في الواحد والثلاثين من عمره على الدائرة التي رسمها له طبيـــبه وكانت تشير إلى القلب. لم أولد مبكراً لأتعرف على رفائيل بومبو أو إدواردو كاســـتيو – الغنائـــي الكبير– الذي يصفه أصدقاؤه كشبح هارب من مقـــبرته عند حلول المساء.. مرتدياً عباءة ملتفة عليه مرتين وجلد مخضر من المورفيـــن ووجه طائر كبير: الشكل الفيزيقي للشعراء الملعونين. مررت في إحدى الأمسيات بالترام أمام بيت كبير في الطريق السابع، وشاهدت على بابه أكـــثر الـــرجال إدهاشـــاً الذين رأيتهم في حياتي، مرتدياً بدلة محكمة، وقبعة

إنجلـــيزية، ونظارات سوداء على عينيه فاقدتي النور. لقد كان الشاعر ألبيرتو أنخيل مونتويا، شاعر رومانتيكي صاخب نَشرَ بعض قصائده الجيدة في زمنه، بالنســـبة لجيلي كان كل هؤلاء أشباحاً للماضي، عدا الأستاذ ليون دي جريف، الذي تلصصت عليه طوال سنوات في مقهى المولينو.

لكن لم يستطع أي منهم أن يقترب من مجد جييرمو بالنسيا، الأرستقراطي الـــذي فـــرض نفسه كنبي للجيل المئوي قبل أن يكمل عامه الثلاثين، والجيل المـــئوي تـــم تسميته بهذا الاسم لتوافقه مع عام ١٩١٠ وهو مرور قرن على الاســـتقلال الوطنـــي. معاصـــروه إدواردو كاستيو وبورفيريو باربا جاكوب، شـــاعرأن من كبار الشعراء الرومانتيكيين، لم ينصفهما النقد الخاضع لسيطرة بالنســـيا الرخامـــية، الـــذي كان ظله الأسطوري يسد الطريق أمام ثلاثة من الأجيال التالية. الجيل التالي مباشرة عام ١٩٢٥، والجدد، من بينهم رفائيل مايا ولـــيون دي جريف، اللذين لم يتم الاعتراف بكامل أعمالهما بينما كان بالنسيا مســـتحوذا، علـــى كل شئ، كان يتمتع حتى ذلك الوقت بكل المجد الذي حمله حتى أبواب رئاسة الجمهورية نفسها.

الوحـــيدون الذيـــن تجرءوا على الوقوف في وجهه كانوا أعضاء جماعة "حجـــر وســـماء" بكراساتهم الشبابية، التي كانت فضيلتها الوحيدة أنها لم تكن مـــتأثرة ببالنســـيا: إدواردو كارانـــثا، وأرتورو كاماتشو راميريث، وأوريليو أرتورو، وخورخي روخاس نفسه، الذي مَوَّل نشر قصائدهم، لم يكونوا جميعاً علـــى المستوى نفسه في الشكل أو الموضوع، لكن في مجموعهم تخطوا بقايا البرناســـيين وأيقظـــوا للحياة شعر القلوب الجدي، مع تأثيرات خاصة لخوان رامـــون خيمينيـــث وروبيـــن داريو وجارثيا لوركا، وبابلو نيرودا، أو فيثنتي ويدوبـــروا. لـــم يكن القبول الجماهيري مباشراً ولا هم اعتقدوا أنهم مبعوثو العـــناية الإلهية لتنظيف بيت الشعر. إلا أن السيد بالديمورو سانين كانو، الناقد

الأكــثر احــتراماً فــي ذلك الزمن، كتب دراسة لوقف أي جرأة في مواجهة بالنسيا، وكان قاسياً ضدهم، من بين آرائه القطعية كتب يقول إن بالنسيا "امتلك العلم القديم ليتعرف على روح الأزمنة السحيقة في الماضي، وتأملها من خلال نصوص معاصرة ليفجئنا، وبالتالي امتلك سر الإنسان". فحكم عليه مرة أخرى بأنه شاعر لا زمن له ولا حدود، ووضعه إلى جانب أولئك الذين "مثل لوريثيو ودانتــي وجوته، حافظوا على الجسد لإنقاذ الروح". ربما فكر أكثر من واحد أنه بصديق مثل هذا، فإن بالنسيا لم يكن في حاجة إلى أعداء.

رد إدواردو كارانثا على سانين كانو بمقال يقول كل شئ من أول العنوان: "حالــة من تصفية الحسابات"، كانت أول محاولة لوضع بالنسيا في مكانه وفي حدوده دون التقليل من قيمته أو من حجمه، واتهمه بأنه لم يستطع أن يشعل في كولومبــيا شــعلة الروح بل أشعاره عبارة عن تشوهات من الكلام، ووصف قصـــائده بأنهــا كلمات فنان مصطنع وحاذق، ونقاش واع، ووصل إلى نتيجة نهائــية عبارة عن سؤال وجهه إلى نفسه بقي في النهاية كأفضل القصائد التي كتــبها: "لــو كـــان الشعر لا يصلح لدفع دمي إلى التدفق، ولفتح أبواب سرية ومســاعدتي على اكتشاف العالم، ولمرافقة هذا القلب الحزين في عزلته، وفي الحــب، فــي الفــرح وفي البكاء، إذن في أي شئ يفيد الشعر؟". أنهى مقاله: "بالنسبة لي – وتلك خطيئتي– فإن بالنسيا مجرد شاعر جيد".

نشــر مقــال "حالة من تصفية الحسابات" في "قراءات يوم الأحد" ملحق "التيمــبو" التــي كانــت واســعة الانتشار في ذلك الحين، نتج عنه حالة من الاضــطراب الاجتماعــي، ونتج عنه أيضاً النتيجة المدهشة للبدء في إجراء امــتحان عميق للشعر الكولومبي منذ بداياته، والذي لم يتم عمله بجدية منذ أن كتــب خــوان كاســتيانو المائة وخمسين ألف مقطع في كتابه "مرثية الرجال البارزين في المناطق الهندية".

أصبح الشعر منذ تلك اللحظة سماءً مفتوحة. ليس فقط بالنسبة للجدد، الذين انتشروا كموضة بل للآخرين الذين تبعوهم بعد ذلك، وحاولوا احتلال مكانهم بالقوة. وأصبح الشعر شعبياً جداً إلى درجة أننا لم نفهم حتى اليوم إلى أي حد عاش كل عدد من مجلة "قراءات يوم الأحد" الذي كان يديرها كارانثا أو ملحق "أيام السبت" الذي كان يديره في ذلك الوقت كارلوس مارتين، مديرنا القديم في الليسيه. إضافة إلى أشعاره، صنع كارانثا مجده عن طريق أن يكون شاعراً في السادسة مساء في الطريق السابع في بوجوتا، خلال تنزهه في منطقة من عشر شوارع بكتبه في يده ملتصقة بقلبه، كان نموذجاً لجيله، وكوَّن مدرسة للجيل التالي، وكان كل منهم بطريقته الخاصة.

في منتصف العام وصل إلى بوجوتا الشاعر بابلو نيرودا، مقتنعاً بأن الشعر يجب أن يكون سلاحاً سياسياً. في تلك النقاشات البوجوتية (نسبة إلى بوجوتا) علم بمدى رجعية لاوريانو جوميث، وكنوع من الوداع كتب على شرفه سوناتا انتقامية أول رباعية منها تكاد تقولها جميعاً:

وداعاً، لوريانو بلا مجد

الوالي الحزين والملك الدخيل

وداعاً، إمبراطور الطابق الرابع

تذهب قبل موعدك وبلا أموال للقيصر.

وعلى الرغم من ظرفه اليميني وصداقته الشخصية للوريانو جوميث نفسه، فقد اهتم كارانثا بسوناتاته في صفحاته الأدبية، كسبق صحفي أكثر منه خطاباً سياسياً، لكن الرفض لتلك السوناتات كان شاملا، خاصة تعارض نشرها مع التوجه الليبرالي للصحيفة ولصاحبها الرئيس السابق ادواردو سانتوس، المعادي لفكر لاوريانو جوميث الرجعي تماماً، كمعاداته لثورية بابلو نيرودا، ولكن رد الفعل الأكثر ضجيجاً كان لمن لم يقبلوا لأجنبي أن يهاجم شاعراً

وطنـــياً، فقط أن تكون واحدة من السوناتات الثلاث والأكثر عبقرية هي التي تســـببت في هذا الضجيج، كان ذلك دليل على سلطة الشعر في تلك السنوات. على أي حال، بعدما أصبح لاوريانو جوميث رئيساً للجمهورية منع نيرودا من دخـــول كولومبـــيا، وكذلـــك الجنرال جوسافو بينيا، ولكن نيرودا وصل إلى كارتاخينا وبوينابنتورا أثناء توقفاته في رحلاته البحرية بين أوروبا والتشيلي. وبالنســـبة لأصدقائه الكولومبيين، فإن توقفاته هذه خلال الذهاب والعودة كانت احتفالاً كبيراً.

عـــندما دخلـــت كلية الحقوق عام ١٩٤٧، كان تقاربي مع جماعة "حجر وســـماء" لا يزال، وكان هناك معارف لهم شهرتهم في بيت كارلوس مارتين، فـــي ثيباكيري، ولكن لم تكن لدي الشجاعة للاقتراب منهم وتذكيرهم بي، ولا حتى كارانثا الأكثر لطفاً من بينهم، فقد التقيت به في بعض المرات في مكتبة "جـــران كولومبيا" وحييته كمعجب ولم يتعرف عليّ، بخلاف الشاعر ليون دي جـــريف الذي وقف من طاولته في المولينو، ليحييني على طاولتي عندما قص له أحدهم أنني نشرت قصة في الاسبكتادور، ووعدني أن يقرأها، لسوء حظي أنـــه بعـــد أســـابيع حدث التمرد الشعبي في ١٩ إبريل، وكان عليّ أن أغادر المدينة المحترقة، وعندما عدت بعد أربعة أعوام، كان مقهى المولينو قد اختفى تحـــت رماده، وانتقل الأستاذ بأدواته وأصدقائه إلى مقهى الأوتونوميكو، حيث بدأنا صداقة قامت على تبادل الكتب والأجوارديتني، وعلّمني كيف أحرك قطع الشطرنج دون أمل كبير في إجادتها.

لـــم يقتنع أصدقاء الفترة الأولى من حياتي أن أكتب القصة، وأنا نفسي لم أفهـــم ذلك في بلد يعتبر الشعر فنه الأكبر. كنت أعرف منذ كنت طفلاً، بفضل نجـــاح قصـــيدة "الـــبؤس الإنساني"، تلك القصيدة الشعبية التي كانت تُباع في أوراق مطـــبوعة بسنتيمين في أسواق ومقابر قرى الكاريبي. أما الرواية فقد

كانـــت قلـــيلة، منذ رواية "ماريا" لخورخي إسحاق. كُتبت الكثير من الروايات دون ردة فعـــل كبيرة، أما خوسيه فارجاس فيلا فقد كان ظاهرة عجيبة باثنتين وخمســـين روايـــة تدخـــل قلب الفقراء مباشرة، كان المسافر الذي لا يتعب، وحقائـــبه الكثيرة لم تكن سوى كتبه الخاصة، كان يعرضها أمام أبواب فنادق أمـــريكا اللاتينية وإسبانيا فيختطفها القراء كالخبز، وروايته الشهيرة "أورا، أو زهرات الفيوليت" حطمت قلوباً أكثر من أفضل رواية معاصرة له.

الروايات الوحيدة التي عاشت بعد عصرها هي: "الجزار" المكتوبة ما بين ١٦٠٠ و١٦٣٨ في كولومبيا لمؤلفها الإسباني خوان روديجيث فرايلي، حكاية خارجـــة عن نطاق القياس الروائي وتاريخ حر لغرناطة الجديدة، وانتهت لأن تكـــون رواية متقدمة في عصرها، ورواية "ماريا" لخورخي إسحاق الصادرة عـــام ١٨٦٧، و"الهـــندي الأصـــيل" لخوسيه أيوستاسيو ريفيرا، عام ١٩٢٤، ورواية "المركيزة يولومبو" لتوماس كاراسكيا في عام ١٩٢٦، ورواية "أربعة أعوام ممتطياً نفسي" لادواردو ثالاميا في عام ١٩٥٠. أي من هؤلاء الروائيين لم يصل إلى ما وصل إليه الشعراء من مجد عن جدارة أو بغيرها، في المقابل فـــإن القصة – التي كان لها القليل من السوابق وبشكل خاص كاراسكيا كاتب انتيكيا الكبير – قد غرقت في رجعية اللعب بالكلام الميت.

والدليل على أن موهبتي كانت موهبة روائي تلك الأبيات الشعرية الكثيرة التـــي تركـــتها في الليسيه، بلا توقيع أو حتى باسم مستعار، لأنني لم أكن أبداً متطلعاً إلى الموت بسبب تلك القصائد، وأكثر من هذا: عندما نشرت قصصي الأولـــى فـــي الاسبكتادور، دخل كثيرون حلبة كتابة القصة، ولكن بلا موهبة كافـــية. أعـــتقد أنه يمكن فهم هذا اليوم على أن الحياة في كولومبيا، من عدة وجهـــات نظـــر، كانت لا تزال تعيش في القرن التاسع عشر، وبشكل خاص

الحـــياة فـــي بوجوتا خلال الأربعينات، التي تعيش على ذكريات الاستعمار، عندما دخلت كلية الحقوق بالجامعة الوطنية بلا موهبة أو حماس حقيقي.

وحـــتى يمكـــن الـــتأكد من ذلك يكفي المرور في الطريق السابع وطريق خيمينيـــثدي كيســـادا، المعروفة طبقاً للتهويلات البوجوتية كأفضل زاوية في العـــالم، عـــندما تدق ساعة ميدان سان فرانثيسكو الثانية عشرة نهاراً، يتوقف الـــرجال في الشوارع أو يقطعون أحاديثهم في المقهى ليضبطوا ساعاتهم على الســـاعة الرســـمية للكنيســـة. وحول هذا الميدان وفي المناطق القريبة توجد الأماكـــن الأكـــثر ازدحامـــاً حيث يلتقي فيها التجار مرتين في اليوم، وكذلك السياسيون والصحافيون - الشعراء بالطبع- يرتدون جميعاً الملابس السوداء، تماماً كمليكنا السيد فيليبي الرابع.

خـــلال أيامي كتلميذ كان يتم في ذلك المكان قراءة صحيفة ليس لها مثيل في العالم، كانت عبارة عن سبورة سوداء كتلك التي توجد في المدارس، تعلق فـــي شـــرفة صحيفة الاسبكتادور في الثانية عشرة نهارا وفي الخامسة مساء مكـــتوب عليها بالطباشير آخر الانباء، في تلك اللحظات يكون من المستحيل مرور عربات الترام بسبب زحام الناس في حالة من نفاد الصبر، هؤلاء القراء الشـــوارعيون كـــانوا يملكون أيضاً إمكانية التصفيق للأنباء التي يعتقدون أنها طيبة أو الصفير أو إلقاء الحجارة على السبورة عندما لا تعجبهم أنباءها، كانت طـــريقة فـــي المشاركة الديمقراطية اللحظية التي كانت الاسبكتادور تعتبرها المقياس الذي تقيس به اتجاهات الرأي العام.

لـــم يكن هناك تليفزيون، وكانت هناك نشرات أخبار كاملة في الراديو في ساعات ثابتة. قبيل الغداء أو العشاء، كنا ننتظر ظهور السبورة حتى نصل إلى البيـــت ومعـــنا صـــورة متكاملة عن ما يحدث في العالم، هناك عرفنا وتابعنا بمثالية رحلة طيران الكابتن كونتشا فينيجاس وحيدا من ليما إلى بوجوتا. عندما

كانـــت أنباء مثل هذه، كانت السبورة تتغير عدة مرات في اليوم خارج أوقاتها المحـــددة مســـبقا لزيادة حماس الجمهور بنشرات غير عادية. لم يكن أي من قـــراء تلـــك الصحيفة التاريخية يعرف أن مخترعها وخادمها المخلص اسمه خوسيه سالجار، من اوائل المحررين في الاسبكتادور منذ عشرين سنة، وصل إلى أن اصبح صحافياً من الكبار دون أن يدرس بعد المدرسة الابتدائية.

مؤسسات بوجوتا التي تميزها كانت مقاهي وسط المدينة، والتي تمر حياة البلاد عبرها صباحاً ومساء، كل مقهى منها كان له تخصصه في لحظة زمنية ما – السياسية والأدبية والتجارية– أي أن جزءاً كبيراً من تاريخ كولومبيا في تلـــك الســـنوات له علاقة بأحد تلك المقاهي، ولكل واحد مقاه المفضل كمؤشر يدل على شخصيته.

كُـــتَّاب وسياســـيو النصف الأول من القرن – من بينهم بعض الرؤساء– اســـتذكروا دروســـهم في مقاهي شارع أربعة عشر. أمام مدرسة روساريو، مقهـــى الوندســـور، كتب تاريخه بحضور سياسيين شهيرين، وكان واحداً من المقاهي المزدهرة وكان ملجأ رسام الكاريكاتير ريكاردو ريندون، ورسم هناك أعماله الكبرى، وبعدها بسنوات فضل الرأس المشجوج برصاص المسدس في المخزن الخلفي لجران بيا.

عكس الأمسيات الكثيرة، كان الاكتشاف العرضي لصالة موسيقى مفتوحة للجمهـــور في المكتبة الوطنية؛ فحولّتها إلى ملجئي المفضل لأقرأ تحت رعاية كبار الملحنين، الذين كنا نطلب أعمالهم كتابة من خلال موظفة رقيقة. من بين الـــزوار المعتادين اكتشفت أنواعاً مختلفة من الموسيقى التي كنا نفضلها، فقد عرفـــت معظم الموسيقيين المفضلين لي عن طريق طلبات آخرين، من خلال الطلـــبات المخـــتلفة والكثـــيرة، سئمت من شوبان خلال سنوات طويلة بسبب شخص مولع بموسيقاه كان يطلبه بشكل يومي، ودون رحمة.

فـــي إحدى الأمسيات وجدت الصالة خالية تماماً لأن نظام الموسيقى كان معطـــلاً، لكـــن المديـــرة سمحت لي بالجلوس للقراءة في صمت. شعرت في البداية بحالة من السلام التام، ولكن قبل أن أكمل ساعتين لم أتمكن من التركيز لأن لحظـــات ســـريعة من الغثيان كانت تعطل قراءتي وتجعلني أشعر كما لو كنـــت خارج جلدي نفسه، مرت عدة أيام قبل أن أنتبه إلى أن سبب غثياني لم يكـــن صـــمت الصالة بل الحالة الموسيقية، والتي تحولت منذ ذلك الوقت إلى حالة من العشق السري والأبدي.

عندما كانوا يغلقون صالة الموسيقى، في أمسيات أيام الأحد، كانت تسليتي المفـــيدة الســـفر في عربات الترام الزجاجية الزرقاء، التي كانت تدور حول المـــيدان إلـــى طـــريق التشيلي بخمسة سنتيمات، فكنت أمضي فيها أمسيات المراهقة التي كانت تبدو كطابور لا ينتهي لأمسيات آحاد أخرى ضائعة. كانت قـــراءة الأشـــعار الغنائية الشيء الوحيد الذي كنت أفعله خلال السفر في تلك الدائـــرة المفـــرغة، ربمـــا كانت قراءتي مربعاً من المدينة مع كل مربع من الكـــتاب، إلى أن يتم إشعال الأضواء الأولى لليل بين الأمطار الدائمة، حينها أبـــدأ فـــي المرور على المقاهي الصامتة للحي القديم بحثاً عن شخص يعطف علـــيّ بنقاش حول القصائد التي انتهيت من قراءتها الآن، كنت أجده أحياناً – دائمـــاً ما يكون رجلاً– ونظل حتى ينتصف الليل في مكان سيء، وننتهي إلى التقاط أعقاب السجائر التي دخناها نحن أنفسنا، ونتحدث عن الشعر بينما بقية البشرية تمارس الحب.

كـــان الجمـــيع شباباً في ذلك الزمان، ولكننا كنا دائماً ما نجد من هم أقل شـــباباً مـــنا، فقـــد كانـــت الأجيال تدفع بعضها البعض، خاصة بين الشعراء والمجرمين، ما إن يبدو أن هناك من فعل شيئاً حتى يظهر آخر يمكنه أن يهدد بالقيام بما هو الأفضل. كنت أعثر أحياناً في سلة المهملات على بعض الصور

التـــي كـــان المصورون يلتقطونها لنا في فناء كنيسة سان فرانثيسكو دون أن أسمح لنفسي بالتقاطها، لأنها لم تكن تبدو صورنا بل صور أبنائنا نحن انفسنا، فـــي مديـــنة مغلقة على نفسها حيث لا شئ سهل، ويصعب مغالبة الحياة أيام الأحـــد بلا حب. تعرفت هناك بعمي خوسيه ماريا بالديبلانكيث صدفة، عندما اعـــتقدت أنـــه جدي حينما كان يحاول أن يخترق طريقه بين مظلات الجموع الخارجـــة من قداس الأحد، لم تكن ملابسه تُغيِّر جزءاً صغيراً من شخصيته: مـــرتديا ملابس سوداء كاملة، وقميصاً أبيض بياقة مقواة، ورباط عنق مخطط بشكل جانبي، وصدرية وقبعة جافة ونظارات ذهبية، رفع مظلته بشكل تهديدي وواجهني:

– هل يمكنني المرور؟

قلت له خجلاً:

–معذرة، فقد اعتقدت أنك جدي.

ظل يستمع إليّ بعيني باحث في علوم الفضاء وسألني بسخرية:

– هل يمكن معرفة من يكون هذا الجد الشهير؟

قلـــت له الاســـم كاملاً وأنا أغالب ارتباكي، فخفض المظلة وابتسم بطوية طيبة، وقال:

– أعتقد أن هناك سبباً في تشابهنا، أنا ابن عمه.

كانـــت الحياة اليومية أكثر سهولة في الجامعة الوطنية، إلا أنني لم أتمكن مـــن العثور في ذاكرتي على واقعها في ذلك الوقت، لأنني لم أكن طالباً بكلية الحقـــوق ولا ليوم واحد. ورغم أن درجاتي خلال العام الأول – الوحيد الذي أنهيـــته في بوجوتا– تسمح بالاعتقاد بعكس ذلك، فلم يكن هناك لا الوقت ولا الفرصة لإقامة علاقات شخصية كما في الليسيه، وزملاء الفصل يتفرقون في

المديـــنة بمجـــرد الانتهاء من الدرس. أما مفاجأتي الطيبة كانت العثور على الكاتـــب بدرو جومث فالديراما في منصب سكرتير عام الكلية، وكنت أعرفه من مشاركته في الصفحات الأدبية منذ وقت مبكر، وكان أحد أصدقائي الكبار حتى وفاته.

كـــان جونـــثالو ميارينو زميلي المتعطش للقراءة منذ العام الأول، وكان الوحيد المؤمن بأن بعض معجزات الحياة حقيقة حتى لو لم تكن واقعية، وكان هـــو من علَّمني أن كلية الحقوق لم تكن عقيماً، كما كنت أعتقد، فقد أخرجني منذ اليوم الأول من محاضرات الإحصاء والسكان في السابعة فجراً، وتحداني في مصارعة شعرية في مقهى المدينة الجامعية، وكان يقرأ من الذاكرة أشعاراً للكلاسيكيين الإسبان خلال ساعات الدرس الميتة، وكنت أجيبه بقصائد للشعراء الكولومبيين الشباب الذين فتحوا النار على المحاولات الأخيرة للجيل السابق.

دعانـــي إلى بيته في يوم أحد، حيث كان يعيش مع أمه وشقيقاته وأشقائه، في مناخ من التوتر الأخوي كما في بيت أبوي، فقد كان شقيقه الأكبر فيكتور، رجلاً مشغولاً بالمسرح بكامل وقته، وخطيباً لا يُبارى في عالم اللغة الإسبانية، ومـــنذ أن هربت من وصاية أبوي لم أعش مناخاً عائلياً كما في بيتي، إلى أن تعرفـــت علـــى بيـــبا بوتـــيرو أم ميارينو، كانت قديمة الحس لكنها لم تمتزج بأرستقراطية بوجوتا، بذكائها الفطري ولغتها العجيبة، فقد كانت تعرف مكان الكلمـــات الرديئة في اللغة الثربانتينية. كانت أمسيات لا تُنسى، خاصة مشاهدة لحظـــات الغروب على السفوح الزمردية، والبسكويت الساخن، وما تعلمته من بيـــبا بوتـــيرو بلغتها المنفتحة، وطريقتها في نطق أشياء الحياة العادية، كانت كنزاً لا تقدر قيمته للتعرف على رجعية الحياة الواقعية.

زمـــلاء آخريـــن لـــي: جيـــيرمو لوبث جيرا وألفارو بيدال بارون كانوا شـــركائي في ليسيه ثيباكيرا، الا أنني في الجامعة كنت أرقب إلى لويس بيار

بوردا وكاميلو توريس ريستريبو، اللذين كانا يعملان مجاناً في الملحق الأدبي "لا راثـون" مجلة شبه سرية كان يديرها الشاعر والصحافي خوان لوثانو إي لوثـانو. أيـام إنهـاء العمـل في العدد، كنت أذهب معهم إلى إدارة التحرير لمسـاعدتهما فـي الأشياء العاجلة للحظات الأخيرة. التقيت في بعض الأحيان رئـيس الـتحرير الـذي كنت معجباً ببعض سوناتاته وترجمات الشخصيات الوطنـية التـي كـان ينشـرها في مجلة "السبت". كان يتذكر شيئاً من كلمة أوليسـيس عني، لكنه لم يكن قد قرأ أي من قصصي، فتهربت من الموضوع لأننـي كنت واثقاً من أنه لن يحبها، قال لي منذ اليوم الأول عند وداعي له إن صفحات الصحيفة مفتوحة لي، لكنني أخذت كلامه على أنه نوع من المجاملة البوجوتية.

قدمني زميليّ بكلية الحقوق: كاميلو توريس ريستريبو ولويس بيار بوردا إلى بلينيو أبوليو ميندوقا في مقهى أستورياس، كان رغم سنواته الستة عشرة قـد نشر مجموعة من الكتابات النثرية الغنائية، في الصفحات الأدبية لصحيفة "ألتيمـبو"، ذلـك الجنس الأدبي الذي كان موضة تلك الأيام في وطن إدواردو كارانـثا. لقـد كانـت سحنته لامعة وشعره غامق وناعم، يحدد تماماً مظهره الهندي، ورغم صغر سنه استطاع أن يحصل على الاعتراف بكتابته في ملحق "السبت" الذي أسسه أبوه، بلينيو ميندوثا نيرا، وزير الحرب القديم والصحافي الكبـير الـذي ربمـا لم يكتب سطراً واحداً طوال حياته المهنية، إلا أنه علم الكثيريـن الكـتابة في الصحف التي أسسها بحسن سمعته وكان يهجرها إلى المناصـب السياسـية العليا أو ليؤسس شركات كبرى سرعان ما تنتهي إلى كارثـة، فلـم أرى الابن أكثر من مرتين أو ثلاث في تلك الفترة، دائماً برفقة زميلي، أدهشني أنه برغم حداثة سنه كان يفكر كعجوز، لكني لم أفكر أبداً أننا سنتقاسم أياماً كثيرة من الصحافة بعد ذلك سنوات، لأنني لم أكن قد فكرت في اتخاذ الصحافة مهنة وكعلم كنت مهتماً بها أقل من القانون.

لم أفكر أبداً أنني سأهتم بالصحافة حتى تلك الأيام، حتى طلبت مني ألبيرا ميندوثا شقيقة بلينيو أن أجري حديثاً عاجلاً مع المغنية الأرجنتينية بيرتا سينخيرمان التي غيرت وجهة نظري بالكامل في مهنة الصحافة وفتحت لي مجال موهبة كنت أجهلها، أكثر منها حواراً كلاسيكياً من أسئلة وأجوبة – كانت هناك العديد من الشكوك ولا تزال– كانت حواراً من أكثر الحوارات تجديداً في كولومبيا. بعدها بسنوات، عندما أصبحت ألبيرا ميندوثا صحافية دولية معترف بها وواحدة من أفضل صديقاتي، قصت لي أن تلك المقابلة كانت آخر أمل لها لإنقاذها من الفشل.

لأن وصول بيرتا سينخيرمان كان حدث اليوم، وألبيرا – كانت تدير قسم المرأة في مجلة السبت– طلبت إذناً لإجراء المقابلة، وحصلت عليه بعد تمنع من أبيها نظراً لنقص خبرتها في هذا المجال، كانت إدارة تحرير السبت مكاناً للقاء المثقفين الأكثر شهرة في تلك السنوات، وطلبت منهم ألبيرا بعض الأسئلة لإعداد الحوار، لكن الرعب أصابها خلال مواجهتها لبرتا في غرفتها الرئاسية بفندق جرانادا.

رفضت بيرتا الإجابة على أي سؤال لأنها رأت أنها أسئلة غبية وبلهاء، دون أن تنتبه إلى أنه كان خلف كل سؤال كاتب جيد من الذين تعرفهم هي وأبدت إعجابها بهم خلال زياراتها السابقة لكولومبيا، فبكت ألبيرا التي كانت دائماً عبقرية حية، وابتلعت دموعها واحتملت تلك الكارثة، أنقذ الحوار دخول زوج بيرتا غير المتوقع، فقام هو بالسيطرة على الوضع بحنكته ورقته وميله إلى المزاح عندما كان الوضع على وشك الانقلاب إلى حادث خطير.

لم تكتب ألبيرا الحوار الذي استعدت له بإجابات المغنية الشهيرة، بل كتبت موضوعاً عن صعوبة التعامل معها، واستغلت تدخل الزوج وحولته إلى البطل الحقيقي للقاء، لكن بيرتا استشاطت غضباً بطريقتها التاريخية المعروفة عنها

عندما قرأت الحوار، إلا أن مجلة السبت كانت المجلة الأوسع انتشاراً، ووصل توزيعهـــا الأســـبوعي إلى مائة ألف نسخة في مدينة عدد سكانها ستمائة ألف نسمة.

استغلت ألبيرا ميندوثا ببرودة دم حاجة بيرتا سينخيرمان إلى الكشف عن شخصـــيتها الحقيقية، وعرضت عليّ أن أفكر لأول مرة في عمل الموضوع، لـــيس كعمـــل إعلامـــي، بل ليكون أكثر من هذا: كعمل أدبي، لم تمر سنوات طويلـــة قبل أن أجرب هذا في حياتي نفسها، إلى أن وصلت إلى حد الاعتقاد كمـــا أعتقد الآن أكثر من أي وقت مضى أن الرواية والموضوعات الصحافية ابنان من أم واحدة.

حـــتى ذلـــك الوقت لم أكن قد خاطرت بالشعر: قصائد ساخرة في مجلة مدرسة سان خوسيه وقصائد غنائية وسوناتات حب متخيل على طريقة جماعة "حجر وسماء" في عدد صحيفة الليسيه الوطني الوحيد. قبلها بقليل، أقنع زميلي ثيثيليو جونثالث الشاعر والناقد دانييل أرانجو أن ينشر أغنية كتبتها أنا، تحت اســـم مستعار في الملحق الأسبوعي ليوم الأحد من "ألتيمبو". نشر الأغنية لم يؤثر فيّ، ولم يجعلني أشعر أنني شاعر أكثر مما كنت، بينما في تحقيق ألفيرا انتبهـــت إلى الصحافي الذي كنت أحمله في قلبي، وتشجعت لكي أوقظه. منذ ذلك الوقت بدأت اقرأ الصحف بطريقة أخرى، وأكد لي كاميلو توريس ولويس بـــيار أنهمـــا يوافقاني على ذلك، وأعادا عرض السيد خوان لوثانو للنشر في صفحاته "لاراثون"، لكنني تجرأت فقط على نشر قصيدتين، وعرضا عليّ أن أتحدث مع بلينيو أبوليو ميندوثا عن مجلة "السبت"، لكن خجلي المسيطر عليّ حذرني من أنه ينقصني الكثير حتى أخاطر بالعمل في مهنة جديدة وأنا لا أزال بلا تجربة، إلا أن اكتشافي كانت له فائدة فورية، فقد كنت في تلك الأيام غارقاً فـــي تفكـــيري بســـوء كل ما أكتب، سواء كان نثراً أم شعراً، وحتى في أداء

واجبات الليسيه الدراسية، فقد كانت كلها تقليداً واضحاً لجماعة "حجر وسماء"، فوضـــعت لنفسي خطة لتغيير عميق من القصة التالية، أثبتت لي التجربة أن ظـــرف الـــزمان المحدد القاطع يعتبر علامة على فقر اللغة، ولذلك بدأت في شـــطبه عندما كان يلح عليّ. وفي كل مرة كنت أرى أنه يجب أن أبحث عن شـــكل أكثر ثراءً وتعبيراً، ولم أعد استخدم ظرف الزمان المحدد في كتبي إلا في حالة نقل نص متكامل، لا أعرف، بالطبع، عن ما إذا كان مترجمو أعمالي اكتشفوا ذلك أيضاً، هذا الجنون بالأسلوب لأسباب مهنية.

تعـــدت الصـــداقة مـــع كاميلو توريس وبيار بوردا حدود الفصل وصالة الـــتحرير بســـرعة، فقد كنا نقضي معاً أوقاتاً أطول في الشارع من الجامعة، كلاهما كان يغلي في صمت ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية للبلاد. أما أنا الغارق في أسرار الأدب لم أحاول حتى تفهم تحليلاتهما الدائرية ولا دعواتهما القاتمة، ولكن آثار صداقتهما بقيت من أجمل ما انتفعت به خلال تلك السنوات.

أمـــا دروس الجامعة فقد كانت على العكس هادئة، وندمت دائماً على عدم اهتمامـــي بفضـــائل الأساتذة ذوي الأسماء الكبيرة الذين احتملوا ضجرنا، من بيـــنهم كان ألفونسو لوبث ميتشيلسون، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد المنتخب في القرن العشرين، وربما جاءت من هنا الإشاعات المنتشرة بأنه مكتوب عليه أن يكـــون رئيســـاً بالمـــيلاد، كان يبدأ درس المدخل إلى القانون في مواعيد منضبطة، مرتدياً جاكيت من كشمير لندن، كان يلقي محاضرته دون أن ينظر إلى أحد، بذلك المناخ السماوي لقصار النظر الذين يبدون وكأنهم يسبحون في أحلام غيرهم، كنت أعتقد أن دروسه عبارة عن مونولوج بوتر واحد تماماً كما كـــان أي درس بعـــيد عن الشعر، ولكن لسأم صوته فضيلة حاوي الثعابين، وثقافـــته الأدبية الواسعة تعتمد على قاعدة صلبة، يعرف كيف يستخدمها كتابة وحديـــثاً بصـــوت عـــال، لكني بدأت أقدره بعد أن التقينا مرة أخرى بعد ذلك

بسنوات وأن نبدأ صداقة بعيداً عن محاضراته. أما شهرته كسياسي مغامر كانت تتغذى من تأثير شخصيته السحرية وذكائه الخطر بحثاً عن المعنى الثاني الخبيئ في كلام الناس. وبشكل خاص من الذين يحبهم أقل، إلا أن فضيلته البارزة كشخصية عامة هي قدرته المدهشة على خلق أوضاع تاريخية بجملة واحدة.

توصلنا مع الزمن إلى إقامة صداقة متينة، ولكني لم أكن مواظباً في الجامعة على الحضور وكنت عملياً، وخجلي الذي لا علاج له جعلني أحافظ على مسافة بيننا لا يمكن تخطيها، وبشكل خاص مع من أعجب بهم، لكل هذا فقد فاجأني أن يطلبني للامتحان النهائي في السنة الأولى رغم غيابي الكثير الذي جعلني طالباً غير مرئي. لجأت إلى حيلتي القديمة لإبعاد الأنظار بأدوات خداعية، ولكني انتبهت إلى أن الأستاذ كان واعياً لمكري، ولكنه ربما كان يقدره كإبداع أدبي، الخطأ الوحيد الذي ارتكبته خلال معاناة الامتحان أنني استخدمت كلمة "التقادم" فسارع بطلب أن أفسرها ليتأكد أنني أعرف عما أتحدث، فقلت:

– التقادم هو الحصول على ملكية بمرور الزمن.

فسألني على الفور:

– الحصول عليها أم فقدانها؟

كانت الشيء نفسه، لكني لم أناقشه لعدم تأكدي وربما كانت إحدى مزحه، لأنه لم يحتسبها خلال تقديره لدرجاتي، تحدثت معه عن هذا بعد مضي سنوات فلم يتذكرها، ولكن في وقتها لم يكن لا هو ولا أنا متأكدين من أن هذا الفصل كان حقيقة.

وجد كلانا في الأدب وسيلة لنسيان السياسة وأسرار التقادم، واكتشفنا الكتب المدهشة والكُتّاب المنسيين في حوارات لا تنتهي وكانت تنتهي أحياناً

بإنهاء الزيارات وإثارة حنق زوجتينا، أقنعتني أمي أننا أقرباء، وهذا صحيح، إلا أن حبنا للغناء الشعبي كان أفضل من أي علاقة دم خفية.

كـــان كارلوس باريخا أحد الأقرباء العرضيين الآخرين من ناحية الأب، وهـــو أســـتاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة "جران كولومبيا" المحببة إلى الطلاب بسبب عرضها الكتب الجديدة لكبار الكُتَّاب على طاولات مكشوفة وبلا رقابـــة. حـــتى نحن طلابه كنا نهجم على المكان خلال أوقات غياب الحراسة المســائية ونسرق كتب الفن الرقمي. طبقاً للقانون المدرسي، فإن سرقة الكتب جـــريمة ولكـــن ليســـت خطيئة. ليس بالفضيلة ولكن بسبب الخوف الفيزيقي، دوري في هذه الهجمات محدد بحماية ظهر زملائي، بشرط أن يأخذوا إضافة إلـــى كتبهم بعض الكتب لي. في إحدى الأمسيات، سرق أحد المتعاونين معي كتاب "المدينة بلا لاورا" لفرانثيسكو لويس بيرنانديث، عندما شعرت بيد تمسك كتفي بعنف وصوت عسكري:

-أخيراً يا شيطان!.

استدرت مرتعباً، فوجدت نفسي في مواجهة الأستاذ كارلوس باريخا، فيما هرب ثلاثة من المتعاونين في لمح البصر. لحسن حظي، قبل أن أقدم اعتذاري انتبهـــت إلـــى أن الأســـتاذ لـــم يمســـك بي كلص، بل لأنه لم يشاهدني في المحاضرات طوال ما يقرب من شهر، وبعد تعنيف اعتيادي سألني:

– هل حقيقة أنت ابن جابرييل أليخيو؟.

كان حقيقة، ولكني أجبته بلا، لأنني كنت أعرف أن أباه وأبي كانا أقرباء لكنهما كانا متباعدين بسبب حادث شخصي لم أفهمه أبداً، ولكن فيما بعد عرفت الحقـــيقة ومـــنذ ذلك اليوم عرفوني في المكتبة والفصل كقريب له، وارتبطنا بعلاقة سياسية أكثر منها أدبية على الرغم من أنه كتب ونشر عدة كتب شعرية

مختلفة تحت اسم مستعار هو "سيمون لاتينو". الوعي بعلاقة القرابة، استخدمته فقط في عدم قيامي بالمشاركة الصورية في سرقة الكتب.

أستاذ ممتاز آخر كان دييجو مونتانيا كويار، كان على عكس لوبث ميتشيلسون، يبدو أنهما على علاقة سرية، فلوبث كليبرالي متمرد ومونتانيا كويار كراديكالي يساري. كانت بينهما علاقة خارج الجامعة. وكنت أعتقد دائماً أن لوبث ميتشيلسون كان يراني كشاعر واعد، فيما كان مونتانيا كويار يراني مجرد منشور ثوري.

تعاطفي مع مونتانيا كويار بدأ عندما وقعت مشادة بينه وبين ثلاثة من ضباط الجيش الشباب الذين كانوا يحضرون دروسه بالملابس العسكرية الرسمية. كانوا يحافظون على المواعيد بطريقة حازمة، يجلسون في كراسيهم نفسها الموجودة في جانب منفصل، يسجلون المحاضرات بشكل صارم، ويحصلون على أفضل الدرجات في امتحانات صارمة، نصحهم مونتانيا كويار بشكل شخصي ألا يذهبوا إلى المحاضرات بالملابس العسكرية، فأجابوه بأدب أنها أوامر قيادتهم العليا، ولم يتركوا فرصة دون أن يدعوه يشعر بهذا. على أي حال، بعيداً عن وضعهم الغريب، فقد كانوا بالنسبة للطلاب والأساتذة مجرد ثلاثة من الطلاب العاديين.

يحضرون بملابسهم المتشابهة، المهندمة، ودائماً معاً وفي التوقيت المضبوط، يجلسون وحدهم، وكانوا من أكثر الطلاب جدية ومنهجية، لكنهم بدوا لي دائماً كما لو كانوا يعيشون في عالم مختلف عن عالمنا، لو توجه إليهم أحد بكلمة، يكونون منتبهين وظرفاء، ولكن في شكلية لا تقهر: لا يقولون أكثر من ما يسألون. وفي أيام الامتحانات، كنا نحن المدنيين ننقسم إلى مجموعات من أربعة أفراد لنستذكر في المقاهي، أو نلتقي في حفلات الرقص أيام السبت،

أو فـــي المعارك الطلابية، وفي الكناتين الرخيصة، وبيوت دعارة تلك الفترة، ولكننا لم نكن نلتق أبداً بزملائنا العسكريين، ولو صدفة.

لا أذكــر أنني وجهت إليهم ولا حتى التحية خلال العام الدراسي الطويل الــذي انتظمنا خلاله في الجامعة، لم يكن هناك وقت، وأيضاً لأنهم يحضرون المحاضــرات فـــي الوقــت المحدد، ويذهبون مع آخر كلمة للأستاذ، دون أن يتــبادلوا كلمة مع أحد. كان هناك عسكريون شباب آخرين في الصف الثاني يجتمعون معنا خلال الراحات، لم أعرف اسم أي منهم مطلقا، وفهمت اليوم أن تمــنعهم لــم يكن من جانبنا كما لم يكن من جانبهم، وأنني لم أستطع أبداً أن أتغلب على المرارة التي كان يتذكر بها جدي حروبه الخاسرة ومذابح شركات الموز الرهيبة.

كانت لأستاذ القانون الدستوري خوسيه سوتو ديل كورال شهرة بأنه يحفظ جميع دساتير العالم من الذاكرة، وكان يدهشنا في الدروس ببريق ذكائه وعلمه القانونـــي، لا يعيـــبه سوى فقدانه لحس السخرية، وأعتقد أنه كان أحد القلائل الذيــن يبذلون جهداً خلال المحاضرات حتى لا تظهر ميوله السياسية، ولكنها كانت تظهر أكثر مما كان يعتقد، من خلال إشارات يده وتأكيده على الأفكار، ففـــي الجامعـــة كان يمكن الشعور بنبض الوطن العميق الذي كان يعيش على حافة حرب أهلية بعد أكثر من أربعين عاماً من السلام المسلح.

علـــى الرغم من غيابي الأبدي وجهلي القانوني، نجحت في المواد السهلة للســـنة الأولى بقليل من الاستذكار في آخر لحظة، ونجحت في المواد الصعبة عن طريق حيلتي القديمة بتمييع الموضوعات بأدوات عبقرية. الحقيقة أنني لم أكـــن مستريحاً في وضعي هذا ولم أكن أعرف كيف يمكنني أن أظل في هذا الركـــن المغلـــق، كنت لا أفهم القانون الذي كان بالنسبة لي أقل أهمية من أي مـــواد أخرى من مواد الليسيه، وكنت أشعر أنني كبرت حتى يمكنني أن اتخذ

قراراتي الخاصة. في النهاية، وبعد ستة عشر شهراً من البقاء على قيد الحياة بمعجزة، لم يعد لي هناك سوى مجموعة من الأصدقاء الطيبين لبقية العمر.

قلة اهتمامي بالدراسة أصبحت أكثر بعد كلمة "أوليسيس"، خاصة الدراسة بالجامعة، حيث بدأ بعض زملائي يطلقون عليّ لقب أستاذ ويقدمونني ككاتب، جـــاء هـــذا في الوقت الذي قررت فيه تعلم تشكيل البناء والخيال في آن معاً، ودون خطأ، مستخدما نماذج متكاملة مثل "أوديب ملكاً" لسوفوكليس، التي كان بطلهـــا يبحث عن قاتل أبيه وينتهي إلى اكتشاف أنه هو نفسه القاتل، أو "ساق القـــرد" للكاتـــب "دبلـــيو دبليو جاكوب" التي تعتبر القصة المتكاملة والتي كل أحداثها تقع صدفة، أو "كرة الدهن" لموباسان، وكُتَّاب كبار آخرين رحمهم الله بواســـع رحمـــته. في كل هذا كنت أقضي إحدى ليالي الأحد عندما حدث شئ يستحق أن احكيه، كنت قد أمضيت كل اليوم تقريباً أحاول نسيان فشلي ككاتب مـــع جونثالو ميارينو في بيته بشارع التشيلي، وأثناء عودتي إلى البنسيون في آخـــر ترام، صعد في محطة تشابينيرو إله روماني من لحم ودم، لاحظت أن أي مـــن مســـافري منتصف الليل القليلين لم يفاجأ بمشاهدته، دفعني هذا إلى التفكـــير في أنه لم يكن سوى أحد المتنكرين الذين يكثرون أيام الأحد لبيع أي شئ للأطفال، لكن الواقع أقنعني بأنه لا يجب أن أشك في حقيقته، لأن خوذته ولحيته كانت خشنة كلحية جدي جبلي، إلى درجة أنني شعرت برائحة كريهة قبل الوصول إلى شارع ٢٦، التي كانت بها محطة المقابر، فهبط الإله وكأنه أب لعائلة واختفى بين أشجار الحديقة العامة.

بعـــد منتصـــف الليل، استيقظت بعد التقلب في سريري، سألني دومينجو ماونـــيل بيجا عن ما حدث، فحكيت له حلمي: "لقد صعد الترام إله روماني"، فرد بكامل وعيه قائلاً إذا كان هذا كابوس فيمكن أن يكون بسبب سوء الهضم، ولكـــن إذا كان موضوعاً للقصة المقبلة فإنه يعتقد أنها قصة ممتازة. في اليوم

التالي لم أعد أعرف إن كان الإله الروماني في الترام حقيقة أم أنه كان مجرد خـيال، بدأت أتقبل فكرة أنني نمت من التعب طوال النهار وأنني حلمت حلماً واضـحاً إلـى درجة أنني لم أستطع فصله عن الواقع، ولكن الأساسي لم يعد بالنسبة لي إن كان الإله حقيقة أم لا، بل أنني عشت تلك اللحظات كما لو كانت كذلـك، وللسـبب نفسه – واقع أم خيال– لم يكن من الشرعي اعتباره خيالاً ساحراً بل تجربة جميلة من تجارب حياتي.

وهكذا كتبت ما حدث في اليوم التالي في نَفَس واحد، وتركت القصة تحت الوسادة وعدت لقراءتها وإعادة قراءتها عدة ليال قبل النوم، وفي الصباح عند الاسـتيقاظ، لقـد كان الوصف خالياً من التجسيد وحرفياً لفصل الترام، تماماً وكمـا وقعـت أحداثـه، وبأسـلوب بـرئ جداً تماماً كنبأ تعميد في صفحة الاجتماعـيات، وفـي النهاية، تحت ضغط التشكك قررت أن أضع الموضوع تحت اختبار الحرف المطبوع، ولكن هذه المرة ليس في "الاسبكتادور" بل في الملحـق الأدبي لصحيفة "ألتيمبو"، ربما كانت رغبتي أن أعرف آراء أخرى تخـتلف عن آراء إدواردو ثالاميا، دون أن أضعه في حرج أمام مغامرة ليس مجبراً على المشاركة فيها، وأرسلت القصة مع وميل بالبنسيون مرفقة برسالة موجهة للسيد خايمي بوسادا، مدير التحرير الجديد والشاب جداً للملحق الأدبي للتيمبو، إلا أنه لم يتم نشر القصة ولا الرد على الرسالة.

قصـص تلـك الفترة، طبقاً لكتابتها ونشرها في ملحق "نهاية الأسبوع"، اختفت مع أرشيف الاسبكتادور في حريق اعتداء قوات الحكومة على الصحيفة في ٦ سبتمبر ١٩٥٢. وأنا لم تكن لدي صورة منها، ولا حتى أصدقائي، لذلك شـعرت بـبعض الـراحة لأنهـا احترقت وذهبت إلى النسيان، إلا أن بعض الملاحـق الأدبـية الإقليمية أعادت نشرها في وقتها دون موافقتي، وقصص أخرى نشرتها مجلات مختلفة، إلى أن جمعتها دار نشر "الفيل" في مجلد واحد

صــدر في مونتيفيديو عام ١٩٧٢، وتحمل عنوان إحدى تلك القصص "نابو، الزنجي الذي انتظرته الملائكة".

كانت هناك قصة ناقصة لم أضمها إلى كتاب مطلقاً ربما بسبب عدم وجود نســخة موثوق فيها: "توبال قابيل يصنع نجمة"، المنشورة في الاسبكتادور في ١٧ يــناير ١٩٤٨، واســم بطلها كما لا يعرف الجميع، الحداد التوراتي الذي اخــترع الموســيقى. كانت ثلاث قصص، مقروءة طبقاً للترتيب الزمني التي كتبــت ونشــرت فيها – تبدو غير مقبولة وتراجيدية، وبعضها مبالغ فيه ولا تعــتمد أي منها على أساسيات واقعية. لم أتمكن مطلقاً من معرفة النسق الذي قــرأها بهــا ناقد متمكن مثل إدواردو ثالاميا، إلا أنها بالنسبة لي لها أهمية لا يعرفها أحد غيري، لأن في كل منها هناك شئ يعكس تطور حياتي السريع في تلك الفترة.

معظم الروايات التي قرأتها في ذلك الوقت وأعجبت بها لم أكن أهتم سوى بمــا يمكــن أن أتعلمــه منها من تقنية، أي: بسبب تركيبها السري، من أول الــتجريد الميتافيزيقي للقصص الثلاث الأولى وحتى الثلاث الأخيرة. في تلك اللحظــة، عثرت على إشارات محددة صالحة جداً للتكوين الأولي لكاتب، ولم يخطــر على ذهني فكرة واحدة يمكن التعامل معها بطريقة أخرى، كنت أعتقد أن القصة والرواية ليسا فقط نوعين مختلفين من الأدب بل نسقين لهما طبيعة مخــتلفة ومــن الخطــأ الخلط بينهما، ولا أزال على اعتقادي هذا حتى اليوم، ومقتنع تماماً بتفوق القصة على الرواية.

خلق لي النشر في الاسبكتادور، على هامش النصوص الأدبية، مشكلات أكــثر حياتــية وتســلية، فهناك بعض الأصدقاء كانوا يستوقفوني في الشارع ويطلــبون منــي قرضاً لإنقاذهم من الإفلاس، لأنهم لا يستطيعون تصديق أن كاتــباً له هــذه الأهمــية لا يحصل على كميات ضخمة من النقود مقابل نشر

قصصه، ولم يصدق أي منهم حقيقة أنهم لم يدفعوا لي ولا سنتيما واحداً مقابل نشـــرها، ولا أنـــا كنت أتوقع أن يدفعوا، لأنها لم تكن تلك عادة الصحافة في البلاد، والأخطر من كل هذا كانت خيبة أمل أبي عندما أقنعته بأنني لا أستطيع أن أتحمـــل مصروفاتي الشخصية عندما كان هناك ثلاثة من أشقائي يدرسون، وكانت العائلة ترسل لي ثلاثين بيزو في الشهر، كان البنسيون وحده يأخذ منها ثمانـــية عشر دون أن يقدموا لي في الإفطار بيضاً، ودائماً ما كنت أبحث عن دخل إضافي لسد عجز المصروفات غير العادية، لحسن الحظ، لم أعرف سر اعتيادي الرسم بشكل غير واع في هوامش الصحف، وفوط المطاعم الورقية، وموائد المقاهي الرخامية، وأتجرأ على القول إن ذلك الرسم كان نتيجة مباشرة لذلك الذي كنت أرسمه طفلاً على جدران غرفة جدي للأشغال اليدوية، وربما كانـــت صـــمامات أمـــان سهلة لتفريغ همومي، فقد كان هناك جليس عرضي بمقهـــى المولينو، له نفوذ في إحدى الوزارات استطاع العمل فيها كرسام دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن الرسم، عرض عليّ أن أقوم بعمله على أن نقتسم الراتـــب، لـــم أكـــن أقرب إلى الفساد طوال حياتي مما كنت في تلك اللحظة، ولكني لم أفكر لحظة في الندم على هذا.

ازداد اهتمامي بالموسيقى في تلك الفترة أيضاً التي كان فيها الغناء الشعبي الكاريبي – الذي رضعته في طفولتي– يفتح طرقاً جديدة في العاصمة بوجوتا، فالـــبرنامج الإذاعـــي الأكـــثر شعبية "الساعة الشاطئية" الذي يقدمه باسكوال ديلفيتشـــيو، كان مبعوث الشاطئ الأطلنطي في العاصمة، عاد إلى شعبيته في صـــباح أيام الأحد، فكنا نحن تلاميذ أبناء الكاريبي نذهب للرقص في مكاتب الإذاعـــة حـــتى الساعات الأولى من المساء، وكان هذا البرنامج وراء الشهرة الكبـــيرة لموســـيقيينا للانتشار داخل البلاد، وبعدها إلى أركانه الأخرى، وكان دعاية اجتماعية للتلاميذ الشاطئيين في بوجوتا.

كـــان شبح الزواج الإجباري هو القيد الوحيد. فلا أعرف من الذي أشاع الاعـــتقاد في العاصمة أن أسهل شئ هو الزواج من أبناء الشاطئ الكاريبي، فكانوا يحيكون لنا شراكاً في الأسرة لإجبارنا على الزواج بالقوة. وليس زواجاً نابعاً عن الحب، بل بحلم الحياة بنافذة مفتوحة على البحر، لم أضع تلك الفكرة في رأسي أبداً، على العكس، فإن أسوأ ذكريات حياتي كانت في بيوت الدعارة الرديئة خارج أسوار بوجوتا، حيث كنا نذهب للتخلص من سكراتنا القاتمة، في أكـــثر هذه البيوت قذارة. كنت على وشك أن أترك القليل من الحياة التي كنت أحملهـــا فـــي جســـدي، عندما ظهرت المرأة التي ضاجعتها عارية في الممر صارخة بأنهم سرقوا اثني عشر بيزو كانت تضعها في دولاب أدوات تجميلها، فقـــام اثـــنان مـــن حراس البيت بطرحي أرضاً بلكماتهم ولم يكتفوا بأخذ آخر بـــيزوات بقيت في جيبي بعد ممارسة حب مميتة، بل عروني حتى من حذائي وفتشـــوني بأصـــابعهم بحـــثاً عن النقود المسروقة. على أي حال قررا إنهاء المشـــكلة ليس بقتلي ولكن بتسليمي للبوليس، عندها تذكرت المرأة أنها غيَّرت مخبأ النقود في اليوم السابق وعثرت عليها كاملة.

مـــن بين الصداقات التي بقيت لي من أيام الجامعة، كانت صداقة كاميلو توريـــس التي لم تكن الأقل قابلية للنسيان، بل الأكثر مأساوية في شبابنا، ففي يـــوم مـــن الأيام تخلف عن الدراسة للمرة الأولى، وانتشر سبب هذا التخلف كالنار في الهشيم، فقد اتخذ قراره بالفرار من بيت العائلة ليدرس اللاهوت في "تشيكينيكيرا"، على بعد أكثر من مائة كيلومتر من بوجوتا، لحقت به أمه على محطة القطار وحبسته في المكتبة، زرته هناك، كان أكثر شحوباً من المعتاد، وأكثر جدية، فقد قرر دراسة اللاهوت تحت تأثير ميل طبيعي نجح في إخفائه جيداً، ولكنه قرر طاعته حتى النهاية، قال لي:

– لقد مرت الفترة الأصعب.

كانت تلك طريقته ليقول لي إنه ودَّع خطيبته، وأنها قبلت قراره عن طيب خاطـــر، وبعـــد أمســـية ثرية أهداني هدية صعبة على الفهم: "أصل الأنواع" لدارون، ودعته بإحساس مؤكد غريب بأنها ستكون المرة الأخيرة.

لـــم أره طوال فترة وجوده في الدراسة اللاهوتية، وصلتني أنباء مشوشة عـــن سفره إلى لوفيانا لاستكمال دراساته اللاهوتية، وإن إخلاصه في الدراسة لم يُغيِّر من ميوله الطلابية وطريقة تفكيره العلمانية، والفتيات اللاتي كن يهمن به كن يعاملنه على أنه ممثل سينمائي يحتمي برداء القس.

بعـــد عشـــر سنوات، عندما عاد إلى بوجوتا كان قد امتثل جسداً وروحاً لأحكام ردائه ولكنه كان لا يزال يحتفظ بفضائل مراهقته، كنت أنا وقتها كاتباً وصـــحافياً بـــلا شهادة جامعية، متزوج ولي ابن، ردوريجو الذي ولد في ٢٤ أغســـطس ١٩٥٩ بمستشـــفى باليرمو في بوجوتا، قررنا في العائلة أن يتولى كاميلو تعميده، وكان العرَّاب هو بلينيو أبولايو ميندوثا، الذي كانت تربطنا به علاقة صداقة أخوية، والعرابة كانت سوسانا ليناريس، زوجة خيرمان بارجاس الذي علمني فنون الصحافة الجيدة وأفضل الأصدقاء، وكان كاميلو أقرب إلى بلينـــيو منا نحن، ومن سنوات سابقة، لكنه رفض أن يكون عرابا لابني بسبب ميوـــله الشيوعية وقتها، وربما بسبب ميوله الساخرة التي يمكن أن تفسد جدية القـــداس، ووعدت سوسانا أن تتولى التعليم الروحي للطفل، وكاميلو لم يجد أو لم يرغب في العثور على أسباب أخرى ليغلق الباب أمام العراب.

تـــم التعمـــيد فـــي مذبح مستشفى باليرمو، وفي ضوء المساء البارد في السادســـة تمامـــاً، ولـــم يحضر أحد سوى العرابين وأنا وفلاح بشاله وصندله اقـــترب بشـــكل جـــدي لحضور الحفل دون أن يشعر به أحد، وعندما جاءت سوســـانا بالطفل حديث الولادة أطلق العراب الذي لا يمكن إصلاح حاله أول سخريته:

- سنخلق من هذا الطفل محارباً كبيراً.

رد علـــيه كاميلو الذي كان يعد قرابين القداس باللهجة نسفاً: "نعم، ولكن محاربـــاً فـــي سبيل الله"، ثم بدأ الحفل بقرار فخيم وغريب تماماً عن حفلات التعميد المعروفة وقتها:

- فلنعمده بالأسبانية حتى يفهم المتمنعون ما يعنيه سر الكنيسة.

كان صوته يتردد بالقشتالية عالياً فيما كنت أتبعه عبر لاتينية حفظتها أيام طفولتـــي كمساعد في كنيسة آراكاتاكا، وعند التطهر، اختلق كاميلو شكلاً آخر مثيراً:

- مـــن يعتقدون في أنه في هذه اللحظة تهبط الروح القدس على المولود، فليركعوا.

العـــرابان وأنا بقينا واقفين على أقدامنا، وربما مستاءين بعض الشيء من همهمـــات القـــس الصديق، فيما كان الطفل يتململ تحت المياه الساقطة عليه، والوحـــيد الذي ركع كان الفلاح الهندي بصندله، بقيت هذه الصورة عالقة في ذهنـــي كعقوبة جافة لحياتي، لأنني ظللت على اعتقادي بأن كاميلو دعا الفلاح عن سبق إصرار ليعاقبنا بدرس من التواضع. أو على الأقل، بحسن التربية.

عـــدت لرؤيته مرات قليلة ودائماً لأسباب باهتة وعاجلة، ولها علاقة دائماً بأعمالـــه الصالحة لمساعدة المطاردين سياسياً، فقد ظهر في بيتي صباح أحد الأيـــام عـــندما كنـــت متزوجاً حديثاً ومعه لص خرج لتوه من السجن، ولكن البولـــيس لا يـــريد أن يـــتركه في حاله: كانوا يسرقون منه كل ما يحمل في جـــيوبه. أهديته مرة زوج من الأحذية الرياضية توفر له الحماية، بعدها بأيام، تعرفـــت خادمـــة البيت على الحذاء في صورة مجرم وجدوه قتيلاً في إحدى الحفر. كان صديقنا اللص.

لا أرغـب في أن يكون هذا الفصل له علاقة بنهاية كاميلو، ولكني قابلته بعدها بأشهر قليلة في المستشفى العسكري في زيارة لصديق مريض، ولم أعد أسـمع عنه شيئاً بعدها إلى أن أعلنت الحكومة أنه ظهر من جديد كمقاتل بين رجـال جيش التحرير الوطني. ومات في ٥ فبراير ١٩٦٦ وهو في السابعة والثلاثين، خلال معركة مفتوحة مع إحدى دوريات الجيش.

دخـول كامـيلو للدراسـة اللاهوتية جاء متفقاً زمنياً مع قراري الخاص بالتوقف عن الدراسة في كلية الحقوق، ولكني لم أكن في حالة تساعدني على مواجهة أبوي، علمت من شقيقي لويس انريكي – جاء إلى بوجوتا ليتسلم عملاً جـيداً فـي فبراير ١٩٤٨– أنهما كانا سعيدين جداً بنتائجي بالسنة الأولى في الحقوق، وأرسلوا لي بشكل مفاجئ أحدث آلة كاتبة خفيفة توجد في الأسواق، فكانـت أول ماكيـنة احصل عليها في حياتي، وأقلها حظاً، لأنني رهنتها في الـيوم نفسه باثني عشر بيزو كي أقيم حفل استقبال لشقيقي وزملاء البنسيون. في اليوم التالي، بجنون الصداع، ذهبنا إلى بيت الرهونات للتأكد من أن الآلة الكاتـبة كانـت هـناك سليمة، والتأكد من أنها ستظل كذلك إلى أن ترسل لنا السماء نقود استعادتها، وجاءت فرصة جيدة لاستعادتها بالنقود التي دفعها لي الرسام المزيف، ولكننا قررنا في آخر لحظة تأجيل استعادتها ليوم آخر، وفي كـل مرة كنا نمر فيها أمام بيت الرهونات، سواء كنا معا أم منفصلين، نتأكد مـن الشـارع أن الآلة الكاتبة لا تزال في مكانها، ملفوفة كجوهرة في ورق سـوليفان وعلـيها شـريط من الأورجاندا، بين العديد من الأدوات المنزلية المحكمة الحماية. بعد مرور شهر، حساباتنا التي أجريناها خلال سهرة السكر تلك لم تكتمل، ولكن الآلة الكاتبة ظلت في مكانها سليمة، وكان يمكنها أن تظل هناك ما دمنا ندفع الفوائد في مواعيدها المحددة كل ثلاثة أشهر.

أعـــتقد أنه في تلك الأيام لم نكن على وعي بالتوتر السياسي الذي بدأ يهز الـــبلاد. ورغـــم الاحترام الذي كان يتمتع به الرئيس المحافظ المعتدل اوسبينا بيريـــث فـــي السلطة، فإن معظم حزبه كان يعرف أن انتصارهم كان ممكناً بفضل انقسام الليبراليين، وهؤلاء تحت هول الضربة اتهموا ألبيرتو بيراس بأن حياده الانتحاري كان وراء الهزيمة، أما الدكتور جابرييل تورباي، تحت حمل حالته النفسية الاكتئابية قبل أن يكون بسبب الأصوات المعارضة له، ذهب إلى أوروبا بلا اتجاه معين أو حتى أسباب محددة، بحجة الحصول على تخصص أعلى في مجال جراحة القلب، ومات وحيداً ومهزوماً بالربو بعد عام ونصف مـــن هزيمـــته السياسية بين زهور فندق بالاس أتينيي بباريس. أما خورخي أليثيـــير جايـــتان فلـــم يوقف حملته الانتخابية يوماً واحداً استعداد للانتخابات التالـــية، بـــل إنـــه مارس الدعاية بأعمق ما يكون ببرنامج إصلاحي أخلاقي للجمهورية تعدى الانقسام التاريخي بين الليبراليين والمحافظين، بل قام بتعميق هـــذا الانقسام رأسياً وأكثر واقعية بين المستَغلين والمستغِلين: الوطن السياسي والوطـــن الوطنـــي، بصرخته التاريخية "إلى الأمام"، وبحماسه غير الطبيعي، نشـــر بذرة المقاومة في أقصى الأرجاء بحملة ضخمة مما جعله يكسب أرضاً جديدة في أقل من عام، إلى أن أصبح على أبواب ثورة اجتماعية حقيقية.

فقـــط في هذه اللحظة انتبهنا إلى أن البلاد بدأت تنطلق فيها أول شرارات الحرب الأهلية الكامنة منذ الاستقلال عن إسبانيا، ووصلت إلى أحفاد أبطالها الأصـــليين. أما الحزب المحافظ الذي استعاد رئاسة الجمهورية بفضل انقسام الليبراليـــين بعد أربع دورات انتخابية متتالية، فقد كان مصراً على ألا يفقدها مجـــدداً بكل الوسائل الممكنة، وليحافظ على السلطة استخدمت حكومة أوسبينا بيريث سياسة الأرض المحروقة التي أدمت البلاد ودخلت حتى الحياة اليومية للبيوت.

بعـــدم وعيي السياسي ومن بين غمامي الأدبي لم أنتبه إلى الواقع الظاهر مـــن حولي حتى تلك الليلة التي واجهت فيها شبح وعيي، كانت المدينة خالية، تضـــربها الـــرياح المبللة القادمة من قمم الجبال المحيطة ومسكونة بالصوت المعدنـــي المحكـــم لخورخي أليثيير جايتان في خطابه كل جمعة في المسرح الوطنـــي، سعة المسرح لم تكن تزيد على ألف شخص محشورين حشراً، لكن الخطاب السياسي كان يذاع عبر الموجات المنطلقة؛ أولاً من خلال المكبرات في الشوارع القريبة وبعد ذلك من خلال الإذاعات المنطلقة بكل قوتها كسياط فـــي مناخ المدينة الذاهلة، وكان الخطاب يسيطر على المستمعين بطول البلاد وعرضها لثلاث وحتى أربع ساعات.

انتبهـــت فـــي تلـــك الليلة إلى أنني كنت الوحيد في الشارع، عدا الدورية البوليســـية المرابطة بالقرب من صحيفة "ألتيمبو" لحمايتها كما كانت تفعل كل يـــوم جمعة كما لو كانت في حرب. كان المشهد كاشفاً لي، مما سمح لي بعدم تصـــديق جايتان، وفهمت فجأة في تلك الليلة أنه تخطى الوطن وتعداه إلى لغة الحوار الصريحة للجميع، ليس بما تقوله الكلمات ولكن القلق الذي ينشره ذلك الصـــوت المخادع، فهو نفسه، خلال خطاباته كان ينصح مستمعيه بنبرة أبوية أن يعودوا إلى بيوتهم في سلام، فيما يترجمون هم هذا كما لو كان أمراً للتعبير عـــن رفضهم ضد كل ما يمثل الفوارق الاجتماعية وسلطة الحكومة المطلقة، حـــتى رجـــال البوليس أنفسهم المنوط بهم الحفاظ على النظام يظلون ساكنين بصوت يعكس الأوامر.

كـــان موضوع الخطاب في تلك الليلة كشف حساب فاضح لأعمال العنف الرســـمي الـــناتج عـــن سياســـة الأرض المحروقة للقضاء على المعارضة الليبرالية، بأرقام غير محددة بعدد من القتلى نتج عن أعمال قوات الأمن العام فـــي المناطق الريفية، وقرى كاملة مشردة في المدن بلا سقف أو خبز. وبعد

تعـداد أرقــام متبخرة من الاغتيالات والصدامات، بدأ جايتان في رفع صوته ليستعيد كلماته واحدة بعد الأخرى، جملة بعد الأخرى، برجعية فاشستية مدهشة ومؤكــدة، تصـــاعد قلق الجمهور مع درجات الصوت، إلى أن سبحت لحظة الانفجار النهائي في مناخ المدينة وتردد عبر الإذاعة في أقصى أركان البلاد.

انطلقــت الجموع الغاضبة إلى الشارع في معركة طاحنة في ظل التسامح الســري للبولــيس، أعتقد أنني فهمت في تلك الليلة سبب قنوط الجد وروعة تحلــيلات كاميلو توريس ريستريبو. أدهشني خروج طلاب الجامعة الوطنية سواء كانوا ليبراليين أم قوطيين، وعبر حلقات شيوعية. ولكن الحفرة التي كان يحفــرها جايتان في البلاد كان يجب أن تمر من هناك، وصلت إلى البنسيون ذاهلاً تحت وطأة توتر الليلة فوجدت زميل غرفتي في سيره يقرأ أورتيجا أي جاسيت بهدوء. قلت له:

– جئــت شخصـــاً آخــر يا دكتور بيجا، أعرف الآن كيف ولماذا بدأت حروب الكولونيل نيكولاس ماركيز.

بعدهـــا بأيـــام قليلة – في ٧ فبراير ١٩٤٨– حضرت أول حفل سياسي لجايتان في أول وآخر مرة في حياتي: عرض جنائزي لضحايا العنف الرسمي في البلاد، وسط أكثر من ستين ألف امرأة ورجل في ملابس الحداد، وبأعلام الحزب الحمراء وأعلام الحداد الليبرالي السوداء، كان شعارها واحداً: الصمت الــتام، وتــم تنفيذه بمأساوية مطلقة، وحتى في شرفات البيوت والمكاتب التي شـــاهدت مـــرور العرض خلال الشوارع الإحدى عشر المكتظة بالجماهير، همهمــت سيدة إلى جانبي بصلوات من بين أسنانها. فنظر إليها بدهشة رجل كان يسير إلى جوارها:

– سيدتي، من فضلك.

أصـــدرت هي همهمة أسف وغرقت في شبح المسيرة، إلا أن ما جذبني وأصـــابني باختناق البكاء كان انضباط خطوات وتنفس المتظاهرين بصمتهم الأسـطوري. ذهبـت إلـى هـناك بلا قناعة سياسية، منجذباً بحب استطلاع الصمت، وفجأة شعرت باختناق البكاء في حلقي، كان خطاب جايتان في ميدان بولـيفار، من على شرفة إدارة البلدية، كان خطابه عبارة عن صلاة جنائزية معبقة بحماس مفزع، وضد كل تنبؤات حزبه أنهى خطابه بشعاره المعلن: بلا تصفيق واحد.

هكـذا كانت "مسيرة الصمت" الأكثر حماساً في كل ما جرى في كولومبيا مـن مظاهـرات، طبعـت تلـك الأمسـية التاريخـية، في ذاكرة المؤيدين والمعارضين، إن نجاح جايتان في الانتخابات لن يوقفه أحد، وكان المحافظون يعـرفون هـذا أيضاً، بسبب درجة التلوث الذي نشره العنف الرسمي في كل الـبلاد، نتيجة عنف بوليس النظام ضد الليبرالية غير المسلحة وتنفيذاً لسياسة الأرض المحـروقة. أوضح تعبير عن الحالة التي كانت تعيشها البلاد، عاشه فـي نهايـة الأسبوع جمهور حلبة مصارعة الثيران في ميدان بوجوتا، حيث هاجـت المدرجـات ضـد استسلام الثور وتواضع المصارع وفشله في قتله، فرفضـت الجماهير المتحفزة الهتاف بحياة الثور، شاهد الكثير من الصحفيين والكُـتَّاب ذلـك الرعب أو عرفوا به بالسماع، فسروه على أنه إشارة مرعبة للغضب المكتوم في البلاد.

فـي ذلك المناخ عالي التوتر تم افتتاح القمة الإيبروأمريكية التاسعة، في ٣٠ مـارس فـي السـاعة الرابعة والصف مساء، تم تجديد العاصمة بتكلفة باهظة، برؤية الوزير لاوريانو جوميث الدعائية وتحت إشرافه كرئيس للجنة الإعـداد للمؤتمر، وحضره وزراء خارجية جميع دول أمريكا اللاتينية إضافة إلى الشخصيات الشهيرة في تلك الفترة. وتم دعوة جميع السياسيين الكولومبيين

البارزيـــن في ذلك الوقت كضيوف الشرف، عدا خورخي أليثيير جايتان الذي كان غيابه ملحوظاً، بسبب رفض لاوريانو لدعوته، وربما بسبب رفض بعض الـــزعماء الليبراليـــن الموافقة على مشاركته لكراهيتهم لهجومه على الطبقة السياســـية من كلا الحزبين. أما نجم المؤتمر فقد كان الجنرال مارشال، ممثل الولايـــات المتحدة وبطل الحرب العالمية التي لم تكد تضع أوزارها، وبشهرته كفنان سينمائي، وبخطته التي كان يقودها لإعادة بناء أوروبا المدمرة في تلك الحرب.

إلا أنه يوم الجمعة ٩ أبريل كان خورخي أليثيير جايتان نبأ اليوم، لنجاحه في الحصول على براءة الملازم خيسوس كورتيس بوفيدا المتهم بقتل الصحفي إيـــدورو جلارثـــا أوسا، وصل إلى مكتب المحاماة الذي يمتلكه في حالة من النشـــوة، وفي المعبر بين الطريق السابع وطريق خيمينيث كيسادا، قبل الثامنة صباحاً بقليل، على الرغم من أنه كان في المحكمة حتى قبيل الفجر. كان لديه العديـــد من المواعيد في الساعات التالية، إلا أنه قبل دعوة من بيلينيو مندوثا نـــيرا لتـــناول الطعـــام قبـــيل الساعة الواحدة، وخرج مع ستة من أصدقائه الشخصيين والسياسيين الذين ذهبوا إلى مكتبه لتهنئته بالنصر القضائي الذي لم تســـتطع الصحف نشره بعد، من بينهم طبيبه الشخصي بدرو اليسيو كروث، الذي كان في الوقت نفسه عضواً في جماعته السياسية.

جلســـت فـــي هـــذا المناخ المتوتر لتناول الغداء في مطعم البنسيون الذي أعيش فيه، على بعد أقل من ثلاثة شوارع. لم يكونوا قد قدمي لي الطبق الأول بعد، عندما وقف أمام طاولتي وليفريدو ماتيو مرتعباً. وقال لي:

– لقد انتهى هذا الوطن، لقد قتلوا جايتان أمام القط الأسود.

كـــان ماتـــيو طالباً مثالياً بكلية الطب والجراحة، مولود في سوكري مثل الكثـــير مـــن ســـكان البنسيون، كانت لديه رؤية قاتمة للمستقبل، أعلن لنا من

أسبوع أن المستقبل القريب يحمل نتائج مدمرة، ومن الممكن أن يكون مصرع خورخـي أليثيير جايتان. إلا أن إعلانه هذا لم يدهش أحدا، لأنه لم تكن هناك حاجة لافتراض مثل هذا التنبؤ.

خرجت طائراً لعبور طريق خيمينيث دي كيسادا والوصول مقطوع النفس أمام مقهى القط الأسود، تقريباً مع تقاطع الطريق السابع. كانوا حملوه للتو إلى المستشـفى المركزي على بعد أربعة شوارع من هناك، كان لا يزال على قيد الحـياة ولكن بلا أمل، كانت هناك مجموعة من الرجال يغمسون مناديلهم في الدماء الساخنة ليحتفظوا بها كأثر تاريخي. وسيدة بطرحة سوداء وشبشب من تلك اللواتي يبعن أشياء بخسة الثمن في ذلك المكان، صرخت بالمنديل المدمى:

-أبناء القحبة، لقد قتلوه.

حـاول ماسحو الأحذية المدرعين بصناديقهم الخشبية كسر أبواب صيدلية "نويفـا جـرانادا" المعدنية، حيث كان قلة من رجال البوليس يحتجزون القاتل لحمايته من المتجمعين الغاضبين، كان هناك رجل طويل يبدو واثقاً من نفسه، بملابـس رماديـة محكمـة كما لو كان في عرس، كان يحرضهم بصرخات محسوبة جيداً. جاءت صرخاته بنتيجة، فقد اضطر صاحب الصيدلية إلى رفع الستارة المعدنية خوفاً من إحراقها، والقاتل متمسك بحماية البوليس. أثار الذعر بيـن مجموعة من الغاضبين الذين انقضوا عليه، فيما كان يتوسل بلا صوت تقريباً:

- يا رجل البوليس، لا تدعهم يقتلوني.

لـم أستطع نسيانه أبداً، كان شعره مشوشاً، وذقن غير حليق من يومين، وشـحوب الموتـى على وجهه وعيناه جاحظتان من الرعب، يرتدي بدلة من القطيفة البنية قديمة جداً وبخطوط رأسيه وعراويها ممزقة من جذب المتحلقين حولـه، كانت لحظة خاطفة وأبدية، لأن ماسحي الأحذية جذبوه من بين يدي

البوليس ضرباً بالصناديق وأنهوا عليه بالأقدام، خلال سقطته الأولى فقد فردة حــذاء. فــيما أمــر الرجل المرتدي البدلة الرمادية الذي لم يتم التعرف على شخصيته أبداً صارخاً:

– إلى القصر، إلى القصر.

خضـــع له الجمـــع الغاضب، وجذبوا جسد القاتل من قدميه وسحبوه على أرضـــية الطـــريق السابع باتجاه ميدان بوليفار، ما بين عربات الترام الأخيرة المتوقفة بسبب الخبر، مطلقة أبواق الحرب ضد الحكومة، وانطلقت الصرخات والتصفيق من على الأرصفة والشرفات، فيما كانت الجثة الممزقة بالضربات تترك أجزاء من الجسد والملابس منثورة في الشارع، انضم العديد من الناس إلى المسيرة، التي تضخمت خلال مرورها في أقل من ست شوارع كدوامات الحرب، لم يبق من الجسد سوى ملابسه الداخلية وفردة حذاء.

مـــيدان بوليفار، حديث الإصلاح، لم يكن في أفضل حالاته التاريخية كما كـــان في أيام الجمعة الأخرى، فقدت الأشجار براعتها وارتدت التماثيل جمالاً رســـمياً، وفي الكابيتول الوطني، حيث أُقيم قبل عشرة أيام المؤتمر الأمريكي اللاتينـــي، كـــان المشاركون في ساعة تناول الغداء، وهكذا استمرت المسيرة الجماهـــيرية حتى القصر الرئاسي، الخالي من حراسه، وتركوا هناك ما تبقى مـــن الجـــثة العارية عدا ما تبقى من الملابس الداخلية وفردة الحذاء اليسرى، ورباطي عنق غير مفهومين معقدوين حول الرقبة، بعدها بدقائق وصل رئيس الجمهورية ماريانو اسبينا بيريث وزوجته بعد الانتهاء من غدائهما، حيث كانا يحضـــران حفل افتتاح معرض لتربية الماشية في قرية أنجاتيفا، كانا يجهلان الخبر حتى تلك اللحظة لأن راديو الأتوموبيل الرئاسي كان مغلقاً.

بقيت في مكان الجريمة حوالي عشر الدقائق، مندهشاً من سرعة اختلاف رؤيـــة الشـــهود المتغيرة الشكل والموضوع إلى أن يفقد الحدث أي علاقة له

بـــالواقع. كـــنا في تقاطع شارعي خيمينيث والطريق السابع، في لحظة ذروة المرور وعلى بعد خمسين خطوة من مقر صحيفة "ألتيمبو"، عرفنا وقتها أسماء المرافقيـــن لجايـــتان عـــند خـــروجه مـــن مكتبه، كانوا بدرو أليسيو كروث وألـــيخاندرو بايـــيخو وخورخـــي باديا وبلينو مندوثا نايرا، وزير الحرب في حكومة ألفونسو لوبث بوماريخو الأولى، وكان هو من دعاه إلى تناول الغداء. كـــان جايتان قد خرج من المبنى الذي يقع به مكتبه، بلا حراسة من أي نوع، محاطاً بمجموعة من الأصدقاء المقربين، وفجأة سحبه مندوثا من ذراعه وتقدم به خطوة عن الآخرين، وقال له:

- ما أريد أن أقوله لك.

لـــم يســـتطع إكمال الجملة، فقد غطى جايتان وجهه بذراعه وسمع مندوثا الطلقة الأولى قبل أن يرى أمامه رجلاً يسدد مسدسه ويطلق ثلاث طلقات على رأس الزعـــيم ببرود قاتل محترف، بعدها بلحظة تحدثوا عن طلقة رابعة بلا اتجاه، وربما خامسة أيضاً.

بيلينـــيو أبوليو مندوثا الذي وصل مع أبيه وأخوته، وألبيرا وروسا أنيس، أمكـــنه مشـــاهدة جايـــتان ملقى على الرصيف قبل دقيقة واحدة من نقله إلى المستشـــفى، وقص لي بعدها: "لم يكن يبدو ميتاً كان كتمثال مؤثر ممدد على ظهـــره على الرصيف، بجوار بقعة من الدم القليل وحزن كثير ينبع من عينيه المفتوحتيـــن الثابتتين"، خلال لحظات الهرج والمرج الأولى اعتقد أشقاؤه أن أبيهم مات أيضاً، فكانوا منزعجين إلى درجة أن بيلينيو أبوليو رفعه إلى الترام الـــذي مـــر من هناك ليبعده عن المكان، لكن السائق انتبه إلى ما حدث، ألقى بقبعـــته علـــى الأرض وغادر الترام في وسط الشارع وانضم إلى الصرخات الأولى للتمرد، بعدها بدقائق كان أول ترام تقلبه الجماهير المجنونة.

الخــلاف حــول عدد المشاركين ودور كل منهم كان واضحاً، هناك من الشــهود مــن أكدوا أنهم كانوا ثلاثة تتابعوا في إطلاق النار، وآخر يقول إن القاتل الحقيقي اندس بين الجماهير الغاضبة وذهب بهدوء في أول ترام مر من هــناك، حــتى مــندوثا نايرا كان يريد أن يطلب من جايتان عندما أخذه من ذراعــه، قلــيلاً مــن ما تم الكلام عنه بعد ذلك، بل كان يريد أن يطلب منه تصريحاً بإنشاء معهد لإعداد الزعماء العماليين، أو، كما سخر منه حماه قبلها بأيــام: "مدرسة لتعليم السائقين الفلسفة"، ولم يتمكن من أن يقول له شيئاً عندما انفجرت أمامهم أول طلقة.

بعد خمسين عاماً، لا تزال ذاكرتي مركزة على الرجل الذي يبدو أنه كان يحــرض الــناس أمــام الصــيدلية، ولم أعثر عليه في أي مكان في أي من الشــهادات التــي قرأتها عن ذلك اليوم، لقد رأيته عن قرب، بملابس فاخرة، وجلده كان لامعاً كالرخام وسيطرة كاملة على تحركاته، وهذا لفت نظري إلى درجــة أنني ظللت أتتبعه إلى أن التقطته سيارة جديدة تماماً بمجرد رفع جثة القاتل، ومنذ تلك اللحظة يبدو ممحواً من الذاكرة التاريخية، وحتى من ذاكرتي أنــا، وحتى سنوات طويلة بعد ذلك خلال عملي كصحفي، قفز إلى ذهني أن ذلــك الــرجل نجح في أن يحرض على قتل قاتل مزيف ليحمي هوية القاتل الحقيقي.

خــلال تلــك اللحظــات الخارجة عن نطاق السيطرة كان هناك الزعيم الطلابي فيديل كاسترو، في العشرين من عمره، ممثلاً لجامعة هافانا لحضور مؤتمر طلابي منعقد كرد ديمقراطي على مؤتمر الدول الايبروأمريكية. كان قد وصــل منذ حوالي ستة أيام قبل ذلك، برفقة الفريدو جيفارا وانريكي أوفاريس ورفائيل ديل بينو – طلاب كوبيون مثله– وكانت أول تحركاته طلب مقابلة مع خورخــي أليثيــير جايــتان، الذي كان معجباً به، وبعد يومين التقى كاسترو

بجايـــتان، وتواعـــد معه على لقائه الجمعة التالية، وكتب جايتان هذا الموعد بنفسه في أجندة مكتبه، وفي الصفحة الموافقة ليوم ٩ أبريل: "فيدل كاسترو، ٢ مساء".

وطبقاً لما قاله هو نفسه للعديد من وسائل الإعلام وفي فرص عدة، وخلال اســتعادة الحادث مرات لا تُعد طوال علاقة الصداقة القديمة التي تجمعنا، أن فــيديل عــرف بـــأول خبر عن الجريمة عندما كان يسير بالقرب من المكان انــتظاراً لحلول موعد اللقاء بينهما. ولكنه فوجئ ببداية الهرج على الصرخة العامة:

– قتلوا جايتان.

لم ينتبه فيديل حتى مرور بعض الوقت، إلى أن موعده ما كان له أن يتم بـــأي حال من الأحوال قبل الرابعة أو الخامسة بسبب دعوة الغداء التي قدمها مندوثا نايرا لجايتان.

لـــم يكـــن هناك شخص آخر في مكان الجريمة، فقد كان المرور متوقفاً والترامات مقلوبة، لذلك توجهت إلى البنسيون لإنهاء غدائي، عندما اعترضني أستاذي كالوس باريخا أمام باب المكتب وسألني إلى أين أنا ذاهب، فقلت له:

– ذاهب لتناول طعام الغداء.

– عليك اللعنة.

قالها لي، بطريقة الكاريبي الغاضب:

–كيف تجرؤ على الغداء وقد قتلوا جايتان.

ودون أن يترك لي وقتاً لأي كلام آخر، أمرني أن أذهب إلى الجامعة وأن أقود مظاهرة الاحتجاج الطلابية، الغريب أنني أخذت بنصيحته ضد طبيعتي، وتابعت السير عبر الطريق السابع باتجاه الشمال، بعكس اتجاه المحتجين الذين

كـــانوا يهـــرولون باتجـــاه مكـــان الجـــريمة استجابة لحب الاستطلاع والألم والغضـــب. كانـــت أتوبيســـات الجامعة يقودها الطلاب المتحمسين في مقدمة المظاهـــرة، وفي حديقة سانتاندير على بعد مائة متر من موقع الجريمة، كان العمـــال يســـدون الطريق بكل سرعة أمام فندق جرانادا – الأكثر فخامة في المديـــنة– حيـــث يقـــيم في تلك الأيام وزراء خارجية وضيوف مؤتمر الأمم الإيبروأمريكية.

فـــيما كانـــت مجموعة من الفقراء يتجمهرون في جميع الاتجاهات، كثير منهم مسلحون بسكاكين سرقوها من بعض الحوانيت في بداية تظاهرهم، ويبدو أنهـــم متشوقون لاستخدامها. أما أنا فلم أكن على وعي واضح بنتائج الاغتيال الممكـــنة، وكنت لا أزال أفكر في الغداء أكثر من الاحتجاج، ولذلك عدت إلى طريقي حتى البنسيون، صعدت الدرج قفزاً متأكداً من أن أصدقائي المسيسين يشـــاركون في الحرب، لكن لا: كان المطعم لا يزال خالياً، وشقيقي وخوسيه بالنسيا – يسكنان في الغرفة المجاورة– يغنيان برفقة زملاء الغرفة، صرخت:

– قتلوا جايتان.

أشاروا بما ينبئ أنهم يعرفون بالخبر، ولكنهم كانوا في حالة استرخاء أكثر مـــنهم في حالة حزن جنائزي، ولم يقطعوا أغنيتهم، جلسنا بعدها لتناول الغداء فـــي المطعم الخالي، مقتنعين بأنه لن يحدث هنا أي شئ، إلى أن رفع أحدهم صوت المذياع لينتبه من لم ينتبه، فقام كارلوس باريخا بالتأكيد على ما قاله لي ســـاعات قبلها، وأعلن عن تشكيل المجلس الثوري للحكومة المكون من أشهر الليبراليـــن اليســـاريين، من بينهم وأكثرهم شهرة الكاتب والسياسي خورخي ثالامـــيا. أول اتفـــاق توصلوا إليه كان تشكيل اللجنة التنفيذية، وقيادة البوليس الوطني، وكل المؤسسات الدستورية للدولة، بعدها تحدثوا عن أعضاء آخرين من اللجنة لهم اتجاهات غير مقبولة.

أول مـــا فكرت فيه خلال جلال الموقف ما يمكن أن يفكر فيه أبي عندما يعلـــم أن ابـــن عمـــه، القوطي صعب المراس، كان الزعيم الأكبر لثورة من اليســـار المـــتطرف. فوجئـــت صاحبة البنسيون أمام حجم أسماء المرتبطين بالجامعـــة أنهم لم يتصرفوا كأساتذة بل كطلاب سيئي التربية، كان يكفي قلب رقميـــن مـــن الـــزاوية لنجد أنفسنا في بلد مختلف. في الإذاعة الوطنية، كان الليبراليون الرسميون يدعون إلى الهدوء، وفي إذاعات أخرى كانوا يحرضون ضـــد الشيوعيين التابعين لموسكو، بينما الزعماء الليبراليين الرسميين الكبار يـــتحدون أخطـــار الشـــارع المشتعل، ويحاولون الوصول إلى قصر الرئاسة ليتوصلوا إلى اتفاق وحدوي مع الحكومة المحافظة.

ظللـــنا علـــى ذهولـــنا بسبب اختلاط الأمور إلى أن صرخ ابن صاحبة البنسيون فجأة بأن البيت يحترق، هذا صحيح، تم فتح كوة في الجدار الموجود في العمق، ودخان أسود وثقيل بدأ في تعبيق هواء غرف النوم، كان قادماً ولا شك من مبنى الحكومة المحلية المجاور للبنسيون، الذي أشعل المتظاهرون فيه النار، ولكن الجدار كان قوياً وقادر على الاحتمال، لذلك هبطنا من على الدرج قفـــزاً لنجد أنفسنا في مدينة في حالة حرب، المعتدون كانوا يلقون عبر النوافذ مـــا يعثرون عليه في مكاتب الحكومة المحلية، وضَبَّبَ دخان الحرائق الهواء، وتحولت السماء إلى غطاء قاتل، فيما جماعات غاضبة، مسلحة بالسكاكين وكل أنـــواع الأدوات المسروقة من محلات الحدائد، يقفزون على المحال التجارية بطـــول الطـــريق الســـابع والشوارع المجاورة ويشعلون فيها النار بمساعدة البولـــيس المـــتجمع هـــناك، نظرة واحدة كانت كافية لمعرفة أن الحالة خارج السيطرة، سبق شقيقي تفكيري بصرخة:

– اللعنة، الآلة الكاتبة.

جريـــنا باتجاه بيت الرهونات الذي كان سليماً حتى تلك اللحظة، وبوابته المصـــنوعة من القضبان الحديدية مغلقة بإحكام، ولكن الآلة الكاتبة لم تكن في مكانهـــا الـــذي كانت فيه دائماً، لم ننزعج، وفكرنا أنه يمكننا استعادتها خلال الأيـــام القادمة، دون أن ننتبه بعد إلى أن هذه الكارثة المريعة لن يكون بعدها أيام تالية.

٦

في نهاية يوم من الارتجاجات القاتلة في الطرقات المنحنية، وصلت سيارة وكالـــة البريد إلى مكانها الذي تستحقه: غرزت في كومة من السمك المتعفن علـــى بعد نصف فرسخ من كارتاخينا. "من يسافر على ظهر شاحنة لا يعرف مكان موته"، استعدت ذكريات جدي. المسافرون المحشورون عراة طوال ست ساعات في الشمس ورائحة البحر العفنة دفعتهم إلى القفز دون انتظار لوضع ســلم الــنزول، وبدأوا في إلقاء الدجاجات من الفتحات وصرر الموز وجميع أنــواع الأشــياء القابلــة للبيع أو الموت التي استخدموها للجلوس على سطح الشاحنة، قفز السائق وأعلن بصوت زاعق:

- لا أوريكا.

كــان ذلك الاسم الرمزي المعروفة به كارتاخينا لأمجادها الماضية، التي يجب أن تكون هناك، لكنني لم أرها لأنني لم أكن قادراً على التنفس في بدلتي القطيفــية الســوداء التــي أرتديها منذ ٩ أبريل. البدلتان الأخريان في حقيبة ملابســي انتهتا النهاية نفسها التي انتهت إليها الآلة الكاتبة في بيت الرهونات، ولكن الحكاية المشرفة التي قصصتها على أبوي كانت أن الآلة الكاتبة وأشياء شخصية أخرى اختفت خلال التمرد. السائق المتسلط، الذي سخر خلال الرحلة مــن شــكلي اللصوصي، كان يضحك ملء شدقيه عندما شاهدني ألف وأدور حول نفسي دون أن أعثر على المدينة، وصرخ فيّ وفي الآخرين:

- إنها في خلفيتك، واحترس فهم هناك يكرمون الجبناء.

كارتاخيــنا دي انديـــاس، بالضبط، كانت خلف ظهري منذ أربعمائة عام، ولكن لم يكن سهلاً عليّ تخيلها على بعد نصف فرسخ من أكوام العفونة، كانت مختبــئة خلــف أســوار عظــيمة حافظت عليها من هجمات قراصنة أيامها

العظـيمة، وانتهــت إلى الاختفاء خلف أكوام من الأشجار الفارعة برؤوسها الصفراء، لذلك انضممت إلى تجمع المسافرين وسحبت الحقيبة على الحشائش الموشـــاة بسرطانات البحر الحية التي كانت قواقعها تنفجر كصواريخ صغيرة تحــت كعوب الحذاء، ولم يكن عسيراً عليّ أن أتذكر الآن اللفة التي قذف بها زملائـــي إلـــى نهر ماجدالينا في رحلتي الأولى، أو الصندوق الجنائزي الذي سحبته بطول البلاد باكياً من الحنق خلال سنوات الليسيه الأولى، وانتهيت إلى أن أكــون في النهاية حاملاً لدرجة البكالوريا. كنت أعتقد دائماً أن هناك شيئاً لـــيس لـــي فـــي هذه الحمولات الزائدة عن الحد التي لا أستحقها ، ولم تكن السنوات الطويلة في حياتي كافية لتكذيبها.

ما كدنا نلمح أشكال بعض الكنائس والأديرة في ضباب المساء حتى هبت علينا سحابة من الوطاويط الطائرة على رؤوسنا ، وفقط بقدرة الطبيعة لم تلق بنا إلى الأرض، كانت أصوات أجنحتها تشبه انطلاقة البرق وتترك من ورائها رائحة الموت، تركت الحقيبة من مفاجأة الرعب وانحنيت على الأرض رافعاً ذراعيّ على رأسي، إلى أن صرخت فيّ امرأة عجوز كانت تسير إلى جانبي:

– صل صلاة البديعة.

أي: الصـــلاة السرية لفك سحر هجوم الشيطان، تلك الصلاة الملعونة من الكنيسة والمقدسة من كبار الملحدين عندما لا يصلون إلى حد التجديف. انتبهت الســيدة إلى أنني لم أكن أعرف الصلوات، أمسكت بحقيبتي من الطرف الآخر لتساعدني على حملها، وقالت لي:

– صل معي، ولكن هكذا: بإيمان.

وهكـــذا بـــدأت تملي عليّ أشعار "البديعة" وكنت أردد من ورائها بصوت مرتفع وبإيمان لم أشعر به أبداً بعد ذلك. أما سحابة الوطاويط، التي لا يمكنني أن أصـــدق وجودها اليوم، اختفت في السماء قبل أن ننهي صلاتنا. فقط بقي

صوت البحر العظيم في جرف الشاطئ.

وصلنا باب الساعة الكبير. طوال مائة سنة كان هناك جسر متحرك يربط المديـــنة القديمة بحزام حي "خيتسماني" وأكواخ الفقراء المتراكمة، لكنهم كانوا يرفعون الجسر من التاسعة مساء حتى الفجر، يبقى سكانها معزولين ليس فقط عـــن بقية العالم بل وعن التاريخ أيضاً. يقولون إن المستعمرين الإسبان بنوا ذلـــك الجسر خوفاً من قيام فقراء الأحياء الهامشية بالهجوم عليهم في منتصف الليل وذبحهم أثناء نومهم، إلا أنه يبدو أن شيئاً من حسناته بقيت بالمدينة، لأنه كـــان كافـــياً لي أن أخطو خطوة واحدة داخل الأسوار لأراها في كل عظمتها تحـــت الأضـــواء الورديـــة للسادسة مساء، ولم أستطع كتم مشاعر إحساسي بالميلاد من جديد.

لم يكن أقل من هذا، فقد تركت بوجوتا في بداية الأسبوع غارقة في بحيرة من الدماء والطين، والجثث المجهولة ترقد بين بقاياها المحترقة. وفجأة، ينقلب العـــالم إلـــى آخر في كارتاخينا. لم يكن هناك أثر للحرب التي تدمر البلاد ، وكنت أبذل جهداً لأفهم هذه العزلة وذلك البحر الواسع وذلك الإحساس بما كان يحدث لي في أسبوع واحد، وفي الحياة نفسها.

مـــن كثرة ما سمعت من أحاديث عنه ، منذ ميلادي، تعرفت على الميدان الـــذي كانت تتوقف فيه عربات الخيول وعربات الكارو التي تجرها الحمير، وفـــي العمق حيث توجد حوانيت السوق الشعبي الذي يزدحم بالبهجة، وإن لم يكـــن معترفاً به في الذاكرة الرسمية بهذا الوصف، فقد كان آخر قلوب المدينة النابض منذ ميلادها، كانوا يسمونها خلال الاستعمار "باب التجار"، ومنه كانوا يســـيطرون علـــى تحـــريك تجارة العبيد في الخفاء، ويتم إشعال النفوس ضد المحـــتل الإســـباني، أســـموه بعد ذلك باب الكتبة، لجلوس الكتبة بصدرياتهم القطيفـــية والأكمام المستعارة يكتبون رسائل الحب وكل أنواع الوثائق للأميين

الفقـــراء. معظمهم كانوا باعة كتب ممنوعة، وبشكل خاص الكتب التي كانت تمـــنع تداولهـــا محـــاكم التفتـــيش، ويعتقد أنهم كانوا أدوات التآمر ضد أحفاد الإســـبان، ومـــع بدايات القرن العشرين كان أبي يمتحن قدراته كشاعر بكتابة رســـائل الغـــرام في هذا الباب، وللحقيقة لم ينجح في هذه المهنة كما فشل في غـــيرها لأن بعض زبائنه الفقراء لم يكونوا يطلبون منه كتابة الرسائل فقط بل ويطلبون منه خمسة ريالات لإرسالها بالبريد.

يســـمونه منذ عدة سنوات باب الحلوى، بمظلاته العفنة والشحاذون الذين يـــأتون لتـــناول الطعام من مخلفات السوق، وصرخات الحرب الهندية للذين يقبضـــون الثمـــن غالياً حتى لا يبلغوك بساعة موتك المشئومة، وتتأخر سفن الكاريبـــي الشـــراعية فـــي الميناء لشراء الحلوى ذات الأسماء الجريئة التي يخـــترعها صـــناعها ويـــنادون علـــيها بالغناء: "الجردة للقردة"، و"الشياطين للعيانيـــن"، و"والجـــوز لفرقع لوز"، و"البانيلا لمانويلا". بالطيب والرديء فإن "الـــباب" لا يزال كما كان مركز المدينة التي يتم فيها مناقشة أمور الدولة من خلـــف ظهـــر الحكومة، والمكان الوحيد في العالم الذي يعرف فيه الباعة اسم الحاكم القادم قبل أن تختار بوجوتا رئيس الجمهورية.

خـــلال الإعجاب اللحظي بالضجيج، فتحت طريقي معرقلاً بحقيبتي التي أجرجرها بين الزحام في السادسة مساء، وقف عجوز بارز العظام ونظر إليّ دون أن تـــرمش عيـــناه مـــن رصيف ماسحي الأحذية، كانت عيناه باردتين. توقفـــت فجأة عن السير، وما أن لاحظ أنني رأيته حتى عرض عليّ أن يحمل حقيبتي، شكرته، فقال في لغته الأم:

– ثلاثون جدياً.

مستحيل، ثلاثون سنتيماً لحمل حقيبة يعتبر قضمة هائلة للبيزوات الأربعة التي أحملها في جيبي حتى يصلني دعم أبوي الأسبوع القادم، قلت له:

– هذا ثمن الحقيبة بكل ما تحتويه.

إضافة إلى أن البنسيون الذي سألتقي فيه مع جماعة بوجوتا لم يعد بعيداً، فوافــق العجوز على ثلاث جديان، وعلق الحبال التي يحملها في عنقه ووضع الحقيــبة على كتفه بقوة أكبر من قدرة عظامه، أسرع كعداء بقدميه الحافيتين عــبر صف من البيوت الكولونيالية الكالحة بمرور القرون، كاد قلبي يقفز من فمي برغم سنواتي العشرين محاولاً ألا يضيع العداء الأولمبي عن عيني ذلك الذي اعتقدت أنه لم يتبق له من الحياة سنوات كثيرة، وبعد خمس شوارع دخل بــاب الفندق الكبير وقفز السلم درجتين درجتين. ووضع الحقيبة على الأرض دون أن يبدو عليه التعب ومد كفه:

– ثلاثون جدياً.

ذكــرته بأنني دفعت له، لكنه أصر على أن السنتيمات الثلاثة أجر الحمل حــتى الــبوابة ولا تتضــمن الصعود على السلم، أكدت صاحبة الفندق التي خرجــت لاســتقبالنا كلامه: صعود السلم له أجر منفصل. وقدمت لي وصفة نفعتني بقية حياتي:

– سترى أن كل شئ مختلف في كارتاخينا.

ثــم واجهت النبأ السيئ بعدم وصول أي من رفاقي في بنسيون بوجوتا، وإن كانت هناك حجوزات مؤكدة لأربعة أفراد، من بينهم أنا، وطبقاً للبرنامج المــتفق عليه معهم أن نلتقي في الفندق قبل السادسة مساء في ذلك اليوم، لكن تغيير الأتوبيس الاعتيادي بشاحنة وكالة البريد أخرني ثلاث ساعات، ومع ذلك كنــت أنا أول من وصل قبل الجميع مع عجزي عن عمل أي شئ بالبيزوات الأربعة التي أملكها، ينقصها الثلاثة وثلاثون سنتيماً، فصاحبة الفندق كانت أماً حــنوناً لكنها عبدة لقواعدها الخاصة، فقد كان يجب التأكيد على الإقامة خلال الشــهرين فــي فندقها ولم تقبل تسجيلي إذا لم أدفع الشهر الأول مقدماً: ثمانية

عشر بيزو، متضمنة ثلاث وجبات يومياً في غرفة لستة أفراد.

لم يكن من المنتظر أن تصل مساعدة أبوي قبل أسبوع، ولهذا السبب فإن حقيبتي لن تمر من الباب ما لم يصل أصدقائي الذين يمكنهم مساعدتي، جلست في انتظارهم على كرسي مزين بزهور مرسومة، كنت متعباً بعد يوم كامل تحت الشمس الحارقة في شاحنة سوء حظي. الحقيقة لم يكن هناك أحد يثق في أحد في تلك الأيام، واتفاقنا على اللقاء هناك في ساعة محددة ويوم محدد بالضبط كان اتفاقاً يفتقد إلى الواقعية، لأننا لم نجرؤ على أن نقول ولا حتى لأنفسنا إننا في بلد في حالة حرب دامية ولها أذيالها في المقاطعات منذ سنوات، ومفتوحة وقاتلة في المدن منذ أسابيع.

بعد مرور ثمان ساعات، جالساً في فندق كارتاخينا لم أفهم ما الذي حدث لخوسيه بالنسيا وأصدقائه، فبعد ساعة من الانتظار دون خبر جديد، خرجت للتعرف على الشوارع الخالية. كان الليل يهبط مبكراً في أبريل، وكانت الأضواء العامة مشتعلة وكانت فقيرة جداً حتى كان يمكن الخلط بينها والنجوم بين قمم الأشجار، دورة واحدة من خمس عشرة دقيقة بين منحنيات الجزء الكولونيالي كانت كافية لاكتشاف – بفرح كبير – أن تلك المدينة ليس لها أدنى علاقة بتلك المدينة الأثرية المحفوظة التي كانوا يحدثوننا عنها في المدارس.

لم يكن هناك أحد في الشارع، زحام البشر الذين جاءوا مع الفجر من الأحياء الهامشية للبيع والشراء انسحبت إلى أحيائها في الخامسة مساء، وسكان الحي المسور انغلقوا في بيوتهم للعشاء ولعب الدومينو إلى منتصف الليل. امتلاك السيارات الخاصة كان من عادات السكان خارج الحي المسور، والخدمات القليلة لتلك السيارات بقيت خارج الأسوار، ولا يزال الموظفون يأتون إلى الميدان في أتوبيسات مصنوعة محليا، ومن هنا يتجهون إلى مكاتبهم أو قفزاً على حوانيت باعة الأشياء الرخيصة المعروضة على الأرصفة العامة.

وظل أحد حكام المدينة يأتي من حي المختارين ليصل إلى ميدان العربات في الأتوبيس نفسه الذي كان يذهب فيه إلى المدرسة.

عــدم دخــول الســيارات كــان إجبارياً لأنه يجري عكس حركة الواقع التاريخـــي: لم تكن الشوارع الضيقة كافية لسير تلك السيارات في الحي القديم دون أن تصــيب خــيول العــربات. وخلال الأيام الحارة جداً، عندما يتم فتح الشــرفات لــيدخل نســيم الحدائــق، كنا نسمع الحوارات الخاصة جداً كتردد أصوات الأشباح، والعجزة كانوا يستمعون إلى الخطوات المترددة على أرضية الشوارع الحجرية، كانوا يصغون إليها دون أن يفتحوا عيونهم ليتعرفوا عليها، ويقولون: "هناك تسمع خطوات خوسيه ذاهباً إلى حيث تسكن تشابيلا"، والشيء الوحــيد في الحقيقة الذي يثير غيظ النائمين كانت ضربات قطع الدومينو على الطاولات، التي كانت ترن في الحي المسور كله.

كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، فما أكاد أتعرف على واقع كتابات الفلسفة الكلامية في الكتب التي هزمتها الحياة، فقد شعرت بالبكاء أمام قصور النبلاء القدامــى هــي نفســها التي كانت أمام عيني، بلا أبواب وينام الصعاليك في مداخلهــا. شاهدت الكاتدرائية بلا نواقيس لأن القرصان فرانثيس ريك أخذها ليصــنع مــنها مدافع. والقلة التي نجت من النهب أصابها الصدأ بعد أن حكم علــيها ســحرة الدين بالحرق في النيران بسبب أصواتها الكريهة الرنين التي تدعو للشيطان. شاهدت الأشجار الذابلة والتماثيل التي لم تكن تبدو منحوتة من الــرخام بــل موتــى من لحم ودم، لأنها لم تكن محفوظة في كارتاخينا ضد الأكســدة بــل العكس تماما: الزمن يحفظ الأشياء على أصولها بينما العصور تهــرم، كان الأمر كذلك حتى ليلة وصولي، فقد كشفت لي المدينة عن حياتها الخاصــة، ليست كأثر كرتوني صنعه المؤرخون، بل كمدينة من لحم ودم لم تعد تعتمد على الأمجاد العسكرية بل على كرامة بقاياها.

عـدت إلى البنسيون بهذه الروح الجديدة، كانت تدق الساعة العاشرة في بـرج الساعة، أخبرني الحارس نصف النائم أن أصدقائي لم يصلوا بعد ولكن حقيبتـي في أمان بمخزن الفندق، حينها فقط انتبهت إلى أنني لم آكل شيئاً منذ إفطـار بارانكـيا الرديء، وساقاي خائرتان من أثر الجوع، ولكني كنت على اسـتعداد لتقبل مجرد أن تتركني صاحبة البنسيون أنام هذه الليلة على كرسي في الصالون. ضحك الحارس من حسن نيتي، وقال بلهجته الكاريبية الحادة:

– لا تكـن بريـئا، بكـل أكوام الأموال التي تمتلكها السيدة فهي تنام في السابعة مساء وتستيقظ في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي.

رأيـت أنه سبب وجيه فجلست على كرسي في حديقة بوليفار، في الناحية الأخـرى مـن الشارع، في انتظار وصول أصدقائي دون إقلاق أحد. لا تكاد الأشجار الذابلة تظهر للعيان في ضوء الشارع، لأن أعمدة الإنارة تضاء فقط أيام الأحد وفي الأعياد الرسمية، والكراسي الرخامية كانت عليها آثار كتابات ممحـوة ومُعاد الكتابة عليها بأيدي شعراء قبحاء. وفي قصر محاكم التفتيش، خلـف الواجهـة الملكـية المحفـورة من الحجارة وبوابتها التي تشبه بوابة كاتدرائـية، كانت تسمع أنات طائر مريض لا يمكن أن يكون منتمياً إلى هذا العـالم. رغبتـي فـي التدخين قفزت في تلك اللحظة مع رغبتي في القراءة، إدمانـان اختلطا في شبابي، فتذكرت "النقطة المعاكسة" رواية ألدوس هيكسلي التـي منعني الرعب من مواصلة قراءتها في الطائرة، كنت أنام ومعي مفتاح حقيبتـي، أشـعلت السـيجارة الأخيرة بإحساس غريب بالراحة والرعب، ثم أطفأتها في منتصفها كاحتياط لليلة بلا صباح.

الآن وأنـا فـي حالة استعداد كامل للنوم على كرسي الحديقة الذي كنت أجلس عليه، بدا لي أن شيئاً كان مختفياً بين ظلال الأشجار الثقيلة، كان تمثال سيمون بوليفار، ولا أقل من الجنرال سيمون خوسيه انطونيو دي لا سانتيسيما

ترينـــيداد بولـــيفار أي بلاثيوس، بطلي الأوحد منذ أن أمرني جدي، بملابس الشرف اللامعة ورأس إمبراطور روماني، وعليه براز النوارس.

لا يزال شخصيتي التي لا تُنسى، على الرغم من تناقضاته أو ربما بسبب تلـك التناقضـــات نفسها، ففي النهاية لا يمكن مقارنتها بتلك التي حصل جدي بسببها على درجة كولونيل، ووضع حياته في خطر من أجلها في الحرب عدة مرات محافظاً على وقوف الليبراليين ضد الحزب المحافظ الذي أسسه سيمون بولـــيفار، كنـــت غارقـــاً في تلك الحكايات الضبابية عندما أعادني إلى الواقع صوت حاد من خلف ظهري:

– يداك إلى أعلى.

رفعـــتهما فرحاً، من المؤكد أنهم أصدقائي ، فإذا بي أجد نفسي أمام اثنين من جنود البوليس في خرق مهلهلة، يوجهان إليّ بنادقهما الجديدة، كانا يريدان أن يعرفا لماذا خرجت على حالة حظر التجول التي تطبق في هذه الساعة، لم أكن أعرف حتى أنهم طبقوا حظر التجول الأحد الماضي، كما أخبراني بذلك، ولا حتى استمعت صفارة حظر التجول أو ناقوسها أو أي شئ آخر يسمح لي بمعـــرفة منع السير في الشوارع، كان الجنديان متضايقان أكثر منهما رحيمان بـــي، عـــندما اطلعـــا على أوراق هويتي بينما كنت أشرح لهما لماذا كنت أنا هناك، أعادا إلي الأوراق دون الاطلاع عليها، وسألاني عن النقود التي أحملها في جيبي وقلت لهما إنني لا أملك سوى أربعة بيزوات، في تلك اللحظة طلب منـــي الأكثر سلاطة لسان أن أقدم له سيجارة، أريته بقايا السيجارة التي معي والتـــي كنت أفكر في تدخينها قبل النوم، أخذها مني ودخنها هو حتى احترقت أصـــابعه. بعد قليل أخذوني من ذراعي وساروا بي بطول الشارع، فيما أعتقد لرغبـــتهما في التدخين أكثر من رغبتهما في تطبيق القانون، بحثنا عن دكان مفـــتوح لشـــراء سجائر فرط من فئة السنتيم، كانت الليلة ساكنة ورطبة تحت

القمـــر المكتمل، والصمت كان مادة غير مرئية يمكن تنفسه كالهواء. في تلك اللحظة فهمت ما كان يقصه علينا أبي دون أن نصدقه، عندما كان يتدرب على الكمان فجراً في صمت المقابر ليشعر بأن ألحان فالس الحب يمكن سماعها في جميع أنحاء الكاريبي.

بعـــد التعب من البحث عن السجائر، خرجنا من الأسوار باتجاه رصيف الميـــناء ، حيـــث الحياة هناك لها نوعية أخرى خلف السوق، التي ترسو فيها السفن المدرعة وأخرى أصغر حجماً، كان مكان الساهرين المرحين والنافعين للمديـــنة، لهـــم الحق في الحصول على تصريح بالسير ليلاً بعد تطبيق حظر التجول بسبب مهنتهم، يأكلون حتى وقت متأخر من الليل في مطاعم في الهواء الطلق وبأسعار رخيصة ورفقة أفضل، فهناك يتوجه ليس فقط العمال الليليين ، بـــل كـــل من يريد أن يأكل عندما لا يكون هناك طعام في أي مكان، لم يكن للمكان اسم رسمي ويطلقون عليه اسماً لا ينطبق عليه أبداً: الكهف.

وصـــل رجـــلا البوليس إلى هناك كما لو كانا في بيتهما، كان واضحاً أن الزبائـــن الجالســـين على الطاولة يعرفونهما من وقت بعيد ويشعران بالراحة بيـــنهم، مـــن الصـــعب معرفة الألقاب لأنهم جميعاً يتعاملون بأسماء الشهرة ويـــتحدثون بصوت مرتفع جميعاً في نَفَس واحد دون أن يفهم أي منهم الآخر، ولا حـــتى ينتظرون الرد ولا النظر في وجوه بعضهم البعض، يرتدون جميعاً ملابـــس العمل، عدا واحداً كان يرتدي بدلة اسموكنج من عهد آخر وله رأس أشيب، بجواره زوجته الكبيرة السن التي لا تزال عليها مسحة من جمال قديم والكثـــير مـــن الحلي الذهبية، حضورها ربما يكون علامة على مهنتها، لأن النســـاء اللاتي يسمح لهن رجالهن بالجلوس هناك كن قليلات جداً بسبب سوء شـــهرة المكان، كان يمكنني أن أعتقد أنهما سائحين لولا المرح البادي عليهما واللهجـــة المختلطة وعلاقتهما بالجميع. بعدها عرفت أنهما ليس كما يمكن أن

يـــدل عليه مظهرهما، ولكنهما زوجين عجوزين من كارتاخينا ضلا طريقهما ويـــرتديان ملابس السهرة لأي سبب من الأسباب ليتناولا طعام العشاء خارج البيـــت، وفـــي تلـــك الليلة وجدا مضيفهما نائماً والمطاعم مغلقة بسبب حظر التجول.

صاحب الكهف وجرسونه الوحيد اسمه "خوسيه دولوريس"، زنجي مراهق تقريباً، جميل جمالاً مقلقاً، يلتف بحرام ناصع البياض كالذي يرتديه المسلمون، ودائمـــاً مـــا يضع وردة قرنفل خلف أذنه، ولكن أكثر من يبدو فيه ظاهراً هو ذكـــاؤه الـــزائد عن الحد، الذي يعرف كيف يستخدمه بلا حدود ليكون سعيداً ويسعد من حوله، كان واضحاً أنه ينقصه القليل جداً ليصبح امرأة، وله شهرة لهـــا مـــا يبررها بأنه ينام فقط مع زوجه. لم يحاول أحد أن يمزح معه حول وضـــعه، لأنه يمتلك طريقة وسرعة للرد ، فلا تمر حسنة دون شكر أو سوء نية دون رد، يقوم وحده بعمل كل شئ، من أول الطبخ عارفاً بما يفعل ويعرف ما يفضله كل زبون، إلى قلي قطع الموز الأخضر بيد وتلقي حسابات الزبائن بالـــيد الأخرى، دون مساعدة من أحد عدا طفل في حوالي السادسة من عمره يناديه بماما. عندما انصرفنا شعرت أنني ممتن لهذا الاكتشاف، ولم اكن أتخيل أن هـــذا المكان الذي يأوي إليه الساهرون سيكون واحداً من الأماكن التي لا يمكن أن أنساها في حياتي.

بعـــد تـــناول الطعام رافقت الجنديين لاستكمال جولاتهما المتأخرة. بدأت نســـمات الصـــباح فكانت تحمل معها من بعيد مقطوعات موسيقية وصرخات نابعـــة من حالة سعادة بعيدة، لكن رجلي البوليس كانا يعرفان أنه في الأكواخ الفقـــيرة لا أحـــد يذهب إلى السرير تنفيذاً لحظر التجول، بل يقيمون حفلات الرقص كل ليلة في بيت مختلف، دون الخروج إلى الشارع حتى مطلع الفجر.

عـــندما دقـــت الساعة الثانية توجهنا إلى الفندق متأكدين أن أصدقائي قد

وصـــلوا، لكـــن الحــــارس لعننا لأننا أيقظناه من نومه بلا فائدة، فانتبه رجلا البولـــيس لحظـــتها أننـــي لا أملـــك مكاناً لقضاء الليل فيه، فقررا أخذي إلى معســـكرهما، اعـــتقدت أنهـــا ســـخرية زائدة عن الحد أخرجتني عن طوري فشتمتهما، أحدهما، فوجئ برد فعلي الرجولي، فأوقفني عند حدي بوضع فوهة الرشاش في بطني. وقال لي ضاحكاً:

– لا تكـــن جـــباناً، تذكر أنك لا زلت مقبوضاً عليك بسبب خرقك لحظر التجول.

وهكـــذا نمت أول ليلة سعيدة لي – في غرفة حجز لستة أفراد على سرير غارق في عرق الغرباء– في كارتاخينا.

الغوص حتى أعماق روح المدينة كان أسهل من الحياة في أول يوم، قبل مرور أسبوعين كنت قد توصلت إلى حل لعلاقتي مع أبوي، اللذين وافقا بلا تحفظ على قراري الحياة في مدينة بعيدة عن الحرب. صاحبة الفندق، النادمة على حكمها عليّ بالنوم أول ليلة في السجن، أسكنتني مع عشرين طالباً آخرين فـــي عنبر حديث البناء على سطح بيتها الكولونيالي الجميل. لم أشكو من شئ لأنـــه كان نسخة كاريبية طبق الأصل من غرفة نوم الليسيه الوطني، ويكلف أقل من بنسيون بوجوتا ، شاملا كل شئ.

دخـــول كلـــية الحقـــوق تـــم حله في ساعة واحدة من خلال امتحان أمام الســـكرتير، أجناثـــيو بيليث مارتينيث، أستاذ الاقتصاد السياسي، لم أتمكن من العـــثور على اسمه في ذاكرتي. كان كالعادة، في حضور طلاب السنة الثانية جمـــيعاً، من خلال الظلال لفت انتباهي وضوح الحكم ولغة الأساتذة المحددة، فـــي منطقة شهيرة داخل البلاد بألعابها اللفظية. أول موضوع، كان من خلال يانصيب، حرب الانفصال في الولايات المتحدة، التي كنت أعرف عنها القليل جـــداً إن لـــم يكـــن لا شـــئ، كانـــت خسارة أنني لم أكن قد قرأت الروائيين

الأمريكيين الجدد، الذين لم يكادوا يصلون إلينا، لكني كنت محظوظاً بأن الدكتور بيليث مارتينيث بدا محاضرته العرضية برواية "كوخ العم توم" التي كنت أعرفها جيداً منذ البكالوريا، أمسكت فوراً بموضوعها، يبدو أن الأستاذين الآخرين كانا تحت تأثير ذكريات قديمة، فقد ذهبت الستون دقيقة المحددة للامتحان في عرض حماسي عن مخازي النظام العبودي في الولايات المتحدة. وتوقفنا عند هذا الحد، بشكل ما كنت أعتبره لعبة الروليت الروسية انتهت إلى أن يكون الامتحان مجرد محادثة شيقة استحقت درجات جيدة وبعض التصفيق الحميم.

وهكذا دخلت الجامعة لإنهاء السنة الثانية في القانون، مع وعد لم أكمله أبداً بالتقدم لامتحان تكميلي كملحق في مادة أو مادتين كانتا باقيتين من السنة الأولى في بوجوتا، بعض الزملاء تحمسوا لطريقتي في التعامل مع الموضوعات، لأنهم كانوا فيما بينهم يتفقون على الحرية التعبيرية في جامعة ساكنة في الصرامة الأكاديمية، كانت تلك من أحلامي اليومية منذ الليسيه، ليس لعدم اقتناعي المجاني بل لأنها كانت أملي الوحيد لاجتياز الامتحانات بلا استذكار. إلا أنهم هم أنفسهم الذين كانوا ينادون بالاستقلالية في الفصول لم يتمكنوا سوى الخضوع أمام القدر، فكانوا يتقدمون للامتحانات بمجلدات غير عادية من كتب النصوص الاستعمارية التي حفظوها عن ظهر قلب. لحسن الحظ، فقد كانوا أساتذة مدربين على فن البقاء على قيد الحياة في الرقص أيام الجمعة، رغم أخطار القمع التي كانت تتزايد كل يوم بشكل فاضح من خلال اتفاقات مع النظام العام يتم توقيعها باليد اليسرى بينما ظل حظر التجول قائماً، وعندما انتهى حظر التجول ولدوا من جديد بطريقتهم في القمع السابق عليه، خاصة في توريثيس وخيتسماني أو عند أقدام جبال البوبا، كانت تلك المنطقة تضم الأحياء الأكثر مرحاً خلال تلك الأيام المظلمة، كان يكفي النظر من النافذة لاختيار الحفل الذي نفضله أكثر من غيره، وبخمسين سنتيماً يمكن

الرقص حتى الفجر تحت تأثير الموسيقى الأكثر اشتعالاً في الكاريبي، مضخمة برنيـــن المكـــبرات. والرفيقات المدعوات على شرف الحفل كن هن أنفسهن الطالبات اللاتي كنا نراهن خلال خروجهن من المدرسة طوال الأسبوع، فقط كـــن يرتديـــن الملابـــس الموحـــدة للذهاب إلى قداس الأحد، ويرقصن كنساء مرشـــحات للحـــياة الطيـــبة تحت مراقبة أعين العمات الخبيرات أو الأمهات الليبرالـــيات. في إحدى تلك الليالي كنت أسير في حي خيتسيماني، الذي كان خـــلال الاســـتعمار حياً لسكن العبيد، تعرفت كنوع من الإشارة ، ضربة على الظهر ، والصوت الذي لا يمكن إنكاره:

– أيها الصعلوك.

لقـــد كان مانويل ثاباتا أوليفايي من سكان شارع مالا كريناثا، حيث كانت تعيش عائلة أجداده الأفارقة. تعرفنا على بعض من قبل في بوجوتا، في وسط نـــيران ٩ أبـــريل، وكانت أول دهشة لنا في كارتاخينا أن يعثر كل منا على الآخـــر علـــى قـــيد الحياة، مانويل إضافة إلى أنه كان طبيباً متصدقاً فقد كان روائـــياً، وناشـــطاً سياسياً وداعية للموسيقى الكاريبية، لكن موهبته المسيطرة كانـــت حـــل مشاكل كل الناس، لم نكد نتبادل خبرات تجربتنا في يوم الجمعة المشؤوم وخططنا للمستقبل، حتى عرض أن أجرب حظي في الصحافة. قبلها بشهر أنشأ الزعيم الليبرالي دومينجو لوبث ايثكاورياسا صحيفته "اليونفرسال" وكـــان يـــرأس تحريرها مانويل ثابالا. كنت سمعت عنه ليس كصحافي ولكن كمطلـــع علـــى جميع أنواع الموسيقى وكشيوعي متقاعد، أصر ثاباتا أوليفايي علـــى أن نذهـــب لمقابلته، لأنه يعرف أنه كان يبحث عن أشخاص جدد ليقدم المـــثال على صحافة خلاقة ضد الصحافة الروتينية المسالمة التي تتربع على عـــرش الإعـــلام في البلاد، وبشكل خاص في كارتاخينا، التي كانت في ذلك الوقت من المدن المتخلفة.

كنت أعرف بشكل واضح أن الصحافة ليست مهنتي، كنت أريد أن أكون كاتباً مختلفاً، ولكني كنت أحاول أن أكون كذلك من خلال تقليدي لكُتّاب آخرين لا علاقــة لهــم بي، لذلك كنت في تلك الأيام في حالة هدنة تأملية، لأنه بعد قصصي الثلاث في بوجوتا التي أشاد بها كثيراً إدواردو ثالاميا ونقاد آخرون وأصــدقاء جــيدون وسيئون، كنت اشعر أنني في حارة مسدودة. أصر ثاباتا أوليفايــي – ضد كل مبرراتي – على أن الصحافة والأدب سينتهيان في نهاية الأمر إلى أن يكونا شيئاً واحداً، وعلاقة مع "اليونفرسال" يمكنها أن تؤمن ثلاثة اتجاهــات فــي واحد: حل مشكلة حياتي بشكل كريم ونافع، العمل في وسيلة إعــلام مهنــية وهــي مهنة محترمة في حد ذاتها والعمل مع كليمنتي مانويل ثابــالا، أفضــل أســتاذ في الصحافة يمكنني أن أتخيله، صعوبة الخجل التي أصابتني به تلك المبررات البسيطة جداً أمكنها أن تنقذني من كارثة، لكن ثاباتا أوليفايي لم يكن يعرف الحياة بلا مواجهة الفشل، وتواعد معي في اليوم التالي فــي الخامسة مساء في المبنى رقم ٣٨١ بشارع سان خوان دي ديوس، مقر الصحيفة.

نمــت فــي تلك الليلة نوماً متقطعاً. وفي اليوم التالي، في الإفطار، سألتُ صاحبة الفندق أين يقع شارع سان خوان دي ديوس، وأشارت لي بإصبعها من النافذة، وقالت لي:

– هناك، على بعد شارعين من هنا.

كانت هناك مكاتب "اليونفرسال" أمام الجدار الحجري الضخم لكنيسة سان بــدرو كليفر أول قديس في الأمريكتين، بجسده السليم معروضاً من أكثر من مائــة عــام تحــت المذبح الأكبر، في مبنى كولونيالي قديم محاط بترقيعات جمهورية وبابين كبيرين ونوافذ يمكن منها رؤية الصحيفة. لكن رعبي الحقيقي كــان خلــف شرفة بلا حواجز خشبية على بعد ثلاثة أمتار من النافذة: رجل

ناضـــج ووحـــيد ويرتدي بدلة بيضاء وربطة عنق. داكن البشرة وشعر جاف وأسود يشبه شعر الهنود، كان يكتب بقلم رصاص على مكتب قديم بين أوراق مـــتراكمة. عـــدت من جديد للسباحة عكس أحاسيس متناقضة، تشككت مرتين وفـــي الثالثة والرابعة لم يكن لدي شك في أن هذا الرجل هو كليمنتي مانويل ثابـــالا، تماماً كما تخيلته، لكنه أكثر إثارة للخوف، اتخذت قراري مرتعباً بألا أذهـــب إلـــى الموعـــد في ذلك المساء مع رجل يكفي رؤيته من خلال النافذة لأكتشـــف أنـــه يعـــرف أكثر من اللازم عن الحياة والمهن. عدت إلى الفندق وأهديـــت نفسي يوماً آخر من تلك الأيام التي لا أشعر فيها بالندم ، راقداً على ظهري في سريري مع رواية "حوافظ النقود المزيفة" لأندريه جيد، وأدخن بلا توقـــف. فـــي الخامســـة مساء، انفتح باب الغرفة بعنف بضربة خشنة كطلقة رشاش. وصرخ ثاباتا أوليفايي عند دخوله:

– هـــيا علـــيك اللعنة، ثابالا ينتظرك، لا أحد في هذا البلد يمكنه أن يدعه ينتظر.

في البداية كان الأمر أصعب مما تخيلته في كابوس، استقبلني ثابالا دون أن يعرف ماذا يفعل، كان يدخن بلا توقف إضافة إلى اختناق الحر، طاف بنا فـــي الصـــحيفة كلها، من ناحية توجد إدارة التحرير والمكاتب الإدارية، ومن الناحـــية الأخرى صالة التحرير والورشة بثلاثة مكاتب خالية في تلك الساعة المـــبكرة، وفـــي العمـــق كانت هناك ماكينة طباعة خارجة لتوها من الحرب وماكينتي لينوتيب وحيدتين.

كانـــت مفاجأة كبيرة أن ثابالا قرأ قصصي الثلاث ويرى أن مقالة ثالاميا عني عادلة، فقلت له:

– أنـــا لا أرى ذلك، فأنا لا أحب تلك القصص، كتبتها بشكل غير واعي وبعد أن قرأتها مطبوعة لم أعد كيف أستمر.

نفث ثابالا الدخان بعمق وقال لثاباتا أوليفايي:

– هذه علامة طيبة.

انـــتهز مـــانويل الفرصـــة بسرعة وقال له إنني يمكن أن أكون نافعاً في الصـــحيفة خلال أوقات فراغي بالجامعة، فقال ثابالا إنه فكر في الشيء نفسه عندما طلب منه مانويل موعداً لمقابلتي، قدمني للدكتور لوبث أثكاوريانثا مدير الصحيفة كمتعاون محتمل عن ما تحدثا فيه في الليلة السابقة.

قال المدير بابتسامته الأبدية كفارس قديم:

– سيكون أمراً عظيماً.

لـــم نتفق على شئ لكن الأستاذ ثابالا طلب مني أن أعود في اليوم التالي ليقدمنـــي لهيكـــتور روخـــاس هيريثو، الشاعر والرسام الممتاز وكاتب عمود أساسي. لم أقل له إنه كان أستاذي في مادة الرسم بمدرسة سان خوسيه نتيجة خجلي الذي لا أجد له مبرراً حتى اليوم. عند خروجي من هناك، قفز مانويل فـــي مـــيدان الجمارك من فرط السعادة، أمام واجهة كنيسة سان بدرو كليفر، وصرخ بفرحة سابقة لأوانها:

– لقد رأيت، أيها النمر، المستقبل مفتوح أمامك.

أجبـــته بعـــناق ودي حـــتى لا أحـــبطه، لكنني كانت لدي شكوكي حول مستقبلي، حينها سألني مانويل رأيي في ثابالا، فأجبته بالحقيقة، أرى أنه صائد أرواح، ربما كان هذا هو السبب الرئيسي للمجموعات الشبابية التي تتغذى من حـــذره، أنهيـــت، لا شك أن مظهره الخادع كعجوز قبل الأوان، وربما كانت طريقته في التعامل وراء إحباط دوره في الحياة العامة في البلاد.

هاتفنـــي مـــانويل ليلاً غارقاً في الضحك من أثر حوار له مع ثابالا، فقد حدثـــه هـــذا عني بحماس كبير، وأشار إلى ثقته في أنني سأكون إضافة مهمة

لصـــفحة الـــرأي، وأن المديـــر كان يعتقد الشيء نفسه، لكن السبب الحقيقي لمكالمـــته كـــان يريد أن يقص عليّ أن الشيء الوحيد الذي يزعجه هو خجلي المريض الذي يمكن أن يكون عقبة كبيرة في حياتي.

إذا كنت قررت في آخر لحظة العودة إلى الصحيفة ، ذلك لأن زميلي في الســـكن فتح باب الحمام ووضع أمامي صفحة الرأي في "اليونفرسال"، كانت هـــناك مقالـــة مرعبة حول وصولي إلى المدينة، تلزمني ككاتب قبل أن أثبت أننـــي كاتـــب ، وكصحافي قبل أربع وعشرين ساعة من رؤيتي لصحيفة من الداخل أول مرة في حياتي، أما مانويل الذي هاتفني تليفونياً على الفور ليهنئني فقد حملته مسئولية كتابة هذا بغضب شديد قبل أن يستشيرني، إلا أن شيئاً تغير فـــي حياتي وربما إلى الأبد، عندما علمت أن المقالة كتبها الأستاذ ثابالا بخط يـــده، فقمت بارتداء بنطلوني وعدت إلى صالة التحرير لأشكره، فقدمني إلى هيكـــتور روخـــاس هيريـــثو، الذي كان يرتدي بنطلوناً كاكياً وقميصاً مزيناً بالزهور الأمازونية، وكلمات كبيرة منطلقة من صوته الجهير، الذي لا يتوقف عـــن الحـــوار حتى يمسك بفريسته. تعرف عليّ هو، بالطبع، كتلميذ من بين تلاميذ مدرسة سان خوسيه في بارانكيا.

الأســـتاذ ثابالا – كما يناديه الجميع– وضع في حوارنا ذكرى صديقين أو ثلاثة مشتركين، وآخرين يجب أن أتعرف عليهم، ثم تركنا بعدها وحدنا وعاد إلى حربه الطاحنة مع قلمه الرصاص يكتب على أوراقه العاجلة، كما لو كان منقطع الصلة تماماً عنا، واصل هيكتور حديثه معي عن قطرات اللينوتيب كما لـــو لـــم تكن له مع ثابالا أي علاقة، كان متحدثاً لا يتعب، مع ذكاء لغوي لا يُعلـــى علـــيه، وكـــان مغامراً خيالياً يخترع وقائع بعيدة الاحتمال ينتهي إلى تصديقها هو نفسه، تحدثنا لساعات طويلة عن أصدقاء آخرين أحياء أو أموات، وكتـــب مـــا كـــان يجب كتابتها أبداً، وعن نساء نسينهن وأخريات لا نستطيع

نســياهن، وعــن شواطئ الغرام الكاريبية في تولوو – حيث ولد هو – وعن السحرة وكوارث آراكاتاكا التوراتية، عن كل ما كان وما كان يجب أن يكون، دون أن نشــرب شيئاً، ودون أن نكاد نتنفس، ولكننا كنا ندخن بشراهة كما لو كنا نخاف ألا تعطينا الحياة الفرصة لنتحدث عن كل ما نريد أن نتحدث عنه.

في العاشرة ليلاً، عندما تم إغلاق الصحيفة، وضع الأستاذ ثابالا الجاكيت، وأمسك برباط عنقه، وبخطوات راقص باليه بقيت له من الشباب، ودعانا إلى تناول الطعام، في الكهف، كما كان متوقعاً، حيث كانت تنتظره مفاجأة خوسيه دولوريس وعدد من زبائنه المتخلفين الذين تعرفوا عليّ كزبون قديم، وازدادت المفاجــأة عندما مر أحد الجنديين اللذين رافقاني خلال زيارتي الأولى وأطلق نكــتة حول ليلتي الأولى في المعسكر وصادر مني علبة سجائر لم أكن دخنت مــنها شيئاً، وتولى هيكتور مع خوسيه دولوريس القيام بحوار مزدوج المعنى أضحك الحاضرين أمام صمت الأستاذ ثابالا المتواطئ، وتجرأت أنا على حشر بعــض الــردود غير المضحكة أفادتني على الأقل ليتعرفوا عليّ كواحد من الزبائــن القليلين الذين يخصهم خوسيه دولوريس بالطعام المؤخر الدفع حتى أربع مرات في الشهر.

بعد تناول الطعام، واصلنا هيكتور وأنا حديث المساء على ممر الشهداء، الــذي تكومــت أمامه بقايا قمامة السوق الشعبي. كانت ليلة رائعة في مركز العــالم، أعطانــي هيكــتور فــي فجر تلك الليلة أول خيوط التاريخ السري لكارتاخينا، الغارقة في حمام من الدموع، والتي ربما تكون أقرب إلى الحقيقة منها إلى خيال الأكاديميين المتواطئ، حدثني عن الشهداء العشرة الذين كانت أنصبتهم التذكارية على جانبي الميدان تخليداً لبطولاتهم، تقول الحكاية الشعبية – يبدو أنها حكايته هو – إنهم عندما وضعوا النصب الأصلية لم يكن النحاتون قــد كتبوا أسماء الشهداء بعد ولا تواريخهم، لذلك عندما رفعوها لحفرها عليها

لم يعرفوا أي منها يعود إلى أي من الشهداء والتواريخ، فاضطروا إلى وضعها بشـكل عشـوائي دون معـرفة أي من تلك النصب تشير إلى أي من هؤلاء الشـهداء، دارت الحكاية كنكتة لسنوات طويلة، لكنني فكرت، على العكس من ذلـك، أنـه كـان حالة من حالات العدالة التاريخية التي تولت منح القدسية المجهولة بلا أسماء ولا اهتمام بنهايتهم المشتركة.

تكـررت تلك الليالي الساهرة يومياً تقريباً خلال سنواتي في كارتاخينا، ولكن منذ الليلة الأولى أو الثانية انتبهت إلى أن هيكتور كانت لديه القدرة على الجاذبـية اللحظـية، وبرؤية معقدة للصداقة لا يفهمها إلا نحن من نحبه كثيراً وبلا تحفظ، فقد كان رقيقاً وقادراً في الوقت نفسه على الانفجار غضباً واحياناً بنـتائج كارثية، يحتفل بها بعد ذلك على أنها من أفضال الإله الصغير. كنت أفهـم حالـته في ذلك الوقت، واكاذا كان ثابالا يقوم بالمستحيل لأننا كنا نحبه جـداً. فـي الليلة الأولى، مثل ليال أخرى، بقينا في ممر الشهداء حتى بزوغ أضواء الفجر الأولى، تحمينا من حظر التجول مهنتنا كصحافيين، كان لهيكتور صوت وذاكرة حادين ، فعندما شاهد انعكاس اليوم الجديد على صفحة البحر، قال:

– أتمنى أن تنتهي هذه الليلة كما في "كاسا بلانكا".

ولـم يـزد شيئاً، لكن صوته كشف ببريقه عن صورة همفري بوجارت وكلـود رايـنز يسيران كتفاً لكتف في ضباب الفجر باتجاه الأفق اللامع وتلك الجملة العظيمة للنهاية المأساوية السعيدة: "هذه بداية صداقة عظيمة".

اسـتيقظت بعدهـا بثلاث ساعات على هاتف من الأستاذ ثابالا بجملة أقل سعادة:

– إلى أين وصلت في هذا العمل الكبير؟.

احتجت إلى بضع دقائق لأفهم أنه كان يشير إلى تعاوني مع الصحيفة في

الـــيوم التالي، لا أذكر أننا توصلنا إلى أي اتفاق، ولا أنني قلت لا نعم ولا لا عـــندما طلـــب مني كتابة أول مقال، لكنني شعرت في ذلك الصباح أنني قادر علـــى القيام بأي شئ بعد المسابقة الكلامية الأوليمبية لليلة السابقة، من الممكن أن يكـــون ثابالا قد فهمها على هذا النحو، فقد كان قد حدد بعض موضوعات افتتاحية اليوم ، وأشرت عليه بموضوع آخر اعتقدت أنه أكثر حضوراً: حظر التجوال.

لم يقدم لي أية توجيهات، كنت أريد أن أقص مغامرتي في أول ليلة لي في كارتاخينا وهذا هو ما فعلته، كتبتها بخط يدي، لأنني لم أعرف التفاهم مع الآلة الكاتـــبة التاريخـــية الموجودة في إدارة التحرير، كانت عملية ولادة في أربع ســـاعات تقريباً ، وقام الأستاذ بمراجعتها دون أدنى علامة على وجهه تكشف عن وجهة نظره، إلى أن عثر على الطريقة الأقل مرارة ليقوله لي:

– ليست سيئة، ولكن من المستحيل نشرها.

لـــم يفاجئنـــي، بل على العكس، كنت أتوقع رأيه، وشعرت للحظات بأنه خفـــف عني حمل أن أكون صحافياً، ولكن أسبابه الحقيقية، التي كنت أجهلها، كانـــت حاسمة: منذ ٩ أبريل يوجد في كل صحيفة رقيب من الحكومة يجلس علـــى مكتب في إدارة التحرير كما لو كان في بيته من السادسة مساء، ويملك سلطة منع نشر حرف واحد يمكن أن يشير إلى الأمن العام.

كانـــت لأســـباب ثابالا بالنسبة ثقلا أكثر من ذلك الثقل الذي تمثله أسباب الحكومة وأنا لم أكتب تقريراً صحافياً بل رأي شخصي في حدث خاص دون أن أهدف إلى كتابة افتتاحية صحافية، أيضاً، أنني لم أتناول حظر التجول كأداة حكومـــية شـــرعية، ولكن كأداة استخدمها رجلا البوليس ليحصلا على سجائر ثمـــنها سنتيماً واحداً. لحسن الحظ، قبل أن يصدر حكم الإعدام عليّ، أعاد لي الأســـتاذ ثابالا المقال الذي يجب أن أُعيد كتابته من البداية، لا ليقرأه هو ولكن

ليقرأه الرقيب، وتمنى عليّ إلا يزيد على ورقتين، قال لي:

– الموهبة الأدبية أنت تمتلكها، هذا لا يمكن الشك فيه، ولكن سنتحدث عن هذا فيما بعد.

هكذا كان هو، منذ اليوم الأول لي في الصحيفة، وعندما تحدث معي ثابالا ومـــع ثاباتا أوليفايي، أثار انتباهي عادته الغريبة في الحديث بالنظر إلى وجه الآخر، فيما تكون أظافره على شعلة السيجارة نفسها، في البداية سبب لي هذا إحساســاً بعــدم الأمان المقلق، وأكثر الأشياء الغبية التي حدثت معي، بسبب الخجــل المطلــق، كان عندما استمعت إليه بانتباه حقيقي واهتمام كبير، ولكن دون أن أنظــر إلــيه هــو بل إلى مانويل لأتوصل من وجهيهما إلى نتائجي الخاصـــة. بعدها، عندما تحدثنا مع روخاس هيارثو، وبعدها مع المدير لوبث أســكاورياثا، ومـــع آخرين، انتبهت إلى أنها كانت عادة ثابالا الخاصة عندما يــتحدث مع مجموعة من الناس، وفهمته على هذا النحو، وهكذا استطعنا هو وأنـــا أن نتبادل الأفكار والمشاعر عبر تواطؤ آخرين غافلين ووسطاء أبرياء، مـــع ثقـــة الأيام تجرأت على أن أخبره برأيي هذا، وشرح لي هو دون أدنى دهشة انه كان ينظر إلى الآخر جانبياً حتى لا يلقي بدخان السجائر في وجهه، لقـــد كـــان هكـــذا: لم أعرف في حياتي شخصاً عنده فضيلة الصبر والهدوء، وبإحساس متمدين مثله، لأنه عرف دائماً أن يكون ما أراد: علامة في الظل.

فـــي الواقـــع، كنـــت كتبت من قبل خطباً وأشعاراً ناقصة الاكتمال خلال وجـــودي فـــي ليسيه ثيباكيريا، ونداءات وطنية، ومذكرات احتجاج عن سوء الأغذية، والقليل الآخر منه رسائلي إلى العائلة التي كانت أمي تعيد لي بعضها بعـــد تصحيح أخطائي الإملائية حتى وأنا معترف بي ككاتب، وأخيراً تم نشر المقال في صفحة الافتتاحية ولكن لم تكن له علاقة بمقالي الذي كتبته. ما بين تدخـــلات الأستاذ ثابالا والرقيب، ما تبقى لم يكن أكثر من نثر غنائي لا معنى

ولا أسـلوب له ، وأنهى عليها التطرف اللغوي للمصحح، في الساعة الأخيرة اتفقـنا على عمود يومي، ربما لتحديد المسئولية، باسمي كاملاً وتحت عنوان: نقطة ومن أول السطر.

تمكن ثالالا وروخاس، بخبرتهما الطويلة، من مساعدتي على تخطي هموم مقالـي الأول، وبعدها تجرأت على مواصلة كتابة المقال الثاني والثالث، فكانا أفضـل. وبقيـت في التحرير عامين تقريباً أنشر مقالين يوميين بتوقيع وبلا توقيع، وكنت على وشك الزواج من ابن شقيق الرقيب.

لا زلـت أتسـاءل كيف كان يمكن أن تكون حياتي دون قلم الأستاذ ثابالا وضـغوط الـرقابة، التي كان وجودها تحدياً خلاقاً، ولكن الرقيب كان أكثرنا انتباهاً لهوسه بالقمع، فالإشارة إلى كبار الكُتَّاب كان يعتقد أنها شراك خداعية تثير الشبهة، كما كانت في الكثير منها تهدف إلى هذا، كان يرى أشباحاً حيث لا توجـد، كان عاشقاً لثربانتيس كلاماً ، فكان يفترض معان متخيلة، في ليلة من لياليه السيئة الحظ قضى في الحمَّام ربع ساعة، واعترف لنا مرة أنه كان على وشك الجنون بسبب حالات الرعب التي كنا نتسبب له فيها، فصرخ:

– اللعنة، بهذه السرعة لن يتبقى لي مؤخرة.

تم تجييش البوليس كنوع من التعبير عن حزم الحكومة في العنف السياسي الذي كان يدمي البلاد، مع قليل من الاعتدال في مناطق الشاطئ الأطلنطي، إلا أنـه في بدايات مايو أطلق البوليس النار بلا أسباب واضحة على مسيرة دينية بميدان الكارمن دي بوليفار خلال احتفالات الأسبوع المقدس، على بعد عشرين فرسـخاً مـن كارتاخيا، وأنا كنت أشعر بضعف خاص تجاه تلك البلدة، حيث نشأت العمة ماما، وحيث اخترع جدي أسماكه الذهبية، فيما كان الأستاذ ثابالا مولوداً في قرية سان خاثينتو المجاورة، فطلب مني طلباً غريباً وهو أن أتولى أمـر الافتتاحية خلال تلك الأحداث دون أدنى اهتمام بتعليمات الرقابة وتحمل

كل تبعاتها، فكان مقالي الأول بلا توقيع في صفحة الرأي طالبت فيه الحكومة إجراء تحقيق حول الحادث ومعاقبة المسئولين عنه، وأنهيت المقال بسؤال: "ما الـــذي حـــدث في بلدة الكارمن دي بوليفار؟". وأمام الصمت الرسمي، وخلال حـــرب مفتوحة مع الرقابة، قررنا الاستمرار في طرح السؤال مع مقال يومي فـــي الصفحة نفسها وبقوة متزايدة، وعلى استعداد لإثارة غضب الحكومة إلى أكثر مما هي غاضبة. وبعد ثلاثة أيام، تأكد مدير الصحيفة لثابالا إن كان متفقاً مـــع إدارة التحرير كلها، وكان هو موافقاً أنه يجب علينا أن نستمر في طرح الموضوع، ولذلك ظللنا نطرح السؤال، مع ذلك الشيء الوحيد الذي وصلنا من الحكومـــة: إنهم أصدروا أمراً أن يتركونا وحدنا نطرح الموضوع كما لو كنا مجموعـــة من المجانين وحتى تتوقف أسطوانتنا وحدها، لم يكن الأمر سهلاً، لأن ســـؤالنا اليوم كان في الشارع على كل لسان كتحية شعبية: "أهلاً يا أخي: ماذا حدث في بلدة كارمن ديل بوليفار؟".

فـــي ليلة هادئة أغلقت دورية مسلحة من الجيش شارع خوان دي ديوس بضجيج هائل من الأصوات والسلاح، ودخل الجنرال أرنستو بولونيا بويو قائد البولـــيس المجـــيش بخطوات واثقة إلى مبنى اليونفرسال، كان يرتدي ملابسه العســـكرية البيضـــاء التي يستخدمها في الاحتفالات الكبرى، وسيفه معلق إلى جانـــبه بخـــيوط مـــن الحرير، وكانت أزراره تلمع كما لو كانت من الذهب، يســـتحق شـــهرته كرجل أنيق ولطيف، رغم أننا كنا نعرف أنه صعب خلال لحظات الحرب والسلام ، وهو ما استطاع إثباته بعد ذلك بسنوات عندما كان يقود الفرقة الكولومبية في الحرب الكورية. لم يتحرك أحد طوال ساعتين من الـــتوتر التي تحدَّث خلالها مع المدير خلف الباب المغلق، شربوا خلالها اثنين وعشـــرين فـــنجاناً من القهوة السوداء، بلا تدخين ولا كأس خمر واحد، لأن كلاهمـــا لم يكن يمارس هذه العادة. كان الجنرال لا يزال متوتراً بعد خروجه رغـــم أنه ودعنا واحداً واحداً، ومعي توقف أكثر قليلاً من غيري، ونظر إلى

عيني بشكل مباشر بعيني قط متوحش، وقال لي:

– حضرتك ستصل بعيداً.

قفـز قلبـي بين ضلوعي، لأنني فكرت أنه يعرف كل شئ عني والبعيد بالنسبة له يمكن أن يكون الموت، وخلال الحوار بين المدير وثابالا عن حواره مـع الجنرال كشف له أنه كان يعرف أسماء وألقاب كُتَّاب مقالات الافتتاحيات اليومـية، وقـال المدير في إشارة تكشف عن شخصيته أنه أكد له أنها أوامره الخاصـة، وأن الأوامر في الصحف تماماً مثل الأوامر في المعسكرات لا بد مـن تنفيذها. على أي حال نصحه الجنرال أن يخفف من حملته، حتى لا يجد مجنوناً في كهف يحاول أن ينتقم بنفسه باسم الحكومة، وفهم المدير وكلنا فهمنا حـتى ما لم يقله الجنرال، لكن أكثر ما أدهش المدير أن يعرف الجنرال الحياة اليومية للصحيفة كما لو كان يعيش معنا. لم يشك أحد في أن الرقيب كان عينه علينـا، رغم أن الرقيب أقسم ببقايا أمه أنه لم يكن هو. الشيء الوحيد الذي لم يحـاول الجـنرال مناقشـته هو الإجابة على سؤالنا اليومي، ونصحنا المدير المشـهور بأنـه خبير بالأمور ، أن نصدق ما قاله لنا، لأن الحقيقة يمكن أن تكون أسوأ.

منذ أن ألزمت نفسي بالحرب ضد الرقابة تخليت عن الجامعة والقصص، ولحسن الحظ أن معظم الأساتذة لم يكونوا يسجلون الحضور والغياب، وهذا لم يكشـف قلـة حضـوري، إضافة إلى أن الأساتذة الليبراليين كانوا على علم بمغامراتـي مع الرقابة ويعانون من أجل البحث عن الطريقة التي يساعدوني بها في الامتحانات. اليوم، وأنا أحاول أن أحكي هذا، لا أعثر على تلك الأيام في ذاكرتي، وانتهيت إلى أن اصدق النسيان أكثر من الذاكرة.

كانوا أبوي ينامان هادئين منذ أن أخبرتهما أن ما أكسبه من الصحيفة كان كافـياً لأعـيش. وهـذا لم يكن صحيحاً، لأن الراتب الشهري لصحفي تحت

التمريـــن لم يكن يكفيني لأسبوع واحد، وقبل مرور ثلاثة أشهر كان عليّ أن أغادر البنسيون بديون غير قابلة للدفع قايضتها المالكة مقابل مقال في صفحة الاجتماعــيات بمناســبة عــيد ميلاد حفيدتها الخامس عشر. لكنها قبلت هذه المقايضة مرة واحدة.

غرفة النوم الأسهل والأكثر برودة في المدينة كانت لا تزال ممر الشهداء، وحـــتى في ظل تطبيق حظر التجول، كنت أنام هناك جالساً عندما كنت أنتهي من مناقشات الفجر، وفي أحيان أخرى أنام في مخزن الصحيفة مفترشاً لفائف الـــورق أو أظهر بسريري المعلق تحت إبطي في غرفة الطلاب المتعقلين، ما دامـــوا يحتملون كوابيسي وعاداتي السيئة بالحديث نائماً. وهكذا عشت بفضل الحظ والصدفة، آكل ما أجد وأنام حيث يريد الله، إلى أن عرضت عليّ عائلة فرانكو مونيرا الحنونة وجبتين يومياً بسعر أقرب إلى الإحسان. أب العائلة – بولـــيفار فـــرانكو باريخا– كان معلماً تاريخياً في مدرسة ابتدائية، وله عائلة مـــرحة، مجنونة بالفنانين والكتّاب، كانوا يجبرونني على الأكل أكثر من الذي دفعـــت لهـــم ثمـــنه حتى لا يجف مخي، وفي أحيان كثيرة لم أكن أملك ثمن الطعـــام، ولكـــنهم كانوا يقنعون بأن أقرأ عليهم قصائد بعد تناول الطعام. من القصـــائد الكثـــيرة التي كنت ألجأ إليها في هذه المقايضة ، كانت أغاني الحب التـــي كتبها خورخي مانريكي بعد موت أبيه، أو "الرومانث الغجري" لجارثيا لوركا.

بـــيوت الدعـــارة تحـــت السماء المفتوحة على شواطئ توسكا، بعيداً عن صـــمت الأســـوار المثـــير للـــتوتر، كانت أكثر طمأنينة عن فنادق السائحين المنتشـــرة على الشواطئ. كنا نحن نصف دستة من الطلاب نقيم في "ألثيثني" مـــن أول الليل تستعد للامتحانات النهائية تحت الأضواء القوية لغناء الرقص. كانـــت تغنيـــنا نســـمات البحر وأصوات السفن عن ضجيج نحاس الموسيقى

الكاريبـــية واســـتفزاز الفتيات اللاتي كن يرقصن بلا ملابس داخلية وبفساتين واســـعة جداً لترفعها نسمات البحر حتى وسطهن. كانت بعض العجائز تدعونا للـــنوم معهن ببقايا الحب لزمن مضى، واحدة منهن، التي لا زلت أذكر جيداً حجمهـــا واســـمها، تركت نفسها تنجذب إلى الحكايات التي كنت أقصها عليها أثناء نومها، وبفضلها نجحت في أداء امتحان مادة القانون الروماني بسهولة ، وهربت من عدة هجمات بوليسية تحرم النوم في الحدائق، كنا نتفاهم كزوجين سعيدين، ليس فقط في السرير، بل في القيام بالواجبات المنزلية التي كنت أقوم بها فجراً لتنام هي بضع ساعات.

حتى تلك اللحظة بدأت أعتاد جيداً على العمل في كتابة الافتتاحية، والتي كنـــت اعتبرها دائماً نوعاً من أشكال الأدب أكثر منها تتعلق بمهنة الصحافة. بقيت بوجوتا ككابوس من الماضي على بعد مائتي فرسخ وأكثر من ألفي متر عن سطح البحر، التي لم أعد أذكر منها سوى رائحة رماد ٩ أبريل، كنت لا أزال مســـتمراً مـــع حمى الفنون والأدب، خاصة في مناقشات منتصف الليل، لكنـــي بدأت أفقد حماسي لأكون كاتبا، كان هذا حقيقة إلى درجة أنني لم أعد لكـــتابة القصة بعد القصص الثلاث التي نشرتها في الاسبكتادور، إلى أن عثر عليّ إدواردو ثالاميا مع بدايات يوليو ، وطلب مني بوساطة خاصة من ثابالا أن أرسل له قصة جديدة لصحيفته بعد ستة أشهر من الصمت، وبما أن الدعوة جاءت منه ، عدت إلى أفكار ضائعة في كتاباتها الأولى ، وكتبت "ضلع الموت الآخر" والتي لم تكن سوى استمرار لسابقتها، ولا زلت أذكر جيداً أنني لم يكن موضـــوع مســـبق وكنت أبتدعه من خلال الكتابة نفسها. نشرت في ٢٥ من يوليو عام ١٩٤٨ في الملحق "نهاية الأسبوع"، تماماً كالقصص السابقة ولم أعد لكتابة قصص أخرى حتى العام التالي، عندما كانت حياتي مختلفة. ولم يبق لي ســـوى أن أترك الدروس القليلة في كلية الحقوق التي كنت لا أزال أحضرها من وقت لآخر، لكنها كانت آخر حججي للإبقاء على حلم أبوي.

أنا نفسي لم أكن أشك في أنني سأكون في القريب العاجل أفضل طالب في مكتبة جوساتفو إيبارا ميرلانو العامة. الصديق الجديد لثابالا وروخاس هيراثو قدموني له بحماس كبير، عاد من بوجوتا قبل وقت قصير بعد حصوله على الدرجة العليا، وبدأ العمل فوراً في اليونفرسال، والمشاركة في نقاشات الفجر بممر الشهداء. ما بين طلاقة هيكتور البركانية وتردد ثابالا الخلاق، أضاف جوستافو صرامة منظمة كانت تحتاجها أفكاري المرتجلة والموزعة الصادرة من قلبي، كل هذا برقة كبيرة وشخصية حديدية.

دعاني من اليوم التالي إلى بيت أبويه بشاطئ ماربيا، وبحر لا ينتهي خلف فنائه، وكتبه بطول حائط من اثني عشر متراً، جديدة ومنظمة حيث يحتفظ بالكتب التي يجب أن يقرأها ليعيش حياة هانئة، كانت عنده طبعات للكلاسيكيين الإغريق، واللاتينيين، والإسبان، تحتفظ برونقها كما لو كانت لم تُمس من قبل، ولكن هوامش صفحاتها غاصة بالإشارات الحكيمة، بعضها مكتوب باللاتينية، كان يقولها جوستافو بصوت جهير، وعندما يقولها فإنها تغزو جذور شعر الرأس، وكان هو نفسه يختبرها بسخرية قاتل، قال لي صديق عنه قبل أن أتعرف عليه: "انه من نوعية الرهبان". فهمت سريعاً لِمَ كان من السهل تصديقه، وإن كان بعد التعرف عليه جيداً يصبح من المستحيل ألا أصدق أنه كذلك.

تحدثنا في تلك المرة الأولى دون توقف حتى الفجر، وعلمت أن قراءاته كانت طويلة ومتنوعة، وتعتمد بشكل كبير على قراءة الكُتَّاب الكاثوليكيين لذلك الزمان، الذين لم أسمع عنهم مطلقاً. كان يعرف كل ما يجب معرفته عن الشعر، ولكن بشكل خاص الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين قرأتهم في طبعاتهم الأصلية. كانت له آراء معتمدة على معرفة جيدة بالأصدقاء المشتركين، وقدم لي معلومات كان من المهم أن أعرفها لأحبه أكثر، وأكد لي

أيضـــاً أهمـــية أن أتعرف على ثلاثة من صحافيي بارانكيا – ثيبيدا وبارجاس وفويـــنماير – الذين كثيراً ما حدثني عنهم روخاس هيراثو والأستاذ ثابالا. لفت انتباهـــي أنـــه إضافة إلى فضائله كمثقف ومتمدين كان سباحاً أوليمبياً. بجسد مُكَـــوَّن ومُعد ليكون كذلك، أكثر من أزعجه مني آرائي التي توضح احتقاري للكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين، الذين كنت أعتقد أنهم مملون ولا فائدة تُرجى مـــن ورائهم، عدا "الأوديسا"، التي قرأتها وأعدت قراءتها متقطعة عدة مرات فـــي الليســـيه، لذلك قبل أن أودعه أخذ من المكتبة كتاباً وقدَّمه لي بشيء من الوقـــار. وقال لي: "يمكنك أن تصبح كاتباً جيداً، ولكنك لن تكون ممتازاً ما لم تعـــرف الكلاســـيكيين الإغـــريق"، كـــان الكتاب عبارة عن الأعمال الكاملة لســـوفوكليس، أصـــبح جوستافو منذ تلك اللحظة من الأشخاص المؤثرين في حياتي، لأن "أوديب ملكاً" كشف لي من القراءة الأولى أنه العمل المتكامل.

كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، لاكتشافي جوستافو إيبارا وسوفوكليس في وقت واحد، ولأنه بعدها بساعات كان يمكنني أن أموت بشكل سيئ في غرفة عشيقتي السرية في ألثيثني. لا زلت أتذكر هذا كما لو كان بالأمس عندما جاء أحـــد أصـــدقائها القدامى الذي كانت تعتقد أنه مات منذ سنوات، دخل صارخاً كوحش من الباب بضربة قدم واحدة. تعرفت عليه من فوري لأنه كان زميلا في المدرسة الابتدائية بآراكاتاكا. عاد هائجاً ليحتل مكانه في سريرها. لم نكن قـــد التقيـــنا منذ المدرسة وكان حاذقاً بإبداء عدم الانتباه عندما وجدني عارياً وغارقاً في رعب السرير.

تعرفـــت في تلك السنة أيضاً على راميرو وأوسكار، متحدثان لا يتوقفان أبداً، خاصة في البيوت الممنوعة لمخالفتها الأخلاق المسيحية، كانا يعيشان مع أبويهما في تورباكو، على بعد ساعة من كارتاخينا، ويظهرون يومياً تقريباً في مناقشات الكُتَّاب والفنانين من عشاق الكلام الأمريكي، كان راميرو طالباً بكلية

الحقـــوق في بوجوتا وقريباً من جماعة اليونفرسال، كان ينشر عموداً مرعباً. أبـــوه محام صعب وليبرالي غير ملتزم، وزوجته اللطيفة سليطة اللسان، كان لكليهما عادة الحديث مع الشباب، خلال أحاديثنا الطويلة تحت أشجار توورباكو الوارفـــة، قدَّموا لي معلومات ثمينة عن حرب الألف يوم، وهو الإرث الأدبي الـــذي فقدته بموت جدي. ولا زلت أحتفظ لها هي برؤية أكثر توثيقاً للجنرال رفائيل أوريبي أوريبي، بمظهره المحترم وعظمة كفيه.

افضـــل شهادة عن شخصية راميرو وأنا في تلك الأيام ، خلدها في لوحة زيتـــية الفـــنانة ثيثيلـــيا بوراس، التي كانت تشعر كما لو كانت في بيتها بين الـــرجال المســـليين، على عكس أخلاق المجتمع المحيط بها. كانت صورة لنا نحـــن الاثنين جالسين إلى طاولة المقهى الذي كنا نلتقيها بها فيه، مع أصدقاء آخرين مرتين في اليوم. عندما بدأنا – راميرو وأنا – طريقين مختلفين دخلنا في صراع حول ملكية اللوحة، حلتها ثيثيليا بقرارها الحكيم بقطعها إلى نصفين لكل منا جزء، ظل النصف الخاص بي لسنوات بعدها ملفوفاً في دواليب بشقة كاراكاس ولم أتمكن من استعادته أبداً.

بعكـــس باقي البلاد، فإن العنف الرسمي لم يفعل فعله في كارتاخينا حتى بدايـــات تلك السنة، عندما تم اختيار صديقنا كارلوس أليمان ليكون عضوا في الـــبرلمان المحلي عن منطقة مومبوكس المتميزة، كان محامياً حديث التخرج وله شخصية مرحة. ولكن لعب الشيطان لعبته خلال الجلسة الافتتاحية عندما انفض خلاف بين الحزبين بطلقات الرصاص أصابت إحداها كتفه. ففكر أليمان لحظـــتها أن سلطة تشريعية مثل هذه لا فائدة تُرجى منها لا تستحق التضحية بالحياة من أجلها، وفضل أن يصرف راتبه من البرلمان برفقة أصدقائه.

أمـــا أوسكار فقد كان مُحباً للمرح المحكم، كان متوافقاً مع وليم فوكنر في أن بيوت الدعارة أفضل سكن للكاتب، لأن أوقات الصباح فيها هادئة، وهناك

حفــل كــل ليلة وعلاقته بالبوليس طيبة دائماً، نفذ عضو البرلمان أليمان هذه النصيحة حرفياً ، وتحول إلى مضيفنا بكامل وقته، في إحدى تلك الليالي ندمت على أنني وثقت في رؤية فوكنر عندما جاء زوج لأرى رييس القديم، صاحبة البيــت، وألقــى بالباب أرضاً بضرباته ليأخذ ابنهما، في حوالي الخامسة من عمــره، الذي كان يعيش معها. زوجها الحالي الذي كان ضابطاً في البوليس، خــرج مــن غــرفة النوم بملابسه الداخلية ليدافع عن شرفه وممتلكات البيت بمسدسه الرسمي، واستقبله الآخر برشة من الرصاص رنت في صالة الرقص كطلقات مدفع، ارتعب الزوج البوليسي واختبأ في غرفته، وعندها خرجت من غرفتــي بنصف ملابسي، وتأمل السكان من غرفهم كيف أن الطفل كان يبول في آخر الممر، بينما أبوه يعدل من تسريحة شعره بيده اليسرى والمسدس في يــده اليمنى. ولا يسمع في البيت سوى شتائم ماري التي كانت تعنف زوجها الآخر لجبنه.

في تلك الأيام دخل إلى مكاتب اليونفرسال ، دون إذن ، رجل ضخم الجثة خلــع قميصـــه بحركة مسرحية ، وتمشى في صالة التحرير ليفاجئنا بظهره وذراعــيه الموشـــاة بآثار تبدو إسمنتية الطابع، كان متأثراً بما تركه فينا من حماس، فشرح لنا بصوت رنان سبب عذابات جسده:

– إنها مخالب الأسود.

لقــد كـــان إيميليو رازوري، الذي وصل كارتاخينا حديثاً ليعد فترة عمل ســـيركه العائلي الذي يعتبر واحداً من أكبر سيركات العالم، كان قد خرج من هافانـــا في الأسبوع السابق في عابر الأطلنطي "أيوسكيرا" تحت علم إسباني، وكان ينتظر وصوله السبت التالي. كان يبدو أن رازوري خُلق في السيرك من قـــبل مـــيلاده، ولم يكن في حاجة للتمثيل لاكتشاف أنه مُرَوِّض وحوش كبير، كـــان ينادى وحوشه بأسمائها كما لو كانت أعضاء في عائلته وترد عليه هي

بصـــوتها المتوحش الأليف. كان يدخل أقفاص الأسود والنمور بلا سلاح ليقدم لها طعامها بيديه، عانقه دبه المفضل ليقبله قبلة حب تركته في المستشفى ربيعاً كاملاً، إلا أن الجاذبية الكبرى للسيرك لم يكن آكل النار، بل الرجل الذي يخلع رأســـه ويتنزه بها بين يديه حول الحلبة، ما لا يُنسى من إيميليو رازوري هي طريقته في السير ثابتاً في الأرض، وبعد الاستماع إليه منجذباً لساعات طويلة نشـــرت فـــي اليونفرسال مقالاً افتتاحياً تجرأت على كتابة أنه "الرجل الأكثر إنسانية الذي عرفته في حياتي"، ولم يكونوا كثيرين في عمري الذي لا يتعدى الحـــادي والعشرين، ولكن لا زلت أعتقد أن تلك الجملة لا تزال صالحة حتى هــذه اللحظـــة. كنا نأكل في الكهف مع زملاء الصحيفة، وحصل هناك أيضاً على صداقة الجميع من خلال حكاياته عن الحيوانات الإنسانية. في إحدى تلك الليالـــي، وبعـــد تفكير عميق، تجرأت على أن اطلب منه أن يأخذني معه إلى الســـيرك، ولـــو لغسل الأقفاص عندما لا تكون النمور فيها، لم يقل لي شيئاً، ولكـــنه مـــد لـــي يده في صمت، وأنا فهمت الإشارة على أنها طريقة رجال السيرك في التفاهم، واعتبرت أنه وافق، لم أعترف بذلك لأحد سوى لسلفادور ميسا نيكولز، شاعر مجنون بخيمة السيرك، وصل حديثاً إلى كارتاخينا كشريك محلـــي لـــرازوري، ذهـــب هو أيضاً مع سيرك عندما كان في مثل عمري، فحذرنـــي مـــن أن من يرون المهرجين يبكون في المرة الأولى يرغبون في الذهـــاب معهـــم، ولكـــنهم يندمون في اليوم التالي، إلا أنه لم يوافق فقط على قراري بل أقنع المروِّض بشرط أن نحتفظ بذلك سراً حتى لا يتحول إلى خبر قـــبل موعـــده. انتظار وصول السيرك التي كانت حتى تلك اللحظة عاطفية، تحوَّلت إلى رغبة لا تقهر.

لم تصل السفينة "الأوسكيرا" في الوقت المحدد سلفاً، وكان مستحيلاً إجراء اتصـــال بها. بعد أسبوع آخر وضعنا في الصحيفة راديو للهواة لمعرفة حالة الطقـــس في منطقة الكاريبي، لكننا لم نستطع أن نمنع أحداً من البدء بالحديث

فـــي الصـــحافة حـــول المصـــير المفجع، ظللنا - نيكولز وأنا - مع إيميليو رازوري في غرفته بالفندق بلا طعام أو نوم، شاهدنا نغرق في ألمه وينكمش حجمـــه في انتظار لا ينتهي، إلى أن تم تأكيد الخبر بأن الأيوسكيرا لن تصل إلـــى أي مكـــان، ولن يعرف أحد مصيرها النهائي، ظل المروض يوماً كاملاً محبوساً بمفرده في غرفته، وقد زارني في الصحيفة في اليوم التالي ليقول لي إن مائـــة عـــام من الكفاح الشاق اختفت في يوم واحد، لذلك فإنه سيعود إلى ميامـــي بـــلا قشة واحدة ولا عائلة ليعيد تكوين سيركه من جديد قطعة قطعة، ومن لا شئ، أدهشني إصراره رغم المأساة، فصحبته إلى بارانكيا لأودعه في الطائرة المتجهة إلى ميامي، وقبل صعوده شكرني على قراري بالانضمام إلى ســـيركه ووعدنـــي أن يبحث عني عندما يكون لديه شئ محدد، ودعني بعناق حار فهمت منه مدى الحب الذي يكنه لأسوده. ولم أعرف عنه أي شئ بعدها.

طـــارت الطائـــرة المتجهة إلى ميامي في العاشرة صباحاً من اليوم الذي ظهـــر فيه مقالي عن رازوري: في ١٦ من سبتمبر عام ١٩٤٨. كنت أستعد للعـــودة إلـــى كارتاخينا في ذلك المساء نفسه، عندما قررت أن أمر بصحيفة الناســـيونال، الصـــحيفة التي كان يكتب فيها خيرمان بارجاس وألفارو ثيبيدا، أصـــدقاء أصـــدقائي في كارتاخينا، كانت صالة التحرير في مبنى متآكل من المدينة القديمة، بصالون فارغ طويل له شرفة خشبية، في آخر الصالون كان هـــناك رجل شاب وأشقر، يشمر عن أكمام قميصه، يكتب على آلة كاتبة تقفز حـــروفها القشـــتالية بصواريخ صغيرة في الصالون الخالي، اقتربت منه على أطـــراف أصـــابعي تقريـــباً خوفاً من الصوت الصادر عن الأرضية الخشبية وانتظرت في الشرفة إلى أن نظر إليّ وقال لي بجفاء، وبصوت متناسق لمذيع خبير:

- ماذا حدث؟.

كان شعره قصيراً، وعيناه مسطحتين ومركزتين وبدا كما لو كان غاضباً بسبب قطع أفكاره. أجبته كما استطعت، حرفاً حرفاً:

– أنا جارثيا ماركيز.

فقــط بمــتابعة اســمي أنا بنفسي منطوقاً بالطريقة التي كنت أنطقه بها ، انتبهــت إلــى أن خــيرمان بارجــاس ربما لا يعرف من أكون، مع أنه في كارتاخينا قالوا لي إنهم يتحدثون عني كثيراً مع أصدقائهم في بارانكيا منذ أن قــرءوا أول قصــة لــي. وكانــت الناسيونال نشرت مقالاً حماسياً لخيرمان بارجــاس، لكن الحماس الذي تلقاني به أكد لي أنه كان يعرف من أكون أنا، وأن حــبه لــي كــان حقيقياً ويؤكد ما قالوه، بعد ساعة تعرفت على ألفونسو فونمايــر وألفــارو ثيبــيدا في مكتبة الموندو، وتناولنا معاً مقبلات في مقهى كولومبيا، والسيد رامون فينيس الذي اشتقت كثيراً إلى رؤيته – وكان يرعبني أن أعــرفه لم يأت في ذلك المساء إلى لقاء الساعة السادسة، وعندما خرجنا مــن مقهــى كولومبــيا بعد خمسة كؤوس كنا نبدو كما لو نعرف بعضنا منذ سنوات.

كانت ليلة طويلة من الأعمال البريئة، فقد كان ألفارو سائق السيارة الرائع والمؤتمــن خاصة عندما يكون في حالة سكر، أكمل طريق الفرص التاريخية التي لا تُنسى. في "لوس ألمندروس" كانتين تحت الأشجار المزهرة في الهواء الطلق حيث لا يقبلون سوى زبائن من المتعصبين لنادي الديبورتيفو جونيور، تســبب عــدد من الزبائن في خناقة كانت على وشك أن تتحول إلى معركة، حاولــت تهدئــتهم، إلى أن نصحني ألفونسو بعدم التدخل لأنه في هذا المكان الخــاص بدكاتــرة الكرة لا يحبون المسالمين. قضيت الليلة في مدينة لم تكن بالنســبة لــي هي نفسها التي عرفتها، ولا مدينة أبوي خلال سنوات زواجهما الأولــى ولا بؤســها مــع أمــي، ولا أيام مدرسة سان خوسيه، بل أول ليلة

بارانكيتية كناضج في جنة بيوت الدعارة.

كـــان الحي الصيني عبارة عن أربعة شوارع من الموسيقى المعدنية التي تزلـــزل الأرض، وكانـــت لديهـــم أيضـــاً تسجيلات منزلية تقترب من طلب الإحسان. كانت هناك بيوت دعارة عائلية يخدم أصحابها وزوجاتهم وأبناؤهم زبائنهم القدامى طبقاً لقواعد الأخلاق المسيحية وتَحضُر السيد مانويل أنطونيو كارينـــيو، بعضهم يأتمنون بعضهم على المبتدئات فينمن مع زبائن معروفين كنوع من الإقراض، مارتينا ألفاراداو، أكثرهن خبرة، لها باب سري وتعريفة مخفضـــة لرجال الدين النادمين، لم يكن هناك استهلاك مغشوش ولا حسابات قابلة للتأخير، ولا مفاجآت تناسلية. آخر تلميذات المدارس الفرنسية الأولى بعد الحـــرب العالمـــية كن يجلسن على الأبواب مع لحظات المساء الأولى تحت أضـــوائهن الحمـــراء، انتظاراً للجيل الثالث الذي يؤمن ببراءتهن الأفرودية. كانت هناك بيوت بصالونات مكيفة لعقد جلسات الصلح وكملجأ للعمد الهاربين من زوجاتهم.

القـــط الأسود، بفناء رقصه تحت المظلة المزهرة، كان جنة بحارة السفن التجارية اشترته هندية تغني بالإنجليزية وتبيع من تحت الطاولة مراهم مخدرة للســـيدات والـــرجال. في ليلة تاريخية من تلك الليالي، لم يحتمل ألفارو ثيبيدا وكيكـــي سكوبيل عنصرية دستة من البحارة النرويجيين في طابور أمام غرفة الزنجية الوحيدة، بينما هناك ست عشرة بيضاوات يشخرن جالسات في الفناء، فـــتحدوهم باللكمـــات، الاثنـــي عشر ضد اثنين في معركة باللكمات النظيفة أجـــبرتهم علـــى الهرب بمساعدة البيضاوات اللاتي استيقظن سعيدات وأنهين عليهم بالكراسي، في النهاية توجن الزنجية كملكة للنرويج.

كانـــت هناك بيوت أخرى شرعية أو غير شرعية خارج الحي الصيني، وكلها على علاقة طيبة بالبوليس، واحدة منها كانت في فناء من أشجار اللوز

الكبـــيرة المزهـــرة بالحي الفقير، على بوابتها دكان رديء للغاية.. غرفة نوم بســـريرين للإيجـــار. كانت بضاعتها فتيات صغيرات من الحي يكسبن بيزو واحد في ضربة واحدة مع السكارى، اكتشف ألفارو ثيبيدا بالصدفة مكاناً منها، بعد أن تاه في إحدى الأمسيات تحت الأمطار المنهمرة فلجأ إلى الدكان، قدمت له صاحبة الدكان زجاجة بيرة وعرضت عليه طفلتين بدلاً من واحدة مع حقه في التكرار إذا استمر المطر. ظل ألفارو يدعو أصدقاءه لشرب البيرة الباردة تحــت أشــجار اللوز، لا ليمارسوا الجنس مع الفتيات ولكن ليعلمهن القراءة والكتابة، وأكثرهن ذكاء حصل لهن على منح للدراسة في المدارس الرسمية. واحــدة منهن كانت تعمل ممرضة في مستشفى للفقراء. تخلت له المالكة عن البيــت علـــى سبيل الهدية، فتحول بيت الدعارة القذر مع كثير من التوسعات إلى: مبيت الفتيات اللاتي يضاجعن الرجال بسبب الجوع".

بالنســبة لي كانت تلك الليلة التاريخية في بارانكيا لأنهم اختاروا بيت "لا نجرا أيوفيميا"، ذي الفناء الضخم للرقص، بين شجيرات التمر هندي المزهرة، كانــت هناك كبائن تؤجر بخمسة بيزوات الساعة، وطاولات وكراسي مدهونة بالألوان الحية حيث تعيش الكروانات حرة طليقة وعلى هواها. كانت أيوفيميا نفســها، ضـــخمة وتكاد تقترب من المائة من عمرها، تستقبل وتختار الزبائن علـــى المدخـــل، تجلس خلف مكتب عدتها الوحيدة عليه – بشكل لا يُصدق– مسمار كنيسة ضخم، كانت تختار الفتيات بنفسها بتربيتهن وملاحتهن الطبيعية، وتضع لكل منهن الاسم الذي يعجبها وبعضهن يفضلن ما وضعه عليهن ألفارو ثيبـــيدا مـــن خـــلال عشقه للسينما المكسيكية: إيرما الشريرة، وسوسانا سيئة السمعة، وعذراء منتصف الليل.

كـــان يبدو مستحيلاً الحديث في حضور أوركسترا كاريبية تعزف بأقصى قوتها بالطبول الجديدة لبيريث برادا بأغنية رومانتيكية لنسيان ذكريات الهجر،

لكنـــنا كـــنا جميعاً خبراء في الحديث صراخاً. موضوع الليلة أطلقه خيرمان وألفـــارو عـــن العناصــــر المشــــتركة بين الرواية والتحقيق الصحفي، كانوا متحمســـين لتحقـــيق جـــون هيرزي الذي نشره حديثاً عن القنبلة الذرية على هيروشـــيما، لكننـــي كنـــت أفضـــل الشهادة الصحافية المباشرة "يوميات عام الطـــاعون" إلى أن أوضح الآخرون لي أن دانييل ديفو لم يكن قد بلغ الخامسة أو السادسة من عمره عند حدوث طاعون لندن الذي استخدمه كنسق.

مـــن خلال هذا الطريق وصلنا إلى لغز "الكونت دي مونت كريستو" وهو حوار كان ثلاثتهم تناقشوا فيه منذ فترة طويلة كاكتشاف للروائيين: كيف تمكن ألكســـاندر دومـــاس أن يجعل من بحار برئ جاهل وفقير ومسجون بلا ذنب، يهـــرب من قلعة حصينة لا يمكن الدخول أو الخروج منها ويحوّله إلى رجل ثـــري ومثقف من زمنه؟، فكانت الإجابة أن إدموند دانتي دخل قلعة إف وفي ذهـــنه لن يكون هو فاريا، الذي نقل إليه في السجن حكمته وكشف له ما كان يـــنقص معرفته في حياته الجديدة: المكان الذي كان يخفي فيه الكنز وطريقة الهرب، أي أن دوماس بنى شخصيتين مختلفتين قام بعدها بتبادلهما مصيرهما، بطـــريقة أن دانتي عندما هرب كان شخصية في داخل الأخرى، وكل ما تبقى له من شخصيته الخاصة جسده كسباح ماهر.

كـــان خيرمان يرى بوضوح أن دوماس جعل من شخصيته بحاراً ليهرب من جانب اللوحة ويسبح حتى الشاطئ عندما يلقون به في البحر. أما ألفونسو، القـــارئ والأكـــثر انتباهاً، فقد رد أن هذا لم يكن كافياً ليؤمن شيئاً لأن الستين بالمائـــة مـــن بحارة كريستوفر كولومبس لم يكونوا يعرفون السباحة. لم يكن يجعلهم يشعرون باللذة كما تلك الذرات الصغيرة من الفلفل على الطبق، تحت تأثير سكرة الأدب- بدأت أشرب دون توقف كؤوس الروم بالليمون التي كان يشـــربها الآخرون برشفات صغيرة. المحصلة النهائية للمتحدثين الثلاثة كانت

أن موهـــبة وقدرة دوماس على تحريك المعلومات في تلك الرواية، ربما كان أيضاً في كل أعماله، كانت تدل على أنه صحافي أكثر منه روائياً.

بقـــي في النهاية واضحاً أن أصدقائي الجدد يحبون كثيراً كيبيدو وجيمس جويـــس تمامـــاً كمـــا يقرءون لكونان دويل، ويمتلكون حساً فكاهياً لا ينضب وكـــانوا قادريـــن على قضاء الليالي كاملة يغنون أغنيات حب رومانتيكية أو يقرءون بلا توقف أفضل أشعار العصر الذهبي. وعبر طرق متعددة نصل إلى قمة الشعر العالمي التي تمثلها قصائد خورخي مانريكي في رثاء أبيه. تحولت اللـــيلة إلـــى فســـحة مرحة وانتهت بآخر أحكام يمكنها أن تقبل صداقتي لتلك المجموعة المريضة بالحروف. شعرت أنني في حالة من الراحة بينهم ، ومع الروم المتوحش، فخلعت قميص خجلي، وقامت سوسانا الشريرة، التي كسبت في ذلك العام جائزة مسابقة الرقص في الكرنفال، وأخرجتني للرقص، فهربت الدجاجات والكروانات من الحلبة والتفوا من حولنا لتشجيعنا.

رقصنا سلسلة من رقصات رقم ٥ لداماسو بيريث برادا، وبما تبقى لي من أنفـــاس غنيت لأكثر من ساعة أغنيات حب لدانييل سانتوس. وأغوستين لارا وبينبنـــيدو جراندا، وبينما كنت أغني شعرت أنني أسترد وعيي تحت ضربات النسيم، لم أعرف أبداً إن كان ثلاثتهم فخورين بي أم خجلين مني، ولكن عندما عدت إلى الطاولة استقبلوني كواحد منهم.

كان ألفارو قد بدأ موضوعاً لم يناقشه الآخرون أبداً: السينما، كانت بالنسبة لي اكتشافاً كبيراً، لأنني كنت دائماً ما أعتبر السينما فناً يتغذى من جميع أنواع الفـــنون، من المسرح أكثر من الرواية، فيما كان ألفارو يراها تقريباً كما أرى أنا الموسيقى: فن مطلوب من كل الفنون الأخرى.

عندما وصلنا إلى الفجر، ما بين نائم وسكران، دفع ألفارو السيارة كسائق تاكســـي محترف مترع بالكتب الحديثة وملاحق نيويورك تايمز الأدبية. تركنا

خيرمان وألفونسو في بيوتهما وأصر ألفارو على أن يأخذني إلى بيته لأتعرف على مكتبته، التي تغطي ثلاثة جدران من غرفة نومه وحد السقف، أشار إليها بالسبابة بدورة كاملة، وقال لي:

– هؤلاء هم الكُتَّاب الوحيدون في العالم الذين يعرفون الكتابة.

كنــت أنا في حالة من الإثارة جعلتني أنسى ما كان من أمس من الجوع والـنعاس، فقد كان الكحول لا يزال داخلي كفضيلة إلهية. قدم لي ألفارو كتبه المفضــلة، بالإســبانية والإنجليزية، وكان يتحدث عن كل واحد منها بصوت صــدئ، تحــدث عن أثورين وساروبان – أحب الكُتَّاب إليه– وعن آخرين، وتحدث عن حياتهم الخاصة والعامة التي يعرفها حتى الملابس الداخلية، كانت أول مــرة أسمع فيها اسم فيرجينيا وولف، التي كان يسميها هو "وولف" تماماً كمــا العجوز فوكنر. وضعته دهشتي في حالة من الهذيان، فأمسك بمجموعة مــن الكتــب التي عرضها أمامي باعتبارها المفضلة لديه ووضعها بين يدي، وقال لي:

– لا تكــن أحمق.. خذها كلها، وعندما تنتهي من قراءتها سنذهب للبحث عنها حيث توجد.

كانت هذه الكتب بالنسبة لي ثروة ما كان يمكنني أن أفكر فيها ولم أجرؤ علــى المخاطــرة دون أن يكــون لدي مكان لحفظها، وأخيراً اكتفى بإهدائي النسخة الإسبانية من "السيدة دالاوي" لفرجينيا وولف، مع توقعه أنى سأحفظها عن ظهر قلب.

كــنا فــي الفجر، وكنت أريد العودة إلى كارتاخينا في أول أتوبيس، لكن ألفارو أصر على أن أنام في السرير المجاور لسريره، وقال بآخر ما فيه من أنفاس:

– اللعنة، ابق لتعيش هنا وغداً نحصل لك على عمل ممتاز.

ألقيــت بنفســي على السرير، وحينها فقط شعرت في جسدي بمدى ثقل إحساســي بالــبقاء علــى قيد الحياة. فعل هو الشيء نفسه ونمنا حتى الحادية عشرة صباحاً، عندما قامت أمه، الرائعة الخجولة سارا ساموديو، بطرق الباب بقبضتها معتقدة أن ابنها الوحيد في حياتها كان ميتاً، قال لي ألفارو من أعماق نعاسه:

– لا تهــتم بهــا يــا معلمي الكبير، فهي تقول الشيء نفسه كل صباح، والخطير أنه في يوم من الأيام سيكون حقيقة.

عــدت إلــى كارتاخينا وكأنني اكتشفت العالم، ولم يعد نقاشنا على مائدة الغــداء في بيت فرانك مونيرا يتعلق بقصائد العصر الذهبي و"عشرون قصيدة حــب" لنــيرودا، بل مقاطع من "السيدة دالاوي" وهذيانات شخصيتها المميتة، سيبتيموس وارن سميث، انقلبت إلى شخص آخر، متشوق وصعب، إلى درجة أن هيكتور والأستاذ ثابالا اعتقدا أنني مقلد واع لألفارو ثيبيدا. قضى جوستافو إيبارا برؤية قلبه الكاريبي الرحيم ، وقتاً مرحاً بحكايتي عن ليلة بارانكيا، بينما كــان يــثرثر بقصــائد إغريقية، ما عدا يوريبيدس، وعلمني اكتشاف ملفيل: وجمــال "موبــي ديــك" الأدبــي، النشيد الأعظم عن جونز لصائدي الحيتان الموزعيــن فــي جمــيع البحار لحراس الحيتان، وأعارني "البيت ذو الأسقف الســبعة" لناثانييل هاوثورن، الذي غيَّر ملامح حياتي، حاولنا معاً التوصل إلى نظرية عن فاجعة الماضي في مغامرة يوليسيس أوديس، التي ضعنا فيها دون أن نعثر على طريقة للخروج منها، بعد نصف قرن وجدت حلها في نص رائع لميلان كونديرا.

في تلك الفترة كان لقائي الوحيد مع الشاعر الكبير لويس كارلوس لوبث، المعروف باسم "الأعور" الذي ابتدع طريقة مريحة ليكون ميتاً دون أن يموت، ومدفونــاً دون أن يدفــن، والأفضل دون تأبين، كان يعيش في وسط المدينة

التاريخي في بيت تاريخي وشارع تابلون التاريخي، حيث ولد ومات دون أن يــزعج أحداً، كان له قليل من الأصدقاء الدائمين، بينما كانت شهرته كشاعر كبير تزداد خلال حياته كما تزداد الشهرة بعد الموت.

يســمونه الأعور دون أن يكون أعوراً، لأنه في الحقيقة كان أحولاً فقط، ولكن بطريقة مختلفة، ومن الصعب ملاحظة حوله، كان شقيقه دومينجو لوبث اسكواريانا مدير اليونفرسال يخشى دائماً الإجابة نفسها للذين يسألون عنه:

– إنه هناك.

كــان يعــتقد أنها إجابة لا تقول شيئاً، ولكنها كانت الحقيقة الوحيدة: إنه هــناك، أكثر حياة من أي شخص آخر، لكنه كان حياً دون أن يعرف عنه أحد أكثر من ذلك، يعرف كل ما يجري من حوله ولكنه قرر أن يدفن نفسه بنفسه، يتحدثون عنه كما لو كان أثراً تاريخياً، خاصة بين الذين لم يقرءوه كثيراً، إلى درجة أنني منذ جئت إلى كارتاخيا لم أحاول رؤيته، احتراماً لتفرده بأنه الرجل الخفــي، كان وقتها في الثامنة والسبعين من عمره، ولم يشك أحد في أنه كان أكبر شاعر في لغتنا في كل العصور، برغم أننا قلة من نعرف من هو ولماذا، لم يكن ذلك سهلاً بسبب غرابة نوعية أعماله.

كــنا جمــيعاً ثابــالا وروخـــاس هيريثو وجوستافو إيبارا نحفظ قصائده، ونذكــرها دائمـــاً دون أن نفكــر فيه، وذلك بشكل عفوي وحقيقي، نزين بها أحاديثــنا. لــم يكــن متوحداً بل كان خجولاً، وحتى اليوم لا أذكر أنني رأيت صورة له، لو كانت هناك صورة، بل بعض الرسوم الكاريكاتيرية السهلة التي كــانوا ينشرونها مكان صورته، واعتقد أنه بسبب عدم رؤيتنا له كنا ننسى أنه لا يــزال علـــى قيد الحياة، في إحدى الليالي التي كنت أنهي فيها مقال اليوم سمعت صرخة مكتومة لثابالا:

– اللعنة.. إنه الأعور.

رفعت عيني عن الآلة الكاتبة فرأيت الرجل الأكثر غرابة في حياتي. كان أقصر كثيراً مما تخيلته، وشعره أبيض ضارب إلى الزرقة ومشعث حتى يكاد يـــبدو كما لو كان مستعاراً، لم يكن أعوراً بعينه اليمنى بل شهرته تشير إليها أفضـــل: كانت مائلة قليلاً. كان يرتدي ملابسه كما لو كان في البيت، بنطلون قـــاتم اللـــون وقميص مخطط ويده اليمنى على مستوى كتفه، وولاعة فضية وسيجارة مشتعلة لا يدخنها يسقط رمادها دون أن ينفضه.

مـــر بنا في صمت حتى مكتب شقيقه وخرج بعدها بساعتين، وعندما لم يكن هناك في صالة التحرير سوى وثابالا وأنا، في انتظار تحيته، مات بعدها بحوالي عامين، الاضطراب الذي أحدثته وفاته بين محبيه لم تكن كما لو مات بل كما لو كان قد عاد إلى الحياة من جديد، عندما كان في التابوت لم يكن يبدو ميتاً أكثر مما كان على قيد الحياة.

فـــي الفترة نفسها ألقى الكاتب الإسباني داماسو ألونسو وزوجته الروائية أيولاليا جالباريتا محاضرتين في قاعة محاضرات الجامعة. الأستاذ ثابالا الذي لا يحب التدخل في حياة الآخرين تغلب على نفسه وطلب مقابلة معهما، رافقناه جوســـتافو إيبارا وهيكتور روخاس هيراثو وأنا، حدث تجاذب كيميائي فوري معهمـــا، ظللنا معهما حوالي أربع ساعات في صالون خاص بفندق الكاريبي تبادلـــنا خلالهـــا وجهات النظر حول رحلتهما إلى أمريكا اللاتينية وعن كُتَّابنا الجدد، قدم لهما هيكتور كتاباً شعرياً ، وأنا قدمت لهما نسخة مصورة من قصة نشـــرتها فـــي الاسبكتادور. كان يهمنا قبل كل شئ صراحتهما في التحفظ في الحديث، لأنهما كانا يستخدمانه كتأكيد لتقريظهما.

وجـــدت في أكتوبر بمقر اليونفرسال رسالة من جونثالو ميارينو يقول لي فيها إنه ينتظرني مع الشاعر ألفارو موتيس في فيلا توليبان، بنسيون لا ينسى في مصحة بمنطقة بوكاجراندي. على بعد أمتار قليلة من المكان الذي هبط فيه

تشارلز ليندبرج بطائرته قبل عشرين عاماً، جونثالو، رفيقي في قراءة الأشعار فـــي الجامعـــة، كان يمارس مهنة المحاماة بعد تخرجه حديثاً، ودعاه موتيس ليتعرف على البحر، من منطلق وظيفته كرئيس لمكتب العلاقات العامة بشركة لانسا، شركة الطيران التي أسسها طياروها.

قصائد موتيس وقصصي نشرا معاً مرة واحدة على الأقل في ملحق "نهاية الأســبوع". وما أن التقينا حتى بدأنا حواراً لا يزال مستمراً حتى هذه اللحظة، فـــي أماكن متعددة من العالم، وطوال أكثر من نصف قرن. تساءل عنه أولاً أبـــناؤنا وبعدهـــا أحفادنا كثيراً عن أي شئ نتحدث بكل هذا الحماس، أجبناهم بالحقيقة: نتحدث عن الشيء نفسه.

صـــداقاتي الخطـــرة مـــع الكـــبار في عالم الفن والأدب ساعدتني على الاســـتمرار فـــي الحياة في تلك السنوات التي لا زلت أتذكرها الأكثر قلقاً في حياتي، نشرت في ١٠ يوليو آخر مقال لي في صحيفة اليونفرسال "نقطة ومن أول الســطر"، بعد ثلاثة أشهر استطعت خلالها أن أتغلب على حواجز عملي كمبـــتدئ، وفضـــلت وقـــف الكتابة هرباً قبل فوات الأوان، ولجأت إلى فراغ الكـــتابة في صفحة الافتتاحية، بلا توقيع، إلا في الحالات المطلوب فيها رأي شخصـــي، وظللـــت محافظـــاً على ذلك كنوع من الروتين حتى عام ١٩٥٠، وكانت آخرها مقالة عن إدجار آلان بو، تميزها الوحيد أنها كانت الأسوأ.

كنـــت ألـــح طـــوال تلـــك السنة على الأستاذ ثابالا ليعلمني أسرار كتابة التحقيقات. لم يتخذ قراره أبداً، بطريقته الغريبة، لكنه تركني أتخبط في تحقيق حول طفلة تبلغ الثانية عشرة ظلت محنطة في دير سانتا كلارا، وكان شعرها ينمو بعد موتها لأكثر من عشرين متراً في قرنين. لم أتخيل مطلقاً أنني سأعود لتـــناول هذا الموضوع بعد عشرين سنة لأحكيه في رواية رومانتيكية تتداخل فيها مواقف مرعبة. لكنها لم تكن أفضل أيامي للتفكير، كنت أشتط غيظاً لأي

ســـبب، وأختفي من العمل بلا أسباب إلى أن يرسل الأستاذ ثابالا أحداً ليخفف مـــن غلواء موقفي. نجحت في الامتحانات النهائية للسنة الثانية بكلية الحقوق بشيء من حسن الحظ، ولم يتبق لي سوى مادتين للملحق، واستطعت أن أسجل اســـمي فـــي الســـنة الثالثة، ولكن جرت إشاعة بأنني تمكنت من ذلك بسبب ضغوط سياسية للصحيفة، واضطر المدير أن يتدخل عندما ألقوا القبض عليّ أثـــناء خروجي من السينما بتصريح عسكري مزيف ووضعوني ضمن قائمة المشاغبين.

فـــي إهمالي السياسة لتلك الأيام لم أنتبه إلى أنهم عادوا إلى تطبيق حظر الـــتجول فـــي البلاد مرة أخرى بسبب تدهور الأمن العام، وضغطت الرقابة السياسية على الصحافة مجدداً، وتدهور المناخ العام كما في أسوأ الأيام. وكان البولـــيس – مدعوماً بصغار المجرمين – ينشر الذعر في الجامعة، واضطر العـــنف الليبراليين إلى مغادرة أراضيهم وبيوتهم، ومرشحهم المحتمل، داريو ايتشـــانديا، أســـتاذ الأســـاتذة في القانون المدني، والمتردد بالميلاد ، والقارئ المـــتحمس باللاتينـــية والإغريقية، صوَّتَ لصالح عدم المشاركة الليبرالية في الانـــتخابات العامة، فبقي الطريق مفتوحاً أمام انتخاب لاوريانو جوميث الذي يبدو أنه كان يحرك الحكومة في الخفاء من نيويورك.

لـــم أكن واعياً بوضوح بأن تلك الحوادث الخطيرة لم تكن مجرد إشاعات ليبرالـــية بل علامة واضحة على تغييرات سيئة في حياتنا، إلى أن جاءت ليلة مـــثل لـــيالٍ كثيرة في الكهف، حتى طرأ على ذهني أن أقرر ممارسة فلسفة الاختـــيار لأفعل ما أريد، عندما ثبت الأستاذ ثابالا في الهواء ملعقته التي كان علـــى وشك وضعها في فمه، ناظراً إليّ من أعلى إطارات نظارته، وأوقفني بجفاء:

– قـــل لي يا جابرييل، هل انتبهت إلى أن كل ما يحدث يدل على أن هذا

البلد في طريقه إلى الانتحار؟.

أصـــاب الســـؤال الهــدف، فقد نمت سكراناً تماماً على أحد كراسي ممر الشهداء حتى الفجر تحت أمطار غزيرة هاطلة بللت عظامي، بقيت بعدها في المستشــفى أســـبوعين نتــيجة التهاب رئوي استخدموا في علاجه أول أنواع المضـــادات الحـــيوية المعروفة، كانت شهيرة بأن لها أعراضاً جانبيةً مخيفة كفقــدان الـــرجولة، تركتني هيكلاً عظمياً وشاحباً بالطبيعة، هاتفني أبوي من ســـوكري لـــيوقفا غرقـــي في العمل حتى الأذنين – كما قالا في رسالتهما– ووصـــلت مع اليونفرسال إلى أبعد من ذلك ، فقد كتبوا مقالا افتتاحياً وداعياً ، دشـــنني كصحافي وكاتب يمتلك مواهب الأستاذية، وفي أخرى كمؤلف لرواية لم يكن لها وجود على الإطلاق وبعنوان لم يكن لي: "فلنقص الحشائش الآن"، الغريـــب أن هذا جاء في وقت لم أكن مستعداً فيه للعودة إلى الكتابة الإبداعية. الحقيقة أن ذلك العنوان البعيد عن تفكيري اختلقه هيكتور روخاس هيراثو أثناء كتابته على الآلة الكاتبة، تماماً كعنوان آخر من إضافات ثيسار جيرا فالديس، كاتـــب متخيل ينتمي إلى أصول أمريكية لاتينية، اختلقه ليثُري معاركنا. نشر هيكتور الخبر في اليونفرسال بمجرد وصوله إلى كارتاخينا وكتبت له أنا تحية في عمودي "نقطة ومن أول السطر"، على أمل نفض التراب عن الوعي النائم لـــرواية أمريكية لاتينية حقيقية. على أي حال، فإن الرواية المتخيلة بعنوانها الجميل ، كتب لها هيكتور بعد ذلك بسنوات عرضاً في دراسة عن كتبي دون أن أعـــرف الســـبب ولا من أين جاء بها، وتحدث عنها كعمل روائي مهم في الأدب الجديد.

المـــناخ العام الذي عثرت عليه في سوكري كان مشجعاً لأفكاري في تلك الأيـــام، كتبـــت لخيرمان بارجاس أطلب منه أن يرسل لي بعض الكتب، كتباً كثيرة، العدد الذي يمكنه الحصول عليه حتى أغرق في أعمال مهمة تشعرني

باللذة لستة أشهر. كانت القرية غارقة في مطر غزير، وكان أبي قد تخلى عن عبودية الصيدلية وبنى عند مدخل القرية بيتاً يكفي أولاده، فقد كنا إحدى عشر بعـد مولد أليخيو، قبل ستة أشهر، بيت كبير يغمره الضوء، وشرفة تطل على النهر بمياهه الداكنة ونوافذ مفتوحة لجذب نسمات يناير، مُكَّون من ست غرف جـيدة التهوية بسرير في كل منها، وليس بسريرين كما كان من قبل، وحلقات لتعليق الأسرة المعلقة على مستويات مختلفة حتى في الممرات، أما الفناء غير المسور فقد كان يمتد حتى الجبل نفسه، بأشجار فاكهة تدخل في الملكية العامة وحـيوانات خاصة وغريبة تتجول داخل الغرف، حتى أمي التي كانت تشتاق لفـناء بيـت طفولتها في بارانكاس وآراكاتاكا حاولت أن يكون البيت الجديد أقرب إلى المزرعة، مليء بالدجاج والبط الداجن والخنازير الطليقة التي تدخل المطـبخ لتتغذى على بقايا الغداء. وكان ممكناً استغلال فصول الصيف للنوم بـنوافذ مفـتوحة، فـي ظـل أصوات الدجاجات التي تبيض ورائحة الفاكهة الناضـجة التي تسقط من أفرع الأشجار فجراً بضربات فجائية ورنانة. كانت تقول أمي: "تصرخ كما لو كانت أطفالاً"، خفف أبي من استقبال مرضى عيادة الصباح ليقتصروا على قلة من مرضى الطب التجانسي، وواصل قراءة كل ما يقـع بيـن يديه من أوراق مطبوعة، فيما يقضي بقية اليوم ممدداً في سريره المعلـق بين شجرتين، وأصابته حمى لعب البلياردو لمواجهة كآبة الأمسيات، وتـرك عادته في ارتداء البدل البيضاء ورباط العنق، وكان يسير في الشارع بملابس لم يكن يقبل عليها من قبل، بقمصان شبابية قصيرة الأكمام.

كانـت الجدة ترانكلينا قد ماتت قبل شهرين، عمياء وفاقدة للذاكرة، لكنها ظلـت علـى تنبؤاتها خلال سكرات الموت بصوت براق مملية أسرار العائلة بإحكام تام، كان معاش الجد، موضوعها الأبدي حتى لفظت آخر أنفاسها. كَفَّن أبـي جسدها بالكهرمان الحافظ وغطاها بطبقة من الجير داخل التابوت لتتحلل ببطء، كان لويس سانتياجو معجباً دائماً بعشق أمه للزهور الحمراء فزرع لها

حديقة في آخر الفناء حتى تظل تلك الأزهار دائماً على قبرها، أزهرت الحديقة بشــكل غــير عادي إلى درجة أن الغرباء كانوا يأتون لمعرفة إن كانت تلك الأزهار يانعة بفضل الله أم الشيطان.

تلك التغييرات في حياتي وشخصيتي كانت استجابة للتغيرات التي جرت فــي البيــت، ففــي كــل زيارة كنت أعتقد أنه بيت مختلف بسبب التجديدات والرحــيل الدائــم الذي كان يعيشه أبوي، أو لأشقائي الذين يولدون ويكبرون بشــكل متشابه حتى أصبح من السهل أن أخطئهم ولا أتعرف عليهم، خايمي، الــذي بلــغ العاشرة كان أكثر أخوتي في عدم التخلي عن صدر أمه لإصابته بالــربو، ولم تكن أمي قد فطمته بعد عندما ولد هرناندو (ناتشي)، بعده بثلاث ســنوات ولد ألفريدو ريكاردو (كوكي) وبعد عام ونصف إليخيو (يوجو) كان الأخير الذي اكتشف في تلك الإجازة معجزة الحبو.

إضــافة إلى هؤلاء كنا نحسب أبناء أبي قبل وبعد زواجه: كارمن روسا وأبــيلاردو اللــذان كانا يمضيان معنا بعض الأوقات في سوكري، وخيرماني هانــاي (آيمــي) الذي اعتبرته أمي ابنا لها بموافقة أخوتي، وأخيراً أنطونيو ماريــا كلاريت (تونيو) الذي تربى في أحضان أمه في سينثي، وكان يزورنا كثــيراً. مجموعهــم خمسة عشر، كنا نأكل كثلاثين عندما يتوفر لدينا الطعام ونجلس حيث يمكننا ذلك.

الحكايــات التي يحكيها أخوتي الكبار عن تلك السنوات يمكنها أن تعطي فكرة واضحة عن كيف كان البيت الذي لم يكن قد ربى طفلاً ليولد آخر، كانت أمــي نفســها تعي أنها مذنبة، وترجو بناتها أن يتولين رعاية الصغار، كادت شقيقتي مارجوت أن تموت من الرعب عندما علمت أن أمها حامل من جديد، لأنهــا كانت تعرف أنها لا تستطيع وحدها تربيتهم جميعاً، لذلك قبل أن تذهب إلى المدرسة الداخلية في مونتيريا رجت أمها بكل جدية أن يكون الابن القادم

هو الأخير، وعدتها امي بذلك، كما كانت تفعل دائماً، إلا أنها وعدتها ترضية لها، لأنها كانت واثقة من أن الله سيحل بحكمته المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

تـناول الطعـام معاً على المائدة كانت كارثة، لأنه لم تكن هناك طريقة لجمعهـم جمـيعاً فـي وقت واحد، وأمي وشقيقاتي كن يقدمن الأطباق طبقاً للقادمين أولاً، ولكن لم يكن غريباً أن يدخل الرعاة لطلب نصيبهم من الطعام. وخـلال الليل يمر أشقائي الصغار بسرير أمي وأبي، منهم من لم يتمكن من الـنوم بسبب الحر أو البرد، أو من ألم الأسنان أو الخوف من الموتى، أو حباً فـي الأبويـن أو غـيرة من الآخرين، وينتهون جميعاً إلى التكوم في سرير الأبويـن حتى الصباح، وإذا كان لم يولد طفل بعد أليخيو فإن هذا كان بفضل مـارجوت التـي عـادت مـن المدرسة الداخلية وفرضت على أمها أن تفي بوعدها.

لسـوء الحظ فإن الواقع فرض أحكامه على شقيقتي الكبيرتين اللتين بقيتا بـلا زواج مـدى الحياة، عايدة كما في القصص الرومانتيكية الوردية دخلت الديـر لتبقى راهبة إلى الأبد، وهجرته بعد اثنين وعشرين سنة عندما لم تجد رفائيل ولا أي رجل آخر يرغب فيها، ومارجوت، بشخصيتها الصارمة، فقدت رفائيلها بسبب خطأ وقع من كليهما، وحكم عليها بالحزن الأبدي، أما ريتا فقد تزوجـت مـن أول رجل أعجبها وعاشت سعيدة بخمسة أولاد وتسعة أحفاد. الأخـريات –ليخيا وآيمي– تزوجتا بمن أحببن بعد أن تعب أبوي من النضال ضد الحياة الواقعية التي فرضت قوانينها.

كانت تبدو هموم العائلة كما لو كانت جزءاً من الأزمة التي تعيشها البلاد مـن تدهور الاقتصاد إلى استنزاف العنف السياسي، الذي وصل إلى سوكري ودخل البيت في صمت، ولكن بخطوات ثابتة. في ذلك الوقت كنا قد انتهينا من الخزيـن القليل الذي كنا نملكه، وأصبحنا فقراء كما كنا دائماً في بارانكيا قبل

الرحـــيل إلـــى سوكري. ولكن أمي لم تصمت، بسبب ثقتها المعروفة بأن كل طفل يأتي إلى العالم ويحمل خبزه تحت إبطه. هذا هو وضع البيت عندما جئت إلـــيه مـــن كارتاخينا، في حالة نقاهة من الالتهاب الرئوي، لكن العائلة بذلت جهدها في أسرع وقت حتى لا أشعر به.

طعـــام الـــيوم الشائع في القرية كان علاقة صديقنا كايتانو جنتيلي بمعلمة المدرسة بقرية "تشابارال" القريبة فتاة جميلة تنتمي إلى طبقة اجتماعية مختلفة عن طبقته، لكنها جادة جداً ومن عائلة محترمة، لم يكن الأمر غريباً: فقد كان جايـــتانو دائماً نحلة ليس فقط في سوكري بل أيضاً في كارتاخينا، حيث درس الـــبكالوريا وبـــدأ دراسة الطب. لكن لم يعرف أحد له علاقة نسائية جادة في سوكري، ولا زميلة مفضلة في الرقص.

شـــاهدناه فـــي إحدى الليالي يصل إلى مزرعته على ظهر أفضل خيوله، والمعلمة تركب على السرج بينما هو على عجز الحصان من خلفها محتضنها من وسطها، لم تفاجئنا مدى الثقة المتبادلة بين الاثنين بل جرأتهما على دخول ســـوق الساحة الرئيسية في ساعة ذروة الحركة وفي قرية سيئة الظن، شرح جايتانو لمن أراد أن يسمعه أنه وجدها على مدخل المدرسة تنتظر أحداً يعطف علـــيها ويحملهـــا إلى القرية في هذه الساعة من الليل، حذرته من احتمال أن تظهر في أي لحظة على أبواب القرية ورقة من تلك تتحدث عن العلاقة، هز كتفيه بعلامة معروفة عنه ورد عليّ بنكتة:

– لا يجرؤن على الحديث عن الأثرياء.

بالضـــبط، فقد فقدت أوراق الفضائح فاعليتها بالسرعة التي ظهرت بها، وفكـــروا انه ربما يكون دليلاً آخر على الوضع السياسي السيئ الذي يسيطر علـــى البلاد، فعاد النوم إلى عيون من كانوا يخافونها، بالمقابل. بعد أيام قليلة من وصولي شعرت بأن شيئاً تغير نحوي في عقول بعض زملاء أبي، بعد أن

اتهموني بأنني كاتب بعض المقالات المعادية لحكومة المحافظين المنشورة في اليونفرســال. لم يكن ذلك صحيحاً، فإذا صادف أنني كتبت بعض الافتتاحيات فقد كان ذلك بلا توقيع، وتحت مسئولية إدارة التحرير، منذ أن تم التوقف عن طرح السؤال حول ما حدث في كارمن ديل البوليفار. أما المقالات التي تحمل توقيعي فقد كانت تكشف بوضوح سوء الحال الذي وصلت إليه البلاد. وتغلغل العــنف والظلم، لكنها لم تكن تحمل شعارات أي حزب، وبالفعل فلا في ذلك الوقــت ولا فــي أي وقت آخر كنت منتمياً إلى أي منها، أزعجت الاتهامات أبوي وبدأت أمي تشعل شمعة للقديسين، خاصة عندما كنت أبقى خارج البيت حتى وقت متأخر، وشعرت لأول مرة بأنني محاط بمناخ قمعي فقررت التقليل من خروجي من البيت.

فــي تلك الأيام المشؤومة ظهر في عيادة أبي رجل كان يبدو كما لو كان شــبحه الخــاص، جلــده يســمح برؤية شكل عظامه والبطن مستدير ومنتفخ كالطبلة. كانت جملة واحدة كافية حتى لا أنساه إلى الأبد:

– دكتور، جئتك لكي تخرج لي القرد الذي جعلوه ينمو في بطني.

بعد فحصه، فهم أبي أن الحالة تخرج عن قدرته، فأرسله إلى زميل جراح لــم يعثر على القرد الذي كان يعتقد المريض بوجوده، بل عثر على كائن حي لــه كــيانه المستقل، ما يهمني هنا، ليس الحيوان ساكن البطن بل القصة التي حكاهــا لــنا المريض عن العالم السحري في "سييربي"، بلدة أسطورية داخل حــدود قــرية ســوكري يمكن الوصل إليها فقط عبر المداخن، أحد مراحلها الاعتــيادية الانــتقام مــن إهانة بفعل شرير مثل ذلك المخلوق الشيطاني في البطن.

كــان ســكان سييربي كاثوليكيين مؤمنين لكنهم يمارسون الدين بطريقتهم الخاصــة، بتلاوات سحرية في كل صلاة. يعتقدون في الله والعذراء والثالوث

المقدس، لكنهم يقدسون أي شئ يكتشفون أن له علامات إلهية ظاهرة، مما يبدو طبيعـياً بالنسبة لهم أن شخصاً يمكن أن ينمو في بطنه مخلوق شيطاني، تماماً كاتهام الجراح بالكفر.

سرعان ما فوجئت بأن جميع الناس في سكوري يعرفون بوجود سييربي كواقع مقبول، وأن المشكلة الوحيدة التي كانت تقابلهم هي أن الوصول إليها لا يـتم إلا عـن طريق محفوف بالعقبات الجغرافية والعقلية. واكتشفت مؤخراً وبالصـدفة أن الأستاذ الخبير في موضوع سييربي هو صديقي أنخيل كاسيخ الـذي شاهدته آخر مرة يغني في أوركسترا الحي الصيني في بارانكابيرميخا فـي رحلتـي الثانية أو الثالثة عبر نهر ماجدالينا. وجدته في هذه المرة أكثر تعقلاً، وبحكاية مبهرة عن زياراته لسييربي. فعرفت منه كل ما يمكن معرفته عـن لاماركيسـيتا، مالكـة وسيدة كل هذه المملكة الكبيرة التي تحتوي على صلوات سرية لعمل الخير والشر، ولإبراء مريض مرض الموت دون معرفة أي شـئ عـنه أكثر من وصفه الفيزيقي والمكان المحدد الذي يوجد فيه، أو لإرسال حية عبر البحيرات لقتل عدو قبل مرور سبعة أيام.

الشـيء الوحـيد المحرم في كل هذا إحياء الموتى، لأنه يدخل في إطار الأسـرار الإلهية. عاشت تلك المرأة كل السنوات التي أرادتها في الحياة، من المفـترض أنها عاشت حتى مائتين وثلاث وثلاثين سنة، ولكن دون أن تبدو علـيها علامـات الشيخوخة بعد إكمالها عامها السادس والستين. وقبل موتها جمعت قطعانها الرائعة وجعلتها تدور من حول بيتها طوال يومين وليلتين، إلى أن تـم صنع حدود سييربي، وهي عبارة عن بحر مُوَشَّى بأشجار فسفورية. ويقال إنه في وسطها توجد شجرة تحمل فاكهة من ذهب، وجذعها مربوط إلى قـارب يسـبح كل يوم ٢ نوفمبر – يوم الأموات- بلا ملاح حتى يقترب من الشـاطئ الآخـر، وتحرسها تماسيح بيضاء وحيات بأجراس من ذهب، حيث

دفنت لاماركيسيتا كنزها.

منذ أن قص عليّ أنخيل كاسيخ هذه الحكاية الرائعة بدأت أختنق بالرغبة في زيارة جنة سييربي المغروسة في الواقع. أعددنا كل شئ، خيول محجبة بصلوات عكسية، وقوارب غير مرئية، ودليل سحري، وكل ما نحن في حاجة إليه لكتابة تحقيق عن ذلك الواقع الميتافيزيقي.

مع ذلك، بعد إعداد البغال، فإن بطء معافاتي من الالتهاب الرئوي وسخرية الأصدقاء في حلبات الرقص بالساحة، وتنكيت الأصدقاء الكبار، أجبرتني على إرجاء الرحلة لما بعد ولم تتم أبداً، واستحضرها اليوم، مع ذلك، كما لو كانت عقبة حسنة الحظ، لأن افتقادي إلى لاماركيسيتا الرائعة جعلني أغوص حتى الأعماق ومن اليوم التالي في كتابة أول رواية لي، والتي لم يبق منها سوى العنوان: "البيت".

كنت أود أن أكتبها لتعبر عن مأساة حرب الألف يوم في الكاريبي الكولومبي، وهو ما تحدثت عنه مع مانويل ثاباتا أولفايي، في زيارة سابقة لكارتاخينا. في هذه الفرصة ودون علاقة تذكر بالمشروع، أهداني كُتيباً كتبه أبوه عن مقاتل قديم في تلك الحرب، كانت صورته مطبوعة على الغلاف، بملابس عسكرية وشارب ملون بالدخان، ذكرني بطريقة ما بجدي، لا أذكر اسمه، ولكن لقبه ظل معي إلى الأبد: "بوينديا"، لهذا فكرت في كتابة رواية بعنوان "البيت"، حول سيرة عائلة فيها الكثير من عائلتنا خلال الحروب العقيم للجنرال نيكولاس ماركيز.

كان العنوان مبنياً على أساس الهدف ألا تخرج الأحداث أبداً من البيت، وبدأت عدة بدايات ووضعت خريطة جزئية للشخصيات التي وضعت لها أسماء من العائلة استخدمتها فيما بعد في كتب أخرى. أنا حساس جداً تجاه أي جملة تتفق فيها كلمتان في التقفية فيما بينهما، حتى لو كانت التقفية مجرد

حـــروف صوتية، وأفضل عدم نشرها ما لم أحل هذه المشكلة، لهذا كنت على وشك التخلي عن اللقب بويناديا بسبب قافيته التي تتفق دائماً مع صيغة الماضي الكـــامل، إلا أن اللقـــب فـــرض نفسه في النهاية لأنه استطاع أن يكون لنفسه شخصية مقنعة.

كنت في هذا عندما أشرق الصباح في بيت سوكري بصندوق من الخشب بـــلا اســـم مكـــتوب ولا أي إشارة دالة عليه، تلقته شقيقتي مارجوت دون أن تعرف مرسله، وكانت مقتنعة بأنه صندوق متخلف عن الصيدلية التي بعناها، وفكرت أنا في الأمر نفسه وتناولت إفطاري مع العائلة وقلبي هادئ في مكانه، أوضـــح أبي أنه لم يفتح الصندوق لأنه اعتقد أنه يحتوي على باقي حاجياتي، دون أن أتذكر أنه لم يعد لي حاجيات في أي مكان من العالم، شقيقي جوستافو، كـــان علـــى وشك إكمال الثالثة عشرة من عمره، قرر فتحه دون أذن، بعدها بقليل سمعنا صرخة:

- إنها كتب.

قفز قلبي قبلي، بالضبط، كانت كتب بلا علامات تدل على المرسل، كانت مرصوصـــة بـــيد خبـــيرة حتى أقصى مكان في الصندوق، ومعها رسالة من الصـــعب قراءتها بحروفها الهيروغليفية والغنائية المغلقة لخيرمان بارجاس: "هـــذه المشكلة لك، يا أستاذ، ولنر أخيرا إن كنت تتعلم شيئاً، كان موقعاً عليها أيضـــاً من ألفونسو فوينماير، وخاتم عرفت أنه للسيد رامون فيينيس، الذي لم يكـــن يعرفنـــي بعد، وتحذير وحيد بألا ارتكب عملية سرقة أدبية واحدة يمكن اكتشافها بسهولة. في داخل أحد كتب فوكنر كانت هناك كلمة من ألفارو ثيبيدا، بخط يده ومكتوبة على عجل، يخبرني فيها أنه في الأسبوع التالي سيذهب لمدة عام لحضور دورة دراسية بمدرسة الصحافة في جامعة كولومبيا بنيويورك.

أول شـــئ فعلـــته عرض الكتب على مائدة الطعام، بينما كانت أمي ترفع

بقايا الإفطار. وأمسكت بمقشة لإبعاد الأبناء الصغار الذين كانوا يريدون قص الصور بمقص لقص الأشجار و كذلك الكلاب الضالة التي كانت تتشمم الكتب كما لو كانت صالحة للأكل، وأنا أيضاً كنت أتشممها، كما كنت أفعل دائماً مع كـل الكتـب الجديدة، ومررت عليها دون ترتيب قارئاً بعض المقاطع بشكل سـريع. غيرت مكاني ثلاث أو أربع مرات في الليل لأنني لم أكن أعثر على راحتـي، أو لانتهاء ضوء الفناء الميت، وأصبحت بظهري منحنٍ ودون أدنى فكرة عن كيفية الاستفادة التي يمكنني أن أحصل عليها من تلك المعجزة.

كانت اثنتان وعشرين عملاً متميزاً لكتاب معاصرين، كلها باللغة الإسبانية أو مخـتارة بهدف واضح هو لقراءتها لتعلم الكتابة، وفي ترجمات حديثة جداً مـثل "الصخب والغضب" لوليم فوكنر. بعد خمسين عاماً لا أزال أستطيع أن أتذكـر القائمـة كاملـة والأصـدقاء الثلاثة الأبديين الذين يعرفون أنهم هنا لأتذكرهم، لم أكن قرأت من هذه الكتب سوى "السيدة دالاوي" لفرجينيا وولف، و"الطـباق" لألـدوس هيكسلي. وأفضل ما أتذكره من هذه الكتب كانت لوليام فوكنر: المدينة المتخلفة، الصوت والعنف، بينما كنت أحتضر، النخيل البري. وأيضـاً "مانهاتـن ترانسفير" وربما كتب أخر، من كتب جون دوس باسوس، و"أورلاندو" لفيرجينيا وولف، و"عن الفئران والرجال وعناقيد الغضب"، لجون شـتاينبك، و"صورة جيني" لروبرت ناثان، و"طريق التبغ" لإريسكن كالدويل. من بين العناوين التي لا أتذكرها بفعل المسافة الزمنية لنصف قرن مضى كان هناك أحدها ليهمنجواي، وربما كانت مجموعة قصصية، وكان من أحبها إلينا وإلـى أصدقاء بارانكيا، وكتاب لخورخي لويس بورخيس، ومن المؤكد أيضاً أنـه كـان يحـتوي علـى مجموعة قصصية، وربما كتاب آخر لفليسبيرتو هيرنانديث، كاتب القصة الأوروجواي العجيب الذي اكتشفه أصدقائي مؤخراً، قـرأت كل هذه الكتب في الأشهر التالية، بعضها بانتباه كبير والبعض الآخر بانتـباه أقـل، وبفضل هذه الكتب تمكنت من الخروج من حالة التيبس الخلاّق

التي كنت فيها.

منعوني من التدخين بسبب الالتهاب الرئوي، ولكني كنت أدخن في الحمَّام كما لو كنت أهرب من نفسي، ولكن الطبيب انتبه إلى ذلك وحدثني بجدية لكني لـم أستطع اتباع تعليماته، وفي سوكري، بينما كنت أحاول أن أقرأ بلا توقف الكتب التي استلمتها، كنت أشعل سيجارة من نار الأخرى، إلى أن عجزت عن الاستمرار، وصـل تدخيني إلى أربع علب يومياً، كنت أقطع تناول الطعام لأدخن وأحرقت الشراشف لأنني كنت أنام والسيجارة مشتعلة. والخوف من المـوت كـان يوقظني في أي ساعة من الليل، ولم تكن هناك طريقة أخرى للتغلب عليه إلا بالتدخين أكثر، إلى أن توصلت إلى أنني أفضل الموت على ترك التدخين.

بعـد أكـثر من عشرين سنة بعد ذلك، كنت متزوجاً ولي ابنين، واصلت التدخيـن، فحصني طبيب وشاهد رئتي على الشاشة فقال لي منزعجاً إنني لن أسـتطيع التـنفس بعـد عامين أو ثلاثة أعوام، أصابني الرعب. بقيت جالساً سـاعات وسـاعات دون أن أفعل شيئاً لأنني لم أستطع مواصلة القراءة، أو سماع الموسيقى، أو الحديث مع الأصدقاء أو الأعداء بدون تدخين. في إحدى الليالي وخلال عشاء في أحد البيوت شرح طبيب نفساني صديق للآخرين أنه ربما يكون أسهل شئ هو التخلص من إدمان التدخين، تجرأت على سؤاله عن الكيفية، فكانت إجابته بساطتها قاتلة:

– تركك للتدخين سيكون بالنسبة لك كقتل شخص عزيز على نفسك.

كانت كانتهاء النبوءة، لم أعرف السبب أبداً، ولا لم أحاول أن أعرفه، فقد أنهيـت السـيجارة التي انتهيت من إشعالها خلال محبسي ولم أعد إلى تدخين سيجارة أخرى على الإطلاق، دون غثيان أو ندم، في ما تبقى من حياتي.

الإدمان الآخر لم يكن أقل صعوبة، دخلت خادمة من البيت المجاور لبيتنا

في إحدى الأمسيات ، وبعد أن تحدثت مع الجميع توجهت إلى الشرفة وطلبت الحديث معي بكل أدب، ولم أتوقف عن القراءة حتى ســألتني:

- هل تذكر ماتيليدي؟.

لم أذكر من تكون، لكنها لم تصدقني، وقالت لي بتقسيم حروف الاسم.

- لا تبدي غباء، يا سيد جابيتو، إنها ني- جرو - مان- تا.

عندها كل الحق: أصبحت نيجرومانتا في هذا الوقت سيدة حرة، ولها ابن مــن رجل البوليس الميت، وتعيش وحيدة مع أمرها وعائلات أخرى في بيت واحــد، ولكــنها كانت تعيش في غرفة نوم منفصلة لها باب يؤدي إلى خلفية المقابر، ذهبت لرؤيتها، عودتنا إلى اللقاء استمر لأكثر من شهر، وفي كل مرة كنت أؤخر عودتي إلى كارتاخينا وكنت أريد البقاء في سوكري للأبد. إلى أن فاجأتنــي عاصــفة فــي فجر أحد الأيام في بيتها تشبه تلك العاصفة ليلة لعبة الروليــت الروســية مع زوجها، حاولت أن حماية نفسي تحت حواف البيوت ولكنــي فــي الــنهاية ألقيت بنفسي في منتصف الشارع والمياه وصلت حتى ركبتــي، من حسن حظي أن أمي كانت في المطبخ وحدها فأخذتني إلى غرفة نومــي عــبر طرق الحديقة حتى لا يعلم أبي بما حدث، وساعدتني على خلع قميصــي المبتل، وأبعدته حتى آخر طول ذراعها ممسكة إياه بأطراف السبابة والإصبع الكبير، وألقت به إلى الركن بتنهيدة غثيان، وقالت:

-كنت عند العاهرة.

تحجرت تماماً.

- كيف عرفت هذا!.

قالت بضجر:

- لأنها الرائحة نفسها. مرة أخرى، لحسن حظك أن رجلها مات.

فاجأني عدم إحساسها بالرحمة لأول مرة في حياتها. اعتقد أنها تنبهت إلى هذا، فأكملت دون تفكير:

– الموت الوحيد الذي أسعدني عندما علمت به.

سألتها مذهولاً:

– كيف عرفت من تكون!.

تنهدت:

– أي يا بني، الله يخبرني بكل شئ يتعلق بكم.

ثم ساعدتني على خلع البنطلون المبتل وألقت به إلى الركن مع باقي الملابس، "كلكم ستكونون تماماً مثل أبيكم"، قالتها بتنهيدة عميقة، بينما كانت تجفف ظهري بفوطة من التيل، أنهت بكل إحساسها:

–ليرد الله أيضاً أن تكونوا أزواجاً طيبين مثله.

الرعاية التي خصتني بها أمي ربما كانت نابعة من محاولتها تفادي عدم تعرضي مرة أخرى للالتهاب الرئوي، إلى أن انتبت أنها هي نفسها كانت تحيك من حولي الشراك لتمنعني من العودة إلى سرير البرق ونيجرامانتا، فلم أعد لرؤيتها إلى الأبد.

عدت إلى كارتاخينا معافى ومرحاً، بنبأ مهم أنني كنت في حالة كتابة رواية "البيت"، وكنت أتحدث عنها كما لو كانت مكتملة مع أنني كنت فقط في بدايات الفصل الأول. استقبلني ثابالا وهيكتور كما الطفل العجيب، وفي الجامعة كان يبدو أن أساتذتي الطيبين قبلوني كما أنا، وواصلت في الوقت نفسه كتابة المقالات بشكل عرضي التي كانوا يدفعون لي مقابلها في اليونفرسال. وواصلت مسيرتي ككاتب قصص قصيرة بكتابة القليل جداً منها فقط لإرضاء الأستاذ ثابالا: "حوار المرايا"، و"مرارة من أجل ثلاثة سائرين

أثـــناء النوم"، ونشرتا كلاهما في الاسبكتادور. برغم أن القصتين كانت فيهما ملامح عودة إلى الأربع السابقة لم أتمكن من التخلص منها.

كانـــت كارتاخينا وقتها ملوثة بالتوتر السياسي المسيطر على باقي البلاد، وكـــنا نعتـــبر هذا مؤشراً على أن شيئاً خطيراً سيحدث، مع نهاية السنة أعلن الليبراليون عدم المشاركة في أي نشاط سياسي احتجاجاً على وحشية المطاردة السياســـية، لكنهم لم يتوقفوا عن الممارسة السياسية السرية لإسقاط الحكومة. ازداد العنف في الريف ، فهرب الفلاحون إلى المدن، ولكن الرقابة كانت تجبر الصـــحف علـــى الكـــتابة بعكس ما يحدث، إلا أن الجماهير كانت تعرف أن الليبراليين المقموعين سلحوا ميليشيات في العديد من مناطق البلاد. خاصة في الســـهول الشرقية – محيط عظيم من المراعي الخضراء يحتل أكثر من ربع مساحة الأراضي الوطنية– تحت قيادة الجنرال جوادالوبي سالثيدو الذي كانت له شهرته كشخصية أسطورية، خاصة في الجيش، وكانت صوره يتم توزيعها في السر، ويتم نسخها بالمئات ويشعلون لها شموعاً في محراب الكنائس.

آل دي لا اســـبرييا، فـــيما يبدو، يعرفون أكثر مما يعلنون، كان الحديث داخـــل المـــدن المسورة يتحدث بشكل عادي عن انقلاب عسكري على وشك الوقـــوع ضد المحافظين، لم أكن أعرف التفاصيل، لكن الأستاذ ثابالا حذرني أنه في اللحظة التي أنتبه فيها إلى وجود أي تظاهر في الشارع أن أذهب إلى الصـــحيفة علـــى الفور، كان يمكن لمس التوتر باليدين عندما دخلت إلى محل مرطـــبات "هيلادريا أمريكانا" للوفاء بموعد في الثالثة مساء، قام أحد زملائي القدامـــى ، لم أتحدث معه عن السياسة مطلقاً، ومر إلى جواري وقال دون أن ينظر إليّ:

– اذهب إلى الصحيفة، ستبدأ المعركة.

فعلت عكس ما طلب: كنت أريد أن أعرف هذا في وسط المدينة بدلاً من

انغلاقي في صالة التحرير. بعدها بدقائق جلس إلى طاولتي ضابط صحافة من الحكومـــة المحلية، كنت أعرفه جيداً، ولم أعرف أنهم خصصوه لي ليراقبني، تحدث معي حوالي نصف ساعة بطريقة لا واعية ، وعندما نهضت لأذهب ، اكتشـــفت أن الصــــالون الضخم فرغ من الزبائن دون أن أنتبه، تابع نظرتي وتبين الساعة:الواحدة وعشر دقائق.

قال لي براحة مكبوتة:

– لا تنزعج.

بالضـــبط، فقد قامت المجموعة المهمة من الزعماء الليبراليين، منزعجين مـــن العنف الرسمي، واتفقوا مع العسكريين الديمقراطيين الأعلى رتبة لوضع حـــد للمذبحة التي يمارسها النظام المحافظ بطول البلاد وعرضها في محاولة منه للبقاء في السلطة بأي ثمن، معظمهم شارك في مباحثات ٩ أبريل لإحلال الســـلام من خلال الاتفاق مع الرئيس أوسبينا بيريث، وما كادت تمر عشرون شهراً بعدها حتى انتبهوا إلى أنهم كانوا ضحية لخدعة كبرى، اتفاق ذلك اليوم تـــم بموافقة رئيس الإدارة الليبرالية شخصياً، كارلوس بيراس ريستريبو ، من خلال بلينيو ميندوثا نييرا، الذي كان على علاقة جيدة بالقوات المسلحة عندما كـــان وزيـــراً للحرب في الحكومة الليبرالية. العمل المنظم من خلال ميندوثا نيـــيرا بالـــتعاون مع المؤيدين في كل البلاد كان يجب أن يبدأ مع فجر اليوم التالي بقصف القصر الرئاسي بطائرات القوات الجوية، كانت الحركة مدعومة بالقواعد البحرية في كارتاخينا ومعظم القادة العسكريين في البلاد والمنظمات المهنية للسيطرة على السلطة وإقامة حكومة مدنية للمصالحة الوطنية.

فقط بعد فشل الحركة عرفنا أنه قبل يومين من التاريخ المحدد لبدء العمل، اجـــتمع الرئيس السابق إدواردو سانتوس في بيته ببوجوتا مع القادة الليبراليين وزعماء الانقلاب لوضع اللمسات الأخيرة للمشروع، وخلال المناقشات، سأل

أحدهم السؤال الطقسي:

- هل سيكون هناك سفك دماء؟.

لـــم يرد أحد أن يكون أبلها أو غبيا ليجيب بلا، زعماء آخرون أكدوا أنهم اتخـــذوا احتياطاتهم حتى لا تراق الدماء، ولكن لا توجد وصفات سحرية تمنع وقوع ما هو غير متوقع، ولخوفهم من حجم مؤامرتهم، قامت الإدارة الليبرالية بـــتوزيع الأوامر بلا نقاش، وكثيرون من المشاركين لم تصلهم التعليمات في الموعـــد المحـــدد فتم القبض عليهم أو اغتيالهم في المحاولة، آخرون نصحوا ميـــندوثا بأن يواصل دوره منفرداً حتى يتم الاستيلاء على السلطة، ولم يعمل بـــتلك النصيحة لأسباب أخلاقية أكثر منها سياسية، لكن لا الوقت ولا الوسائل مكنـــته من تحذير كل المشاركين. تمكن هو من اللجوء إلى السفارة الفنزويلية وعـــاش أربع سنوات في المنفى بكاراكاس، ونجا من محكمة عسكرية حكمت عليه بالسجن خمسة وعشرين عاماً، بعد اثنتين وخمسين عاماً أكتب بكل ثقة – دون الحصول على إذن منه– أنه ندم بقية حياته خلال منفاه عما نتج عن بقاء المحافظين في الحكم: لا أقل من ثلاثمائة ألف قتيل في عشرين سنة.

وبالنســـبة لي أيضاً، بطريقة ما، كانت تلك لحظة حاسمة، كنت قد نجحت في امتحانات السنة الثالثة بكلية الحقوق قبل ثلاثة أشهر، ووضعت نهاية لعلاقة مـــع صحيفة اليونفرسال، فلم أكن راصداً المستقبل لا في هذه ولا تلك، ولكني أعلنـــت أن السبب هو الحصول على وقت فراغ أنهي فيه الرواية التي لم أكد أكتب فيها شيئاً، وإن كنت في أعماقي أعرف أنها في الحقيقة لم تكن أكثر من كذبـــة، وأننـــي سريعاً ما اكتشفت أن المشروع لم يكن سوى شكلاً من أشكال البلاغة، مع قليل من الكاتبة الجيدة التي عرفتها من استخدام فوكنر مُضافاً إلى كـــل مـــا هو سيئ.. الناتج عن قلة الخبرة، وتعلمت سريعاً أن حكي حكايات مـــتوازية للذيـــن لا يكتبون – دون كشف محتواها– جزء مهم من موضوع

الكــتابة نفسها، لكن هذا لم يكن القضية وقتها، بل إنه ينقص شيء يؤكد أنني أبدعت رواية شفهية لتسلية المستمعين وخداع نفسي.

هذا الوعي أجبرني على إعادة التفكير في المشروع الذي لم يكن بين يدي مــنه أكثر من أربعين صفحة متفرقة، فراجعته من أول نقطة إلى آخر نقطة، ومــع ذلك ذكروا الرواية في أكثر من مجلة وصحيفة –وأنا أيضاً فعلت ذلك– وحــتى نشــروا أجزاء من مقالات نقدية عنها لجذب القراء المتخيلين. حقيقة أسباب هذه العادة بالحديث عن مشروعات متوازية لا يجب أن تستحق التقريع بــل الشفقة: رعب الكتابة يمكن أن يكون لا يحتمل تماماً كالكتابة نفسها، وفي حالتي، إضافة إلى هذا كنت مقتنعاً بأن حكي القصة الحقيقية يجلب سوء الحظ، ومع ذلك يعزيني أنه في بعض الأحيان يمكن أن تكون الحكاية الشفهية أفضل مــن المكــتوبة، ودون أن أعرف كنا نختلق نوعاً جديداً ينقص الأدب: خيال الخيال.

فحقــيقة الحقــيقة أننــي لم أكن أعرف كيف أواصل الحياة. نقاهتي في سوكري نفعتني في الانتباه إلى أنني لا أعرف اتجاه الحياة، ولكنها لم تقدم لي إشــارة على الطريق القويم ولا سبباً جديداً لأقنع أبوي أنهما لن يموتا لو أنني اتخذت قراري بحرية ولحسابي الخاص، لذلك ذهبت إلى بارانكيا ومعي مائتي بــيزو أعطتني إياهم أمي قبل عودتي من كارتاخينا، اقتطعتهم من مصاريف البيت.

فــي ١٥ ديسمبر ١٩٤٩ دخلت مكتبة ألموندو في الخامسة مساء لانتظر أصــدقائي الذين لم أرهم بعد ليلتي تلك في مايو التي ذهبت فيها لأودع السيد روزاري الذي لا يُنسى. لم أكن أحمل سوى حقيبة شاطئ مع أخرى للملابس وبعض الكتب وحقيبة جلدية بأصول قصصي. بعد قليل من وصولي ، جاءوا جميعاً إلى المكتبة واحداً بعد الآخر، وكان ترحيباً ضاجاً من ألفارو ثيبيدا الذي

كـــان لا يزال في نيويورك. وعندما اكتملت المجموعة انتقلنا لتناول المقبلات الذي لم يعد في مقهى كولومبيا القريب من المكتبة بل في مقهى آخر لأصدقاء أقرب على الرصيف المقابل: مقهى جابي.

لـــم يكن لدي خط سير محدد، لا هذا المساء ولا في بقية حياتي. الغريب أننـــي لـــم أفكر أبداً أن خط السير هذا يمكن أن يكون في بارانكيا، وأنني لو ذهبـــت إلـــى هناك لن يكون إلا للحديث عن الأدب وتقديم شكري على الكتب التـــي أرســـلوها لي بها في سوكري. الأول كناقد تحدثنا فيه بما فيه الكفاية، ولكـــن لا شيء عن الثاني برغم أنني حاولته عدة مرات، لأن المجموعة كان لديها رعب مقدس من الاعتياد على تقديم أو تقبل الشكر فيما بينهم.

جهـــز خـــيرمان بارجـــاس ليلتها طعاماً لاثني عشر شخصاً، من جميع الأصناف، من صحافيين إلى رسامين إلى محامين، وحتى حاكم القسم، محافظ كلاسيكي من بارانكيا، له طريقته الخاصة في التمييز والحكم. انسحب أكثرهم عـــند منتصـــف الليل ، وانقسم الباقون تسربوا في جماعات صغيرة، إلى أن بقيـــنا، ألفونســـو وخيرمان وأنا، مع الحاكم، تقريباً كما اعتدنا على السهر في مراهقتنا.

خلال النقاشات الطويلة لتلك الليلة تلقيت درساً مفاجئاً عن شخصية حاكم المديـــنة خلال السنوات الدامية، احتسب انه بين نتائج تلك السياسة المتوحشة الأقل أملاً ، هناك رقم رهيب من اللاجئين بلا سقف ولا خبز في تلك المدن.

أنهى حديثه قائلاً:

-بهـــذه الطـــريقة فـــإن حزبي بمساعدة السلاح سيبقى بلا معارضين في الانتخابات القادمة ويصبح مالك السلطة المطلقة.

الاستثناء الوحيد كانت بارانكيا، المتوافقة مع ثقافتها في التعايش السياسي التي يطبقها المحافظون المحليون ، حوّل تلك المدينة إلى ملجأ للسلام في قلب

البركان، أردت أن أقول له تحفظا أخلاقياً، لكنه أسكتني بجفاء بإشارة من يده، وقال:

– آسـف، هـذا لا يعني أننا نعيش على هامش الحياة الوطنية، بالعكس: بسبب سياستنا السلمية فإن المأساة الاجتماعية في البلاد بدأت تدخل إلى مدينتنا من الباب الخلفي، وأنها تعيش بيننا.

عرفت لحظتها أنه هناك حوالي خمسة آلاف لاجئ جاءوا من الداخل في أسـوأ بـؤس ولا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم ولا أين يخبئونهم حتى لا يتم إعـلان المشـكلة. ولأول مرة في تاريخ المدينة هناك دوريات عسكرية تقيم حراسة في الأماكن الحساسة، وكل العالم يراها، لكن الحكومة تنفيها، والرقابة تمنع الإعلان عنها في الصحف.

عند بزوغ الفجر، وبعد ذهاب الحاكم زحفاً تقريباً، ذهبنا إلى شوب سويي، مطعم إفطار كبار الساهرين، اشترى ألفونسو من كشك الناصية ثلاث نسخ من الهيرالدو، كانت في صفحة افتتاحيتها مقالة موقعة باسم "بوك" اسمه المستعار فـي العمود اليومي، كانت فقط عبارة عن تحية لي، ولكن خيرمان سخر منه لأن المقالة تقول إنني كنت هناك في إجازة غير رسمية.

وسخر خيرمان:

– مـن الأفضـل كان يمكنك أن تقول إنه سيبقى ليعيش معنا هنا حتى لا نكتب مقالة تحية وبعدها نكتب أخرى لوداعه، وبذلك نوفر لصحيفة بخيلة مثل الهيرالدو.

وبعدها بجدية، فكر ألفونسو أنه لن يكون سيئاً كتابة عمود آخر في صفحة الرأي، لكن خيرمان كان متمرداً مع ضوء الصباح.

–سيكون طابوراً خامساً لأن بالصحيفة أربعة.

لم يستشرني أي منهم ليعرف مدى استعدادي، كما كنت أتمنى، لأقول لهما نعم، لم نتحدث عن الموضوع أكثر من هذا، ولم نكن في حاجة إلى ذلك، لأن ألفونسو قال لي في تلك الليلة أنه تحدث مع إدارة الصحيفة ، ويعتقدون أنه يمكن أن تضم الصحيفة كاتباً جديداً، إذا ما كان جيداً، ولكن دون مقابل كبير. على أي حال لم يتفقوا على شئ محدد حتى مُضي أعياد الميلاد والعام الجديد؛ لذلك قررت البقاء بحجة العمل الجديد، وإن كانوا قد قالوا لي لا ، في فبراير.

٧

كانـــت مقالتي الأولى المنشورة في صفحة الافتتاحية لصحيفة الهيرالدو، يـــوم ٥ يناير ١٩٥٠، لم أوقعها باسمي تحسباً للفشل وعدم تمكني من استعادة نجاحـــي الـــذي حظيـــت به في اليونفرسال، لم أفكر مرتين في اختيار الاسم المستعار: سيبتيموس، المأخوذ من سيبتيموس وارن سميث، شخصية فرجينيا وولف المعتوهة، في رواية "السيدة دالاوى"، وعنوان العمود –"الزرافة"– كان اسم الشهرة السري الذي لم يكن يعرفه أحد غيري لرفيقتي الوحيدة في حلبات الرقص في سوكري.

كانـــت نســـمات يـــناير تبدو لي كما لو كانت تهب أكثر من أي وقت في الســـنة، ولا نكاد نستطيع السير عكسها في الشوارع التي تخضع لهباتها حتى شـــروق الصـــباح – كانت الأحاديث دائماً عن ما تخلفه الرياح المجنونة من ضـــرر خلال الليل، فكانت تأخذ معها النعاس وحظائر الدجاج، وتحول زنك أسقفها إلى مقاصل طائرة.

أعتقد اليوم أن تلك النسمات المجنونة كنست آثار ماض عقيم، وفتحت لي أبـــواب حـــياة جديدة، فقد تحولت علاقتي مع المجموعة من علاقة الإعجاب المتبادل إلى علاقة المشاركة المهنية. كنا في البداية نتحاور حول المشروع أو نتـــبادل الملاحظات بلا تنظير ولكن بلا نسيان. وأكثر اللحظات حسماً بالنسبة لـــي كانـــت فـــي صباح أحد الأيام عندما دخلت مقهى جابي، وكان خيرمان بارجـــاس قـــد انـــتهى لتوه من قراءة "الزرافة" في صمت، في قصاصة من صحيفة اليوم، وكان باقي أعضاء المجموعة في انتظار حكمه حول طاولة في إطار مناخ مرعب يحوم على الصالة. ما أن انتهى ودون حتى أن ينظر إليّ، مـــزقها خـــيرمان إلى قطع صغيرة دون أن ينطق بكلمة واحدة وألقى بها في

الطفايـــة بين بقايا أعقاب السجائر والكبريت المحترقة، لم ينطق أحد بحرف، ولم يتغير حال الجالسين حول الطاولة، ولم يتم مناقشة هذا الموضوع في أي لحظـــة أخــرى. ولكن هذا الدرس أفادني حتى هذه اللحظة عندما يطرأ على ذهنـــي فـــي لحظات معينة، أو تهب عليّ الرغبة في كتابة مقطع لمجرد أداء الواجب.

فـــي الفـــندق الرخيص الذي عشت فيه ما يقرب من السنة، كان أصحابه يعاملوننـــي كواحـــد من أفراد العائلة، كانت ممتلكاتي الوحيدة في ذلك الوقت تتكون من صندل تاريخي وغيارين داخليين كنت أغسلهما في الدش، والحقيبة الجلدية التي سرقتها من صالون الشاي الفاخر في بوجوتا خلال التمرد الشعبي لـــيوم ٩ أبـــريل. كنت أحملها معي إلى كل مكان بأصول الكتابات التي كنت أكتـــبها، وكانـــت الشيء الوحيد الذي أخشى عليه من الضياع، ولم أكن على استعداد للمخاطرة بها ولا حتى تحت سبعة مفاتيح في خزانة أحد البنوك، ولم أكـــن أئتمن عليها سوى شخص واحد هو "لثيدس" الهادئ، بواب الفندق، الذي قـــبلها كضـــمان لأجـــر الغرفة، أدهشته الأوراق الملفوفة المكتوبة على الآلة الكاتـــبة والمليـــئة بالتصحيحات، فخبأها في درج مكتبه. واستعدتها في اليوم التالـــي وفي الساعة المتفق عليها، وواصلت بعدها الوفاء بمواعيد الدفع بحزم تـــام لدرجة أنه كان يأتمنني حتى أجر ثلاث ليالٍ متتالية، وتحول ما بيننا إلى اتفـــاق جاد لدرجة أننى كنت أترك الحقيبة أحياناً على مكتبه دون أن أقول له أكثر من تحية المساء وأتناول المفتاح من لوحة المفاتيح وأصعد إلى غرفتي.

كان خيرمان يعيش مهموماً باحتياجاتي في كل ساعة، إلى درجة أنه كان يعـــرف إن كان لدي مكان لتناول الطعام أم لا، ويعطيني بيزو ونصف لأجر السرير. لم أعرف مطلقاً كيف كان يعلم بهذا، وبفضل حسن سلوكي استطعت أن أحصـــل على ثقة العاملين في الفندق، إلى درجة أن بنات الهوى الساكنات

بالفــندق كـــن يقدمن لي صابون الحمّام الخاص بهن– وكانت السيدة كاتالينا جراندي بنهديها الضخمين ورأسها الشبيه بالقرعة تجلس على كرسي الإدارة، وفتوتها كان الخلاسي خوسيه سان فيثنتي، عازف بوق شهير إلى أن فقد فكه خـــلال هجوم لصوص عليه لانتزاع آلته الموسيقية، تركوه جريحاً وغير قادر علـــى الـــنفخ فقـــام بتغيير مهنته، ولم يتمكن من الحصول على أفضل مكان لعضـــوه سوى سرير كاتالينا الذهبي، وهي أيضاً كان لها كنزها الخفي الذي ســـاعدها على الصعود خلال عامين فقط من العمل على رصيف الميناء إلى الجلوس على عرشها كأم كبرى. تعرفت على عبقريتهن وأيديهن الممتدة لنشر السعادة بين أصدقائهن، ولكنهن لم يفهمن أبداً كيف أنني في عدة مرات لم أكن أملك البيزو ونصف البيزو لدفع أجر الغرفة، ومع ذلك كان يرافقني كثير من أصحاب عربات الليموزين الرسمية.

خطـــوة أخرى سعيدة في تلك الأيام أنني تحولت إلى المرافق الوحيد لقرد الحـــرب، سائق تاكسي أشقر جداً كما لو كان مثلجاً، وذكي جداً وظريف إلى درجة أنهم اختاروه كعضو شرف في المجلس البلدي بلا دعاية انتخابية، كانت اللحظـــات التي يقضيها في آخر الليل بالحي الصيني كما لو كانت جزءاً من فيلم سينمائي، لأنه كان يتولى إثرائها بنفسه وأحياناً إضفاء مسحة من الجنون علـــيها– بعجرفة غير متوقعة، كان يخبرني عندما تكون لديه ليلة هادئة، وكنا نقضـــيها معـــاً فـــي الحي الصيني البائس، حيث تعلم آباؤنا وآباء آباؤنا كيف ينجبوننا إلى هذا العالم.

لـــم أفهم مطلقاً اكتشاف سبب، خلال هذه الحياة البسيطة، لغرقي في يأس غير متوقعاً، وروايتي التي كنت أكتبها "البيت" وبدأتها قبل ستة أشهر، بدت لي سخرية شيطانية، وأسوأ منها ما كنت أقوله بأنني مستمر في كتابتها. والحقيقة لـــم تكن سوى بعض الأجزاء التي نشرتها في عمود "الزرافة" وفي "كرونيكا"

عـــندما لـــم يكن لدي موضوع أكتبه، وخلال عزلة نهاية الأسبوع عندما يلجأ الآخرون إلى بيوتهم وأبقى وحيدا في مدينة تعيش حالة من الكسل، كنت فقيراً فقـــراً مطلقـــاً وخجلـــي يفوق خجل السمان، كنت أحاول التغلب عليه بالسهر والحديـــث الصريح القاتل، كنت أشعر أنه لا حاجة لهم بي في أي مكان، بل بعض معارفي كانوا يشعرونني بذلك، هذه الحالة تصبح مقلقة في صالة تحرير "الهيرالدو"، حيث كنت أكتب حتى عشر ساعات في أحد الأركان البعيدة دون أن أتحـــدث مع أحد، ملتفاً في دخان سجائري التي كنت أدخنها في عزلة تامة وبلا توقف، كنت أكتب بسرعة شديدة وفي أحيان كثيرة حتى إشراقة الصباح، وعلى ورق مطبعة أتنقل به إلى كل الأماكن في حقيبتي الجلدية.

فـــي إحدى المرات نسيتها في التاكسي، وفهمت هذا على أنه لا يعدو أن يكون سوء حظ، ولم أبذل أي جهد لاستعادتها، لكن ألفونسو فوينماير المنزعج مـــن سهوي، كتب مقالة ونشرها في نهاية الصحيفة: "في السبت الأخير فقدت حقيبة أوراق في سيارة من الخدمة العامة. وبما أن صاحب هذه الحقيبة وكاتب هـــذه الســـطور همـــا نفـــس الشخص، فإننا نشكر من يعثر عليها أن يتفضل بإبلاغـــنا. الحقيـــبة لا تحتوي على أوراق لها قيمة تذكر: فقط "زرافات غير منشـــورة"، بعـــد يوميـــن ترك أحدهم الأوراق في مدخل الهيرالدو، ولكن بلا حقيـــبة، وبـــثلاثة أخطـــاء إملائـــية مُصححة بحروف جميلة مكتوبة بالحبر الأخضر.

الراتـــب اليومي كان يكفي بالضبط أجر الغرفة، ولكن أقل ما كان يهمني في تلك الأيام هو جحيم الفقر. خلال الأيام التي لم أكن أستطيع فيها دفع أجر الغـــرفة كنت أذهب للقراءة في مقهى روما، كما كنت في الواقع: وحيداً مفلساً كمـــا كنـــت في ممر بوليفار، أحيي أحداً من معارفي من بعيد، هذا إذا كلفت نفســـي بالنظر إليه- أمر مباشرة إلى مكاني المعتاد، حيث كنت أقرأ في كثير

مـــن الأحـــيان حتى تغشاني الشمس. لأنه حتى ذلك الوقت كنت لا أزال قارئاً نهمـــاً دون أي نوع من النظام، خاصة الشعر، حتى الشعر السيئ لأنني كنت مقتنعاً بأن الشعر السيئ سيقودني في يوم من الأيام إلى الشعر الجيد.

مقالاتـــي في "الزرافة" كانت تجعلني شديد الحساسية تجاه الثقافة الشعبية، بعكس قصصي التي كانت تبدو ألغازاً كافكاوية كتبها شخص لا يعرف في أي بلـــد يعـــيش. إلا أنه في الحقيقة، كانت روحي تشعر بمأساة كولومبيا كصدى بعيد، وتقلقني فقط عندما تطفح أنهار الدماء، كنت أشعل سيجارة قبل الانتهاء مـــن الأخـــرى، أتنفس الدخان بشوق للحياة يشبه تشوق مرضى الربو لتنفس الهـــواء، العلـــب الثلاث التي استهلكها يومياً كانت تترك آثارها على أظافري وكحة تشبه نباح كلب عجوز مزق شبابي- لقد كنت خجولاً وحزيناً ككاريبي طيـــب، وغيوراً على أسراري الخاصة لدرجة أن أي سؤال عنها كنت أجيب عليه برد فعل غاضب. كنت مقتنعاً أن سوء حظي أصيل ولا علاج له، خاصة فـــيما يـــتعلق بالنساء والمال، لكن هذا لم يكن يزعجني، لأنني كنت أعتقد أن حسن الحظ لا ينقصني لأكون كاتباً جيداً، لم أكن أحلم بالمجد، ولا بالمال، ولا الشيخوخة، لأنني كنت واثقاً من أنني سأموت في عز شبابي وفي الشارع.

سفري مع أمي لبيع بيت آراكاتاكا أنقذني من الجحيم، ويقيني من روايتي الجديدة كان إشارة على مستقبل مختلف- كانت رحلة حاسمة من بين رحلات كثـــيرة في حياتي، لأنها أكدت لي أن الكتاب الذي كنت أحاول أن أكتبه ليس ســـوى محـــض خيال ولا يعتمد على أي حقيقة شاعرية. المشروع، بالطبع، تمزق بمجرد احتكاكه بالواقع في تلك الرحلة الكاشفة.

نســـق السيرة الذي حلمت به لم يكن شيئاً آخر غير سيرة عائلتي، التي لم تكـــن لها البطولة أو كانت ضحية شئ، بل شاهداً وضحية لكل شئ، بدأت في كتابـــتها في لحظة العودة نفسها، فلم تعد تنفعني كل التحضيرات الاصطناعية

المســبقة، ولكــن الشحنة العاطفية التي كنت أحملها في داخلي دون أن أنتبه إلــيها، وظلت تنتظرني كاملة في بيت الجدين- فمنذ الخطوة الأولى في رمال القرية الحارقة، انتبهت إلى أن نسقي لم يكن أكثر سعادة لحكي ذلك الفردوس الأرضي للبؤس والحنين، وإن كنت قضيت وقتاً طويلاً وعملاً كثيراً لكي أعثر علــى النســق المحدد- نشر أجزاء منها في "كرونيكا" التي كانت على وشك الصدور، لم يكن عقبة، بل على العكس تماماً: إيقاف منظم للولع.

عــدا ألفونســو فويــنماير - الذي فاجأني في حالة الحمى الإبداعية بعد ســاعات من البدء في كتابتها- فإن بقية أصدقائي اعتقدوا ولزمن طويل أنني أواصــل مشروعي القديم "البيت". وقررت أنا أن يظلوا على اعتقادهم بخوف صــبياني مــن أن يكتشفوا فشل فكرة حدثتهم عنها كثيراً كما لو كانت عملاً عظــيماً، وأيضــاً فعلت ذلك لاعتقاد لا زلت أؤمن به بأن حكاية قصة وكتابة أخــرى مخــتلفة أمــر مطلوب حتى لا يعرف أحد أيهما الحقيقية. خاصة في الحــوارات الصــحافية التــي تعتبر نوعاً من الإبداع الخطر بالنسبة للكُتَّاب الخجوليــن الذين لا يريدون الحديث بأكثر مما يجب، برغم هذا فإن خيرمان بارجــاس اكتشفها بطريقته الغريبة، لأنه بعد أشهر من سفر السيد رامون إلى برشــلونة قال له في رسالة: "أعتقد أن جابيتو هجر مشروع "البيت" ومتورط في رواية أخرى"، بالطبع كان السيد رامون يعرف هذا قبل ذهابه.

كنت واثقاً منذ أول سطر أن الكتاب يجب أن يعتمد على ذكريات طفل في الســابعة نجا من مذبحة عام ١٩٢٨ بمنطقة الموز. لكنني سرعان ما تخليت عــن هذه الفكرة، لأن الحكاية ستصبح محدودة بوجهة نظر شخصية واحدة لا تملك الأدوات الشاعرية لتحكي، ووعيت أن مغامرتي في قراءة أوليسيس في العشــرين من عمري وبعدها قراءة "الصخب والعنف" مشروعا روايتين غير ناضــجتين، لا مستقبل لهما، قررت إعادة قراءة فترة غير معروفة، بالضبط،

أكــثر مما كنت أعتقد أنها مغلقة عند جويس وفوكنر، فقد كشفت لي في ذلك الوقــت جمالية وبساطة مرعبة، ففكرت في توزيع المونولوجات بأصوات من القــرية، كمــا لــو كانت كورس إغريقي حكّاء، على طريقة "بينما كنت أرقد محتضــراً" التي هي ليست سوى رؤى عائلة محيطة بمريض يعاني سكرات المــوت، لــم أشعر أنني قادر على إعادة عنصره البسيط للإشارة إلى أسماء النصوص المسرحية، ولكنها أعطتني الفكرة لاستخدام فقط أصوات ثلاثة للجد والأم والطفــل، نغماتهــا مخــتلفة جداً ويمكنها أن تدل عليهم من خلالها هي نفســها، الجد في الرواية لن يكون أعوراً كجدي لكنه كان أعرجاً، والأم ذاهلة عن الدنيا، لكنها ذكية، كجدتي، والطفل ساكن، خائف ومتأمل، كما كنت دائماً في تلك السن، لم يكن اكتشافاً إبداعياً، بل هو مجرد عنصر تقني.

لــم يــتم إجراء تغيير أساسي في الكتاب الجديد خلال الكتابة ولا في أي رؤية مختلفة عن الرؤية الأصلية، عدا حذف وإعادة الكتابة طوال عامين- قبل الطــبعة الاولــى، تقريباً استجابة للرغبة في التصحيح حتى الموت، صوّرت القــرية- مخــتلفة تماماً عن واقعها عندما عدت إلى آراكاتاكا مع أمي ولكنها بالاســم نفسه- تماماً كما حذرني السيد رامون الحكيم - رأيت أنها اسم غير مقنع تماماً مثل اسم بارانكيا، لأنه لقرية تفتقد إلى ريح أسطورية مثل تلك التي كنت أبحث عنها للرواية. ولهذا قررت أن أسميها بالاسم الذي كنت أعرفه بها خلال الطفولة، ولكن محتواها السحري لم يكن قد كشف لي بعد عن نفسه حتى تلك اللحظة: ماكوندو.

اضــطررت إلى تغيير العنوان "البيت"- كان معروفاً جداً في ذلك الوقت بيــن أصــدقائي- لم تكن له أي علاقة بالمشروع الجديد، لكنني ارتكبت خطأ بكتابة العناوين التي خطرت على بالي في كراسة مدرسية أثناء كتابة الرواية، وكــان لــديّ أكثر من ثمانين عنواناً، وأخيراً عثرت عليه دون أن أبحث عنه

خـــلال النســخة الأولـــى التي قاربت على الاكتمال، عندما قبلت كتابة مقدمة المؤلـــف. قفــز العنوان في وجهي، كأكثرها ازدراء وفي الوقت نفسه رحمة بجدتـــي، ويدخل في ملامحها كأرستقراطية، عَمَّدتها شركة الفاكهة المتحدة في احتضارها: الورقة الجافة.

المؤلفون الذين استلهمتهم أثناء الكتابة كانوا الروائيين الأمريكيين، وبشكل خاص الذين أرسلهم لي أصدقاء بارانكيا في سوكري، خاصة بفضل التوجهات المخـــتلفة التـــي تغطي كل اتجاهات الثقافات من أول ثقافات الجنوب العميق وحـــتى ثقافة الكاريبي، والتي أنتمي إليها انتماء كاملاً، فهي أساسية ولا يمكن استبدالها بأخرى في تشكيلي كشخصية إنسانية وككاتب، منذ أن وعيت وبدأت اقـــرأ كروائي محترف. ليس من أجل اللذة، بل لإشباع حب الاستطلاع النهم لاكتشـــاف كـــيف كانـــت كتب الحكماء مكتوبة، فقرأتها أولاً بالطريقة العادية وبعدهـــا بـــالعكس، وكنت أخضعها لشكل من أشكال التشريح الجراحي حتى أســـتخرج أحشـــاءها العميقة في بنائها، وللهدف نفسه فإن مكتبتي لم تكن أبداً أكـــثر مـــن أداة عمل، حيث أستطيع أن أطلع في لحظة على فصل من كتاب لدستيوفســـكي، والتأكد من معلومة عن مصرع يوليوس قيصر أو عن طريقة عمـــل كربيراتـــير سيارة. ولدي حتى كتيبات تشرح كيف يمكنك أن ترتكب جريمة قتل كاملة، ربما تحتاجه بعض شخصياتي المسكينة، والباقي تولى عمله الأصـــدقاء الذيـــن وجهوني في قراءاتي وبعضهم أعاروني الكتب لأقرأها في اللحظـــة المناســـبة تمامـــاً، والبعض الآخر قرأوا أصول كتاباتي قراءة نقدية صارمة قبل نشرها.

أمـــثلة كهـــذه زادتني وعياً جديداً عن نفسي، ومنحني مشروع كرونيكا أجنحة. كانت روحنا عالية جداً رغم العقبات الصعبة التي واجهتنا، وتمكنا من الحصـــول على مكاتب خاصة بنا في طابق ثالث بلا مصعد، ما بين صيحات

الباعة وأبواق الأتوبيسات التي لا تحترم قواعد المرور في شارع سان بلاس، الذي كان سوقاً مزعجة منذ بزوغ الفجر وحتى السابعة مساء، لا يكاد المكتب يكفينا معاً، لم يكن هناك تليفون بعد، والتكييف كان خيالاً يمكنه أن يكلفنا أكثر من مجلتنا الأسبوعية، لكن فويماير كان لديه الوقت ليملأ المكتب بجميع أنواع الموســوعات الممزقة، وقصاصات الصحف في أي لغة، وكتيباته عن المهن الغريبة، في طاولته كمدير كانت هناك "أندروود" التاريخية التي أنقذها مخاطراً بحــياته فـــي حـــريق الســفارة، والتي تعتبر اليوم جوهرة ثمينة في المتحف الرومانتيكـــي لبارانكيا. وفي الطاولة الأخرى الوحيدة التي كنت أجلس إليها، بآلة كاتبة معارة من الهيرالدو، باعتباري مدير التحرير المبجل. وكانت هناك طاولة رسم لأليخاندرو أوبريجون، وأورلاندو جيرا وألفونسو ميلو، ثلاثة من الرســامين المشهورين التزموا بكامل وعيهم برسم موضوعات المجلة مجاناً، وقــاموا بهــذا بالفعل، أولاً بفضل كرمهم الأصيل وأخيراً لأننا لم نكن نملك ســنتيماً واحــداً لأنفســنا، والفوتوغرافـــي الثابت والأكثر تضحية كان كيكي سكوبيل.

بخـــلاف عمل التحرير الأكثر التصاقاً بوظيفتي كان عليّ مراقبة مراحل الطــباعة ومراقبة مصحح البروفات برغم أخطائي الإملائية. وكنت أيضاً لا أزال علـــى التزامي مع الهيرالدو بمواصلة كتابة "الزرافة"، ولذلك لم يكن لدي الكثــير من الوقت للكتابة المستمرة لكرونيكا. ولكن لدي وقت لكتابة قصصي في ساعات الفجر الميتة.

وضـــع ألفونسو، المتخصص في جميع أنواع المهن، كل إيمانه في كتابة القصــص البوليســية واختيارها، فيما كنت أنا أقوم بتبسيطها الشكلي وهو ما أفادنـــي في مهنتي- عملي توفير مساحة ليس بحذف الكلمات الزائدة فقط بل والأحداث الهامشية، إلى أن أترك لبها الأساسي دون أن أقلل من قدرتها على

الإقـــناع. أي، حذف كل ما يمكن أن يكون زائداً في نوع محكم، كل كلمة فيه لهـــا مكانهـــا في البناء. كانت هذه المهمة تدريباً مفيداً لبحثي المتواصل لتعلم تقنية حكي القصة.

مـــن أفضـــل تلك القصص التي كتبها خوسيه فيلكس فوينماير أنقذتنا عدة أسابيع، ولكن التوزيع ظل يراوح مكانه، ولكن قشة الإنقاذ الدائمة كانت في يد ألفونسو فوينماير الذي لم يعترفوا أبداً بفضله كرجل أعمال، ووضع كل جهده للتغلب على نفسه وحاول بنفسه التغلب على كل الصعاب بحسه الساخر، كان يقـــوم بكـــل شـــئ، من كتابة الافتتاحيات المضيئة إلى كتابة المقالات التافهة بالإلحاح نفسه الذي يحصل به على الإعلانات، والقروض المعدومة والأعمال الخاصة من متعاونين متمنعين، لكن كل هذه كانت معجزات عقيم، عندما عاد الـــباعة بعدد النسخ نفسه التي أخذوها للبيع، حاولنا استخدام التوزيع الشخصي في المطاعم المفضلة، من أول "الرجل الثالث" وحتى الحوانيت القذرة بالميناء النهري، حيث كنا نشتري بالقليل الذي نبيعه حاجياتنا.

أحـــد أكثر المتعاونين معنا انتظاماً، كان أكثرنا من حيث عدد القراء، كان فيتـــي أوســـيو، من أول عدد من كرونيكا كان أكثرنا نشاطاً وركنه "يوميات عاملة على الآلة الكاتبة" بالتوقيع المستعار "دوللي ميلو" غزا قلوب القراء، ولم يصدق أحد أن كل هذه الحرف المتعددة قام بها رجل واحد ومجاناً.

كـــان يمكن لبوب بريتو أن ينقذ كرونيكا من الغرق بأي اكتشاف طبي أو أثري من العصور الوسطى، لكن فيما يختص بالعمل كانت له قاعدة ثابتة: إذا لم يدفعوا لا يوجد إنتاج، وفجأة وقبل أن يحل الموعد توقف عن الإنتاج.

من خوليو ماريو تمكنا من الحصول على بعض القصص الملغزة مكتوبة باللغـــة الإنجلـــيزية، كانت يترجمها ألفونسو برغبة صياد يعسوب بين أوراق أكثر القواميس غرابة، وكان يرسمها أليخاندرو أوبريجون بخطوط فنان كبير،

إلا أن خوليو ماريو المسافر أبداً، وباتجاهات متناقضة تحول إلى شريك خفي، فقــط ألفونســو فوينماير كان يعرف أين يمكن العثور عليه، وكشف لنا سره بجملة مقلقة:

– فـــي كـــل مرة أرى طائرة تمر أفكر أن خوليو ماريو سانتو دومينجو موجود فيها.

باقـــي المتعاونيـــن غير الثابتين كانوا ينتظرون حتى آخر لحظة لإغلاق العدد أو دفع الأجر.

اقتربـــت بوجوتـــا منا على قدم المساواة لكن أياً من أصدقائنا القادرين لم يبذل أي جهد لمساعد المجلة الأسبوعية على مواصلة الصدور، عدا خورخي ثالاميا الذي تفهم توجهات مجلته ومجلتنا وعقد معنا اتفاقاً لتبادل المواد كانت نتيجـــته طيبة، واعتقد حقيقة أن أحداً لم يقدر معجزة "كرونيكا". كان المجلس الاستشاري مكوناً من ست عشرة شخصية اخترناها نحن طبقاً لقيمة كل منهم المعترف بها، كانوا جميعاً من لحم ودم، لكنهم كانوا من المهمين والمشغولين في مجالات أنشطتهم إلى درجة أنه يمكن الشك في وجودهم.

كانـــت لكرونـــيكا بالنســـبة لي أهمية حيوية، لأنها أجبرتني على ارتجال قصص عاجلة لملء فراغات غير متوقعة في لحظات الإغلاق الحرجة، كنت أجلـــس إلى الآلة الكاتبة بينما عمال اللينوتيب على ماكيناتهم وعمال التركيب فـــي عملهم، وأختلق من لاشيء قصة بحجم المساحة المطلوبة، وهكذا كتبت "كيف تقوم ناتائيل بزياراتها" التي حلت لي مشكلة عاجلة وقت الفجر، و"عيون الكلب الأزرق" بعدها بخمسة أسابيع.

أول هاتين القصتين كانت البداية في سلسلة للشخصية نفسها التي استعرت اســـمها دون إذن مـــن أندريـــه جيد، وبعدها كتبت "نهاية ناتائيل" لحل مشكلة درامـــية فـــي آخر لحظة، شكلتا معاً جزءاً من كتاب مكون من ست قصص،

وضعتها على الرف عندما انتبهت إلى أنها لم تكن لها أدنى علاقة بي. من تلك التـــي بقيـــت ناقصــــة أتذكر واحدة دون أي فكرة عن موضوعها: "عن كيف تـــرتدي ناتائيل ملابس العرس"، الشخصية لا تشبه أي شخصية أعرفها، ولم تكن مبنية بحياة مستقلة بها أو لغيرها، ولم أستطع حتى أن أتذكر كيف أمكنها أن تكون واحدة من قصصي بموضوع خاطئ جداً. ناتائيل، في النهاية، كانت مخاطـــرة أدبـــية لا أهمية إنسانية لها، ومن الجيد تذكر هذه الكوارث حتى لا أُنشـــيء شخصـــيات لا تتخلق من لا شئ، كما كنت أريد أن أفعل مع ناتائيل. لحسن الحظ فإن الخيال لم يساعدني لأصل بعيداً عن نفسي، ولسوء الحظ أيضاً أننـــي كنت مقتنعاً بأن العمل الأدبي يجب أن يقابله عائد مادي جيد تماماً مثل دفع ثمن الطوب، وإذا كنا ندفع بشكل جيد وفي المواعيد المحددة لطابعي الآلة الكاتبة، فإن هذا يعتبر سبباً كافياً لندفع للكُتَّاب.

أفضـــل صـــدى جاءنا من كرونيكا، وصلنا في رسالة للسيد رامون إلى خـــيرمان بارجـــاس. كـــان مهتماً بالأخبار التي تحتل أقل حيز في تفكيرنا، وبأخـــبار الأصـــدقاء ومـــا يحـــدث في كولومبيا- وكان خيرمان يرسل إليه قصاصـــات صـــحافية ويحكـــي له في رسائل مطولة عن الأنباء التي تمنعها الـــرقابة. أي بالنســـبة له كانت هناك مجلتا كرونيكا: التي كنا نصدرها نحن، والتي كان يلخصها له خيرمان في كل أسبوع. تعليقات السيد رامون الحماسية والقاسية على مقالاتنا كانت حرصنا الأكبر.

مـــن الأسباب المتعددة التي حاولوا بها شرح تعثر كرونيكا، ورغم شكوك المجموعـــة، عرفـــت صـــدفة أن بعضـــها يعود إلى سوء حظي أنا المتأصل والمعـــدي. وكدليل قاتل كانوا يذكرون تحقيقي عن بيراسكوتشيا، لاعب كرة القدم البرازيلي، الذي كنا نريد أن نصالح به الرياضة مع الأدب من خلال نوع جديـــد فكـــان سبباً في الإخفاق النهائي. عندما علمت أن شهرتي السيئة كانت

معروفة بين زبائن مقهى جابي، تحدثت مع خيرمان بارجاس وأنا في حالة من الإحباط، كان يعرف الموضوع، مثله مثل باقي المجموعة، قال لي دون شك:

-اهـدأ، يا أستاذ، أن تكتب كما تكتب أنت لا يمكن أن يكون سوى حسن حظ لا يمكن لأحد أن يهزمه.

لم تكن كل الليالي سيئة، فليلة ٢٧ يوليو عام ١٩٥٠، في بيت حفلات "لا نجرا أيوفيميا"، كانت ليلة لها قيمة تاريخية في حياتي ككاتب، لا أعرف السبب السار الذي جعل صاحبة البيت تأمر بطبق من اللحم الخفيف المكون من أربعة أصـناف- والكـروانات التـي كانـت تحلق من حولنا مارست جميع أنواع الصـرخات حول الفرن، فأمسك زبون عصبي برقبة كروان ووضعه حياً في الحلـة التـي تغلي، لم يتمكن الطائر من إصدار صرخة الألم وضربة جناح نهائـية حتى غاص في أعماق الجحيم. حاول القاتل المتوحش الإمساك بآخر لكن لا نجرا أيوفيميا كانت تقف على عرشها بكل سلطتها، وصرخت:

- مكانك، عليك اللعنة، ستقتلع الكروانات عينيك.

كنت أنا الوحيد الذي لا يرغب في تذوق اللحم المذبوح، وبدلاً من الذهاب للـنوم جريـت إلـى مكتب "كرونيكا" وكتبت في نَفَس واحد قصة زبائن بيت الدعارة الثلاثة التي نزعت الكروانات عيونهم ولم يصدقها أحد- كانت فقط في أربـع ورقات من حجم الورق المهني بمسافة مضاعفة، وكانت محكية براوي جمعـي له صوت ولكن بلا اسم- كانت القصة من الواقعية الشفافة ومع ذلك فإنهـا كانت الأكثر إلغازاً بين قصصي، إضافة إلى أنها فتحت لي طريقاً كنت علـى وشك الرجوع عنه لعدم استطاعتي السير فيه، بدأت الكتابة في الرابعة مـن فجر الجمعة وأنهيتها في الثامنة من صباح السبت معذباً بالإلهام الإلهي. بـتواطؤ مـن بورفـيريو ميندوثا، عامل التركيب التاريخي بالهيرالدو، قمت بـتعديل صـفحة كانت معدة من كرونيكا للعدد الصادر في اليوم التالي. وفي

اللحظـــة الأخـــيرة، مرتعـــباً من ضيق لحظات الإغلاق، قمت بإملاء العنوان النهائـــي علـــى بورفـــيريو بعـــد لحظات من عثوري عليه، وكتبه هو على الرصاص المصهور مباشرة: "ليلة الكروان".

كانت تلك القصة بالنسبة لي بداية لمرحلة جديدة بعد تسع قصص كانت لا تـــزال في الفراغ الميتافيزيقي، وفي لحظة لم يكن فيها أي مشروع للاستمرار فـــي هذا النوع الذي لم أتمكن من الإمساك به، أعاد خورخي ثابالا نشرها في العـــدد التالـــي من "كريتيكا"، مجلة الشعر الكبرى. عدت لقراءتها بعد خمسين عاماً قبل كتابة هذا الجزء، وأعتقد أنني لن أغير فيها فاصلة واحدة، ففي وسط الفوضى التي كنت أعيش فيها كانت تلك القصة بداية لربيع كامل.

كانت البلاد على العكس تماماً، فقد دخلت الدوامة، وعاد لاوريانو جوميث مـــن نـــيويورك ليتم إعلانه مرشحاً لرئاسة الجمهورية. فيما قرر الليبراليون الامتـــناع في مواجهة إمبراطورية العنف، وتم انتخاب جوميث بمفرده يوم ٧ أغســطس ١٩٥٠. وبما أن البرلمان كان مغلقاً، فقد تقلد المنصب في المحكمة العليا.

لم يكد يمارس الحكم بحضوره الجسدي، فبعد خمسة عشر شهرا انسحب مـــن الرئاســـة لأسباب صحية حقيقية، وحل محله الفقيه القانوني والبرلماني المحـــافظ روبرتو أوردانيتا أرباليث، باعتباره أول مرشحي الجمهورية، وهو مـــا فهمـــه المطلعـــون على أنها أفضل طريقة ليترك جوميث السلطة بين أيد أخـــرى، ولكـــن دون أن يفقدها واقعياً، فيظل يحكم من بيته بواسطة الشخص المختار. وفي الحالات العاجلة بالتليفون.

أعـــتقد أن عودة ألفارو ثيبيدا بشهادته من جامعة كولومبيا، قبل شهر من ذبـــح الكروان، كانت حاسمة لمساعدتي على تحمل تلك الأيام المشؤومة. عاد بقلـــيل من شعر الرأس وفقد شاربه الخشن، وأكثر انغلاقا على نفسه من قبل

ذهابـــه، كنا ننتظره – خيرمان وأنا – منذ عدة أشهر مع الخوف من أن يكون قـــد فقـــد حماســـه في نيويورك، متنا ضحكاً عندما شاهدناه يهبط من الطائرة بجاكيت ورباط عنق وملوحاً بالتحية من على السلم بباكورة أعمال هيمنجواي: "علـــى الضـــفة الأخـــرى من النهر وبين الأشجار"، نزعتها من بين يديه، و تحسستها من الناحيتين، وعندما أردت أن أسأله، سبقني ألفارو:

-إنها قاذورات.

غارقـــاً في الضحك، همس خيرمان بارجاس في أذني: "لقد عاش الحياة نفســـها"، إلا أن ألفـــارو أوضح لنا بعد ذلك أن حكمه على الكتاب كان مجرد هـــزل، لأنه لم يكن قد أتم قراءته خلال الرحلة من ميامي. على أي حال، فإن ما رفع من معنوياتنا أنه عاد أكثر من أي وقت مضى مترعاً بحمى الصحافة، والســـينما والأدب. ففـــي الأشهر التالية، بعد أن اعتاد على المناخ، أشعل فينا حمى من أربعين درجة.

كـــان معديـــاً على الفور، "الزرافة" التي كانت تدور منذ عدة أشهر حول نفسها تطيح بضربات عمياء، بدأت في التنفس بمقطعين مسروقين من مسودة رواية "البيت"، لم يكن "ابن الكولونيل"، الذي لم يولد أبداً، بل كانت "ان. واي" الطفلة الهاربة التي طرقتُ بابها مرات كثيرة بحثاً عن طرق جديدة ولم تجبني أبـــداً، استعدت أيضاً اهتمامي كناضج بالرسوم المتحركة الفكاهية، لا للتسلية أيام الآحاد بل كنوع أدبي جديد محكوم عليه بلا سبب ليسكن غرف الصغار، ولـــم لا، استعدت عشقي للسينما التي شجعني عليها الجد وغذاها فيّ أنطونيو داكونتـــي في آراكاتاكا، وحولها ألفارو ثيبيدا إلى غرام توراتي في بلد أفضل أفلامه معروفة كروايات مهاجرة، كان حظاً طيباً أن عودته تزامنت مع افتتاح عـــرض فيلمين رائعين: "الدخيل في التراب" الذي أخرجه كليرنس براون عن روايـــة ولـــيم فوكـــنر، و"صورة جيني" من إخراج وليام ديتريل عن رواية

لروبرت ناثان، عرضت لهما في "الزرافة" بعد مناقشة طويلة مع ألفارو ثيبيدا، خرجت منها مهتماً جداً إلى درجة أنني بدأت أرى السينما بعين جديدة. قبل أن أتعــرف علــيه هو لم أكن أنا أعرف أن الأهم هو اسم المخرج، وهو الأخير الــذي يظهــر علـــى الشاشة. بالنسبة لي كانت الحكاية ببساطة مسألة كتابة الســيناريو وإدارة الممثليــن، والأشياء الأخرى يقوم بها العديد من الأشخاص الأعضـــاء في الفريق، عندما عاد ألفارو علَّمني بالضرب خلال دورة كاملة عــبر الصرخات والروم الأبيض حتى الفجر طوال أشهر وفي أسوأ الحانات، ما تعلمه من سينما في الولايات المتحدة، وكان يأتي علينا الصباح حالمين أن نفعل الشيء نفسه في كولومبيا.

بعــيدا عن الشروح الوضاحة، فإن رؤية الأصدقاء الذين كنا نتابع الفارو في سرعة عابر القارات أنه لم يكن جاداً إلى الحد الذي يجلس فيه ليكتب، ومن كــنا نعايشـــه عــن قرب لم نستطع إجباره على الجلوس إلى مكتب أكثر من نصف ساعة، إلا أنه في شهرين أو ثلاثة أشهر بعد عودته دعتنا تيتا مانوتاس – خطيبته لسنوات طويلة وزوجته لمدى الحياة– مرتعبة لتحكي لنا أن ألفارو باع سيارته التاريخية ونسى في حقيبتها أصول قصصه غير المنشورة التي لا يملك صورة منها، ولم يكلف نفسه عناء البحث عنها، بحجته الخاصة جداً أنها "كانــت ست أو سبع قصص رديئة"– قام الأصدقاء والمراسلون بمساعدة تيتا فـــي البحــث عــن الســيارة التي بيعت عدة مرات بطول الشاطئ الكاريبي والأرض الداخلية حتى ميديين، وأخيراً عثرنا عليها في ورشة بسينثيليخوس، على بعد مائتي كيلومتر، كانت الأصول مكتوبة على ورق مطبوع ممضوغة وناقصـــة، وضعناها في عهدة تيتا خوفاً من أن يعود ألفارو إلى فقدها بإلقائها في القمامة إهمالاً أو عمداً.

اثنـــتان مـــن تلـــك القصص تم نشرهما في كورنيكا، والباقي احتفظ بها خـــيرمان بارجاس طوال ما يقرب من عامين بحثاً عن حل للنشر في كتاب، وقامـــت الفنانة التشكيلية ثيثيليا بوراس، الوفية دائما للمجموعة، بوضع رسوم لها مستلهمة وكانت عبارة عن صورة لألفارو مرتدياً من ملابس لكل ما يمكن أن يكونه في وقت واحد: سائق شاحنة ومهرج في الأسواق، وشاعر مجنون، وطالـــب بجامعـــة كولومبيا، او أي مهنة أخرى، عدا أن يكون إنساناً عادياً. نشرت الكتاب مكتبة ألموندو تحت عنوان "كلنا كنا ننتظر"، وكان حدثاً في عالم النشـــر اهـــتم بـــه الجميع عدا النقد الأكاديمي. وبالنسبة لي – وكتبت هذا في وقتها– كان أفضل كتاب قصصي نشر في كولومبيا.

أما ألفونسو فوينميار من ناحيته فقد كتب مقالة نقدية تدل على أستاذية في الـــنقد الصـــحافي، ولكنه كان خجلاً من جمع مقالاته تلك في كتب، كان قارئاً نهمـــاً، يكـــاد يقارن بألفارو موتيس أو إدواردو ثالاميا. كان وخيرمان باجاس ناقديـــن حاديـــن، وكانـــا أكـــثر حدة مع قصصهما الخاصة أكثر من قصص الآخرين، ولكن ميلهما إلى البحث عن مواهب شابة لم تخنهما أبداً، كان ربيعاً خلاقـــاً جـــرت فـــيه إشاعة تقول إن خيرمان كان يقضي الليل يكتب قصصاً رائعـــة، لـــم يعرف أحد شيئاً عنها حتى مرور سنوات طويلة بعد ذلك، عندما حـــبس نفسه في غرفة نومه في بيت أبويه وحتى ساعات قليلة قبل زواجه من صـــديقتي سوســـانا ليـــناريس، ليـــتأكد أنه لن يقرأها أحد ولا حتى هي. كان مفترضاً أنها قصص أو دراسات، وربما كانت مسودة رواية، لكن خيرمان لم يـــنطق مطلقاً كلمة واحدة لا قبلها ولا بعدها، فقط قبيل زواجه اتخذ احتياطاته حـــتى لا يعـــرف أحـــد ولا حتى المرأة التي ستكون زوجته في اليوم التالي. عرفـــت سوسانا، لكنها لم تدخل الغرفة لتمنعه، لأن حماتها لم تسمح لها بذلك، قالت لي سوسي بعد سنوات بسخريتها المتعسفة:"في ذلك الزمن، أي خطيبة لم يكن مسموحاً لها أن تدخل غرفة خطيبها قبل الزواج".

لم يكن قد مضى عام عندما بدأت تصبح خطابات السيد رامون أقل وضوحاً، وفي كل مرة أكثر حزناً وقلة، دخلت مكتبة موندو في ٧ مايو ١٩٥٢، في الثانية عشر نهاراً، ولم يكن على خيرمان أن يخبرني بأي شئ لأعرف أن السيد رامون قد مات، قبل يومين في برشلونة أحلامه، كانت جملة وحيدة ننطقها عند وصولنا إلى المقهى عند منتصف النهار، جملة واحدة للجميع:

– يا لها من مأساة.

لم أكن وقتها واعياً أنني كنت أعيش سنة مختلفة من حياتي، وأشك اليوم في أنها كانت حاسمة، فحتى ذلك الوقت كنت مقتنعاً بهيئتي كماجن. كنت محبوباً ومحترماً من الكثيرين، وأثير إعجاب البعض، في مدينة يعيش فيها كل فرد بطريقته الخاصة وحسب راحته، كنت أمارس حياة اجتماعية مركزة، أشارك في احتفالات فنية واجتماعية بصندلي كمهاجر يبدو أنه مُشترى لتقليد ألفارو ثيبيدا، وببنطلون وحيد من القماش وقميصين كنت أغسلهما في الدش.

من يوم لآخر، ولأسباب مختلفة – بعضها طائش– بدأت في تحسين ملابسي وحلقت شعري كجندي مجند، وحففت شاربي وتعلمت استخدام الأحذية التي أهداها لي جديدة، الدكتور رفائيل ماریاجا، عضو المجموعة المتجول ومؤرخ المدينة، لأنها كانت أكبر من مقاسه. وبالدينامية غير الواعية بالصعود الاجتماعي، بدأت أشعر أنني كنت أختنق من الحر في غرفة ناطحات السحاب، كما لو كانت آراكاتاكا توجد في سيبريا، وبدأت أعاني من الزبائن غير المعتادين الذين يتحدثون بصوت مرتفع عندما يقفون، ولم أكن أتعب من إبداء تأففي لأن عاهرات الليل تواصلن قيادة جماعات كاملة من بحارة المياه العذبة.

انتبهت اليوم إلى أن صعلكتي لم تكن فقرا ولا لأنني كنت شاعراً بل لأن جميع طاقتي كانت مركزة في عنادي لتعلم الكتابة، بشكل سريع حتى استطعت أن أرى الطريق الصحيح فغادرت ناطحات السحاب، ورحلت إلى حي ألباردو الهـادئ، في الطرف السكني والاجتماعي الآخر، على بعد شارعين من بيت مـيرا ديلمار، وعلى بعد خمسة شوارع من الفندق التاريخي الذي يرقص فيه أبـناء الأثرياء مع عشيقاتهم العذراوات بعد قداس الأحد، أو كما قال خيرمان: بدأت أتحسن إلى الأسوأ.

كنـت أعـيش فـي بيـت الشقيقات أفيلا - إستر ومايتو وتونيا- اللاتي عرفتهن في سوكري، وكن يبذلن جهداً منذ زمن لإبعادي عن الصعلكة، فبدلاً من غرف الكرتون التي ضيعت فيها الكثير من الوقت في السفسطة كان لدي غـرفة نـوم مستقلة بحمَّام خاص ونافذة تطل على الحديقة، والأكلات الثلاث اليومية، بأكثر قليلاً من راتبي كحوذي. اشتريت بنطلوناً ونصف دستة قمصان اسـتوائية بـزهور وطيور مرسومة، بفضلها حزت لبعض الوقت على شهرة بأنني من الشواذ. بعض الأصدقاء القدامى قاطعوني ولم يكونوا يتبادلون معي الحديث عند لقائي بهم في أي مكان، ومع ذلك اكتشفت أنهم كانوا يحفظون عن ظهـر قلـب بعض مقاطع "الزرافة" وأنهم كانوا من مدمني كرونيكا بسبب ما كانوا يسمونه الشرف الرياضي، ويقرأون حتى قصصي دون أن يتوصلوا إلى فهمهـا، التقيت بريكاردو جونثالث ريبول، زميلي في غرفة الليسيه الوطني، الـذي سكن في بارانكيا بعد حصوله على دبلوم في الهندسة المعمارية، وفي أقـل من عام واحد حل مشكلة حياته بعربة شيفورليه قديمة جداً، كان يحملها منذ الفجر حتى ثمانية مسافرين. كان يأخذني من بيتي في أول الليل ثلاثة أيام فـي الأسـبوع لنذهـب معاً للتسلية مع أصدقاء جدد مهووسين بإصلاح حال البلاد، بعضهم بأشكال من السحر السياسي وآخرون بالعراك مع البوليس.

عندما علمت أمي بهذه المستجدات، أرسلت لي رسالة على طريقتها تقول: "النقود تنادي النقود". لم أخبر أحداً من المجموعة بأمر تغيير السكن إلى أن عثرت عليهم في إحدى الليالي جالسين إلى طاولة بمقهى جابي، فتعلقت بالوصفة السحرية للوبي دي بيجا: "نظمت نفسي بما يمكن أن يخضع لنظام عدم انتظامي"، لم أذكر ردة فعل مماثلة ولا حتى في ملعب كرة قدم، راهن خيرمان بأنني لن أستطيع أن أحصل على فكرة واحدة خارج سكني في ناطحات السحاب، وطبقا لألفارو فإنني لن أستطيع مواصلة الحياة بالوجبات الثلاث أو الالتزام بمواعيدها، على العكس كان ألفونسو الذي احتج على تدخلهم في حياتي الخاصة وأغلق الحوار في هذا الموضوع بنقاش عن أهمية اتخاذ قرارات عاجلة لتحديد مستقبل كرونيكا. أعتقد أنهم في داخلهم كانوا يشعرون أنهم كانوا مذنبين بمسئوليتهم عن عدم انتظامي لكنهم كانوا أكثر احتراماً ليشكروني على قراري بإبداء الارتياح.

على عكس ما كان متوقعاً، فإن صحتي وحالتي النفسية تحسنتا، كنت أقرأ أقل لقلة الوقت، ولكني رفعت من حدة لهجة "الزرافة" وعدت إلى مواصلة الكتابة في "الورقة الجافة" في غرفتي الجديدة بالآلة الكاتبة التي أعارني إياها ألفونسو فوينماير، وذلك في ساعات الفجر التي كنت أسئ قضاءها مع قرد الحرب. في أمسية عادية بصالة تحرير الصحيفة كان يمكنني أن أكتب "الزرافة" وافتتاحية، وبعض الأخبار التي لا أوقعها باسمي، وإزالة الشوائب من قصة بوليسية، وأكتب كذلك مقالات اللحظات الأخيرة لإغلاق كرونيكا. لحسن الحظ بدلاً من أن تصبح كتابة الرواية سهلة مع مرور الأيام، فإنها بدأت تفرض قواعدها الخاصة على قواعدي، وفهمت هذا على أنها علامة من علامات رياح مناسبة.

كانـــت الأمـــور تســـير بشكل جيد إلى درجة أنني ارتجلت كتابة قصتي العاشـــرة – أحدهم حطم نظام تلك الزهور – لأن المعلق السياسي الذي حجزنا له ثلاث صفحات في كرونيكا أُصيب بأزمة قلبية حادة في الساعات الأخيرة، وبعد تصحيح البروفات الأخيرة للقصة اكتشفت أنها كانت دراما ساكنة أخرى من تلك التي كنت أكتبها دون وعي. هذا التراجع زاد من حدة ندمي على أنني أيقظـــت صـــديقاً قبـــيل منتصف الليل بقليل ليكتب لنا مقالة في أقل من ثلاث ســـاعات. فـــي هـــذه الحالة السيئة كتبت القصة في الوقت نفسه، وعدت يوم الاثنيـــن لأعرض على مجلس التحرير ضرورة أن ننزل إلى الشارع لإخراج المجلة من سكونها بتحقيقات صادمة، إلا أن الفكرة – التي كانت تهم الجميع– تـــم رفضها مرة أخرى لأسباب زادت من سعادتي: إذا نزلنا الشارع بمفهومنا لمعـــنى التحقيقات، فإن المجلة ستعود إلى الطبع في موعدها –هذا إذا عادت– فقبلـــت الـــرفض كنوع من التقريظ لفكرتي، ولكني لم أستطع أن أتغلب على فكرتي الرديئة أبداً، بأن السبب الحقيقي وراء قرارهم هو الذكرى السيئة التي تركها تحقيقي عن لاعب كرة القدم بيراسكوتشيا.

من أجمل ما حدث في تلك الأيام المكالمة الهاتفية لرفائيل أسكالونا، مؤلف الأغاني الذي كان يغني ولا يزال في هذا الجانب من العالم، فقد كانت بارانكيا مركـــزاً حيوياً لكثرة مرور الشعراء الجوالين بالأكورديون الذين عرفتهم في أعـــياد آراكاتاكـــا، وانتشـــارها الكثيف عبر محطات الإذاعة بمنطقة الشاطئ الكاريبـــي. كان جييرمو بويتراجو من أهم المغنين المعروفين في ذلك الوقت، فكـــان يحاول أن يضع مستمعي الإقليم على علم بأحدث الأغاني، وآخر كان معـــروفاً جـــداً بين الجماهير هو كريستثيو سالثيدو، ذلك الهندي الحافي الذي كـــان يقف على ناصية شارع الغداء الأمريكي ليغني أغانيه الخاصة وأغاني الآخريـــن بصـــوت فـــيه شـــئ من صدى الصفيح بصوته بلا موسيقى، لكن باحـــتراف فني خاص به فرضته على زحام سان بلاس اليومي. قضيت فترة

طويلـــة من شبابي إلى جواره استمع إليه دون أن أوجه له ولو مجرد التحية، ودون أن أدعه يراني، إلى أن حفظت جميع أغانيه.

تـــراكم هذا العشق وصل إلى قمته في إحدى الأمسيات التي قاطعني فيها التليفون. عندما كنت أكتب "الزرافة". وإذا بصوت معروف كالأصوات الكثيرة التي عرفتها في طفولتي يحييني بلا أي نوع من الشكليات:

– هيه، أخي، أنا رفائيل إسكالونا.

التقيته بعدها بخمس دقائق في مقهى روما لنبدأ صداقة لمدى الحياة، ما أن بدأنا المصافحة حتى بدأت أعتصر إسكالونا ليغني لي آخر أغنياته، من خلال قصائد متفرقة، وبصوت خفيض جداً ومحسوب، يرافقها بالدق بالأصابع على الطاولة، فكان الشعر الشعبي لأرضنا يتنزه مع كل مقطع في شكل جديد. غنى "سأعطيك فرعاً من زهور لا تنسني لتفعلي ما يقوله معنى اسمها". من ناحيتي بينت له أنني أحفظ أفضل أغاني بلاده، حفظتها منذ طفولتي في النهر الجاري لـــلإرث الشـــفهي، ولكـــن أكثر ما أدهشه أنني كنت أحدثه عن المقاطعة التي يعيش فيها كما لو كنت أعرفها.

قبلها بأيام، سافر إسكالونا بالأتوبيس من فيانوبيفا إلى فالدوبار، بينما كان يؤلـــف في ذاكرته الموسيقى لكلمات أغنية جديدة لكرنفال الأحد التالي، كانت هذه طريقته كأستاذ، لأنه لم يكن يعرف كتابة الموسيقى ولا عزف أي نوع من أنـــواع الآلات. صـــعد في بعض القرى التي توقف فيها الأتوبيس مغن جوال بـــنعل وأكورديون، أحد أفراد العدد الهائل الذي كان يتجول في المنطقة ليغني مـــن سوق إلى سوق. أجلسه إسكالونا إلى جواره وغنى له في أذنه المقطعين اللذين انتهى من وضع موسيقاهما من أغنيته الجديدة.

هـــبط المغنـــي الجـــوال سعيداً في محطة فيانويفا، وواصل إسكالونا في الأتوبـــيس حتى فالدوبار، حيث كان عليه أن يلزم الفراش نتيجة حمى درجة

حـــرارتها أكثر من أربعين درجة، وبعد ثلاثة أيام... يوم أحد الكرنفال، كانت الأغنـــية ناقصة اللحن، التي أسر بها في أذن صديق الطريق، تتغلب على كل الموســـيقى القديمة والجديدة من فيانويفا وحتى نهاية المقاطعة، فقط هو الذي كـــان يعرف من الذي أذاعها فيما كان هو يعاني حمى الكرنفال، والذي وضع لها اسماً: "سارا العجوز".

الـــتاريخ صـــادق، لكنه ليس غريباً في هذه المنطقة وفي مهنة تعتبر أن الطبيعـــي هـــو المدهـــش، فـــالأكورديون الذي لا يعتبر آلة موسيقية خاصة بموســـيقانا وعاما في كولومبيا يعتبر الأكثر شعبية في مقاطعة فيادوبار، ربما لأن مســـتورده هو "أروبا أي كوراثاو"، لكن عندما انقطع استيراده من ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، فالآلات التي كانت في المقاطعة استمرت بفضل حفـــاظ أصحابها من أبناء البلاد عليها، أحدهم هو ليناردو دياث، نجار لم يكن فقط مؤلفاً موسيقياً رائعاً أو معلماً للأكورديون بل كان الوحيد الذي كان يجيد إصـــلاحه خلال السنوات التي استمرت فيها الحرب، على الرغم من أنه كان أعمـــى بالميلاد، طريقة حياة هؤلاء الجوالين هي الانتقال من قرية إلى قرية لغـــناء أحداث لطيفة وبسيطة مأخوذة من الحياة اليومية، في الأعياد الدينية أو الوثنـــية، وبشكل خاص خلال فوضى الكرنفالات. كان رفائيل إسكالونا حالة مخـــتلفة، فهو ابن الكولونيل كليمنتي إسكالونا، وابن شقيق قس ثيليون وحامل الـــبكالوريا الشـــهير بليسيه سانتا مارتا الذي يحمل الاسم نفسه، بدأ في تأليف الموســـيقى مـــنذ طفولـــته لـــيكون شـــر العائلة، التي كانت تعتبر أن الغناء بـــالأكورديون مهـــنة العاطليـــن. لـــم يكن فقط المغني الجوال الوحيد حامل البكالوريا بل كان هو واحداً من القلائل الذين يجيدون القراءة والكتابة في تلك الأيـــام، والرجل المغازل والمحب للنساء الذي وجد على ظهر الأرض. لكنه لـــيس الأول ولن يكون الأخير: فهم الآن بالمئات وفي كل يوم أكثر شباباً. لقد فهـــم بـــيل كلينتون الأمر على هذا النحو خلال الأيام الأخيرة له في الرئاسة

عــندما اســتمع إلى مجموعة من أطفال المدارس الابتدائية الذين غنوا أمامه بالبيت الأبيض.

مــن حسن حظي في تلك الأيام أنني التقيت مرثيدس بارتشا، ابنة صيدلي سوكري التي عرضتُ عليها الزواج عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وبعكس المرات الأخرى قبلت في النهاية دعوتي على الرقص يوم الأحد التالي في فندق ألبرادو، عندها فقط عرفت أنها انتقلت لتعيش مع عائلتها في بارانكيا بسبب الأوضاع السياسية التي تزداد قمعاً كل يوم، كان أبوها ديمتريو ليبرالياً عنيداً لم ينحن أمام أول تهديدات تلقاها خلال تلك الأيام التي ازداد فيها العنف السياسي وانتشرت فيها أوراق الفضائح، إلا أنه إزاء ضغوط أهله باع ما تبقى لــه مــن متاع قليل في سوكري وافتتح صيدلية في بارانكيا بالقرب من فندق ألــبرادو، رغم أنه كان من عمر أبي فقد حافظ دائماً على علاقة شبابية معي اعتدنا على تدفئتها في الكانتين المقابل، وانتهينا في أكثر من مرة سكارى مع جمــيع أفراد المجموعة في "الرجل الثالث". كانت مرثيدس تدرس في ميديين فــي ذلك الوقت، وتذهب إلى بيت العائلة في أيام إجازات أعياد الميلاد، كانت مــرحة دائماً ولطيفة معي، لكنها كانت تتمتع بموهبة مذهلة في طرح الأسئلة والإجابــات دون أن تترك لأحد أن يحدد شيئاً، قبلت هذا على أنها إستراتيجية أكــثر رحمــة مــنها للرفض أو القبول، وقنعت برؤيتي لأبيها وأصدقائه في الكانتين المقابل. إذا كان هو قد شعر باهتمامي بها خلال تلك الإجازات الشيقة فقــد كــان هذا هو السر الخفي طوال عشرين قرناً من المسيحية، تفاخر عدة مــرات فــي الــرجل الثالــث بجملة قالتها هي خلال رقصتنا الأولى معاً في سوكري: "أبي يقول إنه لم يولد بعد الأمير الذي سيتزوجني"، ولكني لم أعرف إن كانت هي صدقت هذا، ولكنها كانت تتصرف كما لو كانت قد صدقت هذه الجملة، حتى قرب حلول أعياد الميلاد الذي قبلت فيه أن نلتقي الأحد التالي في رقص فندق ألبرادو الصباحي. كنت مخرفاً إلى درجة أنني اعتقدت أن قبولها

كان للتسريحة الجديدة والشارب الأنيق اللذين شذبهما لي الحلاق، وبدلة التيل البيضاء الناصعة ورباط العنق الحريري التي اشتريتها لهذه المناسبة من سوق الأتـــراك. كنت متأكداً من أنها ستذهب برفقة أبيها، الذي كان يرافقها إلى كل مكـــان، فدعـــوت شـــقيقتي عايده روسا التي كانت تقضي إجازتها معي. لكن مرثيدس جاءت وحدها ورقصت بشكل طبيعي وبمرح جعل أي عرض يمكن أن يتحول إلى شئ مثير للسخرية. في ذلك اليوم كانت افتتاحية موسم صديقي باتشو جالان، المبدع المجيد لرقصة "الماركومبي" التي رقصها الشباب طوال أعوام، وكانت أصل المناخ الكاريبي الجديد الذي لا يزال حياً حتى الآن، كانت تـــرقص بشكل رائع على موسيقى الموضة، وكانت تنتهز بأستاذية وسحر كل العروض التي كانت تحيط بها. كان يبدو أن تخطيطها كان يرمي إلى أن اعتقد أنهـــا لم تكن تتعامل معي بجدية، ولكن مع كل هذه الحيل فقد وجدت الطريقة لمواصلة طريقي.

فـــي الثانـــية عشـــر تماماً ذعرت من دقات الساعة، وتركتني وحدي في منتصف الرقصة، ولم ترغب في أن أرافقها حتى باب بيتها، اعتبرت شقيقتي أن ما حدث غريب جداً، وشعرت بطريقة أو أخرى أنها تتحمل ذنب ما حدث، ولا زلت أتساءل حتى هذه اللحظة إن كان ذلك المثال السيئ سبباً في إصرار شـــقيقتي المفاجـــئ على دخول دير الراهبات بميديين. منذ ذلك اليوم قمنا – مرثـــيدس وأنـــا – باختراع كود شخصي نتفاهم من خلاله دون أن نقول شيئاً وحتى دون أن نلتقي.

عدت لمعرفة أخبارها بعد حوالي شهر، في ٢٢ يناير من العام التالي، عن طريق رسالة قصيرة تركتها لي في الهيرالدو: "قتلوا كايتانو"، بالنسبة لنا ليس هناك غير واحد: كايتانو جنتيلي، صديقنا في سوكري، كان على وشك التخرج كطبيـــب وراقـــص وموهوب في العشق. أول خبر كان يقول إن شقيقا معلمة

مدرسة تشاربال، التي شاهدناها معه على ظهر جواده، قتلاه طعناً بالسكاكين، وخلال اليوم من تلغراف إلى تلغراف اكتملت القصة كلها.

لـــم يكن وقتها وقت التليفونات السهلة، والمحادثات البعيدة كانت تتم عبر تلغرافات مسبقة، كانت ردة فعلي الأولى كصحفي، فقررت السفر إلى سوكري لأكتـــب الحدث، ولكنهم في الصحيفة فسروه على أنه نتيجة لضغوط المشاعر الخاصة، وأنا اليوم أفهمه على هذا النحو، لأننا منذ ذلك اليوم نحن الكولومبيين نقـــتل بعضـــنا بعضاً بلا سبب، وأحياناً ما نخترع الأسباب لنواصل ممارسة القـــتل، لكـــن الجرائم العاطفية كانت تتم بعيداً عن أثرياء المدن. اعتقدت أن الموضـــوع أبدي فبدأت في جمع معلومات عن الشهود، إلى أن اكتشفت أمي نيتـــي الخفـــية ورجتني ألا أكتب التحقيق الصحافي. على الأقل خلال حياة أم كايتانو، السيدة خولييتا تشيمنو، التي كانت صديقتها وشقيقتها في التعميد، لأنها كانت عرابة تعميد هيرناندو، شقيقي الثامن، والسبب - لا يمكن الغنى عنه في تحقـــيق جـــيد- كانـــت قيمته كبيرة، لاحق شقيقا المعلمة كايتانو عندما حاول الهـــرب واللجوء إلى بيته، لكن السيدة خولييتا أغلقت الباب الخارجي بسرعة معـــتقدة أن ابنها كان في غرفته، وهكذا من لم يستطع دخول البيت كان هو، واغتالاه طعناً بالسكاكين أمام باب بيته المغلق.

كانت ردة فعلي المباشرة أنني جلست أكتب التحقيق حول الجريمة لكنني واجهـــت جمـــيع أنواع العقبات، ولم يعد ما يهمني هو الجريمة بل الموضوع الأدبـــي عـــن المسئولية الجمعية، إلا أن جميع الأسباب لم تفلح في إقناع أمي التي كانت تعتقد أن الكتابة دون إذن تعتبر عدم احترام. مع ذلك فمنذ ذلك اليوم لـــم يمـــر يوم دون أن أشعر بالرغبة في كتابة التحقيق. بدأت في تقبل الأمر الواقع، لكن بعد سنوات طويلة، كنت في انتظار الخروج إلى الطائرة في مطار الجزائـــر، انفتح باب صالة انتظار الدرجة الأولى ودخل أمير عربي بعباءته

الناصـــعة ونـــبله وعلى قبضة يده أنثى صقر مهاجر، وبدلاً من قناع الصقر الجلـــدي الكلاســـيكي المعـــروف عـــنه كان يرتدي قناعاً من الذهب الموشى بالمـــاس. فـــي تلك اللحظة تذكرت كايتانو جنتيلي، الذي كان قد تعلم من أبيه فـــنون الكـــبرياء، أولاً باستخدام طيور وطنية وبعدها بأنواع رائعة مولدة من الجزيـــرة العربـــية، وفي لحظة موته كانت عنده أقفاص لتربية الصقور، كان فيها صقران صغيران وآخر مدرب على صيد السمان، وآخر إسكتلندي مدرب علـــى الدفاع عن النفس. لكنني كنت أعرف وقتها الحوار الصحفي التاريخي الـــذي أجـــراه جورج بليمبتون مع إرنست هيمنجواي في مجلة "باريس رفيو" حـــول مراحل تحويل شخصية من الحياة الواقعية إلى شخصية روائية، أجاب هيمـــنجواي بقولـــه: "لو أنني شرحت كيف يتم ذلك، فإن هذا سيصبح كتالوجاً للمحاميـــن المتخصصـــين فـــي قضايا القذف والسب العلني"، إلا أنه منذ ذلك الصـــباح المحروس بالعناية الإلهية في الجزائر، كان وضعي عكسياً تماماً: لم أكن أرغب في مواصلة الحياة بسلام ما لم أكتب قصة موت كايتانو.

لكـــن أمي ظلت على عنادها في منعي بكل الوسائل، حتى مرت ثلاثون ســـنة علـــى وقوع المأساة، عندما اتصلت بي هي بنفسها في برشلونة لتبلغني بالنبأ السيئ أن السيدة خوليتا تشيمنتو، أم كايتانو، قد ماتت قبل أن تتعافى من حزنها على رحيل ابنها، ولكنها هذه المرة، كانت روحها المعنوية مرتفعة، لم تجد أمي أسبابا لتمنعني من كتابة التحقيق، وقالت لي:

– أطلب منك شيئاً واحداً كأم، أن تتعامل مع كايتانو كما لو كان ابني أنا.

الحكايـــة، بعـــنوان "وقـــائع موت معلن" نُشرت بعد عامين، لم تقرأ أمي الكـــتاب لأسباب احتفظ بها لنفسي كجوهرة خاصة بها في متحفي الشخصي: "الشيء الذي يكون رديئاً جداً في الحياة لا يمكن أن يكون أفضل في كتاب".

رن جرس مكتبي في الخامسة مساء بعد مرور أسبوع من موت كايتانو، وعــندما كنــت أكتب عملي المعتاد في الهيرالدو، كانت المكالمة من أبي، فقد وصل لتوه إلى بارانكيا دون أن يعلمني، وكان ينتظرني على وجه السرعة في مقهــى رومــا. أصــابني توتــر صوته بالفزع، ولكني انزعجت أكثر عندما شــاهدته، كــان غير مهندم وغير حليق الذقن، ببدلته الزرقاء السماوية التي حصلت عليها في ٩ أبريل، كانت مكرمشة بفعل عرق الطريق ولا يكاد يعتمد سوى على استسلامه للهزيمة.

أصــابني القــنوط إلــى درجة أنني غير قادر على وصف الضيق الذي أخبرنــي بــه أبــي عن كارثة العائلة. سوكري، جنة الحياة السهلة والفتيات الجميلات سقطت تحت زلزال العنف السياسي، وموت كايتانو لم يكن أكثر من علامة. قال لي:

– أنــت لا تعرف ذلك الجحيم لأنك تعيش في واحة سلام، ولكن نحن من لا نزال نعيش هناك.. ذلك أن الله يعرفنا.

كــان واحــداً من الأعضاء القليلين من الحزب المحافظ الذين كان عليهم الاختــباء مــن الليبراليين الغاضبين بعد ٩ أبريل، والآن فإن أصدقاءه الذين عاشــوا فــي ظله يكرهونه، رسم لي صورة مرعبة –وواقعية– تؤيد قراره النهائي بترك كل شئ، وأخذ العائلة للعيش في كارتاخينا، أنا لم أكن أملك سبباً أو قلــباً لأقــف ضــده، ولكني حاولت أن أؤجل قراره بحلول أقل جذرية من الرحيل العاجل.

كنــت في حاجة إلى الوقت لأفكر، تناولنا زجاجتي مرطبات في صمت، اســتعاد مثاليــته قــبل أن يكمل مشروبه وتركني في حالة من الذهول، قال بتنهــيدة: "عزائي الوحيد في كل هذا هو سعادتي بأنك أخيراً ستنهي دراستك". لــم أقــل أبداً كم هزتني تلك الجملة الخيالية لتحقيق هدف عائلي جدا، شعرت

بـــريح باردة في بطني، تحت وطأة فكرة أن رحيل العائلة لم يكن سوى مكراً مـــن جانـــبه ليجبرني على أن أكون محامياً، نظرت في عينيه مباشرة فكانتا كبحيرتـــي مـــاء راكـــد. انتبهت لحظتها أنني كنت عارياً أمامه من أي دفاع وراغباً في ألا يجبرني على أي شئ. لكنه كان يؤمن إيماناً إلهياً بأنني سأصدق فـــي النهاية ويمكنني أن أستسلم تعباً، وأكثر من ذلك: بنفس الروح المستعبدة كشـــف لـــي أنه حصل لي على عمل في كارتاخينا، وكل شئ جاهز لاستلام العمـــل الاثنيـــن التالي. وظيفة كبرى، شرح لي، غير مطلوب مني أكثر من الذهاب كل خمسة عشر يوماً لأتسلم راتبي.

كـــان الأمـــر أكـــبر مـــن أن أهضمه، عاقداً على أسناني أخبرته ببعض العلامـــات التـــي تعده للرفض النهائي، حكيت له الحوار الطويل مع أمي في رحلـــة آراكاتاكـــا التـــي لم أسمع منه أي تعليق عليها، ولكني فهمت أن عدم اهتمامه بالموضوع كان أفضل إجابة، والأكثر إثارة للحزن أنني كنت أعرف أننـــي ألعـــب بآخر أوراقي، لأنني أعرف أنهم لن يقبلوني في الجامعة بعد أن خســـرت مادتي السنة الثانية، ولم أكمل امتحانهما أبداً، وثلاث مواد أخرى لا يمكن الامتحان فيها من السنة الثالثة، أخفيت كل هذا عن عائلتي لتجنيبهم حزناً لا فائدة منه، ولم أكن على استعداد ولا حتى تخيل رد فعل أبي لو أنني حكيت له هذا فيما بعد. في بداية الحديث كنت قد قررت عدم قبول أي ضعف عاطفي لأنـــه كـــان يؤلمني أن رجلاً كريماً جداً يدع أبناءه يرونه مهزوماً، رغم هذا أعـــتقد أنـــه كان يثق في الحياة أكثر من اللازم، وأخيراً قبلت الشكل الأسهل لأطلب منه أن يمنحني ليلة للتفكير، فقال:

– موافق، ولكن عليك أن تفكر دائماً أن مستقبل العائلة بين يديك.

لم أكن في حاجة إلى توجيهاته، فقد كنت أعرف ضعفي جيداً، لدرجة أنني عـــندما ودعته عند محطة الأتوبيس في السابعة مساء اضطررت إلى الضغط

علـــى أحاسيســـي حتى لا أذهب معه في الكرسي المجاور لكرسيه، فقد كان واضـــحاً بالنسبة لي أن مرحلة قد انتهت، وأن العائلة عادت لتصبح فقيرة جداً ولا يمكنها أن تواجه مطالب الحياة ما لم يكن بتعاون الجميع.

لـــم تكن ليلة طيبة لاتخاذ قرار في أي شئ، فالبوليس استخدم القوة لطرد عدة عائلات مهاجرة كانت تقيم في حديقة سان نيكولاس هرباً من العنف الذي يسيطر على الريف، ومع ذلك، فإن سلام مقهى روما كان مستمراً، واللاجئون الإسبان كانوا يسألونني دائماً عن أخبار السيد رامون فينيس، وكنت أرد عليه ســـاخرا أن رسائله لم تكن تحمل أنباء عن إسبانيا ولكن أسئلة عن الحال في بارانكـــيا، ومـــنذ أن مـــات لم يعودوا يذكرونه، ولكنهم احتفظوا بكرسيه أمام الطاولـــة فارغـــاً، هنأني أحد رفاق الجلسة بسبب مقال "الزرافة" المنشور في الـــيوم الســـابق لأنه ذكّره برومانتيكية ماريانو خوسيه دي لارا، ولم أعرف السبب أبداً. أنقذني البروفيسور بيريث دومنيك من أحد المواقف الصعبة بجملة مناسبة: "أرجو ألا تعمل بالمثل السيئ وتطلق على نفسك رصاصة"، أعتقد أنه ما كان يمكنني أن أفعلها لو أنني عرفت كيف ستنتهي تلك الليلة.

بعـــد نصـــف ساعة أخذت خيرمان بارجاس من ذراعه إلى أقصى مقهى جابـــي. وما أن قدموا لنا المشروبات حتى قلت له إنني أريد أن أستشيره في أمـــر عاجل، توقفت يده في منتصف الطريق بالمشروب الذي كان على وشك رشفه – تماماً كما كان يفعل السيد رامون– وسألني منزعجاً:

– إلى أين تريد أن تصل؟.

أذهلني تنبؤه، فقلت:

– بأي شيطان عرفت.

لـــم يكـــن يعـــرف شـــيئاً، لكنه توقعه، وأعتقد أن تراجعي سيكون نهاية كرونـــيكا، وأي انعدام للمسئولية يمكن أن يدمغني ما تبقى من حياتي. أفهمني

أن هذا لا يقل عن الخيانة، وأنه لا أحد يمكنه أن يتجرأ على قول هذا سواه، لم يكـن يعـرف أحداً ما الذي يمكننا أن نفعله بكرونيكا لكننا كنا نعي جميعاً أن ألفونسـو حافظ عليها في اللحظات الحرجة، حتى بمصاريف تفوق امكانياته، ولذلـك لـم أستطع أبداً أن أنزع من رأس خيرمان الفكرة السيئة بأن رحيلي المحـتوم سيكون حكماً بالإعدام على المجلة. كنت واثقاً من أنه فهم كل شئ، وكان يعرف أن مبرراتي لا يمكن تلافيها، ولكنه قام بواجبه الأخلاقي بقول ما كان يفكر فيه.

فـي الـيوم التالي، وبينما كان يرافقني إلى مكاتب كرونيكا، أبرز ألفارو ثيبيدا إشارة مزعجة تدل على مدى الخلاف الذي كان يسيطر على علاقاته مع أصـدقائه الحميمين، لاشك في أنه عرف من خيرمان بقراري بالسفر وخجله المثالي أنقذ كلانا من البحث عن مبررات لا فائدة تُرجى من ورائها. قال لي:

– اللعـنة، الذهاب إلى كارتاخينا ليس كالذهاب إلى أي مكان، الأسوأ منه الذهاب إلى نيويورك كما حدث معي، ومع ذلك فأنت تراني هنا غير منقوص.

كانـت تلـك إجابـات مطلقة تنفع في حالات كحالتي لدفعي إلى البكاء، وللسبب نفسه فاجأني بأنه يفضل الحديث لأول مرة عن مشروع إنتاج سينمائي فـي كولومبيا. كنا واصلناه بلا نتائج ما تبقى لنا من حياة، تحدث عنه سريعاً كـنوع مـن منحـى بعض الأمل، وتوقف فجأة ما بين الأصوات المزدحمة وأصوات أواني مطعم شارع سان بلاس.

صرخ فيّ عبر النافذة:

– أنـا قلـت لألفونسـو فلتذهب المجلة إلى الجحيم ولنصدر أخرى مثل "التايم".

الحـوار مع ألفونسو لم يكن سهلاً لا بالنسبة لي ولا بالنسبة له، لأنه كان بيننا سوء تفاهم في حاجة إلى الإيضاح منذ حوالي ستة أشهر، وكلانا كان في

المواقــف الصعبة يعاني نوعاً من التهتهة العقلية. فقد حدث في إحدى حالات الغضــب التــي تصــيبني في صالة التركيب أن رفعت اسمي ووظيفتي من ترويســة كرونــيكا، ككــناية عن تقديم استقالتي بشكل رسمي، وعندما مرت العاصفة حدث أنني نسيت أن أعيدهما إلى مكانهما، ولم ينتبه أحد قبل خيرمان بارجــاس حتى مرور أسبوعين بعد ذلك، وتحدث في هذا الشأن مع ألفونسو، فكانــت مفاجــأة له أيضــاً. بورفيريو، رئيس قسم التركيب، قص عليه سبب غضــبي، فــاتفقوا علــى يتركوا الأوضاع على ما هي عليه حتى أشرح لهم مبرراتــي، ولسوء حظي فقد نسيت الأمر إلى اليوم الذي اتفقنا فيه – ألفونسو وأنا – على ترك كرونيكا، وعندما انتهينا ودعنا ضاحكاً إلى حد الموت بإحدى نكاته، كانت نكتة قوية ولكن يمكن تحملها، قال:

– مــن حســن الحــظ لــيس مطلوباً منا ولا حتى رفع اسمك من على الترويسة.

عــندها فقط استعدت الحادث كطعنة سكين وشعرت أن الأرض تميد من تحــت قدمــي، لــيس بما قاله ألفونسو بشكل عفوي جداً، بل لأنني نسيت أن أوضح له ما حدث. أما ألفونسو، كما كان متوقعاً منه، فقد قدم لي شرحاً وافياً، فــإذا كــان هذا الحدث العرضي الشيء الوحيد الذي لم نوضحه فقد كان من الأفضل عدم تركه في الهواء بلا توضيح، والباقي يقوم به ألفونسو مع ألفارو وخــيرمان، وإذا كان لا بد من إنقاذ السفينة بتعاوننا جميعا فأنا أيضاً أستطيع العــودة في ساعتين. اعتمدنا على مجلس التحرير كخط دفاع أخير، نوعاً من العــناية الإلهــية التــي لــم نستطع مطلقاً جمعهم حول المائدة الطويلة المعدة للحوارات الكبرى.

نقــاش خيرمان وألفارو منحني الشجاعة التي كنت أفتقد إليها لكي أغادر. وفهم ألفونسو مبرراتي وقابلها بارتياح، لكنه لم يجعلني أفهم أن كرونيكا يمكن

أن تـــتوقف بســـبب استقالتي، على العكس، نصحني أن أواجه الأزمة بهدوء، وهدأت بسبب فكرة تكوين قاعدة ثابتة مع مجلس التحرير، وأنهم سيخبرونني حينما يمكنهم فعل أي شئ يستحق الاهتمام.

كانـــت تلـــك أولى الإشارات الدالة على أن ألفونسو كان واثقاً من إمكانية اختفاء كرونيكا، وهذا ما جرى، دون أسف ولا ندم، في ٢٨ يونيو بعد إصدار ثمانية وخمسين عدداً في أربعة عشر شهراً، بعد نصف قرن لدي انطباع بأن المجلة كانت حدثاً مهماً في الصحافة الوطنية، لم يتبق منها مجلد واحد كامل، بـــل فقـــط ستة أعداد، وبعض القصاصات في المكتبة القطالونية للسيد رامون فينيس.

مـــن الصـــدف الجميلة في حياتي أنه في البيت الذي كنت أقيم فيه كانوا يـــريدون تغيير أثاث الصالون، وعرضوه عليّ بثمن زهيد، قبيل الرحلة، كنت قـــد قمـــت بتصفية حساباتي مع الهيرالدو، وقبلوا منحي مقدماً ستة أشهر من "الزرافة". اشتريت بجزء من هذه النقود أثاث "مايتو" لبيتنا في كارتاخينا، لأنني كنـــت أعـــرف أن العائلة لم تأخذ أثاثها من سوكري ولا تملك ما تشتري به غـــيره، لا أستطيع أن أنسى ذكر أنه بعد خمسين عاماً من الاستخدام لا يزال الأثاث محفوظاً بشكل جيد ولا يزال يستخدم، لأن الأم الشاكرة لم تسمح ببيعه.

انتقلـــت إلى كارتاخينا بعد أسبوع من زيارة أبي وكانت حمولتي الوحيدة هي الاثاث، والقليل مما كنت أرتديه، بعكس المرة الأولى، فقد كنت أعرف ما يمكن احتياجه، وكنت أعرف كل ما نحن في حاجة إليه في كارتاخينا، وكنت أريـــد من كل قلبي أن تكون العائلة في أفضل حال، أما بالنسبة لي فإن ما يقع من شر فانه يحدث كعقاب على نقص في شخصيتي.

كان البيت في مكان ممتاز من حي بوبا، تحت ظلال الدير التاريخي الذي كـــان يبدو دائماً على وشك الانهيار، غرف النوم الأربع وحمامان في الطابق

الأرضـــي كانت محجوزة لأبوي والأبناء الإحدى عشرة. أنا الأكبر، كنت في السادســـة والعشـــرين تقريباً، وإليخيو الأصغر في الخامسة. كنا جميعاً حسني التنشئة على ثقافة الأسرة المعلقة الكاريبية والفرش على الأرضية، أما الأسرة فهي عندما يكون لها مكان.

في الطابق العلوي كان يعيش العم هيرموخينيث سول، شقيق أبي، مع ابنه كـــارلوس مارتينيث سيمهان. لم يكن البيت كله كافياً لهذا العدد، ولكن الإيجار كان متواضعاً بسبب علاقة العم التجارية مع المالكة، التي لم نكن نعرف عنها سوى أنها ثرية جداً ويدعونها "بيبا". العائلة التي تتمتع بحس الفكاهة المحكم لم يمر وقت طويل لتعثر لها على لقب في شكل أغنية: "بيت بيبا في قدم بوبا".

وصـــول الذرية كان بالنسبة لي ذكرى غامضة، انقطع النور في نصف المدينة وحاولنا أن نعد البيت في الظلام لإنامة الأطفال، كنا نتعارف بالصوت مـــع أشقائي الكبار، لكن الصغار تغيروا كثيراً منذ زيارتي الأخيرة، فقد كانت عـــيونهم الكبـــيرة والحزينة ترعبني في أضواء الشموع. وفوضى الصناديق والصـــرر والأســـرة المعلقـــة في الظلام جعلتني أعاني كما لو كان ٩ أبريل المنزلـــي، إلا أن الانطباع الأكبر شعرت به عندما حاولت أن أحرك كيساً بلا شـــكل محدد كان يهرب من بين يدي، لقد كانت بقايا الجدة ترانكيلينا أخرجتها أمي وحملتها لتدفنها في مقبرة سان بدرو كلافير، حيث توجد بقايا أبي والعمة ألبيرا في القبو نفسه.

كـــان عمي هيرموخينيث سول المنقذ في تلك الكارثة، فقد عينوه سكرتيراً عامـــاً للبولـــيس المحلي في كارتاخينا، أول قرار راديكالي له كان فتح حفرة بيروقراطية لإنقاذ العائلة، بما فيهم أنا، فالمضلل السياسي بسوابقه كشيوعي لم يكسبني الأيدلوجية لكنه فاز عليّ بطريقتي في اللبس، كان هناك عمل للجميع، فقـــد وضـــعوا أبـــي في وظيفة إدارية بدون مسئولية سياسية، وشقيقي لويس

إنريكـــي عـــيونه مخبراً وأنا منحوني منصباً قانونياً بمكتب الإحصاء الوطني الـــذي كانت الحكومة المحافظة تبذل جهدها لإجرائه، ربما للحصول على أي فكرة تقدر لهم عدد المعارضين الباقين على قيد الحياة. الثمن الأخلاقي للوظيفة كان بالنسبة لي أكثر خطورة من الثمن السياسي، لأنني كنت أتلقى راتبي كل أســـبوعين ولا اظهر في المكاتب بقية الشهر لأتقي الأسئلة. التعليل الرسمي، لـــيس بالنسبة لي فقط بل أكثر من مائة موظف آخرين، أننا في مهام رسمية خارج المدينة.

كـــان مقهـــى موكا مقابل مكتب الإحصاء غاصاً بالموظفين المزيفين من القـــرى المجـــاورة الذين كانوا يذهبون إلى العمل لتسلم رواتبهم فقط. لم أكن أحصل على سنتيم واحد للاستخدام الشخصي طوال الوقت الذي كنت أوقع فيه علـــى كشـــف المرتبات، لأن الراتب كان عبارة عن دعم ويذهب بكامله إلى الميزانية المنزلية. بينما كان يحاول أبي أن يسجلني في كلية الحقوق، اكتشف الحقيقة التي أخفيتها عنه، أن يعرف هو الحقيقة جعلني أشعر بالسعادة كما لو حصلت على الشهادة، وكانت سعادتي مستحقة لأنه بين كل العقبات فقد وجدت أخيراً الوقت والمساحة لإنهاء الرواية.

دخولـــي للعمل بصحيفة اليونفرسال جعلني أشعر كما لو عدت إلى بيتي، كانـــت السادسة مساء، الساعة الأكثر نشاطاً، الصمت الذي تسبب فيه دخولي أوقف عمال اللينوتيب والكتبة على الآلة الكاتبة جعلني على وشك البكاء. كان الأســـتاذ ثابـــالا كما لو لم يزدد عمراً بشعره الهندي الأسود، كما لو أنني لم أذهـــب أبداً، فقد طلب مني أن أتكرم بكتابة مقالة افتتاحية متأخرة، كان يحتل ماكينتـــي مبـــتدئ مراهق سقط أرضاً بسبب تسرعه لترك مكانه لي، أول ما فاجأنـــي هـــو صـــعوبة كتابة مقالة افتتاحية بلا توقيع، بعد عامين من تغرب "الـــزرافة". كنـــت قـــد كتبـــت صفحة واحدة عندما اقترب مني المدير لوبث

إســـكاورياثا ليحييني. رباطة جأشه البريطانية كانت حديثاً عاماً في حوارات الأصـــدقاء ورســـامي الكاريكاتـــير السياسي، أثر فيّ فرحه بتحيتي بالعناق. وعـــندما أنهيت المقالة، كان ثابالا ينتظرني بورقة وضع فيها المدير حساباته لـــيعرض عليّ راتباً من مائة وعشرين بيزو شهرياً مقابل المقالات الافتتاحية، أثـــر فيّ الرقم، لأنه كان غريباً في تلك الأيام وفي هذا المكان، لدرجة أنني لم أجـــبه ولا حتى شكرته بل جلست أكتب مقالتين أخريين، منتشياً بإحساس أن الأرض تدور بالفعل حول الشمس.

كنـــت كمـــا لو عدت لأصولي، الموضوعات نفسها المصححة بقلم أحمر ليبرالـــي يضـــعها الأستاذ ثابالا، محذوفة بالرقابة نفسها لرقيب مهزوم بمكر المحررين، ومنتصف الليل نفسه تنقلاً بين الكهف ومحاولة إصلاح الكون حتى بـــزوغ الفجـــر فـــي ممر الشهداء. كان روخاس هيريثو قد أمضى عاماً يبيع لوحات ليرحل إلى أي مكان، إلى أن تزوج من روسا إيسابيل، الكبيرة، ورحل إلى بوجوتا، وفي نهاية الليل كنت أجلس أكتب "الزرافة" التي أرسلها للهيرالدو بأكـــثر الوسائل حداثة في ذلك الوقت والتي كانت البريد العادي، مع الحرص على ألا تتوقف تحت ضغط الحاجة إلى دفع الديون.

الحياة مع العائلة كاملة وفي أوضاع مشؤومة لم يكن من صنع الذاكرة بل مـــن صنع الخيال، كان الأبوان ينامان في غرفة بالطابق الأرضي مع بعض الصـــغار، والشقيقات الأربع كن في حاجة إلى غرفة لكل واحدة منهن – وفي الثالثة ينام هيرناندو وألفريدو ريكاردو تحت رعاية خايمي، الذي كان يسيطر علـــيها بخطاباتـــه الفلسفية والحسابية، أما ريتا التي كانت تقترب من الرابعة عشـــرة مـــن عمرها فقد كانت تستذكر دروسها حتى منتصف الليل أمام باب الشارع تحت ضوء الإنارة العامة لتوفير نور البيت. لا زلت أحتفظ بدروسها التـــي حفظـــتها من الذاكرة والتي كانت تغنيها بصوت مرتفع وبطريقة محببة

وبمخـــارج ألفـــاظ جيدة، والكثير من الأشياء الغريبة التي تضمها كتبي نتيجة لطريقـــتها فـــي ممارسة القراءة، البغلة التي تذهب إلى الطاحونة، وشيكولاتة الولد أبو برنيطة والعراف الذي يهوي السكر، كان البيت حيوياً وأكثر إنسانية مـــنذ منتصـــف اللـــيل، ما بين الذهاب إلى المطبخ للشرب أو الجري لقضاء الحاجـــة الســـائلة أو الجافة، أو تعليق الأسرة في الممرات متقاطعة فيما بينها وعلـــى مستويات مختلفة. كنت أعيش في الطابق الثاني مع جوستافو ولويس إنريكي – بعد أن انتقل العم ليعيش في بيت عائلته– وبعدها انضم إلينا خايمي، بعـــد إخضـــاعه لأوامـــرنا ألا يمارس نبوءاته بعد التاسعة مساء، قضينا ليلة ســـاهرين لعـــدة ســـاعات حتى الفجر تحت وطأة ثغاء خروف افتقد أمه، قال جوستافو بنفاد صبر:

– يبدو كفنار.

لـــم أنس تلك الجملة أبداً، لأنها كانت من ذلك النوع من الجمل التي كنت ألتقطها "على الطاير" من الحياة الواقعية لاستخدمها في روايتي التي كانت على وشك الاكتمال.

كان هذا البيت أكثر حيوية من كل البيوت في سكناها في كارتاخينا، التي كانـــت تســـوء مـــع مرور الزمن وتضاؤل دخل العائلة. في بحثنا عن أحياء أرخص بدأنا العد التنازلي من درجة إلى أخرى حتى وصلنا إلى حي توريل، حيـــث كـــان شبح امرأة يظهر ليلاً، من حسن حظي أنني لم أكن هناك، ولكن شـــهادة الأبوين والأخوة كانت تسبب لي رعباً كما لو كنت أسكن هناك، كان أبـــوي يـــرقدان على الأريكة بالصالة في الساعات الأولى من الليل، وشاهدا شـــبحاً على هيئة امرأة مرت بهما دون أن تنظر إليهما، وتجولت بين الغرف، كانـــت ترتدي فستاناً موشى بالزهور الحمراء وشعرها القصير معقوص إلى خلـــف الأذنيـــن بمشابك ملونة. وصفتها أمي حتى أدق تفاصيل ألوان فستانها

ونــوع حذائهــا، فيما كان أبي ينكر أنه رآها حتى لا يرعب زوجته ولا يثير الخوف بين الأبناء، ولكن الطريقة التي كان يتحرك بها شبح المرأة منذ حلول المساء لم يكن يسمح بتجاهلها، استيقظت شقيقتي مارجوت في فجر أحد الأيام وشاهدتها تقف عند طرف سريرها تراقبها بنظرة مركزة، ولكن ما أثارها أن تعرف أن هناك من يراقبها من الحياة الأخرى.

يوم الأحد وأثناء الخروج من القداس، أكدت جارة لأمي أنه لم يسكن أحد فــي ذلك البيت منذ سنوات طويلة بسبب جرأة المرأة الشبح التي ظهرت في غــرفة الطعام ظهراً عندما كنت العائلة تتناول الغداء، وخرجت أمي في اليوم التالــي بــرفقة اثنين من أخوتي الصغار بحثاً عن بيت آخر وعثرت عليه في أربــع ســاعات. إلا أن معظم أخوتي عانوا كثيراً للتغلب على فكرة أن شبح المرأة الميتة رحل معهم.

في بيت البوبا، على الرغم من الوقت الكثير الذي كنت أتمتع به فقد كنت أكتــب بشهوة كبيرة إلى درجة أنني كنت أشعر أن الأيام كانت تمر بسرعة، وهــناك ظهر من جديد راميرو دي لا اسبيريا، بشهادة الدكتوراه في القانون، ومــتحدثاً فــي السياسة أكثر من أي وقت مضى، وكان متحمساً بقراءاته في الــروايات الحديــثة، وبشــكل خاص رواية "الجلد" لكوريثيو مالابارت، التي تحولت في تلك السنة إلى الكتاب الأساسي لجيلي؛ قوة النثر، وحساسية الذكاء، والموضــوع الذي يعكس قسوة التاريخ المعاصر كان يسرقنا حتى الفجر، مع ذلــك فإن الزمن أثبت أن مالابارت كان مرشحاً ليكون مثالاً نافعاً للمزايا التي كنــت أبحث عنها، وانتهت بالتغلب على صورته، بعكس كل ما حدث لنا في الوقت نفسه تقريباً مع البير كامو.

كــان آل اســبيريا يعيشــون بالقرب منا، وكان في بيتهم مخزن للخمور العائلــية كنا نُغير على زجاجاته ونبدلها بزجاجات مشروبات عادية ونأخذها

إلـــى بيتـــنا، وضد نصائح السيد رامون كنت اقرأ أجزاء طويلة من مسوداتي بحضورهم وحضور أخوتي، كنت أقرأها قبل تنقيتها من الزوائد كما هي من أوراق المطـــبعة الطويلـــة التـــي كنـــت أكتـــب عليها طوال ليالي السهر في اليونفرسال.

فـــي تلـــك الأيام عاد ألفارو موتيس وجونثالو مايلرينو، لكن حسن خجلي منعنـــي من أن أطلب منهم أن يقرأوا المسودة قبل اكتمالها ودون أن أضع لها عـــنواناً. كنـــت أريد أن أحبس نفسي بلا توقف لأنجز أول نسخة في أوراق رســـمية قبل أن أقوم بعمل التصحيحات النهائية. كتبت حوالي أربعين صفحة أكـــثر مـــن النســـخة المتوقعة، لكنني كنت أجهل أن هذا يمكن أن يكون خطأ خطيراً، وبعدها عرفت أنه خطأ: أنا عبد للكمال الذي يدفعني إلى حساب مسبق لطول الكتاب، بعدد معين من الصفحات لكل فصل وعدد محدد لكل كتاب. أي خطأ في الحساب يدفعني إلى إعادة النظر في الكتاب كله، حتى الخطأ الإملائي يمكـــنه أن يجعلني أشعر وكأنه خطأ في الإبداع، كنت أعتقد أن هذه الطريقة المطلقـــة تـــرجع إلى قاعدة مثيرة للمسئولية، لكنني أعرف اليوم ببساطة أنه رعب بسيط صافي وفيزيقي.

بالمقـــابل، رافضاً اتباع نصائح السيد رامون مرة أخرى، بمجرد الانتهاء من الكتاب أرسلت المسودة كاملة إلى جوستافو إيبارا رغم أنه كان بلا عنوان، دعانـــي إلـــى بيته بعدها بيومين. وجدته في شرفة منزله المطلة على البحر، يتشـــمس وفي حالة استرخاء بملابس البحر، أثارتني الرقة التي كان يتحسس بهـــا أوراقي بينما كان يحدثني، انه أستاذ حقيقي، لم يقل شيئاً عن الكتاب ولا حـــتى قـــال رأياً حسناً أو سيئاً، بل جعلني أفهم واعياً بقيمه الأخلاقية. بعد أن انتهى تأملني وأنهى حديثه ببساطته اليومية:

- إنها أسطورة أنتيجون.

مــن تعبــيرات وجهـــي انتــبه إلى أنني انطفأت، فأخذ من مكتبته كتاباً لســوفوكليس وقرأ ما يريد أن يقول، فالوضع الدرامي لروايتي، بالضبط، كان ينــبع من أنتيجون نفسها، محكوم عليه بأن يدفن جثة شقيقه بولينيس بأمر من الملــك كــريون. أنا كنت قد قرأت "أوديب في كولونا" في نفس المجلد الذي أهداني إياه جوستافو خلال الأيام التي تعرفنا فيها، لكنني كنت أتذكر أسطورة أنتيجون بشكل سيئ وأعيد كتابتها من الذاكرة في دراما خاصة بمنطقة الموز، التـــي لم تنتبه إلى تحديد عواطفها حتى تلك اللحظة. شعرت بروحي مغمورة بالســعادة وخيبة الأمل. عدت تلك الليلة لأقرأ العمل من جديد، بمزيج غريب مــن الفخر بأنني كتبت بحسن نية موضوعاً يتطابق مع موضوع لكاتب كبير وفـــي الوقت نفسه كنت أشعر بألم من خجلي لارتكابي خطيئة السرقة الأدبية. بعد أسبوع من التأزم قررت إجراء بعض التعديلات الأساسية التي تنقذ حسن نيتي، لم أنتبه حتى تلك اللحظة من زهو غير الطبيعي لتعديل كتاب لي حتى لا يتشـــابه مـــع ســـوفوكليس. وأخيراً – مستسلما– شعرت بحقي الأدبي في أن استخدم جملة له كمدخل إشاري وهكذا فعلت.

رحيلنا إلى كارتاخينا أنقذنا من التردي الخطر لسوكري قبل فوات الأوان، ولكــن أكــثر الحســـابات كانت خاطئة، بالنسبة لقلة الدخول أو بالنسبة لحجم العائلة، تقول أمي إن أبناء الفقراء يأكلون أكثر وينامون بسرعة أكبر من أبناء الأثرياء، ولبيانه يكفي أن تأخذ المثال من بيتها. فرواتب الجميع لم تكن كافية للحياة بلا مشاكل.

تولـــى الزمـــن الآخرين: تحول خايمي بتواطؤ العائلة جميعاً إلى مهندس معماري، فقد كان الوحيد من العائلة الذي قدر الشهادة كمرتبة شرفية، وتحول لويـــس إنريكـــي إلـــى معلم في الحسابات فيما أنهى جوستافو دراسته كرسام خــرائط، ولكنهما ظلا كعازفي جيتار ومغنيين في احتفالات الآخرين، وفاجأنا

يوجـــو مـــنذ صغره بموهبته الأدبية المحددة جداً وبقوة شخصيته، التي أثبتها أمامنا عندما كان لا يزال في الخامسة حينما فاجأه وهو يحاول إضرام النار فـــي دولاب الملابـــس لـــيحقق حلمه في رؤية رجال المطافئ في البيت وهم يطفـــئون الحريق. وبعدها أيضاً عندما دعاه زملاء المدرسة الكبار مع شقيقه كوكي لتدخين الماريجوانا، ولكن يوجو رفض الدعوة مرتعباً. أما الكوكي فعلى العكـــس، كان دائماً ميالاً لحب الاستطلاع والتهور، وجربهما حتى الأعماق. غـــرق بعدها بسنوات في إدمان المخدرات، وحكى لي هذا منذ الرحلة الأولى قـــال: "اللعـــنة، لا أريد أن أفعل في حياتي أكثر من هذا". في الأربعين عاماً التالية، وبحماس لا مستقبل له، لم يفعل شيئاً سوى الوفاء بوعده أن يموت طبقاً لقانونـــه الخاص. في الثانية والخمسين دخل جنته الخيالية عن عمد، فأُصيب بأزمة قلبية عامة قضت عليه.

أما نانشي – أكثر رجال العالم مسالمة– فإنه واصل العمل في الجيش بعد أداء الخدمـــة العسكرية الإجبارية، وتدرب على جميع أنواع الأسلحة الحديثة وشارك في العديد من المناورات، لكنه لم يحظ بالمشاركة في أي من حروبنا الدائمـــة. لذلـــك اكتفى بممارسة مهنة رجل المطافئ بعد أن ترك الجيش، ولا حتى هناك شاء حظه ليشارك في إطفاء حريق واحد خلال خمس سنوات. إلا أنـــه لم يشعر أبداً أن ظنه قد خاب، كان محباً للسخرية مما جعله مشهوراً في العائلـــة كأســـتاذ النكـــتة السريعة وهذا سمح له أن يشعر بالسعادة لمجرد أنه يستمر على قيد الحياة.

يوجو، خلال أكثر سنوات الفقر صعوبة، عمل كاتباً وصحافياً بقوة الرغبة ودون أن يدخن أبداً أو يشرب كأساً زيادة عن المطلوب، تمكنت موهبته الأدبية العنـــيفة وإبداعـــه الحثيـــث مـــن التغلب على كل العقبات، مات في الرابعة والخمســـين بعد وقت قليل من نشره كتاب في أكثر من ستمائة صفحة يحتوي

علـــى بحـــث رائع حول الحياة السرية لرواية "مائة عام من العزلة" عمل فيه ســـنوات طويلـــة دون أن أعـــرف عـــنه شيئاً، ولم يطلب مني أبداً معلومات مباشرة.

ريتا، لا تكاد تكون مراهقة، عرفت كيف تتعلم الدرس من محنة الآخرين، عندما عادت إلى البيت بعد غياب طويل، وجدتها تعاني من مطهر الأخريات نفسه لقصة حبها من شاب أسمر مخالف لطباعها، جاد وهادئ واختلافه الوحيد معها في طول قامته، في تلك الليلة نفسها وجدت أبي يستمع إلى الأخبار ممدداً فـــي السرير المعلق بالغرفة. خفضت من صوت الراديو، وجلست في السرير المقابل وسألته بحقي كابن أكبر عن ما حدث بالنسبة لقصص حب ريتا. أطلق الإجابة التي لا شك أنها كانت معدة لقولها في أية لحظة:

– ما حدث أن هذا الولد نشال.

هذا هو بالضبط ما لم أكن أنتظره، فسألته:

– نشال ماذا؟.

قال لي دون أن ينظر إليّ:

– نشال نشال.

سألته دون رحمة:

– لكن ما الذي سرقه؟.

واصل هو دون أن ينظر إليّ، وأخيراً زفر:

– حسن، هو لا، ولكن له شقيق مسجون في قضية سرقة.

قلت له بغباء سهل:

– إذن ليســـت هـــناك مشـــكلة، لأن ريتا لا تريد أن تتزوجه بل تريد أن تتزوج من الذي لا يوجد في السجن.

لم يرد، فقد فاق شرفه جميع الحدود من الإجابة الأولى، لأنه كان يعرف أن إشاعة شقيقه المسجون ليست صحيحة، حاول التعلق بأسطورة الكرامة:

– حسـناً جداً، فليتزوجوا ويخلصونا، فأنا لا أريد علاقات خطوبة طويلة في هذا البيت.

ردي كان عاجلاً وبنغمة تفتقر إلى الرحمة التي لم أغفرها لنفسي أبداً:

– غدا في أول ساعة.

رد أبي منزعجاً ولكن مع أول بسمة:

– يا رجل، لا يجب أن نبالغ، هذه الفتاة لا تملك بعد ما ترتديه.

آخـر مـرة شـاهدت فـيها العمة با، كانت في عمرها الذي يكاد يصل التسعين، كان ذلك في أمسية حارة جداً عندما وصلت إلى كارتاخينا دون سابق إنذار، كانت قادمة من ريواتشا في تاكسي سريع بحقيبة مدرسية، وحداد كامل وبعمامة من الخرق السوداء، دخلت سعيدة، بذراعين مفتوحين، وصرخت في الجميع:

– جئت أودعكم لأنني سأموت.

احتضناها ليس لأنها كانت من كانت، بل لأننا كنا نعرف إلى أي حد كانت تعـرف علاقتها بالموت. ظلت بالبيت، تنتظر ساعتها في غرفة الخدم، الغرفة الوحـيدة التي قبلت النوم فيها، وماتت هناك في عذريتها وعمرها العام الأول بعد المائة طبقاً لحساباتنا.

كانت تلك الفترة الأكثر نشاطاً في اليونفرسال، كان ثابالا يوجهني بحنكته السياسية لتقول مقالاتي ما يجب أن تقوله دون أن تصطدم بقلم الرقابة، واهتم لأول مرة بفكرتي القديمة لكتابة التحقيقات للصحيفة. لم يمر وقت طويل حتى ظهـر موضـوع السـائحين الذين كانت تهاجمهم الحيتان القاتلة في شواطئ

ماربيا، إلا أن الفكرة التي تفتقت عنها البلدية تقديم خمسين بيزو عن كل حوت ميـت، وفـي الـيوم التالي وصل عرض الحيتان التي تم اصطيادها ليلاً إلى أقصى أفرع شجر اللوز، فكتب هيكتور روخاس ساخراً من بوجوتا في عموده الجديـد في "التيمبو". سخر من تطبيق صيد الحيتان ونصح بالإمساك بها من ذيـول آذانهـا. فتح هذا أمامي فكرة كتابة تحقيق عن مطاردة الحيتان الليلية، وقـف ثابالا إلى جواري بحماس، لكن الفشل بدأ منذ اللحظة الأولى لركوبي البحر، عندما سألوني إن كانت تصيبني دوخة البحر فقلت لا، وإن كنت أخاف البحر، والحقيقة كانت نعم، فقلت لهم لا، وأخيراً سألوني إن كنت أجيد العوم – كـان يجـب أن يكـون هذا هو السؤال الأول– ولم أجرؤ على الكذب بأنني أعرف. على أي حال، من على اليابسة ومن خلال الحوار مع البحارة عرفت أن الصيادين كان يذهبون إلى "لاس بوكاس دي ثينثو" على بعد تسعة وثمانين مـيلاً بحرياً من كارتاخينا، ويعودون محملين بالحيتان البريئة ويبيعونها على أنهـا الحيتان القاتلة بخمسين بيزو. النبأ الكبير انتهى في يومه الأول، وقضى على أملي في كتابة التحقيق، فنشرت في مكانه قصتي الثامنة "نابو، الزنجي الذي انتظرته الملائكة"، واثنان من النقاد الجادين على الأقل وبعض أصدقائي الحادين اعتبروها تحولاً جديداً.

لم أعتقد أن نضجي السياسي كان كبيراً ليؤثر في حياتي، لكن الحقيقة أنني عانيت من سقطة مشابهة للسابقة، فشعرت أنني متورط إلى درجة أن تسليتي الوحـيدة كانت السهر حتى الفجر مغنياً مع السكارى في كهوف السور، التي كانـت بيوتاً للدعارة للتسرية عن الجنود خلال عهد الاستعمار وبعدها تحولت الى سجن سياسي فظيع. قضى الجنرال فرانثيسكو دي باولا هناك حكماً بثماني أشهر قبل أن ينفيه زملاء السلاح والقضية إلى أوروبا.

حارس تلك الآثار التاريخية كان عامل اللينوتيب المتقاعد الذي كان ينضم إليـه زملاؤه العاملون بعد إغلاق طبعة الصحيفة ليحتفلوا معه كل يوم بميلاد اليـوم الجديد بحفل من الروم الأبيض المهرب، كانوا من طابعي الآلة الكاتبة المثقفيـن بالعـادات العائلية، ونحويون دراميون ومن كبار عشاق السكر أيام السبت. فانضممت إلى نقابتهم.

الأكـثر شباباً بينهم اسمه جييرمو دافيلا تمكن من العمل في الشاطئ على الـرغم مـن عناد بعض زعماء النقابة الإقليميين الذين كانوا يرفضون قبول هـندي فـي نقابـتهم، ربما حاز على هذا العمل بفن فنه، فهو بالإضافة إلى احتراف مهنته وظرفه الشخصي، كان مشعوذاً مدهشاً. كان يحافظ علينا يقظين بحركاته السحرية التي تخرج طيوراً حية من أدراج المكاتب أو يمحو الكتابة مـن أوراقنا بعد الانتهاء من تسليم المقالة الافتتاحية قبيل إغلاق الطبعة بقليل. الأسـتاذ ثابالا، الحازم في أداء الواجب، ينسى بادرفوسكي وثورة البوليتاريا للحظـات ويطلـب تصـفيقا للساحر، بتحذيره دائماً بأن تكون هذه آخر مرة. بالنسبة لي، فإن مقاسمتي الروتين اليومي مع ساحر كان كما لو أنني اكتشفت الواقع أخيراً.

فـي أحـد تلك الصباحات في قباب لسور نقص عليّ دافيليا فكرته عن إصـدار صحيفة مقاس أربعة وعشرين في أربعة وعشرين سنتيمتراً –نصف ورقة– يتم توزيعها مجاناً في لحظة الذروة قبيل إغلاق السوق، ستكون أصغر صـحيفة فـي العـالم، تقرأ في عشر دقائق، وهذا ما حدث، أطلق عليها اسم "كومبريمـيدو"، كنـت أكتبها أنا في ساعة في الحادية عشر صباحاً، ويركبها ويطـبعها دافيليا في ساعتين ويوزعها موزع مغامر لم يكن يتنفس مرة واحدة أثناء النداء عليها.

صدرت الثلاثاء ١٨ من ديسمبر ١٩٥١، وكان من المستحيل فهم النجاح الهـائل والقصير الذي لقيته: ثلاثة أعداد في ثلاثة أيام، اعترف لي دافيليا أنه ولا حـتى بتطبـيق السحر الأسود كان يمكنه توقع نجاح فكرة كبيرة بتكاليف قلـيلة، كانـت تحتل حيزاً صغيراً جداً، ويتم تنفيذها في زمن قصير وتختفي بالسـرعة نفسـها. الغريب أنني فكرت في اليوم التالي للحظات، تحت تأثير اهـتمام القـراء بـأن حل مشكلة حياتي يمكن أن يكون سهلاً جداً، استمرت أحلامي هذه حتى الخميس، عندما قال لنا المدير الإداري إن عدداً آخر سيعني إفلاسـنا، وحتى قبل أن نحل مسـألة الإعلان التجاري، لأنها يجب أن تكون إعلانـات صـغيرة جـداً ومرتفعة الثمن فلم يكن هناك حل عقلاني، فنجاح الصحيفة كان في حجمها، لكنها كانت تحتوي على بذرة دمارها: كانت تزداد مشاكلها كلما كان توزيعها أكبر.

الرحـيل إلـى كارتاخيـنا كان مفيداً بعد تجربة "كرونيكا" إضافة إلى أنه منحنـي دفعـة لمواصـلة كتابة "الورقة الجافة"، وبشكل خاص بسبب الحمى الإبداعية التي كنا نعيشها في بيتنا، حيث الأكثر غرابة يبدو دائماً ممكناً، كان يكفـي أن أعلن عن غداء لنتحدث مع أبي عن الصعوبة التي يواجهها الكُتَّاب أثـناء كتابة مذكراتهم عندما اكتشفت أنه لم يعد أحد يتذكر شيئاً، الكوكي، كان لا يكاد يبلغ السادسة، توصل إلى المحصلة النهائية ببساطة شديدة، قال:

– إذن، أول ما يجب أن يفعله الكاتب هو أن يكتب ذكرياته، عندما يكون لا يزال يتذكرها.

لم أجرؤ على الاعتراف بأنه في "الورقة الجافة" كان يحدث معي ما حدث فـي "البيت": بدأت اهتم بالتقنية أكثر من الموضوع. بعد سنة كاملة من العمل بحمـاس، تبين لي أنني كما لو كنت في متاهة مستديرة بلا مخرج أو مدخل، أعـتقد الـيوم أنني أعرف السبب. فالروايات التي اعتمدت العادات والتقاليد

وقدمـــت أمثلة من التجديد في بداياتها انتهت إلى تحجير الموضوعات الوطنية الكبرى التي كانت تحاول أن تجد مخرجاً عاجلاً، الأمر أنني لم أعد أشك ولا لحظة واحدة، لم يكن ينقصني سوى أن أُجرب التواريخ ونوعية الأسلوب قبل وضع النقطة النهائية، ومع ذلك، كنت غارقاً بعد هذا فترة طويلة من العمل في الضباب، إلى درجة أنني كنت أرى الكتاب يغرق دون أن أعرف أين خروقه، والأســوأ من كل هذا أنه عند هذه النقطة من الكتابة لا تنفع نصائح أحد، لأن الخــروق لــم تكــن فـــي النص بل فيّ أنا، وأنا وحدي الذي يمكنه أن يراها ويعانـــيها. وربما لنفس هذا السبب أوقفت "الزرافة" دون أن أفكر طويلاً عندما انتهيت من دفع ديوني للهيرالدو التي استلمتها مقدماً لشراء الأثاث.

لسوء الحظ، لا العبقرية ولا المقاومة ولا حتى الحب كانوا كافيين لهزيمة الفقــر، مؤسسة الإحصاء انتهت في عام واحد وراتبي في اليونفرسال لم يكن يكفـــي لتغطية النفقات. لم أعد إلى كلية الحقوق، على الرغم من جهود بعض الأســـاتذة الذيـــن تآمروا من أجل دفعي إلى الدراسة رغم رفضي لها. لم تكن نقود الجميع تكفي البيت، ولكن الفارق كان كبيراً ومساهماتي لم تكن كافية أبداً وانعدام الأمل كان يصيبني بالإحباط أكثر من نقص المال.

قلت على الغداء في يوم حاسم:

– لـــو كان علينا أن نغرق جميعاً، فإتركوني أنجو حتى أحاول أن أرسل لكم ولو حتى بمجداف.

لذلـــك فإنـــه في الأسبوع الأول من ديسمبر، رحلت مجدداً إلى بارانكيا، بخضوع الجميع، مع الاطمئنان بأن القارب سيعود. أعتقد أن ألفونسو فوينماير تخـــيل مـــن أول نظرة عندما رآني أدخل مكتبنا القديم في الهيرالدو بلا سابق إنذار، لأن كرونيكا كانت قد توقفت، نظر نحوي من أعلى الآلة الكاتبة كما لو كنت شبحا، وصرخ منزعجاً:

– أي شيطان تفعل هنا.

في لحظات قليلة من حياتي قلت شيئاً أقرب إلى الحقيقة من تلك اللحظة:

– أنا أختنق يا أستاذ.

رد بطريقــته المعــروفة عنه دائماً وبالقصيدة الأكثر كولومبية من النشيد الوطني:

– آه، حســن، لحسن الحظ، فإن العالم كله على هذا الحال، كلنا نئن تحت السلاسل.

لم يبد ولو قليلاً من حب الاستطلاع لمعرفة سبب رحلتي، وأعتقد أنها نوع مــن التواصل الذهني الجميل بيننا، لأن كل من كان يسأله عني خلال الأشهر الأخيرة كان يجيبه أنني قد أصل في لحظة لأبقى. وقف من مكتبه سعيداً بينما كــان يــرتدي الجاكيت، لأنني ظهرت صدفة كما لو كنت هبطت من السماء. كــان مــتأخراً نصــف ساعة بسبب موعد شخصي، ولم يكن قد كتب المقالة الافتتاحية لليوم التالي وطلب مني أن انهيها، لم أكد أسأله عن الموضوع حتى أجابني من الممر بكل سرعة وبكل يناعة خاصة بعلاقة صداقتنا:

– اقرأها وستعرف.

في اليوم التالي كانت هناك آلتان للطباعة كل واحدة في مواجهة الأخرى في مكتب الهيرالدو، وأنا كنت أكتب "الزرافة" مرة أخرى، للصفحة نفسها التي كانــت فــيها دائماً، – ولم لا – وبالثمن نفسه، وحسب قواعد الاتفاق الخاص بينـــي وبيــن ألفونســو، وباتفاق أن يكون في المقالات الافتتاحية مقاطع لي ومقــاطع له، وكــان مستحيلاً التفرقة بينها، بعض طلاب الصحافة أو الأدب أرادوا الــتفرقة بينها في الأرشيف ولم يتوصلوا إلى ذلك. عدا في حالة بضعة موضوعات معدودة وليس بالأسلوب ولكن بالمعلومات الثقافية.

في "الرجل الثالث" آلمني خبر موت صديقي اللص الصغير، الذي خرج في إحدى الليالي لممارسة مهنته كالمعتاد، وكل ما عرفناه عنه بلا أي تفاصيل أنهـم أطلقوا عليه النار برصاصة في القلب في أحد البيوت التي كان يسرقها. طالبت شقيقته الكبرى بجثته، كانت الفرد الوحيد الباقي من عائلته، ولم يحضر جنازته سوى نحن وصاحب الحانة.

عـدت إلـى بيت الشقيقات "أفيلا" مرة أخرى، وماريا ديلمار كجارة مرة أخـرى، عـادت لتؤنس وحدة ليالي السيئة في "القط الأسود"، كانت وشقيقتها آليثـيا كما لو كانتا توأماً لتشابه شخصيتيهما ولقدرتهما على إعادة الزمن مرة أخـرى للجـريان عندما نكون معهن، وواصلتا علاقتهما بالمجموعة بطريقة خاصة جداً، كن تدعوننا مرة على الأقل في السنة إلى مائدة لذيذة من الحلوى العربـية التـي كانت تغذي أرواحنا، ونلتقي في منزلهن بشخصيات معروفة خـلال سـهرات فجائية، من كبار الفنانين من أي نوع من أنواع الفن وحتى شعراء صعاليك، أعتقد أنهن كن من تولين مع الأستاذ بدرو فيادا وضع نظاماً لولعـي بالموسـيقى الفوضوي، ووضعاني في مكاني بين جماعتهن السعيدة بالمركز الفني.

أعـتقد اليوم أن بارانكيا منحتني رؤية أفضل عن "الورقة الجافة" فما أن حصلت على مكتب خاص بآلة كاتبة حتى بدأت عملية التصحيح باندفاع مجدد. تجرأت في تلك الأيام على عرض نسخة مقروءة على أعضاء المجموعة مع العلـم بأنهـا لـم تكن كاملة، وتحدثنا عنها أكثر من أي تحذير معروف، ظل ألفونسو يكتب أمامي يومين دون أن يذكر حتى اسمها. في اليوم الثالث، عندما انهينا عملنا مع نهاية المساء، وضع المسودة مفتوحة أمامي على المكتب وقرأ الصـفحات التـي كانت مشاراً إليها بقطع ورقية. أكثر من أن يبدو ناقداً كان باحـثاً عن الأخطاء الإملائية والأسلوبية، كانت إشاراته حقيقية جداً إلى درجة

أنني استخدمتها جميعاً. عدا واحدة اعتقد هو أنها مأخوذة من الشعر، بعد بيان أنها كانت فصلاً واقعياً من طفولتي.

قال ضاحكاً:

– حتى الواقع يخطئ عندما يكون الأدب سيئاً.

كانـــت طريقة خيرمان بارجاس أنه عندما يكون النص جيداً لا يعلق عليه بل يعطيه نظرة مهدئة، وينتهي بوضع علامة تعجب:

– رائع!.

لكنه يظل في الأيام التالية يطلق أفكاراً متناثرة عن الكتاب، تنتهي في أي ليلة بحكم صائب. وإذا لم يكن يرى أن المسودة جيدة، يطلب حضور المؤلف ويقـــول له رأيــــه بصراحة تامة ورقة متناهية، فلا يكون أمام المبتدئ سوى شـــكره من كل قلبه رغم رغبته في البكاء. لم تكن هذه حالتي. ففي اليوم غير المتوقع ألقى خيرمان بتعليق عن مسوداتي أعاد الحياة إلى جسدي.

اخـــتفى ألفـــارو من مقهى جابي دون أن يترك إشارة على أنه على قيد الحـــياة، بعد أسبوع تقريباً عدما لم نكن ننتظره، سد طريقي بسيارته في ممر بوليفار وصرخ فيّ بأعلى صوته:

– اصعد، يا أستاذ، سأنتقم منك لقسوتك.

كانـــت تلك جملته المهدئة، درنا عدة دورات بوسط المركز التجاري بلا اتجـــاه معيـــن وقد احترقنا من الحر الشديد، فيما كان يطلق ألفارو صرخات تحليلـــية عاطفـــية ولكـــن مدهشة عن قراءته، كنت أقاطعه كلما شاهدت أحد معارفي على أحد الأرصفة أزعق فيه بجملة رقيقة أو ساخرة، ثم يواصل هو جملــــه الهائجة، بصوت متموج من الجهد. شعره مشعث وعيناه زائغتان كانتا تـــبدوان كما لو كانتا تنظران إليّ من بين القضبان. انتهيت إلى شرب البيرة

المثلجة في شرفة مقهى لوس المندروس، يحيط بنا مشجعو الجونيور والأسبورتج على الرصيف المقابل، وفي النهاية هجم علينا زحام الهاربين من الإستاد الساخط من التعادل بهدفين مقابل هدفين. وكان حكمه النهائي على مسودتي ألقى به ألفارو من نافذة العربة:

– على أي حال، يا أستاذ، لا زال لديك الكثير من العادية.

وأنا شاكراً تمكنت من أن أصرخ فيه:

– لكنه من الجيد الذي يمارسه فوكنر!.

أنهى هو كل ما لم يقل ولم يذكر ببسمة رائعة:

– لا تكن ابن قحبة.

بعد خمسين عاماً مضت، في كل مرة أتذكر تلك الأمسية، أعود إلى سماع ضحكاته الخاصة التي ترددت كانهمار الحجارة في شارع مشتعل.

أصبح واضحاً أن الثلاثة أعجبتهم الرواية، مع بعض التحفظات الشخصية التي ربما تكون صحيحة، لكنهم لم يقولوا ذلك بوضوح ربما لأنهم كانوا يعرفون أنها أداة سهلة، لم يتحدث أي منهم عن نشرها، وهذا كان أيضاً من طباعهم، لأن المهم بالنسبة لهم هو الكتابة، وما عدا ذلك فهو يخص الناشرين.

أي: كنت مرة أخرى في بارانكايتنا التي اعتدنا عليها دائماً، لكن مصيبتي كانت في هذه المرة أنني لم أكن مستعداً للإبقاء على "الزرافة" لأنها أدت دورها بفرض عدة النجارة اليومية لتعلم الكتابة من الصفر، مع الإصرار على أن أكون كاتباً مختلفاً، وفي كثير من الأحيان لم أكن أستطيع التعامل مع الموضوع، فكنت أغيره بآخر عندما أنتبه إلى أنه لا يزال فضفاضاً، على أي حال، كانت تدريباً أساسياً في تشكيلي ككاتب، مع الوعي مسبقاً بأنها لم تكن أكثر من مادة مريحة للتغذية بلا أي التزام تاريخي.

البحث عن موضوع يومي كان مرارتي اليومية طوال الأشهر الأولى، فلم يكــن لدي وقت لأي شئ آخر: أضيع الوقت في البحث في الصحف الأخرى، كنت أسجل حوارات خاصة، كنت أتوه في خيالات تقلق نومي، إلى أن عادت الحياة الواقعية إليّ. في هذا المجال فإن تجربتي الأكثر سعادة كانت في مساء شاهدت خلاله من نافذة الأتوبيس لافتة على باب أحد البيوت: "سعف جنائزي للبيع".

أول اندفـــاع لي كان أن أطرق الباب بحثاً عن معلومات حول ذلك، لكن خجلـــي تغلب عليّ. لذلك فإن الحياة علمتني أن أحد أسرار الكتابة المفيدة تعلم قراءة حروف الواقع الهيلوغريفية دون الطرق على أي باب للسؤال عن شئ. كـــان هذا يزداد وضوحاً عندما كنت أعيد قراءة الأربعمائة "زرافة" المنشورة فـــي الأعــوام الأخـــيرة، ومقارنتها ببعض النصوص الأدبية التي تسببت في وجودها.

مـــع أعــياد المـــيلاد جاءت إجازات الإدارة العليا للاسبكتادور، من اول المدير العام السيد جابرييل كانو، وكل أبنائه: لويس جابرييل والمدير الإداري: جييرمو، ونائب المدير وقتها: ألفونسو، ونائب المدير الإداري فيدل، والأصغر والمـــتدرب. وجـــاء معهـــم إدواردو ثالامـــيا. أوليسيس، الذي كانت له قيمته الخاصــــة بالنســـبة لي لنشره قصصي ومقالته التي قدمتني، فقد اعتادوا على الاستمتاع بشكل جماعي خلال الأسبوع الأول من العام في منتجع برادو-مار، علـــى بعــد عشرة فراسخ من بارانكيا، حيث يقضون معظم وقتهم في البار، والشـــيء الوحيد الذي اذكره بشكل محدد من تلك الجلبة أن أوليسيس شخصياً كـــان أكـــبر مفاجـــأة في حياتي. كنت أراه كثيراً في بوجوتا، في البداية في الموليـــنو وبعدهـــا بسنوات في الأوتوماتيكو، وأحياناً في جلسات الأستاذ دي جريفي. كنت أذكره بوجهه المستدير وصوته المعدني، الذي توصلت منه إلى

نتيجة أنه ليس سوى سريع الغضب، في الحقيقة كانت تلك شهرتي بين قرائي في المدينة الجامعية، ولذلك فقد تجنبت عدة فرص حتى لا أشوه صورتي التي اخترعــتها لاســتخدامي الشخصــي. أخطأت. فقد كان أحد الأشخاص الأكثر عاطفية بين الذين عرفتهم، رغم أنني أتفهم أنه كان في حاجة إلى مبرر عقلي أو قلبــي خاص. ومادته الإنسانية لا علاقة لها بالسيد رامون فينيس، وألفارو موتيس أو ليون دي جريفي، لكنه يشترك معهم في قدرته على خلق الأستاذية في كل ساعة، والغريب أنه قرأ كل الكتب التي كان يجب قراءتها.

أصبح لأبناء "كانو" الشبان - لويس جابرييل وجييرمو وألفونسو وفيديل- أكــثر من صديق عندما عملت محرراً في الاسبكتادور، وليس من المستحسن تذكر حوار طويل من تلك الحوارات التي كان فيها الجميع ضد الجميع في كل ليالي برادومار، لكن أيضا لا يكون مستحيلا نسيان إصرارهم غير المقبول في مرض الصحافة والأدب القاتل، فقد مارسوا معي طريقتهم كما لو كنت قاصهم الخــاص الــذي اكتشفوه وتبنوه ليكون لهم فقط، لكنني لا أتذكر- مثل كل ما قــيل- أن أحداً منهم طلب أن اعمل معهم. لم أندم على هذا، لأنه في اللحظة الســيئة لم تكن لدي أدنى فكرة عن ماذا سيكون مستقبلي النهائي ولا منحوني الفرصة لاختياره.

تحمــس ألفارو موتيس لحماس آل كانو وعاد إلى بارانكيا عندما كان قد تســلم عملــه كرئيس لمكتب العلاقات العامة في شركة إسو كولومبيا للبترول وحــاول إقناعــي بــالعمل معه في بوجوتا. ولكن مهمته الحقيقية كانت أكثر درامية من هذا: بسبب خطأ مرعب نتج عن قيام المورد المحلي بملء خزانات المطــار ببنزيــن سيارات بدلاً من بنزين الطائرات، مما يجعل من المستحيل على أي طائرة أن تذهب إلى أي مكان، ومهمة موتيس كانت تدارك الخطأ في ســرية تامة قبل الفجر وقبل أن يصل النبأ إلى موظفي المطار أو يتسرب إلى

الصـــحافة. وقـــام بمهمـــته، فقد تم تغيير البنزين في أربع ساعات قضاها في شرب الويسكي مع موظفي المطار المحلي. وكان لدينا الوقت لنتحدث عن كل شـــئ. لكـــن الموضوع المتخيل بالنسبة لي كان أن تقوم دار نشر لوسادا في بوينس أيريس بنشر روايتي التي كنت على وشك إنهائها. كان الفارو موتيس يعـــرف طريقاً مباشراً مع المدير الجديد لدار النشر في بوجوتا، خوليو ثيسار فييجاس، وزير سابق في حكومة البيرو، ولاجئ في كولومبيا من فترة قليلة.

لا أتذكـــر شحنة عاطفية أكثر قوة، فقد كانت دار نشر لوسادا واحدة من أفضل دور النشر في بوينس أيريس، ملأوا الفراغ الذي تركته الحرب الأهلية الأســـبانية، فقد كان ناشروها يغذونا يومياً بالجديد والمفيد ولم يكن لدينا الوقت الكافـــي لقراءة ما نسره. كان موزعوها يصلونا في مواعيدهم المحددة بالكتب التـــي نكلفهم بها وكنا نتلقاها كما لو كانت رسول السعادة. إن مجرد فكرة أن تقـــوم أي مـــنها بنشـــر روايـــة "الورقة الجافة" كانت على وشك أن تصيبني بالانزعاج، فلم أكد أن أودع موتيس في طائرة ممونة بالبنزين الصحيح، حتى جريت إلى الصحيفة لمراجعة موادها بشكل كامل.

خـــلال الأيام التالية تفرغت لمراجعة النص الذي كان يمكن أن يضيع من بيـــن يدي. لم يكن أكثر من مائة وعشرين ورقة بمسافة مضاعفة، لكني قمت بعمـــل الكثير من الإصلاحات والتغييرات والتخليقات، التي لم أعرف أبداً إن كانت أضافت إلى النص أم أساءت إليه، أعاد خيرمان وألفونسو قراءة الآراء الأكـــثر حساســـية وتفضلوا عليّ بعدم تقريعي، خلال هذه الحالة من الغثيان راجعـــت النسخة النهائية وقلبي في يدي واتخذت قراراً جاداً بعدم نشرها. في المســـتقبل، تحول هذا الإحساس إلى مرض، عندما أشعر بالرضاء عن كتاب انتهى، يظل لدي الإحساس القاتل بأنني لا أستطيع أن أكتب أفضل منه.

اشـــتبه ألفارو موتيس في مبرر تأخري، وعاد إلى بارانكيا ليأخذ النسخة الوحيدة النهائية ويرسلها إلى بوينس أيريس دون أن يترك لي المجال لإجراء قـــراءة أخيرة. لم تكن هناك طابعات فوتوكوبي تجارية، ولم يكن أمامي سوى المســـودة الأولـــى المصـــححة على الهوامش وما بين الأسطر بحبر مختلف الألـــوان لتفادي الخلط، ألقيت بها إلى سلة المهملات ولم أستعد جديتي خلال أشهر طويلة تأخرت فيها الإجابة.

في يوم من الأيام سلموني في الهيرالدو رسالة كانت قد فقدت بين أوراق رئـــيس التحرير. كانت تحمل شعار دار نشر لوسادا في بوينس ايريس فتثلج قلبـــي، لكنني تمالكت نفسي حتى لا أفتحها هناك وانتظرت إلى أن أصل إلى ركنـــي الخـــاص. بفضل هذا استطعت أن أواجه وحدي وبلا شهود لخبر أن "الورقـــة الجافة" تم رفضها. لم أكن في حاجة إلى قراءة الأسباب كاملة لأنني شعرت في هذه اللحظة ببرودة الموت.

كانـــت الرســـالة تحمـــل القرار الأعلى للسيد جييرمو دي توري رئيس المجلـــس الاستشاري لدار النشر ويعتمد على مجموعة من المبررات البسيطة التـــي تـــبرر القرار. الشيء الغريب كان الاعتراف النهائي: "يجب الاعتراف بموهـــبة المؤلـــف في الملاحظة كشاعر". إلا أنني كنت لا أزال مذهولاً حتى اليوم من خجلي لمواجهة هذا الموقف.

لـــم أنسخ الرسالة ولم أعرف أبداً أين نصها الأصلي بعد أن مررته على أصحابي خلال أشهر في بارانكيا، الذين بحثوا عن جميع أنواع المبررات في محاولـــة لتعزيتي. للحق أقول إنه عندما حاولت الحصول على نسخة لتوثيق هذه المذكرات، خمسون عاماً بعد ذلك، لم يكن هناك أي أثر لدار نشر لوسادا فـــي بوينس أيريس. ولا أذكر إن كان الخبر قد نشر أم لا، رغم أنني لم أسع مطلقـــاً إلـــى هـــذا، لكنني أعرف أنني احتجت لوقت طويل لاستعادة توازني

وكـــتابة أي رسالة غضب لنشرها دون إذن مني. هذه الرسالة سببت لي ألماً أكبر لأن رد فعلي النهائي كان استغلال أي جزء إيجابي من القرار وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه طبقاً لوجهة نظري ومتابعة المسيرة.

أفضل تشجيع أخذته من رأي خيرمان بارجاس وألفونسو فوينماير وألفارو ثيبيدا، وجدت ألفونسو في داخل السوق العام، حيث اكتشف واحة للقراءة بعيداً عـــن حركة المرور التجارية، استشرته عن ما إذا كان عليّ أن أترك روايتي كمـــا كانـــت أو أحـــاول أن أعيد كتابتها في شكل آخر، لأنني كنت أعتقد أن النصف الثاني يفتقد إلى التركيز عن الأول، استمع إليّ ألفونسو بشيء من عدم الصبر ثم أصدر حكمه، قال لي في النهاية كمعلم حقيقي::

– انظر، يا أستاذ، جيبرمو دي توري محترم جداً كما يعتقد هو عن نفسه، لكني لا أعتقد أنه مطلع على الرواية المعاصرة.

فـــي أحاديـــث عابرة أخرى في تلك الأيام كان عزائي أن جيبرمو دي لا تـــوري كانـــت له سابقة من قبل، فقد رفض كتاب "الإقامة في الأرض" لبابلو نيرودا عام ١٩٢٧. ويعتقد ألفونسو فوينماير أن مصير روايتي كان يمكن أن يكون أفضل لو أن من قرأها كان خورخي لويس بورخيس، من ناحية أخرى كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ بالنسبة لي لو أن الرفض جاء منه.

أنهى ألفونسو الحديث:

–لا تهـــتم، روايـــتك جـــيدة كما قلنا نحن، وكل ما هو عليك الآن هو أن تواصل الكتابة.

أما خيرمان – كان أميناً مع نفسه وطريقته– لم يحاول أن يزايد ويعتقد أن الرواية لم تكن سيئة إلى الحد الذي يمكن معه رفض نشرها في قارة تعاني فيه الـــرواية من أزمة، وليست ممتازة بحيث نعتبرها فضيحة دولية، لأنه في هذه

الحالـــة ســـيكون المؤلف المبتدئ المجهول هو الخاسر الوحيد. لخص ألفارو ثيبيدا رأيه في جييرمو دي لا توري بجملة من جمله الشهيرة:

– أعتقد أن الأسبان قساة.

عـــندما انتبهـــت إلـــى أننـــي لم أكن أملك نسخة أخرى من الرواية، فقد أخبرتني دار النشر عن طريق شخص ثالث أو رابع أن من قواعدها عدم رد الأصول إلى أصحابها. لحسن الحظ أن خوليو ثيسار بييجاس كان قد صورها قـــبل إرسال نسختي إلى بوينس أيريس، فأرسلها لي. بدأت في حينه تصحيحاً جديـــداً تنفـــيذاً لنصائح الأصدقاء. حذفت فصلاً طويلاً تتأمل فيه البطلة خلال هطول الأمطار من الممر، وحولته بعد ذلك إلى قصة "مونولوج إيسابيل وهي تـــرى هطول الأمطار في ماكوندو". وحذفت حواراً للجد الكولونيل أوريليانو بويـــنديا قبـــيل المذبحـــة بقليل، إضافة إلى ثلاثين صفحة كانت تعرقل شكل ومحتوى هيكل الرواية. بعد حوالي عشرين سنة، عندما اعتقدت أنني نسيتها، فإن أجزاء من تلك الفصول ساعدتني على احتمال الذكريات عندما كنت أكتب "مائة عام من العزلة".

كنـــت على وشك التغلب على الأزمة عندما نشروا خبراً يقول إن الرواية الكولومبية التي اختارتها دار نشر لوسادا لنشرها بدلاً من روايتي هي "المسيح مولياً ظهره" لإدواردو كابايرو كالدرون، لقد كان خطأً أو تزييفاً بقصد شرير، لأن الأمـــر لم يكن متعلقاً بمسابقة بل ببرنامج دار نشر لوسادا لدخول السوق الكولومبي بمؤلفين كولومبيين، وروايتي لم ترفض في المسابقة بل أن جييرمو دي لا توري لم يعتبرها صالحة للنشر.

كانت الفاجعة مضاعفة بأكثر مما اعترفت به حينه، وكانت لدي الشجاعة لـــتحملها دون إقناع نفسي. وهكذا ذهبت لرؤية صديق طفولتي لويس كارميلو كوريـــا في مزرعة اشبيلية بمنطقة الموز – على بعد عدة فراسخ من كاتاكا–

حيث كان يعمل في تلك السنوات مراقباً ومفتشاً ضرائبياً، قضينا يومين نستعيد فيها ذكريات طفولتنا معاً كما كنا نفعل دائماً، ذاكرته وتوقعاته وصراحته كانت كاشفة لي لدرجة أنها سببت لي رعباً حقيقياً. عندما كنا نتحدث، كان هو يصلح بعـض متطلبات البيت بمعداته اليدوية، وأنا كنت أستمع إليه ممدداً في سرير معلق مستمتعاً بنسيم المزارع. نينا سانشيث، زوجته، كانت تصحح لنا ترهاتنا وأحداثاً نسيناها، وهي تقهقه بالمطبخ. في النهاية، أثناء نزهة بشوارع آراكاتاكا الخالية، فهمت إلى أي نقطة استعدت عافية حماسي ولم يعد لدي أدنى شك في أن "الورقة الجافة" - مرفوضة أم لا- كانت الكتاب الذي قررت أن أكتبه بعد رحلتي مع أمي.

متشـجعاً بـتلك الـتجربة ذهبـت للبحث عن رفائيل إسكالونا في جنته بفـيادوبار، محاولاً الهروب من عالمي حتى الجذور. لم يفاجئني، لأن كل ما كنت أعثر عليه، وكل ما كان يحدث لي، وكل الناس الذين التقيتهم تبين كما لو كنـت قد عشت أنا ذلك وليس أناس آخرين، وليس في حياة أخرى بل في هذه التي كنت أعيشها. بعد ذلك في إحدى رحلاتي الكثيرة تعرفت على الكولونيل كليمنتي إسكالونا، والد رافائيل، الذي أدهشني منذ اليوم الأول بوقاره وطريقة تعاملـه كرب عائلة على الطريقة القديمة. كان نحيفاً ومستقيماً كجذع شجرة، جلـده أملـس وعظامـه قويه، ووقاره ليس فيه شك. منذ شبابي المبكر كنت مطـارداً برعـب واحترام جدي الذي أنتظر بوقاره معاش التقاعد حتى آخر أيامه. إلا أنه بعد أربع سنوات، عندما كتبت الكتاب في الفندق الباريسي القديم، فإن الصورة التي كانت في ذاكرتي دائماً ليست صورة جدي، بل كانت صورة السيد كليمنتي إسكالونا، كما لو كان تناسخاً فيزيقياً للكولونيل الذي لم يجد من يكاتبه.

عرفــت مــن رفائيل اسكالونا أن مانويل ثاباتا أولفايي يقيم ويعمل طبيباً للفقــراء في قرية "لاباث"، على بعد كيلومترات قليلة من فيادوبار. فذهبنا إلى هــناك، وصــلنا مع حلول المساء، وكان هناك شئ في الهواء يكاد يمنع عني الهواء. فذكر لي ثاباتا وإسكالونا أنه قبل عشرين يوماً فقط كانت القرية ضحية هجــوم بوليسيي بذر الرعب في المنطقة كلها لفرض السيطرة الرسمية. كانت ليلة مرعبة، قتلوا بلا تمييز، وأحرقوا خمسة عشر بيتاً.

لم نعرف بحقيقة ما حدث بسبب الرقابة الصارمة. ومع ذلك لم تكن لدي الفرصـــة لأتخيله، خوان لوبث، أفضل موسيقي في المنطقة، غادر القرية منذ تلك الليلة السوداء. وبابلو، شقيقه الأصغر، طلبنا منه أن يعزف لنا في منزله، فقال لنا ببساطة:

– لن أغن أبداً بعد هذه اللحظة.

عــندها عرفــنا أنــه لــيس هــو فقط، بل جميع موسيقيي القرية علقوا أكورديوناتهم وطبولهم ولن يعودوا إلى الغناء حداداً على أمواتهم. كل ذلك كان مفهوماً، وحتى إسكالونا نفسه، الذي كان أستاذا للكثيرين منهم، وثاباتا أوليفيي، الذي أصبح طبيب الجميع، لم يستطع إجبار أحد على الغناء.

أمـــام إصرارنا، حضر سكان القرية لعرض مبرراتهم، لكنهم في أعماق أنفســـهم كـــانوا يشعرون أن الحداد لا يمكن أن يستمر أكثر من ذلك. "كما لو كانت القرية قد ماتت مع الموتى"، قالت امرأة كانت تضع وردة حمراء خلف أذنهـــا، وأيدهـــا الناس. لحظتها شعر بابلو لوبث أنه مصرح له بالغناء لخنق ألمه، ودون أن ينطق بكلمة واحدة دخل البيت وخرج بأكورديون وغنى كما لم يغــن مـــن قبل، بينما كان يغني بدأ الموسيقيون الآخرون يأتون. وفتح أحدهم الحانـــة التي كانت مقابلنا وقدم الكؤوس على حسابه الخاص. ففتحت الدكاكين الأخرى أبوابها على مصراعيها بعد شهر من الحداد، وأُضيئت الأنوار، وغنينا

جميعاً. بعد نصف ساعة كانت القرية كلها تغني، وخرج أول سكران منذ شهر إلـــى الســـاحة الخالية وبدأ يغني بصوته أغنية لاسكالونا، تكريماً له لأنه أعاد الحياة إلى القرية.

لحســـن الحظ، فإن الحياة تتواصل في بقية العالم. بعد شهرين من رفض أصـــول روايتـــي تعرفت على خوليو ثيسار بيبجاس، كان قد ترك دار نشر لوســـادا، وعينوه ممثلاً لدار نشر جونثالث بورتو في كولومبيا، كانوا يبيعون الموسوعات والكتب العلمية والتقنية بالتقسيط. كان بيبجاس الرجل الأكثر طولاً والأكـــثر قـــوة والأكـــثر وداً في الحياة الواقعية، مستهلك لا يبارى للويسكي الثميـــن، مـــتحدث لا يمكن تلافيه وقاص صالونات. في ليلة أول لقاء لنا في الجناح الرئاسي لفندق البرادو خرجت محملاً بحقيبة بائع كتب مسافر مملوءة بعيـــنات مـــن الموسوعات المرسومة والكتب الطبية وكتب القانون والهندسة الصـــادرة عـــن دار نشـــر جونثالث بورتو. بعد كأس الويسكي الثاني قبل أن يحولنـــي إلـــى مـــوزع كتـــب بالتقسيط في مقاطعة "باديا"، من فيادوبار إلى جواخيرا. مكاسبي كانت عشرين بالمائة مقدماً، يمكنها أن تسمح لي بالحياة بلا خوف بعد دفع جميع مصروفاتي، بما فيها الفندق.

كانـــت هذه الرحلة التي جعلتها أنا شهيرة بسبب نقص خبرتي وعدم تبين أهدافي بوضوح زمني، الأسطورة أنني خططت للبحث عن جذوري في أرض أجـــدادي، مـــتخذاً الطـــريق الرومانتيكي الذي سارت عليه أمي لإنقاذ عامل تلغراف آراكاتاكا. في الحقيقة فإن رحلتي لم تكن واحدة بل رحلتين قصيرتين ومشوشتين.

في الرحلة الثانية عدت فقط إلى القرى المحيطة بفيادوبار. عندما وصلت إلى هناك، بالطبع كنت مخططاً لمواصلة الطريق حتى فيلا على الطريق نفسه الـــذي سلكته أمي العاشقة، لكني وصلت إلى ماناوري دي لا سيرا، ولا باث،

وفـــيانويفا، علـــى بعد فراسخ قليلة من فيادوبار. لم أكن أعرف وقتها لا سان خـــوان ديـــل ثيسار ولا بارانكاس، التي تزوج فيها جدي وكانت مسقط رأس أمـــي، وحيـــث الكولونيل نيكولاس ماركيز قتل ميدرادو باتشيكو، ولم أعرف ريواتشـــا، أصل كل العائلة، حتى عام ١٩٨٤، عندما أرسل الرئيس بيليساريو بيـــتانكو مـــن بوجوتـــا مجموعة من الأصدقاء المدعوين لافتتاح مناجم حديد ثـــيريخون. كانـــت رحلتي الأولى إلى جواخيرا الأسطورية التي تخيلتها في طفولتـــي مـــرات عديدة دون أن أعرفها، لكن هذا ليس لزيف ذكرياتي ولكن بســـبب الهنود الذين اشتراهم جدي بمائة بيزو لكل واحد منهم للخدمة في بيت آراكاتاكا. كانت أكبر مفاجأة لي، بالطبع، رؤيتي الأولى لريواتشا، مدينة الرمل والملـــح التـــي ولـــد فـــيها أول جذر للعائلة، حيث شاهد جدي عذراء لوس ريمـــيديوس تطفـــئ فـــرناً بـــنفخ الهواء البارد عندما كان الخبز على وشك الاحـــتراق، وحيث مارس جدي حروبه وعانى السجن لارتكابه جريمة حب، وحيث بدأت أنا كنطفة في شعر عسل أبوي.

في فيادوبار لم يكن لدي الوقت لبيع الكتب، سكنت في فندق ويلكوم، بيت كولونيالـــي جمـــيل بالقرب من الساحة الكبيرة، كانت فيه أشجار نخيل بطول الفناء الريفي بطاولات وبار وأسِرَة كاريبية معلقة في حلقات. فيكتور كوهين، صاحب الفندق، كان يراقب من مكمنه البيت كله، بطريقته الأخلاقية التي تهدد الغرباء، فقد كان أيضاً بيروتانياً لغوياً فكان يقرأ ثربانتيس من الذاكرة، وكان يشـــك في أخلاقيات جارثيا لوركا. أقمت معه علاقات صداقة لحفظه أشعار أندريـــس بـــيو، وحفظه أيضاً الرومانتيكيين الكولومبيين، ولم نكن على وفاق لرفضـــه تحطيم القواعد الأخلاقية لمناخ الفندق. بدا كل هذا بطريقة سهلة جداً لأنـــه كـــان الصديق القديم لعمي خوان دي ديوس وكان سعيداً جداً باستعادة ذكرياته معه.

كنـت أقـرأ خـلال الساعات الكثيرة التي كنت لا أعمل فيها مستقلياً في سرير معلق تحت حر الظهر. خلال أيام الجوع قرأت في كتب الجراحة وحتى نصوص تعليم المحاسبة دون أن أفكر في أنها قد تنفعني في مغامرتي ككاتب. كـان العمـل وقتياً تقريباً، لأن معظم الزبائن كانوا يمرون بطريقة أو أخرى بفناء آل أجواران ولوس كوتيس، وكان يكفيني زيارة واحدة تطول حتى ساعة تناول الغداء بحجة أشغال عائلية. بعضهم كان يوقع على التعاقد دون أن يقرأه ليكون مع العائلة على موعد الغداء تحت ظلال الأكورديون، ما بين فيادوبار ولا بـاث اسـتطعت تخـيل أكبر قدر ممكن خلال أسبوع واحد، وعدت إلى بارانكيا بحماس لأنه المكان الوحيد في العالم الذي كنت أفهمه.

فـي ١٣ يونيو في ساعة مبكرة كنت في الأتوبيس في طريقي لا أعرف إلـى أيـن عـندما علمـت أن القوات المسلحة تولت السلطة في بوجوتا بعد الفوضـى التي عمت الحكومة والبلاد كلها. في ٦ سبتمبر للعام السابق قامت جماعـة محافظـة يدعمها البوليس بملابسه الرسمية فأحرقوا مباني صحيفتي التيمـبو والاسـبكتادور بمديـنة بوجوتا، الصحيفتان الأكثر أهمية في البلاد، وهاجموا مقار إقامة الرئيس السابق ألفونسو لوبث بمواريخو وكارلوس بيراس ريستريبو، رئيس الحزب الليبرالي. وهذا الأخير، المعروف عنه بأنه سياسي عنـيد، وصل إلى حد تبادل إطلاق النار مع المهاجمين، لكن أُجبر في النهاية علـى الهـرب عـبر سطح البيت المجاور. أصبح العنف الرسمي الذي كان يسيطر على البلاد منذ ٩ أبريل غير محتمل.

إلـى فجـر يـوم ١٣ يونيو، عندما قام الجنرال جوستافو روخاس بينيا بإخراج القائم بأعمال الرئيس روبرتو أوردانيتا أربيلايث من القصر الرئاسي، فحاول الرئيس الفعلي لاوريانو جوميث تولي السلطة من كرسيه المتحرك وأن

يقـــوم بانقلاب ضد نفسه، وتولي الحكم للخمسة عشر شهراً التي بقيت له طبقاً للدستور. لكن روخاس بينيا وقيادة الجيش العليا جاءوا إلى السلطة ليبقوا.

الدعـــم الوطنـــي كـــان سريعاً وجماعياً خلال الجمعية العامة التي منحت الانقـــلاب شرعيته. وتسلم الجنرال روخاس بينيا السلطات للفترة المتبقية من الرئاسة وحتى أغسطس للعام التالي، أما لاوريانو جوميث فقد سافر مع أسرته إلـــى بنـــي دورم على الشاطئ الإسباني، تاركاً من ورائه الأمل في أن زمنه العنـــيف قد ولى. نادى الزعماء الليبراليون بالوحدة الوطنية، وكانت الصورة الأكثر تعبيراً التي نشرتها الصحف في الأيام التالية لليبراليين يتقدمون مغنين أغنية العرس تحت شرفة القصر الرئاسي. تقدم هذه المظاهرة روبرتو جارثيا بينيا مدير التيمبو وأحد أهم معارضي النظام المنهار.

على أية حال، فإن الصورة الأكثر إثارة في تلك الأيام طوابير المحاربين الليبراليـــن وهـــم يســـلمون أسلحتهم في السهول الشرقية، حيث كان يقودهم جوادالوبـــي ســـالثيدو، الذي كانت صورته كلص مطارد قد حفرت مكانها في أعماق قلوب الكولومبيين ضحايا العنف الرسمي. كان جيلاً جديداً من المقاتلين ضـــد الـــنظام المحافظ، ينتمون بطريقة أو أخرى إلى بقايا حرب الألف يوم، كانت لهم علاقات سرية بالزعماء الليبراليين.

كان على رأسهم جوادالوبي سالثيدو الذي نشرت له صورة أسطورية على جميع مستويات البلاد. ربما لهذا - بعد سبع سنوات من تمرده- اغتالته قوات الشـــرطة فـــي مكـــان ما من بوجوتا، لم يتم الإعلان عنه أبداً ولا تم إعلان ملابسات اغتياله.

التاريخ الرسمي ٦ يونيو ١٩٧٧، والجسد المسجى في حفل جنائزي مهيب في قبو بالمقبرة المركزية في بوجوتا وبحضور عدد من السياسيين المعروفين. فقـــد حـــافظ جوادالوبي سالثيدو من معسكراته الحربية على علاقات ليس فقط

سياســية بل واجتماعية مع الزعماء الليبراليين المطاردين. إلا أنه كانت هناك على الأقل ثماني روايات مختلفة عن موته، وبعضها لا يصدق، وهناك من لا يزال يتساءل عن ما إذا كانت هذه الجثة جثته، وإن كان حقيقة تلك الجثة التي تم وضعها في المقبرة له.

في ظل هذه الأحوال بدأت رحلتي الثانية إلى المقاطعة، بعد أن أكدت مع بييجاس أن كل شئ منتظم، تماماً كالمرة السابقة، قمت بعمليات بيع سريعة في فــيادوبار مع زبائن لديهم قناعة مسبقة. وذهبت مع رفائيل إسكالونا وبانتشو كوتــيس إلى فيانويفا، ولا باث، وباتيال، وماناوري دي لا سيرا لزيارة أطباء بيطريين ومهندسين زراعيين. بعضهم تحدث مع مشترين خلال رحلتي السابقة وكانوا ينتظرون بطلبات شراء خاصة. وأي ساعة كانت صالحة لإقامة الحفل مــع الزبائن أنفسهم، ونظل حتى الصباح نغني مع الأكورديونات الكبرى دون إيقــاف وعــود أو دفــع قروض عاجلة لأن الحياة اليومية تتواصل برتابتها الطبيعية على نار التسلية. كنا في فيانويفا مع عازف أكورديون وآخران يدقان علــى الصــندوق يــبدو أنهما كانا حفيدي أحد المغنين الذين كنا نسمعهم في طفولتــنا في آراكاتاكا. وبهذه الطريقة فإن ما كان إدماناً طفولياً انكشف خلال هذه الرحلة كمهنة غير متوقعة رافقتني إلى الأبد.

تعرفــت في هذه المرة وفي قلب الجبل على قرية رائعة وهادئة وتاريخية في العائلة لأنهم أخذوا أمي إلى هناك لقضاء بعض الوقت للنقاهة عندما كانت طفلة، لإصابتها بحمى لم تقبل أي نوع من أنواع الدواء. كنت سمعت الحديث عن ماناوري كثيراً وعن أمسياتها في مايو وصومها الطبي لدرجة أنني عندما كنت فيها للمرة الأولى تذكرتها كما لو كنت تعرفت عليها في حياتي السابقة.

كــنا نشــرب البيرة المثلجة في الكانتين الوحيد للقرية عندما اقترب من طاولتــنا رجــل كان يبدو كشجرة، بملابس الركوب وحزام مسدسات حرب.

قدمـــنا رفائيل إسكالونا لبعضنا، وبقي هو ناظراً في عيني بينما كانت يدي في يده، وسألني:

– هل لك علاقة بالكولونيل نيكولاس ماركيز؟.

قلت له:

– أنا حفيده.

فقال لي:

– إذن، جدك قتل جدي.

أي أنه كان حفيد ميدرادو باتشيكو، الرجل الذي قتله جدي في مزرعة ليد، لـــم يكن لدي الوقت لأصاب بالرعب، لأنه قالها بطريقة حميمة، كما لو كانت أيضـــاً طريقة تعبر عن القرابة، ظللنا في السهرة معه خلال ثلاثة أيام وثلاث لـــيال فـــي شاحنته ذات الأرضيتين، كنا نشرب البراندي الساخن ونأكل لحم الماعـــز المطـــبوخ فـــي ذكرى الجدين، مضت أيام عدة قبل أن يعترف لي بالحقـــيقة: اتفق مع إسكالونا لإثارة الرعب في قلبي، ولكنه لم يكن قادراً على الاســـتمرار فـــي نكتة الجدين الميتين. كان اسمه في الحقيقة خوسيه برودنثيو أجيلار، وكان يمارس التهريب كمهنة وفن، وله قلب طيب. في ذكراه عمدت اســـمه وأطلقته على منافس خوسيه أركاديو بويندا الذي قتله بطعنة حربة في حظيرة من رواية مائة عام من العزلة.

السيئ في هذه الرحلة ذات الذكريات، أنه في نهايتها لم تكن الكتب المباعة قـــد وصلت والتي بدونها ما كان يمكنني أن أحصل مقدم ثمنها، بقيت بلا أي ســـنتيم وعـــداد الفندق كان أسرع من ليالي الساهرة. وبدأ فيكتور كوهين يفقد صـــبره القلـــيل الذي بقي، والشيء الوحيد الذي أعاد لي بعض السحر كانت قصص الحب التي أقمتها في "حق الميلاد" للسيد فيليكس كايجنيت. والتي أعاد

رواجها الشعبي الحيوية إلى رحلاتي مع الأدب البكائي. والقراءة غير المتوقعة لـرواية "العجوز والبحر" لهيمنجواي، ثم جاءت مجلة "لايف باللغة الإسبانية" بشكل فجائي لتعيد إصلاح ما فسد.

مع البريد نفسه وصلت شحنة كتب كان يجب تسليمها لأصحابها وتحصيل مقـدم ثمـنها، دفعوا جميعاً في مواعيدهم، لكني كنت مديناً للفندق بأكثر من ضـعف مـا كسبته، وحذرني بييجاس أنني لن أحصل على سنتيم واحد قبل مرور ثلاثة أسابيع أخرى. تحدثت مع فيكتور كوهين بجدية وقبل هو إيصالاً بضـامن. وبمـا أن إسـكالونا ومجموعته لم يكونوا في متناول اليد، فقد وقع صـديق علـى الإيصال كرد جميل دون التزام، فقط لأن قصة أعجبته كانت منشورة في كرونيكا، إلا أنه عندما حانت ساعة الجد لم يتطوع لدفع الدين.

تحـول الإيصـال إلى ورقة تاريخية فيما بعد عندما كان فيكتور كوهين يعرضـه أمام زائريه، ليس كوثيقة اتهام بل كجائزة. آخر مرة رأيته فيها كان عمره حوالي المائة عام، وكان لا يزال متورداً وحاضر البديهة، وسخريته لا تـزال علـى حالها. خلال تعميد ابن صديقتي أراوخونوجيرا، الذي كنت أنا عرابه، شاهدت الإيصال غير المدفوع بعد خمسين سنة تقريباً. عرضه فيكتور كوهيـن علـى جمـيع من أرادوا رؤيته، بطريقته الساحرة المعتادة. فاجأتني عنايته بالوثيقة المكتوبة بخط يده، وقوة الرغبة في الدفع التي يمكن تبينها من توقيعـي. احتفل فيكتور بالإيصال في تلك الليلة بالرقص برشاقة كما لم يفعل أحد من قبل. وفي النهاية، شكرني كثير من الأصدقاء على عدم دفع الدين في موعده لأن هذا الإيصال كان سبباً في تلك الليلة التي لا تُنسى.

سحر جاذبية الدكتور بييجاس لا تزال تقدم المزيد، ولكن ليس بالكتب، إذ لـيس من الممكن نسيان أستاذيته في محاورة المقترضين والسهولة التي كانوا يتفهمون بها مبرراته حتى لا يدفع في الوقت المحدد. أكثر موضوعاته جاذبية

في ذلك الوقت له علاقة برواية "أغلقوا الطرق" للكاتبة البارانكية أولجا سالثيدو ميديـنا، التـي تسببت في حركة غير عادية اجتماعية أكثر منها أدبية، لكنها كانت سابقة في عهدها في المنطقة. كانت مدعومة بالنجاح الذي حققته رواية "الحق في الميلاد" التي تابعتها باهتمام متزايد خلال شهر، فكرت وقتها أننا كنا أمام حالة شعبية لم نستطع نحن الكُتّاب تجاهلها. دون أن نذكر حتى الدين الذي نديـن بـه لبييجاس عند عودتي من فيادوبار، وعرض عليّ هو أن أكتب لها إعداداً ماكراً لزيادة روادها المتعلقين بدراما فيلكس ب. كايجنت.

قمـت بعمل الإعداد ليذاع في الإذاعة خلال أسبوعين أغلقت فيهما الباب علـى نفسي، فاكتشفت خلالهما أكثر مما كنت أتوقع، باتخاذ حوارات ودرجة تركـيز ومواقف وأزمنة سريعة لا تشبه شيئاً كتبته من قبل. لعدم خبرتي في الحـوارات – التي لا تزال بعيداً عن أن تكون من نقاط قوتي– كانت التجربة قيمة. مع ذلك، فأنا لم أشكو من هذا، لأن بييجاس منحني مقدماً ووعدني بإلغاء الدين السابق من أول دخل من الكتابة الإذاعية.

تم التسجيل في إذاعة أتلانتكو، بأفضل توزيع إقليمي ممكن وأخرجها بلا خـبرة ولا إلهـام بيـيجاس نفسه. وكراوي عرضوا عليه خيرمان بارجاس، باعتـباره مذيعاً مختلفاً بصوته وحسمه ورنته في الإذاعة المحلية. أول مفاجأة كبيرة كانت أن خيرمان قبل العرض، والثانية أنه مع التجربة الأولى رأى أنه لـيس الأفضـل. فقـرر بييجاس أن يتولى بنفسه دور الراوي بنغمة صوته الإنديزية فانتهى إلى تشويه تلك المغامرة غير المحسوبة.

انتهت الرواية الإذاعية دون نتائج إيجابية تذكر، ولكنها كانت تجربة رائعة لتطلعاتـي التـي لا تنتهي لممارسة أي نوعية من الكتابة. حضرت التسجيل، الـذي تم مباشرة على أسطوانة بإبرة حفارة تترك ذرات سوداء ومضيئة، لا تكـاد ترى، كما لو كانت بصل ملائكة، كنت آخذ كل ليلة حفنة أوزعها على

أصـــدقائي كهدايـــا غريبة، ما بين الأخطاء والتقطيع واللصقات التي لا يمكن حكـــيها، أذيعـــت الرواية الإذاعية في موعدها من خلال حفل كبير من إبداع خبير في الدعاية.

لـــم يســـتطع أحـــد أن يختلق مبرراً ليقول لي إن الرواية أعجبته، لكني حصلت على جمهور كبير ودعاية كافية لإنقاذ ماء الوجه. بالنسبة لي، لحسن الحـــظ، فقـــد حصلت على بريق في نوع أعتقد أنه منطلق إلى آفاق واسعة. إعجابي بفيلكس ب. كايجنت وصل إلى حد أن طلبت منه مقابلة خاصة بعدها بعشـــر ســـنوات، عندما عشت بضعة أشهر في هافانا كمحرر للوكالة الكوبية "برنســـا لاتينا". ولكن على الرغم من كل أنواع المبررات فقد رفض تماماً أن نلتقـــي، وفقط بقي لي منه درس رائع قرأته في إحدى مقابلاته الصحافية قال: "الناس تريد أن تبكي دائماً: والشيء الوحيد الذي أفعله هو أن أقدم لهم السبب"، سحر بييجاس، من ناحيته، لم يتقدم بأكثر من هذا. فقد تعقدت الأمور أيضاً مع دار نشـــر جونثالـــث بورتو – كما حدث من قبل مع لوسادا– ولم تكن هناك طريقة لتصفية حساباتنا الأخيرة، لأنه ترك أحلام عظمته وعاد إلى بلاده.

أخـــرج لـــي ألفـــارو ثيبيدا من درجه فكرة قديمة لتحويل الناسيونال إلى صـــحيفة حديـــثة علـــى الطريقة التي تعلمها في الولايات المتحدة، حتى هذه اللحظة بعيداً عن المشاركة في كرونيكا والتي كانت أدبية، أتيحت له الفرصة فقط لممارسة الصحافة المضغوطة في جامعة كولومبيا والقصاصات التي كان يرســـلها مـــن ميسوري. في النهاية، في عام ١٩٥٣ اتصل بصديقنا خوليان دافـــيس اتشانديا، الذي كان أول رئيس لألفارو ليتولى إدارة الناسيونال، وكان ألفارو نفسه قدم له مشروعات كبرى بمجرد عودته من نيويورك، لكن ما أن حصـــل على المال حتى اتصل بي كي أساعده دون درجة معينة ولا واجبات

محـــددة. ولكـــن مع أول راتب مقدم استطعت أن أعيش دون أن أحصل عليه كاملاً.

كانـــت مغامـــرة قاتلـــة، وضع ألفارو الخطة كاملة بنماذج من الولايات المـــتحدة. كمـــا الله في عليائه، وبقي لدافيس اتشانديا، بطل الصحافة المحلية المثيرة، الرجل الأكثر غموضاً من بين من عرفتهم في حياتي. طيب بالميلاد وأكـــثر حساســـية وتفهماً، وباقي هيئة التحرير كانوا من كبار الصحافيين لهم حصيلة كبيرة، كلهم أصدقاء فيما بينهم، وزملاء خلال سنوات طويلة، نظرياً، لكل منهم دائرة نشاطه المحددة. ولكن بعيداً عن تلك الدوائر لم يعرف أحد أبداً من فعل ماذا، ليبقى الجهد التقني في النهاية دون أن يتمكن من تخطي الخطوة الأولى. الأعداد القليلة التي تمكنت من الصدور كانت نتيجة عمل بطولي ولكن لـــم يعـــرف أحد من كان وراءها. ساعة الدخول إلى الصحافة كانت الألواح ســـهلة، وكانـــت المواد العاجلة تختفي فيما نصاب نحن بالجنون. لا أذكر أن الصحيفة خرجت في موعدها ولا مرة واحدة، ودون نواقص، بسبب الشياطين الســـاكنة في الورش، لم يعرف أحد أبداً ما حدث، والمبررات التي قيلت ربما كانت الأقل شراً: بعض القدامى المحنكين لم يحتملوا المناخ المجدد فتضامنوا مع زملائهم وتمكنوا من إفشال المشروع.

ذهـــب ألفارو دون استئذان، وأنا كان لدي عقد عمل كان يمكنه أن يكون ضـــماناً فـــي الحـــالات العادية ولكنه في هذه الحالة كان كما لو كان قميص الســـجن، كنت متشوقاً لعمل شئ في الوقت الضائع فحاولت تركيب الماكينات بـــأي شئ يصلح للنشر، نشرت مقاطع من "البيت"، وسخرية فوكنر في "ضوء فـــي أغســـطس"، ومطـــر الطيور الميتة لناثنييل هاوثورت، وبعض القصص البوليســـية التي كانت تصيبني بالغثيان لتكرارها، وبعض الحكايات التي تبقت لـــي من رحلتي مع أمي إلى آراكاتاكا، تركتها تنساب على هواها في مكتبي

العقيم، حيث لم يبق لي أكثر من الطاولة والآلة الكاتبة لأكتب حتى آخر نفس، وحتى اصل إلى العنوان النهائي: "يوم بعد السبت". قصة أخرى من القصص القليلة التي كنت راضياً عنها من أول مسودة.

هجـــم عليّ في الناسيونال بائع ساعات نبضية متجول. لم تكن لدي ساعة أبـــداً لأسباب واضحة خلال تلك السنوات، والساعة التي عرضها عليّ كانت باهظة الثمن وضخمة، اعترف لي البائع أنه عضو في الحزب الشيوعي وأنه مكلف ببيع الساعات كطعم لاصطياد أعضاء جدد.

وقال لي:

– تماماً كشراء الثورة بالتقسيط.

أجبته بأدب:

– الفارق أنك تعطيني الساعة على الفور أما الثورة فلا.

لم يقبل البائع النكتة وانتهى ببيعي ساعة أكثر رخصاً، اشتريتها ترضية له وبـــنظام التقسيط المريح وكان يأتي بنفسه لتحصيلها كل شهر. كانت الساعة الأولـــى التـــي حصلت عليها، كانت مضبوطة ولا أزال أحتفظ بها كأثر لتلك الأيام.

عاد ألفارو موتيس في تلك الأيام بخبر رائع وميزانية لإقامة مؤسسة ثقافية والظهـــور القريـــب لمجلة "لالمبرا"، المتحدث الأدبي باسمها، وإزاء طلبه أن أتعاون معه عرضت عليه مشروعاً عاجلاً: كتابة أسطورة "لا سييربي". فكرت أنـــه إذا كنـــت أريد أن أحكيها في يوم من الأيام فلا يجب أن يكون ذلك عن طـــريق أي رؤيـــة ضيقة بل استعادتها من الخيال الجمعي كما كانت: حقيقة جغرافية تاريخية. أي –أخيراً– تحقيق صحافي كبير.

قال لي موتيس:

– افعل ما تريد، ولكن أكتبه بالنبرة والمناخ المناسب الذي نبحث عنه للمجلة.

وعدته أن أقدمه له بعد أسبوعين، وقبل أن يذهب اتصل بمكتبه في بوجوتا وأمر بدفع مبلغ مقدماً، وصل الشيك بالبريد بعد أسبوع وتركني مقطوع الأنفاس، بل وأكثر من هذا أنه عندما ذهبت لتحصيله فإن مظهري أقلق صراف البنك، فأخذوني إلى مكتب أعلى، حيث التقيت المدير اللطيف جداً أكثر من اللازم، وسألني أين أعمل، فقلت في الهيرالدو كما تعودت وإن كنت في هذه اللحظة لا أعمل، فحص المدير الشيك في مكتبه، ونظر إليه بشيء من الشك المهني وأصدر حكمه في النهاية:

– إنه شيك لا غبار عليه.

في المساء نفسه، بينما بدأت في كتابة "لاسييربي"، طلبوني لمكالمة في البنك، ففكرت أن الشيك مشكوك فيه بأي من المبررات التي لا تُحصى ولا تُعد في كولومبيا. ما كدت أبتلع ريقي حتى قام موظف البنك على الطريقة الإندينية اللعينة، بتقديم اعتذاراته بأنه لم يكن يعرف أن الصعلوك الذي جاء لتحصيل الشيك ليس سوى مؤلف "الزرافة".

عاد مونتيس مرة أخرى مع نهاية العام، فما كاد يتذوق الإفطار ليساعدني على التفكير بطريقة ثابتة وللأبد حتى أستريح، فإذا كانت الحلوى أفضل فقد أعلن لآل كانو أنني مستعد للعمل في الاسبكتادور، برغم أن فكرة الذهاب إلى بوجوتا كنت تقلقني، لكن ألفارو لم يتركني أستريح عندما يتعلق الأمر بمساعدة صديق، وقال لي:

– فلنفعل شيئاً، سأرسل لك تذاكر السفر لتسافر عندما تريد ولنرى ما الذي سيحدث لنا.

كان أكثر من أن أقول لا، لكنني كنت واثقاً من أن آخر طائرة في حياتي كانـــت تلـــك التـــي أخرجتني من بوجوتا، بعد ٩ أبريل. إضافة فإن الرواية الإذاعــية القلــيلة، ونشر الفصل الأول من "لا سييربي" في مجلة "لالمبرا" لا يصـــلح أي مبرر حتى لا أرسل إنقاذاً للعائلة في كارتاخينا، لذلك قاومت مرة أخرى فكرة الرحيل إلى بوجوتا.

ألفارو ثيبيدا وخيرمان وألفونسو ومعظم أصدقائي في مقهى جابي ومقهى رومــا حدثونـــي بكلمـــات جميلة عن "لا سييربي" عندما نشرت في "لالمبرا" الفصـــل الأول، ووافقـــوا على أن الشكل المباشر للتحقيق الصحافي كان على الحـــدود الخطـــرة التـــي لا يمكـــن سوى تصديقه. الفونسو، بطريقته ما بين الســـخرية والجديـــة، قـــال لي وقتها شيئاً لا أستطيع نسيانه أبداً: "الصدق يا عزيزي يتوقف كثيراً على شكل الوجه الذي يضعه الواحد منا عندما يحكي"، كنـــت علـــى وشك أن أخبره عن عروض العمل مع ألفارو موتيس، لكني لم أجـــرؤ، وأعـــرف الـــيوم أنه كان خوفاً من موافقتهم. عاد موتيس لطلبه عدة مـــرات، حـــتى بعـــد أن حجز لي مقعداً على الطائرة، وقمت بإلغائه في آخر لحظـــة، وأقسم أنه لا يقوم بعمل أشياء قد تبدو خفية للاسبكتادور ولا من أجل أي وسيلة مكتوبة أخرى، وإن هدفه النهائي الوحيد – أصر حتى النهاية– هو الحديـــث حول مجموعة من التعاون الثابت مع المجلة وبحث بعض التفاصيل التقنـــية عـــن السلسلة الكاملة لتحقيق "لا سييربي" الذي كان فصله الثاني على وشك الظهور. كان ألفارو موتيس يبدي ثقة من أن هذه النوعية من التحقيقات يمكـــنها أن تقضـــي على العاداتية في أرضها، مع كل الأسباب التي عرضها عليّ وقتها، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أفكر.

فـــي يـــوم ثلاثاء ممطر انتبهت إلى أنني لا أستطيع الذهاب حتى لو كنت أريد لأنني لم أكن أمتلك ملابس أكثر من قمصان الراقص. في السادسة مساء

لـم أعـثر علـى أحد في مكتبة موندو، فوقفت أنتظر على الباب، غارقاً في دموعـي من الغروب الحزين الذي بدأ يحدث لي. في الرصيف المقابل كانت هناك واجهة عرض لملابس رسمية لم أشاهدها في حياتي أبدا، رغم أنها كانت هـناك مـنذ الأبد، ودون تفكير عبرت شارع سان بلاس تحت رماد المطر، ودخلـت - بخطـوات واثقـة أغلى محل بالمدينة، اشتريت بدلة كهنوتية من القطـيفة الـزرقاء للاسـتخدام الليلـي، تصلح تماماً لبوجوتا في تلك الأيام، وقميصـين بيضـاوين بـياقة مقواة ورباط عنق مخطط بزاوية وحذاء، التي وضعها كموضة خوسيه موخيكا قبل أن يتحول إلى قديس. ولم أقل لأحد أنني ذاهـب سوى لخيرمان وألفارو وألفونسو، الذين وافقوني كقرار جاد بشرط ألا أعود للنظر إلى الخلف.

احتفلنا بالقرار في"الرجل الثالث" بحضور المجموعة بكاملها، كحفل متقدم لعـيد ميلادي المقبل، لأن خيرمان بارجاس الذي كان الحارس القدسي، أعلن أنـه فـي ٦ مـارس القادم سأكمل عامي السابع والعشرين، من بين التمنيات الطيـبة لأصـدقائي الكبار، شعرت أنني على استعداد لأكل الثلاثة والسبعين الباقية لي حتى أكمل مائة عام.

٨

اتصـــل بي جييرمو كانو مدير تحرير صحيفة الاسبكتادور تليفونياً عندما علـــم أنني في مكتب ألفارو موتيس، أربعة طوابق أعلى من طابقه، في مبنى حديـــث البـــناء على بعد خمسة شوارع من مقره القديم. كنت قد وصلت قبلها بقليل وأستعد لتناول الغداء مع مجموعة من أصدقائه، لكن جييرمو أصر على أن نمـــر لتحيـــته أولاً. وقمـــنا بذلـــك، بعد العناق الحميم على طريقة سكان العاصـــمة، وبعض التعليقات على أنباء اليوم، أمسك بذراعي وتنحى بي جانباً بعـــيداً عـــن الـــزملاء المحرريـــن، وقال لي ببراءة لا شك فيها: "اسمعني يا جابريـــيل، لـــم لا تقدم لي خدمة وتكتب مقالة افتتاحية تنقصني لإغلاق طبعة الصـــحيفة اليوم؟." وأشار بإصبعه الكبير والسبابة بحجم نصف كوب، وأنهى كلامه:

– بهذا الحجم.

المثـــير أنني سألته عن المكان الذي يمكنني الجلوس فيه، أشار إلى مكتب خـــال وعليه آلة كاتبة قديمة. جلست إلى المكتب دون طرح أية أسئلة أخرى، مفكـــراً في موضوع جيد يصلح لهم، وظللت جالساً على هذا الكرسي، وأمام الطاولة نفسها وبالآلة الكاتبة نفسها خلال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعـــد دقائق قليلة من وصولي خرج من المكتب المجاور لإدواردو ثالاميا بـــوردا، نائـــب المدير غارقاً في التفكير وبين يديه لفة من الأوراق. أفزعته رؤيتي، وزعق باسمي الذي اخترعه لي في بارانكيا كبديل لاسم جابيتو والذي كـــان يســـتخدمه هـــو فقط. ولكن هذه المرة عممه في صالة التحرير وظلوا يستخدمون كتابة: جابو.

لا أتذكـــر موضوع المقال الافتتاحي الذي كلفني به جييرمو كانو، لكنني كنـــت أعرف جيداً الأسلوب العائلي في الكتابة في الاسبكتادور منذ عملي في

الناســيونال. وبشــكل خاص ركن "من يوم ليوم" في صفحة الافتتاحية، التي كانت تتمتع بشهرة مستحقة، وقررت تقليد هذا الأسلوب بالدم البارد الذي كانت تواجــه بــه لويســا سانتياجو شياطين العقبات. انتهيت من المقالة في نصف ساعة، ثم قمت بإجراء بعض التصحيحات بيدي وسلمتها لجييرمو كانو، الذي قــرأها واقفــاً من أعلى إطار نظارة قصر النظر. تركيزه كان يبدو خاصاً به لكــنه كان من مميزات العائلة كلها، منذ فيديل كانو مؤسس الصحيفة في عام ١٨٨٧، وتواصــلاً بشقيقه لويس، وتمكنت بابنه جابرييل، وتلقى الدم الناضج حفيده جييرمو، الذي تسلم منصبه كمدير عام وهو في الثالثة والعشرين. تماماً كما فعل سابقوه، وضع بعض التصحيحات السريعة لتجنب شكوك صغيرة، ثم أنهاها باسمي المبسط الجديد:

– حسن جداً يا جابو.

في ليلة عودتي انتبهت إلى أن بوجوتا لم تعد كما كانت من قبل بالنسبة لي طالمــا ظلــت ذكرياتي قائمة. تماماً ككل كوارث الوطن الكبرى، فإن يوم ٩ أبــريل عمل من أجل النسيان أكثر من بحثه عن مكانه في التاريخ، تم تدمير فــندق جــرانادا بحديقــته وأقيم في مكانه مبنى أبيض جديد لبنك الجمهورية. وشوارع سنواتنا القديمة لا تشبه شيئاً سوى تراماتها المضيئة، وفقدت الناصية التــي وقعــت فيها الجريمة التاريخية عظمتها بالفراغات الكبرى التي تركتها الحــرائق. "نعــم تــبدو الآن مدينة كبرى"، قال أحد مرافقينا مندهشاً. وانتهى بتمزيق روحي بالجملة الطقسية:

– يجب أن نشكر أبريل الجديد.

مــن ناحــية أخرى، لم أكن أبداً في أفضل حالاتي كما كنت في البنسيون مجهول الاسم الذي وضعني فيه ألفارو موتيس. بيت مجمل بالكارثة قريب من الحديقة الوطنية، التي حاولت فيها التغلب على حسدي لسكان الغرفة المجاورة الذين كانوا يمارسون الحب كما لو كان حرباً سعيدة. وفي اليوم التالي، عندما

شاهدتهما يخرجان لم أصدق انهما كانا هما: طفلة ضامرة ترتدي ملابس ملجأ الأيــتام الحكومـــي ورجل متقدم في السن، مفضض وطوله متران، يمكن أن يكــون جدها. اعتقدت أنني اخطأت، لكنهما توليا تأكيده في كل الليالي التالية بصرخاتهما حتى الفجر.

نشــرت صــحيفة الاســبكتادور مقالتي في صفحة الافتتاحية وفي أفضل مكان. أمضيت فترة الصباح متجولاً بين كبريات المخازن لشراء الملابس التي فرضها عليّ موتيس بلكنته الإنجليزية الطنانة ليسلي الباعة. تناولنا الغداء مع جونثالو مايارينو وعدد آخر من الكتاب الشبان المدعوين لتقديمي للمجتمع. لم أعــد لمعرفة أي ش عن جييرمو كانو حتى ثلاثة أيام بعدها، عندما اتصل بي هاتفياً في مكتب موتيس.

قال لي بجفاء مصطنع لمدير يتولى الرئاسة:

– اســمع يا جابو، ما الذي حدث معك؟. أغلقنا طبعة الصحيفة أمس في وقت متأخر بانتظار مقالتك.

نزلــت إلـــى صالة التحرير لكي أتحدث معه، وحتى هذه اللحظة لم أفهم كيف أنني واصلت كتابة المقالات بلا توقيع كل مساء طوال أكثر من أسبوع، دون أن يحدثني أحد عن وظيفة أو راتب. كان المحررون في حوارات المقهى خــلال فترات الراحة يتعاملون معي كواحد منهم. وهو ما كان حقيقة دون أن أتخيل إلى أي حد كان ذلك.

ركــن "مــن يوم ليوم" الذي لم يكن يحمل توقيعاً أبداً، كان يضع جييرمو كــانوا دائمـــاً فـــي مقدمته مقالة سياسية. طبقاً لنظام وضعته إدارة التحرير، وبعدهــا مقالـــة ذات موضوع حر لجونثالو جونثالث، والذي كان يكتب أيضاً الركن الأكثر شهرة وذكاء في الصحيفة "أسئلة وإجابات"، التي كان يجيب فيها علـــى أسئلة القراء مستخدماً الاسم المستعار"جوج"، ليس مأخوذاً من جيوفاني بابينـــي بل من اسمه هو شخصياً، وبعدها ينشرون مقالاتي، وفي أحيان قليلة

جداً مقالات خاصة لادواردو ثالاميا، الذي يحتل يومياً أفضل مكان في صفحة الافتتاحية-"المدينة والعالم"- موقعة بالاسم المستعار أوليسيس، ليس متخذا من هوميروس -كما كان يقول دائماً- بل مستعارا من جيمس جويس.

كـــان على ألفارو موتيس أن يقوم برحلة إلى بويرتو برنثيبي خلال الأيام الأولـــى من العام الجديد، ودعاني لمرافقته، كانت هاييتي وقتها وطن أحلامي بعـــد أن قـــرأت "مملكة هذا العالم" لإليخو كاربنتيير. لكنني لم أكن قد أجبت ألفـــارو حـــتى يـــو ١٨ فبراير، عندما كتبت مقالة عن الملكة الأم البريطانية الضائعة في عزلتها بقصر بيكنجهام الضخم. لفت نظري أنهم نشروه في مكان ركن "من يوم ليوم"، وأنه وجد صدى طيباً في مكاتبنا، في تلك الليلة، في حفل قلـــيل الحضور في بيت مدير التحرير خوسيه سالاجار، قال إدواردو ثالاميا تعليقاً أكثر حماساً. وقال لي أحد الحاضرين إنه بعد هذا التعليق تحدثوا عن أن تقدم لي الإدارة عرضاً رسمياً لعمل ثابت.

في اليوم التالي مبكراً طلبني ألفارو موتيس بمكتبه ليعلن لي النبأ الحزين بـــأن رحلـــة هاييتي قد ألغيت. وما لم يقله لي هو أنه قرر إلغاء الرحلة خلال حوار عابر مع جييرمو كانو، الذي طلب منه هذا الأخير أن يرافقه إلى بويرتو برينثيبـــي، وأراد ألفارو الذي لم يكن يعرف هاييتي أن يعرف السبب، فقال له جيـــيرمو: "عـــندما تعرفه ستفهم أن هذه الرحلة التي يحبها جابو أكثر من أي شيء في العالم". أنهى الأمسية بضربة معلم:

- لو ذهب جابو إلى هاييتي فلن يعود أبداً.

فهـــم ألفارو، وقرر إلغاء الرحلة، وأخبرني به كما لو كان قرار الشركة. وهكذا لم أعرف بويرتو برينثيبي أبداً، لكني لم أعرف المبررات الحقيقية حتى سنوات قليلة بعد ذلك، عندما أخبرني ألفارو في إحدى حواراتنا التي لا تنتهي. أمـــا جييرمو من ناحيته، عندما قيدني بتعاقد مع الصحيفة، كرر خلال سنوات أنه فكر في التحقيق الصحافي الكبير عن هاييتي، لكني لم أستطع الذهاب أبداً

ولم أخبره بالسبب.

لـــم يمر بذهني أبداً أن أعمل محرراً في الاسبكتادور. اعتقدت أنهم كانوا ينشـــرون قصصــــي لقلة المادة الصحافية وفقر هذا النوع في كولومبيا، لكن التحرير اليومي في صحيفة شهيرة كان يعني تحدياً يومياً لشخص غير معتاد علـــى صحافة المواجهة. بعد نصف قرن من الحياة. في بيت بالإيجار، وفي ماكيـــنات ألتيمبو القديمة – صحيفة ثرية، وقوية ومتعجرفة– فإن الاسبكتادور تعتـــبر صـــحيفة متواضعة من ستة عشر صفحة مكتظة، لكن الخمسة آلاف نســـخة التي توزعها بشكل سيئ تتغلب عليها تقريباً عند أبواب المطابع. ويتم قـــراءتها فـــي خلال نصف ساعة بمقاهي المدينة القديمة الكئيبة. كان إدوارد ثالامـــيا بـــوردا قد صرح شخصياً من خلال إذاعة البي بي سي اللندنية أنها كانـــت أفضـــل صحيفة في العالم. لكن الأكثر إلزاماً لم يكن التصريح في حد ذاته، بل أن معظم العاملين ومعظم القراء كانوا مقتنعين بأن هذا حقيقة.

يجـــب أن أعترف أن قلبي قفز بين ضلوعي في اليوم التالي لإلغاء رحلة هاييتـــي، عندما طلب لويس جابرييل كانو المدير الإداري مقابلتي في مكتبه، فاللقاء بكل رسمياته لم يزد عن خمس دقائق. كان لويس جابرييل معروفاً بأنه رجل متجهم، كريم كصديق وبخيل كمدير إداري، لكنني أرى وكما كان معي دائمـــاً أنـــه لطيف ومحدد. كان عرضه في كلمات جادة أن أبقى في الصحيفة كمحرر ثابت أكتب الأخبار العامة، ومقالات الرأي، وما هم في حاجة إليه في اللحظـــات الأخيرة لإغلاق الطبعة، وبراتب شهري تسعمائة بيزو. لم أنطق، وعـــندما اســـتعدت نفســـي عدت لسؤاله عن الرقم، أعاد عرضه حرفاً حرفاً: تســـعمائة. كان اندهاشي كبيراً أنه بعد أشهر عندما تحدثت عن هذا في إحدى الحفـــلات فـــإن عزيزي لويس جابرييل كشف لي أنه فسر دهشتي على أنها إشـــارة على الرفض. وكان آخر شك كشف لي عنه السيد جابرييل، أن خوفه كـــان مؤسساً على حقائق فقد قال عني: "كان نحيلاً وشاحباً إلى درجة انه قد

يمــوت مــنا في المكتب". وهكذا دخلت كمحرر ثابت في الاسبكتادور، حيث استهلكت أكبر قدر من الورق في حياتي في أقل من عامين.

كانــت صــدفة حسنة، الرجل الأكثر خطراً في المؤسسة السيد جابرييل كانو، كبير العائلة تحول بقرار فردي إلى أكبر ممثل لمحاكم التفتيش في إدارة التحرير. كان يقرأ بعدسته المكبرة حتى الفاصلة الأقل شأناً في الطبعة اليومية، مشــيراً بقلــم أحمــر تحــت الأخطاء في كل مقالة وكان يعرضها في لوحة المحررين المعاقبين ترافقها تعليقاته القاسية. وتم وضع عنوان اللوحة منذ اليوم الأول "حائط الفضائح"، ولا أذكر أن محرراً واحداً هرب من رئتها الدموية.

تعييــن "جيــيرمو كــانو" كمديــر تحرير شهير للاسبكتادور في الثالثة والعشــرين من عمره لا أعتقد أنه كان في غير أوانه، بل جاء استجابة لنبوءة كانت مكتوبة قبل ميلاده، لذلك فإن أول مفاجأة لي كانت التأكد من أنه المدير الحقيقــي، عــندما كان الكثير منا يعتقدون أنه لم يكن أكثر من الابن المطيع، وأكثر ما لفت انتباهي سرعته في معرفة الأخبار.

وفي أحيان كثيرة كان يقف في مواجهة الجميع دون مبررات كثيرة، إلى أن يتمكن من إقناعهم بحقيقته الخاصة. كانت تلك فترة لم تكن الصحافة تدرس في الجامعات بل يتم تعلمها في الممارسة. باستنشاق حبر المطبعة. كان يعمل فــي الاسبكتادور أفضل المهنيين من طيبي القلب ولكنهم قساة في العمل. بدأ جيــيرمو كانو عمله هناك منذ أن تعلم أول حرف، فكان يكتب مقالات محكمة عــن مصارعة الثيران، فكانت تبدو كما لو كان كاتبها موهوباً في المصارعة وليس صحافياً. لذلك فإن أصعب تجربة في حياته كانت في ترقيته ما بين يوم ولــيلة من تلميذ إلى مدير تحرير دون المرور بالدرجات المتوسطة بينهما، ما كان لأحد لا يعرفه عن قرب أن يتوقع خلف طريقته الرقيقة في التعامل طرقاً أخــرى أقل لطفاً. دخل معارك كبرى وخطرة بالحماس نفسه دون أن يتوقف أبداً أمام أنه في المعارك النبيلة دائماً ما يسقط قتلى.

لـم أتعـرف علـى أحداً متمرداً على الحياة العامة ويهرب من التقريظ الشخصـي وأكـثر هروباً من قوة السلطة مثله. كان قليل الأصدقاء لكنهم من أفضـل الأصدقاء على قلتهم، وشعرت منذ اليوم الأول أنني واحد منهم. ربما كان وراء هذا أنني كنت من صغار السن في صالة التحرير بين مخضرمين، مما خلق بيننا نوعاً من التواطؤ لم يتخف أبداً. وربما كانت هذه الصداقة مثالية لقدرتهـا على تخطي عقبة اختلافاتنا. فقد كانت خلافاتنا السياسية عميقة جداً، وزادت حدتها على وقع خطى انقسام العالم، لكننا عرفنا دائماً كيف نجد مساحة اتفاق لنواصل النضال معاً في سبيل القضايا التي نعتقد أنها عادلة.

كانـت صـالة التحرير ضخمة، بمكاتب على الجانبين وينتشر فيها مزاج مـرح ونكات قاسية. كان هناك داريو باوتستا، نوع غريب من نقيض لوزير مالـية يبدأ منذ صياح الديك في الصباح في نشر المرارة في كل صباح لكبار الموظفيـن، متوقعاً لهم دائماً مستقبلاً كارثياً، وكثيراً ما يصدق. هناك المحرر القضـائي فيليبي جونثالث توليدو، صحافي بالميلاد كثيراً ما استبق التحقيقات فـي الكشف عن جريمة. وجبيرمو لاناو الذي كان يتابع عدة وزراء في وقت واحـد، وحافظ على سره كطفل حتى بلغ أوائل سنوات الشيخوخة. وروخيليو أتشـيبيريا، شـاعر من الكبار، المسئول عن الطبعة الصباحية، والذي لم نكن نراه نهاراً أبداً. وابن عمي جونثالو جونثالث، بساقه المحبوسة في الجبس بعد مباراة كرة قدم سيئة، كان يذاكر ليرد على أي أسئلة وانتهى بأن أصبح خبيراً فـي كل شئ، برغم أنه كان في الجامعة لاعباً لكرة القدم من الدرجة الأولى، ومـن المؤمنيـن بالدراسات النظرية لأي شئ فوق أي تجربة عملية. خلال بطولة البولو للصحافيين، ركز على دراسة قواعد القوانين الفيزيقية للعبة بدلاً من ممارستها مثلنا في الملعب حتى الفجر، وأصبح هو بطل السنة.

بهـذا الجمـع فإن صالة التحرير كانت مرحاً دائماً، مرتبطة دائماً بشعار داريو باوتستا أو فيليبي جونثالث توليدو: "من يتهم يستحق الهزيمة". كنا جميعاً

نعــرف موضـــوعات الآخريـــن ونمد يد العون أينما طلب منا وكيفما يطلب. وكانـــت المشـــاركة جماعية إلى درجة يمكن القول معها إن العمل كان تقريباً بصـــوت مـــرتفع. ولكن عندما تصبح الأشياء صعبة لا يمكن سماع ولا حتى صـــوت التـــنفس. من مكتبه في آخر الصالة كان خوسيه سالجار يجري في صـــالة الـــتحرير مبلغاً معلومات أو مستعلماً عن كل شئ، بينما روحه تخبو بدواء الألعاب البهلوانية.

أعـــتقد أن الأمسية التي أخذني فيها من طاولة إلى طاولة بطول ليقدمني إلـــى الزملاء، كانت تجربة نارية لخجلي الغلاب. فقدت النطق وكانت ساقاي ترتعشـــان عندما أطلق داريو باوتستا سخريته دون أن ينظر إلى أحد بصوته الرعديد:

– وصل العبقري!.

لـــم يخطـــر على بالي سوى أن أستدير نصف استدارة حول نفسي رافعاً ذراعي إلى أعلى محيياً الجميع، وقلت لهم الجملة الأقل إثارة التي خرجت من كل قلبي:

– في خدمة حضراتكم.

ولا زلـــت أعانـــي مـــن ردة الفعـــل، ولكن أيضاً شعرت براحة ذراعي والكلمات الطيبة التي حياني بها كل واحد منهم على سبيل الاستقبال. منذ تلك اللحظـــة أصبحت واحداً من تلك النمور الأليفة، بصداقة وروح لم تنتهي أبداً. كل المعلومات التي كنت أحتاجها لأي مقالة، مهما كان صغرها، كنت أطلبها من المحرر المختص فيها، ولم يخذلني أحد.

أول درس كبير لي كمحرر تلقيته من جيبرمو كانو وعاشته صالة التحرير بالكـــامل فـــي أمســـية سقطت فيها على بوجوتا أمطار طوفانية طوال ثلاث ساعات بلا توقف. جرفت المياه الهادرة كل ما وجدته في طريقها بطول شارع خيمينيـــث دي كيسادا، وتركت في الشراع آثارا كارثية. توقفت السيارات بكل

أنواعهـــا ووســـائل النقل العامة في الأماكن التي فاجأتها فيها الأمطار، ولجأ الآلاف مـــن المارة في المباني الغارقة حتى لم يعد هناك مكان لأحد. محررو الصـــحيفة، المفاجـــئون بالكارثة في لحظات إغلاق الطبعة، كنا نتأمل المشهد الحزيـــن من النوافذ دون أن نعرف ماذا نفعل، كأطفال معاقبون بوضع أيديهم فـــي جـــيوبهم. وفجأة استدار جييرمو كانو إلى الصالة المشلولة، كما لو كان استيقظ من نومه، وصرخ:

– هذا الطوفان خبر!.

كانـــت أمراً غير موجه لأحد تم تنفيذه على الفور، جرينا نحن المحررين إلـــى أماكـــن قتالنا للحصول تليفونياً على عدد المصابين الذين كان يقدمهم لنا خوسيه سالجار لنكتب مقاطع متفرقة فيما بيننا لعمل تحقيق صحفي عن أمطار القـــرن. توقفـــت ســـيارات الإســـعاف والهواتف بسبب العربات المتوقفة في منتصـــف الشوارع. ومواسير المجاري المنزلية كانت طافحة بالمياه ولم يكف رجال المطافئ عن القيام بواجبهم العاجل. تم إخلاء أحياء كاملة بالقوة لانهيار ســـد بالقـــرب مـــن المدينة، وفي أحياء أخرى انفجرت المجاري. والأرصفة غاصـــة بالعجزة، وفي كل هذه الفوضى، قام خمسة من ملاك قوارب الصيد بمسابقة في طريق كاراكاس. المعلومات التي كنا نحصل عليها كل لحظة كان يكررها خوسيه سالجار على المحررين لنعدها للطبعة الخاصة التي تم إعدادها بسرعة. المصورون ملتفون في عباءاتهم المضادة للماء كانوا يبعثون بالصور ســـاخنة. قبيل الساعة الخامسة بقليل، كتب جييرمو كانو الحكم النهائي لواحدة من الأمطار الأكثر درامية التي عاشت في ذاكرة المدينة. عندما أنهى الطبعة العاجلة من الاسبكتادور التي بيعت مثل كل الأيام بساعة واحدة من التأخير.

علاقتـــي الأولية بخوسيه سالجار كانت الأصعب، لكنها كانت خلاقة دائماً مـــثل علاقاتـــي الأخرى. أعتقد أن مشكلته كانت عكس مشكلتي: كان يجري دائماً بمحاولات أن يقدم محرروه أفضل ما عندهم، بينما كنت أنا في شوق إلى

الدخول في عجلة العمل. ولكن أعمالي الأخرى مع الصحيفة كانت تكتفني ولم يكـن أمامـي من الوقت أكثر من ساعات يوم الأحد. يبدو أن خوسيه سالجار وضـع عيـنه عليّ كمحرر، بينما كان الآخرون اعتبروني مختصاً بالسينما، والتعلـيقات الافتتاحـية والشئون الثقافية، لأنني كنت معروفاً بينهم باعتباري القاص. لكني كنت أحلم أكون محرراً منذ أولى أحلامي على الشاطئ، وكنت أعـرف أن سـالجار افضل معلم، لكن يبدو أنه كان مغلقاً الباب على أمل أن أدفعه بالقوة. كنا نعمل بشكل جيد، بلطف وديناميكية، وفي كل مرة أعطيه مواداً، مكـتوبة بالاتفـاق مع جييرمو كانو أو إدواردو ثالاميا، كان يقبلها دون عناد كبـير، لكنه لم يكن يغفر لي ممارسة هذا الطقس. كان يقبلها بإشارة من يفتح زجاجة بالقوة، وكان يقول لي أي شئ بجدية أكثر مما يعتقد هو:

- اقصف عنق الإوزة.

مـع ذلك، لم يكن عنيفاً أبداً، بل العكس تماماً: رجل لطيف مصنوع على نـار ساخنة، صعد السلم بعمله، من أول توزيع القهوة في الورش عندما كان فـي الرابعة عشرة من عمره، إلى أن أصبح مديراً للتحرير كأفضل مهني في الـبلاد. أعـتقد أنه لم يغفر لي أن أترك الغنائية في بلد يحتاج إلى محررين مناضـلين. أعتقدت أنا، على العكس تماماً، أن أي نوع من الصحافة لا يمكن أن يكون أفضل من التحقيق للتعبير عن الحياة اليومية. مع ذلك، أعرف اليوم أن العـناد الـذي كان يتعامل به كلانا كان من أجل تحقيق حلمي الهارب أن أكون محرراً.

جاءتنـي الفرصة وحدها في الحادية عشرة وعشرين دقيقة من صباح ٩ يونـيو عام ١٩٥٤، أثناء عودتي من زيارة صديق بسجون بوجوتا الحديث، كانـت هـناك قـوات مـن الجيش مسلحة كما لو كانت في حالة حرب تمنع مظاهـرة طلابـية من التقدم بالطريق السابع، على بعد شارعين من الناصية نفسـها التي جرى فيها اغتيال خورخي أليثيير جايتان قبل ست سنوات. كانت

المظاهـرة احـتجاجاً علـى موت أحد الطلاب في اليوم السابق على يد أحد عناصـر فـرقة كولومبيا المدربة للقتال في كوريا، وكان هذا أول صدام بين المدنييـن والقوات المسلحة. من مكاني كنت أسمع فقط صرخات الحوار بين الطـلاب الذين يحاولون الوصول إلى القصر الرئاسي وبين العسكريين الذين يمنعون تقدمهم. لم نستطع أن نفهم ما يصرخون به، لكن التوتر كان مسيطراً. فجـأة، وبـلا مقدمات سمعنا طلقات مدفع رشاش تبعتها طلقات أخرى مرتين متتاليتيـن. مـات في الحال عدة طلاب وبعض المارة. الآخرون حاولوا أخذ الجرحى إلى المستشفى لكنهم قوبلوا بوابل من ضربات كعوب البنادق. أخلت القـوات المكان وسدت الشوارع، خلال ثوان عدت إلى لحظات الرعب التي عشتها يوم ٩ أبريل، في الساعة نفسها والمكان نفسه.

صـعدت السلم قفزاً نحو مقر الاسبكتادور فوجدت هيئة التحرير في حالة استنفار. حكيت بنَفَس متقطع كل ما استطعت مشاهدته في مكان المذبحة، لكن مـا لـم أكن أعرفه جيداً أنهم كانوا يكتبون خبراً بسرعة حول أسماء الطلاب التسـعة الذيـن اغتـيلوا وحالـة الجرحى بالمستشفيات. كنت واثقاً من أنهم سـيطلبون مني حكاية الواقعة باعتبار أني كنت الشاهد الوحيد الذي رأى كل شـئ، لكن جييرمو كانو وخوسيه سالجار اتفقا على أنه يجب أن يكون الخبر جماعـياً يضع فيه كل واحد ما لديه. كان فيليبي جونثالث توليدو هو المحرر المسـئول عن وضع التحقيق في صيغته النهائية، قال لي فيليبي منزعجاً من خيبة أملي:

– كـن هادئـاً، فالناس تعرف أننا هنا نعمل في كل شئ حتى لو لم يكن العمل يحمل توقيعاً.

مـن ناحيـته، عزاني أوليسيس بفكرة أن المقالة الافتتاحية التي أكتبها قد تكون الأهم باعتبارها تتناول حدثاً خطيراً ومشكلة مؤثرة في الأمن العام. كان محقاً، لكنها كانت مقالة حساسة جداً وتحمّل الصحيفة مسئولية سياسية، فتمت

كتابــتها مـــن خلال عدة أشخاص على أعلى مستوى. أعتقد أنه درس عادل للجمــيع، أما أنا فقد اعتبرته خيبة أمل. فقد كان ذلك الحدث نهاية شهر العسل بين حكومة القوات المسلحة والصحافة الليبرالية. كان قد بدأ قبل ثمانية أشهر بتسلم الجنرال روخاس بينيا السلطة والذي وعد أن يكون لحظة من الراحة بعد حمامـــات الـــدم التـــي أغرقت البلاد في ظل حكومات المحافظين المتعاقبة، واســتمرت إلـــى ذلـــك اليوم. وكانت بالنسبة لي تجربة حية لحلمي أن أكون محرراً.

بعدها بقليل نُشرت صورة لجثة طفل مجهول لم يتمكنوا من تحديد هويته بصـــالة الطب الشرعي واعتقدت أنا أنها تشبه تماماً صورة طفل آخر مختف كانت منشورة قبلها بأيام. عرضتها على رئيس قسم الحوادث فيليبي جونثالث توليدو، فاتصل بأم الطفل الأول الذي لم يتم العثور عليه بعد، كان درساً أبدياً لـــي. كانت أم الطفل المختفي تنتظرنا فيليبي وأنا – في المدخل. رأيتها فقيرة جداً وضئيلة حتى أنني بذلت جهداً عظيماً مع قلبي حتى لا تكون الجثة لطفلها. فـــي القـــبو الطويـــل الـــبارد، تحت ضوء باهر، كانت هناك عشرون طاولة معروضـــة عليها صفوف من الجثث كتماثيل حجرية تحت شراشف متسخة. واصـــل ثلاثتـــنا السير خلف الحارس الرصين حتى الطاولة قبل الأخيرة في العمـــق، تحت أطراف الغطاء كانت تبدو أطراف حذاء صغير حزين، حدوات كعـــبها متآكلة من كثرة الاستخدام. تعرفت عليه المرأة، فأزرق وجهها، لكنها تحاملـــت بآخر ما تملك من قوة إلى أن نزع الحارس الغطاء برشاقة مصارع ثـــيران. الجســـد كـــان لطفل في الثامنة من عمره تقريباً. وبعينين مفتوحتين وذاهلتين. كان بملابسه الممزقة التي عثروا بها عليه ميتاً في حفرة بالطريق. أطلقت الأم عواءً وانهارت على الأرض ملتفة بالصراخ. رفعها فيليبي وسيطر علـــيها بهمهمـــات معزية. فيما كنت أتساءل إن كان كل هذا يستحق أن يكون المهـــنة التـــي حلمت بها. أخبرني إدواردو ثالاميا بلا. فقد فكر هو أيضاً أن

الأخـــبار الحمـــراء التـــي تجد قبولاً كبيراً بين القراء تعتبر من التخصصات الصعبة التي تحتاج إلى موهبة خاصة وقلب مدرب. لم أحاول هذا أبداً بعد تلك اللحظة.

واقـــع آخر مختلف أجبرني على أن أعمل ناقداً سينمائياً. لم يخطر على بالـــي أبـــداً أن أمارس هذه النوعية من الكتابة، لكن في مسرح أوليمبيا للسيد أنطونـــيو داكونتـــي في آراكاتاكا وبعد ذلك في المدرسة المتنقلة لألفارو ثيبيدا تعلمـــت العناصر الأساسية لكتابة مقالات ذات توجهات سينمائية وفقاً لوجهة نظـــر ســـهلة كانـــت مستخدمة في كولومبيا حتى ذلك الوقت. كان لأرنستو فولكـــنج، كاتـــب ونـــاقد أدبي ألماني كبير، كان مقيماً في بوجوتا منذ الحرب العالمـــية، يذيع من خلال الإذاعة الوطنية تعليقاً عن الأفلام المعروضة، لكنه كـــان يقتصر على التوجه إلى جمهور متخصص. كان هناك معلقون آخرين ممتازين لكنهم غير دائمين يعيشون حول الناشر القطالوني لويس فينيس الذي عاش في بوجوتا خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وكان هو أول من أسس نادياً للســـينما بتواطؤ مع الفنان التشكيلي إنريكي جراو والناقد هيرنانجو سالثيدو، وباهـــتمام خاص من الصحفية جلوريا فالنثيا دي كاستانيو كاستيو، التي كانت تحمـــل كارنيه رقم واحد. كان في البلاد جمهور كبير لأفلام الحركة والدراما الباكـــية، لكن السينما الجيدة كانت تقتصر على عدد محدود من الهواة المثقفين والعارضين المغامرين لعرض أفلام لثلاثة أيام فقط. البحث عن جمهور جديد بيـــن هـــذه الجماهير المجهولة والدعوة لخلق زبائن لدخول أفلام ذات نوعية جـــيدة، ومســـاعدة العارضين الذين يرغبون في عرض هذه النوعية لكنهم لا يستطيعون تمويلها. كانت العقبة الكبرى أن هؤلاء كانوا يهددون الصحافة بمنع إعلانات السينما عنها – كانت تشكل دخلاً كبيراً للصحف– عقاباً لها على النقد الســـلبي، كانـــت الاسبكتادور أول صحيفة خاطرت في هذا الاتجاه، وكلفوني بمهمـــة التعلـــيق على افتتاح الأفلام كل أسبوع بكتابة مربع بدائي للهواة ذي

نوعــية دعائـــية. أحد الاتفاقات كانت أن أحتفظ بتذكرة دخولي دائماً، كتجربة كنت أثبت أنني اشتريت التذكرة من شباك التذاكر.

أول مقالاتي هدأت من روع العارضين لأنني كنت أتناول أفلاماً فرنسية، مــن بينها، بوثيني، كانت تتناول قصة حياة الموسيقي الكبير. والقمم الذهبية، التـــي تحكـــي قصة حياة المغنية جريس مور، وحفل أنريكيتا، كوميديا لجان ديلـــون، أصـــحاب الصالات الذين كنت ألتقي بهم أثناء خروجي من المسرح كانوا يعلنون رضاءهم عن مقالاتي النقدية. أما ألفارو ثيبيدا فكان على العكس فقـــد أيقظني في السادسة صباحاً من بارانكيا عندما علم بعدد قرائي، وصرخ فيّ غارقاً في الضحك بالتليفون:

– كـــيف تتجرأ على نقد أفلام دون أن تحصل على أذن مني، وأنت الذي لا تفهم في السينما!.

تحول إلى مستشاري الدائم رغم أنه لم يكن متفقاً معي أبداً بأننا كنا ننشئ مدرســـة، بل توجيه جمهور بسيط بلا تعليم أكاديمي. لم يكن شهر العسل مع أصحاب صالات العرض حلواً، كما كنا نعتقد في البداية، عندما واجهنا السينما التجارية حتى الأكثر تفهماً، تقدموا بشكاوى من قسوة تعليقاتنا. إدواردو ثالاميا وجبيرمو كانو تحليا بالمهارة الكافية لشغلهم بالتليفون. إلى نهايات أبريل عندما قـــام صاحب صالة عرض، يميل إلى الزعامة، اتهمنا في رسالة مفتوحة بأننا نثـــير رعـــب الجمهور والإساءة إلى مصالحهم، اعتقدت أن أصل المشكلة أن كاتب الرسالة لا يفهم معنى "رعب"، لكنني شعرت بأنني على وشك الهزيمة، لأنني لم أعتقد أن الصحيفة يمكنها أن تواجه أزمة في الوقت الذي كانت تنمو فـــيه، أو أن الســـيد جابريـــيل كانو يمكنه أن يضحي بإيراد الإعلان حباً في الاســـتمتاع الجمالـــي. في اليوم نفسه الذي تلقى فيه الرسالة دعا إلى اجتماع عـــاجل مع أبنائه وأوليسيس، وتوقعت أن قسم النقد السينمائي سيموت ويدفن، ومـــع ذلـــك عندما مر بعد الاجتماع من أمام مكتبي، قال السيد جابرييل دون

تحديد للموضوع وبمكر جد عجوز:

- كن هادئاً يا سميي.

في اليوم التالي ظهرت الإجابة على صاحب صالة العرض في ركن "من يـوم ليوم"، مكتوبة بتوقيع جييرمو كانو، بأسلوب أكاديمي ويقول في نهايتها: "لا نرعـب الجمهـور ولا نضر بمصالح أحد عندما ننشر نقداً سينمائياً جاداً ومسـئولاً، يشبه قليلاً ما يكتب في بلاد أخرى ويقاطع قليلاً المدارس القديمة ويقـدم ما هو جيد، تماماً كالنقد الشرير". لم تكن الرسالة الوحيدة ولا الإجابة الوحـيدة. فقد واجهنا موظفو السينما بصرخات مريرة وتلقينا رسائل متناقضة مـن القـراء المخدوعين. ولكن كل هذا كان جيداً: عاش الركن إلى أن تحول النقد السينمائي إلى حالة دائمة في البلاد، وتحول إلى روتين صحافي وإذاعي.

منذ ذلك الحين، وفي أقل من عامين، نشرت خمساً وسبعين مقالة نقدية في الافتتاحـية، وخبراً موقعاً باسمي وآخر غير موقع كل ثلاثة ايام، وعلى الأقل ثمانين تحقيقاً ما بين ما تحمل توقيعي أو مجهلة، وبدأت المقالات الأدبية تنشر من ذلك الوقت في الملحق "مجلة الأحد" للصحيفة نفسها، من بينها عدة قصص وسلسـلة كاملـة عـن "لاسييربي" التي توقفت عن نشرها في مجلة "لالمبرا" لخلافات داخلية.

كان أول رخاء في حياتي، ولكن بلا وقت للاستمتاع به، والشقة المفروشة التي استأجرتها بخدمة الغسيل والحمام والتليفون والإفطار في السرير، ونافذة كبـيرة مطلة على المطر الأبدي في هذه المدينة الأكثر تعاسة في العالم، كنت أسـتخدمها فقط من الساعة الثالثة فجراً وبعد ساعة من القراءة، وحتى سماع أخبار الإذاعة الصباحية حتى أكون على علم بتوجهات أخبار اليوم الجديد.

لم أترك التفكير مع بعض القلق، أنه للمرة الأولى يكون لي فيه مكان دائم وخـاص بي أعيش فيه دون أن يكون لدي الوقت حتى الانتباه إلى ذلك. كنت مشغولاً جداً لمواصلة أمور حياتي الجديدة، إلى درجة أن مصاريفي المعروفة

كانت المبلغ الذي كنت أرسله مع نهاية كل شهر لإنقاذ العائلة. وانتبهت اليوم فقــط أنه لم يكن لدي الوقت للانشغال بحياتي الخاصة. ربما كانت تعيش في داخلــي الأمهات الكاريبيات، وأن بنات العاصمة يستسلمن لأبناء الشاطئ بلا حــب فقــط لاستكمال الحلم بالحياة في مكان يقع في مواجهة البحر. مع ذلك، ففــي شــقتي الأولــى كعازب في بوجوتا استطعت أن أحصل على هذا دون أخطار، من أول ما سألت البواب إن كان مسموحاً بزيارات صديقات منتصف الليل، فأجابني بالإجابة التي كنت أعرفها:

– ممنوع يا سيدي، لكنني لا أرى ما لا يجب رؤيته.

مــع نهايــات يوليو، ودون علم مسبق، وقف خوسيه سالجار أمام مكتبي بيــنما كنت أكتب مقالتي الافتتاحية، ونظر إليّ طويلا وفي صمت، توقفت في منتصف الجملة وقلت له مستسلماً:

– يا لها من مشكلة!.

لــم يرمش حتى بعينيه، كان يلعب بقلمه الملون، وبابتسامة شيطانية يبدو توجههــا واضحاً أكثر من اللازم، وشرح لي دون أن أسأله أنه لم يصرح لي بعمــل تحقيق مذبحة الطلاب في الطريق السابع لأنها كانت معلومات صعبة لمحرر مبتدئ. فيما الآن، يعرض على مسئوليته شهادة محرر تحقيقات بشكل مباشر، ولكن بلا أي تفكير في التحدي، إذا كنت قادراً على قبول عرض قاتل:

– لماذا لا تذهب إلى ميديين وتحكي لنا بأي شيطان حدث ما حدث هناك؟

لــم يكن من السهل فهمه، لأنه كان يحدثني عن شئ حدث قبل أسبوعين، وهو ما يجعلني أشك في أنه سيكون طعاماً قديماً لا يمكن إنقاذه، معروف أنه يوم ١٢ يوليو حدث انهيار أرضي في منطقة "مديا لونا"، مكان وعر يقع إلى الشــمال مــن ميديــن، لكن الفضيحة الصحافية وفوضى السلطات والرعب المنتشــر بين المصابين تسببت في تعقيدات إدارية وإنسانية تخفي الحقيقة، لم يطلــب مني سالجار أن أبحث عن ما حدث بكل الطرق الممكنة، بل أن أعيد

ترتيـــب وقائع ما حدث على أرض الواقع، ولا شئ أكثر من الحقيقة. في أقل وقت ممكن. مع ذلك، كان هناك شئ في طريقته في الحديث، جعلني أشك في أنه قرر أن يترك لي الحبل على الغارب.

حتى ذلك الوقت، لم يكن يعرف العالم عن ميديين سوى أنه في هذا المكان مـــات مطـــرب التانجو كارلوس جارديل، متفحماً في كارثة جوية. وأنا كنت أعرف أنها أرض كُتَّاب وشعراء كبار، وأن هناك توجد مدرسة لا بريسنتاثيون التي بدأت فيها مرثيدس بارتشا دراستها خلال ذلك العام. إزاء مهمة مثل هذه لم يكن من المعقول إعادة تركيب الجبل المنهار قطعة قطعة، ومنها طرت إلى ميديـــن فـــي الحادية عشرة صباحاً في ظل عاصفة رهيبة جعلتني أحلم بأن أكون آخر ضحايا هذا الانهيار الأرضي.

تركـــت حقيبتي في فندق نوتيبارا بملابس يومين ورباط عنق للطوارئ، واندفعـــت إلى الشارع، في مدينة لا تزال تعيش تحت رعب العاصفة، رافقني ألفـــارو موتيس في تلك الرحلة ليساعدني على تحمل خوفي من الطائرة، وقدم لي عناوين بعض الأشخاص العارفين بحياة المدينة. ولكن الحقيقة أنني لم تكن لـــدي أدنى فكرة عن من أين أبدأ. سرت في الشوارع كيفما اتفق، تحت ذرات من الذهب وشمس ما بعد العاصفة الرائعة. وبعد حوالي ساعة اضطررت إلى اللجـــوء إلى أحد المخازن، لأن الأمطار عادت تهطل من جديد فوق الشمس. حينها بدأت أشعر في صدري بأول أحاسيس الرعب. حاولت إخفاءها بوصفة جدي السحرية أثناء القتال، لكن الخوف من الخوف انتهى بالقضاء على حالتي المعـــنوية. وانتبهت وقتها إلى أنني لا يمكن أن أنجز ما طلبوه مني أبداً، ولم تكـــن لدي الشجاعة الكافية لقول هذا. فهمت وقتها أن الشيء الوحيد الجاد هو أن أكتـــب رسالة لجييرمو كانو وأعود إلى بارانكيا للحالة البائسة القديمة التي كنت أعيش فيها قبل ستة أشهر.

بشـــعور أننـــي خرجت من الجحيم ركبت تاكسياً في طريق عودتي إلى

الفندق، بدأت نشرة أخبار منتصف النهار بتعليق من خلال صوتين حكيا كيف حدث الانهيار الأرضي. انطلق السائق زاعقاً ضد خيبة الحكومة وسوء تقديم المساعدة للضحايا، فشعرت بأنني مذنب وأتحمل مسئولية غضبه. لكن في هذه اللحظة عدت إلى خوفي، وتحول الهواء إلى سكون أمام انفجار ألوان الزهور فـــي حديقة بيريو. وفجأة، دون أن أعرف لماذا، شعرت بأولى رياح الجنون، فقلت للسائق:

– هل لك أن تقدم لي جميلاً. قبل المرور بالفندق خذني إلى مكان الانهيار الأرضي.

قال لي:

– لا يوجـــد هناك شئ يستحق المشاهدة، فقط الشموع المشتعلة والصلبان المنصوبة على أرواح الموتى الذين لم يتمكنوا من إخراج جثثهم.

فانتبهـــت إلـــى أن الضـــحايا والأحياء يوجدون في مكانين مختلفين من المديـــنة، وأن هـــؤلاء اندفعوا جماعات لإنقاذ أجساد الضحايا عند أول انهيار أرضــــي، ثم كانت المأساة الكبرى عندما اقترب محبو الاستطلاع من المكان، وانهـــار جـــزء آخـــر من الجبل وزحف على الجميع. أي أن الوحيدين الذين تمكـــنوا من الحديث هم القلة الذين نجحوا في الهرب من الانهيارات المتتالية وكانوا أحياء في الجانب الآخر من المدينة.

قلت للسائق محاولاً السيطرة على ارتعاش صوتي:

– أفهمك، خذني إلى حيث يوجد الأحياء.

دار نصف دورة في منتصف الشارع وانطلق في الاتجاه المعاكس. صمته لم يكن نتيجة لسرعته الآن، بل أملاً في أن يقنعني بمبرراته.

في بداية الخيط كان هناك طفلان من ثمانية وأحد عشر عاماً، خرجا من منزلهما للبحث عن الأخشاب للتدفئة في السادسة من صباح الثلاثاء ١٢ يوليو، وابتعدا ما يقرب من مائة متر عندما شعرا بزحف الأرض المنهارة والحجارة

تتجه نحوهما بجانب المنحدر، هربا في آخر لحظة. وتركا في بيتهما ثلاثة من أخوتهمـــا الصـــغار وأمهما وشقيق حديث الولادة، الوحيدون الباقون من هذه الأســـرة همـــا الشـــقيقان والأب الـــذي خـــرج للعمل مبكراً على بعد عشره كيلومترات من البيت.

كـــان المكان عبارة عن مكان أجرد قاحل بالقرب من طريق ميديين إلى ريونجـــرو، وفـــي الثامـــنة صباحاً لم يكن فيه بقية من أهل الموتى، وأذاعت الإذاعات النبأ بشكل مبالغ فيه من خلال تقديم تفاصيل كثيرة دفعت بالكثيرين إلـــى الاقـــتراب من مكان الحدث قبل وصول رجال الإطفاء - ومع منتصف الـــنهار حـــدث انهياران آخران بلا ضحايا، لكنه زاد من التوتر العام، وقامت إحـــدى الإذاعـــات بوضع ميكروفونات في المكان لتذيع الكارثة على الهواء مباشرة. في تلك الساعة كان هناك تقريباً كل سكان القرى المجاورة والأحياء القريـــبة، إضـــافة إلـــى محبـــي الاستطلاع الذين جاءوا بعد سماع الاذاعة، والمســـافرين الذيـــن هبطوا من الأتوبيسات، فكان هبوطهم معرقلاً أكثر منه لمساعدة الضحايا. وإضافة إلى الجثث القليلة التي بقيت تحت الانهيار الأول، فإن حوالي ثلاثمائة ضحية نتجت عن الانهيارات التالية. مع ذلك وعندما كان اللـــيل علـــى وشك الهبوط، كان هناك أكثر من ألفي متطوع يواصلون تقديم المعونـــة بحـــثاً عن الأحياء، وعندما حل المساء لم يكن هناك مكان للتنفس. فالـــزحام كـــان كثيفاً وفوضوياً بحلول السادسة، عندما حدث انهيار جديد من ستمائة ألف متر مكعب من الأرض برعد رهيب تسبب في مزيد من الضحايا كمـــا لـــو كـــانوا في حديقة بيريو بميديين. كانت كارثة سريعة وضعت أمام الدكـــتور خافيير مورا، سكرتير الأشغال العامة بالبلدية، جثة أرنب لم يستطع الهرب في الوقت المناسب.

بعد أسبوعين، عندما وصلت إلى المكان، كانوا أخرجوا أربع وسبعين جثة فقـــط، كثيرون تم إنقاذهم أحياء، معظمهم لم يكن ضحية للانهيار الأرضي بل

بســبب عدم الحيطة والتضامن الفوضوي. تماماً كما في زلازل لم يتمكن أحد مــن إحصاء عدد الأفراد الذين استغلوا الفرصة للهرب من مشاكلهم دون أن يــتركوا أثــراً، للهرب من ديون أو لتغيير الزوجة. مع ذلك، فإن حسن الحظ لعب دوراً مهماً، فقد أثبتت التحقيقات التالية أنه منذ اليوم الأول، وبينما كانوا يحاولون إنقاذ الضحايا، حدث انهيار آخر مكون من حجارة ضخمة كان يمكنه أن يتســبب في قذف خمسين ألف متر مكعب. وأكثر من خمسة عشر بعدها، أمكنني بمساعدة الأحياء إعادة ترتيب وقائع الحكاية التي ما كان ممكناً التعرف عليها لحظة الحدث بسبب العقبات التي يفرضها الواقع.

اقتصرت مهمتي على البحث عن الحقيقة الضائعة في زحمة الافتراضات المتناقضــة وإعادة تركيب الدراما الإنسانية طبقاً لوقوعها بعيدا عن الحسابات السياســية والعاطفــية. وضعني ألفارو سونيس على الطريق الصحيح عندما أرســل لي خبيرة الدعاية ثيثيليا وارن التي نظمت لي البيانات التي عادت بها مــن مكــان الكارثــة. تم نشر التحقيق على ثلاث حلقات وكان له على الأقل فضــيلة إعادة الاهتمام بالحدث المنسي بتأخير أسبوعين، ووضع المأساة في مكانها.

إلا أن أفضل ذكرياتي عن تلك الأيام لم تكن ما فعلته أنا بل ما كنت على وشــك أن أفعلــه، بفضــل خيال صديقي القديم في بارانكيا اورلاندو ريفيرا المعروف باسم شهرته فيجوريتا، الذي عثرت عليه خلال إجراء تحقيقي، كان يعــيش فــي ميديين منذ عدة أشهر، وكان سعيداً بعد زواجه الحديث من سول ســانتاماريا، راهبة لطيفة جداً، ومنطلقة الروح كان قد ساعدها على الخروج مــن الديــر بعــد سبع سنوات من الفقر، والطاعة والحرمان. وخلال إحدى سكراتنا، كشف لي فيجوريتا بأنه مع زوجته، ودون دافع من أحد، وضعا خطة رائعــة لإخــراج ميرثيدس بارتشا من المدرسة الداخلية، وهناك قس صديق مشهور بفنه في تزويج البشر، كان مستعداً للقيام بدوره في أية لحظة، بشرط

واحد، أن توافق ميرثيدس بالطبع، لكننا لم نجد طريقة لاستشارتها وهي داخل أربعـــة جدران. أشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى أنني نادم على عدم تنفيذ هــذه الخطة. أما ميرثيدس من ناحيتها فلم تكن تعرف شيئاً وبعد خمسين عاماً قرأتها في مسودات هذا الكتاب.

كانت تلك إحدى المرات الأخيرة التي شاهدت فيها فيجوريتا، في كرنفال عام ١٩٦٠، كان مرتدياً قناع نمر كوبي، وانزلقت قدمه من على العربة التي كـــان يســـتقلها أثناء عودته إلى البيت بعد معركة الزهور، وسقط في بتلات الزهور وبقايا الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي عن الانهيار الأرضي بميديين كان ينتظرني في الفـــندق اثـــنان من شباب الصحفيين من مجلة "الكولومبيانو" –كانا أصغر سناً منـــي– كان يرغبان في إجراء مقابلة معي عن قصصي المنشورة حتى ذلك الوقـــت، بـــذلا جهداً كبيراً لإقناعي لأنني كنت دائماً – وربما كان هذا خطأ– ضد المقابلات الصحافية المفهومة على أنها جلسة أسئلة وأجوبة تدفع الطرفين إلـــى بـــذل جهـــد كبير للتوصل إلى حديث يكشف معلومات معينة، ظل معي إيماني بعقم المقابلات في الصحيفتين اللتين عملت فيهما، خاصة في كرونيكا، حيـــث حاولت أن انقل رفضي هذا إلى مساعدي. إلا أنه في النهاية نزلت عند رغبـــتهما لإجـــراء المقابلـــة الأولى لمجلة "الكولومبيانو" وكانت جادة إلى حد الانتحار.

عدد المقابلات التي كنت ضحيتها لا يُحصى على مدى خمسين عاما وفي رحلاتي عبر العالم ولم أتمكن حتى الآن من إقناع نفسي بأهمية هذا النوع من الصـــحافة، لا مـــن ناحيتي ولا من ناحيتهم. فمعظم المقابلات التي فشلت في تجنـــبها عن أي موضوع من المفترض اعتبارها جزءاً من أعمالي الإبداعية. فهي لم تكن سوى: تخيلات عن حياتي. العكس تماماً، فأنا أعتقد أنها نوع آخر مـــن الصـــحافة وقيمته أكبر، ليس بسبب نشرها ولكن كمادة أساسية للتحقيق

الصحفي الذي أقدره كنوع من الأنواع التي تنتجها أفضل مهنة في العالم.

علـــى أي حال فإن ذلك الوقت لم يكن يصلح لإقامة الاحتفالات، فحكومة الجنرال روخاس بينيا الذي أصبح على عداء مفتوح مع الصحافة وجانب كبير مـــن الـــرأي العـــام العالمي، توج شهر سبتمبر بقرار يقضي بتوزيع مقاطعة "تشاكو" المنسية بين جيرانها من المقاطعات الأخرى: أنتيوكيا وكالداس وفالي. بالنسبة لعاصمة تلك المقاطعة "كيبدو" يمكن الوصول إليها فقط من ميديين عبر طـــريق ضـــيق من اتجاه واحد ويحتاج إلى عشرين ساعة لقطع مائة وستين كيلومتراً فقط. وحال الطريق اليوم ليست أفضل من حالته في السابق.

اعتـــبرنا فـــي هيـــئة تحرير الصحيفة أن هناك الكثير لعمله لمنع تمزيق المقاطعـــة بقرار حكومة لها علاقة سيئة مع الصحافة الليبرالية. أخبرنا بريمو جيريرو مراسل الاسبكتادور في كيبدو بعد ثلاثة أيام أن هناك مظاهرة شعبية لعـــائلات كاملة حتى الأطفال احتلت الساحة الرئيسية مقررة البقاء هناك تحت الشمس الحارقة حتى تتراجع الحكومة عن تحقيق هدفها. كانت الصور الأولى للأمهـــات المـــتمردات بأطفالهـــن بين أذرعهن وهن يواجهن إجهاد الأيام في العـــراء. كـــنا نقوي تلك الأخبار في هيئة التحرير بآراء وتصريحات بعض السياســـيين والمثقفيـــن التشكوانو المقيمين في بوجوتا. لكن يبدو أن الحكومة قررت ألا تلقي بالاً لكل هذا. بعد عدة أيام، اقترب خوسيه سالجار من مكتبي وعرض عليّ أن أذهب إلى هناك للتحقق عن ما يجري في الواقع في تشاكو. حاولـــت مقاومـــة الفكرة بالسلطات القليلة التي كنت أملكها بعد نجاح التحقيق الذي كتبته عن ميديين. لكن حيلتي لم تفلح، فقد زعق جييرمو كانو الذي كان يكتب مولياً ظهره لنا:

-اذهب يا جابو، نساء تشاكو أفضل من تلك اللاتي كنت تريد رؤيتهن في هاييتي.

لذلـــك فقد ذهبت دون أن أسأل نفسي حتى كيف يمكنني كتابة تحقيق عن

مظاهــرة احتجاجــية ترفض العنف. رافقني المصور جييرمو سانشيث، الذي كـــان يطاردنــي منذ عدة أشهر لنذهب معاً لإجراء تحقيق في الحرب. ومن إرهاقي سماع جملته تلك صرخت فيه:

– أي حرب!.

أطلق في وجهي تلك الحقيقة:

– لا تكــن جــباناً، يا جابو، فأنا أسمعك في كل لحظة تقول إن هذا البلد يعيش حالة حرب منذ الاستقلال.

جاء في صباح ٢١ سبتمبر إلى صالة التحرير مرتدياً ملابس رجال حرب العصابات بكاميرات وحقائب صغيرة معلقة في كل أجزاء جسده، لنذهب معاً لتغطــية الوقائع الحربية. أول مفاجأة أن الوصول إلى تشاكو يتم قبل الخروج مـــن بوجوتا عن طريق مطار ثانوي لا توجد به أية خدمات من أي نوع، من بيـــن بقايا سيارات قديمة وطائرات مؤكسدة. كانت طائرتنا، لا تزال على قيد الحياة بفض فنون سحرية. كانت من نوع كاتالينا الشهيرة في الحرب العالمية الثانـــية، جهــزتها شركة مدنية لتكون طائرة نقل، لم تكن بها كراسي. داخلها كئيـــب ومظلـــم بنوافذ صغيرة وقذرة محملة بشحنة ألياف مخصصة لصناعة المقشـــات. كنا نحن الاثنين المسافرين الوحيدين، وكان مساعد الطيار مشمراً عـــن أكمامــــه، شاب يتحرك كطياري السينما، علّمنا كيف نجلس على الشحنة لنكون في وضع مريح، لم يتعرف عليّ لكنني كنت أعرف أنه كان أحد لاعبي البيسبول المعروفين في دوري كارتاخينا.

صــــعود الطائرة كان مرعباً، وبشكل خاص بالنسبة لمسافر مثل جييرمو سانشـــيث الذي كان يطير أول مرة وأصوات قعقعة أجزاء الطائرة التي كانت تـــبدو علــــى وشك التفكك، ولكن ما أن استقرت الطائرة في السماء المنبسطة حـــتى انزلقت كمحارب مخضرم. إلا أنه قبل ميديين بقليل فاجأتنا عاصفة من الأمطار عندما كنا نطير فوق منطقة من الغابات بين مرتفعين، وكان علينا أن

نمـــر بيـــنهما، فـــي تلك اللحظة عشنا ما أعتقد أن القليل من البشر عاشه في حـــياته: هطلـــت الأمطار داخل الطائرة عبر شقوق توصيلات الأجزاء. قفز مســـاعد الطـــيار الصـــديق، بين شحنة المقشات وقدم لنا بعض صحف اليوم لنستخدمها كمظلات واقية من المطر. غطيت وجهي بالصحيفة لا لاتقاء المطر ولكن حتى لا يراني أحد أبكي من الرعب.

مالـــت الطائـــرة على جانبها الأيسر بعد حوالي ساعتين من حسن الحظ والصدفة، وبدأت في الهبوط في وضع هجومي فوق الغابات الكثيفة، ثم دارت دورتين استطلاعيتين على الساحة الرئيسية لمدينة كيبدو، فيما استعد جيبرمو سانشـــيث لالـــتقاط صور المظاهرة من السماء، لم يعثر إلا على ساحة خالية تمامـــاً. ثم دار الطيار ليتأكد أنه ليست أمامه اية عقبات حية ولا ميتة في نهر أتراتو الهادئ وهبط هبوطه السعيد مع قيلولة منتصف النهار.

كانـــت الكنيســـة محاطـــة بألواح خشبية، والكراسي الأسمنتية عليها بقايا الطيور وبغلة طليقة كانت تأكل من أفرع شجرة ضخمة، كانت هذه كل مظاهر الحياة الدالة على وجود بشري في الساحة المتربة التي تشبه عاصمة أفريقية. أول هـــدف لنا كان التقاط صور جوية للمتظاهرين وإرسالها إلى بوجوتا مع الطائـــرة العـــائدة، بيـــنما نبحث عن معلومات كافية ومباشرة لإرسالها عبر التلغراف للطبعة الصباحية. لم يكن أي من هذا سهلاً، لأنه لم يحدث أي شئ.

قطعـــنا الشارع الطويل الموازي للنهر دون أن نعثر على أحد، ومن على الجانبيـــن توجـــد الدكاكين المغلقة في ساعة الغداء والبيوت السكنية بشرفاتها الخشـــبية البيضـــاء وأسقفها المؤكسدة. كانت الخلفية المطلوبة ولكن ينقصها حـــركة الدراما. صديقنا الطيب بريمو جيريرو مراسل الاسبكتادور، كان في ســـاعة القيلولة ممدداً في سريره المعلق تحت سقيفة بيته، كما لو كان الصمت المحـــيط به سلام القبور. والصراحة التي شرح لنا بها مغامرته لتحقيق هدفه كانت موضوعية. فبعد مظاهرات الأيام الأولى خفت حدة التوتر، ولم يعد لديه

موضوع آخر للعمل. فقرر تحريك القرية كلها في مظاهرة احتجاجية مستخدماً تقنـية مسـرحية، وتـم التقاط بعض الصور التي لم يتم نشرها لأنها لم تكن مقـنعة، وتم إلقاء عدة كلمات وطنية هزت البلاد. لكن الحكومة ظلت ساكنة، فقرر بريمو جيريرو أن يبقي على الاحتجاج حياً في الصحافة عبر التلغرافات فقط.

مشكلتنا المهنية كانت بسيطة: أننا لم نبدأ مغامرتنا الطرزانية لنخبرهم بأن نـبأ المظاهرات ليس صحيحاً. بالمقابل كانت بين أيدينا الوسائل ليكون الخبر صحيحاً، ونكمل مهمتنا بتحقيق هدف مراسلنا. عرض علينا بريمو جيريرو – حيـنها – إعداد مظاهرة احتجاجية متنقلة مرة أخرى. ولم يخطر على بال أي منا فكرة أفضل. وكان مساعدنا المتحمس هو لويس كانو الحاكم الجديد المعين بعد استقالة الحاكم الأخير احتجاجاً على قرار الحكومة، ووصل تعاونه إلى حد تأخـير إقـلاع الطائـرة لتتمكن الصحيفة من الحصول على صور جييرمو سانشـيث السـاخنة. وهكذا تحول الخبر الذي اخترعناه تحت ضغط الحاجة ليصبح الحقيقة الوحيدة، وتم توسيعها في الصحافة ومنحها أهمية لتنتشر بطول البلاد وعرضها، وتلقفتها الحكومة العسكرية لإنقاذ ماء الوجه. وبدأت في تلك اللـيلة حركة تظاهرية عامة بقيادة سياسيين ينتمون إلى تشاكو – بعضهم لهم تأثـير واسـع فـي بعض قطاعات المجتمع– وبعدها بيومين أعلن الجنرال روخاس بينيا إلغاء قراره السابق بتوزيع مقاطعة تشاكو على جيرانها.

لـم نعد – جييرمو سانشيث وأنا – إلى الصحيفة على الفور، بل استطعنا أن نقـنعهم بالسـفر داخـل تشـاكو لنتعرف على الواقع الحقيقي لذلك العالم المدهـش. وبعد عشرة أيام من الصمت، عندما دخلنا صالة التحرير محترقين بالشمس ونكاد نسقط على الأرض من النعاس، استقبلنا خوسيه سالجار سعيداً ولكن في إطار قانونه الخاص، وسألنا بحقيقة لا تقبل الجدل:

- هل تعرفون منذ متى انتهت أخبار تشاكو؟.

وضـــعني هذا السؤال لأول مرة أمام واقع الصحافة القاتل. بالفعل لم يعد أحـــد يهتم بأخبار تشاكو منذ أن تم نشر القرار الرئاسي بعدم تمزيقها، إلا أن خوسيه سالجار دعمني متحملاً مخاطر طبخ ما يمكن من هذه السمكة الميتة.

ما كنا نريد أن نوصله عبر أربعة تحقيقات هو اكتشاف بلد آخر لا يعرفه أحد في كولومبيا نفسها، والذي لا نهتم وجوده. وطن سحري بطبيعته المزهرة ومـــياهه الجاريـــة الأبديـــة، يُشكِّل كل شئ فيه صورة غريبة للحياة اليومية. وكانـــت هـــذه الكمية الهائلة من الأنهار المتوحشة تمثل الصعوبة الكبرى أمام تعبيد طريق أرضي، ولم يكن هناك أكثر من جسر واحد في كل هذه الأرض. عـــثرنا على طريق عبر الأدغال البرية، تكلفت مبلغاً ضخماً من المال لربط قـــرية "اتسمينا" مع قرية "يوتو"، لكن الطريق لم يكن يمر، لا بهذه القرية ولا تلك، عقاباً من المقاول على القضايا المعلقة بينه وبين عمدتي القريتين.

فـــي بعـــض القرى الداخلية طلب منا ساعي البريد أن نحمل لزميله في اتسمينا بريد الأشهر الستة الأخيرة. كان ثمن علبة سجائر هناك ثلاثون سنتيماً مثل باقي مناطق البلاد، ولكن عندما تتأخر الطائرة الأسبوعية المكلفة بتوزيع الســـجائر يتضـــاعف ثمـــنها مع كل يوم تأخير. إلى أن يجد السكان أنفسهم مجبريـــن علـــى تدخيـــن السجائر الأجنبية التي تصبح أرخص من السجائر الوطنـــية. وجوال أرز يزيد ثمنه خمسة عشر بيزو أكثر من سعره في مكان زراعـــته، لأنهم يحملونه على ظهور البغال التي تحبو على السفوح كالقطط. ونســـاء القرى الفقيرات يبحثن عن الذهب والبلاتين في مجاري الأنهار بينما الـــرجال يصطادون، ويبيعون حصيلتهم كل سبت للتجار الجوالين، كل دستة سمك وأربعة جرامات من البلاتين مقابل ثلاثة بيزوات فقط.

كـــل هـــذا يحـــدث فـــي مجتمع شهير بحبه للدراسة، لكن المدارس قليلة ومـــتفرقة، وعلى التلاميذ أن يسافروا كل يوم عدة فرسخ سيراً على الأقدام أو فـــي قـــوارب ذهاباً وعودة. بعض تلك المدارس كثافتها عالية إلى درجة أنهم

يســتخدمون المكــان أيــام الاثنين والأربعاء والجمعة للأولاد، وأيام الثلاثاء والخميس والسبت للبنات. بقوة الواقع كانت تلك المدارس الأكثر ديمقراطية في الــبلاد، لأن ابن الغسالة الذي لا يكاد يملك طعامه اليومي يدرس في المدرسة نفسها التي يدرس فيها ابن العمدة.

قلــيل منا نحن الكولومبيين يعرف أنه في قلب الغابات توجد أحدث مدينة في البلاد. اسمها "انداجويا"، عند التقاء نهري سان خوان وكوندوتو، وبها نظام تليفونــي مضــبوط، وأرصفة بحرية للقوارب واللنشات التي تمتلكها المدينة بشــوارعها الجميلة ومساحاتها الخضراء المشجرة. وبيوتها، صغيرة ونظيفة، بهــا مســاحات مســورة وسلالم من الخشب على أبوابها، تبدو كما لو كانت مــزروعة فــي النجيل. يوجد في وسط المدينة كازينو وكباريه ومطعم وبار يشربون فيه المشروبات الكحولية المستوردة بأقل سعر عن باقي البلاد. مدينة يســكنها أنــاس من جميع أنحاء العالم، نسوا ذكرياتهم القديمة ويعيشون هناك أفضل من أي أرض أخرى في ظل إدارة السلطات المحلية لمدير منطقة تشكو الباســيفيكية. إنداجويــا فــي الواقع كانت بلداً أجنبياً وممتلكات خاصة، ينهب ســكانها الذهب والبلاتين من أنهارها البدائية ويحملونه في سفن خاصة تخرج إلى جميع بقاع العالم بلا أي رقابة على مخرج نهر سان خوان.

هذه كانت مقاطعة تشاكو التي كنا نريد كشفها للكولومبيين دون أي نتيجة، لأنه ما أن مر الخبر حتى عاد كل شئ إلى مكانه، وظلت تلك المنطقة الأكثر تخلفاً ونسياناً في البلاد. واعتقد ان السبب واضح: كانت كولومبيا دائماً تحمل الشخصــية الكاريبــية المفتوحة على العالم عن طريق حبلها السري في بنما. ولكن الاقتطاع الإجباري لتلك الأرض حكم علينا أن نكون ما نحن عليه الآن: وطــن بعقلية تنتمي إلى الإنديز مع الحكم علينا بأن تكون علاقتنا بالمحيطين الأطلنطــي والباســيفيكي محكومــة بالولايات المتحدة التي تمتلك قناة الربط بينهما.

وقــع الحــياة الأسبوعي في صالة التحرير كان يمكن أن يكون قاتلاً لو لا وجــود أمســيات الجمعــة، فمــا أن ننهــي العمل حتى نتجمع في بار فندق كونتتينــتال، علــى الرصيف المقابل، بحثاً عن حالة استرخاء كثيراً ما تطول حتى فجر اليوم التالي. أطلق إدواردو ثالاميا على تلك الليالي اسماً خاصاً بها: "أيام الجمعة الثقافية". كانت فرصتي الوحيدة لتبادل الحديث معه حتى لا يضيع مني قطار المستجدات الأدبية في العالم، والتي كان يعرفها دقيقة بدقيقة بفضل نهمــه للقــراءة الذي لا يشبع. كان من يعيشون من تلك النقاشات المطولة – إضــافة إلــى اثنيــن أو ثلاثــة، من الأصدقاء الدائمين لأوليسيس– كنا نحن المحرريــن الذيــن لا نخشــى قصف عنق الأرزة حتى ظهور أشعة الصباح الأولى.

لفت نظري دائماً أن ثالاميا لم يعلق أبداً على مقالاتي، رغم أن الكثير منها كانــت مستلهمة من مقالاته، إلا أنه عندما بدأنا أمسيات "الجمعة الثقافية" أطلق لســانه بالتعليق على هذه النوعية من الصحافة. واعترف لي أنه لم يكن متفقاً بمــبررات الكثــير من مقالاتي، وكان يرغب في أن أكتب أخرى، ولكن ليس بلجهة الرئيس في العمل لتلميذه ولكن من كاتب لكاتب.

ملجــأ آخــر كنا نغشاه بعد أمسيات نادي السينما كانت مناقشات منتصف اللــيل فــي شــقة لويــس بيثــنس وزوجته نانسي، على بعد مسافة قليلة من الاســبكتادور. كــان هــو معاوناً لمارسيل كولين ريفال، مدير تحرير مجلة "ســينماتوغرافيك فرانسواز" التي تصدر في باريس، استبدل أحلامه السينمائية بالعمل بائعاً للكتب في كولومبيا، بسبب الحرب الأوروبية. كانت تتعامل نانسي معــنا كمضيفة ساحرة قادرة على زيادة عدد كراسي غرفة طعامها إلى اثنى عشر بدلاً من أربعة، تعارفا في بوجوتا عام ١٩٣٧ في عشاء عائلي. لم يبق فــيه سوى كرسي واحد إلى جوار نانسي التي أصابها الرعب عندما شاهدت دخول المدعو الأخير، بشعره الأبيض وملامحه المحترقة تحت الشمس. قالت

لنفســـها: "يا لسوء الحظ، كُتب عليّ أن أجلس إلى جوار هذا البولندي الذي لا يكـــاد يعـــرف اللغـــة الإسبانية"، كانت على وشك أن تعرف لغته، لأن القادم الحديث كان يتحدث اللغة القطالونية المغلقة المطعمة بالفرنسية، فيما كانت هي طليقة اللسان في اللغة. لكنهما تفاهماً جيداً منذ أول تحية واتفقا على الحياة معاً وإلى الأبد.

بـــدأت سهراتهم عفوية بعد كل حفل لفيلم جديد في الشقة التي تختلط فيها جميع أنواع الفنون، حيث لا يوجد مكان لأي لوحة جديدة للفنانين المبتدئين في كولومبـــيا، بعضهم أصبح فيما بعد شهيراً في العالم كله، ضيوفهما صفوة من بين أكبر الفنانين والكتاب، ومنهم من هم من مجموعة بارانكيا الذين يظهرون هـــناك من وقت لآخر. دخلت أنا كما لو كنت أدخل بيتي منذ أن نشرت أول مقالة في النقد السينمائي، وعندما كنت أخرج من الصحيفة قبيل منتصف الليل كنـــت أسير على قدمي المسافة القريبة وأجبرهما على السهر. المعلمة نانسي، إضـــافة إلى أنها طباخة ماهرة كانت عاشقة لجمع الرؤوس في زواج سريع وحاولـــت كثـــيراً أن تضـــعني أمـــام الأمـــر الواقع مع فتيات جميلات جداً ومـــتحررات ينتمين إلى عالم الفن، ولم تغفر لي أبداً أن موهبتي الحقيقية أنني لم أكن كاتباً ولا صحافياً بل الأعزب الذي لا يغلب.

كـــان ألفـــارو موتيس يستغل المساحات القليلة من وقته خلال رحلاته في العـــالم كله، ليدخلني عالمه. بفضل عمله كرئيس للعلاقات العامة لشركة إسو في كولومبيا. كان ينظم حفلات غداء في أفخم المطاعم ومن خلالها كان يضع كـــل ما يملك لدعم الفنون والآداب، فكان يدعوني كثيراً مع مدعوين من مدن أخـــرى، فالشاعر خورخي جايتان دوران الذي كان يهذي برغبته في إصدار مجلـــة أدبـــية مكلفة للغاية، قدم له ألفارو موتيس جزءاً من تكاليفها من خلال ميزانـــية دعم الثقافة. أما ألفارو كاستانيو كاستيو وزوجته جلوريا فالنثيا، كانا يحاولان منذ سنوات إنشاء إذاعة تتوجه بكاملها لنشر الموسيقى الجيدة، وتضع

الـــبرامج الثقافية في متناول يد الجميع. وكنا جميعاً نسخر من مشروعهما، إلا أن ألفـــارو موتيس فعل كل ما يستطيع لمساعدتهما، وبمساعدته بدأت محطة "العـــالم في بوجوتا" في العمل بقوة ٥٠٠ فولت وهو الحد الأدنى المطلوب في ذلـــك الزمن. وكانت جلوريا فالنثيا أول من اخترع تقديم عرض الأزياء عبر الإذاعة.

الراحة الوحيدة التي كانت تسمح بها تلك الأيام المجهدة كانت في أمسيات أيام الأحد البطيئة في بيت ألفارو موتيس الذي علمني الاستماع إلى الموسيقى دون أحكام مسبقة. كنا نستلقي على السجادة ونسمع بقلوبنا لكبار المؤلفين دون ترهات مثقفة. أصل هذا العشق اكتشفته في صالة الاستماع بالمكتبة الوطنية، ولا أنســـاها أبداً. أستمع اليوم إلى كمية من الموسيقى التي استطعت الحصول علـــيها، وبشـــكل خاص الرومانتيكية للحجرة التي أعتبرها قمة الفنون. عندما كنت في المكسيك أكتب "مائة عام من العزلة" - ما بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ - لـــم يكـــن لـــدي سوى أسطوانتين استهلكتا من كثرة الاستماع: استهلالات لديبوســـي و يا لها من ليلة في ذلك اليوم للبيتلز. بعدها، عندما أصبح لدي في برشلونة كل ما أردت من أسطوانات، اعتقدت أن تصنيفها بالشكل الكلاسيكي علـــى أســـاس حـــروف الأبجدية أمر غير مقبول. ولتسهيل تعاملي الخاص اخترعـــت تنظيماً يعتمد على الأدوات المستخدمة في العزف: التشيللو، وهي آلتـــي المفضـــلة، من فيفالدي إلى برامز، والكمان من كوريلي إلى شونبرج، والبيانو من باخ إلى باترك، إلى أن اكتشفت معجزة أن كل شئ يمكن أن يرن بالموســـيقى، حـــتى الأطباق والملاعق في الغسالة، بشرط أن تشير إلينا بما يحدث في الحياة.

مشكلتي كانت أنني لا أستطيع الكتابة أثناء الاستماع إلى الموسيقى، لأنني كنـــت أنتبه إلى ما كنت أسمعه أكثر من الذي أكتبه، ولا زلت أحضر حفلات موسيقية قليلة جداً لأنني أشعر أن الكرسي يضعني في مساحة خاصة تتداخل

مـــع مســـاحات الآخرين المجاورين لي. مع ذلك، مع مرور الزمن وإمكانية امتلاك الموسيقى في البيت، تعلمت الكتابة مع وجود الموسيقى كخلفية مناسبة للكـــتابة نفسها. ليليات "شوبان" تتناسب مع الفصول المسترخية، أما سداسيات "برامـــز" فهـــي للأمسيات السعيدة، العكس لم أعد إلى سماع موزارت طوال ســـنوات، منذ أن تملكتني فكرة شريرة بأن موزارت غير موجود، لأنه عندما يكون بيتهوفن رائعاً يكون هايدن سيئا.

خـــلال الســـنوات التي أتذكرها في هذه المذكرات لم أتمكن من الحصول على معجزة أن أي نوع من أنواع الموسيقى لا تؤثر فيّ سلباً أثناء الكتابة، مع أنـــه قد لا أكون واعياً لفضائلها الأخرى، فقد كانت مفاجأتي الكبرى أن اثنين مـــن الموسيقيين القطالونيين، في شبابهما المبكر، اعتقدا أنهما اكتشفا توجهات عجيـــبة فـــي روايتي السادسة "خريف البطريرك" تربطها بالكونشرتو الثالث للبـــيانو لبيلا باتروك. حقيقي أنني كنت أستمع إليه بنهم بينما كنت أكتب، لأنه كان يخلق لديّ حالة خاصة جداً وغريبة بعض الشيء، لكنني لم أفكر أبداً أنني خضعت لتأثيراته عليّ أو أنه يمكن ملاحظته في كتابتي. لا أعرف كيف علم أعضـــاء الأكاديمية السويدية بضعفي تجاه تلك الموسيقى لأنهم وضعوها أثناء تســـلمي جائزتي. شكرتهم من كل قلبي، بالطبع، لكنهم لو كانوا سألوني -بكل امتنانـــي واحتراماتي - لهم ولبيلا باتروك- كنت أفضل لو أنهم وضعوا أي من رومانثيات فرانثيسكو الأومبري التي كان يعزفها في أعياد طفولتي.

لـــم يكن في تلك الفترة في كولومبيا أي مشروع ثقافي، أو كتاب يستحق الكـــتابة أو لوحة يمكن رسمها قبل أن تمر أولاً على مكتب موتيس. أنا كنت شاهداً على حواره مع فنان شاب أعد مشروعاً لرحلة إلى أوروبا، لكن تنقصه الـــنقود للســـفر، وقبل أن يكمل حكاية مشروعه أخرج موتيس من درج مكتبه ملفاً سحرياً وقال:

-هذه تذكرة السفر.

كنــت أرى تلــك المعجزات التي يصنعها مندهشاً بطبيعيته، ولهذا لازلت أتســاءل إن كانت له يد في طلبي حضور كوكتيل سكرتير الجمعية الكولومبية للكُــتَّاب والفنانين، أوسكار ديلجادو، وأن أشارك في المسابقة الوطنية للقصة التــي كانت على وشك الإلغاء. قالها بطريقة سيئة إلى درجة أنني شعرت أن الطلــب كــان خارجــاً عن حدود الأدب، ولكن أحدهم سمع أوسكار يتحدث فأوضـــح أنه لا يمكن لأحد في بلد مثل بلدنا أن يكون كاتباً دون أن يعرف أن المسابقات الأدبية ليست سوى لعبة اجتماعية. أنهى حديثه بمكر قائلاً: "حتى جائــزة نوبل"، ودون أن يفكر وضعني في حالة دفاع من وقتها لانتظار قرار آخر بعد سبعة وعشرين عاماً.

كانت لجنة تحكيم مسابقة القصة مكونة من هيرناندو تيليث وخوان لوثانو أي لوثـــانو، وبدرو جوميث فالديراما وثلاثة آخرين من كبار الكُتَّاب والنقاد. ولهذا لم أضع في اعتباري مبررات أخلاقية ولا اقتصادية، سوى أنني أمضيت لــيلة كاملة لإجراء التصحيحات النهائية لقصة "يوم بعد السبت"، القصة التي كتبتها في بارانكيا تحت إلهام مكاتب صحيفة الناسيونال. وبعد أن رَقَدتْ أكثر من عام في ملفها، اعتقدت أنها يمكن أن تعجب أعضاء اللجنة المحكمة، وهذا هو ما حدث، مع حصولي على مبلغ ثلاثة آلاف بيزو.

فـــي تلــك الأيــام، ودون أي علاقة بالمسابقة هبط عليّ في مكتبي السيد "صامويل ليزمان باو" الملحق الثقافي بسفارة إسرائيل، وكان قد افتتح قبل قليل داراً للنشـــر وأصدر أول كتاب يضم أشعاراً للأستاذ ليون دي جريفي: الخليط الخامس ماماتريتو، كانت الطبعة جيدة وكذلك الأخبار عن ليزمان باوم. ولهذا قدمت له نسخة مصححة من "الورقة الجافة"، وقررنا أن نتحدث في موضوع النشـــر فــيما بعد، وبشكل خاص عن النقود، التي في النهاية - وهذا حقيقة- كانـــت الشـــيء الوحيد الذي لم نتحدث عنه أبداً، وقامت الفنانة ثيثليا بوراس بتصـــميم غـــلاف تجريدي -ولا هي تلقت ثمن عملها- معتمدة على وصفي

لشخصـــية الطفـــل. وقامت ورشة الزنكوغراف بصحيفة الاسبكتادور بتقديم الأكليشيهات ذات الألوان الأربعة هدية.

لم أعد أعرف أي شئ بعدها وحتى مرور خمسة أشهر، عندما اتصلت بي دار نشـــر سيبا في بوجوتا – لم أسمع عن اسمها قط من قبل– لتقول لي إنها طبعت أربعة آلاف نسخة وأنها جاهزة للتوزيع، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها لأن السيد ليزمان باوم اختفى، ولا يعرفون أي شئ عنه. ولا حتى محرري الصـــحيفة أنفســـهم اســـتطاعوا العثور عليه حتى طلوع شمس اليوم، فعرض أوليسيس على المطبعة أن تبيع النسخ للمكتبات على أن يتولى هو بنفسه عمل الدعاية الصحافية والتي بدأها بمقالة لم أشكره عنها حتى هذه اللحظة. كان نقد الرواية رائعاً، لكن معظم الطبعة ظل في المخازن ولم يعرف أحد أبداً كم عدد النسخ المباعة، ولا تلقيت من أحد ولا ثمن مصاصة حلوى.

بعدهـــا بـــأربع ســـنوات، قـــام إدواردو كابابيرو كالديرون مدير المكتبة الأساسية للثقافة الكولومبية بإعداد طبعة جيب من "الورقة الجافة" لتنشر ضمن مجموعة من الأعمال تُباع في شوارع بوجوتا ومدن أخرى. دفع حقوق النشر المـــتفق علـــيها، كانت قليلة ولكنه دفعها حسب المواعيد المحددة، فكانت لها عـــندي قيمة عاطفية باعتبارها أول نقود أحصل عليها مقابل كتاب. كانت في الطـــبعة بعـــض التغييرات لم أتعرف عليها، ولم أهتم بأن تتضمنها الطبعات التالية. بعد ثلاثة عشر عاماً، عندما مررت بكولومبيا بعد إصدار "مائة عام من العزلة" في بوينس أيريس، عثرت في أماكن البيع بشوارع بوجوتا على بعض النســـخ الباقية من طبعة "الورقة الجافة"، واشتريت منها العدد الذي تمكنت من حمله. ومنذ ذلك الوقت عثرت في الكثير من مكتبات أمريكا اللاتينية على بقايا مـــن تلك الطبعة كانوا يبيعونها في مكتبات بيع الكتب التاريخية القديمة. وقبل عاميـــن قامت شركة إنجليزية متخصصة في الكتب القديمة ببيع نسخة موقعة منـــي مـــن الطبعة الأولى من رواية "مائة عام من العزلة" بمبلغ ثلاثة آلاف

دولار.

لم يفلح أي من تلك الحالات في إبعادي عن التفكير في الصحافة ولا ثانية واحـدة، فالـنجاح الأول للتحقيقات المسلسلة أجبرنا على البحث عن مصادر لـتغذية الوحش الذي لا يشبع. والتوتر اليومي اصبح لا يحتمل، ليس فقط في تحديـد هوية الموضوعات والبحث عنها، بل في حالة كتابتها أيضاً، فقد كانت الكتابة مهددة بخيال الإبداع. لم يكن هناك شك في صحيفة الاسبكتادور: المادة الأساسـية فـي العمل المهني هي الحقيقة وليس أكثر من الحقيقة، وهذا كان يضـعنا فـي حالة توتر دائم. انتهينا - خوسيه سالجار وأنا - إلى حالة من الإدمان لا تدعنا في سلام ولا حتى خلال راحات أيام الأحد.

في ١٩٥٦ انتشرت إشاعات تقول إن البابا بيو الثاني عشر أُصيب بحالة مـن الزغطة يمكنها أن تقضي على حياته. الحالة السابقة عليه كانت تذكرني بهـا قصـة "ب أو و" لسومرست موم، التي مات بطلها في منتصف المحيط الهـندي مصاباً بداء الزغطة التي قضت عليه في خمسة أيام، بينما العالم كله يرسل إليه جميع أنواع الوصفات الغريبة. لكني أعتقد أننا لم نكن نعرف القصة في تلك الفترة، إلى درجة أنه خلال نهاية الأسبوع لم نكن نجرؤ على الذهاب بعيداً عن مقر الصحيفة لنكون على استعداد لإصدار طبعة خاصة غير عادية فـي حالـة وفاة البابا. أنا كنت من أنصار إعداد الطبعة وتجهيزها، مع ترك فراغات يمكن ملئها بأول أنباء عن الموت، بعد عامين عندما كنت مراسلاً في روما، كنت لا أزال في انتظار موت البابا.

مشـكلة أخـرى فـي الصـحيفة لا تقاوم، كانت الميل إلى الاهتمام فقط بالموضـوعات المثـيرة التـي تجـذب قراء أكثر، وأنا كنت لا أريد أن أفقد الجمهـور الـذي يفكر بالقلب فقط. من بين القليل الذي تمكنت من الحصول علـيه، لا زلت أحتفظ بالتحقيق الأكثر بساطة الذي أمسكت به من خلال نافذة الأتوبيس. فقد كانت هناك على باب بيت كولونيالي جميل برقم ٥٦٧ بالطريق

الثامـــن، لافتة تقلل من شأن نفسها: "مكتب البريد الوطني المتأخر". لم أتذكر أنني فقدت شيئاً في تلك الأيام، لكني هبطت من الترام وطرقت الباب. الرجل الذي فتح لي كان المسئول عن المكتب مع ستة موظفين مثاليين، منغرسين في أكسيد الروتين، مهمتهم الرومانتيكية العثور على أي رسالة مجهولة العنوان.

كـــان بيتاً جميلاً، ضخماً ومترباً، بأسقف مرتفعة وحوائط أكلها السوس، وممـــرات مظلمـــة وغرف غاصة بأوراق لا صاحب لها. يدخله في المتوسط مائـــة رسالة مجهولة العنوان كل يوم، منها عشر رسائل على الأقل تم وضع الطوابـــع عليها ولكن المظروف أبيض بلا عنوان، ولا يوجد عليها حتى اسم المرسل. يعرفها موظفو المكتب باسم "رسائل إلى الرجل الخفي"، ويبذلون كل جهدهـــم لتوصـــيلها إلى أصحابها أو إعادتها إلى مرسليها. لكن طقوس فتحها بحثاً عن علامات دالة كانت من العمليات البيروقراطية التي لا فائدة منها رغم الجهد المبذول فيها.

تـــم نشـــر التحقـــيق المكتوب في حلقة واحدة تحت عنوان "ساعي البريد يطـــرق الباب ألف مرة"، وبعنوان فرعي: "مقبرة البريد المفقود"، عندما قرأه ســـالجار قال لي: "هذه الإوزة لا يجب قصف عنقها لأنها ولدت ميتة"، ونشر التحقيق، على المساحة التي يستحقها، لا أكثر ولا أقل، لكنني لاحظت أنه كان مثلي يشعر بالمرارة لما كان يمكن أن يكون عليه التحقيق. ربما لأن روخيليو أتشـــابيريا كـــان شاعراً، فقد فرح به بجملة لا أستطيع نسيانها أبداً: "إن جابو يمسك في أي مسمار ساخن".

شعرت بالكآبة بطريقتي الخاصة – ودون أن أحكي ذلك لخوسيه سالجار– فقد قررت أن أبحث عن عنوان رسالة تستحق تحقيقاً خاصاً بها. كانت مرسلة إلى مستشفى الأمراض العقلية "أجواس دي ديوس"، وموجهة لسيدة الحدَاد التي تذهب إلى قداس الخامسة مساء بكنيسة لاس أجواس". بعد محاولات فاشلة مع القس راعي الكنيسة ومساعديه، واصلت لقاء مؤمني القداس لعدة أسابيع دون

أن أتوصـــل إلـــى شـــئ. فاجأنـــي أن أكثر رافضي الكلام هم من كبار السن ويـــرتدون دائماً ملابس الحداد، لكن لا يوجد أحد منهم على علاقة بمستشفى الأمـــراض العقلـــية "اجـــواس دي ديوس". كان فشلاً ذريعاً تأخرت كثيراً في نسيانه، ليس حزناً على نفسي وجهدي الضائع، أو لعدم قدرتي على القيام بفعل الخير، بل لأنني كنت واثقاً من أنه وراء حكاية هذه السيدة هناك حكاية أخرى أكثر إثارة.

علـــى الوتيرة التي كنت أغرق فيها في بحيرات التحقيقات، كانت علاقتي بمجموعـــة بارانكيا تزداد عمقاً وتركيزاً، لم تكن رحلاتهم إلى بوجوتا كثيرة، لكننـــي كنـــت أســـطو عليهم تليفونياً في أي ساعة ولحل أي مشكلة أواجهها. خاصة خيرمان بارجاس، بفضل تعريفه التربوي للتحقيق. كنت أطلب عونهم عند مواجهتي لأي مشكلة، وكانت كثيرة. أو هم يتصلون بي ليهنئونني. كنت دائماً أعتبر ألفارو ثيبيدا كزميل يجلس على الكرسي المجاور. بعد السخريات اللطيفة المتبادلة بيننا التي كانت تتم دائماً في إطار محدد داخل المجموعة، كان ينتزعني من البحيرة ببساطة تغرقني في الدهشة دائماً. فيما كانت تساؤلاتي مع ألفونسو على العكس تماماً أدبية أكثر من أي شئ آخر. كنت أثق في أنه دائماً مـــا ينقذنـــي بالإشـــارة إلى كلمات لكبار المؤلفين أو ليملي عليّ جملة منقذة مأخوذة من جعبته التي لا تنضب. نكتته الكبرى كانت عندما طلبت منه عنواناً لمقالـــة عن باعة الطعام الجوالين الذين تطاردهم السلطات الصحية. رد عليّ الفونسو على الفور:

– من يبيع الطعام لا يموت من الجوع أبداً.

شـــكرته مـــن كـــل قلبي ورأيت أن تلك الجملة مناسبة جداً إلى درجة لم استطع معها سؤاله عن قائلها، أوقفني ألفونسو بقسوة الحقيقة، بأنني أنا قائلها:

– إنها جملتك يا معلمي.

بالضـــبط، كنـــت ارتجلـــتها في إحدى مقالاتي التي لم أكن أُوقِّعها، لكني

نسيتها، دارت هذه الحكاية بين أصدقاء بارانكيا لعدة سنوات، والذين لم أستطع أبداً إقناعهم بأنها لم تكن مداعبة أبداً.

فـــي رحلـــة عرضية لألفارو ثيبيدا إلى بوجوتا أخرجني لبضعة أيام من اختـــناق الأخـــبار اليومية. جاء على أساس إنجاز فيلم لم يكن يملك منه سوى العـــنوان: "الجرادة الزرقاء"، كان خطأ مؤكداً لأن لويس بيثينس وإنريكي جاو والمصـــور الفوتوغرافي نيريو لوبث أخذوا الموضوع بجدية. ولم أعد أعرف أي شـــئ عن المشروع إلى أن أرسل لي بيثينس مسودة سيناريو وطلب مني أن أضيف عليه شيئاً من جانبي على أساس الفكرة الأصلية التي كانت لألفارو. أضـــفت شـــيئاً لا أذكره اليوم، لكن الحكاية كانت مسلية وبها كمية كافية من الجنون لتصبح خاصة بنا.

كل منا أضاف ما استطاع، لكن الأب الحقيقي لها كان لويس بيثينس، الذي وضـــع الكثير من العناصر التي بقيت من مسيرته في باريس. كانت مشكلتي تكمن في بعض تلك التحقيقات المطولة التي لا تترك لي وقتاً للتنفس، وعندما تمكنت من التحرر من منها كان الفيلم في عملية التصوير في بارانكيا.

كانـــت عمـــلاً بدائياً جداً، أفضل ما فيه كان سيطرة البديهة، والتي ربما كانـــت للمـــلاك ألفارو ثيبيدا. ففي أحد عروضه المنزلية المتعددة في بارانكيا حضر المخرج الإيطالي إنريكو فولتشيجونوني، الذي فاجأنا بحماسه: رأى أن الفـــيلم يـــبدو جـــيداً. وبفضل عناد تيتا مانوتاس، زوجة ألفارو، فما بقي من "الجـــرادة الـــزرقاء" تـــم عرضـــه في العالم كله عبر العديد من المهرجانات الجريئة.

كانـــت تلك الأشياء تمنحنا الوقت لنسيان واقع الوطن، الذي كان مرعباً. اعتـــبروا أن كولومبـــيا خالـــية من رجال العصابات منذ أن استولت القوات المســـلحة على السلطة تحت شعار السلام والوفاق بين الأحزاب. لم يشك أحد فـــي أن شـــيئاً تغير، حتى مجزرة الطلاب في الطريق السابع. فالعسكريون،

المتشوقون بأسبابهم، أرادوا أن يبينوا لنا نحن الصحفيين أن هناك حرباً مختلفة عـن تلك الأبدية بين الليبراليين والمحافظين. كنا كلنا نعيش هذا المناخ عندما اقترب خوسيه سالجار من مكتبي بإحدى أفكاره المرعبة:

- استعد لتتعرف على الحرب.

بلا أي تفصيلات، كنا في الخامسة فجراً نستعد للذهاب إلى قرية فيلاريكا، علـى بعد مائة وثلاثة وثمانين كيلومتراً من بوجوتا. وكان الجنرال روخاس بينيا في انتظار زيارتنا، في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته العسكرية المـتعددة فـي ميلجار، ووعد بعقد مؤتمر صحافي ينتهي قبل الخامسة مساء، ليتيح لنا وقتاً كافياً للعودة بصور وأخبار مباشرة.

المدعوون للتعرف عليها، كانوا مراسلي ألتيمبو كانوا راميرو أندرادي مع المصـور خـيرمان كايثيدو، إضافة إلى أربعة آخرين لم أتمكن من تذكرهم، ودانييل رودريجيث وأنا من الاسبكتادور، بعضهم كان يرتدي ملابس الميدان العسكرية، وتم تحذيرنا من أنه ربما يكون علينا أن نتوغل بضع خطوات في الغابات.

ذهبـنا إلـى مـيلجار في أوتومبيل وهناك وزعونا على ثلاث طائرات هليوكوبتر أخذتنا عبر ممر جبلي ضيق ووحيد في سلسة الجبال الوسطى، بقمم عالية ومدببة. أكثر ما أدهشني كان التوتر البادي على الطيارين الشبان الذين كـانوا يتجنـبون مـناطق معيـنة أسقط فيها رجال حرب العصابات طائرة هيلوكوبـتر وأصابوا أخرى في اليوم السابق. هبطنا بعد حوالي خمس عشرة دقـيقة في ساحة ضخمة ومنعزلة في فيلاريكا، كانت أرضيتها لا تحتمل ثقل الطائـرة. حول الساحة كانت هناك بيوت من الخشب تحيط بها مخازن مهدمة ومسـاكن خالـية، عدا واحداً منها مدهون حديثاً هو فندق القرية إلى أن نبت الرعب هناك.

فـي مواجهـة الطائرة وبعيداً على حافة السفح كان هناك بيت وحيد من

الـــزنك لا يكاد يُرى في غبش السفح البعيد. طبقاً لما قاله الضابط الذي رافقنا أن المتمرديـــن كـــانوا هناك. ومعهم أسلحة كافية لقتلنا، لذلك علينا أن نجري باتجاه الفندق بانحرافات زجزاجية، والجسد منحنياً كنوع من الحيطة لتجنب أي رصاصـــات قادمة من السفح. وعندما وصلنا اكتشفنا أن الفندق قد تحول إلى معسكر.

كـــان هناك كولونيل في ملابس الميدان، ويتحرك كفنان سينمائي ولطف ذكـــي، شرح لنا دون انزعاج كبير أنه في ذلك البيت على السفح توجد مقدمة المتمرديـــن منذ عدة أسابيع، وحاولوا من هناك الهجوم على القرية ليلاً مرات عدة، وكان الجيش واثقاً أنهم سيحاولون عمل شئ عندما يرون الهليوكوبتر في الســـاحة، وأن هناك قوات مستعدة لمواجهتهم. إلا أنه بعد حوالي الساعة من الاســـتفزازات التـــي اســـتخدم الجيش فيها حتى مكبرات الصوت، لم يظهر المحـــاربون أي إشـــارة علـــى وجودهـــم. أرسل الكولونيل، محبطاً، دورية استطلاعية ليتأكد أن هناك من بقي في البيت.

خفت حدة التوتر، وخرجنا نحن الصحافيين من الفندق واستطلعنا الشوارع المجـــاورة، وحتى أقلها تجميلاً حول الساحة، بدأنا – المصور وأنا وعدد من الـــزملاء – في الصعود إلى السفح عبر طريق ملتو. وجدنا عند أول منحنى مجموعـــة من الجنود منبطحين على الأرض في وضع استعداد لإطلاق النار، ونصـــحنا أحـــد الضباط بالعودة إلى الساحة، لكننا لم نلق بالاً لنصيحته. كان هدفـــنا الصعود إلى أن نعثر على أي مقدمة للمتمردين تنقذ يومنا من الانتهاء بلا أي خبر كبير.

لـــم يكـــن هناك وقت، سمعنا فجأة عدة أوامر متوالية وتبعها إطلاق نار كثيف، استلقينا أرضاً بقرب الجنود وفتح هؤلاء النار باتجاه البيت على السفح. خـــلال لحظات الهرج فقدت المصور رودريجيث من أمام عيني الذي أسرع للبحـــث عـــن وضـــع استراتيجي يسمح له بالتقاط أفضل الصور، كان تبادل

إطلاق النار قصيراً ولكنه كثيف، خيم بعدها الصمت على المكان.

مـا أن عدنـا إلى الساحة حتى شاهدنا دورية عسكرية تخرج من الغابة وتحمـل جثة على نقالة. رئيس الدورية، متلذذاً، لم يسمح لنا بالتقاط الصور، بحثـت بعينـي عـن رودريجيث فشاهدته يظهر، على بعد خمسة أمتار إلى اليميـن، عندها عشت لحظة مكثفة موزعاً ما بين الشك في أن أصرخ فيه ألا يلـتقط الصور خوفاً من أن يطلقوا النار لتحذيره، وبين الحس المهني لالتقاط الصـورة بـأي ثمن. لم يكن لدي الوقت للاختيار، في لحظة سمعت صرخة رئيس الدورية:

– لا يجب أخذ هذه الصورة.

خفـض رودريجيـث الكاميرا بهدوء واقترب إلى جانبي، مرت صفوف الجنود بالقرب منا، فشعرنا إحساساً مراً بالأجساد الحية وصمت الميت. ما أن مروا حتى همس رودريجيث في أذني:

– التقطت الصورة.

هذا ما حدث، ولكن لم يتم نشرها أبداً، فقد انتهت الدعوة إلى كارثة، كان هـناك جـريحان من الجنود وقُتل اثنان على الأقل من المتمردين وتم سحب جثتيهما حتى الملجأ. تغيرت حالة الكولونيل النفسية من خلال حركة مسرحية، أخـبرنا ببسـاطة أن الـزيارة ألغيت، وانه أمامنا نصف ساعة لتناول الغداء وسنعود على الفور إلى ميلجار براً، لأن الطائرات الهيلوكوبتر محجوزة لنقل الجرحى والجثث. ولم يكشفوا لنا عدد أي منها.

لم يعد أحد يذكر لنا شيئاً عن المؤتمر الصحافي المقرر عقده مع الجنرال روخاس بينيا، مرت بنا عربة الجيب أمام بيته في ميلجار ووصلنا إلى بوجوتا بعد منتصف الليل. كانت تنتظرنا صالة التحرير بكامل هيئتها، فقد اتصلوا بهم مـن مكتب الاستعلامات بالقوات المسلحة ورئاسة الجمهورية ليخبروهم دون تفاصيل بأننا سنصل براً، لكنهم لم يذكروا لهم إن كنا سنصل أحياءً أم أمواتاً.

حـــتى ذلك الوقت، كان تدخل الرقابة العسكرية في الصحافة فقط في حالة الطالب الذي قتل في وسط بوجوتا، ولم يكن هناك رقيب في الصحيفة بعد ذلك الأخـــير ممـــثل الحكومة السابقة الذي استقال والدموع في عينيه عندما لم يعد يحتمل الأخبار الكاذبة وسخرية المحررين. كنا نعرف أن مكتب الاستعلامات والصـــحافة لـــم يكن يغفل عينه عنا. وكثيراً ما أرسلوا إلينا تحذيرات تليفونية ونصـــائح أبويـــة. والعســـكريون الذيـــن أقاموا في البداية علاقات طيبة مع الصـــحافة، عادوا ليكونوا غير مرئيين ويلزمون الصمت المحكم. إلا أن هناك خيطاً وحيداً ظل ينمو في صمت، تم نشر معلومة بلا أساس من الصحة تقول إن رئـــيس تلـــك المعركة في تولميا كان شاباً في الثانية والعشرين من عمره درس القانون، وأن اسمه لم يؤكده أحد ولا تم نفيه: مانويل مارولاندا فيليث أو بدرو أنطونيو مارين، الشهير باسم "تيروفيخو" (الطلقة الثابتة)، عند البحث عن هـــذه المعلومـــة أكـــد مارولاندا زعيم حركة "الفراك" أنه لا يذكر إن كان في الواقع هو أم لا.

لم يكن ممكناً العثور على خبر آخر، وأنا كنت متشوقاً لاكتشافها منذ عدت من فيلاريكا، لكنني لم أعثر على باب أطرقه، ومكتب الاستعلامات والصحافة بالرئاســـة كـــان مغلقـــاً أمامنا، وما حدث في فيلاريكا كان مدفوناً تحت السر العسكري. ألقيت بآخر آمالي في سلة المهملات عندما وقف في مواجهتي تماماً خوســـيه ســـالجار مـــبرزاً دمه البارد الذي لم يكن من شيمه أبداً، وأبرز لي تلغرافاً وصله في التو. وقال:

– هنا ستجد ما لم تره في فيلاريكا.

كانت دراما جماعة من الأطفال تم إخراجهم من القرى بالقوة المسلحة بلا أي خطة أو ميزانية، حتى يمكن تسهيل حرب الإبادة التي يقوم بها الجيش ضد المتمردين في توليما. انتزعوهم من آبائهم للتعرف عليهم من ابن من، وكثير منهم لا يعرفون الإجابة على هذا السؤال، وبدأت المأساة بوصول ألف ومائتين

من الكبار إلى العديد من القرى القريبة من توليا. بعد زيارتنا لميلجار مباشرة. وتـــم تســـكينهم بـــأي طريقة وتم مغادرتهم بعد ذلك تحت رحمة الله. الأطفال المنتزعون من أحضان آبائهم لأسباب لوجيستيكية بحتة تم توزيعهم على عدة ملاجـــئ فـــي الـــبلاد. كان عددهم حوالي الثلاثة آلاف من مختلف الأعمار والحالات، كان ثلاثون منهم من الأيتام، أباً وأماً، ومن بين هؤلاء توأمان يبلغ عمـــرهما ثلاثة أيام فقط، تمت العملية في إطار السرية المطلقة، وتحت حماية الرقابة على الصحافة إلى أن تمكن مراسل الاسبكتادور من إرسال أول إشارة لنا من أمباليما على بعد مائتي كيلومتر من فيلاريكا.

في أقل من ست ساعات عثرنا على ثلاثمائة أقل من عمر خمس سنوات فـــي ملجـــأ "الأمبارو ديل ألنينيو" في بوجوتا. الكثير منهم بلا انتماء ولا يكاد بعضهم ينطق اسمه، هيلي رودريجيث من عمر سنتين لم يكد ينطق اسمه. لا يعرف شيئاً عن أي شئ. ولا حتى أين كان، ولا ماذا ولا يعرف أسماء أبويه ولـــم يتمكن من تقديم ما يمكن معرفة شئ للعثور عليهما. كل ما كان يتمتع به أن يحصل البقاء في الملجأ حتى يبلغ الرابعة عشر من عمره. وميزانية الملجأ عبارة من مساعدة حكومية من ثمانين سنتيما لكل طفل شهرياً، وهرب عشرة مـــن هؤلاء الأطفال خلال الأسبوع الأول بهدف السفر في القطارات المتجهة إلى توليما، ولم نعثر على أثر لأي منهم.

تم إعادة تعميد الكثير منهم بشكل إداري وإطلاق أسماء وألقاب عليهم من منطقتهم حتى يمكن التعرف عليهم، لكنهم كانوا كثيرين ومتشابهين ومتحركين بحيـــث كـــان من الصعب التعرف عليهم وبشكل خاص في برد الشتاء حيث كانوا يستدفئون بالجري في الممرات وعلى السلالم. كانت زيارتي لهم مؤلمة لأسألهم إن كانت الجماعات المسلحة التي قتلت الجندي في المعركة أمكنها أن تترك آثاراً مدمرة بين هؤلاء الأطفال في فيلاريكا.

تلـــك الحكايـــة المزعومة تم نشرها في العديد من الأخبار المتوالية دون

استشـــارة أحـــد. والتزمـــت الرقابة الصمت، ورد العسكريون بتقديم التفسير المعهود: أحداث فيلاريكا كانت جزءاً من حركة واسعة للشيوعيين ضد حكومة القـــوات المســـلحة. كان سطراً واحداً من ذلك الإعلان لأضع في ذهني فكرة الحصـــول علـــى معلومات مباشرة من جيلبرتو فييرا السكرتير العام للحزب الشيوعي الذي لم أره في حياتي أبداً.

لا أذكـــر أنني اتخذت الخطوة التالية بعد الحصول على إذن الصحيفة أم أنهـــا كانـــت مـــبادرة مني، لكنني أذكر أنني اتخذت إجراءات عديدة لم تفلح للاتصال بأي زعيم من الحزب الشيوعي السري لكي أطلب منه معلومات عن الوضـــع في فيلاريكا. كانت العقبة الرئيسية في الحصار العسكري المضروب حول الشيوعيين السريين بشكل لم يكن له مثيل من قبل. عندها اتصلت ببعض الشـــيوعيين الأصدقاء وبعدها بيومين ظهر في مكتبي بائع ساعات آخر كان يبحث عني ليحصل على الأقساط التي لم أتمكن من دفعها في بارانكيا، وقلت لـــه إنني في حاجة إلى الحديث العاجل مع بعض زعمائه الكبار. لكنه أجابني بطريقة معروفة بأنه هو يملك أن يقول لي شيئاً. إلا أنه في ذلك المساء نفسه، ودون سابق انذار، فاجأني في التليفون صوت متناغم وهادئ:

–أهلاً، جابرييل، أنا جيلبرتو فييرا.

رغـــم أنه كان الأكثر شهرة بين مؤسسي الحزب الشيوعي، فإن فييرا لم يعـــرف السجن ولا المنفى دقيقة واحدة، إلا أنه رغم خطورة أن يكون أي من التليفونين مراقباً، أملاني عنوان بيته السري لأزوره في ذلك المساء.

كانـــت شـــقة مكونة من صالون صغير مغمور بالكتب السياسية والأدبية وغرفتيـــن بالطابق السادس بسلالم مظلمة الصعود عليها يقطع الانفاس، ليس بسبب الارتفاع فقط بل بسبب الوعي بأنني سأكون في المكان الأكثر سرية في الـــبلاد. كـــان يعـــيش فييرا مع زوجته، ثيثيليا وابنة حديثة الولادة، وبما أن الـــزوجة لـــم تكـــن في البيت فقد كان يضع سرير طفلته بالقرب منه يحركه

لإسكات بكاءها خلال الحوارات الطويلة. سواء أكانت هذه الحوارات عن السياسة أم الأدب، وإن لم يكن ميالاً للسخرية، كان من المستحيل تخيل أن ذلك الأربعيني المتورد الأصلع ذي العينين الوضاحتين ونطقه الدقيق يكون الرجل الذي يبحث عنه البوليس السري في البلاد.

ما أن دخلت حتى انتبهت إلى أنه كان على علم بحياتي منذ اشتريت الساعة في الناسيونال في بارانكيا. كان يقرأ تحقيقاتي في الاسبكتادور، ويتعرف على مقالاتي المجهولة التوقيع، ويحاول تفسير أهدافها الخفية. إلا أنه كان يتفق معي على أنه أفضل خدمة يمكن أن أقدمها للوطن هو أن أبقى بعيداً عن الانتماءات السياسية.

دخل في الموضوع مباشرة عندما حانت لنا أول فرصة للحديث عن سبب زيارتي له. كان يعلم الأوضاع في فيلاريكا كما لو كان هناك لحظة وقوعها، والتي لم نستطع نشر أي كلمة عنها بسبب الرقابة الرسمية. إلا أنه قدم لي معلومات مهمة لأفهم أن ما حدث ما هو إلا جزء من الحرب الأبدية التي بدأت قبل قرن من خلال مناوشات عرضية. كانت لغته، في ذلك اليوم وذلك المكان، فيها من عناصر لغة خورخي أليثير جايتان أكثر منها من ماركس. وحل الأزمة بالنسبة له لا يتم باستيلاء العمل على السلطة بل بوجود نوع من التحالف بين المقهورين ضد المسيطرين. حظ تلك الزيارة لم يكن فقط إيضاح بعض ما كان يحدث وقتها بل لفهم ما كان يحدث بطريقة أفضل. وهكذا شرحت لجيبرمو كانو وثالاميا، وتركت الباب موارباً ربما تظهر ذيول للتحقيق الناقص. يكفي القول إن فييرا وأنا بدأنا علاقة صداقة سهلت علينا التواصل حتى في الأيام الصعبة من إقامته السرية.

مأساة أخرى ظلت تنمو إلى أن حطمت الحصار المفروض عليها، في فبراير ١٩٥٤، عندما نشرت الصحافة أن واحداً من المحاربين القدامى في كوريا باع نياشينه الرسمية ليحصل على طعامه، كان فقط واحداً من أكثر من

أربعـــة آلاف تم تجنيدهم بالصدفة في لحظة من اللحظات الغريبة في تاريخنا. عندما كانت أي جهة أفضل من لا شئ بالنسبة للفلاحين المطرودين تحت وابل الرصـــاص مـــن أراضـــيهم بســـبب العنف الرسمي. فالمدن غصت بالسكان المهاجريـــن، ولا تقدم لهؤلاء أي أمل في حياة أفضل. وكولومبيا، كما قيل في كـــل يوم تقريباً، في المقالات الافتتاحية، وفي الشوارع والمقاهي، والحوارات العائلـــية، كانـــت جمهورية مستحيل الحياة فيها. وبالنسبة للكثير من الفلاحين المهاجرين والشباب، فإن حرب كوريا كانت الحل لمشاكلهم الشخصية. وهناك كان كل شئ، متداخلاً دون نظر إلى الخلافات المحددة ولم يكن مطلوباً سوى التمتع بجسد صحيح، تقريباً في نفس الظروف التي جاء فيها الإسبان لاكتشاف أمـــريكا. وعـــند العـــودة إلى كولومبيا، نقطة نقطة، فإن هذه المجموعة غير المتجانسة تم تسميتها اسماً عاماً: المحاربون القدامى. كان يكفي أن يقوم أحدهم بـــالدخول في خناقة حتى يتم اتهام الجميع بالذنب. أغلقوا أمامهم أبواب العمل بمبرر سهل وهو أنه ليس لهم حق العمل لأنهم غير متزنين عقلياً. بالمقابل، لم يبك أحد على الذين ضحوا بحياتهم وعادوا في ألفي رطل من الرماد.

نـــبأ رهن النياشين كشف عن الوجه المرعب لنبأ آخر منشور قبله بعشرة أشهر، عندما عاد آخر المحاربين القدماء إلى البلاد بما يقرب من مليون دولار ورقـــية، عندما تم استبدالها في البنوك انخفض سعر الدولار في كولومبيا من ثلاثـــة بـــيزوات وثلاثين سنتيماً للدولار الواحد إلى بيزوين وتسعين سنتيماً. وانخفضـــت مكانـــة المحاربين القدامى عند مواجهتهم للواقع في البلاد. قبيل عودتهـــم نشـــروا أنباء عن انهم سيحصلون على منح خاصة للدراسة، وأنهم سيحصلون على رواتب تقاعد مدى الحياة، وتسهيلات لمن يريد منهم أن يقيم فـــي الولايات المتحدة. والحقيقة كانت العكس تماماً: بعد قليل من وصولهم تم إبعـــادهم من الجيش، ولم يبق أمامهم سوى ما تبقى في جيوبهم ومعظمهم لم يـــبق فـــي جـــيوبهم سوى صور الفتيات اليابانيات اللاتي كن يلتقين بهم في

معســكرات الاستراحة في اليابان، حيث كانوا يبعثون بهم على فترات خلال الحرب.

كــان مــن المســتحيل أن لا تدفعني تلك المأساة الوطنية إلى تذكر جدي الكولونيل ماركيز، الذي انتظر انتظاراً أبدياً وصول راتبه التقاعدي كمحارب قديــم. والذي دفعني إلى التفكير في أن حالته كانت عقاباً للكولونيل لأنه دخل حــرباً دمويــة ضــد سيطرة المحافظين. أما الأحياء من الحرب الكورية فقد حــاربوا ضــد الشــيوعية ودفاعاً عن السيطرة الإمبريالية للولايات المتحدة الأمريكية. مع ذلك فإن معظم هؤلاء المحاربين عند عودتهم لم تكن أسماؤهم تنشر في صفحات الاجتماعيات بل في صفحات الحوادث، أحدهم قتل بريئين بالرصاص وبعدها سأل قضاته: "إذا كنت قد قتلت مائة في كوريا لم لا يمكنني قتل عشرة في بوجوتا؟".

ذلك الرجل، تماماً كغيره من المجرمين، وصلوا إلى الحرب عندما كان قد تــم التوقــيع على نهايتها. إلا أن كثيرين منهم كانوا ضحية للنظرة الرجولية الكولومبــية، التــي بــرزت خــلال الإعلان عن مسابقة قتل محاربي كوريا القدامى. ولم يكونوا قد أكملوا ثلاث سنوات من عودة أول فرقة منهم حتى بدأ موتهــم في حوادث دموية بالعشرات. لأسباب مختلفة، بعضهم قتل في معارك غــير مجدية بعد قليل من عودته، وواحد منهم أصيب بطعنة في خلاف حول تكــرار أسطوانة في كانتين، كان السرجنت المغني، كان مشهوراً بهذا الاسم، يغنــي بجيــتار الاســتراحة من الحرب، ثم قتل بطلقة رصاص بعدها بقليل. محارب آخر طعنوه أيضاً في بوجوتا. ولدفنه تطلب تنظيم جمع تبرعات بين الجيران للوفاء بمتطلبات الجنازة. أما بالنسبة لأنخيل فابيو جوييز الذي فقد في الحرب إحدى عينيه ويده قتله ثلاثة مجهولين لم يتم القبض عليهم أبداً.

أتذكر – كما لو كان بالأمس– أنني كنت أكتب في آخر حلقة من السلسلة رن جــرس التلــيفون على مكتبي، وتعرفت على الفور على الصوت البراق

لمارتينا فونسيكا:

- آلو؟.

تركـت المقالـة فـي منتصف الصفحة تحت ضغط دقات قلبي، وعبرت الشارع لألتقي بها في فندق كونتيننتال بعد اثنتي عشرة سنة دون أن أراها. لم يكن من السهل تمييزها من بين السيدات اللاتي كن يتناولن الغداء في المطعم الغـاص بالبشـر، إلـى أن أشـارت لي بقفازها. كانت ترتدي فستاناً بذوقها الشخصي المعروف، ومعطفاً من الجلد، بثعلب على أحد الكتفين وقبعة صياد، بـدأت السـنوات تـبدو على ملامحها المحترقة من أثر الشمس، وكانت هي منكمشة ببدايات الشيخوخة. كان علينا أن ينتبه كلانا إلى أنه مرت اثنتي عشرة سـنة وهـي كثيرة في العمر. لكننا كنا نتحملها بشكل جيد. حاولت أن أبحث عنها في بارانكيا لكني عرفت أنها تعيش في بنما، حيث يعمل رجلها مدرباً في القناة، ولكن لم يكن تعالياً بل كان خجلاً أنني لم أطرق هذا الموضوع.

أعـتقد أنهـا كانـت قد انتهت من غدائها مع شخص تركها وحدها قبيل حضوري. شربنا ثلاثة فناجين من القهوة ودخنا معاً نصف علبة سجائر بحثاً عـن الحديـث بلا كلام، إلى أن تجرأت هي على سؤالي إن كنت فكرت فيها يومـاً. عندها فقط قلت لها الحقيقة: أنني لم أنسها أبداً. لكن وداعها كان قاتلاً إلى درجة أنه غيَّر شخصيتي. كانت هي أكثر عاطفية مني:

-لا أنسى أبداً أنك أنت مثل ابني.

كانـت قـد قرأت مقالاتي الصحافية وقصصي وروايتي الوحيدة، تحدثت معـي عنها بشكل ذكي ما كان ممكناً سوى بالحب أو العناد. إلا أنني حاولت تجنب شراك الذكريات بسبب جبني. وعندما تمكنت في النهاية من التغلب على التوتر، تجرأت على سؤالها إن كانت قد أنجبت الطفل الذي كانت تريده، قالت هي بفرح:

-وَلدَ، وعلى وشك الانتهاء من الدراسة الابتدائية.

سألتها بمسكنة تنبع من الغيرة:

- أسود كأبيه؟.

لجـــأت هي إلى حسها الفكاهي الدائم وقالت: "أبيض مثل أمه، لكن أبيه لم يذهب من البيت كما كنت أخشى بل اقترب مني أكثر"، وأمام اختناقي الواضح أكدت لي بابتسامة قائلة:

- لا تـــنزعج: إنــــه ابنه، وأيضاً ابنتان متماثلتان تماماً كما لو كانتا طفلة واحدة.

أعلنت عن فرحها بحضوري، وانشغلنا ببعض الذكريات ليست لها علاقة بـــي، واعتقدت أنها كانت تنتظر مني إجابة أكثر خصوصية. لكن ايضا، مثل جمـــيع الرجال، أخطأت الزمان والمكان، نظرت هي في ساعتها عندما طلبت القهوة الرابعة وعلبة سجائر، وقفت بلا مقدمات، وقالت منهية حديثها:

- حســـن يا طفلي، أنا سعيدة لرؤيتك، لأنني لم أعد أحتمل قراءة كتاباتك دون أن أعرف كيف أنت الآن.

وتجرأت على سؤالها:

- وكيف أكون؟.

ضحكت من كل قلبها:

- آه، لا، هذا ما لن تعرفه أبداً.

عندما التقطت أنفاسي أمام الآلة الكاتبة تنبهت إلى أنني كنت دائماً متشوقاً لرؤيـــتها وأن الرعـــب منعنـــي من البقاء إلى جوارها ما تبقى لنا من حياة. والرعب نفسه الذي لا عواء منه منذ ذلك اليوم الذي رن فيه جرس التليفون.

بدأ العام الجديد، عام ١٩٥٥ بالنسبة للصحافيين، يوم ٢٨ فبراير بنبأ عن ثمانـــية مـــن بحارة المدمرة "كالداس" من البحرية الوطنية سقطوا إلى البحر واخـــتفوا خلال عاصفة عندما كان ما تبقى من الرحلة ساعتين للوصول إلى الميناء. كانت المدمرة قد بدأت رحلتها قبل أربعة أيام من موبايل بالباهاما، بعد

عدة أشهر لإجراء إصلاحات روتينية.

بيـــنما كانت هيئة التحرير تستمع إلى أول نشرة أنباء إذاعية عن الكارثة، اســـتدار جيبرمو كانو نحوي في كرسيه الدائري وأمرني بنظرة منه أن أكون علـــى اســـتعداد للسفر. خوسيه سالجار، في طريقه إلى الورش، توقف أيضاً أمامـــي بأعصـــابه ترتعش من الخبر، كنت قد عدت من بارانكيا قبلها بساعة واحـــدة حيث أعددت تحقيقاً عن الدراما الأبدية لمناجم "لاس بوكاس نجراس"، وبدأت أتساءل من جديد في أي ساعة تكون الطائرة التالية إلى الشاطئ للكتابة عن البحارة الغرقى الثمانية. إلا أنه بدا واضحاً من النشرة الإذاعية أن المدمرة ستصـــل كارتاخينا في الثالثة مساء دون أنباء جديدة، لأنه لم يتم العثور على جثث الغرقى الثمانية. أنهى جيبرمو كانوا:

– يا لها من خسارة، لقد غرقت الحكاية.

تـــم تحجيم الكارثة إلى عدد من الأنباء والمعلومات التي تم تبادلها بإحكام ولتكون تأبينا للذين سقطوا خلال أداء الخدمة، ولا شئ أكثر من هذا. مع قدوم نهايـــة الأســـبوع، كشفت البحرية أن أحد الغرقى، لويس أليخاندرو فيلاسكو، وصل متعباً إلى شاطئ أورابا. مجهداً لكن يمكنه التغلب على مشاكله الصحية، وبعـــد أن بقـــي عشرة أيام في قارب بلا مجاديف دون طعام أو شراب. اتفقنا جميعاً على أنه يمكن أن يكون تحقيق العام لو أننا تمكنا من البقاء معه بمفردنا حتى ولو نصف ساعة.

لـــم يكـــن ممكناً. حافظت عليه البحرية بعيداً عن الأعين خلال استعادته لعافيـــته فـــي المستشفى البحري بكارتاخينا. قابله خلال دقائق سريعة المحرر الماكـــر أنطونيو مونتانيا من صحيفة التيمبو الذي دخل المستشفى متخفياً في زي طبيب. لكن نتيجة اللقاء اقتصرت على رسومات بالقلم الرصاص لوضع الغريق على المركب عندما قذفت به العاصفة إلى البحر. وبعض التصريحات المختصـــرة التـــي بدا منها واضحاً أن لديه أوامر بعدم حكي حكايته. صرح

بعدهـــا فيلاســـكو بقولـــه: "لو كنت أعرف أنه صحافي لكنت ساعدته". ما أن اســـتعاد عافيته، وتحت إشراف البحرية أدلى بحديث لمراسل الاسبكتادور في كارتاخيـــنا، لاثيديس أوروثكو، لم يتمكن من الوصول إلى حيث كنا نريد أن نعرف كيف كانت الرياح التي تسببت في مثل هذه الكارثة بسبعة من القتلى.

بالضـــبط لقد كان لويس أليخاندرو فيلاسكو خاضعاً لرقابة صارمة تمنعه مـــن التحرك أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في بوجوتا. أي جانب فني أو سياسي كان يحله لنا بخفة الملازم البحري جييرمو فونسيكا، وبـــنفس الرقة كان يتفادى ذكر معلومات أساسية، وهو ما كنا نرغب فيه في ذلـــك الوقـــت. وهي حقيقة المغامرة. ولمجرد كسب الوقت كتبت سلسلة من المقالات عن المناخ الذي عاد فيه الغريق إلى بيت أبويه، عندما كان مرافقوه مـــن الـــبحرية يمنعوننـــي من الحديث معه. بينما كانوا يسمحون له بالإدلاء بأحاديـــث مـــع الإذاعة المحلية. عرفنا وقتها أننا كنا بين يدي أساتذة في الفن الرســـمي لتجمـــيد الأخبار، وبدأت أفكر لأول مرة أنهم كانوا يحاولون إخفاء حقائق خطيرة عن الرأي العام، وأكثر منه اشتباه كان شبه مؤكد.

ريـــاح شـــهر مارس الباردة وأمطاره المتناثرة كانت تزيد من حدة تأنيب الضـــمير. قـــبل أن أواجه هيئة التحرير حزيناً من هزيمتي، لجأت إلى فندق كونتننتال وطلبت كأساً مزدوجاً تناولته في رشفات بطيئة، دون أن أتخلى عن معطفي الثقيل، عندما شعرت بصوت جميل جداً يكاد يهمس في أذني:

- من يشرب وحده يموت وحده.

أجبت وروحي على كفي متأكداً من أنه صوت مارتينا فونسيكا:

- يسمعك ربنا يا حلوة.

ترك الصوت في الهواء بقايا ياسمين هادئ، لم تكن هي، رأيتها تخرج من الـــباب الدائري وتختفي تحت مظلة صفراء لا تُنسى تحتمي بها من الأمطار الخفيفة. بعد رشفة أخرى عبرت الشارع ووصلت إلى صالة التحرير محاولاً

الحفــاظ علـــى توازني من الرشفتين الأوليتين، عندما شاهدني جييرمو كانو أدخل، أطلق صرخة فرح معلنة للجميع:

– هيا لنرى ما الذي جاء لنا به جابو.

أجبته بالحقيقية:

– لا شئ غير سمكة ميتة.

عندما انتبهت إلى أن الساخرين الذين لا يرحمون في هيئة التحرير بدءوا فـــي حبهم لي، حينما شاهدوني أمر في صمت مجرجراً قدمي، ولم يجرؤ أي منهم على البدء في الطقس المعروف.

ظل لويس أليخاندرو فيلاسكو مستمتعاً بمجده المكبوت. مراقبوه لم يكونوا يســمحون له فقط بالحديث بل كانوا يهيمنون على الحملات الدعائية، دفعوا له خمســمائة دولار وســاعة جديدة ليحكي في الإذاعة عن أن بطولته الحقيقية احــتماله الــبقاء فـــي العراء وحيداً، ومصنع أحذية التنس دفع له ألف دولار ليحكي أنه لم يقضم حذاءه لإسكات الجوع، وفي اليوم نفسه ألقى خطاباً وطنياً وتــرك نفسه لملكة الجمال لتقبله وتقدمه للأيتام كمثال على التضحية الوطنية. بدأت أنساه في اليوم الذي لا يُنسى لما أخبرني جييرمو كانو أنه معه في مكتبه وعلى استعداد لتوقيع تعاقد ليحكي لنا مغامرته كاملة، شعرت بالإهانة:

– لم يعد سمكة ميتة بل متعفنة.

أول مـــرة والأولـــى التـــي أرفض فيها إجراء تحقيق للصحيفة وهو أداء لواجبـــي. اضطر جييرمو كانو إلى قبول الأمر الواقع واستقبل الغريق بنفسه دون أي شـــرح. حكي لي بعدها أنه بعد أن ودعه بدأ يفكر ولم يقنع نفسه بما فعل. عندها أمر البواب أن يرسل له الغريق مرة أخرى، واتصل بي بالتليفون لإعلاني بلا أدنى نقاش لأنه اشترى حقوق القصة كاملة.

لـــم تكـــن هذه المرة الأولى ولا يجب أن تكون الأخيرة التي يراهن فيها جيـــيرمو علـــى قضـــية خاسرة وتنتهي بالتتويج. حذرته مكتئباً ولكن بأفضل

طـــريقة ممكنة أنني سأجرى التحقيق فقط تنفيذاً لأوامر رب العمل ولكني لن أضع عليه توقيعي. ودون أن أفكر في هذا، كان هذا القرار عرضياً لكنه مفيد للتحقـــيق، إنــــه يجبرني على كتابته كراوٍ باسم البطل الذي حدثت له الوقائع، بطريقته في الحكي والتفكير، وموقعاً باسمه. وهكذا أحافظ على نفسي إزاء أي غريق آخر على أرض يابسة. أي، سيكون المونولوج الداخلي لمغامرة منفردة حــــرفاً حــــرفاً، كما فعلت طوال حياتي. كان القرار عجيباً، لأنني اكتشفت أن فيلاسكو كان ذكياً ولديه حساسية وتربية لا يمكن نسيانهما، وميل للسخرية في زمانه ومكانه، وبعد هذا كله، لحسن الحظ، كان محكوماً بشخصية متماسكة.

كــــان الحــــوار طويـــلاً، وتضمن أبسط النقاط، خلال ثلاثة أسابيع كاملة ومنهكة، قمت بالعمل عارفاً أنه ليس للنشر هكذا، ولكن ليكون مطبوخاً على يد آخرين: تحقيق. بدأت بعدم إيمان محاولاً أن يقع الغريق في تناقضات لأكتشف الحقـــائق التي يحاول إخفاءها، ولكن سرعان ما اكتشفت أنه لم يخف شيئاً. لم أحــــاول أن أجهـــده، كـــان التحقيق كما لو كان نزهة في سهل بين الزهور، وبحرية عليا في الاختيار. كان فيلاسكو يصل في موعده تماماً في الثالثة مساء بمكتبــــي فــــي التحرير. كنا نراجع النقاط السابقة ونستمر في الخط نفسه، كل فصل يحكيه لي كنت أكتبه ليلاً لينشر في المساء التالي. كان الأسهل والأفضل أن نكتـــب المغامـــرة كاملة ثم ننشرها بعد ذلك بعد مراجعتها والتأكد من كل معلوماتها. لكن لم يكن هناك وقت، فالموضوع كان يفقد طزاجته في كل دقيقة وأي خبر يحدث ضجيجاً يمكن أن يهزمه.

لــــم نستخدم تسجيلاً. كانت حديثة الاختراع وأفضلها كبيرة وثقيلة مثل آلة كاتبة، وشريطها المغناطيسي كان يلتف كالحلوى. وتفريغه بعد ذلك كان عملية معقدة، فنحن نعرف اليوم أن التسجيلات أدوات ميسرة للتذكر، ولكن لا يجب إهمــــال ملامــــح وجه المتحاور التي يمكنها أن تقول كثيراً بل أكثر مما يقوله صــــوته، وفــــي أحيان كثيرة تقول الملامح عكس الصوت. كان عليّ أن أقنع

بالطريقة العادية في كتابة المقالات في كراسات مدرسية، وبفضل هذه الطريقة أعتقد أنني لم أفقد ولا كلمة واحدة ولا شرح واحد خلال الحوار، أمكنني التعمق أفضل في كل خطوة. كانت الخطوتان الأوليان كانتا صعبتين، لأن الغريق كان يريد أن يحكي كله دفعة واحدة، إلا أنه سرعان ما تعلم نظام وهدف كل سؤال من أسئلتي. وخاصة بإحساسه كراوٍ وسهولة فهمه لنجارة المهنة.

لإعداد القارئ قبل أن نلقي به في المياه، قررنا أن نبدأ القصة من الأيام الأخيرة للبحار في موبايل. وأن لا ننهيها بوصوله إلى الأرض اليابسة، بل بلحظة وصوله إلى كارتاخينا واستقبال الجماهير له، وهي النقطة التي يمكن للقراء أن يتابعوها بطريقتهم بخيط الرواية والمعلومات المنشورة، كل هذا يعطينا أربعة عشر فصلاً تبقي ارتباط القراء بنا لمدة أسبوعين.

أول فصل نشر في ٥ أبريل ١٩٥٥. طبعة الاسبكتادور تحت إلحاح إعلان الإذاعة نفدت في ساعات قليلة، العقدة المتفجرة كانت في اليوم الثالث عندما بدأنا نكشف السبب الحقيقي وراء الكارثة، التي كانت طبقاً للرواية الرسمية عاصفة دون تحديد، وبحثاً عن تحديد أكثر طلبت من فيلاسكو أن يحكي لي كل التفاصيل، كان قد تعلم طريقتنا المشتركة التي أشعت في عينيه بمكر قبل أن يجيبني:

– المشكلة أنه لم تكن هناك عاصفة.

ولكن ما حدث –حدد– أنه كانت هناك رياح طوال عشرين ساعة مستمرة، وهي رياح معروفة في تلك المنطقة في هذا الفصل من السنة، وأن لم تكن في حسابات المسئولين عن الرحلة، كان البحارة قد تلقوا رواتب عدة أشهر متأخرة قبيل الإبحار مباشرة، فقرروا صرفها في الساعة الأخيرة بشراء جميع أنواع الأدوات المنزلية لأخذها للبيت. وهو شئ لم يكن في الحسبان، ولكنه لم يقلق أحداً عندما زادت على حدود المساحة المسموح به داخل

المركب فربطوها على السطح في صناديق كبيرة: ثلاجات وغسالات كهربائية ودفايـــات. حملة ممنوعة في سفينة عسكرية، وبكميات شغلت مساحات حيوية علـــى السطح، ربما تفكيرهم أنهم في رحلة لا تأخذ الطابع الرسمي ولأقل من أربعـــة أيام إبحاراً، وتحت ظروف جيدة حسب التقديرات المسبقة للمناخ، أدى إلى عدم الاهتمام بتطبيق القواعد المحكمة. كم من مرة فعلها آخرون وسيظل آخـــرون يفعلونها بعد ذلك؟. ولكن سوء الحظ بالنسبة للجميع هبوب رياح لا تكاد تكون أقوى من الرياح المعلنة وتحت شمس رائعة، أدت إلى ميل السفينة بأكـــثر مما كان متوقعاً فحطمت أربطة الحمولة سيئة الربط. ولولا أنها سفينة بهـــا بحـــارة مخضرمين لذهبت إلى القاع بلا رحمة. لكن ثمانية من حرَّاس الســـطح سقطوا من عليها. أي أن السبب الأكبر للحادث لم يكن العاصفة، كما تصـــر المصـــادر الرســـمية من أول يوم، بل طبقاً لما صرح به فيلاسكو في التحقـــيق: الحمولـــة الزائدة للأدوات المنزلية سيئة الربط على سطح المركب الحربي.

مظهـــر آخـــر ظل مختبئاً تحت الطاولة وهو ما نوع قوارب النجاة التي كانـــت في متناول الذين سقطوا إلى البحر، وفي أيها تمكن فيلاسكو من إنقاذ نفسه. من المفترض أن يكون على ظهر السفينة نوعين من قوارب النجاة التي سقطت معهم. كانت من الفلين والمطاط بطول ثلاثة أمتار ومتر ونصف المتر عرضاً، وفي منتصفها قاعدة تأمينية وكل متطلبات الحياة من ماء عذب وطعام ومجـــاديف وصـــندوق إســـعافات أولية وأدوات صيد وأدوات إبحار والكتاب المقدس. في تلك الحالة يمكن لعشرة أفراد أن يعيشوا على القارب طوال ثمانية أيام دون استخدام أدوات الصيد. ومع ذلك فإنه في المدمرة كالداس كانت هناك قـــوارب نجاة صغيرة لا توجد بها أية استعدادات من أي نوع. وطبقاً لرواية فيلاسكو فإن قاربه لم يكن به أي شئ. وظل السؤال الذي يسبح في الهواء: كم مرة تمكن الغرقى من النجاة بركوب قوارب لم تذهب بهم إلى أي مكان.

كانــت بــلا شك الأسباب الأكثر أهمية التي تأخرت الجهات الرسمية في شــرحها. إلى أن انتبهوا إلى أن روايتهم لا يمكن تصديقها، لأن باقي البحارة كــانوا في بيوتهم يستريحون ويقصون ما حدث كاملاً في كل البلاد. أصرت الحكومــة حــتى النهاية على الرواية الرسمية التي تتهم العاصفة بالتسبب في الكارثــة. والرقابة لم تصل إلى حد منع نشر الفصول الباقية. أما فيلاسكو من ناحيــته فقد واصل الغموض، ولم نعرف أبداً إلى أي درجة تعرض للضغوط حتى لا يكشف الحقائق، ولم يطلب منا ولا حاول منع كشفها.

بعــد الفصــل الخامس فكرنا أن نعيد نشر الفصول الأربعة الأولى تلبية للطلــب المــتزايد عليها، للقراء الذين يريدون تجميع الحكاية كلها. أما السيد جابريــيل كــانو – الذي لم نره في صالة التحرير في تلك الأيام العصيبة فقد هبط من برجه وذهب مباشرة إلى مكتبي، وسألني:

– قــل لــي شــيئاً، يا سميي، كم عدد الفصول التي ستنشرها في حكاية الغريق؟.

كــنا نعد الفصل السابع عندما أكل فيلاسكو بطاقة زيارة كطعام وحيد بين يديــه، ولم يتمكن من مضغها، أي تبقى لنا سبعة فصول أخرى. أُصيب السيد جابرييل بالذعر. ورد بعنف:

– لا يا سميي، لا، يجب أن تكون على الأقل في خمسين فصلاً.

قدمــت له مبرراتــي، لكن مبرراته تعتمد على أن توزيع الصحيفة على وشــك التضــاعف. وطــبقاً لحساباته يمكنها أن تصل إلى رقم لم تصل إليه الصــحافة الوطنــية من قبل. تم عقد اجتماع عاجل لهيئة التحرير في صالة الاجتماعات، وقاموا بدراسة الجوانب الفنية والاقتصادية والصحافية، وتوصلوا إلــى اتفاق أن يكون العدد المقبول من عشرين حلقة. أي: ست حلقات أخرى أكثر من التي كان متفقاً عليها.

رغــم أن توقيعــي لم يكن يظهر في الفصول التي تم نشرها، فإن طريقة

العمـــل انتشـــرت في الخارج. وفي ليلة ذهبت للقيام بواجبي كناقد سينمائي، وكانت تجري في مدخل المسرح نقاشات حادة حول حكاية الغريق، ومعظمهم كـــانوا مـــن الأصـــدقاء الذيـــن كنا نتبادل معاً الآراء في المقاهي القريبة بعد العـــروض الســـينمائية. وقد ساعدتني آرائهم كثيراً لإيضاح آرائي في المقال الأسبوعي.

من بين تلك الاستثناءات كانت إحداها من رجل ناضج ورصين، بمعطف جميل من وبر الجمل وقبعة طويلة، تابعني إلى مسافة قريبة من المسرح عندما كنت وحدي في طريقي إلى الصحيفة، كانت ترافقه سيدة ليست أقل إحكاماً في ملابســـها مـــنه، خلـــع قبعته ليحييني، وقدم لي نفسه باسم لا اذكره، وقال لي مباشـــرة إنه لا يستطيع أن يوافقني على تحقيق الغريق، لأنني ألعب فيه لعبة الشيوعيين. شرحت له ببساطة أنني لم أكن أكثر من ناقل للحكاية التي حكاها بطلهـــا نفسه. لكنه كانت لديه أفكاره الخاصة، ويعتقد أن فيلاسكو جاسوس في القوات البحرية يعمل لحساب الاتحاد السوفييتي. انتبهت لحظتها إلى أنني كنت أتحـــدث مع ضابط كبير بالقوات المسلحة أو البحرية فتشجعت لتقديم إيضاح أكبر، لكن يبدو أنه أراد فقط أن يقول لي هذا، فقال لي:

– أنا لا أعرف إن كنت حضرتك منتبهاً إلى هذا أم لا، لكن أياً كان وعيك بذلك فإنك تسئ إلى الوطن لحساب الشيوعيين.

انزعجت زوجته الجميلة وحاولت سحبه من ذراعه وهي ترجوه بصوت خفيض: "من فضلك روخيليو". أنهى حواره بالطريقة نفسها التي بدأها بها:

– صـــدقني، مـــن فضلك، فقط إسمح لي أن أقول لك هذا للإعجاب الذي أشعر به تجاه ما تكتبه.

مد يده ليحييني من جديد، وترك نفسه لدفع زوجته له، ومرافقه مذعوراً، لم يفلح في تذكر أنه كان عليه أن يودعني.

كانت هذه أول سلسلة من الحوادث جعلتنا نفكر بجدية في أخطار الشارع،

حـــدث فـــي كانتين فقير يقع خلف الصحيفة يقدم خدماته للعمال فجراً، حاول مجهولان الاعتداء المجاني على جوثالو جونثالث عندما كان يحتسي هناك آخر قهـــوة له بالليل. لم يفهم أحد الأسباب التي يمكن أن تكون ضد الرجل الأكثر هدوءاً في العالم، عدا أنهما خلطا بينه وبيني بسبب "ج" في اسمه "جوج". على أي حـــال فـــإن أمن الصحيفة حذرني ألا أخرج ليلاً في المدينة التي أصبحت تـــزداد خطورتها. بالنسبة لي، فإنني كنت على العكس مطمئناً إلى درجة أنني كنت أذهب إلى شقتي سيراً على الأقدام عندما كنت أنهي عملي.

في فجر أحد تلك الأيام رأيت أن ساعتي قد حانت بسبب المطر الزجاجي الذي انهمر عليّ، نتيجة طوبة ألقيت من الشارع على نافذة غرفة نومي. كان أليخاندرو أوبريجون، ضاع منه مفتاح شقته ولم يعثر على صديق مستيقظ ولا مكـــان فـــي فندق. وبعد أن تعب من البحث عن مكان ينام فيه، ودق الجرس العـــاطل قرر حل المسألة باستخدام طوبة من مبنى قريب تحت البناء. لم يكد يحيينـــي عـــندما فتحت له الباب حتى استلقى على الأرض العارية ونام حتى منتصف النهار.

الـــتدافع لشراء الصحيفة على أبواب الاسبكتادور قبل طرحها في الشارع كـــان فـــي تـــزايد. فقد كان عمال المركز التجاري يتأخرون لشراء الصحيفة وقراءة فصل حكاية الغريق أثناء العودة في الأتوبيس. أعتقد أن اهتمام القراء بدأ لأسباب إنسانية، وتابع الحكاية لأسباب أدبية وأخيراً لأسباب سياسية، ولكنه كـــان مرتـــبطاً دائماً بقوة التوتر الداخلي للحكاية. قص عليّ فيلاسكو فصولاً اشـــتبهت في أنه اخترعها هو شخصياً، تحتوي على رموز عاطفية، مثل أول نـــورس طـــار حوله ولم يرغب في مغادرته، أثناء حكيه له كان يتمتع بجمال ســـينمائي. سألني صديق بحار كيف استطعت أن أتعرف على أسرار البحر، أجبـــته أنني لم أفعل شيئاً سوى أن أكتب ما قصه عليّ فيلاسكو حرفياً. وعند نقطة محددة لم يكن لدي ما أضيفه إلى الحكاية.

كانـــت قيادة البحرية غاضبة. قبيل انتهاء الحلقات بقليل، أرسلوا للصحيفة رســـالة احـــتجاج لأننا تناولنا المأساة طبقاً رؤية متوسطية وأن ما حدث كان يمكـــنه أن يحدث في أي مكان ولأي وحدة بحرية. "رغم الحداد والألم الناتج عن فقدنا لسبعة بيوت كولومبية محترمة وكل رجال البحرية، لم يتوقف الكاتب أمامهـــا، ليقدمها من خلال استخدام كلمات وتقنيات غير مقبولة وغير منطقية ونقـــلاً عـــن فم البحار الذي نحترم إنقاذ حياته"، ولهذه الأسباب فإن البحرية تطالـــب بتدخل مكتب الاستعلامات والصحافة برئاسة الجمهورية لتصحيح – بمســـاعدة ضـــابط بحري– ما سيتم نشره مستقبلاً عن الحادث، واستطعنا أن نبدي عدم اهتمام إلى الأسبوع التالي.

فـــي نشـــر الـــنص النهائي بالكامل، طلبنا من الغريق أن يساعدنا بقائمة وعناويـــن زملائـــه الذيـــن يمـــتلكون كاميرات فوتوغرافية، أرسل هؤلاء لنا مجموعة من الصور الملتقطة خلال الرحلة. كان فيها من جميع الأشياء، لكن معظمهـــا كانـــت ملـــتقطة لمجموعات على السطح، وفي الخلفية كانت تبدو صناديق الأدوات الكهربائية المنزلية – ثلاجات ودفايات وغسالات– بماركاتها بـــارزة. ضربة الحظ هذه كانت كافية لتكذيب الرواية الرسمية. كان رد فعل الحكومة سريعاً ونهائياً، وتعدى الملحق كل التوقعات في التوزيع. لكن جييرمو كانو وخوسيه سالجار كان عندهما سؤال واحد:

- والآن ماذا سنفعل؟.

فـــي تلك اللحظة، في نشوة المجد، لم تكن لدينا إجابة. فكل الموضوعات كانت تبدو لنا لا قيمة لها.

بعـــد خمســـة عشـــر عاماً من نشر الحكاية في الاسبكتادور، نشرتها دار توســـكيت ببرشلونة في كتاب بغلاف ذهبي بيع كما لو كان مخصصاً للأكل. وتحت شعور الامتنان تجاه البحار البطل كتبت في نهاية المقدمة "هناك كتب لا تُعتـــبر لمن كتبوها ولكن لمن عاناها وهذا الكتاب واحد منها، وحقوق المؤلف

نتـيجة لذلك ستكون لمن يستحقها: مواطني المجهول الذي عاش هذه المأساة طوال عشرة أيام بلا طعام ولا شراب في قارب ليكون هذا الكتاب ممكناً".

لـم تكـن جملة خالية من المعنى، فقد تم دفع حقوق المؤلف بالكامل إلى لويـس ألـيخاندرو فيلاسكو، من دار النشر توسكيت، بتعليمات مني، طوال أربعة عشر عاماً. إلى أن قام المحامي جبيرمو ثيا فرنانديث في بوجوتا بإقناع البحار بأن حقوق المؤلف من حقه بقوة القانون، عارفاً أنها ليست له، بل كانت له بقرار مني تحية لبطولته، وموهبته في الحكي والصداقة.

تقـدم بقضـية ضـدي في المحكمة رقم ٢٢ المدنية في بوجوتا، محاميَّ الخاص وصديقي الفونسو جوميث مينديث أمر دار نشر توسكيت برفع المقطع الأخـير من المقدمة في الطبعات التالية، ولا تدفع أي سنتيم واحد حتى تقرر العدالـة. وهـذا مـا حـدث، بعـد حوارات ونقاشات طويلة، انتهت الوثائق والشهادات الفنية إلى أن تقوم المحكمة بإصدار حكمها بأن المؤلف الوحيد لهذا العمل هو أنا، ورفضت المطالب التي تقدم بها محامي فيلاسكو. وبالتالي فإن مـا حصـل عليه من دفعات سابقة من حقوق النشر كانت تنازلاً مني بقرار شخصي، وليست اعترافاً مني بأن البحار كان المساعد لي في التأليف. وحقوق النشر من ذلك الوقت، بقرار خاص مني، ذهبت إلى مؤسسة خيرية محترمة.

لم نستطع الحصول على حكاية مثل تلك، لأنها لم تكن من ذلك النوع الذي يمكـن كتابـته علـى الورق. ولكن تكتبها الحياة، ودائماً ما تكون من خلال ضـربات حظ، ونتعلمها نحن فيما بعد. عندما حاولنا أن نكتب السيرة الذاتية لبطل الدراجات الكولومبي الشهير رامون هويوس، الذي توج خلال هذا العام كـبطل وطني للمرة الثالثة؛ طرحنا قصته بالطريقة التي تعلمناها خلال نشر قصـة الـبحار، وزدنـا عدد حلقاتها حتى تسعة عشرة فصلاً، وقبل أن ننتبه اكتشـفنا أن الناس تفضل رؤية رامون هويوس يصعد الجبل ويصل أولاً إلى قمة النهاية، ولا تريد أن تراه في حياته الواقعية.

ظهــر شعاع من الأمل في أمسية اتصل بي فيها خوسيه سالجار تليفونياً لاجــتمع به فوراً في بار فندق كونتننتال. كان هناك صديق قديم وجاد قدم له مــرافقاً له بشعر أبيض كان يبدو مضيئاً حتى في ظلمة البار، صديق سالجار كان رجل أعمال معروف وقدم له مهندس مناجم كان يقوم بحفريات في أرض بور قريبة من الاسبكتادور، بحثاً عن كنز أسطوري كان ملكا للجنرال سيمون بوليفار. رفيقه – صديق جداً لسالجار وكان صديقي أيضاً منذ ذلك الوقت– أكد لنا الحقيقة التاريخية، كانت تثير الاشتباه بسبب بساطتها: عندما كان "المحرر" يستعد لمواصلة رحلته الأخيرة إلى كارتاخينا، مهزوماً ومريضاً، افترضوا أنه فضَّــل ألا يــأخذ معه كنزه الشخصي الذي جمعه طوال سنوات خلال حروبه لتكون احتياطه خلال أيام الشيخوخة. وعندما كان يستعد لمواصلة رحلته – لا يعــرف أحــد إلى كاراكاس أم إلى أوروبا– احتاط بتركه مختبئاً في بوجوتا، تحت حماية نظام من الرموز الإسبرطية كانت معروفة في زمنه، ليعثر عليه فيما بعد عندما يحتاجه، ومن أي مكان من العالم. سجلت هذه الأنباء، بجاذبية لا تقهر عندما كنت أكتب رواية "الجنرال في مصيدته"، التي كان يمكن لحكاية الكــنز أن تصــبح جزءاً أساسياً منها، لكنني لم أحصل على معلومات كافية لــتكون قابلــة للتصــديق، واعتقدت أنها لا تصلح لطرحها كمادة مؤلفة. تلك الثروة الأسطورية، التي لم يحصل عليها صاحبها أبداً، كانت التي كان يبحثها عنها المهندس بكل حماس. لم أفهم لماذا كشفوا لنا عن الحكاية، إلى أن شرح لــي ســالجار أن صــديقه المعجب بحكاية الغريق، أراد أن يضعني معه في الصــورة إلــى أن يتمكــنوا من الحصول على ما يريدون وعندها يمكننا أن ننشرها بالصورة نفسها.

ذهبــنا إلــى مكــان الحفــر، كانت الأرض الخالية الوحيدة غرب حديقة الصــحافيين وقريــبة جداً من شقتي الجديدة، وشرح لنا الصديق على خريطة كولونيالــية علاقــات الكــنز من خلال معلومات واقعية عن جبال مونسرات

وجوادالوبي. كانت الحكاية رائعة والكنز سيكون خبراً خاصاً تماماً كالغريق، بل وسيكون له صدى عالمي.

واصــلنا زيــارة المكــان فــي مرات عديدة لنكون دائماً على علم بآخر الــتطورات. كــنا نســتمع إلــى المهندس خلال تناول كؤوس الأجواردينتي والليمون، فكنا نشعر في كل مرة بالابتعاد عن المعجزة إلى درجة أنه مر وقت طويل نزع عنا الحلم بالعثور عليه. الشيء الوحيد الذي اشتبهنا فيه فيما بعد أن حكاية الكنز لم تكن سوى تمويهاً للحصول على تصريح للحفر في منجم لشيء له قيمة ثمينة في وسط العاصمة، وربما كان تمويهاً أيضاً لإبعاد الأنظار عن كنز الجنرال.

لــم تكن أياماً تصلح للأحلام، منذ حكاية الغريق نصحوني أن أبقى خارج كولومبــيا لــبعض الوقــت إلى أن تنقطع التهديدات بالموت، حقيقية كانت أم خيالية. والتي كانت تصلنا بوسائل عديدة، فكان أول ما فكرت فيه عندما سألني لويس جابرييل كانو عن الذي أفكر في عمله الأربعاء المقبل. وبما أنه لم تكن لــدي أي خطـــة، فقد قال لي بطريقته الخاصة المعتاد عليها أن أعد أوراقي للســفر كمــندوب خـــاص للصــحيفة لحضـــور مؤتمر الأربعة الكبار الذين سيجتمعون الأسبوع التالي في جنيف.

أول شـــئ فعلته هو الاتصال تليفونياً بأمي. واعتبرت أن الخبر كبير إلى درجـــة أنهـــا سألتني إن كنت أشير إلى مزرعة اسمها جنيف، فقلت لها: "إنها مديـــنة فـــي سويســـرا"، ودون أن تصمت، وبكل رصانة مؤكدة لتتفهم أخبار أبنائها، سألتني إلى متى سأبقى هناك، أجبتها أنني قد أتأخر حتى أسبوعين. في الحقـــيقة كنت سأذهب فقط لمدة الأربعة أيام التي يستمر خلالها الاجتماع. إلا أنـــه لأســـباب ليست لها علاقة برغبتي الشخصية، لم أبق هناك أسبوعين بل ثلاث سنوات تقريباً. لأنه حينها كنت أنا من يحتاج إلى قارب الإنقاذ، وإن كان فقط لمجرد الحصول على وجبة طعام كل يوم. لكني حرصت جيداً ألا تعرف

العائلة أي شئ، أحدهم أراد أن يثير قلق أمي في إحدى المرات بقوله إن ابنها يعيش في باريس كأمير بعد أن خدعها بقوله إنه كان سيقضي هناك أسبوعين فقط، فقالت له بابتسامة بريئة:

-جابيتو لا يخدع أحداً، لكن المسألة أنه حتى الله يرغب أحياناً أن يحول الأسابيع إلى عامين.

لم أنتبه أبداً إلى أنني كنت بلا هوية واقعية مثل كل الملايين من المهاجرين هرباً من العنف. لم أدل بصوتي أبداً لأنني لم أكن أمتلك بطاقة. وفي بارانكيا كنت معروفاً ببطاقتي كمحرر في الهيرالدو، التي يوجد بها تاريخ ميلاد مزور هرباً من أداء الخدمة العسكرية، مما يعني أنني كنت هارباً من تلك الخدمة منذ عامين. في حالات الحاجة العاجلة كنت أقدم نفسي من خلال بطاقة قدمتها لي عاملة التلغراف في ثيباكيريا، ووضعني صديق مهتم في اتصال مع مدير لشركة سياحة وعد أن يسفرني في الطائرة في الموعد المحدد، من خلال دفع مبلغ مائتي دولار وتوقيعي على عشر ورقات بيضاء تحمل خاتماً رسمياً. علمت بعدها أنها لعبة متداخلة، وأن رصيد حساباتي في البنك كانت به كمية مذهلة من النقود لم يكن لدي الوقت لصرفها بسبب عملي كمحرر. المصروف الوحيد المعروف كان قارب النجاة الشهري الذي كنت أبعث به لإنقاذ العائلة.

قبيل السفر، نادى مدير شركة السفر أمام اسمي مع كل ورقة يضعها على المكتب حتى لا يخطئها: بطاقة الانتخاب، أداء الخدمة العسكرية، أوراق المصالحة مع الضرائب، وشهادات التطعيم ضد الجدري والحمى الصفراء. وفي النهاية طلب مني مبلغاً إضافياً للفتى الذي طعموه بدلاً مني مرتين، وباسمي، وهو يتم تطعيمه كل يوم لحساب زبائن المكتب.

سافرت إلى جنيف في وقت ضيق جداً، لكي أشهد مؤتمر ايزنهاور وبولجانين وإيدن وفوري، دون لغة أخرى غير الإسبانية وبطاقة لفندق من

الدرجـــة الثالـــثة، ولكننـــي كنت معتمداً على حساب مصرفي. كانت العودة محجوزة بعد خمسة أسابيع، ولكن لا أعرف السبب الغريب الذي جعلني أوزع كـــل شـــئ في شقتي بين أصدقائي، بما فيها مكتبتي السينمائية الرائعة، التي جمعتها خلال عامين بمساعدة ألفارو ثيبيدا ولويس بيثينس.

جـــاء الشـــاعر خورخي جايتان دوران ليودعني عندما كنت أمزق بعض الأوراق، فـــبدأ يبحث في سلة المهملات ربما يعثر على شئ يصلح للنشر في مجلـــته، أمكـــنه إنقاذ بعض الأوراق التي قرأها بعد ضمها إلى بعضها على ســـطح الطاولـــة. وسألني من أين خرجت هذه الأوراق، أخبرته أنها من بقايا روايـــة الورقـــة الجافـــة وحذرتـــه مـــن أنهـــا منشورة من قبل في كرونيكا والاســـبكتادور، لكـــنه لم يأبه بشيء. ولا أذكر أنني صرحت له بنشرها أثناء هبوطنا في المصعد. قام جايتان دوران بنشرها في العدد التالي بمجلته "ميتو".

كـــان الوداع قبلها في بيت جيبرمو كانو، عاصفاً إلى درجة أنني وصلت إلى المطار بعد إقلاع طائرة كارتاخينا، حيث كنت أريد أن أنام في تلك الليلة هـــناك لـــوداع العائلـــة. ولحسن الحظ تمكنت من اللحاق بطائرة أخرى عند منتصـــف الـــنهار. قمت بعمل طيب، لأن المناخ العائلي تحوّل منذ آخر مرة، وأبـــوي وأشـــقائي كانوا يشعرون أنهم قادرون على الحياة بدون قارب الإنقاذ الذي كنت أرسله لهم والذي سأكون في حاجة إليه في أوروبا.

ســـافرت إلى بارانكيا براً في اليوم التالي، مبكراً جداً لأستقل الطائرة إلى بـــاريس في الثانية مساء. التقيت – لاثيديس في محطة أتوبيسات كارتاخينا – بواب ناطحات السحاب الذي لا يُنسى. والذي لم أكن قد رأيته منذ ذلك الوقت. قفـــز علـــيّ في عناق حقيقي والدموع في عينيه، دون أن يعرف ما يجب أن يقولـــه ولا كـــيف يتعامل معي. وأخيراً بعد تبادل العناق، لأن الأتوبيس الذي سيستقله كان قد وصل لحظة خروج الأتوبيس الذي أسافر فيه. قال لي بعاطفية اخترقت روحي:

– ما لا أفهمه، يا سيد جابرييل، لماذا لم تقل أبداً من أنت؟.

أجبته أكثر إحساساً بالألم منه:

– أي عزيــزي لاثــيديس لم أستطع أن أقول لك شيئاً، لأنني لا زلت لا اعرف من أكون.

بعدها بساعات في التاكسي الذي أقلني إلى المطار من بارانكيا تحت سماء شفافة أكثر من أي مكان آخر، انتبهت إلى أنني كنت أمر في شارع العشرين مــن يولــيو. ومن خلال لحظات قليلة اكتشفت أنه يمثل جزءاً من حياتي منذ خمــس سنوات، نظرت باتجاه بيت ميرثيدس بارتشا، كانت هناك، كما التمثال تجلــس أمام الباب نحيلة وبعيدة، بملابس موضة السنة، بفستان أخضر مطرز بالذهبــي، والشعر مقصوص على هيئة جناح السنونو وعلى هيئتها شكل من ينتظر شخصاً لا يأتي. لم أتمكن من السيطرة على شعوري بأنني سأفقدها إلى الأبد في يوم خميس من يوليو في ساعة مبكرة، وفي لحظات فكرت في إيقاف التاكســي لكي أودعها، لكنني فضلت ألا أتحدى قدراً غير مأمون كقدري مرة أخرى.

بيــنما كانت الطائرة تطير كنت لا أزال تحت تأنيب الضمير لعدم اتخاذي لقراري، كانت – وقتها – هناك عادة وضع أوراق في ظهر الكرسي الأمامي وهو شئ يمكنه أن يساعد رومانتيكياً على كتابة رسالة. ورقة بحواشي مذهبة وغلافهــا من الورق نفسه.. من ورق التيل الوردي، او الأصفر أو الأزرق، أحــياناً مــا يكون معطراً. خلال رحلاتي السابقة القليلة أستخدم هذه الأوراق لكتابة قصائد وداع كنت أحولها إلى حمام ورقي أطيره في الهواء عند نزولي من الطائرة. أخذت واحدة زرقاء سماوي، وكتبت أول رسالة رسمية لمرثيدس الجالســة أمــام باب بيتها في السابعة صباحاً، بفستانها الأخضر كعروس بلا عريس وشعرها كسنونو غير واثق من نفسه، دون أن تنتبه لمن ارتدت فستانها مع طلوع النهار. كتبتها في مقالات أخرى للعب كنت أرتجلها بالصدفة، وكنت

أتلقى منها فقط إجابات شفوية، ودائماً ما تكون هروبية عندما كنا نلتقي صدفة. في تلك الرسالة لم أكن أريد أن تكون أكثر من خمسة أسطر أُبلغها فيها رسمياً برحلتـــي. مـــع ذلك أضفت إليها في النهاية ملاحظة أعمت عيني كالبرق في منتصـــف النهار، في لحظة توقيعها قبل شهر: "إذا لم أتلقى إجابتك على هذه الرســـالة قبل مرور شهر سأبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد". سمحت لنفسي بوقت للتفكير، مرة أخرى، قبل وضع الرسالة في الثانية صباحاً في الصندوق الوحيد بمطار مونتيجو بي، كان ذلك صباح الجمعة. يوم الخميس من الأسبوع التالـــي، وعندما دخلت الفندق في جنيف بعد يوم ضائع بين الخلافات الدولية، وجدت إجابتها.

